اللغز الأنثوي

بيتي فريدان

ترجمة:

عبد الله بديع فاضل

The Feminine Mystique

Betty Friedan



اللغز الأنثوي

تأليف

بيتي فريدان

ترجمة

عبدالله بديع فاضل



اللغز الأنـثوي

الكتاب: اللغز الأنثوي

العنوان الأصلي للكتاب: The Feminine Mystique

تأليف: بيتي فريدان Betty Friedan

عدد النسخ 1000 نسخة

عدد الصفحات: 560

الإخراج الفني والغلاف: مناف عزام

الطبعة الأولى 2014

ISPN: 978-9933-9145-0-9

الناشر



العنوان البريدي - دمشق:

أمية، ص. ب. 7634

دمشق، سوريا

الموقع الإلكتروني: http://www.musawasyr.org

البريد الإلكتروني: info@musawasyr.org

عن المؤلفة والكتاب

بيتي فريدان كاتبة أمريكية ومناضلة نسوية بارزة. وُلدت في الولايات المتحدة عام 1921. وهي تنتمي إلى الجيل الذي مثّل الموجة الثانية في الحركة النسوية الأمريكية.

أصدرت في عام 1963 كتابها المعروف على نطاق واسع The Feminine Mystique، والذي نقدّمه مترجمًا إلى العربية هنا بعنوان **اللغز الأنثوي**، وهو كتاب شكّل علامة فارقة في حياة بيتي فريدان وفي الحركة النسوية الأمريكية عمومًا. وكانت قبل ذلك تكتب مقالات لمجلات نسائية متعددة.

لعبت بيتي فريدان دورًا رئيسيًا في تأسيس المنظمة الوطنية للنساء عام 1966، وانتخبت رئيسة لها. وكان هدفها إشراك النساء في الحياة العامة على أساس المشاركة المتساوية مع الرجال في أمور المجتمع. وفي عام 1970 قامت بتنظيم حملة من أجل المساواة تُوّجت بإضراب النساء من أجل المساواة يوم 26 آب. كما كانت نصيرة قوية للتعديل الدستوري الذي نص على الحقوق المتساوية. وكانت كذلك من الناشطات من أجل تمتع النساء بحق الإجهاض.

لكن بيتي فريدان، على الرغم من نضالها من أجل المساواة بين الجنسين ومن أجل حق الإجهاض، وقفت ضد المجموعات والأجنحة المتطرفة في الحركة النسوية. كانت بيتي فريدان في شبابها ناشطة ماركسية، وهو ما طبع حياتها ونشاطها برفض الظلم ورفض التحيّز ورفض الحرب. كما طوّرت مواقف نقدية عميقة للكثير من الأفكار الشائعة في الأوساط الاجتماعية والأكاديمية، ولاسيما نقدها لفرويد ونظريته عن الجنس.

جاءت الفكرة الأولى لكتابها **اللغز الأنثوي** من استبيان أجرته على زميلاتها في الدراسة، حاولت أن تعرف من خلاله مصيرهن بعد الدراسة. لكن هذا الاستبيان قادها إلى بحث دام خمس سنوات وانتهى بإصدار هذا الكتاب. تناولت فيه تحوّل الكثير من النساء، بما في ذلك أولئك الحاصلات على تعليم عالٍ، إلى مجرّد ربات منازل-أمهات متخليات عن أية طموحات أو تطلعات شخصية.

تزوجت بيتي فريدان كارل فريدان في العام 1947، وأنجبا ثلاثة أولاد، لكن زواجهما انتهى بالطلاق في العام 1969، بطلب منها، لأنها على حد قولها لم تعد تستطيع «الاستمرار في عيش حياتي الفُصامية: أقود النساء الأخريات إلى الخروج من البريّة، فيما أتمسّك بزواج دمّر احترامي لذاتي».

كتبت خلال حياتها المهنية، إضافة إلى الكتاب الذي بين أيدينا، خمسة كتب، هي:

- It Changed My Life (1976)
- The Second Stage (1981)
- The Fountain of Age (1993)
- Beyond Gender (1997)
- Life So Far (2000)

من حيث الدراسة، تخرّجت بيتي فريدان في جامعة سميث في العام 1942، وتابعت دراساتها العليا في علم النفس في جامعة كاليفورنيا في بيركلي.

تُوفيت بيتي فريدان في العام 2006، بعد تاريخ حافل ومؤثر جدًا، جعل مواطنتها الأمريكية باربارا سيمان تكتب: «بيتي فريدان للنساء مثل مارتن لوثر للسود».

والكتاب، على الرغم من تاريخ صدوره القديم نسبيًا، وعلى الرغم من صدوره في مجتمع آخر، فإنه يتمتع براهنية كبيرة؛ فالكثير من الأفكار الواردة فيه تنطبق على وضع النساء في مجتمعاتنا، وهي أيضًا تسلّط الضوء على بعض من المشاكل التي تحدث داخل الأسرة ذاتها. لذا يمكننا القول، وبكل صدق، هذا الكتاب يستحق القراءة من قبل كل رجل وامرأة.

عبد الله فاضل

حول ترجمة الكتاب

حاولنا في ترجمة هذا الكتاب تقديم نسخة باللغة العربية تجمع بين الأمانة للنص الأصلي وسلاسة القراءة باللغة العربية، محافظين قدر الإمكان على أسلوب الكاتبة. وحتى نحقق ذلك اتّبعنا مجموعة من المبادئ الهادية يمكن تلخيصها بالآتي:

1- قام المترجم بالترجمة الأولية للكتاب، ومن ثم قامت الدكتورة مية الرحبي، بوصفها ناشرة الكتاب وخبيرة في قضايا المرأة، بمراجعة الترجمة الأولية مبدية مجموعة من الملاحظات من شأنها أن تجعل الكتاب أكثر وصولًا إلى القارئ العربي، ومن ثم قام المترجم بأخذ تلك الملاحظات في الحسبان في الصياغة النهائية، ويبقى المترجم مسؤولًا تمامًا عن مستوى الترجمة.

2- وضعنا في بداية الكتاب مقدمة موجزة تعرّف بالكاتبة ونشاطاتها وإسهاماتها في الحركة النسوية كتابةً وتنظيمًا.

3- يحتوي الكتاب على كثير من المصطلحات وأسماء الشخصيات والأحداث والأماكن وغيرها مما قد لا يكون معروفًا على نطاق واسع لقارئ العربية، فوضعنا إلى جانب تلك المصطلحات والتسميات مقابلاتها الإنكليزية بين قوسين عند ورودها لأول مرة.

4- قمنا بوضع هامش في أسفل الصفحة لشرح بعض الأفكار أو الأحداث أو المصطلحات أو الإشارات التي قد لا تكون معروفة جدًا في العربية، وأشرنا إلى الهوامش التي من وضع المترجم، في حين أبقينا هوامش الكتاب الأصلية دون إشارة.

5- في حال وجود إشارة أو استشهاد بكتاب أو مؤلف مترجم سابقًا إلى العربية وضعنا العنوان الأصلي للكتاب مع الترجمة الشائعة بالعربية. وكذا الحال بالنسبة للأسماء.

6- عند إيراد استشهادات أو اقتباسات كبيرة أبرزناها بتغيير تنسيق الخط المُستخدَم.

نرجو في النهاية أن نكون قد وفقنا في تقديم ترجمة جيدة لكتاب يعتبر مرجعًا في الأدبيات النسوية.

الإهداء

إلى جميع النساء الجديدات
والرجال الجدد

مدخل إلى طبعة الذكرى السنوية التاسعة

ها قد مرّ عقد على نشر اللغز الأنثوي، ولم أكن مدركة، حتى عندما بدأتُ كتابة الكتاب، لمشكلة المرأة. فبينما كنت محبوسةً، كما كان حالنا جميعًا، في ذلك اللغز الذي أبقانا سلبيات ومتفرقات وأبعدنا عن رؤية مشاكلنا وإمكانياتنا الحقيقية، أخذت أفكر، كغيري من النساء، أنّ هناك خطأً ما فيّ لأنني لم أكن أشعر بالنشوة وأنا ألمّع أرضية المطبخ. كنتُ منحرفةً، أكتب ذلك الكتاب-لا ألمّع أية أرضية، وهذا ما يجب أن أعترف به، في مخاض إنهائه في عام 1963.

كانت كل واحدة منّا، قبل عشر سنوات، ستظن نفسها منحرفة، إذا لم تعرف ذلك التحقق الخفي الباعث على النشوة، الذي وعدت به الإعلانات التجارية، وهي تقوم بتلميع أرضية المطبخ. مهما كان مقدار استمتاعنا بأن نكون أم جونيور أو جيني أو إميلي، أو زوجة بي جي، فقد كنا ببساطة نعتبر منحرفات وعصابيات، إذا كانت لدينا فوق ذلك طموحاتنا وأفكارنا عن أنفسنا كأشخاص لنا حقوقنا، وكنّا نعترف بخطيئتنا أو عُصابنا لكاهن أو محلّل نفسي، ونحاول بجدّ التكيّف. لم نكن نعترف، بعضنا لبعض، بما قد يراودنا من شعور بأنّ الحياة يجب أن تنطوي على ما هو أكثر من فطائر زبدة الفستق مع الأولاد، أو بأنّ وضع مسحوق الغسيل في الغسالة لا يجعلنا

نعيش ليلة عرسنا من جديد، أو بأنّ خروج الجوارب أو القمصان ناصعة البياض ليس تجربة خارقة، حتى إذا كنا لا نشعر بالذنب حيال الأبيض الباهت.

كان بعضنا (تقريبًا نصف نساء الولايات المتحدة في عام 1963) يرتكب الخطيئة التي لا تغتفر في العمل خارج المنزل للمساعدة في دفع رهن المنزل أو مصاريف البيت. أولاء اللواتي كنّ يشعرن بالذنب أيضًا نتيجة خيانة أنوثتهن وتقويض ذكورة أزواجهن وإهمال أطفالهن بالتجرؤ على العمل مقابل المال عمومًا، بغض النظر عن مدى الحاجة إليه، لم يتمكنَّ من الاعتراف، حتى لأنفسهن، أنهن كنّ مستاءات من عدم حصولهن إلا على نصف ما يحصل عليه الرجل لقاء القيام بالعمل ذاته، أو لتجاهلهن عند الترقية، أو كتابة ورقة البحث التي يحصل، هو، بفضلها على الدرجة والترفيع.

كنت وإحدى جاراتي من سكان الضواحي، واسمها جيرتي، نتناول القهوة عندما جاء موظف التعداد العام في الوقت الذي كنت أكتب فيه **اللغز الأنثوي**. سألني الموظف عن المهنة فأجبته: «ربة منزل». هزّت جيرتي، التي سبق وشجعتني على جهودي في كتابة المقالات وبيعها للصحف، رأسها بحزن، وقالت: «يجب أن تأخذي نفسك بمزيد من الجدية». تردّدتُ قليلًا، ثمّ قلت: «أنا في الحقيقة كاتبة». لكنني بالطبع كنت حينها، ومازلت، ربة منزل مَثَلي في ذلك مَثَل جميع النساء المتزوجات في أمريكا، بغض النظر عن أي أمر آخر نقوم به بين التاسعة صباحًا والخامسة بعد الظهر. وبالطبع لم تكتب النساء العازبات «ربة منزل»، عندما جاء موظف التعداد العام، ولكن حتى هنا كان المجتمع أقلّ اهتمامًا بما كانت تلك النساء يقمن به كأشخاص في العالم منه بسؤال: كيف تكون فتاة لطيفة مثلك غير متزوجة؟ وبالتالي، لم يكن هناك تشجيع لهنّ أيضًا على أخذ أنفسهن بجدية.

يبدو أن كتابتي هذا الكتاب كانت حدثًا متقلقلًا، لكن من جهة أخرى، لقد أعدّتني حياتي برمتها لكتابته. لقد اجتمعت جميع الأجزاء معًا في

النهاية. ففي عام 1957، وقد راودني إحساس غريب بالملل من كتابة مقالات حول الإرضاع الطبيعي وما شابه لمجلات ريدبوك (Redbook) وليديز هوم جورنال (Ladies' Home Journal)، خصّصت مقدارًا كبيرًا من الوقت لاستبيان عن زميلاتي خريجات جامعة سميث (Smith) لصف عام 1942، معتقدةً أنني كنت سأدحض الفكرة الراهنة بأنّ التعليم لم يكن ملائمًا لنا جدًّا نتيجة دورنا كنساء. لكنّ الاستبيان أثار من الأسئلة أكثر مما قدّم لي من الأجوبة، فالتعليم لم يهيئنا بالضبط للدور الذي كانت النساء يسعين إلى القيام به، على ما يبدو. فنشأ شكٌّ حول ما إذا كان الخطأ في التعليم أم في الدور. كلفتني دار نشر ماك كول (McCall's) بمقالة استنادًا إلى استبياني حول خريجات جامعة سميث، لكنّ ناشر ماك كول حينها، خلال تلك الفترة العظيمة من الوجود معًا، رفض المقالة مذعورًا على الرغم من الجهود الخفيّة للمحرّرات النساء. أمّا محرّرو ماك كول الذكور فقالوا إن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحًا.

طُلب مني بعد ذلك أن أكتب المقالة لصالح ليديز هوم جورنال. لكنني في تلك المرة انسحبت، لأنهم أعادوا كتابتها، ليقولوا، في الحقيقة، عكس ما كنت أحاول قوله تمامًا. وحاولت مرة أخرى مع ريدبوك. كنت في كل مرة أقابل المزيد من النساء وعلماء النفْس وعلماء الاجتماع ومستشاري الزواج وما شابه، وأتأكّد أكثر فأكثر من أنني كنت أسعى إلى شيء ما. لكن ما هو؟ كنت بحاجة إلى اسم لذاك الذي منعنا من استخدام حقوقنا أيًّا يكن، ذاك الذي جعلنا نشعر بالذنب حيال أي شيء نقوم به، لا بوصفنا زوجات أزواجنا أو أمهات أبنائنا، بل بوصفنا أشخاص بذاتنا. كنت بحاجة إلى اسم لوصف ذلك الذنب. وعلى عكس الذنب الذي اعتادت النساء على الشعور به حيال حاجاتهن الجنسية، كان الذنب الذي يشعرن به الآن يتعلق بحاجات لا تناسب التحديد الجنسي للنساء، لغز التحقّق الأنثوي.. اللغز الأنثوي.

أبلغ محرّر ريدبوك وكيلتي: «لقد غادرت بيتي كرسيّها الهزّاز. لطالما

قامت بعمل جيد لنا، أما الآن فليس سوى ربّات البيوت الأكثر عصابية يمكن أن يكنّ كذلك». فتحتُ رسالة وكيلتي على الطريق النفقي بينما كنت آخذةً أطفالي إلى الطبيب. خرجت من النفق لأتصل بوكيلتي وقلت لها: «سيكون عليّ أن أكتب كتابًا لجعلهم يطبعون هذا». ما كنت أكتبه شكّل تهديدًا للأسس العميقة لعالم الصحف النسائية.. اللغز الأنثوي.

عندما تعاقدت دار نورتون (Norton) معي على الكتاب، توقعتُ أن يستغرق إنهاؤه سنة، لكنه استغرق خمس سنوات. وما كنت لأبدأ قط لو لم تفتح مكتبة نيويورك العامة، في الوقت المناسب تمامًا، قاعة فريدريك لويس ألن (Frederick Lewis Allen) حيث يستطيع الكتّاب الذين يعملون على تأليف كتاب أن يحصلوا على مكتب لمدة ستة أشهر في كل مرة مجانًا. تعاقدت مع جليسة أطفال ثلاثة أيام في الأسبوع، وركبت الحافلة من مقاطعة روكلاند إلى المدينة، ونجحت على نحوٍ ما في تمديد الأشهر الستة في قاعة ألن إلى سنتين متحملةً الكثير من المزاح من الكتّاب الآخرين أثناء وقت الغداء لدى معرفتهم بأني كنت أكتب كتابًا عن النساء. وبعد ذلك، سيطر الكتاب عليّ على نحو ما، استحوذ عليّ، أراد أن يكتب ذاته، وأنا كنت أحمل أوراقي إلى البيت، وأكتب على طاولة الطعام أو على أريكة غرفة الجلوس أو على رصيف أحد الجيران على ضفة النهر، وكنت أواصل كتابته ذهنيًا عندما أتوقف لأخذ الأولاد إلى مكان ما أو لأعدّ الغداء، وأعود إلى الكتابة بعد أن يأوي الأولاد إلى الفراش.

لم أختبر في حياتي قط شيئًا قويًا وملغزًا كتلك القوى التي بدت مسيطرة علي وأنا أكتب **اللغز الأنثوي**. لقد نبع الكتاب من مكان عميق في داخلي، وتجلت تجربتي فيه كاملة: استياء أمي، ودراستي لعلم النفس الغيستالتي (Gestalt) والفرويدي، والزمالة التي أحسست بالذنب تجاهها إذا ما استسلمت، ومهمتي كمراسلة صحفية التي علمتني كيف أتتبع الإشارات إلى الجانب التحتي الاقتصادي الخفي من الواقع، وخروجي إلى الضواحي،

والساعات الطويلة التي قضيتها مع الأمهات الأخريات اللواتي يقمن بالتسوّق، ويأخذن أولادهن إلى السباحة، أو يجتمعن عرضًا لشرب القهوة. بل وحتى سنوات الكتابة لمجلات نسائية حين كان القولُ إنّ النساء لا يمكن أن يرتبطن بأي شيء يتجاوز المنزل إنجيلًا لا جدال فيه.. لا سياسة ولا فن ولا علم ولا مناسبات كبيرة أو صغيرة ولا الحرب أو السلم، في الولايات المتحدة أو العالم، ما لم يكن من الممكن مقاربته من خلال التجربة الأنثوية كامرأة أو زوجة أو ترجمته إلى تفصيل أسري! لم أعد أستطيع الكتابة ضمن ذلك الإطار. كان الكتاب الذي أكتبه في ذلك الوقت يتحدى تعريف ذلك العالم نفسه.. وهو ما اخترت أن أسميه **اللغز الأنثوي**. وبإعطائه اسمًا عرفت أنه لم يكن قطّ العالم الوحيد الممكن للنساء، بل تقييدًا غير طبيعي لطاقاتنا ورؤيتنا. لكن عندما بدأت أتتبع المبادرات والإشارات من كلمات النساء ومشاعرهن عبر علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ الحديث، متعقبةً، عبر صفحات المجلات التي كتبت لها، لماذا حدث ذلك، وكيف، وما الذي كان يفعله فعلًا للنساء ولأطفالهن وحتى للجنس، أصبحت المضامين واضحةً، وكانت مذهلة. أنا نفسي دُهشت مما كنت أكتبه ومن الوجهة التي كان يتخذها. كان جزء مني يتساءل، بعد إنهاء كل فصل: هل أنا مجنونة؟ لكن كان هناك أيضًا شعورٌ نامٍ بيقين ساكن قوي فيمَ الإشارات تتلاءم معًا، شعورٌ يجب أن يكون شبيهًا بالشعور الذي ينتاب العالم عندما يتوصل إلى اكتشاف في واحدة من تلك القصص الكشفية العلمية الحقيقية.

لكن هذا لم يكن مجرّد عمل تجريدي وخيالي. كان يعني أنني، وكل امرأة أخرى عرفتها، كنا نعيش كذبة، وكان كل الأطباء الذين عالجونا والخبراء الذين درسونا يرتكبون الكذبة ذاتها، وقد بنيت منازلنا ومدارسنا وكنائسنا وسياستنا ومهننا حول تلك الكذبة. لو كانت النساء أشخاصًا فعلًا، لا أكثر ولا أقلّ، لكان يجب أن تتغير كل الأمور التي منعتهن من أن يكنّ أشخاصًا كاملين في مجتمعنا. والنساء، عندما يخترقن اللغز الأنثوي

ويأخذن أنفسهن بجدية كأشخاص، سيَرَين مكانتهنّ قائمة على قاعدة زائفة، حتى تمجيدهن بوصفهن مواضيع جنسية، نتيجة ما كان يمثله من انتقاص.

ومع ذلك، لو أدركتُ بأية سرعة مذهلة سيحدث ذلك فعلًا -في أقل من عشر سنوات- فلربما كنت سأخاف إلى حدّ قد يوقفني عن الكتابة. من المخيف أن تنطلق على طريق جديدة لم يطرقها أحدٌ من قبل. لا تعرف كم ستأخذك بعيدًا إلى أن تنظر خلفك وتدرك كم بعيدًا، بعيدًا جدًا، قد مضيت. عندما طلبتْ مني أول امرأة أن أوقّع على اللغز الأنثوي في عام 1963 سائلةً: ما الذي قالته لي حتى الآن مئات -وربما آلاف- النساء؟ كتبت لها: «لقد غيّر حياتي بكاملها. الشجاعة لنا جميعًا على الدرب الجديدة». فلا عودة إلى الوراء على تلك الدرب. يجب أن يغيّر حياتك كلها؛ فلقد غيّر بالتأكيد حياتي.

بيتي فريدان

نيويورك، 1973

مقدمة وعرفان بالجميل

أدركت تدريجيًا، دون أن أرى ذلك بوضوح لفترة من الزمن، أنّ هناك خطئًا ما في الطريقة التي كانت النساء الأمريكيات يحاولن فيها أن يعشن حياتهن. شعرت بذلك أولًا على شكل علامة استفهام في حياتي الخاصة: زوجةً وأمًا لثلاثة أطفال صغار، مع نصف شعور بالذنب، وبالتالي، نصف شعور بالحماس، مستخدمةً، على الرغم مني تقريبًا، قدراتي وتعليمي في عمل أبعدني عن البيت. علامة الاستفهام الشخصية تلك هي التي قادتني في عام 1957 إلى قضاء وقت طويل أقوم فيه باستبيان على زميلاتي في الكلية بعد خمسة عشر عامًا من تخرجنا في جامعة سميث. جعلتني الأجوبة التي قدمتها 200 امرأة على تلك الأسئلة المفتوحة الشخصية جدًا أدرك أنّ الخطأ لا يمكن أن يتعلق بالتعليم على النحو الذي كان حينها يُظنّ. ببساطة، لم تكن المشاكل والرضا عن حياتهن، وكذلك حياتي، والطريقة التي أسهم تعليمنا فيها، تنسجم مع صورة المرأة الأمريكية العصرية، كما روّجت في المجلات النسائية، ودُرست، وحُلّلت في قاعات الدراسة والعيادات، وأُطريت، ولُعنت في وابل من الكلمات متواصل منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. كان هناك تناقض غريب بين واقع حياتنا، نحن النساء، والصورة التي كنا نحاول أن نتوافق معها، الصورة التي وصلتُ إلى تسميتها باللغز الأنثوي.

تساءلت ما إذا كانت النساء الأخريات يواجهن هذا الانقسام الفصامي، وما الذي كان يعنيه.

وهكذا بدأتُ أتتبع أصول اللغز الأنثوي، وأثره على النساء اللواتي عشن معه، أو نَمَونَ في ظله. وكانت طرائقي، ببساطة، هي تلك التي يتبعها مراسل صحفي يتتبع خبرًا، فيما عدا أنني اكتشفت حالًا أن تلك القصة لم تكن عادية. لأنّ النمط المجفَل الذي بدأ بالظهور، فيما تقودني فكرة إلى أخرى في الميادين الواسعة للتفكير والحياة العصريين، لم يتحدَّ الصورة التقليدية فحسب، بل والفرضيات النفسية الأساسية حول النساء. عثرت على بضع قطع من اللغز في دراسات سابقة عن النساء، لكنني لم أعثر على الكثير، لأنّ النساء في الماضي دُرسن بلغة اللغز الأنثوي. كانت دراسة ميلون (Mellon) لنساء فاسار (Vassar) مثيرة، والأفكار العميقة لسيمون دو بوفوار (Simone de Beauvoir) حول النساء الفرنسيات، وعمل ميرا كوماروفسكي (Mirra Komarovsky) وماسلو (A. H. Maslow) وألفا ميردال (Alva Myrdal). ووجدت تلك المجموعة المتنامية من التفكير النفسي الجديد في مسألة هوية الرجل، التي لم يبدُ أن النساء يدركن مضامينها، أكثر إثارةً. وعثرت على دليل إضافي من خلال مساءلة أولئك الذين عالجوا أمراض النساء ومشاكلهن. وتتبعت نمو اللغز عبر الحديث مع محرري المجلات النسائية وإعلان الباحثين التعليليين وخبراء النساء النظريين في مجالات علم النفس والتحليل النفسي وعلم الإنسان وعلم الاجتماع وتعليم الحياة العائلية. لكنّ أجزاء الأحجية لم تبدأ بالانسجام معًا إلى أن أجريت مقابلات بشيء من العمق، استمر كل منها من ساعتين إلى يومين، مع ثماني نساء في مراحل حاسمة معينة من دورة حياتهن.. فتيات في المرحلة الثانوية أو الجامعية يواجهن، أو يتجنبن، السؤال المتعلق بهويتهن؛ ربات بيوت شابات وأمهات يجب بالنسبة لهن، إذا كان اللغز صحيحًا، ألّا توجد مسألة كهذه، ولم يكن لديهن، بالتالي، اسم للمشكلة التي تزعجهن؛ ونساء يواجهن عتبة الأربعين.

أعطتني تلك النساء، بعضهن بعذاب والبعض بهدوء، الإشارات الأخيرة والاتهام الأكثر إدانة للّغز الأنثوي.

لكنْ، ما كان يمكن أن أكتب هذا الكتاب لولا مساعدة خبراء كثيرين، سواء كانوا علماء نظريين بارزين أو عاملين ممارسين على أرض الواقع، ولولا تعاون العديد ممن يؤمنون باللغز الأنثوي وساعدوا في ممارسته. لقد ساعدني العديد من محرري المجلات النسائية الحاليين والسابقين، ومنهم: بيجي بيل (Peggy Bell) وجون إنجلش (John English) وبروس جولد (Bruce Gould) وماري آن جيتار (Mary Ann Guitar) وجيمس سكاردون (James Skardon) ونانسي لينش (Nancy Lynch) وجيرالدين رودس (Geraldine Rhoads) وروبرت ستاين (Robert Stein) ونيل ستيوارت (Neal Stuart) وبوللي ويفر (Polly Weaver)، وكذلك ساعدني إرنست ديتشر (Ernest Ditcher) وعاملو معهد البحث التعليلي (Institute for Motivational Research) وماريون سكيدجل (Marion Skedgell)، وهي محررة سابقة لفيكينغ برس (Viking Press) أعطتني بياناتها من دراسة غير منتهية عن بطلات الروايات. ومن بين العلماء السلوكيين والمنظّرين والمعالجين الميدانيين، أدين بالكثير لوليام ميناكر (William Menaker) وجون لاندجراف (John Landgraf) من جامعة نيويورك، وأ. هـ. ماسلو من جامعة برانديز (Brandeis)، وجون دولارد (John Dollard) من جامعة يال (Yale)، ووليام ج. جودي (William J. Goode) من جامعة كولومبيا، ولمارغريت ميد (Margaret Mead) وباول فاهاميان (Paul Vahamian) من كلية المعلمين، وإلسا سيبولا إسرائيل (Elsa Siipola Israel) وإلي تشينوي (Eli Chinoy) من جامعة سميث، وللدكتور أندراس أنجيال (Andras Angyal)، وهو محلل نفسي من بوسطن، والدكتور ناثان آكرمان (Nathan Ackerman) من نيويورك، والدكتور لويس إنجلش (Louis English) والدكتورة

مارجريت لورانس (Margaret Lawrence) من مركز مقاطعة روكلاند للصحة العقلية، وللعديد من العاملين الصحيين في مقاطعة ويستشيستر، ومن بينهم السيدة إميلي جولد (Emily Gould) وجيرالد فاونتين (Gerald Fountain) والدكتورة هنرييتا جلاتزر (Henrietta Glatzer) ومارجوري إيلغينفريتز (Marjorie Ilgenfritz) من مركز الإرشاد في نيوروتشيل، والموقّر إدغار جاكسون (Edgar Jackson) والدكتور ريشارد جوردون (Richard Gordon) وكاترين جوردون (Katherine Gordon) من مقاطعة بيرجن في نيوجيرسي، والمرحوم الدكتور أبراهام ستون (Abraham Stone) والدكتورة لينا ليفين (Lena Levine) وفريد جافي (Fred Jaffe) من جمعية الأبوة المخططة، والعاملين في مركز جيمس جاكسون بتنام (James Jackson Putnam) في بوسطن، والدكتورة دوريس مِنذر (Doris Menzer) والدكتور سومرز سترجس (Somers Sturges) من مستشفى بيتر بينت بريغهام (Peter Bent Brigham)، وأليس كينغ (Alice King) من المركز الاستشاري للخريجات، والدكتورة ليستر إيفانز (Lester Evans) من صندوق الكومنولث. وأنا كذلك ممتنة لأولئك المربّين الذين يحاربون بشجاعة اللغز الأنثوي، والذين قدموا لي أفكارًا عميقة مفيدة: لورا بورنهولدت (Laura Bornholdt) من ويليسلي، وماري بتينغ (Mary Bunting) من رادكليف، ومارجوري نيكلسون (Marjorie Nicolson) من كولومبيا، وإيستر لويد-جونز (Esther Lloyd-Jones) من كلية المعلمين، وميليسينت ماكينتوش (Millicent McIntosh) من برنارد وإيستر روشنبوش (Esther Raushenbush) من سارة لورانس، وتوماس ميندنهول (Thomas Mendenhall) من جامعة سميث، ودانييل آرون (Daniel Aaron) وعدة أعضاء آخرين في جامعة سميث. وأنا أكثر، فوق ذلك كله، ممتنة للنساء اللواتي شاركنني مشاكلهن ومشاعرهن، بدءًا بمائتي امرأة من جامعة سميث، صف 1942، وماريون إنغرسول هاويل (Marion

(Ingersoll Howell) وآن ماذر مونترو (Anne Mather Montero)، اللتين عملتا معي في استبيان الخريجات الذي أطلق بحثي.

ودون تلك المؤسسة الرائعة، قاعة فريدريك لويس آلن في مكتبة نيويورك العامة، وتأمينها مكان عمل هادئ للكاتب وإمكانية دائمة للوصول إلى مصادر البحث، ما كان لكاتبة هذا الكتاب، الأم لثلاثة أطفال، أن تبدأه قط، فما بالك بأن تكمله. والأمر ذاته يمكن قوله حيال الدعم الحساس الذي قدمه ناشرو جورج بروكواي (George P. Brockway) ومحرّرو برتون بيلز (Burton Beals) من شركة (W. W. Norton & Company). وبمعنى أوسع، ما كان لهذا الكتاب أن يكتب لو أنني لم أحصل على تعليم غير عادي في علم النفس من كورت كوفكا (Kurt Koffka) وهارولد إسرائيل (Harold Israel) وإلسا سيبولا وجيمس جيبسون (James Gibson) من جامعة سميث، ومن كورت ليوين (Kurt Lewin) وتامارا ديمبو (Tamara Dembo) والآخرين في مجموعتهم، في ذلك الوقت، في أيوا، ومن إي سي تولمان (E. C. Tolman) وجين ماكفارلين (Jean Macfarlane) ونيفيت سانفورد (Nevitt Sanford) وإيريك إريكسون (Erik Erikson) في بيركلي.. تعليمًا ليبراليًا بأفضل المعاني، والذي كان القصد منه استخدامه، على الرغم من أنني لم أستخدمه كما خططت أصلًا.

لكن الأفكار العميقة والتفسيرات، للنظرية والواقع، والقيم المتضمنة في هذا الكتاب هي، بلا شك، أفكاري وتفسيراتي. لكن، سواء كانت الأجوبة التي أقدمها هنا نهائية أم لا، وهناك العديد من الأسئلة التي يجب أن يسبر غورها علماء الاجتماع، فإن معضلة النساء الأمريكيات حقيقية. ولقد أجبر العديد من الخبراء أخيرًا، في الوقت الراهن، على الإقرار بتلك المشكلة، وأن يضاعفوا جهودهم لتكييف النساء معها بلغة اللغز الأنثوي. قد تقلق أجوبتي الخبراء والنساء على قدم المساواة، لأنها تقتضي ضمنًا التغيير الاجتماعي. لكن ما كانت كتابة هذا الكتاب لتحمل أي معنى لو لم أكن

مقتنعة بأن النساء يمكن أن يؤثرن في المجتمع، كما يتأثرن به؛ وأن المرأة في النهاية، شأنها في ذلك شأن الرجل، تملك القدرة على الخيار وأن تصنع جنتها أو جحيمها.

جراندفيو، نيويورك

حزيران 1957 – تموز 1962

الفصل الأول

المشكلة التي لا اسم لها

ظلت المشكلة دفينةً أسيرة الصمت سنوات طوال في أذهان النساء الأمريكيات. وكان هياجًا غريبًا وإحساسًا بالسخط وتوقًا شغوفًا ذاك الذي عانت منه النساء في منتصف القرن العشرين في الولايات المتحدة. كان صراعًا خاضته على انفراد كل امرأة من نساء الضواحي، فيما هي ترتّب الأسرّة، أو تتسوّق حاجات المنزل، أو تختار ألوانًا متناغمةً لأغطية الأثاث، أو تأكل سندوتشات زبدة الفستق مع أبنائها، أو تقود الكشافين والكشافات الصغار، أو تستلقي، إلى جانب زوجها في الليل، خائفةً أن تطرح حتى على نفسها السؤال الصامت: أهذا كل شيء؟

على مدى خمسة عشر عامًا، لم تظهر كلمةٌ واحدةٌ تعبّر عن ذلك التوق في ملايين الكلمات التي كتبها عن النساء ومن أجل النساء، في جميع أعمدة الصحف والكتب والمقالات، خبراء يخبرون فيها النساء أنّ دورهن هو السعي إلى التحقق بوصفهن زوجات وأمهات. سمعت النساء، مرارًا وتكرارًا في أصوات التقاليد والحذلقة الفرويدية، أن ليس في مقدورهن أن يرغبن بمصير أعظم من الفخر بأنوثتهن. وكان الخبراء يعلمونهن كيف يصطدن الرجال، وكيف يحتفظن بهم، وكيف يرضعن أطفالهن إرضاعًا طبيعيًا، وكيف يعلّمن أطفالهن استخدام المرحاض بدلًا من الحفاضات،

وكيف يتعاملن مع تنافس الأخوة وتمرّد المراهقين، وكيف يشترين غسالات الأواني، ويصنعن الخبز، ويطبخن الحلزون بخبرة الطهاة، ويبنين حوض سباحة بأيديهن، وكيف يلبسن، ويظهرن، ويتصرفن بمزيد من الأنوثة، وكيف يجعلن الزواج أكثر إثارة، وكيف يحفظن أزواجهن من الموت شبابًا وأبناءهن من الجنوح. علموهن أن يشفقن على النساء العصابيات غير الأنثويات التعيسات اللواتي أردن أن يكنّ شاعرات أو فيزيائيات أو رئيسات. وتعلمنَ أن النساء الأنثويات فعلًا لا يردن حياةً مهنيةً ولا تعليمًا عاليًا ولا حقوقًا سياسيةً، أي لا يردن تلك الاستقلالية والفرص التي كافحت من أجلها الناشطات النسويات القديمات. مازال البعض يتذكر بألم بعض نساء الأربعينيات أو الخمسينيات وقد تخلّين عن أحلامهن، لكنّ معظم النساء الأصغر سنّاً لم يعدن يفكرن بهن مجرّد تفكير. أطرى ألف صوت خبير أنوثتهن وتكيّفهن ونضوجهن الجديد. كل ما كان عليهن القيام به هو تكريس حياتهن من بداية الصبا لإيجاد زوج وإنجاب الأطفال.

مع نهاية الخمسينيات، انخفض متوسط العمر عند الزواج بين النساء في أمريكا إلى 20 سنة، ومازال مستمرًا في الانخفاض، ليصل إلى سن المراهقة. فقد خُطبت 14 مليون فتاة في عمر السابعة عشرة. وانخفضت نسبة النساء الجامعيات، بالمقارنة مع الرجال، من ٪47 في عام 1920 إلى ٪35 في عام 1958. قبل ذلك بقرن، كانت النساء يناضلن من أجل الحصول على تعليم عال، أما الآن فالفتيات يذهبن إلى الجامعة للحصول على زوج. وفي منتصف الخمسينيات، كان ٪60 من النساء يتركن الجامعة ليتزوّجن، أو لأنهن يخشين من أن يشكل التعليم الزائد عائقًا أمام الزواج. بَنَت الجامعاتُ مساكن طلابية «للطلاب المتزوجين»، لكن كان الطلاب دائمًا تقريبًا من الأزواج الذكور. وتمّ إحداث درجة جديدة للزوجات عرفت اختصارًا بـ"Ph.T"، ومعناها: إنجاح الزوج[1].

(1) في الأصل: Putting husband through، أي مساعدته على إكمال دراسته بنجاح - المترجم.

وبعد ذلك، بدأت الفتيات الأمريكيات يتزوّجن في المدرسة الثانوية. ونتيجة حزن المجلات النسائية على ما بينته الإحصائيات التعيسة عن حالات الزواج المبكر، أخذت تحثّ على إدخال مقررات حول الزواج ومرشدين في أمور الزواج إلى المدارس الثانوية. وبدأت الفتيات بالاستقرار في عمر الثانية عشرة والثالثة عشرة في المرحلة الإعدادية. كما أخذ المنتجون ينتجون حمالات صدر بنهود اصطناعية من المطاط الإسفنجي للفتيات الصغيرات اللواتي لم يبلغن سوى العاشرة من العمر. وظهر إعلان لفستان بناتي قياس (3-6x) في مجلة نيويورك تايمز في خريف عام 1960 يقول: **هي أيضًا يمكن أن تنضم إلى المجموعة التي توقع الرجال في شراكها.**

في نهاية الخمسينيات، كان معدل الولادة في الولايات المتحدة يداني معدل الولادة في الهند. وطُلب من حركة ضبط النسل، التي أطلق عليها لاحقًا تنظيم الوالدية، أن تجد طريقة تستطيع النساء، اللواتي نُصحن بأن الولد الثالث أو الرابع قد يولد ميتًا أو مشوهًا، أن يستخدمنها بأية حال. وذهل الإحصائيون خصوصًا نتيجة الزيادة المذهلة في عدد الأطفال بين النساء الجامعيات. ففي حين لم يكن لديهن ذات يوم سوى طفلين، أصبح لديهن الآن أربعة أو خمسة أو ستة. واللواتي أردن يومًا حياةً مهنيةً، كنّ الآن يصنعن حياة مهنية قوامها إنجاب الأطفال. وهكذا عبّرت مجلة لايف (Life)، في تهليلة نشرتها في عام 1956، عن بهجتها بعودة حركة النساء الأمريكيات إلى المنزل.

أصيبت امرأة بانهيار عصبي في إحدى مستشفيات نيويورك، عندما علمت أنها لا تستطيع أن ترضع طفلها. وفي مستشفيات أخرى، رفضت نساءٌ، يصارعن الموت نتيجة الإصابة بالسرطان، دواءً أثبت البحث أنه قد ينقذ حياتهن، لأنه قيل إن آثاره الجانبية ضارة بأنوثتهن. وأعلنت صورة أكبر من الحجم الطبيعي لامرأة جميلة بلهاء في إعلانات الجرائد والمجلات ومخازن الأدوية: «إذا كنت سأعيش حياة واحدة، فدعوني أعيشها شقراء».

وعلى امتداد أمريكا، صبغت ثلاث نساء من كل عشر شعرهن بالأشقر. وكنّ يأكلن نوعًا من الطباشير بدلًا من الطعام ليتقلص حجمهن إلى حجم عارضات الأزياء الشابات النحيلات. وصرّح المشترون في مخازن البيع الكبيرة أن مقاسات النساء الأمريكيات قد أصبحت أصغر بثلاثة أو أربعة مقاسات منذ عام 1939. وقال أحد المشترين: «تسعى النساء بإلحاح إلى التلاؤم مع الملابس، وليس العكس».

وكان مصممو الديكور الداخلي يضعون لوحات من الفسيفساء أو لوحات أصلية في المطابخ، لأنّ المطبخ أصبح مرة أخرى مركز حياة المرأة. وأصبحت الخياطة المنزلية صناعة بملايين الدولارات. ولم تعد نساءٌ كثيرات يغادرن بيوتهن إلا للتسوّق أو إيصال أبنائهن أو حضور المناسبات الاجتماعية مع أزواجهن. وكانت الفتيات في أمريكا يكبرن دون أن يقمن بأعمال خارج المنزل. وفي أواخر الخمسينيات، أصبحت ظاهرة اجتماعية ملحوظة فجأةً: كان ثلث النساء الأمريكيات يعمل، لكن معظم العاملات كنّ قد تجاوزن مرحلة الشباب، وقلة منهن فقط كانت تسعى وراء حياة مهنية. كنّ متزوجات، يقمن بأعمال بدوام جزئي كالبيع أو أعمال السكرتارية لإنجاح أزواجهن في المدارس أو أولادهن في الجامعات أو للمساعدة في تسديد الرهن. أو كنّ أرامل يعلن عائلاتهن. وأخذ عدد النساء اللواتي يدخلن العمل المهني يتناقص، ويتناقص. وتسبّب النقص في مهن التمريض والعمل الاجتماعي والتعليم بأزمات في كل مدينة أمريكية تقريبًا. ولاحظ العلماء القلقون من تفوق الاتحاد السوفييتي في سباق الفضاء أن النساء هن أعظم مصدر من مصادر القدرات الفكرية غير المستخدمة في أمريكا. لكن، ما كانت الفتيات ليدرسن الفيزياء، فهي «غير أنثوية». ورفضت إحدى الفتيات زمالة علمية في جامعة جون هوبكنز لتستلم عملًا في مكتب عقاري. كان كل ما تريده،

حسب قولها، هو ما تريده كل فتاة أمريكية... أن تتزوج، وأن تنجب أربعة أطفال، وأن تعيش في بيت أنيق في ضاحية أنيقة.

ربة منزل من الضواحي، كانت تلك هي الصورة الحلم للمرأة الأمريكية الشابة والمحسودة، كما قيل، من النساء في كل أنحاء العالم. ربة المنزل الأمريكية، المتحررة بفضل العلم والأجهزة المريحة من الكدّ ومخاطر ولادة الأطفال وأمراض جدتها. كانت معافاة وجميلة ومتعلمة، ولا تهتم إلا بزوجها وأطفالها وبيتها. لقد وجدت التحقق الأنثوي الحقيقي. وكانت، بوصفها ربة منزل وأم، محترمةً كشريك كامل ومساو للرجل في عالمه. كانت حرّة في اختيار السيارات والملابس والأجهزة الكهربائية والأسواق؛ كان لديها كل ما قد حلمت المرأة به يومًا.

أصبح لغزُ التحققِ الأنثوي هذا، في السنوات الخمس عشرة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، هو الجوهر المدلّل والمُؤَبّد ذاتيًا للثقافة الأمريكية المعاصرة. عاشت ملايين النساء حياتهن أسيرات تلك الصور الجميلة لربة المنزل الأمريكية ساكنة الضواحي، يودّعن أزواجهن بقبلة أمام بوابة البيت، ويوصلن أولادهن، الذين يملؤون سيارة كبيرة، إلى المدرسة، ويبتسمن وهن يلمّعن أرضية المطبخ النظيفة بالمكنسة الكهربائية الجديدة. يخبزن خبزهن بأنفسهن، ويخطن ملابسهن وملابس أبنائهن، ويبقين غسالاتهن الكهربائية وآلات التجفيف الجديدة شغّالة طوال اليوم. يغيّرن ملاءات الأسرّة مرتين في الأسبوع بدلًا من مرة، ويلتحقن بصف تعليم حياكة الصوف بالصنارة للكبار، ويشعرن بالأسى على أمهاتهن المسكينات المحبطات اللواتي حلمن أن تكون لهنّ حياة مهنية. كان حلمهن الوحيد هو أن يكنّ زوجات وأمهات كاملات، وكان أقصى طموحهن هو أن يكون لديهن خمسة أولاد وبيت جميل، وكفاحهن الوحيد هو الحصول على زوج والاحتفاظ به. لم تكن لديهن فكرة عن مشاكل العالم الخارجي اللاأنثوية؛ كنّ يردن من

الرجال أن يتخذوا القرارات الكبيرة. كنّ مبتهجات في أدوارهن بوصفهن نساء، ويكتبن بفخر في استمارة التعداد السكاني في الخانة المخصصة: «المهنة: ربة منزل».

على مدى خمسة عشر عامًا، كانت الكلمات التي كتبت للنساء، والكلمات التي تستخدمها النساء، عندما يتحدثن فيما بينهن، فيم أزواجهن يجلسون في الطرف الآخر من الغرفة، يتحدثون في أمور المهنة أو السياسة أو أحواض النفايات، تدور حول المشاكل مع أولادهن، أو كيف يبقين أزواجهن سعداء، أو كيف يحسّنَّ مدرسة أولادهن، أو يطبخن الدجاج، أو يصنعن أغطية المفروشات. لم يناقش أحد ما إذا كانت النساء أدنى أو أعلى من الرجال؛ كنّ ببساطة مختلفات. كانت كلمات من مثل «تحرير» أو «حياة مهنية» تبدو غريبة ومحرجة، إذ لم يستخدمها أحد لسنوات. وعندما كتبت امرأة فرنسية، اسمها سيمون دو بوفوار، كتابًا أسمته **الجنس الآخر**، علّق ناقدٌ أمريكي قائلًا إنه من الواضح «أنها لم تعرف شيئًا عن أمور الحياة»، إضافة إلى أنها كانت تتحدث عن النساء الفرنسيات. أما «مشكلة المرأة» في أمريكا فلم تعد موجودة.

لو وقعت امرأة ما في مشكلة في فترة الخمسينيات أو الستينيات، لتبادر إلى ذهنها أنّ هناك خللًا ما في زواجها أو فيها ذاتها. فالنساء الأخريات، حسب ظنها، كنّ راضيات بحياتهن. أيّ نوع من النساء هي، إذا لم تشعر بهذا التحقق الغامض، وهي تلمّع أرضية المطبخ؟ كان شعورها بالخجل أكبر من أن تعترف بسخطها، بحيث لم يتسنّ لها قط أن تعرف كم من النساء الأخريات كنّ يشاطرنها ذلك السخط. ولو حاولت أن تحكي لزوجها عن الأمر، لما فهم عمّ تتكلم. فهي نفسها لم تكن تفهمه. وعلى مدى ما يزيد على خمسة عشر عامًا، كان الحديث عن هذه المشكلة أصعب على النساء في أمريكا من الحديث عن الجنس. حتى المحللون النفسيون لم يجدوا اسمًا لها. وعندما كانت امرأة تذهب إلى الطبيب النفسي طلبًا للمساعدة،

كما فعلت نساء كثيرات في حينه، كانت تقول: «أنا خجلة جداً»، أو «لا بدّ أني عُصابية وحالتي ميؤوس منها». وقال طبيب نفسي من الضواحي بقلق: «لا أعرف ما حدث للنساء هذه الأيام. أعرف أنّ هناك خطبًا ما، لأنه تصادف أن معظم مرضاي نساء، ومشكلتهن ليست جنسية». لكنّ معظم النساء اللواتي عانين من تلك المشكلة، لم يذهبن لرؤية محلل نفسي. وظللن يرددن لأنفسهن: «ليس هناك خطب حقًا، لا توجد أية مشكلة».

لكن في صباح يوم نيساني من عام 1959، سمعتُ أمًا لأربعة أطفال، تتناول القهوة مع أربع أمهات أخريات في ضاحية تبعد خمسة عشر ميلًا عن نيويورك، تقول بنبرة من اليأس الهادئ: «المشكلة». وأدركت الأخريات، دون كلمات، أنها لم تكن تتحدث عن مشكلة مع زوجها ان أو أولادها أو منزلها. فقد أدركن فجأةً أنهن جميعًا يعانينَ من المشكلة ذاتها، المشكلة التي لا اسم لها. بدأن بتردد الحديث عنها. وفيما بعد، بعد أن أخذن أولادهن من الحضانة إلى البيت لأخذ قيلولة، بكت اثنتان من تلك النساء مع شعور حاد بالراحة لمجرّد معرفتهن بأنهن لم يكنّ وحيدات.

أدركتُ، شيئًا فشيئًا، أن المشكلة التي لا اسم لها كانت مشتركة بين عدد لا يحصى من النساء في أمريكا. كنت، بحكم عملي كاتبة للمجلات، غالبًا ما أجري مقابلات مع النساء حول مشاكلهن مع أبنائهن أو في زواجهن أو منازلهن أو مجتمعاتهن المحلية. لكنني بعد فترة بدأت أدرك الإشارات النميميّة لهذه المشكلة الأخرى. رأيت الإشارات ذاتها في بيوت مزارع تربية الحيوانات في الضواحي وفي البيوت المؤلفة من طابقين في لونغ آيلاند ونيوجرسي ومقاطعة ويستشستر وفي بيوتٍ كولونيالية في بلدة صغيرة في ماساشوستس؛ وفي فناءات في ممفيس وفي شقق في الضواحي وفي المدن، وفي غرف المعيشة في ميدويست. وكنت أحيانًا أستشعر المشكلة، لا كمراسلة صحفية، بل كربة منزل من الضواحي، لأنني، في ذلك الوقت،

كنت أيضًا أربّي أولادي الثلاثة في مقاطعة روكلاند في نيويورك. سمعتُ أصداء المشكلة في السكن الطلابي في الجامعات وفي أجنحة الأمومة شبه الخاصة في اجتماعات جمعية أولياء الأمور والمعلمين (PTA) وفي مناسبات الغداء لرابطة الناخبات وفي حفلات الكوكتيل في الضواحي وفي سيارات كبيرة منتظرةً القطارات وفي نتف محادثات تتناهى إلى سمعي في سكرافتس (Schrafft's). الكلمات المتلمسة التي سمعتها من نساء أخريات في أوقات بعد الظهر الهادئة عندما يكون الأولاد في المدرسة، أو في المساءات الهادئة عندما يبقى الأزواج في العمل حتى وقت متأخر؛ أعتقد أنني فهمتُ المشكلة أولًا كامرأة قبل أن أفهم بزمن طويل مضامينها الاجتماعية والنفسية الأوسع.

ولكن ماذا كانت تلك المشكلة التي لا اسم لها؟ ما الكلمات التي استخدمتها النساء في محاولتهن التعبير عنها؟ كانت امرأة ما تقول أحيانًا: «أشعر على نحو ما بالخواء... بالنقص». أو «أشعر كما لو أنني غير موجودة». وكانت أحيانًا تخفي ذلك الشعور بالمهدّئات. وكانت أحيانًا تظن أن المشكلة في زوجها أو أولادها، أو أن ما تريده فعلًا هو إعادة ترتيب ديكور بيتها، أو الانتقال إلى حي أفضل، أو أن تقيم علاقة، أو تنجب طفلًا آخر. وكانت أحيانًا تذهب إلى الطبيب بأعراض لا تستطيع وصفها إلا بصعوبة: «إحساس بالتعب... أغضب جدًا على الأولاد وهذا يخيفني... أشعر أنني أبكي دون سبب». (أطلق طبيب من كليفلاند على ذلك: متلازمة ربة المنزل). حدثني عددٌ من النساء عن بثرات دموية تظهر على أيديهن وأذرعهن. وقال طبيب أسرة في بنسلفانيا: «أنا أسمي ذلك آفة ربة المنزل. بدأت أراه كثيرًا مؤخرًا لدى هؤلاء النساء الشابات اللواتي لديهن أربعة أطفال أو خمسة أو ستة، واللواتي يدفنّ أنفسهن في أحواض الصحون. لكنه ليس ناتجًا عن المنظفات ولا يعالج بالكورتيزون».

وأحيانًا، كانت امرأة ما تخبرني أن ذلك الشعور يصبح قويًا إلى حدّ

أنها تسرع خارجةً من البيت، وتسير في الشوارع. أو تبقى في بيتها وتبكي. أو يحكي لها أطفالها نكتة فلا تضحك لأنها لا تسمعها. تحدثت مع نساء أمضين سنوات على أريكة المحلّل يتدربن على «التكّيف مع الدور الأنثوي»، ويتخلصن من عوائق «التحقق بوصفهن زوجات وأمهات». لكن نبرة اليأس في أصوات تلك النساء، والنظرة في عيونهن، كانت نفس النبرة والنظرة التي للنساء الأخريات، اللواتي كنّ على ثقة من أنه ليست لديهن أية مشكلة، على الرغم من أنه لم يكن لديهن شعور غريب باليأس.

قالت لي أم لأربعة أطفال، تركت الجامعة في عمر التاسعة عشرة لتتزوج:

«لقد جرّبت كل ما يفترض بالنساء أن يقمن به.. الهوايات، البستنة، صنع المخلل، حفظ الأغذية، الاختلاط الاجتماعي الواسع مع جيراني، المشاركة في لجان، إقامة حفلات الشاي لجمعية أولياء الأمور والمعلمين. أستطيع القيام بكل ذلك، وأنا أحب ذلك، لكنه لا يمنحك أي شيء تفكرين فيه، أي شعور يتعلق بمن أنت. لم تكن لدي قطّ أية طموحات تتعلق بحياة مهنية. كل ما أردته هو أن أتزوج، وأنجب أربعة أطفال. أحب الأطفال وبوب، وأحب بيتي. لا توجد مشكلة تستطيعين حتى أن تضعي اسمًا لها. لكني يائسة. أبدأ بالشعور أني بلا شخصية. أنا من يقوم بتقديم الطعام وإلباس الأولاد سراويلهم وترتيب الأسرّة، شخص يمكنك اللجوء إليه عندما تحتاجين شيئًا ما. لكن، من أنا؟ »

وقالت أمّ في الثالثة والعشرين من عمرها ترتدي سروال جينز أزرق:

«أسأل نفسي: لماذا أنا مستاءة. عندي صحتي وأطفال رائعين وبيت جديد جميل وما يكفي من المال. ولدى زوجي مستقبل حقيقي في عمله مهندس إلكترونيات. هو لا يعاني أيًا من هذه المشاعر. ويقول إنني قد أكون في حاجة إلى عطلة، ويقترح أن نذهب إلى نيويورك في عطلة أسبوعية.

لكن ليست تلك هي المشكلة. لا أستطيع أن أجلس وأقرأ كتابًا وحيدة. إذا كان الأطفال نائمون في قيلولة ولدي ساعة أخلو بها لنفسي، فإنني أتنقل في البيت منتظرة أن يستيقظوا. لا أقوم بأي شيء حتى أعرف إلى أين يذهب بقية الحشد. الأمر كما لو أنّ شخصًا ما أو شيئًا ما كان يعتني بحياتك دائمًا مذ كنت طفلة صغيرة: والداك أو جامعتك أو الوقوع في الحب أو ولادة طفل أو الانتقال إلى بيت جديد. ثمّ تستيقظين ذات صباح ولا ترين ما تتطلعين إليه».

وقالت زوجة شابة في أحد التوسّعات السكنية في لونغ آيلاند:

«يبدو أنني أنام كثيرًا. ولا أعرف لِمَ يجب أن أكون تعبةً إلى هذا الحد. ليس هذا البيت صعب التنظيف، كما كان الحال مع شقتنا ذات الماء البارد عندما كنت أعمل. الأطفال في المدرسة طوال اليوم. لا يتعلق الأمر بالعمل. أنا فعلًا لا أشعر أنني حية».

في عام 1960، انفجرت المشكلة التي لا اسم لها مثل بثرة في صورة ربة المنزل الأمريكية السعيدة. وفي الإعلانات التجارية التلفزيونية، احتجّت ربات المنازل الأمريكيات الجميلات، وهن ما زلن متوهجات فوق أحواض الصحون الفائرة بالرغوة، وقصة غلاف مجلة **التايم** عن «الزوجة من الضواحي، ظاهرة أمريكية»: «لديّ وقت جيد أكثر مما ينبغي... لأصدق أنهنّ تعيسات». لكن فجأة بدأت التقارير تتحدث عن تعاسة ربات المنازل الأمريكيات الفعلية، من **النيويورك تايمز** و**النيوزويك**، بل وحتى مجلة **التدبير المنزلي** (Good Housekeeping) وتلفزيون سي بي إس (CBS) («ربة المنزل الواقعة في الشرك»)[1]، على الرغم من أنّ كلّ من تكلّم عنها تقريبًا وجد سببًا سطحيًا لرفضها. كانت تعزى إلى مصلح الأجهزة غير الكفء (حسب **النيويورك تايمز**)، أو مسافات قيادة السيارة لإيصال الأولاد في الضواحي (حسب **التايم**)، أو الكثير من

(1) في الأصل: The Trapped Housewife - المترجم.

اجتماعات أولياء الأمور والمعلمين (حسب **ريدبوك**). وقال البعض إنها المشكلة القديمة ذاتها: التعليم. فقد حصلت أعداد متزايدة من النساء على تعليم، وهذا ما جعلهن، بشكل طبيعي، غير سعيدات في دور ربات المنازل. وجاء في تقرير في **النيويورك تايمز** يوم 28 حزيران/ 1960: «لقد تكشّف الطريق، من فرويد إلى فريجيدير (Frigidaire)، من سوفوكليس (Sophocles) إلى سبوك (Spock)، عن أنه طريق وعر. يشعر العديد من النساء الشابات -وبالتأكيد ليس جميعهن-، ممن أقحمهن تعليمهن في عالم من الأفكار، أنّهن مخنوقات في بيوتهن. يجدن حياتهن الروتينية مفصومة العرى عن التدريب الذي حصلن عليه. وكحبيسات في البيوت، يشعرن أنهن مُهمَلات. قدّمت مشكلة ربات المنازل المتعلمات في السنة الماضية المادة لعشرات من الخطابات التي ألقتها رئيسات جامعات نسائية قلقات دافعن -في مواجهة الشكاوى- بأن ستة عشر عامًا من الإعداد الأكاديمي هي تحضير واقعي للزوجية والأمومة».

كان هناك كثير من التعاطف مع ربة المنزل المتعلمة. «مثل فصامية برأسين ... كتبت مرةً مقالة حول شعراء جريف يارد (Graveyard)، وهي الآن تكتب ملاحظات إلى بائع الحليب. وقرّرت مرةً درجة الغليان لحمض الكبريتيك، لكنها الآن تقرّر درجة غليانها مع المصلح المتأخر عن موعده... غالبًا ما تختصر ربة المنزل بالصراخ والدموع... ويبدو أن لا أحد يقدّر، وهي نفسها أقلّ من أي شخص آخر، نوع الشخص الذي أصبحت عليه في عملية تحولها من شاعرة إلى امرأة سليطة».

اقترح علماء الاقتصاد المنزلي إعدادًا أكثر واقعية لربات المنازل، كورشات عمل حول الأجهزة المنزلية في المدارس الثانوية. واقترح المربّون في الجامعات المزيد من مجموعات المناقشة حول الإدارة المنزلية والأسرة لإعداد النساء من أجل التكيّف مع الحياة الأسرية. وظهر سيل من المقالات في المجلات الجماهيرية مُقدّمًا «**ثماني وخمسين طريقة لجعل زواجك أكثر**

إثارة». لم يمضِ شهر دون كتاب جديد يقدمه طبيب نفسي أو متخصص في علم الجنس عارضًا نصيحة فنية حول إيجاد تحقّق أعظم عن طريق الجنس.

وقد نكّت رجلٌ فكِهٌ في مجلة هاربرز بازار (Harper's Bazaar)، في تموز/ يوليو 1960، قائلًا إنه يمكن حلّ المشكلة بانتزاع حق النساء في التصويت. («في مرحلة ما قبل التعديل التاسع عشر كانت المرأة الأمريكية مطمئنة ومحمية ومتأكدة من دورها في المجتمع الأمريكي. كانت تترك كل القرارات السياسية لزوجها، وهو، بدوره، يترك كل القرارات العائلية لها. أما اليوم فعلى المرأة أن تتخذ القرارات العائلية والسياسية أيضًا، وهذا كثير جدًا بالنسبة لها»).

اقترح عدد من المربّين بجدية عدم قبول النساء في الكليات والجامعات التي تدوم الدراسة فيها أربع سنوات: في الأزمة الجامعية المتنامية، كانت حاجة الصبيان إلى التعليم، الذي لا تستطيع الفتيات استخدامه عندما يصبحن ربات بيوت، ملحّةً أكثر من أي وقت مضى، وذلك حتى يقوموا بالعمل في عصر الذرّة.

أُنكِرت المشكلة أيضًا بحلول قاسية لم يكن في مقدور أحد أن يأخذها على محمل الجد. (اقترحت كاتبة في مجلة هاربرز تحويل النساء إلى خدمات إلزامية كمساعدات ممرضات أو جليسات أطفال). وجرى تلطيف ذلك بالدواء الشافي من جميع العلل والقديم قدم الدهر: «الحب هو جوابهم»، «الجواب الوحيد هو المساعدة النابعة من الذات»، «سرّ الكمال: الأطفال»، «وسيلة خاصة للتحقّق الفكري»، «لشفاء ألم الروح المبرّح هذا... الصيغة البسيطة المتمثلة بتسليم المرء نفسه وإرادته لله»[1].

أُنكرت المشكلة بالحديث إلى ربات المنازل عن أنهن لا يدركن كم

(1) See the Seventy-fifth Anniversary Issue of the Good Housekeeping، May، 1960، "The Gift of Self،" a symposium by Margaret Mead، Jessamyn West، *et al.*

هن محظوظات: رئيسك في العمل..لا ميقاتية لضبط الوقت..لا مدير صغير يضع نصب عينيه أن يأخذ مكانكِ. لكن ماذا لو كانت ربة المنزل غير سعيدة، فهل ستظن أن الرجال سعداء في هذا العالم؟ هل ستريد فعلًا في السرّ أن تكون رجلًا؟ ألا تعرف بعدُ كم هي محظوظة لأنها امرأة؟

كما أُنكرت المشكلة، أيضًا وأخيرًا، عبر إظهار عدم الاكتراث، لأن المشكلة بلا حل: هذا ما يعنيه أن تكوني امرأة، وما الخطأ في النساء الأمريكيات حتى أنهن لا يستطعن أن يقبلن دورهن بامتنان؟ كما عبّرت مجلة **النيوزويك** عن الأمر (7 آذار/ 1960):

> هي غير راضية بالكثير الذي لا تملك نساء مناطق أخرى من العالم سوى الحلم به. واستياؤها عميق وواسع وكتيم تجاه العلاجات السطحية المتاحة لكل يد... لقد رسم جيش من المستكشفين المهنيين المصادر الرئيسية للمشكلة... وحددت الدورة الأنثوية منذ بدء الزمن دور المرأة، وقيدتها به. كما سجّل لفرويد قوله: «التشريح هو القدر». على الرغم من أنّ أية مجموعة من النساء لم تبعد تلك القيود الطبيعية إلى الحد الذي أبعدتها الزوجة الأمريكية، يبدو أنها مازالت لا تستطيع تقبّلها بما يكفي من امتنان... تميل أمّ شابة، لديها عائلة جميلة وسحر وموهبة وذكاء، إلى إنكار دورها على نحو تبريري. «ما الذي أقوم به؟» تسمعها تقول. «لا شيء! أنا مجرّد ربّة منزل». لقد أعطى تعليمٌ جيّد، كما يبدو، لهذا المثال الجيد بين النساء فهمًا لقيمة كل شيء باستثناء قيمتهن الشخصية...

وهكذا، يجب عليها أن تقبل حقيقة أنّ «تعاسة النساء الأمريكيات هي، ببساطة، آخر ما اكتسب من حقوق النساء»، وأن تتكيّف، وتقول مع ربة المنزل السعيدة التي نجدها تقول في مجلة **النيوزويك**: «يجب أن نحيّي جميعًا الحرية التي نتمتع بها، وأن نكون فخورات بحياتنا اليوم. لقد درست في الجامعة، وعملت، لكنّ دور ربة المنزل هو الدور المُجزي والمُرضي... لم تتدخل أمي قط في أعمال أبي... لم تكن تستطيع الخروج من المنزل أو الابتعاد عنا نحن الأطفال. لكنني مساوية لزوجي؛ أستطيع الذهاب معه في رحلات عمل إلى المناسبات الاجتماعية المتعلقة بالأعمال».

ما كان إلّا لقلّة من النساء أن تفكر في البديل المُقتَرح. وتعبّر **النيويورك تايمز** عن ذلك بكلمات متعاطفة: «تعترف جميع النساء أنهن مررن في أوقاتٍ كنّ فيها بحالة من الإحباط الشديد نتيجة انعدام الخصوصية والعبء الجسدي ورتابة الحياة العائلية وسجنها. لكن، ما كانت أيّ منهن لتتخلى عن البيت والعائلة لو أعطيت فرصة الاختيار مرة أخرى». أما **ريدبوك** فقد علقت: «يمكن لقلّة قليلة من النساء فقط أن يشمخن بأنوفهن على أزواجهن وأولادهن ومجتمعهن، ويتصرفن في الحياة على هواهن. واللواتي يفعلن ذلك قد يكنّ شخصيات موهوبة، لكنهن قلما يكنّ نساء ناجحات».

ذكرت مجلة **لوك** (Look) أنّ السنة التي وصل فيها استياء النساء الأمريكيات إلى حد الفوران، كانت أيضًا السنة التي لم تتوقف فيها أكثر من 21 مليون امرأة أمريكية عزباء أو أرملة أو مطلقة، حتى بعد الخمسين، عن البحث المحموم واليائس عن الرجال. والبحث يبدأ مبكرًا، لأنّ ٪70 من جميع النساء الأمريكيات الآن يتزوجن قبل أن يبلغن الرابعة والعشرين. تنقلت سكرتيرة جميلة في الخامسة والعشرين من عمرها بين خمسة وثلاثين عملًا مختلفًا في ستة أشهر على أمل الحصول على زوج بلا طائل. كانت النساء ينتقلن من نادٍ سياسي إلى آخر، ويتبعن دورات مسائية في المحاسبة أو الإبحار أو تعلّم لعب الغولف أو التزلج، وينضممن إلى عدد من الكنائس على التعاقب، ويذهبن إلى البارات وحيدات في بحث لا يكلّ ولا يملّ عن رجل.

وقالت التقارير إنّ المتزوجات، من بين الآلاف المتزايدة من النساء اللواتي يحصلن على مساعدة نفسية خاصة في الولايات المتحدة، لم يكنّ راضيات عن زواجهن، وكانت غير المتزوجات يعانين من القلق وأخيرًا من الاكتئاب. والغريب أن الأطباء النفسيين ذكروا أنّ، النساء غير المتزوجات كنّ، بناءًا على خبرتهم، أسعد من المتزوجات. وهكذا، فقد فتح باب جميع بيوت الضواحي الجميلة تلك شقًا يسمح بإلقاء نظرة على

آلافٍ لا حصر لها من ربات المنازل الأمريكيات اللواتي يعانين وحدهن من مشكلةٍ، بدأ الجميع فجأة يتحدثون عنها، ويأخذونها كأمر مفروغ منه، مثل واحدة من مشاكل الحياة الأمريكية تلك التي لا يمكن حلها أبدًا، كالقنبلة الهيدروجينية. ومع عام 1962، أصبحت ورطة ربات المنازل الأمريكيات الواقعات في الفخ لعبة وطنية من تلك الألعاب التي تمارس في ردهات المنازل. وكُرّست أعداد كاملة من مجلات وأعمدة صحف وكتب متنورة أو طائشة ومؤتمرات تعليمية وحوارات تلفزيونية لهذه المشكلة.

وعلى الرغم من ذلك، كان معظم الرجال وبعض النساء ما يزالون لا يعرفون أنّ هذه المشكلة حقيقية. لكنّ هؤلاء الذين واجهوها بصدق، كانوا يعرفون أن العلاجات السطحية والنصائح المتعاطفة وكلمات التعنيف والكلمات التشجيعية تغرق، على نحو ما، المشكلة في اللاواقعية. وكان ضحكٌ مُرٌّ قد بدأ يسمع من النساء الأمريكيات. كنّ محطّ إعجابٍ وحسدٍ وشفقةٍ وتنظيرٍ حتى وصلن إلى حدّ السأم من الأمر، كما قُدّمت لهنّ حلول متطرفة أو خيارات ساذجة، لا يمكن لأحد أن يأخذها على محمل الجد. حصلن على جميع أنواع النصائح، من الجيوش المتنامية من مستشاري الزواج وتوجيه الأطفال والمعالجين النفسيين وعلماء نفس الكراسي الوثيرة، حول كيفية تكيّفهن في الدور المرسوم لهن: دور ربات البيوت. لم تُقدّم للنساء الأمريكيات أيّة طريقة أخرى لتحقيق ذواتهن في منتصف القرن العشرين. تكيّف معظمهن مع دورهن وعانين من المشكلة التي لا اسم لها، أو تجاهلنها. قد يكون عدم سماع الصوت الغريب المستاء المتأجج داخل المرأة أقل إيلامًا لها.

لم يعد من الممكن تجاهل ذلك الصوت، أو إنكار اليأس الذي تعاني منه نساء أمريكيات كثيرات. ليس هذا ما يعنيه أن تكوني امرأة، بغض النظر عما يقوله الخبراء. هناك دائمًا سبب للمعاناة الإنسانية؛ وربما لم يُعرف السبب، لأن الأسئلة الصحيحة لم تطرح، أو تدرس، بما يكفي من العمق. أنا لا أقبل

الجواب الذي يقول بعدم وجود مشكلة لأن المرأة الأمريكية لديها وسائل ترف لم تحلم بها قط النساء في أوقات أخرى أو في أماكن أخرى؛ جزء من جدّة المشكلة هو عدم القدرة على فهمها على أساس مشاكل الإنسان المادية العتيقة: الفقر، المرض، الجوع، البرد. فالنساء، اللواتي يعانين من هذه المشكلة، يعانين من جوع لا يمكن إشباعه بالطعام. وتستمر هذه المشكلة لدى النساء اللواتي أزواجهن أطباء مقيمون ومساعدو محامين مكافحون أو أطباء ومحامون أغنياء، كما لدى زوجات العمال والمديرين الذين يتراوح دخلهم بين خمسة آلاف دولار في السنة وخمسين ألف. وهي ليست نتيجة نقص المنافع المادية؛ وربما لا تشعر بها النساء اللواتي تستحوذ عليهن مشاكل الجوع أو الفقر أو المرض الملحة مجرّد شعور. وغالبًا ما تكتشف النساء اللواتي يحسبن أنها ستحلّ بمزيد من المال أو ببيت أكبر أو بسيارة ثانية أو بالانتقال إلى ضاحية أفضل أنها تزداد سوءًا.

لم يعد من الممكن اليوم أن نلوم المشكلة على فقدان الأنوثة: أن نقول إن التعليم والاستقلالية والمساواة مع الرجال قد جعلت النساء الأمريكيات غير أنثويات. لقد سمعت نساء كثيرات جدًا يحاولن أن ينكرن هذا الصوت المستاء داخل أنفسهن، لأنه لا ينسجم مع الصورة الجميلة للأنوثة التي أعطاها لهن الخبراء. وأعتقد، في الحقيقة، أن هذه هي أول إشارة إلى اللغز: لا يمكن فهم المشكلة بالمصطلحات المقبولة عمومًا التي درس بها العلماء النساء، وعالجهن بها الأطباء، ونصحهن بها الاستشاريون، وكتب بها عنهن الكتّاب. فلقد عاشت النساء، اللواتي يعانين من هذه المشكلة، اللواتي يتحرك هذا الصوت في داخلهن، كل حياتهن سعيًا وراء التحقق الأنثوي. لسن نساء متفرغات مهنيًا (على الرغم من أن المتفرغات مهنيًا قد يعانين من مشاكل أخرى)؛ إنهن نساء كان الزواج والأولاد أقصى طموحهن. ولم يكن أي حلم آخر ممكنًا بالنسبة للأكبر سنًا من بين تلك النسوة، بنات الطبقة الأمريكية الوسطى. وتخلّت اللواتي في الأربعينيات

أو الخمسينيات من العمر، وكان لديهن ذات يوم أحلامًا أخرى، عن تلك الأحلام، وألقين بأنفسهن بسعادة في حياة ربات المنازل. أما الأصغر سنًا، الزوجات والأمهات الجديدات، فقد كان ذلك حلمهن الوحيد. إنهن النساء اللواتي انسحبن من المدرسة الثانوية أو الجامعة ليتزوجن، أو كنّ يمررن الوقت في عمل ما، ليس لهن فيه أي اهتمام حقيقي، حتى يتزوجن. تلك النساء «أنثويات» جدًا بالمعنى العادي للكلمة، ولكنهن، مع ذلك، يعانين من المشكلة.

هل تعاني النساء، اللواتي أنهين الدراسة الجامعية، والتي كانت أحلامهن يومًا تتجاوز دور ربة المنزل، أكثر من غيرهن؟ حسب الخبراء، نعم هذا صحيح، لكن استمع إلى هذه النساء الأربع:

1 - «أيامي كلها مشغولة، ومملة أيضًا. كل ما أفعله هو التسكع. أنهض في الثامنة.. أعدّ الفطور، وهكذا أنظّف الأطباق، وأتناول الغداء وأنظّف المزيد من الأطباق، ثم أقوم بغسل الملابس والتنظيف بعد الظهر. ثمّ يأتي وقت أطباق العشاء، وأكون في حاجة إلى أن أجلس بضع دقائق قبل أن يكون علي إرسال الأولاد إلى أسِرّتهم... هذا كل ما هناك في يومي. إنه مثل يوم أية زوجة أخرى. مملّ تمامًا. أنا معظم الوقت أجري وراء الأولاد».

2 - «يا إلهي! ما الذي أفعله بوقتي؟ حسنًا، أستيقظ في السادسة. أساعد ابني في ارتداء ملابسه، ثم أقدّم له الفطور. بعد ذلك أغسل الأطباق، وأغسل الطفل، وأطعمه. ثمّ أتناول الغداء، وفي أثناء قيلولة الأولاد أقوم بالخياطة أو التصليح أو الكي، وأقوم بجميع الأشياء التي لا أستطيع القيام بها قبل الظهر. ثمّ أطبخ العشاء للعائلة، ويشاهد زوجي التلفاز فيم أغسل الأطباق. وبعد أن أضع الأولاد في السرير، أرتب شعري ثم أذهب إلى السرير».

3 - «المشكلة دائمًا أن أكون أم الأولاد أو زوجة الكاهن، وألا أكون نفسي قط».

4 - «لو صُوّر فيلم عن أي صباح عادي في بيتي لبدا مثل كوميديا قديمة للأخوة ماركس. أغسل الأطباق، وأدفع بالأولاد الصغار إلى المدرسة، ثمّ أسرع إلى ساحة الدار لأعتني بنبتات الأقحوان، وأعود بسرعة لأجري اتصالًا هاتفيًا حول اجتماع لجنة ما، وأساعد الابن الأصغر في بناء بيت من المكعبات، وأقضي خمس عشرة دقيقة أقلّب الجريدة لأبقى حسنة الاطلاع، ثمّ أركض إلى الغسالات الآلية حيث في غسيلي المتراكم أسبوعيًا ما يكفي من الملابس لإشغال قرية بدائية لمدة سنة كاملة. بحلول الظهر، أكون جاهزة لزنزانة مبطنة[1]. لم يكن سوى القليل مما فعلته ضروريًا أو مهمًا فعلًا. الضغوط الخارجية تجلِدني طوال النهار. لكني، مع ذلك، أعتبر نفسي واحدة من أكثر ربات المنازل استرخاء في الحي، فبعض صديقاتي أكثر اهتياجًا. لقد عدنا في السنوات الستين الماضية إلى نقطة الصفر، ووقعت ربة المنزل الأمريكية، مرةً أخرى، أسيرة قفص سنجاب. وأن يكون القفص الآن منزلًا حديثًا مكسوًا بالزجاج السميك ومفروشًا بالسجاد، أو شقة عصرية مريحة، لا يعني أنّ الوضع أقل إيلامًا مما كان عليه وضع جدتها عندما كانت تجلس إلى نول التطريز في ردهة بيتها المذهّب المزأبر مغمغمة بغضب حول حقوق النساء».

لم تذهب أول امرأتين قط إلى الجامعة، وهما تعيشان في منطقتين سكنيتين في ليفيت تاون في نيوجرسي وتاكوما في واشنطن، وقد أجرى المقابلة معهما فريق من علماء الاجتماع يدرس زوجات الرجال العاملين[2].

---

(1) في الأصل: padded cell، زنزانة في سجن أو مستشفى الأمراض العقلية، مُبطّنة من الداخل باللبّاد لمنع المريض، أو السجين، من إيذاء نفسه – المترجم.

(2) Lee Rainwater، Richard P. Coleman، and Gerald Handel، *Workingman's Wife*، New York، 1959.

كتبت الثالثة، وهي زوجة كاهن، في استبيان اللقاء الخامس عشر لخريجات دفعتها من الكلية أنه لم تكن لديها أية طموحات مهنية، لكنها تتمنى الآن لو كانت لديها[1]. أما الرابعة، التي تحمل شهادة دكتوراه في علم الإنسان، فهي الآن ربة منزل في نبراسكا، ولديها ثلاثة أطفال[2]. يبدو أن كلماتهن تشير إلى أن ربات المنازل من جميع السويات التعليمية يعانين من ذات الشعور باليأس.

الحقيقة هي أن لا أحد يغمغم اليوم بغضب حول «حقوق النساء»، على الرغم من أنّ أعدادًا متزايدة من النساء قد ذهبن إلى الجامعة. في دراسة أجريت مؤخرًا على جميع الصفوف التي تخرجت في جامعة برنارد[3]، ألقت أقلية معتبرة من الخريجات السابقات باللوم على تعليمهن، لأنه جعلهن يردن «حقوقًا»، أما الصفوف اللاحقة فقد ألقت باللوم على تعليمهن، لأنه أعطاهن أحلامًا مهنية، لكنّ الخريجات الحديثات ألقين باللوم على الجامعة، لأنها جعلتهن يشعرن أن ليس كافيًا للمرأة أن تكون ربة منزل وأم؛ لم يردن الشعور بالذنب، إذا لم يقرأن كتبًا، أو يشاركن في النشاطات الاجتماعية. لكن، إذا لم يكن التعليم سبب المشكلة، فحقيقة أن التعليم يُفسِد، على نحو ما، في هؤلاء النساء قد تكون فكرة ذات دلالة.

إذا كان سرّ التحقق الأنثوي هو إنجاب الأطفال، فلم يسبق أن كان عموم

(1) Betty Friedan، "If One Generation Can Ever Tell Another،" *Smith Alumnae Quarterly*، Northampton، Mass.، Winter، 1961.

تنبهتُ لأول مرة إلى «المشلكة التي لا اسم لها»، وعلاقتها المحتملة مع ما أسميته أخيرًا «اللغز الأنثوي»، عام 1957، عندما أعددتُ استبيانًا مكثفًا وأجريتُ مسحًا على زميلات دفعتي في جامعة سميث بعد خمسة عشر عامًا من التخرج. واستخدم هذا الاستبيان فيما بعد من قبل صفوف الخريجات في جامعة رادكليف وغيرها من الجامعات النسائية، وكانت النتيجة مشابهة.

(2) Jhan and June Robbins، "Why Young Mothers Feel Trapped،" *Redbook*، September، 1960.

(3) Marian Freda Poverman، "Alumnae on Parade،" *Barnard Alumnae Magazine*، July، 1957.

النساء يخترنَ إنجاب الأطفال كما اليوم. وإذا كان الجواب هو الحب، فلم يسبق أن بحثت النساء عن الحب بالتصميم الذي نشهده اليوم. ومع ذلك، هناك شكٌّ متزايد في أنّ المشكلة قد لا تكون جنسية، رغم أنها لابدّ وأن تتعلق على نحو ما بالجنس. سمعتُ من أطباء كثيرين أدلة على مشاكل جنسية جديدة بين الرجل وزوجته... جوع جنسي كبير جدًا لدى الزوجات إلى درجة لا يستطيع الأزواج إشباعه معها. حتى أن طبيبًا نفسيًا في عيادة مارغريت سانجر لاستشارات الزواج قال: «لقد حوّلنا المرأة إلى مخلوق جنسي. ليست لها أية هوية أخرى سوى أن تكون زوجةً وأمًا. هي ذاتها لا تعرف من هي. تنتظر طوال اليوم زوجها، ليأتي إلى البيت ليلًا، ويجعلها تشعر أنها حية. والآن، الزوج هو غير المهتم، وهذا مرعب للمرأة، أن تستلقي هناك، ليلة إثر ليلة، منتظرة زوجها ليجعلها تشعر بالحياة». لمَ هناك هذا السوق الكبير من الكتب والمقالات التي تقدم نصائح جنسية؟ ولا يبدو أن نوع النشوة الجنسية، التي وجد كينزي (Kinsey) أنها تتحقق على نطاق واسع إحصائيًا بين الأجيال الجديدة من النساء الأمريكيات، سيجعل هذه المشكلة تختفي.

بالعكس، بدأت أنواع جديدة من العصاب تظهر بين النساء -إضافة إلى مشاكل لم تصنّف بعد بين العُصابات-؛ أنواعٌ لم يتنبأ بها فرويد وأتباعه، لها أعراض نفسية وأشكال من القلق وآليات دفاع مساوية لتلك التي يسببها الكبت الجنسي. كما إن هناك تقارير عن مشاكل جديدة غريبة لدى الأجيال النامية من الأولاد، الذين كانت أمهاتهم دائمًا حاضرات، يأخذنهم هنا أو هناك، ويساعدنهم في وظائفهم... عجز عن تحمل الألم أو الانضباط أو السعي وراء أهداف خاصة بهم، من أي نوع كان، ضجرٌ مدمّر من الحياة. ويشعر المربون بقلق متزايد من الاتكال ونقص الاعتماد على الذات بين الفتيان والفتيات الذين يدخلون الجامعة هذه الأيام. قال أحد عمداء جامعة كولومبيا: «إننا نخوض معركة مستمرة لجعل طلابنا يتمتعون بالرجولة».

عقد في البيت الأبيض مؤتمر حول التدهور الجسدي والعضلي للأطفال الأمريكيين: هل هناك مبالغة في الاهتمام بهم؟ لاحظ علماء الاجتماع أنّ حياة أطفال الضواحي منظمة على نحو صاعق: الدروس والحفلات والتسلية ومجموعات اللعب والدراسة المنظمة لهم. تساءلت ربة منزل من الضواحي في بورتلاند في أوريغون: لماذا «يحتاج» الأطفال هنا إلى فرق كشافة للفتيات والفتيان. «هذه ليست مناطق سكن عشوائي. ولدى الأطفال هنا مكان واسع في الهواء الطلق. أعتقد أنّ الناس ضجرون جدًا، فهم ينظّمون الأطفال، ومن ثمّ يحاولون أن يجعلوا الجميع أسرى ذلك. ولا يبقى للأطفال المساكين وقت حتى ليستلقوا على أسرتهم، ويحلموا أحلام يقظة».

هل يمكن للمشكلة التي لا اسم لها أن تتعلق على نحو ما بالرتابة المنزلية لربة المنزل؟ عندما تحاول امرأة أن تعبّر عن المشكلة بكلمات، فإنها غالبًا ما تكتفي بوصف الحياة اليومية التي تعيشها. ما الذي في سرد التفاصيل المنزلية المريحة هذا قد يسبب ذلك الشعور باليأس؟ هل وقعت ببساطة أسيرة فخ المتطلبات الهائلة لدورها كربة منزل عصرية: زوجة ومدبرة منزل وأم وممرضة ومستهلكة وطباخة وسائقة وخبيرة في تصميم الديكور الداخلي والعناية بالأطفال وإصلاح الأجهزة وتجديد وجه الأثاث والتغذية والتربية؟ يومها مجزّأ فيم هي تسرع من غسالة الأطباق إلى غسالة الألبسة إلى الهاتف إلى المجفّفة إلى السيارة الكبيرة إلى السوق، تسلّم جوني لملعب فريق ليتل ليج (Little League)، وتأخذ جاني إلى صف الرقص، وتصلح آلة جز العشب، وتجتمع بمجموعة الساعة 6:45. لا يمكنها أبدًا أن تقضي أكثر من خمس عشرة دقيقة في أي شيء تقوم به؛ لا وقت لديها لقراءة الكتب، فتقرأ المجلات فقط؛ وحتى إذا كان لديها وقت، لقد فقدت القدرة على التركيز. وفي نهاية اليوم، تكون متعبة جدًا إلى حدّ أن على زوجها أن يستلم المهمة، ويأخذ الأولاد إلى السرير.

قاد هذا التعب المريع نساءًا كثيرات إلى الأطباء في الخمسينيات، حتى أن أحدهم قرر القيام بتحقيق عن الموضوع. ووجد، ويا للمفاجأة، أن مريضاته، اللواتي يعانين من «إعياء ربة المنزل»، ينمن أكثر مما يحتاج البالغ إلى النوم -نحو عشر ساعات في اليوم- وأن الطاقة الفعلية، التي يصرفنها في أعمال المنزل، لا تستنزف طاقتهن. فقرّر أن المشكلة الحقيقية يجب أن تكون شيئًا آخر.. ربما الملل. أخبر بعض الأطباء مريضاتهن أن عليهن أن يخرجن من المنزل مدة يوم، وأن يجدن لأنفسهن عرضًا سينمائيًا في المدينة. ووصف آخرون لهن المهدئات. كانت ربات منازل كثيرات في الضواحي يتناولن المهدئات مثل شراب السعال. «تستيقظين في الصباح، وتشعرين أن لا معنى للاستمرار يومًا آخر على تلك الشاكلة، فتأخذين مهدئًا لأنه يجعلك لا تكترثين كثيرًا بأن يكون يومك بلا معنى».

من السهل أن نرى التفاصيل الملموسة التي تأسر ربة المنزل من الضواحي والطلبات المستمرة على وقتها. لكن السلاسل التي توثقها إلى فخها هي سلاسل في عقلها وروحها، هي سلاسل مصنوعة من أفكار خاطئة ووقائع مُفَسّرة خطأ وحقائق غير كاملة وخيارات غير واقعية لا تُرى بسهولة ولا تُجتنب بسهولة.

كيف تستطيع أية امرأة أن ترى الحقيقة الكاملة ضمن حدود حياتها؟ كيف لها أن تصدق ذلك الصوت في داخلها، عندما ينكر الحقائق التقليدية المقبولة التي لطالما عاشت في ظلها؟ ومع ذلك، يبدو أن النساء اللواتي تحدثت إليهن، واللواتي بدأن أخيرًا يستمعن إلى ذلك الصوت الداخلي، يتلمسن بطريقة غير معقولة طريقهن إلى حقيقة تحدّت الخبراء.

أعتقد أن الخبراء في عدد كبير من المجالات كانوا يرون أجزاء من تلك الحقيقة تحت مجاهرهم لزمن طويل دون أن يدركوها. وجدت أجزاء منها في أبحاث جديدة معينة وتطورات نظرية في العلوم النفسية

والاجتماعية والبيولوجية لا يبدو أن مضامينها فيما يخص النساء قد درست بعمق قط. وجدت الكثير من الإشارات عبر الحديث مع أطباء الضواحي وأطباء النسائية والتوليد والأطباء العياديين في مجال إرشاد الأطفال وأطباء الأطفال وموجهي المدارس الثانوية وأساتذة الجامعات ومستشاري الزواج والأطباء النفسيين والكهنة -حيث لم أكن أسألهم عن نظرياتهم بل عن تجاربهم الفعلية في معالجة النساء الأمريكيات. واطلعت على مجموعة متزايدة من الأدلة التي لم ينشر كثير منها على الملأ، لأنه لا يناسب أنماط التفكير السائدة عن النساء- أدلة تضع موضع التساؤل معايير السواء الأنثوي والتكيّف الأنثوي والتحقق الأنثوي والنضج الأنثوي، التي مازالت نساء كثيرات يحاولن العيش بموجبها.

بدأت أرى، في ضوء جديد غريب، العودة الأمريكية إلى الزواج المبكر والعائلات الكبيرة التي تسبب الانفجار السكاني؛ الحركة الحديثة نحو الولادة الطبيعية والإرضاع الطبيعي؛ انسجام الضواحي والعُصابات الجديدة وعلوم أمراض الشخصية والمشاكل الجنسية التي تحدّث عنها الأطباء. بدأت أرى أبعادًا جديدة للمشاكل القديمة التي اعتبرت بديهية بين النساء فترة طويلة من الزمن: صعوبات الطمث والبرود الجنسي والتعددية الجنسية ومخاوف الحمل واكتئاب الولادة وتكرر حدوث الانهيار العاطفي والانتحار بين نساء في العشرينيات أو الثلاثينيات من أعمارهن وأزمات انقطاع الطمث، وما يسمى سلبية الرجال الأمريكيين وعدم نضجهم، والتناقض بين قدرات النساء الذهنية المختبرة في طفولتهن وانجازاتهن بعد بلوغ سن الرشد، وتغيّر حصول النشوة الجنسية بين البالغات من النساء الأمريكيات والمشاكل المتواصلة في العلاج النفسي وفي تعليم النساء.

إذا كنت محقة، فالمشكلة التي لا اسم لها، الثائرة في عقول عدد كبير من النساء الأمريكيات اليوم، ليست مسألة فقدان الأنوثة أو الكثير من التعليم أو متطلبات الحياة العائلية. إنها أكثر أهمية مما يمكن للمرء أن يدركه.

إنها مفتاح المشاكل الأخرى الجديدة والقديمة التي لطالما عذّبت النساء وأزواجهن وأولادهن، وحيّرت أطباءهن ومربيهن لسنوات. وقد تكون أيضًا مفتاح مستقبلنا أمةً وثقافةً. لم يعد في مقدورنا تجاهل ذلك الصوت داخل النساء الذي يقول: «أريد ما هو أكثر من زوجي وأولادي وبيتي».

الفصل الثاني

البطلة ربة المنزل السعيدة

لَمَ عانى هذا العدد الكبير من الزوجات الأمريكيات من هذا الاستياء الموجع الذي لا اسم له طوال كل هذه السنوات، وكل واحدة منهن تظنّ أنها وحيدة؟ كتبت لي أمّ شابة من كونكتيكت، عندما بدأتُ التعبير عن هذه المشكلة كتابةً: «طفرت الدموع من عينيّ، مع إحساس تامّ بالراحة، لأني شاطرت نساء أخريات اضطرابي الداخلي»[1]. وكتبت امرأة من بلدة في ولاية أوهايو: «في الأوقات التي شعرت فيها أن الجواب الوحيد هو استشارة طبيب نفسي، أوقات الغضب والمرارة والإحباط العام، وهي أكثر من أن تحصى، لم تكن لدي أدنى فكرة عن أن مئات النساء يعانين الشعور ذاته. كنت أشعر بوحدة تامة». كما كتبت ربة منزل من هيوستن في تكساس: «لقد كان الشعور بأنني وحيدة تقريبًا في مشكلتي هو ما جعلها قاسية إلى هذه الدرجة. أشكر الله على عائلتي وبيتي وفرصة العناية بهم، لكن لا يمكن أن تتوقف حياتي عند ذلك. إنها يقظة لأعرف أنني لست غريبة، وأنني أستطيع

(1) Betty Friedan, "Women Are People Too!" *Good Housekeeping*, September, 1960.

كانت الرسائل التي تلقيتُها من نساء في كافة أرجاء الولايات المتحدة ردًا على هذه المقالة ذات قوة عاطفية كبيرة، حتى أنني اقتنعت بأن «المشكلة التي لا اسم لها» ليست مقتصرةً، بأي شكل من الأشكال، على خرّيجات الجامعات والكليّات الراقية.

التوقف عن الشعور بالخجل من الرغبة في الحصول على ما هو أكثر».

ذلك الصمت المذنب المؤلم، وتلك الراحة الهائلة عندما يخرج شعور ما في النهاية إلى العلن، هما علامتان نفسيتان مألوفتان. أية حاجة وأي جزء من أنفسهن يمكن أن تكون نساء كثيرات كابتات في هذه الأيام؟ الجنس، في هذا العصر بعد فرويد، فورًا موضع شك. لكن لا يبدو أن هذا الهياج الجديد لدى النساء هو الجنس؛ والحديث عنه، في الحقيقة، أصعب من الحديث عن الجنس؛ هل يمكن أن تكون هناك حاجة أخرى، جزء من أنفسهن سبق ودفنّه عميقًا عمق دفن النساء الفيكتوريات للجنس؟

إذا كانت هناك حاجة من هذا القبيل، فيمكن ألّا تعرف امرأة عن تلك الحاجة أكثر مما كانت امرأة فيكتورية تعرف أن لديها حاجات جنسية. وضعتْ صورةُ المرأة الفاضلة، التي عاشت السيدات الفيكتوريات في ظلها، الجنس جانبًا بكل بساطة. فهل تضع الصورة التي تعيش النساء الأمريكيات في ظلها أيضًا شيئًا ما جانبًا؛ الصورة الفخورة والعامة لفتاة المدرسة الثانوية الذاهبة بهدوء، فتاة الجامعة العاشقة، ربة المنزل من الضواحي وزوجها الماضي قدمًا في نجاحه والسيارة الكبيرة المليئة بالأولاد؟ تشكّل هذه الصورة، التي خلقتها المجلات النسائية والإعلانات والتلفاز والأفلام والروايات وأعمدة الصحف وخبراء الزواج والعائلة وعلم نفس الطفل والتكيّف الجنسي ومبسّطو علم الاجتماع والتحليل النفسي، حياة النساء اليوم، وتعكس أحلامهن. وقد تعطي إشارة إلى المشكلة التي لا اسم لها، مثلما يعطي الحلم إشارة إلى رغبة مجهولة للحالم. في أذن العقل يتكتك عدّاد جيجر[1]، عندما تظهر الصورة متناقضة جدًا مع الواقع. تكتك العدّاد في أذني الداخلية، عندما لم أتمكن من ملاءمة اليأس الهادئ لعدد كبير من النساء مع صورة ربة المنزل الأمريكية العصرية، التي ساعدت شخصيًا في

(1) عداد جيجر Geiger Counter: جهاز يستَخدَم لقياس كثافة الإشعاع عن طريق رصد الجُسيمات من مادة مُشعّة - المترجم.

خلقها عن طريق كتابتي للمجلات النسائية. ما الذي كان مفقودًا في الصورة التي تشكّل سعي المرأة الأمريكية إلى التحقق زوجةً وأُمًّا؟ ما الذي كان مفقودًا في الصورة التي تعكس هوية النساء في أمريكا اليوم، وتخلقها؟

في مطلع الستينيات كانت مجلة ماك كول الأسرع نموًا بين المجلات النسائية. ومحتوياتها تمثيلٌ دقيقٌ، نوعًا ما، لصورة المرأة الأمريكية التي تعرضها المجلات واسعة الانتشار وتسهم جزئيًا في تكوينها. فيما يلي محتويات عدد نموذجي من ماك كول في تموز/ 1960:

1- مقالة رئيسية عن «الصلع المتزايد بين النساء»، نتيجة المبالغة في استخدام الفرشاة والصبغة.

2- قصيدة طويلة بحروف طباعية كبيرة كتلك التي في كتب المرحلة الابتدائية عن طفل عنوانها: الصبي صبي.

3- قصة قصيرة عن كيف يبعد مراهق لا يرتاد الجامعة رجلًا عن فتاة جامعية متألقة.

4- قصة قصيرة عن المشاعر الدقيقة لطفل يرمي زجاجته خارج مهده.

5- الجزء الأول من رواية جديدة حميمية من فصلين بقلم دوق ويندسور عن «كيف نعيش -الدوقة وأنا- ونقضي وقتنا. وأثر الملابس عليّ، والعكس بالعكس».

6- قصة قصيرة حول فتاة في التاسعة عشرة من العمر، أُرسلت إلى إحدى مدارس الفتنة، لتتعلم كيف تطرف برموشها، وتخسر في التنس. («أنت في التاسعة عشرة من العمر، وبموجب المعايير الأمريكية أنا الآن مخوّل أن أجعلك تطيري من يديّ، قانونيًا وماليًا، على يد شاب أمرد يخطفك بعيدًا إلى شقّة مؤلفة من غرفة ونصف في القرية، فيمل هو يتعلم فن بيع السندات المالية. وما من شاب أمرد سيفعل ذلك، إذا كنت سترمينه بوابل من ضربات التنس المتلاحقة»).

7- قصة زوجين في شهر العسل يستبدلان غرفة نومهما بغرفتين منفصلتين بعد خلاف على القمار في لاس فيغاس.

8- مقالة عن «كيفية التغلب على عقدة النقص».

9- قصة عنوانها: يوم الزفاف.

10- قصة أم مراهق يتعلم كيف يرقص الروك آند رول.

11- ست صفحات من الصور الفاتنة لعارضات في ملابس الأمومة.

12- أربع صفحات فاتنة حول «اختصار الطريق الذي تقطعه العارضات».

13- مقالة عن التأخير في الخطوط الجوية.

14- موديلات للخياطة المنزلية.

15- نماذج لتفصيل «شاشات قابلة للطي للفانوس السحري».

16- مقالة بعنوان: طريقة موسوعية لإيجاد زوج ثان.

17- «منجم شواء» مخصصة «للسيد الأمريكي العظيم الذي يقف، وعلى رأسه قلنسوة كبير الطهاة، وفي يده شوكة، على شرفة أمامية أو خلفية في فناء أو ساحة دار في أي مكان من الأرض مراقبًا شواءه يتقلب على السفود. ولزوجته التي بدونها (أحيانًا) ما كان للشواء أن يكون قط بذلك النجاح الصيفي العظيم الذي تحقق لا شك...».

كانت هناك أيضًا الأعمدة المعتادة من «خدمة» الغلاف الأمامي للكتب، والتي تتناول التطورات الجديدة في الدواء والطب وحقائق العناية بالطفل وأعمدة بقلم كلير لوس (Clare Luce) وإليانور روزفلت (Eleanor Roosevelt) وأدوات المطبخ وعمود رسائل القرّاء.

صورة المرأة الكبيرة الجميلة المطلّة من هذه المجلة هي صورة امرأة شابة ولعوب وشبه طفولية ورقيقة وأنثوية ومستسلمة وراضية بفرح، في عالم يتكون من غرفة نوم ومطبخ وجنس وأطفال وبيت. لا تستثني المجلة

بالتأكيد الجنس؛ فالشغف الوحيد.. السعي الوحيد.. الهدف الوحيد الذي يُسمح للمرأة بالسعي إليه هو الرجل. إنه عالم مزدحم مليء بالطعام والملابس وأدوات التجميل والأثاث وأجساد النساء الشابات، لكن أين عالم الفكر والأفكار، حياة العقل والروح؟ في صورة المجلة، لا تقوم النساء إلّا بالعمل المنزلي والعمل على إبقاء أجسامهن جميلة والحصول على رجل والمحافظة عليه.

تلكم كانت صورة المرأة الأمريكية في السنة التي قاد فيها كاسترو ثورة في كوبا، وتدرّب الرجال على السفر إلى الفضاء الخارجي.. السنة التي شهدت فيها القارة الأفريقية ولادة دول جديدة.. السنة التي شق صوت طائرة، تسبق في سرعتها سرعة الصوت، مؤتمر قمة.. السنة التي أقام فيها فنانون متحفًا كبيرًا احتجاجًا على هيمنة الفن التجريدي، واستكشف الفيزيائيون مفهوم النظائر، واضطر فيها علماء الفلك بفضل التلسكوبات الشعاعية الجديدة إلى تغيير مفاهيمهم عن الكون المتمدد، وحقق فيها علماء البيولوجيا فتحًا جديدًا في كيمياء الحياة الأساسية، وأجبر شبابٌ زنوجٌ في المدارس الجنوبية الولايات المتحدة، لأول مرة منذ الحرب الأهلية، على مواجهة لحظة من الحقيقة الديمقراطية. لكنّ هذه المجلة، التي وُزّعت على ما يزيد على خمسة ملايين امرأة أمريكية، جميعهن تقريبًا اجتزن المرحلة الثانوية، ووصل نصفهن تقريبًا إلى الجامعة، لم تتضمن تقريبًا أي ذكر للعالم خارج المنزل. كان عالم المرأة في النصف الثاني من القرن العشرين في أمريكا يقتصر على جسمها وجمالها واجتذاب الرجل والحمل والعناية الجسدية وخدمة الزوج والأطفال والبيت. ولم يكن هذا العدد شذوذًا لعدد واحد لمجلة نسائية واحدة.

جلستُ ذات مساء في اجتماع لكتّاب المجلات، ومعظمهم رجال يعملون لصالح كل أنواع المجلات، بما في ذلك المجلات النسائية. كان المتحدث الرئيسي أحد قادة معركة إلغاء التمييز العنصري. وقبل أن

يتحدث، بيّن رجلٌ آخر احتياجات المجلات النسائية الكبيرة التي كان يقوم بتحريرها:

من يقرأن مجلتنا هن ربات المنازل المتفرغات. وهنّ لا يهتممن بقضايا الوقت الراهن العامة الكبيرة. لا يهتممن بالقضايا الوطنية أو العالمية. لا يهتممن إلّا بالأسرة والبيت. ولا يهتممن بالسياسة، ما لم تكن تتعلق بحاجة مباشرة في البيت، كسعر القهوة على سبيل المثال. المزاح؟ يجب أن يكون لطيفًا، فهنّ لا يفهمن الهجاء. السفر؟ لقد أسقطناه من حسابنا بالكامل تقريبًا. التعليم؟ هذه مشكلة. مستواهن التعليمي يرتفع. لقد حصلن جميعهن عمومًا على التعليم الثانوي، والكثير منهن حصل على التعليم الجامعي. وهنّ يهتممن جدًا بتعليم أبنائهن... حساب الصف الرابع. أنتَ ببساطة لا يمكنكَ أن تكتب للنساء عن أفكار الوقت الراهن الكبيرة أو قضاياه. ولهذا السبب فإننا ننشر الآن 90% خدمات و10% قضايا عامة.

ووافق محرّر آخر على ذلك مضيفًا: «ألا يمكن أن تقدم لنا شيئًا آخر بالإضافة إلى 'هناك موت في صيدليتك المنزلية'؟ ألا يمكن لأي منكم أن يحلم بأزمة جديدة للنساء؟ نحن دائمًا نهتم بالجنس، بالطبع».

وعند ذلك أمضى الكتّاب والمحرّرون مدة ساعة مستمعين إلى ثورجود مارشال (Thurgood Marshall) متحدثًا عن القصة الداخلية لمعركة إلغاء التميز العنصري وأثرها المحتمل في الانتخابات الرئاسية. فقال أحد المحرّرين: «من السيئ أنني لا أستطيع نشر تلك القصة. لكن لا يمكنك أن تربطها بعالم المرأة».

وفيما كنت أستمع إليهم كان صدى تعبير ألماني يتردد في ذهني: «kinder, Kuche, Kirche» وهو شعار قضى النازيون بموجبه أن دور النساء يجب أن يقتصر مرة أخرى على دورهن البيولوجي. لكن هذه لم تكن ألمانيا النازية، بل أمريكا. كل العالم يتسع مفتوحًا للنساء الأمريكيات. لمَ إذًا تكذّب الصورة العالم؟ لمَ تُختصر النساء في «شغف واحد ودور واحد ومهنة واحدة»؟ قبل زمن غير بعيد، حلمت النساء بالمساواة وبمكانتهن

الخاصة في العالم، وحاربن من أجلهما. فما الذي حدث لأحلامهن؟ ومتى قررت النساء الاستسلام للعالم والعودة إلى البيت؟

يستخرج عالم جيولوجيا عينة من قاع المحيط، ويرى طبقات من الرسوبيات رقيقة كشفرة حلاقة مترسبة على مدى سنوات... إشارات إلى تغيرات كبيرة في التطور الجيولوجي للأرض إلى حدّ أنها قد تمرّ دون أن يلاحظها أحد خلال فترة حياة إنسان واحد. جلست أيامًا كثيرة في مكتبة نيويورك العامة، أتصفح مجلدات من المجلات النسائية الأمريكية التي صدرت خلال السنوات العشرين الماضية. ووجدت تغيرًا في صورة المرأة الأمريكية وفي حدود عالم المرأة، تغيرات حادة ومحيّرة كتلك التي في عينات الرواسب البحرية.

عام 1939، لم تكن بطلات قصص المجلات النسائية دائمًا شابات، لكنهن، بمعنى ما، كنّ أصغر سنًا من نظيراتهن الخياليات اليوم. كنّ شابات بالطريقة ذاتها التي كان البطل الأمريكي بها دائمًا شابًا. كنّ **نساء جديدات**، يخلقن بروح مصممة مرحة هوية جديدة للنساء: حياة خاصة بهن. كانت حولهن هالة بأنهن يصرن، أو يتحركن إلى مستقبل سيكون مختلفًا عن الماضي. كانت غالبية البطلات في المجلات النسائية الأربع الرئيسية في حينها (**ليديز هوم جورنال** Ladies Home Journal، و**ماك كول** McCall's، و**جود هاوس كيبينغ** Good Housekeeping، و**وومانز هوم كومبانيون** Woman's Home Companion) نساء لهن حياة مهنية، نساء مهنيات بسعادة وفخر ومغامرة وجاذبية، أحببن الرجال، وأحبّهن الرجال. وكانت الروح والشجاعة والاستقلالية والتصميم-قوة الشخصية التي أظهرنها في عملهن ممرضات ومعلمات وفنانات وممثلات وناسخات وبائعات تشكّل جزءًا من سحرهن. كانت هناك هالة معينة بأنّ فرديتهن هي شيء يستحق إعجاب الرجال لا نفورهم، وأنّ الرجال كانوا ينجذبون إليهن بفضل أرواحهن وشخصياتهن بقدر ما ينجذبون إليهن بفضل نظرات عيونهن.

كانت تلك هي المجلات النسائية الجماهيرية في أيام مجدها، كانت قصصها تقليدية: فتاة تلتقي بشاب أو فتاة تحصل على شاب. ولكن، في كثير من الأحيان، لم يكن هذا هو موضوع القصة الرئيسي. كانت تلك البطلات عادةً يسعين خلف هدف ما أو رؤية خاصة بهن، ويصارعن مشكلة ما في العمل أو العالم، عندما يجدن رجلهن. وكانت هذه المرأة الجديدة، الأقل رقّة أنثوية والمستقلة جدًا والمصممة على إيجاد حياة جديدة خاصة بها، بطلة نوع مختلف من قصص الحب. كانت أقل اندفاعًا في بحثها عن رجل. وقد أعطى انخراطها العاطفي في العالم، وإحساسها الخاص بنفسها كفرد، واعتمادها على ذاتها، نكهةً مختلفةً لعلاقتها بالرجل. تلتقي بطلة وبطل إحدى هذه القصص، ويقعان في الحب في وكالة إعلانات، حيث يعملان. ويقول البطل: «لا أريد أن أضعك في حديقة خلف جدار. أريدك أن تسيري معي يدًا بيد، ويمكن أن ننجز معًا كل ما نريد أن ننجزه». (قصة بعنوان **الحُلُم المشترك** (A Dream to Share) منشورة في **ريدبوك** في كانون الثاني/ يناير 1939).

لم تكن أولئك النساء الجديدات غالبًا ربات منازل؛ وفي الواقع، كانت القصص تنتهي عادةً قبل أن يصبح لديهن أطفال. كنّ شابات لأن المستقبل كان مفتوحًا. لكنهن كنّ، بمعنى آخر، يبدين أعمر بكثير وأنضج من البطلات ربات المنازل الشابات الطفوليات الشبيهات بالقطط اليوم. إحداهن على سبيل المثال ممرضة (قصة بعنوان **أم الزَّوج** (Mother in Law) منشورة في **ليديز هوم جورنال** في حزيران/ يونيو 1939). «فكّر في أنها كانت محببةً جدًا إلى النفس. لم يكن فيها شيء من جمال الكتب المصورة، لكن كانت هناك قوة في يديها واعتزاز في مشيتها ونبل في الطريقة التي ترفع بها ذقنها وفي عينيها الزرقاوين. لقد عاشت مستقلة منذ أن أنهت التدريب قبل تسع سنوات. وقد كسبت قوتها طيلة الوقت، وليست في حاجة للتفكير بأي شيء سوى قلبها».

تهرب إحدى البطلات من المنزل عندما تلحّ أمها على أنها يجب أن تقوم بظهورها الأول في مناسبة اجتماعية بدلًا من المشاركة في بعثة كعالمة جيولوجيا. وتصميم هذه المرأة الجديدة الانفعالي على عيش حياتها الخاصة لا يمنعها من حب رجل، لكنه يجعلها تتمرد على والديها، تمامًا مثلما يجب على البطل الشاب أن يترك البيت غالبًا لينضج. ويقول لها الفتى الذي يساعدها في الفرار: «أنتِ أشجع فتاة عرفتُها. لديك ما يتطلبه الأمر» (قصة بعنوان **وقتًا طيبًا يا عزيزي** (Have a Good Time, Dear) منشورة في **ليديز هوم جورنال** في أيار/ مايو 1939).

غالبًا ما كان هناك تضارب بين بعض الالتزام بعملها والرجل. لكن كانت الأخلاقية في عام 1939 أنها إذا حافظت على التزامها تجاه نفسها فلن تخسر زوجها ما دام الرجل المناسب. تجلس أرملة شابة (قصة بعنوان **بين ظُلمة الليل وضوء النهار** (Between the Dark and the Daylight) منشورة في **ليديز هوم جورنال** في شباط/ فبراير 1939) في مكتبها مفكّرة ما إذا كان عليها أن تبقى، وتصحح الخطأ المهم الذي قامت به في عملها، أو تلتزم بموعدها مع رجل. تعيد التفكير في زواجها وطفلها وموت زوجها... «الزمن الذي تلا ذلك، والذي شهد الصراع لتكوين رأي واضح وعدم الخوف من أعمال جديدة أفضل وامتلاك المرء الثقة بقراراته». كيف يمكن لرئيسها أن يتوقع منها أن تخلف موعدها؟ لكنها تبقى في العمل. «لقد وضعوا دم حياتهم في هذه الحملة. لم تستطع خذلانه». وتجد رجلها أيضًا... رئيسها في العمل!

ربما لم تكن هذه القصص أدبًا عظيمًا، لكن بدت هوية بطلاتها وكأنها تقول شيئًا ما حول ربات المنازل اللواتي يقرأن المجلات النسائية، حينها كما الآن. لم تكن تلك المجلات تكتب للنساء العاملات. كانت بطلات المرأة الجديدة قدوة ربات منازل الأمس؛ كنّ يمثلن الأحلام والتوق إلى الهوية وحس الممكن الذي وُجِد للنساء حينها. وإذا لم تتمكن النساء من

تحقيق تلك الأحلام لأنفسهن، فقد كنّ يردن من بناتهن أن يحققنها. أردن لبناتهن أن يكنّ أكثر من مجرد ربات منازل وأن ينطلقن في العالم الذي كان ممنوعًا عليهن.

يشبه الأمر تذكّر حلم منسيّ منذ أمد طويل، استذكار ما الذي كانت المهنة تعنيه للنساء قبل أن تصبح كلمة «صاحبة مهنة» شتيمةً في أمريكا. كان العمل يعني المال، بالطبع، في نهاية الكساد. لكنّ قارئات تلك المجلات لم يكنّ النساء اللواتي يحصلن على عمل، وكانت المهنة تعني ما هو أكثر من عمل. بدت وكأنها تعني القيام بشيء ما، أن تكوني شخصًا ما أنت نفسك، لا مجرد الوجود في الآخرين ومن خلالهم.

وجدت آخر ملاحظة واضحة عن البحث الشغوف عن هوية فردية يبدو أن المهنة كانت ترمز إليها في عقود ما قبل 1950 في قصة بعنوان «سارة والطائرة البحرية» في مجلة **ليديز هوم جورنال** في شباط/ فبراير 1949. تتعلم سارة، التي مثّلت على مدى تسعة عشر عامًا دور الابنة المطيعة، سرًا الطيران. وتغيب عن درس الطيران لترافق أمها في جولة من الزيارات الاجتماعية. يقول لها طبيب كهل من زوار البيت: «عزيزتي سارة، أنت كل يوم وطوال الوقت تقومين بالانتحار. عدم إنصاف الذات جريمة أكبر من عدم إرضاء الآخرين». ومستشعرًا وجود سرّ ما يسألها إذا كانت عاشقة. «وجدت من الصعب عليها أن تجيب. عاشقة؟ عاشقة لهنري [مدرّس الطيران] الجميل ذي الطبيعة الجيدة؟ عاشقة للماء اللمّاع وارتفاع الجناحين في لحظة الحرية ولرؤية العالم المبتسم الذي لا حدود له؟ وأجابت: نعم، أعتقد أنني عاشقة».

في الصباح التالي، طارت سارة منفردة. «ابتعد هنري صافقًا باب القمرة، وأدار السفينة لها. كانت وحيدة. ومرّت لحظة مسكِرة، نسيت فيها كل ما سبق وتعلمته، عندما كان عليها أن تكيّف نفسها على أن تكون وحيدة، وحيدة تمامًا في القمرة المألوفة. لكنها بعد ذلك سحبت نفسًا عميقًا، وفجأةً

جعلها شعور مدهش بالكفاءة تجلس منتصبةً ومبتسمة. كانت وحيدة! كانت الوحيدة القادرة على الإجابة على أسئلتها، وكانت وافية».

«أستطيع القيام بذلك!» قالت لنفسها بصوت عال...هبّت الريح مرتدة عن الطوافات في خطوط متألقة، ثمّ بلا جهد رفعت السفينة نفسها بحريّة، وحلقت في الجو». حتى أمها لا تستطيع منعها الآن من الحصول على شهادة الطيران. وهي ليست «خائفة من اكتشاف طريقي الخاص في الحياة». وابتسمت ذلك اليوم في سريرها ليلًا، والنعاس يداعب عينيها، متذكرةً كيف قال لها هنري: أنتِ فتاتي».

«فتاة هنري! ابتسمت. لا، لم تكن فتاة هنري. كانت سارة. وكان ذلك كافيًا. وبتلك البداية المتأخرة، سيمرّ بعض الوقت قبل أن تعرف نفسها. وتساءلت، نصف حالمة، إذا كانت في نهاية ذلك الوقت ستحتاج إلى شخص آخر، ومن سيكون».

وفجأة، تصبح الصورة مشوشة. تتردد المرأة الجديدة المحلقة حرّة في منتصف طيرانها، ترتجف في ضوء الشمس الأزرق ذاك، وتسرع عائدة إلى جدران البيت الدافئة. في السنة ذاتها التي حلّقت فيها سارة منفردة، طبعت **ليديز هوم جورنال** النموذج الأصلي لأناشيد الشكر، التي لا تعد ولا تحصى، عن «المهنة: ربة منزل» التي بدأت بالظهور في المجلات النسائية، أناشيد الشكر التي دوّى صوتها طيلة الخمسينيات. وهي تبدأ عادةً بشكوى امرأة من أنها عندما تضطر لكتابة «ربة منزل» على ورقة الإحصاء، فإنها تصاب بعقدة نقص. («عندما أكتبها، أدرك أن هذا هو مكاني: امرأة في منتصف العمر، حاصلة على التعليم الجامعي، ولم أفعل شيئًا بحياتي. أنا مجرد ربة منزل»). وبعد ذلك تنفجر كاتبةُ الأنشودة ضاحكةً، ولسبب ما لا تكون الكاتبة قط ربة منزل (هي في هذه الحالة دوروثي ثومبسون (Dorothy Thompson)، صحافية ومراسلة خارجية وكاتبة عمود شهيرة في **ليديز هوم جورنال**، آذار/ مارس1949). تقول موبّخة: مشكلتك أنك لا تدركين أنك

خبيرة في عدد كبير من المهن في الوقت ذاته. «يمكنك أن تكتبي: مديرة أعمال أو طباخة أو ممرضة أو سائقة سيارة أو خياطة أو مصممة ديكور داخلي أو محاسبة أو متعهدة حفلات طعام أو معلمة أو سكرتيرة خاصة، ويمكنك أن تكتبي ببساطة: مُحسِنة... فطوال حياتك كنت تمنحين طاقاتك ومهاراتك ومواهبك وخدماتك مقابل الحب». لكن ربة المنزل، مع ذلك، تشكو: لقد أوشكت على الخمسين، ولم أفعل ما تمنيت فعله وأنا شابة -الموسيقى-، لقد أضعت تعليمي الجامعي.

ها..ها، تضحك الآنسة ثومبسون، أليس أولادك موسيقيون بفضلك؟ وخلال كل تلك السنوات من الصراع، التي كان زوجك في أثنائها ينهي عمله العظيم، ألم تحافظي على بيتك فاتنًا بثلاثة آلاف دولار في السنة؟ ألم تصنعي كل ملابس أولادك وملابسك الشخصية؟ ألم تضعي ورق الجدران في غرفة المعيشة بنفسك؟ ألم تراقبي الأسواق مثل صقر للقيام بصفقات رابحة؟ وفي الأوقات التي لا تكونين مشغولة فيها بكل ذلك، ألم تنضّدي مخطوطات زوجك، وتدققيها؟ ألم تنظمي حفلات لتعويض العجز في ميزانية الكنيسة؟ ألم تعزفي البيانو في ثنائيات مع أولادك لجعل التمرين أكثر متعةً؟ ألم تقرئي كتب مدرستهم الثانوية لمتابعة دراستهم؟ وتشهق ربة المنزل: «لكن كل هذه الحياة كانت من أجل الآخرين أو من خلالهم»، فتسخر الآنسة ثومبسون: «تمامًا مثل نابليون بونابرت أو مثل ملكة. أنا ببساطة أرفض أن أشاطرك شفقتك على ذاتك. أنت إحدى أكثر النساء اللواتي عرفتهن نجاحًا».

أما فيما يخص عدم جني المال، فالجدل يدور على هذا النحو: دع ربة المنزل تحسب كلفة خدماتها. تستطيع النساء أن يوفّرن من المال باستخدام مواهبهن الإدارية في البيت، أكثر مما يمكن أن يكسبن للبيت من العمل خارجًا. أما عن تدمير روح المرأة نتيجة الملل الذي تسببه مهمات العمل المنزلي، فربما تكون عبقرية بعض النساء قد انحرفت، لكنّ «عالمًا مليئًا

بالعبقرية الأنثوية، لكن ينقصه الأطفال، سينتهي بسرعة... للرجال العظماء أمهات عظيمات».

ويجري تذكير ربة المنزل الأمريكية أن البلدان الكاثوليكية في العصور الوسطى «رفعت مريم العذراء غير الواضحة إلى مرتبة ملكة السماء، وبنت أجمل كاتدرائياتها لـ'نوتردام.. سيدتنا'. مدبرة المنزل، المربية، خالقة بيئة الأطفال هي التي تعيد دائمًا خلق الثقافة والحضارة والفضيلة. وبافتراض أنها تؤدي تلك المهمة الإدارية العظيمة والنشاط الخلاق، على نحو جيد، فدعوها تكتب بفخر أمام خانة المهنة: 'ربة منزل'».

في عام 1949، نشرت مجلة **ليديز هوم جورنال** كتاب مارغريت ميد (Margaret Mead) **مذكّر ومؤنث** Male and Female. ورددت جميع المجلات صدى كتاب فارنهام ولندبرغ (Farnham and Lundberg) **المرأة العصرية: الجنس الضائع** Modern Women: The Lost Sex، الذي ظهر في عام 1942 محذرًا من أن المهن والتعليم العالي كانا يقودان إلى «إضفاء صفات ذكرية على النساء، مع ما لذلك من عواقب خطيرة هائلة على البيت واعتماد الأطفال عليه وعلى قدرة المرأة، وكذلك زوجها، على الحصول على الإشباع الجنسي».

وهكذا، بدأ اللغز الأنثوي ينتشر عبر البلد متعيشًا على التحيّزات القديمة والتقاليد المريحة التي تعطي الماضي سلطة مطلقة على المستقبل. وكانت خلف اللغز الجديد مفاهيم ونظريات مضللة في تكلّفها وافتراضها للحقيقة المقبولة. وكانت تلك النظريات، كما يُعتقد، معقدّة جدًا بحيث لم تكن مفهومة إلا لقلّة ممن أطلقوها، وبالتالي لم يكن دحضها ممكنًا. سيكون من الضروري اختراق جدار اللغز هذا، والنظر عن قرب إلى تلك المفاهيم المعقدة والحقائق المقبولة حتى نفهم تمامًا ما الذي جرى للنساء الأمريكيات.

يقول اللغز الأنثوي إن أعظم قيمة للنساء والتزامهن الوحيد هو تحقيق

أنوثتهن. ويقول إن أكبر خطأ في الثقافة الغربية، عبر معظم تاريخها، هو بخس الأنوثة قيمتها. ويقول إن هذه الأنوثة غامضة وبديهية وقريبة من تكوين الحياة وأصلها، اللذين قد لا يكون العلم البشري قادرًا على فهمهما. ولكن مهما تكن خاصة ومختلفة فهي ليست، بأي شكل من الأشكال، أدنى من طبيعة الرجل، بل إنها في جوانب معينة قد تكون أعلى. والخطأ، كما يقول اللغز، أصل مشاكل النساء في الماضي، هو أن النساء كنّ يحسدن الرجال، وأنهن كنّ يحاولن أن يتشبهن بالرجال، بدلًا من قبول طبيعتهن الخاصة التي يمكن أن تجد الرضا من خلال السلبية الجنسية والهيمنة الذكرية وتغذية الحب الأمومي.

لكن الصورة الجديدة، التي يعطيها هذا اللغز للنساء الأمريكيات، هي الصورة القديمة: «المهنة: ربة منزل». يجعل اللغز الجديد من الأمهات-ربات المنازل، اللواتي لم تكن لديهن أية فرصة بأن يكنّ أي شيء آخر، نموذجًا لجميع النساء، وهو يفترض مسبقًا أن التاريخ قد وصل إلى نهاية أخيرة ومجيدة، هنا والآن، عندما يتعلق الأمر بالنساء. وتحت الزخارف الدقيقة، يحوّل ببساطة جوانب أسرية معينة ملموسة محددة من الوجود الأنثوي -على النحو الذي عاشته النساء اللواتي كانت حياتهن مقتصرة، بحكم الضرورة، على الطبخ والتنظيف والغسيل والحمل- إلى ديانة، إلى نمط يجب أن تعيش جميع النساء بموجبه، وإلا أنكرنَ أنوثتهن.

لم يكن لتحقق المرأة، كامرأة، سوى تعريف واحد بالنسبة للنساء الأمريكيات بعد عام 1949، ألا وهو: الأم-ربة المنزل. وتبدّدت بسرعة الحلم صورة المرأة الأمريكية: الفرد المتغير النامي في عالم متغير. ونُسي طيرانها المنفرد، لتجد هويتها الخاصة في غمرة الاندفاع نحو الأمن الذي يحققه «الوجود معًا». وتقلّص عالمها، الذي لا حدود له، إلى جدران البيت الدافئة.

كان التحوّل، الذي انعكس في صفحات المجلات النسائية، واضحًا بشدة في عام 1949، واستمر في سنوات الخمسينيات. «الأنوثة تبدأ في

البيت»، «قد يكون عالم الرجل»، «أنجبي أطفالًا وأنت شابة»، «كيف توقعين ذكرًا في حبالك»، «هل يجب أن أتوقف عن العمل عندما نتزوج؟»، «هل تدربين ابنتك لتكون زوجة؟»، «مهن في البيت»، «هل ينبغي للنساء أن يتكلمن كثيرًا؟»، «لمَ يفضّل الجنود الأمريكيون الفتيات الألمانيات؟»، «ما الذي يمكن أن تتعلمه النساء من أمنا حواء؟»، «السياسة، عالم الرجال حقًا»، «كيف تتشبثين بزواج سعيد؟»، «لا تخافي من الزواج شابةً»، «الطبيب يتحدث عن الإرضاع الطبيعي»، «وُلد طفلنا في البيت»، «الطبخ عندي مثل الشِّعر»، «عمل تسيير أمور المنزل».

مع نهاية عام 1949، كانت لبطلة واحدة من أصل كل ثلاث في المجلات النسائية حياة مهنية، وكانت تُعرَض متخليةً عن مهنتها ومكتشفةً بأن ما تريده فعلًا هو أن تكون ربة منزل. في عامي 1958 و1959، قلّبتُ صفحات عدد تلو الآخر من أعداد المجلات النسائية الثلاث الرئيسية (كانت الرابعة، **ومن هوم كومبانيون**، قد توقفت عن الصدور) دون أن أجد بطلة واحدة لديها حياة مهنية أو التزام بأي عمل كان أو فن أو مهنة أو رسالة في العالم سوى «المهنة: ربة منزل». ومن بين مائة بطلة، كانت واحدة فقط امرأةً عاملة؛ حتى البطلات الشابات غير المتزوجات لم يكن لديهن عمل سوى -اللهم!- تصيّد زوج[1].

تبدو تلك البطلات ربات المنازل السعيدات الجديدات أكثر شبابًا -على نحو غريب- من فتيات المهن المفعمات بالحيوية لسنوات الثلاثينيات والأربعينيات. ويبدو أنهن يصبحن أصغر طيلة الوقت، في نظراتهن، وفي ذلك النوع الطفولي من الاتكال. ليست لديهن أية فكرة عن المستقبل سوى

(1) في الستينيات، بدأت تظهر، في المجلات النسائية، بطلةٌ عرَضية ليست «ربة منزل سعيدة». وقد شرح أحد محرري **ماك كول** الأمر: «ننشر أحيانًا قصةً غير مشدّد عليها من قيمتها في التسلية فقط». كتب نول كلاد (Noel Clad) إحدى تلك القصص حسب الطلب لصالح مجلة Good Housekeeping في كانون الثاني/ يناير 1960، بعنوان «الرجال ضد النساء»، وتكاد البطلة في القصة، وهي صاحبة مهنة سعيدة، تفقد ابنها وزوجها.

أن يكون لديهن طفل. الشخص الوحيد النامي النشيط في عالمهن هو الطفل. البطلات ربات المنازل شابات إلى الأبد، لأن صورتهن الخاصة تنتهي مع ولادة الطفل. مثل بيتر بان، يجب أن يبقين شابات، فيما يكبر أولادهن مع العالم. يجب أن يواظبن على إنجاب الأطفال، لأن اللغز الأنثوي يقول إن ليس أمام المرأة طريقًا آخر لتكون بطلة. فيما يلي حالة نموذجية من قصة عنوانها «صانعة الساندويتش» (مأخوذة من مجلة **ليديز هوم جورنال**، نيسان/ أبريل 1959). امرأةٌ، درست الاقتصاد المنزلي في الجامعة، وتعلمت كيف تطبخ، ولم تشغل وظيفة قط، وما زالت تلعب دور العروس في ألعاب الأطفال على الرغم من أن لديها الآن ثلاثة أطفال. مشكلتها المال. «أوه، لا شيء يثير الملل مثل الضرائب أو الاتفاقات التجارية التبادلية أو برامج المساعدة الخارجية. أترك كل تلك الأمور الاقتصادية لممثلي المنتخب دستوريًا في واشنطن، كان الرب في عونه».

المشكلة هي مخصصها البالغ 42.10 دولارًا. وهي تكره أن تضطر إلى طلب المال من زوجها في كل مرة تحتاج فيها إلى زوج من الأحذية، لكنه لا يثق بفتح حساب باسمها، يتيح لها الشراء على الحساب. «أوه، كم أتمنى أن يكون لدي قليل من المال الخاص بي! لا أحتاج الكثير. بضع مئات في السنة ستفي بالغرض. ما يكفي فحسب للقاء صديقة على الغداء من حين لآخر، لأدلل نفسي بالتبذير على جوارب ملونة، بعض الأمور الصغيرة، دون أن أكون مضطرة إلى التماس ذلك من تشارلي. لكن، واحسرتاه! كان تشارلي على حق؛ لم أكسب دولارًا واحدًا في حياتي، ولا فكرة لدي عن كيفية جني المال. وهكذا فكل ما فعلته، زمنًا طويلًا، هو التفكير في أمور غير سارة، فيما أستمر في الطبخ والتنظيف والطبخ والغسيل والكي والطبخ».

وأخيرًا جاء الحل: ستستلم طلبيات ساندويتش من رجال آخرين في معمل زوجها. وهي تكسب 52.50 دولارًا في الأسبوع، باستثناء أنها تنسى أن تحسب التكاليف، ولا تتذكر كم يبلغ الإجمالي، وبالتالي تضطر

إلى إخفاء 8640 كيس ساندويتش خلف الفرن. يقول تشارلي إنها تصنع الساندويتشات بفخامة مبالغ فيها. فتشرح هي الأمر: «لو كان الأمر مجرد لحم الخنزير أو الجاودار، لكنت مجرد صانعة ساندويتش، ولست مهتمة بذلك. أما الأمور الإضافية، اللمسات الخاصة.. فـ.. حسنًا، هي التي تجعل الأمر إبداعيًا، على نحو ما». وبالتالي فهي تقطّع، وتغلّف، وتقشّر، وتغلق، وتنشر الخبز، تبدأ عند الفجر، ولا تنتهي أبدًا مقابل 9 دولارات صافية، تعمل حتى تتقزز من رائحة الطعام، ومن ثم تترنّح نازلة، بعد ليلة بلا نوم، حتى تقطع سجق السلامي في شرائح لعلب الغداء الثمانية الفاغرة أفواهها. «كان ذلك كثيرًا جدًا. انهار تشارلي عند ذلك بالضبط، وبعد نظرة خاطفة علي، أسرع لتناول كأس من الماء». تدرك أنها ستنجب طفلًا آخر.

«كانت أول كلمات مترابطة قالها تشارلي: 'سألغي طلبيات الغداء التي تعدّينها. أنت أم. هذا هو عملك. ليس عليك أن تكسبي المال أيضًا'. كان كل شيء بسيطًا على نحو جميل جدًا! وتمتمت: 'حاضر، يا رئيس'، بطاعةٍ وإحساس بالراحة، بصراحة». في تلك الليلة، جاءها بدفتر شيكات، وائتمنها على حساب مشترك. وهكذا، تقرر أن تبقى هادئة بخصوص أكياس الساندويتش الـ 8640. على أية حال، ستستخدمها كلها في إعداد الساندويتش لأربعة أولاد، لأخذها إلى المدرسة، من الآن وحتى يكون أصغرهم سنًا قد أصبح جاهزًا لدخول الجامعة.

قُطعت الطريق من سارة والطائرة البحرية إلى صانعة الساندويتش في عشر سنوات فقط. تبدو صورة المرأة الأمريكية، في هذه السنوات العشر، وكأنها قد عانت من انقسام فصامي. وهذا الانقسام في الصورة يمضي أبعد بكثير من الإلغاء الهمجي للمهنة من أحلام النساء.

في وقت سابق على ذلك، كانت صورة المرأة أيضًا منقسمة إلى نصفين: المرأة الطاهرة الطيّبة على قاعدة التمثال، والبغي التي تتبع رغبات الجسد. لكنّ الانقسام في الصورة الجديدة يفتح شقًا مختلفًا: بين المرأة الأنثوية،

التي تشمل طيبتها رغبات الجسد، والمرأة المهنية، التي يشمل إثمها كل رغبة من رغبات الذات المستقلة. وقصة الأخلاق الأنثوية الجديدة هي طرد شبح الحلم المحرم بحياة مهنية، انتصار البطلة على ميفيستوفيليس: الشيطان، أولًا على شكل المرأة المهنية التي تهدد بخطف زوج البطلة أو ابنها، وثانيًا الشيطان داخل البطلة ذاتها، حلم الاستقلالية وعدم رضى الروح، بل الشعور بهوية مستقلة، الذي يجب طرده من أجل الفوز بحب الزوج والابن والمحافظة عليه.

في قصة منشورة في مجلة ريدبوك في تشرين الثاني/ نوفمبر 1957، بعنوان «الرجل الذي تصرّف مثل زوج»، تتلقى البطلة -التي تشبه دمية الأطفال، وهي «فتاة صغيرة سمراء منمشة الوجه» لقبها «جونيور»- زيارة من زميلتها القديمة في السكن أيام الجامعة. زميلة السكن هذه، واسمها كاي، «فتاةُ رجلٍ حقًا، لديها قدرات طبيعية جيدة للقيام بالأعمال... كان شعرها الملمع بلون باذنجاني مرفوعًا بأناقة، وقد ثبّت بعودين مثل الأعواد التي يتناول فيها الصينيون الرز». ليست كاي مطلّقة وحسب، بل وتركت ابنها لدى جدته، لتعمل في التلفزيون. تغري هذه المرأة المهنية الشيطانية جونيور بفتنة الحصول على عمل، لتبعدها عن الإرضاع الطبيعي لطفلها. حتى أنها تمنع الأم الشابة من الذهاب إلى طفلتها عندما تبكي في الساعة الثانية صباحًا. لكنها تنال عقوبتها عندما يكتشف جورج -زوجها- الطفل الباكي غير مغطى، وريح باردة جدًا تدخل من نافذة مفتوحة، والدم يسيل على وجنته. تغيب كاي، المُصلَحة والتائبة، عن عملها، لتذهب، وتأخذ ابنها، وتبدأ الحياة من جديد. أما جونيور المتأملة بحبور في إرضاع الثانية صباحًا -«أنا سعيدة.. سعيدة.. سعيدة أنني ربة منزل ولا شيء آخر»- فتبدأ تحلم بطفلتها تكبر لتصبح ربة منزل هي الأخرى.

بعد أن أزيحت المرأة المهنية من الطريق، أصبحت ربة المنزل، التي لديها اهتمامات بالمجتمع، هي الشيطان الذي يجب طرده. حتى اجتماعات

أولياء الأمور والمعلمين قد تحتمل معنى مشكوكًا فيه، هذا حتى لا نذكر الاهتمام بقضية دولية ما (انظر: مقالة بعنوان «ما يشبه علاقة حب» Almost a Love Affair، في مجلة **ماك كول** في تشرين الثاني/ نوفمبر 1955). ربة المنزل، التي لديها ببساطة عقلها الخاص، هي أيضًا التي يجب التخلص منها. تتحدث قصة «لم أرد إخبارك» I Didn't Want to Tell You -المنشورة في **ماك كول** في كانون الثاني/ يناير 1958- عن زوجة تقوم بترصيد دفتر شيكاتها بنفسها، وتناقش زوجها حول تفصيل أسري صغير. وتتطور القصة بأن تفقد زوجها لصالح «أرملة صغيرة لا حول لها ولا قوة»، فتنتها الوحيدة هي أنها لا تستطيع أن «تفكر بوضوح» في بوليصة التأمين أو الرهن. تقول الزوجة المخدوعة: «لا بدّ أنها تتمتّع بجاذبية جنسية، وأي سلاح في يد الزوجة ضد ذلك؟» لكنّ أعزّ صديقاتها تقول لها: «إنك تبسّطين الأمر كثيرًا. أنت تنسين إلى أي مدى يمكن أن تكون تانيا عاجزة وممتنة للرجل الذي يساعدها...».

تقول الزوجة: «ما كان بإمكاني أن أكون عريشة متسلقة حتى لو حاولت. حصلت على عمل أفضل من المتوسط بعد أن غادرت الكلية، وكنت دائمًا شخصًا مستقلًا تمامًا. أنا لست امرأة صغيرة عاجزة، ولا أستطيع الادعاء أنني كذلك». لكنها تتعلم، تلك الليلة. تسمع ضجةً قد تكون صادرة عن لص؛ وعلى الرغم من معرفتها أنه مجرد فأر، فإنها تتصل بعجز بزوجها وتسترده. وفيم هو يهدئ روعها المزعوم، تهمس هي بأنه، بالطبع، كان على حق في نقاشهما ذلك الصباح. «تستلقي ساكنة في السرير الناعم، مبتسمة بعذوبة ورضا سرّي وبالكاد تشعر بالذنب».

نهاية الطريق، بالمعنى الحرفي تقريبًا، هي غياب البطلة كذات مستقلة وكموضوع لقصتها معًا. نهاية القصة هي الوجود معًا، حيث ليس للمرأة ذات مستقلة لتخفيها حتى مع شعور بالإثم، فهي لا توجد إلا من أجل زوجها وأولادها ومن خلالهم.

قبض المعلنون والكهان ومحرّرو الصحف بجشع على مفهوم «الوجود معًا»، الذي ابتكره ناشرو مجلة **ماك كول** في عام 1954 كحركة للأهمية الروحية. ورفع لفترة من الزمن إلى مستوى الهدف الوطني فعليًا. لكن، بسرعة شديدة ظهر نقد اجتماعي حاد ونكات مُرّة حول «الوجود معًا» كبديل للأهداف الإنسانية الأكبر، ولكن بالنسبة للرجال فقط؛ حيث اتهمت النساء بجعل أزواجهن يقومون بالعمل المنزلي بدلًا من تركهم يستكشفون الأمة والعالم. وطرح سؤال: لمَ ينبغي على الرجال، الذين يتمتعون بقدرات رجال الدولة وعلماء الإنسان والفيزيائيين والشعراء، أن يغسلوا الأطباق، ويحفّضوا الأطفال في أماسي أيام الأسبوع العادية أو في صباحات أيام السبت، عوض أن يستخدموا هذه الساعات الإضافية لإنجاز التزامات أكبر لمجتمعهم؟

من الأهمية بمكان أن نذكر أنّ النقاد لم يمتعضوا إلّا لأنه طُلب من الرجال أن يشاركوا «عالم النساء». وقلّة فقط وضعت حدود عالم النساء ذاك موضع التساؤل. ويبدو أن أحدًا لم يتذكّر أنه كان ذات يوم يظنّ أن النساء يمتلكن قدرة رجال الدولة والفيزيائيين والشعراء ورؤيتهم. وقلّة فقط رأت كذبة «الوجود معًا» الكبيرة على النساء.

فكّروا في عدد عيد الفصح لعام 1954 من مجلة **ماك كول**، التي أعلنت عصر الوجود معًا الجديد، تاليةً قدّاس الجنازة على الأيام التي حاربت النساء فيها من أجل المساواة السياسية، والمجلات النسائية «ساعدتك في شقّ مجالات واسعة للعيش كانت فيما مضى محرّمة على جنسك». الطريقة الجديدة في الحياة، التي «تتزوج فيها أعداد متزايدة باضطراد من الرجال والنساء في عمر مبكر، وتنجب الأطفال في عمر مبكر، وتنشئ عائلات أكبر، وتحصل على أعمق رضاها» من بيوتهم، هي الطريقة التي «ينجز الرجال والنساء والأطفال معًا... لا النساء وحدهن، أو الرجال وحدهم، منعزلين بعضهم عن البعض الآخر، بل كعائلة، مشتركين في تجربة مشتركة».

عنوان المقالة المصورة، التي تفصّل تلك الطريقة في الحياة، هو «مكان الرجل في البيت». وهي تصف زوجين من نيوجرسي، لديهما ثلاثة أولاد في بيت خشبي رمادي اللون من طابقين، على أن تلك هي الصورة والمثال الجديدان. لقد جعل إد وكارول «أولادهما وبيتهما مركز حياتهما بالكامل تقريبًا». ويُقَدّمان لنا وهما يتسوقان معًا، ويقومان بأعمال النجارة معًا، ويلبسان الأولاد معًا، ويعدان الفطور معًا. «ثم ينضمّ إد إلى أعضاء مجموعته في السيارة، ويتجه نحو المكتب».

يختار الزوج إد نظام الألوان للمنزل، ويتخذ القرارات الرئيسية المتعلقة بالديكور. وهناك قائمة بالأعمال اليومية التي يحبها: جولة حول البيت، ترتيب الأشياء، الدهان، اختيار الأثاث والسجاد والستائر، تجفيف الصحون، القراءة للأولاد وأخذهم إلى السرير، العمل في الحديقة، إطعام الأولاد وإلباسهم وتحميمهم، حضور اجتماعات جمعية أولياء الأمور والمعلمين، الطبخ، شراء الملابس لزوجته وشراء الحاجات من عند السمان.

لكنّ إد لا يحب الأمور التالية: نفض الغبار، التنظيف بالمكنسة الكهربائية، إنهاء الأعمال التي بدأها، تعليق الستائر، غسل القدور والمقلايات والصحون، تنظيف المكان بعد الأطفال، جرف الثلج، جزّ العشب من المرجة، تغيير البياضات، أخذ جليسة الأطفال إلى البيت، الغسيل، الكي. وإد بالطبع لا يقوم بهذه الأشياء.

> لمصلحة كل فرد في العائلة تحتاج العائلة إلى رأس، وهذا يعني الأب وليس الأم... ويجب أن يتعلم الأولاد من الجنسين قدرات كل جنس ووظائفه، ويقدّروها، ويحترموها... إنه ليس مجرّد أمّ بديلة، على الرغم من أنه جاهز ومستعد للقيام بحصته في تحميم الأولاد وإطعامهم وإراحتهم ولعبهم. إنه حلقة وصل مع العالم الخارجي الذي يعمل فيه. فإذا كان في ذلك العالم مهتمًا وشجاعًا ومتسامحًا وبنّاءًا، فسينقل تلك القيم إلى أبنائه.

عُقدت اجتماعات تحريرية مكروبة كثيرة في مجلة ماك كول في تلك الأيام. «فجأةً أخذ الجميع يفتشون عن المعنى الروحي في الوجود معًا

متوقّعين منا أن نخرج بحركة دينية غامضة ما من تلك الحياة التي كان الجميع يعيشونها خلال السنوات الخمس الماضية كالزحف إلى البيت وإدارة ظهورنا للعالم، لكننا لم نستطع أبدًا أن نجد طريقة لإظهاره إلا وكانت جحيمًا من السأم»، حسبما يتذكّر محرّر سابق في **ماك كول**. «كان الأمر ينتهي دائمًا إلى: رائع.. رائع.. رائع.. أبي في الحديقة يقوم بالشواء. كنا نضع رجالًا في الصور المخصصة للأزياء وللطعام وحتى للعطر. لكن كان ذلك يخنقنا تحريريًا».

«كانت لدينا مقالات كتبها أطباء نفسيون، ولم نتمكن من استخدامها، لأنهم كانوا يعبرون عن الموضوع بصراحة تامة: كل هؤلاء الأزواج يضعون كامل وزنهم على أولادهم. لكن ما الذي يمكن أن تفعله بالوجود معًا غير رعاية الأولاد؟ كنا ممتنين، على نحو مؤثر، لرؤية أي شيء آخر يمكن أن نقدّم فيه أبًا مُصوَّرًا مع أم. كنا أحيانا نتساءل: ما الذي سيحدث للنساء إذا تولّى الرجال القيام بالديكور والعناية بالأطفال والطبخ وجميع الأشياء التي كانت من نصيبها وحدها. لكننا لم نتمكن من تقديم نساء يخرجن من البيت، ويحصلن على مهنة. السخرية هي أنّ ما أردنا القيام به هو التوقف عن تحرير الصحف للنساء، كنساء، وأن نحررها للرجال والنساء معًا. أردنا أن نحرّرها للناس، لا للنساء».

لكن هل تستطيع النساء الممنوعات من الانضمام إلى الرجال أن يكن أناسًا؟ وممنوعات من الاستقلالية، تبتلعهن في النهاية صورة ذلك الاتكال السلبي إلى حدّ أنهن يردن من الرجال أن يتخذوا القرارات حتى في المنزل. يكشف الوهم المسعور، بأن الوجود معًا يمكن أن يمنح محتوى روحيًا لسأم الرتابة المنزلية والحاجة إلى حركة دينية للتعويض عن انعدام الهوية، مقدار خسارة النساء وخواء الصورة. هل يمكن لجعل الرجال يشاركون في العمل المنزلي أن يعوّض النساء عن خسارة العالم؟ هل يمكن لتنظيف أرضية غرفة المعيشة معًا بالمكنسة الكهربائية أن يعطي ربة المنزل هدفًا ما جديدًا غامضًا في الحياة؟

في عام 1956، في ذروة الوجود معًا، نشر المحررون الضجرون في ماك كول مقالة صغيرة بعنوان «الأم التي هربت» The Mother Who Ran Away. ولدهشتهم، اجتذبت من القرّاء عددًا أكبر من أية مقالة أخرى سبق نشوها. قال محرّر سابق: «كانت لحظة الحقيقة لنا. أدركنا فجأة أن تلك النساء في بيوتهن مع ثلاثة أطفال ونصف هن تعيسات على نحو بائس».

لكن بحلول ذلك الوقت، كانت الصورة الجديدة للمرأة الأمريكية «المهنة: ربة منزل» قد تصلّبت في لغزٍ لا يقبل الجدل ولا يسمح بأي سؤال مشكّلًا الواقع نفسه الذي شوهه.

ومع حلول الوقت الذي بدأتُ فيه الكتابة للمجلات النسائية في الخمسينيات، كان أمرًا مفروغًا منه بين المحررين، ومقبولًا كحقيقة ثابتة من حقائق الحياة بين الكتّاب، أن النساء لم يكن لديهن اهتمام بالسياسة أو بالحياة خارج الولايات المتحدة أو بالقضايا الوطنية أو بالفن أو بالعلم أو بالأفكار أو بالمغامرة أو بالتعليم أو حتى بمجتمعاتهن المحلية، إلّا حيث يمكن بيعهن عن طريق عواطفهن كزوجات وأمهات.

أصبحت السياسة للنساء هي ملابس مامي والحياة الأسرية لآل نيكسون. وخارج الضمير وبشعور بالواجب، قد تنشر **ليديز هوم جورنال** سلسلة من مثل «تقدم الحاج السياسي»[1]، تظهر النساء، وهنّ يحاولن تحسين مدارس أبنائهن وملاعبهم. لكن، حتى مقاربة السياسة من خلال حب الأم لم تكن فعلًا تهم النساء، فذلك اهتمام بالمهنة. عرف الجميع نسب القرّاء تلك. حاول أحد المحررين في ريدبوك، على نحو إبداعي، أن ينزل القنبلة إلى المستوى الأنثوي عن طريق إظهار انفعالات زوجة أبحر زوجها إلى منطقة ملوثة.

ووافق على كلامه الرجال الذين كانوا يحررون المجلات النسائية

---

(1) Political Pilgrim's Progress، حيث Pilgrim's Progress رواية رمزية للكاتب الإنكليزي جون بنيان (John Bunyan)، نشرت عام 18 76.

الجماهيرية: «لا تستطيع النساء أخذ فكرة أو قضية ما على نحو صرف. تجب ترجمتها في مصطلحات يمكنهن فهمها كنساء». لقد فهم أولئك الذين كانوا يكتبون للمجلات النسائية هذا جيدًا، حتى أن خبيرًا في الولادة الطبيعية أرسل إلى مجلة نسائية رائدة مقالة بعنوان «كيف تلدين طفلًا في ملجأ ضد القنابل الذرية». وأخبرني أحد المحررين أن «المقالة لم تكن مكتوبة جيدًا، وإلا لكنّا ربما اشتريناها». حسب اللغز، قد تهتم النساء، في أنوثتهن الغامضة، بالتفاصيل البيولوجية الملموسة لإنجاب طفل في ملجأ ضد القنابل، لكنّ الفكرة المجردة عن قدرة القنبلة على تدمير الجنس البشري لا تهمهنّ قط.

تصبح مثل هذه القناعة، بالطبع، نبوءة عن التحقق الذاتي. ففي عام 1960، أراني عالم نفس اجتماعي متبصر بعض الإحصاءات الحزينة التي بدت وكأنها تثبت، على نحو لا لبس فيه، أن النساء الأمريكيات، تحت سن الخامسة والثلاثين، لا يهتممن بالسياسة. «قد يتمتعن بحق التصويت، لكنهن لا يحلمن بخوض السباق من أجل منصب ما»، حسبما قال لي. «وإذا كتبتِ مقالة سياسية، فلن يقرأنها. يجب أن تترجميها إلى مسائل يمكنهن فهمها: رومانسية، حمل، حضانة، أثاث منزلي، ملابس. انشري مقالة عن الاقتصاد أو المسألة العرقية أو الحقوق المدنية، وستظنين أن النساء لم يسمعن بهذه الأمور قط».

ربما لم يسمعن بها. الأفكار ليست مثل غرائز الدم التي تقفز إلى الذهن سليمة لم يمسها أحد. الأفكار تنتقل عن طريق التعليم، عن طريق الكلمة المطبوعة. وربّات المنازل الشابات الجديدات، اللواتي يتركن المدرسة الثانوية أو الجامعة ليتزوجن، لا يقرأن الكتب، كما تقول المسوح السيكولوجية. يقرأن المجلات فقط. والمجلات اليوم تفترض أن النساء لا يهتممن بالأفكار. لكن عند عودتي إلى المجلدات في المكتبة، وجدت أن المجلات واسعة الانتشار في الثلاثينيات والأربعينيات، من مثل ليديز

هوم جورنال، تضمنت مئات المقالات حول العالم خارج المنزل. «أول قصة داخلية عن العلاقات الدبلوماسية الأمريكية قبل الحرب المعلنة»؛ «هل تستطيع الولايات المتحدة أن تعيش بسلام بعد هذه الحرب؟» بقلم وولتر ليبمان (Walter Lippmann)؛ «ستالين عند منتصف الليل» بقلم هارولد ستاسن (Harold Stassen)؛ «تقرير الجنرال ستيلويل (Stilwell) عن الصين»؛ مقالات عن الأيام الأخيرة لتشيكوسلوفاكيا بقلم فنسن شيان (Vincent Sheean)؛ اضطهاد اليهود في ألمانيا؛ الخطة الاقتصادية الجديدة[1]؛ رواية كارل ساندبرغ (Carl Sandburg) عن اغتيال لينكولن؛ قصص فوكنر (Faulkner) عن الميسيسيبي؛ ومعركة مارغريت سانغر[2] (Margaret Sanger) من أجل تحديد النسل.

في الخمسينيات، لم يطبعوا فعليًا أية مقالات إلّا تلك التي تخدم النساء بوصفهن ربّات منازل، أو تصفهن كربّات منازل، أو تسمح بالتعريف الأنثوي البحت، من مثل دوقة ويندسور أو الأميرة مارغريت. قال لي أحد محرري ليديز هوم جورنال: «لو حصلنا على مقالة عن امرأة تقوم بشيء مغامر، شيء غير مألوف، شيء لذاتها، فأنت تعرفين، سنعتبر أنها لابدّ أن تكون عدوانية بشكل مرعب، عُصابية». ما كان لمارغريت سانغر أن تجد طريقًا إلى المجلات اليوم.

في عام 1960، رأيتُ إحصائيات تبيّن أن النساء اللواتي أعمارهن أقل من خمسة وثلاثين عامًا لم يتمكنّ من التماثل مع بطلة قصة جريئة؛ كانت

(1) New Deal: مجموعة سياسات اقتصادية إصلاحية وضعتها إدارة الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت في الثلاثينيات - المترجم.

(2) Margret Sanger، مارغرت سانغر (1879 - 1966): مصلحة اجتماعية وناشطة في مجال تحديد النسل وتطوير وسائل منع الحمل. وتُعتَبر مساهِمة أساسية في نشر مصطلح birth control (معناه الحرفي التحكّم في الولادة، والكلمة تطلق على تحديد النسل كمفهوم، وعلى وسائل منع الحمل)، كما ساهمت جهودها في إقرار القوانين التي تسمح بتصنيع وبيع وسائل منع الحمل - الناشر.

تعمل في وكالة إعلانات، وأقنعت فتاها بالبقاء والقتال من أجل مبادئه في المدينة الكبيرة بدلًا من الهرب إلى بلدته، إلى أمان العمل العائلي. كما لم تتمكن ربات المنازل الشابات الجديدات تلك من التماثل مع كاهن شاب يتصرف وفق قناعته دفاعًا عن الأعراف. لكنهنّ لم يجدن أية مشكلة في التماثل مع شاب أصيب بالشلل في الثامنة عشرة. (««استعدت وعيي، لأكتشف أنني لم أكن قادرًا على الحركة أو الكلام. تمكنت من هزّ إصبع واحد في إحدى يدي». لكنني، بمساعدة الإيمان وطبيب نفسي، «أجد الآن أسبابًا لأعيش قدر الإمكان»).

هل تدلّ قدرة القارئات ربات المنازل الجديدات -والتي يشهدها أي محرر، على أن يتماثلن تمامًا مع ضحايا العمى والطرش والتشوه الجسدي والشلل الدماغي والشلل الجسدي والسرطان والموت المقترب- على شيء؟ كانت تلك المقالات عن أشخاص لا يستطيعون الرؤية أو الكلام أو الحركة مادةً رئيسيةً دائمة في المجلات النسائية في فترة «المهنة: ربة منزل». كانت تروى، مرة تلو المرة، بتفاصيل واقعية لا نهاية لها، لتحل محل المقالات المتعلقة بالوطن والعالم والأفكار والقضايا والفن والعلم، ولتحل محل القصص التي تدور عن النساء الجسورات المغامرات. وسواء كان الضحية رجلًا أو امرأةً أو طفلًا، وسواء كانت المعاناة إصابة بمرض السرطان، أو شللًا زاحفًا، فإن القارئة ربة المنزل تستطيع أن تتماثل معه.

كان المحررون، خلال كتابتي لتلك المجلات، يذكّرونني دائمًا بأنّ «النساء يجب أن يتماثلن». أردت مرة أن أكتب مقالة عن فنانة. وهكذا كتبت عن طبخها وذهابها إلى السوق وحبها لزوجها ورسم مهد لطفلها. كان علي أن أضع جانبًا الساعات التي قضتها ترسم الصور، عملها الجاد.. والطريقة التي كانت تشعر بها تجاهه. كنتِ تستطيعين، أحيانًا، أن تنصرفي إلى الكتابة عن امرأة ليست فعليًا ربة أسرة، إذا جعلتها تبدو مثل ربة أسرة، إذا وضعت جانبًا التزامها بالعالم خارج المنزل، أو الرؤية الخاصة لعقلها

أو روحها، والتي تسعى وراءها. في شباط عام 1949، نشرت ليديز هوم جورنال مقالًا رئيسيًا بعنوان «مطبخ شاعرة»، تظهر فيه إدنا سانت فنسنت ميلاي وهي تطبخ. «لا أتوقع الآن أن أسمع المزيد عن أنّ العمل المنزلي غير جدير بأحد، لأنه إذا كانت إحدى أعظم شاعرات عصرنا، وكل عصر، تستطيع أن تجد الجمال في مهمات المنزل البسيطة، فهذه نهاية الخلاف القديم».

كانت «المرأة المهنية» الوحيدة المرحّب بها دائمًا على صفحات المجلات النسائية هي الممثلة. لكنّ صورتها أيضًا خضعت لتغيير ملحوظ: من فرد مركّب من طبع ناري وعمق داخلي ومزيج نغزي من الروح والجنسانية إلى موضوع جنسي أو عروس بوجه طفل أو ربة منزل. فكّروا في غريتا غاربو، على سبيل المثال، ومارلين ديتريش وبيت ديفيس وروساليند رسيل وكاترين هيبورن. ثم فكروا في مارلين مونرو وديبي رينولدز وبريجيت باردو و«أنا أحب لوسي».

عندما كنت تكتبين عن ممثلة لمجلة نسائية، كنت تكتبين عنها بوصفها ربّة منزل. لم تكوني لتظهريها قط تقوم بعملها كممثلة، أو تستمتع به، ما لم تدفع في النهاية ثمن ذلك خسارة زوجها أو ابنها، أو بالعكس الاعتراف بالفشل كامرأة. وصفت لمحة شخصية عن جودي هوليداي (Judy Holliday) في مجلة ريدبوك في حزيران/ يونيو 1957 كيف أنّ «امرأة لامعة بدأت تجد في عملها الفرح الذي لم تجده قط في حياتها». يُقال لنا إنها تلعب على الشاشة «بحرارة وإقناع دور زوجة ناضجة وذكية وأم حامل، دور لا يشبه أي شيء حاولت القيام به من قبل». يجب أن تجد التحقق في مهنتها، لأنها مطلقة من زوجها، ولديها «مشاعر قوية بالقصور كامرأة... إنها سخرية محبطة في حياة جودي، وهي أنها نجحت كممثلة دون جهد كبير، لكنها فشلت كامرأة...».

ومن الغريب بما يكفي، أنه فيما كان اللغز الأنثوي ينتشر منكرًا المهن النسائية أو أي التزام خارج المنزل، كانت نسبة النساء الأمريكيات العاملات

خارج المنزل تزداد لتصل إلى واحدة من كل ثلاثة. صحيح أنّ اثنتين من كل ثلاث نساء كنّ ربات منازل، ولكن لماذا في اللحظة، التي فُتِحت فيها أخيرًا أبواب العالم أمام كل النساء، يجب أن ينكر اللغز الأحلام ذاتها التي حركت النساء على مدى قرن؟

وجدت إشارة إلى ذلك ذات صباح. كنت جالسة في مكتب محررة مجلة نسائية، امرأة أكبر مني سنًا، تتذكر الأيام التي كانت الصورة القديمة تتكوّن فيها، وقد راقبتْ تلك الصورة وهي تستبدل. تكوّنت الصورة القديمة للفتاة المهنية الجريئة، إلى حد كبير، على يد كاتبات ومحررات، كما قالت لي. أما الصورة الجديدة للمرأة كربّة منزل-أم فقد تكوّنت وإلى حد كبير على يد كتّاب ومحررين من الرجال.

قالت بشي من الحنين: «كانت معظم المواد تأتي من كاتبات. وعندما عاد الشباب من الحرب، انسحبت كاتبات كثيرات من الميدان. بدأت النساء الشابات ينجبن الكثير من الأولاد، وتوقفن عن الكتابة. كان جميع الكتاب الجدد رجالًا، وقد عادوا من الحرب حالمين بحياة أسرية دافئة». وأخذت البطلات «المهنيات» المرحات يتقاعدن واحدة تلو الأخرى. ومع نهاية الأربعينيات، كانت الكاتبات، اللواتي لم يتمكنّ من اكتساب براعة الكتابة في الصورة الجديدة لربة المنزل، قد تركن مجال المجلات النسائية. أما محترفو المجلات الجدد فكانوا رجالًا، وتمكنت بضعة نساء فقط من الكتابة، براحة، وفق صيغة ربة المنزل. بدأ أشخاص آخرون يتجمعون وراء الكواليس في المجلات النسائية: كان هناك نوع جديد من الكاتبات اللواتي يعشن في صورة ربة المنزل، أو يدّعين ذلك، وكان هناك نوع جديد من المحررات أو الناشرات، لم يكن اهتمامهن بالأفكار للوصول إلى عقول النساء وقلوبهن يرقى إلى مستوى اهتمامهن ببيع الأشياء التي تهمّ أصحاب الإعلانات: أجهزة، منظفات، أقلام حمرة. واليوم، يشكّل الرجال الصوت المقرّر في معظم هذه المجلات. غالبًا ما تنفّذ النساء الصيغ؛ تحرر النساء

أقسام «خدمات» ربة المنزل، أمّا الصيغ نفسها، التي فرضت صورة ربة المنزل الجديدة، فهي نتاج عقول الرجال.

وكذلك، فقد اختفى من المجلات النسائية الجماهيرية، خلال الأربعينيات والخمسينيات، كتّاب الروايات الجادون من الجنسين. في الحقيقة استبدلت الروايات، من أية نوعية، كليةً تقريبًا بنوع مختلف من المقالات. ولم تعد المقالات القديمة التي تدور حول قضايا أو أفكار بالمقالات الرئيسية «الخدمية» الجديدة. كانت هذه المقالات، أحيانًا، تبدد البراعة الفنية لشعر مراسل صحفي متحمس وصدقه على إعداد الفطائر الشيفونية أو شراء الغسالات أو المعجزات التي يمكن أن يفعلها الدهان لغرفة المعيشة أو النظام الغذائي والأدوية والألبسة وأدوات التجميل لتحويل الجسم إلى آية في الجمال الجسدي. وكانت أحيانًا تعالج أفكارًا دقيقة جدًا: آخر التطورات في الطب النفسي، علم نفس الطفل، الجنس والزواج، الطب. كان هناك افتراض بأن القارئات يمكن أن يستوعبن هذه الأفكار التي تناسب احتياجاتهن كزوجات وأمهات، لكن فقط إذا بُسّطت إلى تفاصيل مادية ملموسة، وتمّ التعبير عنها بمصطلحات الحياة اليومية لربة منزل عادية مع أوامر ونواهي ملموسة. كيف تبقين زوجك سعيدًا؛ كيف تحلين مشكلة تبوّل طفلك في سريره؛ كيف تبعدين الموت عن صيدليتك المنزلية...

ولكن ها هنا شيء مثير للفضول. كانت مقالات المجلات النسائية ضمن مجالها الضيق، سواء خدمة مباشرة لربة المنزل أو تقرير وثائقي عن ربة المنزل، أرفع في نوعيتها من روايات المجلات النسائية. كانت مكتوبة على نحو أفضل وأصدق وأكثر تطورًا. ذكر قرّاء أذكياء ومحررون محتارون والكتّاب أنفسهم هذه الملاحظة المرة تلو المرة. قال محرر في ريدبوك: «لقد أصبح كتّاب الرواية ذاتيين زيادة عن اللزوم. لا يستطيع قرّاؤنا فهمهم، وهكذا، لم يبق لدينا سوى كتّاب الصيغ الجاهزة». لكن، في الأيام القديمة،

كان كتاب جذوب، من مثل نانسي هيل (Nancy Hale) ووليم فوكنر، يكتبون للمجلات النسائية، ولم يعتبروا غير مفهومين. ربما لم تسمح صورة النساء الجديدة بالصدق الداخلي وعمق الإدراك والحقيقة البشرية، وهي أمور ضرورية لتكون الرواية جيدة.

تتطلب الرواية في الحد الأدنى بطلًا أو، وهو ما يمكن تفهمه، بطلة للمجلات النسائية تتحدث بصيغة «أنا»، وتلاحق هدفًا أو حلمًا إنسانيًا. هناك حدّ لعدد القصص التي يمكن كتابتها عن فتاة تلاحق فتى، أو ربة منزل تلاحق كرة من الغبار تحت الأريكة. وهكذا تتولى المقالة الخدمية الأمر مستبدلةً الصدق الداخلي والحقيقة اللازمين في الرواية بوفرة من التفاصيل الأسرية الواقعية الملموسة الموضوعية الصادقة: لون الجدران أو حمرة الشفاه أو درجة الحرارة المضبوطة للفرن.

من شأن الحكم، بناءًا على المجلات النسائية اليوم، أن يجعل التفاصيل الملموسة لحياة النساء تبدو ممتعة أكثر من تفكيرهن وأفكارهن وأحلامهن. أم إنّ وفرة التفاصيل وواقعيتها، والوصف الدقيق للحوادث الصغيرة، تضع قناعًا على نقص الأحلام وخواء الأفكار والملل المرعب الذي ألقى بظله الثقيل على ربة المنزل الأمريكية؟

جلست في مكتب محررة قديمة أخرى، واحدة من المحررات القليلات اللواتي منذ زمن يعملن في عالم المجلات النسائية الذي سيطر عليه الرجال الآن إلى حد بعيد. وشرحت لي دورها في خلق اللغز الأنثوي: «خضعت الكثيرات منا للتحليل النفسي. وبدأنا نشعر بالحرج من أننا نساء عاملات. كان هناك خوف مرعب من فقدان أنوثتنا. وظللنا نبحث عن طرق لمساعدة النساء في قبول دورهن الأنثوي».

إذا لم تكن المحررات الحقيقيات قادرات، على نحو ما، على التخلّي عن مهنهن، فهناك دافع أكبر لأن «يساعدن» النساء الأخريات على تحقيق

أنفسهن كزوجات وأمهات. لا تستسلم النساء القليلات، اللواتي ما زلن يجلسن في مؤتمرات المحررين، للغز الأنثوي في حياتهن الخاصة. لكن، تلكم هي قوة الصورة التي ساعدن في تكوينها حتى أنّ كثيرات منهن يشعرن بالذنب. وإذا كنّ قد خسرن في مكان ما الحب أو الأطفال، فإنهن يتساءلن ما إذا كان اللوم يقع على حياتهن المهنية.

قالت لي محررة في مجلة **مادموزيل** (Mademoiselle)، من وراء مكتبها الذي تتبعثر فوقه الأشياء، بقلق: «تبدو الفتيات اللواتي نأتي بهن حاليًا محررات زائرات من الكلية وكأنهن يشفقن علينا، لأننا نساء عاملات. كما أظن. في جلسة غداء مع آخر مجموعة، طلبنا منهن أن يتحدثن بالدور حول الطاولة عن خططهن المهنية. لكن لم ترفع أية واحدة من الفتيات العشرين يدها. عندما أتذكر كيف عملت لأتعلم هذا العمل وأحبه.. هل كنا جميعًا مجنونات حينها؟».

بالاقتران مع المحررات، اللواتي كنّ يبعن أنفسهن البضاعة التي ينتجنها، بدأ نوع جديد من الكاتبات يكتبن عن أنفسهن، كما لو كنّ «ربات منازل فقط» مستمتعات في عالم هزلي من مزاح الأطفال والغسالات الغريبة **وليلة الأولياء** في جمعية أولياء الأمور والمعلمين. تكتب شيرلي جاكسون (Shirley Jackson) في **ماك كول** في نيسان/ أبريل 1956: «بعد ترتيب سرير صبي في الثانية عشرة من عمره أسبوعًا بعد آخر، سيبدو تسلّق قمة إيفرست بمثابة خيبة أمل مثيرة للضحك». عندما تصوّر شيرلي جاكسون، التي كانت طيلة حياتها الراشدة كاتبة بارعة إلى أبعد حد، في ملاحقتها لحرفة أكثر تطلبًا بكثير من ترتيب السرير، والكاتبة المسرحية جين كير (Jean Kerr) والشاعرة فيلّيس ماك جينلي (Phyllis McGinley)، أنفسهن ربات منازل فربما يغفلن مدبرة المنزل أو الخادمة التي ترتب الأسرّة فعلًا، وربما لا. لكنهن ضمنًا ينكرن الرؤية والعمل الشاق المرضي المبذول في قصصهن وأشعارهن ومسرحياتهن. ينكرن الحياة التي يعشنها، لا بوصفهن ربات منازل، بل أفرادًا.

إنهن حِرفيّات جيدات، أفضل من تلك الكاتبات ربات المنازل. وعمل بعضهن مسلّ. غالبًا ما تكون الأمور التي تحدث مع الأطفال، السيكارة الأولى لصبي في الثانية عشرة، فريق ليتل ليج للبيسبول وفرقة الإيقاع في الروضة، مضحكة؛ وهي تحدث في الحياة الحقيقية مع النساء الكاتبات، كما مع النساء اللواتي لسن سوى ربات منازل. لكن، هناك شيء ما، في الكاتبات ربات المنازل، ليس مضحكًا... مثل العم توم أو أموس وآندي. «اضحكي»، تنصح الكاتبات ربات المنازل ربة المنزل الحقيقية. «إذا كنت تشعرين باليأس أو الفراغ أو بأنك واقعة في فخ تفاصيل ترتيب الأسرّة وقيادة السيارة وغسل الصحون. أليس ذلك مضحكًا؟ نحن جميعًا في الفخ ذاته». هل تبدّد ربات المنازل الحقيقيات إذًا أحلامهن وشعورهن باليأس في الضحك؟ هل يعتقدن أن قدراتهن المحبطة وحياتهن المحدودة نكتة؟ ترتّب شيرلي جاكسون الأسرّة، وتحب ابنها، وتضحك عليه.. وتكتب كتابًا آخر. و تنتج مسرحيات جين كير على مسرح برودواي. لا تدور النكتة **حولهن**.

تعيش بعض الكاتبات ربّات المنازل الجديدات الصورة؛ تخبرنا **ريدبوك** أن كاتبة مقالة عن «الإرضاع الطبيعي»، امرأة اسمها بيتي آن كونتري وومن، «قد خططت لتصبح طبيبة. لكن، قبل تخرجها مباشرة من جامعة رادكليف بدرجة الشرف، ارتدّت عن تلك الفكرة، لأن تكريس نفسها لذلك قد يغلق في وجهها باب ما كانت تريده فعلًا، وهو أن تتزوج، وتكوّن عائلة كبيرة. سجّلت اسمها في مدرسة التمريض في جامعة يال، ثمّ خُطبت إلى طبيب نفسي في أول موعد لهما. والآن، لديهما ستة أولاد تتراوح أعمارهم بين سنتين وثلاث عشرة سنة، والسيدة كونتري وومن الآن مدرّسة في رابطة الأمومة في إنديانابوليس» (**ريدبوك**، حزيران/ يونيو 1960). وهي تقول:

يصبح الإرضاع الطبيعي، بالنسبة للأم، تتمة لفعل الخلق. يعطيها إحساسًا مضاعفًا بالتحقق، ويسمح لها بالمشاركة في علاقة أقرب إلى الكمال من أية علاقة يمكن للمرأة أن تأمل بتحقيقها... لكن الحقيقة البسيطة المتمثلة بالإنجاب لا تحقق بذاتها هذه الحاجة وهذا الشوق... الحنوّ الأمومي طريقة

في الحياة، فهو يمكّن المرأة من التعبير عن ذاتها الشاملة بالمشاعر الرقيقة والمواقف الحمائية والحب الغامر للمرأة الأمومية.

عندما تعرّف الأمومة -وهي تحقّقٌ اعتبر مقدسًا على مرّ العصور- على أنها طريقة شاملة في الحياة، فهل يجب أن تنكر النساء العالم والمستقبل المفتوحين لهن؟ أو هل إنكار ذلك العالم يجبرهن على جعل الأمومة طريقة شاملة في الحياة؟ ينحلّ الخيط بين اللغز والواقع؛ فالنساء الحقيقيات يجسّدن الانقسام في الصورة. في عدد عيد الميلاد المذهل لعام 1956 من مجلة لايف، المخصص كليةً للمرأة الأمريكية «الجديدة»، نرى «المرأة العاملة» النموذجية، لا كشخصية شريرة في مجلة نسائية، بل كحقيقة وثائقية -«ذلك الخطأ القاتل الذي نشرته النسوية»- تطلب «المساعدة» من طبيب نفسي. إنها ذكية وحسنة التعليم وطموحة وجذابة، وهي تجني من المال تقريبًا مقدار ما يجني زوجها، لكنها تُقدّم هنا على أنها «محبطة» و«مسترجلة» بفعل مهنتها، إلى درجة أن زوجها السلبي العاجز المخصي لا يبالي تجاهها جنسيًا. وهو يرفض أن يتحمل المسؤولية، ويغرق ذكورته المحطمة في الإدمان على الكحول.

ثمّ هناك الزوجة من الضواحي المستاءة التي تثير الفوضى في جمعية أولياء الأمور والمعلمين. إنها تحطم أبناءها، وتسيطر على زوجها الذي تحسده على خروجه إلى عالم الأعمال. «تجد الزوجة، التي سبق وعملت قبل الزواج، أو التي -على الأقل- تعلّمت من أجل عمل فكري ما، نفسها في وضع مؤسف هي فيه 'مجرد ربة منزل'... وفي سخطها يمكن أن تسبب من الضرر لحياة زوجها وأولادها (وحتى لحياتها الخاصة) ما يمكن أن تسببه لو كانت صاحبة مهنة، وأحيانًا أكثر، في الواقع».

وأخيرًا، في تباين مرح وباسم، هل تمثّل ربّات المنازل-الأمهات الجديدات المتمسكات بـ«اختلافهن»، بـ«أنوثتهن الفريدة»، «الاستقبالية والسلبية المتضمنة في طبيعتهن الجنسية». هنّ، متفرغات لجمالهن

وقدرتهن على الحمل وتربية الأولاد، «نساء أنثويات، بمواقف أنثوية حقًا، ومحل إعجاب الرجال لقدرتهن الخارقة الفريدة بامتياز، الممنوحة من الله على ارتداء التنورات مع كل ما تتضمنه تلك الحقيقة». تقول مجلة **لايف**، مبتهجةً بـ«عودة ظهور العائلة العتيقة المؤلفة من 5-3 أولاد في حي مدهش، ضواحي الطبقة العليا والمتوسطة العليا»:

هنا، بين النساء اللواتي قد يكن حاصلات على أحسن تأهيل «لحياة مهنية»، يوجد تأكيد متزايد على قيم تربية الأولاد والتدبير المنزلي. قد يخمّن المرء... هذا لأن تلك النساء أفضل اطلاعًا وأكثر نضجًا من المتوسط، لقد كنّ أول من فهمن عقوبات «النسوية» وقاومنها... تميل الأساليب، في الأفكار كما في الثياب والديكور، إلى التسرّب نازلة من تلك الأماكن إلى فئات أوسع من السكان... هذا هو الاتجاه المضاد الذي قد يدمّر في النهاية الاتجاه السائد والمخرّب، ويجعل الزواج ما يجب أن يكون عليه: شراكة حقيقية يكون فيها الرجال رجالًا والنساء نساءً، وكلاهما، بهدوء وسرور، واثقٌ تمامًا من وضعه، ومبتهج بالتأكيد لأن يرى نفسه متزوجًا من شخص من الجنس الآخر.

وتألقت مجلة **لوك**، في الفترة ذاتها تقريبًا (16 تشرين الأول/ أكتوبر 1956):

تفوز المرأة الأمريكية في المعركة بين الجنسين. فهي، كمراهقة، تكبر، وتدحض ناقديها... وبما أنها لم تعد مهاجرة نفسيًا إلى عالم الرجل، فإنها تعمل، على نحو عرضي في الغالب، بوصفها ثلث القوة العاملة في الولايات المتحدة، وهي أميلُ إلى أخذ الأمر على أنه طريقة لملء صندوق جهاز عرسها أو لشراء جمّادة منزلية جديدة، منها إلى الاتجاه إلى «مهنة كبيرة». وهي تتنازل، بلباقة، عن الوظائف العليا للرجال. وهذه المخلوقة المدهشة تتزوج في سنّ أصغر من أي وقت مضى، وتلد عددًا أكبر من الأولاد، وتبدو أكثر أنوثة بكثير من الفتاة «المتحرّرة» لعشرينيات القرن أو ثلاثينياته، وتتصرف على هذا الأساس. تقوم زوجة عامل الصلب وعضوة جونيور ليج، على قدم المساواة، بعملهما المنزلي... اليوم، إذا قامت بخيار قديم الطراز، أو اعتنت بحبٍ بحديقة وبمحصول وفير من الأولاد، فهي تستحق صلوات[1] أعلى من أي وقت مضى.

(1) في الأصل hosannas – المترجم.

في أمريكا الجديدة، الحقيقة أكثر أهمية من الخيال. تعاد الصور الوثائقية، التي تقدمها مجلتا لايف ولوك للنساء الحقيقيات اللواتي يكرسن حياتهن للأولاد والبيت، على أنها المثال، الطريقة التي يجب أن تكون عليها النساء: هذه مادة قوية، يجب ألّا تعامل بلامبالاة مثل بطلات روايات المجلات النسائية. عندما يكون لغز ما قويًا، فإنه يصنع روايته الخاصة عن الحقيقية. إنه يتغذى على الحقائق ذاتها التي قد تناقضه، ويتسلل إلى كل زاوية من الثقافة مربكًا حتى النقّاد الاجتماعيين.

رفض أدلاي ستيفنسون (Adlai Stevenson)، في خطاب الافتتاح في جامعة سميث في عام 1955، والذي أعيدت طباعته في مجلة ومانز هوم كومبانيون (أيلول/ سبتمبر 1955)، رغبة النساء المتعلمات في لعب دورهن السياسي الخاص في «أزمات العصر». وقال الناطق الرسمي باسم الليبرالية الديمقراطية، إن مشاركة المرأة العصرية في السياسة تكون عبر دورها زوجة وأمًا: «لدى النساء، ولاسيما النساء المتعلمات، فرصة فريدة للتأثير فينا، أزواجًا وأبناء». المشكلة الوحيدة هي فشل المرأة في تقدير أن دورها الحقيقي في الأزمة السياسية هو دورها زوجةً وأمًا.

عندما تنهمك النساء في المشاكل الضاغطة والخاصة بالحياة الأسرية، فإن العديد منهن يشعرن بالإحباط، وبأنهن بعيدات جدًا عن القضايا الكبيرة والنقاش المثير، اللذين أعطاهن تعليمهن الفهم والذائقة للمشاركة فيهما. كنّ ذات يوم يكتبن الشعر، والآن يكتبن قائمة الغسيل. كنّ ذات يوم يناقشن قضايا الفنّ والفلسفة حتى ساعة متأخرة من الليل، والآن يشعرن بتعب شديد لدرجة أنهن يغططن في النوم ما أن ينتهين من غسل الصحون. هناك غالبًا إحساس بالانكماش وبالآفاق المغلقة والفرص الضائعة. كان لديهن أمل بأن يلعبن دورًا في أزمات العصر، ولكن ما يفعلنه هو غسل البياضات.

الفكرة هي أننا، سواء تحدثنا عن أفريقيا أو الإسلام أو آسيا، فالنساء «لا يفهمن الأمر جيدًا»، كما تفهمه أنت. باختصار، بعيدًا عن وظيفة الزواج والأمومة التي تقودك بعيدًا عن قضايا عصرنا العظيمة، وتعيدك إلى مركز تلك القضايا ذاتها، وتلقي على كاهلك مسؤولية أعمق بما لا يقاس وأكثر

حميمية من تلك التي تحملها غالبية أولئك الذين يضعون العناوين الرئيسية، ويصنعون الأخبار، ويعيشون في دوامة من القضايا الكبيرة إلى حد أنهم ينتهون غير قادرين على تمييز ما هي القضايا الكبيرة فعلًا.

عمل المرأة السياسي هو أن «تلهم في بيتها رؤيةً لمعنى الحياة والحرية... أن تساعد زوجها في إيجاد القيم التي ستعطي غاية لأعماله اليومية المتخصصة... أن تعلّم أولادها فرادة كل إنسان فرد».

يمكنك، زوجةً وأمًا، أن تقومي بهذه المهمة في غرفة المعيشة، وأنت تضعين طفلًا في حضنك، أو في المطبخ، وأنت تحملين مفتاح معلبات في يدك. وإذا كنت ذكية، فربما تستطيعين حتى أن تمارسي فنونك الادخارية على ذلك الرجل دون أن تراوده الشكوك فيم هو يشاهد التلفاز. أعتقد أن هناك الكثير مما يمكن أن تقومي به حيال أزمتنا في دور ربة المنزل المتواضع. لا يمكنني أن أتمنى لك مهمة أفضل من ذلك.

وهكذا، فقد أعاد منطق اللغز الأنثوي تعريف طبيعة مشكلة المرأة ذاتها. عندما كان يُنظر إلى المرأة على أنها كائن بشري بطاقات إنسانية لا محدودة ومساوية للرجل، فأي شيء يبعدها عن تحقيق كل إمكانياتها هو مشكلة يجب حلها: العوائق أمام التعليم العالي والمشاركة السياسية، التمييز أو التحيّز في القانون أو الأخلاق. أما الآن، حيث ينظر إلى المرأة فقط من حيث دورها الجنسي، فإن العوائق أمام تحقيق كل إمكانياتها والتحيّزات التي تنكر عليها المشاركة الكاملة في العالم لم تعد تعتبر مشاكل. المشاكل الوحيدة هي تلك التي قد تشوّش تكيّفها في دور ربّة المنزل. وهكذا فالحياة المهنية مشكلة، والتعليم مشكلة، والاهتمام السياسي، وحتى مجرد الاعتراف بذكاء المرأة وفرديتها مشكلة. وأخيرًا، هناك المشكلة التي لا اسم لها، رغبة غامضة غير محددة بـ«شيء أكثر» من غسل الصحون وكي الملابس ومعاقبة الأولاد والثناء عليهم. في المجلات النسائية، تُحَل المشكلة بأن تصبغ المرأة شعرها بالأشقر، أو بإنجاب طفل جديد. «تذكّري، عندما كنا صغارًا، كيف كنا جميعًا نخطط لـ'نكون شيئًا ما'»، تقول ربة منزل شابة في ليديز

هوم جورنال (شباط/ فبراير 1960)، وتصرخ، متفاخرة بأنها قد استهلكت ست نسخ من كتاب د. سبوك عن العناية بالطفل خلال سبع سنوات: «**أنا محظوظة! محظوظة! أنا سعيدة جدًا لأنني امرأة!**».

في إحدى تلك القصص بعنوان «العطلة» Holiday، منشورة في مجلة مادموزيل في شهر آب/ أغسطس 1949، أمر طبيبٌ زوجةً شابة يائسة بأن تخرج من البيت يومًا في الأسبوع؛ أن تذهب للتسوّق، وتجرّب الفساتين، وتنظر في المرآة متسائلة أيًا منها سيعجب زوجها سام.

دائمًا سام، مثل كورس إغريقي في مؤخرة رأسها. كما لو أنها لم تكن تملك تحديدًا لنفسها، وضوحًا كان لها بلا منازع... فجأةً، لم تتمكن من تحديد الفرق بين التنانير المكسّرة والمثلثة بما يكفي لأن تثبت على قرار. نظرت إلى نفسها في مرآة بالطول الكامل، طويلة، وقد بدأ وركاها يزدادان ثخانة، وبدأت خطوط وجهها بالتهدل. كانت في التاسعة والعشرين، لكنها تشعر أنها في منتصف العمر، كما لو أن عددًا كبيرًا من السنوات قد مرّ عليها، ولم يتبق لها الكثير... كان ذلك مضحكًا، فطفلهتا إيلين ليس لها سوى ثلاث سنوات من العمر. وكان مستقبلها بكامله أمامها لتخطط له، وربما طفل آخر. لم يكن ذلك أمرًا يمكن تأجيله كثيرًا.

عندما تكتشف ربة المنزل الشابة في قصة «الرجل الذي إلى جواري» The Man Next to Me (ريدبوك، تشرين الثاني/ نوفمبر1948) أن حفلة العشاء المتقن، التي أعدتها، لم تساعد زوجها في الحصول على ترقية، بعد كل شيء، فإنها تصاب باليأس. («يجب أن تقول إنني ساعدت. يجب أن تقول إنني جيدة لشيء ما... كانت الحياة مثل أحجية تنقصها قطعة واحدة، وتلك القطعة هي أنا، وأنا لم أتمكن قط من معرفة موقعي فيها»). وهكذا، تصبغ شعرها بالأشقر، وعندما يستجيب زوجها في السرير برضى «لي أنا الشقراء» الجديدة، فإنها «تشعر بشعور جديد بالسلام، كما لو أنني قد أجبت على السؤال داخل نفسي».

أصرّت قصص المجلات النسائية، المرّة تلو المرة، على أن النساء لا

يمكن أن يعرفن التحقق إلّا لحظة ولادة طفل. وهي بذلك تنكر السنوات التي لا يعود في مقدور المرأة عندها أن تلد، حتى لو كررت ذلك التصرف المرّة تلو المرّة. ففي اللغز الأنثوي، ليس أمام المرأة طريقة أخرى للحلم بالإبداع أو المستقبل. لا توجد طريقة يمكنها بها حتى أن تحلم بذاتها إلّا بوصفها أمّ أولادها وزوجة زوجها. والمقالات الوثائقية تصور ربات منازل جديدات، كبرن في ظل ذلك اللغز، وليس لديهن حتى ذلك «السؤال بداخلي». تقول إحداهن وُصفت في «كيف تعيش أمريكا» How America Lives (**ليديز هوم جورنال**، حزيران/ يونيو 1959): «إذا كان لا يريدني أن ألبس لونًا معينًا أو نوعًا معينًا من الثياب، فأنا أيضًا لا أريد ذلك حقًا. الأمر هو: أيًا يكن ما يريده هو، فهو ما أريده أنا أيضًا... أنا لا أؤمن بزواجات الخمسين-بخمسين». فهي، وقد تركت الجامعة والعمل لتتزوج بعمر الثامنة عشرة دون أي أسف، «لم تحاول قط أن تشارك في نقاش عندما يتحدث الرجال. هي لم تجادل زوجها في أي شيء... قضت وقتًا طويلًا تنظر من النافذة إلى الثلج والمطر والبزوغ التدريجي لأزهار الزعفران. كان التطريز طريقة عظيمة لتمضية الوقت والسلوى: غرزات صغيرة بخيط مذهّب أو بخيط من الحرير، وهو ما يتطلب شديد التركيز».

وفي منطق اللغز الأنثوي، ليس هناك مشكلة أمام امرأة من هذا القبيل، ليس لديها أمنيات خاصة بها، ولا تحدّد نفسها إلّا كزوجة وأمّ. قد تكون المشكلة، إن وُجدت، مشكلة أبنائها أو زوجها. فالزوج هو الذي يشكو إلى استشاري الزواج (**ريدبوك**، حزيران/ يونيو 1955): «الطريقة التي أرى بها الأمر، هي أن الزواج يأخذ شخصين، يعيش كل منهما حياته الخاصة، ثمّ يجمعهما معًا. أما ماري، فيبدو أنها تعتقد أننا يجب أن نعيش حياة واحدة، هي حياتي أنا». تصرّ ماري على الذهاب معه لشراء قمصانه وجواربه، تخبر الموظف عن قياسه ولونه المفضل. وعندما يعود إلى البيت ليلًا، فإنها تسأله مع من تناول عشاؤه، وأين، وما الذي تحدّث عنه؟ وعندما يحتج،

فإنها تقول له: «ولكن يا عزيزي، أنا أريد أن أشاطرك حياتك، أن أكون جزءًا من كل ما تقوم به، هذا كل ما في الأمر... أريد أن نكون نحن الاثنان واحدًا، بالطريقة التي يذكرها قسم خدمات الزواج...». لا يبدو معقولًا للزوج أن «يكون شخصان شخصًا واحدًا، بالطريقة التي تعنيها ماري. إنه أمر سخيف تمامًا من النظرة الأولى. إضافة إلى ذلك، أنا لا يعجبني الأمر على ذلك النحو. لا أريد أن أكون مرتبطًا بشخص آخر إلى حدّ لا أستطيع معه أن تكون لي أفكاري أو أفعالي الخاصة».

الجواب على «مشكلة بيت»، كما تقول الدكتورة إميلي ماد (Emily Mudd)، وهي استشارية زواج شهيرة، هو جعل ماري تشعر بأنها تعيش حياته: دعوتها إلى تناول العشاء في المدينة مع الأشخاص الذين يعملون في مكتبه بين حين وآخر، طلب طبقه المفضل من لحم العجل لها، وربما إيجاد «نشاط جسدي صحي» ما لها، كالسباحة، وذلك لتصريف طاقتها الزائدة. ليست مشكلة ماري أن ليس لها حياتها الخاصة.

وأخيرًا، يتحقق المطلق في سعادة ربة المنزل على يد ربة المنزل التكساسية الموصوفة في «كيف تعيش أمريكا» (**ليديز هوم جورنال**، تشرين الأول/ أكتوبر 1960)، فهي «تجلس على أريكة من الأطلس ذي اللون المائي الباهت محدقة من نافذتها الواسعة في الشارع. وهي، حتى في هذه الساعة المبكرة من الصباح (بالكاد تبلغ التاسعة صباحًا)، تضع حمرة خدود وبودرة وحمرة شفاه، وفستانها القطني نقيّ لا تشوبه شائبة». وتقول بفخر: «في الساعة الثامنة والنصف صباحًا، عندما يذهب أصغر أبنائي إلى المدرسة، يكون كل بيتي نظيفًا ومرتبًا، وأكون مستعدة لليوم، أكون حرة للعب البريدج أو حضور اجتماعات النادي أو البقاء في البيت والقراءة والاستماع إلى بيتهوفن والتبطّل وحسب».

«أحيانًا تغسل شعرها، وتجففه، قبل أن تجلس إلى طاولة لعب البريدج في الساعة الواحدة والنصف. أمّا في الصباحات، التي يكون لعب البريدج

في بيتها، فهي الأكثر انشغالًا، لأن عليها حينها أن تخرج الطاولات وورق اللعب ورقعة تسجيل النتائج، وأن تعدّ قهوة طازجة، وأن ترتّب أمر الغداء... وفي أشهر الشتاء، قد تلعب حتى أربعة أيام في الأسبوع من التاسعة والنصف صباحًا حتى الثالثة بعد الظهر... جانيس حريصة جدًا على أن تعود إلى البيت قبل عودة أبنائها من المدرسة في الرابعة بعد الظهر».

إنها غير محبطة، ربة المنزل الشابة الجديدة تلك. طالبة ممتازة في المدرسة الثانوية، متزوجة في الثامنة عشرة من العمر، متزوجة للمرة الثانية وحامل في العشرين، لديها البيت الذي ظلت سبع سنوات تحلم به، وتخطط له بالتفصيل. وهي فخورة بكفاءتها كربّة منزل، تنجز كل شيء مع حلول الساعة الثامنة والنصف. تقوم بأعمال تنظيف المنزل الكبيرة في أيام السبت، حين يقوم زوجها بصيد السمك، ويكون أولادها مع فريق الكشافة. («ليس هناك أي شيء آخر أقوم به. لا ألعاب بريدج. إنه يوم طويل بالنسبة لي»).

«تقول: 'أنا أحب بيتي'. الدهان الرمادي الباهت في غرفة المعيشة وغرفة الطعام التي على شكل حرف (L)، عمره خمس سنوات، لكنه ما زال في وضع ممتاز... الغطاء المنجّد المصنوع من الدمقس بألوانه المائي والأصفر والدراقي الباهت يبدو نقيًا تمامًا بعد ثماني سنوات من الاستخدام. «أشعر أحيانًا أنني مستسلمة جدًا، قنوعة جدًا»، تعلّق جانيس بحنان ناظرة إلى سوار الألماس الكبير الذي تلبسه حتى عند تصليح الساعة... أما ملكيتها المفضلة فهي سريرها الأسطواني ذو الأعمدة الأربعة بفسطاطه المصنوع من التفتة القرنفلية. تقول بسعادة: «أشعر أنني مثل الملكة إليزابيث نائمة في ذلك السرير». (زوجها ينام في غرفة أخرى لأنه يشخر).

«تقول: 'أنا ممتنة جدًا على النعم التي أعيش فيها'. زوج رائع، أبناء وسيمون، ولديهم ميول يسعون إلى التلاؤم معها، بيت كبير مريح... أنا شاكرة على صحتي الجيدة وإيماني بالله وتلك الممتلكات المادية: سيارتين وجهازي تلفاز وموقدين».

محدّقةً بقلق في هذه الصورة، أتساءل: أليست بعض المشاكل أفضل، على نحو ما، من هذه السلبية المبتسمة الفارغة؟ إذا كانت تلك النساء الشابات اللواتي يعشن اللغز الأنثوي سعيدات، فهل هذه إذًا نهاية الطريق؟ أم أن بذور شيء أسوأ من الإحباط ملازمةٌ لهذه الصورة؟ هل هناك تباعد متزايد بين صورة النساء هذه والواقع الإنساني؟

فكّروا بالتأكيد المتزايد على الفتنة في المجلات النسائية، كعلامة من علامات هذه المشكلة: ربة المنزل التي تضع ماكياجًا على عينيها وهي تنظف الأرضية... «شرف أن تكوني امرأة». لماذا تتطلب «المهنة: ربة منزل» ذلك التصنيع المُلحّ للفتنة عامًا تلو الآخر؟ والفتنة المهدة هي في حدّ ذاتها علامة استفهام: السيدة تحتج كثيرًا.

تطلبت صورة المرأة، في فترة أخرى، احتشامًا متزايدًا للاستمرار في إنكار الجنس. أما الصورة الجديدة، فيبدو أنها تتطلب غباء متزايدًا، تأكيدًا متزايدًا على الأشياء: سيارتان، جهازا تلفاز، موقدان. تُملأ صفحات كاملة من المجلات النسائية بخضار عملاقة: شوندر، خيار، فليفله، بطاطا، ويُقدَّم لها وصف كما لو أنها قصة حب. حتى حجم الحروف المطبوعة يضخّم حتى يبدو مثل حروف الطباعة التي تستخدم في كتب الصف الأول. تفترض **ماك كول** الجديدة، بصراحة، أنّ النساء قطط رقيقة بلا عقل؛ وتقدّم **ليديز هوم جورنال**، المنافسةُ على نحو محموم، راقصةَ الروك آند رول بات بون (Pat Boone) كاستشارية للمراهقات؛ وتضخّم ريدبوك، وغيرها، قياس حروفها الطباعية. هل يعني حجم الحروف الطباعية أنّ عقول النساء الشابات الجديدات، اللواتي تتودد إليهن جميع المجلات النسائية، ليست إلا بمستوى عقول تلاميذ الصف الأول؟ أم هي تحاول أن تخفي تفاهة المحتوى؟ فضمن حدود ما هو مقبول حاليًا على أنّه عالم المرأة قد لا يكون المحرر قادرًا على التفكير بأي شيء كبير يقوم به سوى نفخ حبة بطاطا مشوية، أو

وصف مطبخ كما لو أنه قاعة المرايا؛ فاللغز، بعد كل شيء، يمنعه من معالجة فكرة كبيرة. ولكن، ألا يخطر في بال أحد من الرجال، الذين يديرون المجلات النسائية، أن مشاكلهم قد تنبثق من صغر الصورة التي يختصرون فيها عقول النساء؟

تعاني جميع المجلات الجماهيرية، التي تتنافس فيما بينها ومع التلفزيون بشراسة لتقديم الملايين والملايين من النساء اللواتي سيشترين الأشياء التي يبيعها المعلنون، من مشاكل اليوم. هل يجبر هذا السباق المسعور الرجال، الذين يصنعون الصورة، على رؤية النساء مجرد شاريات أشياء؟ هل تجبرهم على التنافس أخيرًا على تفريغ عقول النساء من الفكر الإنساني؟ الحقيقة هي أن مشاكل صنّاع الصورة تبدو متزايدة باضطراد مع الغباء المتزايد للصورة التي يقدمونها. خلال السنوات التي ضيقت فيها تلك الصورة عالم المرأة إلى المنزل، واختصرت دورها بدور ربة المنزل، توقفت خمس مجلات جماهيرية من تلك الموجهة إلى النساء عن الصدور، وهناك مجلات أخرى على الحافة.

قد يكون ضجر النساء المتنامي من الصورة الضيقة الفارغة للمجلات النسائية أقوى إشارة على انفصال الصورة عن الواقع. لكن هناك أعراض أشد عنفًا من جانب النساء الملتزمات بتلك الصورة. ففي عام 1960، نشر محرّرو مجلة موجهة خصيصًا إلى ربة المنزل الشابة السعيدة -أو بالأحرى إلى الأزواج الشباب الجدد من الجنسين (فالزوجات لا يعتبرن منفصلات عن أزواجهن وأولادهن)- مقالة تسأل: «لماذا تشعر الأمهات الشابات أنهن عالقات في الفخ» (ريدبوك، أيلول/ سبتمبر 1960). وكتشجيع لشد الانتباه، فقد دعوا الأمهات الشابات، اللواتي يعانين من تلك المشكلة، إلى الكتابة بالتفصيل مقابل 500 دولار. شعر المحررون بالصدمة حين تلقوا 24 ألف ردّ. هل يمكن لصورة المرأة أن تُختصر إلى الحد الذي تصبح فيه هي ذاتها فخًا؟

حاولت محررة في إحدى المجلات النسائية الكبرى، وهي تستشعر أن ربات المنازل الأمريكيات قد يكن في حاجة قوية إلى شيء ما يوسّع عالمهن، وعلى مدى أشهر، أن تقنع زملاءها الذكور بأن يقدموا للمجلة بعض الأفكار من خارج عالم المنزل. لكننا «اتخذنا قرارًا ضد ذلك»، كما قال الرجل صاحب القرار النهائي، «فالنساء منفصلات تمامًا عن عالم الأفكار في حياتهن الآن، لا يمكن أن يفهمن الأمر». ربما لا يملك أشباه فرانكشتاين هؤلاء القوة لإيقاف الوحش الأنثوي الذي خلقوه.

لقد ساعدتُ في خلق تلك الصورة. وقد راقبتُ النساء الأمريكيات، على مدى خمسة عشر عامًا، يحاولن التوافق معها. ولكنني لم أعد أستطيع أن أنكر معرفتي بعواقبها المرعبة. إنها ليست صورة غير مؤذية. قد لا تكون هناك مصطلحات نفسية للأذى الذي تسببه. ولكن، ما الذي يحدث عندما تحاول النساء أن يعشن وفق صورة تجعلهن ينكرن عقولهن؟ ما الذي يحدث عندما تكبر النساء في صورة تجعلهن ينكرن واقع العالم المتغير؟

لقد حدّدت تفاصيل الحياة المادية والعبء اليومي المتمثّل بالطبخ والتنظيف والعناية بالحاجات الجسدية للزوج والأولاد فعلًا عالم المرأة منذ قرن مضى من الزمن، عندما كان الأمريكيون روادًا، وكانت الحدود الأمريكية تكمن في فتح الأرض. لكن النساء اللواتي ذهبن إلى الغرب بالعربات الكبيرة شاركن أيضًا في الهدف الريادي. الآن، تكمن الحدود الأمريكية في العقل وفي الروح. الحب والأولاد والبيت هي أمور جيدة، لكنها ليست العالم كله، حتى إذا كانت معظم الكلمات، التي تكتب للنساء الآن، تزعم أن تلك الأمور هي العالم كله. لمَ يجب أن تقبل النساء هذه الصورة، التي تقدم لهن نصف حياة، بدلًا من حصة في كامل المصير الإنساني؟ لمَ يجب أن تحاول النساء أن يجعلن من العمل المنزلي «شيئًا أكثر»، بدلًا من التحرك على حدود زمنهن الخاص، مثلما تحركت النساء الأمريكيات إلى جانب أزواجهن على الحدود القديمة؟

ليست حبة بطاطا مشوية كبيرة كبر العالم، وتنظيف أرض غرفة المعيشة -بماكياج أو دون ماكياج- عملًا يتطلب من التفكير أو الطاقة ما يكفي لتحدي القدرة الكلية لأية امرأة. النساء كائنات بشرية، ولسن دمى محشوة أو حيوانات. لقد عرف الإنسان على مرّ العصور أنه قد انفصل عن بقية الحيوانات باستخدام قوة دماغه على تكوين فكرة وعلى رؤية وتشكيل مستقبل لها. هو يشترك في الحاجة إلى الطعام والجنس مع الحيوانات الأخرى، لكنه عندما يحب، فإنه يحب كإنسان، وعندما يكتشف، ويخلق، ويشكّل مستقبلًا مختلفًا عن ماضيه، فإنه يكون إنسانًا، كائنًا بشريًا.

هذا هو اللغز الحقيقي: لماذا عادت نساء أمريكيات كثيرات، مع ما يتمتعن به من تعليم وقدرة على الاكتشاف والخلق، إلى منازلهن مرة أخرى، ليبحثن عن «شيء أكثر» في العمل المنزلي وتربية الأولاد؟ لأنّ حدود العالم الإنساني، ويا للمفارقة، قد توسعت في السنوات الخمس عشرة ذاتها التي جرى خلالها استبدال المرأة الجديدة الجسورة بربة المنزل السعيدة، وتسارع إيقاع تغيّر العالم، كما أن طبيعة الواقع الإنساني نفسها قد أصبحت، وعلى نحو متزايد، متحررة من الضرورة البيولوجية والمادية. هل يمنع اللغز المرأة الأمريكية من النمو مع العالم؟ هل يجبرها على إنكار الواقع، مثلما يجب أن تنكر امرأة في مستشفى عقلي الواقع لتصدّق أنها ملكة؟ هل يحكم على النساء بأنهن مشرّدات، إن لم يكنّ فصاميات فعلًا، في عالمنا المتغير المعقد؟

وإنها لأكثر من مفارقة غريبة أنه، في حين أصبحت جميع المهن مفتوحة أخيرًا أمام النساء في أمريكا، فإن كلمة «صاحبة مهنة» قد أصبحت كلمة قذرة؛ وأنه، في حين أصبح التعليم العالي متاحًا لأية امرأة تملك القدرة عليه، فإن تعليم النساء قد أصبح مشكوكًا فيه، حتى أن أعدادًا متزايدة تتسرب من المدرسة الثانوية والجامعة ليتزوجن، وينجبن أطفالًا؛ وأنه، في حين تصبح أدوار كثيرة في المجتمع المعاصر متاحة لهن، فإن النساء

يحصرن أنفسهن بإصرار في دور واحد. لماذا، مع إزالة كل العوائق القانونية والسياسية والاقتصادية والتعليمية، التي لم تسمح للمرأة يومًا بأن تكون مساوية للرجل، شخص له حقه الخاص، فرد حرّ بتطوير قدراته الخاصة، يجب أن تقبل هذه الصورة الجديدة، التي تصرّ على أنها ليست شخصًا، بل مجرد «امرأة» ممنوعة بالتعريف من حرية الوجود الإنساني، ومحرومة من أن يكون لها صوت في المصير الإنساني؟

اللغز الأنثوي قوي جدًا إلى حدّ أن النساء يكبرن غير عارفات أن لديهن الرغبات والقدرات التي يحظرها اللغز. لكن لغزًا كهذا لا يلقي بنفسه على أمة بأكملها في غضون سنوات قليلة، قالبًا اتجاهات قرن من الزمن، دون سبب. فما الذي يعطي اللغز قوته؟ ولـمَ تعود النساء إلى البيت مرة أخرى؟



الفصل الثالث

الأزمة في هوية المرأة

اكتشفت شيئًا غريبًا في مقابلاتي مع نساء من جيلي خلال السنوات العشر الماضية. لم تتمكن كثيرات منّا، ونحن نكبر، أن يرين أنفسهن، يتجاوزن عمر الحادية والعشرين. لم يكن لدينا أي تصور عن مستقبلنا أو عن أنفسنا كنساء.

أتذكر سكون بعد ظهر ربيعي في حرم جامعة سميث عام 1942 عندما وصلت إلى طريق مسدود مخيف في رؤيتي الخاصة للمستقبل. كنت، قبل بضعة أيام من ذلك، قد تلقيت إشعارًا بأنني نلت زمالة الدراسات العليا. لكنني، في أثناء التهاني، شعرت بقلق غريب تحت ما كان ينتابني من إثارة؛ كان هناك سؤال لم أرد التفكير فيه.

«هل هذا حقًا ما أريد أن أكونه؟» أخذني السؤال، باردةً ووحيدةً، بعيدًا عن الفتيات اللواتي كن يتحدثن، ويدرسن على جانب التل المشمس خلف دار الجامعة. اعتقدت أنني سأصبح عالمة نفس. لكن، إذا لم أكن متأكدة من ذلك، فما الذي سأكونه؟ شعرت أن المستقبل ينغلق أمامي، ولم أتمكن قط من رؤية نفسي فيه. لم يكن لدي أي تصور عن نفسي ممتدةً خارج الجامعة. جئت في السابعة عشرة من بلدة في الغرب الأوسط، فتاة غير واثقة، وانفتحت لي آفاق العالم والحياة والعقل الواسعة. بدأت أعرف من

أنا، وما الذي أردت القيام به. لم أكن أستطيع العودة الآن. لم أكن أستطيع العودة إلى الديار مرة أخرى، إلى حياة أمي ونساء بلدتي، لأربط نفسي بالبيت والبريدج والتسوّق والأولاد والزوج والإحسان والملابس. لكنني الآن، وقد حلّ الوقت لأصنع مستقبلي الخاص ولأقوم بالخطوة الحاسمة، لم أعرف فجأة ما الذي أردت أن أكونه.

أخذت الزمالة، لكن، في الربيع التالي، تحت شمس كاليفورنيا المختلفة، وفي حرم جامعي آخر، عاودني السؤال مرة أخرى، ولم أتمكن من إبعاده عن ذهني. فزت بزمالة أخرى من شأنها أن تلزمني ببحث للحصول على شهادة الدكتوراه وبحياة مهنية كعالمة نفس محترفة. «هل هذا ما أريد حقًا أن أكونه؟» لقد أخافني القرار فعلًا. عشت في خوف التردد أيامًا غير قادرة على التفكير في أي شيء آخر.

لم يكن السؤال مهمًا، قلت لنفسي. لم يكن أي شيء مهمًا عندي في تلك السنة عدا الحب. كنا نسير على مرتفعات بيركلي، وقال لي فتى: «لا يمكن أن تنتهي هذه العلاقة بيننا إلى أي شيء. لن أفوز أبدًا بزمالة كتلك التي حصلت عليها». هل فكرتُ في أنني قد أختار، على نحو لا رجعة فيه، الوحدة الباردة لبعد الظهر ذاك لو أنني تابعت؟ استغنيت عن زمالتي مع شعور بالراحة. لكنني لم أتمكن، على مدى سنوات بعد ذلك، من قراءة كلمة واحدة في العلم الذي فكرت يومًا أنه سيكون عمل حياتي المستقبلي؛ كان تذكر خسارته مؤلمًا جدًا.

لم أتمكن قطّ من شرح سبب تخليّ عن تلك المهنة، وبالكاد عرفت ذلك أنا نفسي. عشت في الحاضر، عاملةً في صحف دون خطة محددة. وتزوجت، وأنجبت أطفالًا، وعشت وفق اللغز الأنثوي مثل ربة منزل من الضواحي. لكنّ السؤال، مع ذلك، سكنني. لم أتمكن من الشعور بأي هدف في حياتي، ولم أتمكن من إيجاد أي سلام حتى واجهت الأمر أخيرًا، واستخلصت جوابي الخاص.

اكتشفت، من خلال حديثي مع طالبات السنة الأخيرة في جامعة سميث في عام 1959، أن السؤال ليس أقل رعبًا للفتيات اليوم. الفارق الوحيد هو أنهن يجبن عليه الآن بطريقة، وجدَ جيلي، بعد نصف عمر، أنها ليست إجابة على الإطلاق. كانت تلك الفتيات، ومعظمهن في السنة الأخيرة، يجلسن في غرفة المعيشة من دار الكلية، يتناولن القهوة. لم أكن مختلفة جدًا عن تلك الأمسية التي كنت فيها في السنة الأخيرة، باستثناء أن عددًا أكبر من الفتيات يضعن خاتمًا في أيديهن اليسرى. سألتُ المحيطات بي عن خططهن للمستقبل. تحدثت المخطوبات عن الأعراس والشقق والحصول على عمل كسكرتيرات ريثما ينهي الزوج دراسته. أما الأخريات، فأعطين، بعد صمت عدائي، أجوبةً غامضة عن هذا العمل أو ذاك أو عن دراسة عليا، لكن لم تكن لدى أي منهن خططًا حقيقية. سألتني شقراء، ذات شعر مسرّح على شكل ذيل فرس، إن كنت أصدق الأمور التي قلنها. قالت: «لا شيء منه صحيح. نحن لا نحب أن نُسأل عما نريد أن نفعل. ولا واحدة منا تعرف. ولا واحدة أيضًا تحب حتى أن تفكر فيه. اللواتي سيتزوجن مباشرة هن المحظوظات. ليس عليهن التفكير في الأمر».

لكنني لاحظت في تلك الليلة أيضًا أن العديد من الفتيات المخطوبات، اللواتي كنّ يجلسن بصمت حول النار، قد بدين غاضبات من شيء ما عندما سألت الأخريات عن العمل. «لا يردن التفكير في عدم المتابعة. يعرفن أنهن لن يستخدمن تعليمهن. سيكنّ زوجات وأمهات. يمكنك القول إنك ستستمرين بالقراءة والاهتمام بالمجتمع. لكن ليس الأمر ذاته. أنت لن تتابعي فعلًا. إنها لخيبة أمل أن تعرفي أنك ستتوقفين الآن، ولن تتابعي وتستخدمي ما تعلمته»، قالت الشقراء ذات ذيل الفرس.

وبالمقابل، سمعتُ كلمات امرأة بعد خمسة عشر عامًا من مغادرة الجامعة، زوجة طبيب وأم لثلاثة أولاد، قالت، ونحن نتناول القهوة في مطبخها في نيو إنجلاند:

كانت المأساة أن أحدًا لم ينظر في عيننا، ويقول: عليك أن تقرري ما الذي تريدين فعله في حياتك عدا أنك زوجة زوجك وأمّ أولادك. لم أفكر في الأمر بعمق حتى أصبحت في السادسة والثلاثين، وقد أصبح زوجي مشغولًا جدًا في عمله، إلى حد أنه لم يكن يستطيع أن يسليني كل ليلة. كان الأولاد الثلاثة يقضون النهار في المدرسة. وظللت أحاول إنجاب الأطفال رغم تناقض العامل الرسوسي. وبعد إسقاطين، قالوا لي: يجب أن تتوقفي. فكّرت أنّ نموي وتطوري قد توقفا. لطالما عرفت، وأنا طفلة، أنني سأكبر، وأذهب إلى الجامعة، ثمّ أتزوج وذاك أقصى ما يجب على الفتاة أن تفكر فيه. وبعد ذلك يقرر زوجك حياتك، ويملؤها. ولم أدرك إلّا وقد أصبحت وحيدة إلى تلك الدرجة -زوجة طبيب، أصرخ دائمًا على الأولاد لأنهم لم يملؤوا حياتي- أنّ عليّ أن أصنع حياتي الخاصة. كان ما يزال علي أن أقرر ما أريد أن أكونه، فأنا لم أنهِ تطوّري قط. لكن أخذ الأمر مني عشر سنوات لأفكر فيه بعمق.

يسمح اللغز الأنثوي للنساء بتجاهل السؤال عن هويتهن، بل ويشجعهن على ذلك. يقول اللغز أنهن يستطعن أن يجبن على سؤال «من أنا؟» بالقول: «زوجة توم أو أمّ ماري». لكني لا أظن أن اللغز سيمتلك تلك السلطة على النساء الأمريكيات، إذا لم يخفن من مواجهة الفراغ المرعب الذي يجعلهن غير قادرات على رؤية أنفسهن بعد الحادية والعشرين. الحقيقة هي أنّه لم يعد لدى المرأة الأمريكية صورة خاصة تخبرها من هي، أو من يمكن أن تكون، أو ما الذي تريد أن تكونه، أمّا عن طول الوقت الذي كان هذا فيه صحيحًا، فلست متأكدة، لكنه كان صحيحًا في جيلي، وهو صحيح بالنسبة للفتيات اللواتي يكبرن اليوم.

الصورة العامة، في المجلات والإعلانات التجارية التلفزيونية، مصممةٌ لبيع الغسالات الآلية وخلاطات العجين ومزيلات رائحة العرق والمنظفات وكريمات الوجه التي تعيد الشباب وصبغات الشعر. لكنّ قوة تلك الصورة، التي تنفق عليها الشركات ملايين الدولارات في دعايات التلفاز والمواقع الإلكترونية، تأتي من هذا: لم تعد النساء الأمريكيات يعرفن من هنّ. هن بحاجة ماسة إلى صورة جديدة لمساعدتهن في إيجاد هويتهن. وكما

يواظب الباحثون الدافعيون على القول للمعلنين، ليست النساء الأمريكيات واثقات، إلى درجة كبيرة، مما يجب أن يكنّ، حتى أنهن ينظرن إلى تلك الصورة العامة البرّاقة ليقررن كل تفصيل من تفاصيل حياتهن. يبحثن عن الصورة التي لن يأخذنها بعد الآن من أمهاتهن.

في جيلي، كانت الكثيرات منا يعرفن أنهن لا يردن أن يكن مثل أمهاتهن، على الرغم من حبنا لهنّ. لم نستطع منع أنفسنا من رؤية خيبة أملهن. هل فهمنا، أم اكتفينا بالامتعاض، من الحزن، من الفراغ الذي جعلهن يتمسكن بقوة بنا محاولاتٍ أن يعشن حياتنا، ويسرن وفق حياة آبائنا، ويقضين أيامهن في التسوق أو التوق إلى الأشياء التي لم يبد قط أنها سترضيهن، بغض النظر عما قد تكلفه من مال؟ والغريب أن أمهاتٍ كثيراتٍ ممّن أحببن بناتهن – وأمي واحدة منهن– لم يردن لبناتهن أن يكن مثلهن عندما يكبرن. كنّ يعرفن أننا بحاجة إلى ما هو أكثر.

لكن، رغم كل ما قمن به من حثّ لنا وإلحاح علينا وكفاح لمساعدتنا في التعلم، رغم الشغف الذي تحدثن به عن المهن التي لم تكن مفتوحة لهن، لم يفلحن في إعطائنا تصورًا عما يمكن أن نكونه. استطعن فقط أن يخبرننا أن حياتهن كانت فارغة جدًا ومرتبطة بالبيت، وأن الأولاد والطبخ والملابس والبريدج والجمعيات الخيرية غير كافية. قد تقول أمّ لابنتها بوضوح: «لا تكوني مجرد ربة منزل مثلي». ولكن تلك الابنة، شاعرةً أن أمها محبطة جدًا إلى حد أنها لا تتذوق حب زوجها وأولادها، قد تقول: «سأنجح حيث فشلت أمي، سأحقق نفسي كامرأة»، ولا تقرأ قط درس حياة أمها.

بدأت مؤخرًا، من خلال مقابلاتي مع فتيات في المدرسة الثانوية، انطلقن مليئات بالوعود والموهبة، ثمّ توقفن فجأة عن التعليم، أرى أبعادًا جديدة لمشكلة الانسجام الأنثوي. بدت تلك الفتيات، في البداية، وكأنهنّ يتبعن وحسب المنحنى النموذجي للتكيّف الأنثوي. كنّ فيما مضى يهتممن

بالجيولوجيا أو بالشعر، أمّا الآن، فهن يهتممن فقط بأن تكون لهن شعبية، بأن يجعلن الفتيان يحبوهن، وقد انتهين إلى نتيجة مفادها: إنّ من الأفضل لهن أن يكنّ مثل كل الفتيات الأخريات. وعند تفحّص الأمر عن قرب، وجدت أنّ تلك الفتيات خائفات من أن يصبحن مثل أمهاتهن، حتى أنهن لم يستطعن أن يرين أنفسهن قط. كنّ خائفات من أن يكبرن. كان عليهن أن ينسخن، بتفصيل مطابق، الصورة المركبة للفتاة الشعبية، منكرات أفضل ما في أنفسهن، نتيجة الخوف من الأنوثة كما رأينها مجسّدة في أمهاتهن. قالت لي فتاة من تلك الفتيات في السابعة عشرة من عمرها:

أريد بقوة أن أشعر كالفتيات الأخريات. لا أتخطى قط هذا الشعور بأنني مبتدئة، لم أتلقَ المبادئ. عندما أنهض، وأضطر لاجتياز الغرفة، أشعر كأنني مبتدئة، أو أنني أعاني من مرض مرعب ما، وأنني لن أتعلم قط. أذهب إلى الاستراحة المحلية، التي أذهب إليها عادة بعد المدرسة، وأجلس هناك لساعات متحدثة عن الملابس وتسريحات الشعر والجدائل، وأنا غير مهتمة بذلك كثيرًا. وهكذا فهي محاولة. لكنني وجدت أنني استطعت جعلهم يحبونني.. أفعل فقط ما يفعلون، ألبس مثلهم، أتكلم مثلهم، ولا أقوم بأشياء مختلفة. وأظن أنني بدأت أيضًا أجعل نفسي غير مختلفة من الداخل.

كنت أكتب الشعر. يقول الموجّه أنني أملك تلك الموهبة الإبداعية، وأنني يجب أن أكون في أعلى الصف، وأن لدي مستقبل عظيم. لكن، ليس ذلك ما تحتاجين إليه لتكوني محبوبة المهم عند الفتاة هو أن تكون محبوبة.

بدأت الآن أخرج مع الفتيان، واحدًا تلو الآخر، وهذه ليست سوى محاولة، لأنني أنا نفسي لست معهم. يجعلك هذا تشعرين بمزيد من الوحدة. وإضافة إلى ذلك، أخاف من فكرة إلى أين سيقودني ذلك. في القريب العاجل، ستُمهَّد كل اختلافاتي وسأتحول إلى ذلك النوع من الفتيات الذي يستطيع أن يكون ربة منزل.

لا أريد التفكير في أنني أكبر. لو كان لدي أولاد لتمنيت أن يبقوا في العمر ذاته. إذا كان علي أن أراقبهم يكبرون، فسأرى نفسي أكبر، وأنا لا أريد ذلك. تقول أمي إنها لا تستطيع النوم في الليل، فهي شديدة القلق مما قد أقوم به.

عندما كنت صغيرة، ما كانت تسمح لي بعبور الشارع وحدي، واستمر ذلك حتى وقت طويل بعد الأطفال الآخرين.

لا يمكنني أن أرى نفسي أتزوج، وأنجب الأطفال. الأمر كما لو أنه لن تكون لي شخصيتي. أمي مثل صخرة صقلتها الأمواج، مثل فراغ. لقد أعطت عائلتها الكثير حتى لم يبق لديها شيء، وهي مستاءة منّا، لأنها لا تحصل على ما يكفي بالمقابل. لكن، يبدو أحيانًا كما لو أنه لم يبق شيء. فأمي لا تخدم أي هدف سوى تنظيف المنزل. وهي ليست سعيدة، ولا تجعل أبي سعيدًا. إذا لم تهتم بنا قط، نحن الأولاد، فسيكون للأمر الأثر ذاته الذي للاهتمام المبالغ به. هذا يجعلك تريدين أن تفعلي العكس. لا أعتقد أنّ ذلك حبّ فعلًا. عندما كنت صغيرة، ركضت متحمسة إليها لأخبرها أنني تعلمت كيف أقف على رأسي، لكنها لم تستمع إلي قط.

نظرت إلى نفسي في المرآة مؤخرًا، وأنا خائفة جدًا من أنني سأبدو مثل أمي. يخيفني أن أجد نفسي وقد أصبحت مثلها في الإيماءات أو الحديث أو أي شيء. أنا لست مثلها في أشياء كثيرة، لكن، إذا كنت مثلها، على هذا النحو أو ذاك، فربما سينتهي الأمر بي مثلها. وذلك يرعبني.

وهكذا، فقد كانت الفتاة ذات السبعة عشر عامًا خائفة جدًا من أن تصبح امرأة مثل أمها، حتى أنها أدارت ظهرها لجميع الأشياء في ذاتها ولجميع الفرص التي كان يمكن أن تصنع منها امرأة مختلفة، لتستنسخ من الخارج الفتيات «المحبوبات». وأخيرًا، مذعورة من فقدان ذاتها، أدارت ظهرها لشعبيتها الخاصة، وتحدّت السلوك الجيد التقليدي الذي كان يمكن أن يؤمّن لها منحة دراسية جامعية. ولانعدام الصورة التي يمكن أن تساعدها على النمو لتصبح امرأة حقيقية مع ذاتها، فقد ارتّدت إلى فراغ الوجودية.

وقالت لي فتاة أخرى، وهي طالبة في السنة قبل الأخيرة من ساوث كارولينا:

لا أريد الاهتمام بمهنة سيكون علي أن أتخلى عنها.

أرادت أمي أن تكون مراسلة صحفية مذ كانت في الثانية عشرة من عمرها، وقد رأيت إحباطها على مدى عشرين عامًا. لا أريد الاهتمام بشؤون العالم. لا

أريد الاهتمام بأي شيء غير بيتي وبأن أكون زوجة وأمًا رائعة. قد يكون التعليم مسؤولية. حتى ألمع الشباب لا يريدون في البيت أكثر من فتاة حلوة جميلة. أحيانا فقط، أتساءل: كيف هو شعور أن تكوني قادرة على أن تمتدي وتمتدي وتمتدي، وتتعلمي كل ما تريدينه، وألّا تضطري إلى ردع نفسك.

كانت أمها، ككل أمهاتنا تقريبًا، ربة منزل، على الرغم من أن كثيرات منهن قد بدأن مهنة، أو تطلعن إلى مهنة، أو أسفن على تخليهن عن مهنة. أيًا كان ما قلنه لنا، فقد عرفنا بعيوننا وآذاننا وعقولنا وقلوبنا أن حياتهن كانت، على نحو ما، فارغة. لم نشأ أن نكون مثلهن، ولكن، أيّ مثال آخر كان أمامنا؟

النوع الآخر الوحيد من النساء، الذي عرفته أثناء نموي، هو مدرّسات المرحلة الثانوية العوانس، وأمينة المكتبة والطبيبة الوحيدة في بلدتي، والتي قصت شعرها مثل رجل، وبضع أستاذات في جامعتي. لم تعش أية واحدة من تلك النساء في مركز الحياة الدافئ كما عرفته في البيت. لم تتزوج العديدات منهن، أو لم ينجبن أولادًا. كنت مذعورة من أن أصير مثلهن، حتى اللواتي علّمنني حقيقة أن أحترم عقلي، وأستخدمه، وأن أشعر أنّ لي دور في العالم. وأنا أكبرُ، لم أعرف قطّ امرأة، استخدمت عقلها، ولعبت دورها في العالم، وأحبّت، وأنجبت أطفالًا.

أعتقد أن هذا كان الجوهر المجهول لمشكلة المرأة في أمريكا لزمن طويل، هذا الغياب لصورة خاصة. لقد كان للصور العامة، التي تتحدى العقل وليس لديها سوى القليل لتفعله مع النساء أنفسهن، القوة على تشكيل حياتهن إلى درجة كبيرة. وما كان لتلك الصور أن تملك تلك القوة لو لم تعانِ النساء من أزمة هوية.

لاحظ منظّرو علم الاجتماع وعلم النفس والمحللون والمربّون هذه الأرضية المخيفة الغريبة التي وصلت النساء الأمريكيات إليها -بعمر الثامنة عشرة، الحادية والعشرين، الخامسة والعشرين، الحادية والأربعين- على مدى سنوات طويلة. لكني أعتقد أن أحدًا لم يفهمها على ما هي عليه.

أطلق عليها اسم «انقطاع» في التكيّف الثقافي، كما أطلق عليها «أزمة دور» النساء. وألقي اللوم فيها على التعليم الذي جعل الفتيات الأمريكيات يكبرن وهن يشعرن أنهن حرّات ومساويات للصبيان... يلعبن البيسبول، ويركبن الدراجات، ويدخلن الهندسة ومجالس الكليات، ويذهبن إلى الجامعة، وينطلقن في العالم بحثًا عن عمل، ويعشن وحدهن في شقة في نيويورك أو شيكاغو أو سان فرانسيسكو، ويختبرن ويكتشفن قدراتهن في العالم. لقد أعطى كل ذلك الفتيات الشعور بأنهن يستطعن أن يكنّ من يشأن، وأن يفعلن ما يشأن متمتعات بالحرية ذاتها التي للفتيان، كما قال النقاد. لم يعدّهن التعليم لدورهن كنساء. وتظهر الأزمة عندما يجبرن على التكيّف مع هذا الدور. حاليًا يعزى المعدّل العالي من الضيق الانفعالي والانهيار بين النساء في العشرينيات أو الثلاثينيات من أعمارهن عادةً إلى «أزمة الدور» تلك. فلو أنّ الفتيات تربين على القيام بهذا الدور، كما يقول المُكَيِّفون، لما عانين من هذه الأزمة.

لكني أعتقد أنهم لم يروا سوى نصف الحقيقة.

فماذا إذا كان الرعب الذي تواجهه فتاة في الحادية والعشرين، عندما يكون عليها أن تقرر من ستكون، هو ببساطة رعب النضج.. النضج، لأن النساء لم يكن مسموحًا لهن أن يكبرن قبلًا؟ ماذا إذا كان الرعب الذي تواجهه فتاة في الحادية والعشرين هو الرعب من حرية تقرير حياتها الخاصة، حيث لا أحد يملي عليها أي مسار ستسلك، حرية وضرورة أخذ مسارات لم تكن النساء من قبل قادرات على اتخاذها؟ ماذا إذا كانت أولئك، اللواتي اخترن مسار «التكيّف الأنثوي» -متجنّبات هذا الرعب عن طريق الزواج في عمر الثامنة عشرة، ومضيّعات أنفسهن في إنجاب الأطفال وتفاصيل التدبير المنزلي- يرفضن ببساطة أن يكبرن ليواجهن سؤال هويتهن الخاصة؟

كان جيلي أول جيل جامعي يصطدم رأسًا بلغز التحقق الأنثوي الجديد.

قبل ذلك، فيما انتهت معظم النساء فعلًا ربات منازل وأمهات، كان الدافع إلى التعليم هو اكتشاف حياة العقل والسعي وراء الحقيقية وأخذ مكان في العالم. كان هناك إحساس، بدأ يبهت عندما ذهبت إلى الجامعة، بأننا سنكون **نساءً جديدات**، وبأن عالمنا سيكون أوسع من البيت بكثير. كانت لدى ٪40 من صفي في جامعة سميث خطط مهنية. لكنني أتذكر كيف كانت بعض الطالبات الأقدم منا، حتى في ذلك الوقت، يحسدن الطالبات القليلات اللواتي هربن من ذلك بالزواج فورًا.

تعاني اللواتي حسدناهن في ذلك الوقت الآن في سن الأربعين من ذلك الخوف. كتبت إحداهن في استبيان الخريجات بعد خمسة عشر عامًا: «لم أقرر قط أي نوع من النساء أنا. الكثير من الحياة الشخصية في الجامعة. أتمنى لو أنني درست المزيد من العلوم، التاريخ، العلوم السياسية، لو أنني تعمّقت أكثر في الفلسفة. ما زلت أحاول إيجاد الصخرة لأبني عليها. أتمنى لو أنني أنهيت جامعتي. لكنني بدلًا من ذلك تزوجت». وكتبت أمّ لستة أولاد: «أتمنى لو أنني صنعت لنفسي حياة أعمق وأكثر إبداعًا، ولو أنني لم أرتبط وأتزوج في التاسعة عشرة. كانت صدمة لي -وقد توقعت المثالية في الزواج، بما في ذلك زوجًا مخلصًا مائة بالمائة- أن أكتشف أن الأمر ليس كذلك».

لم تعان كثيرات من الجيل الأصغر سنًا -من الزوجات اللواتي يتزوجن باكرًا- من رعب الوحدة هذا. ظننّ أن ليس عليهن الاختيار، وأن ينظرن إلى المستقبل، وأن يخططن لما يردن أن يفعلنه بحياتهن. كان عليهن فقط أن ينتظرن إلى أن يتم اختيارهن، مضيّعات وقتهن بسلبية حتى يقرر الزوج، الأطفال، المنزل الجديد، كيف ستكون بقية حياتهن. انزلقن بسهولة في دورهن الجنسي كنساء قبل أن يعرفن أنفسهن. تلك النساء هنّ من عانين أكبر معاناة من المشكلة التي لا اسم لها.

وإنها فرضيتي تلك التي تقول إن جوهر مشكلة النساء اليوم ليست جنسية، بل مشكلة هوية؛ إعاقة في النمو، أو تجنّب له، ارتكبها اللغز الأنثوي. وإنها فرضيتي تلك التي تقول إن الثقافة الفيكتورية لم تسمح للنساء بأن يقبلن حاجاتهن الجنسية الأساسية، أو يُشبعنها، ثقافتنا لا تسمح للنساء بأن يقبلن حاجتهن الأساسية إلى النمو، أو يشبعنها، وتحقيق إمكانياتهن ككائنات بشرية، وهي حاجة لم تتحدد فقط بدورهن الجنسي.

اكتشف علماء الأحياء مؤخرًا «مصلًا للشباب» إذا غُذيت به يرقات الفراش، وهي في طور اليرقة، فإنها لا تنضج أبدًا لتصل إلى طور الفراشة، بل تعيش حياتها يرقات. تعمل توقعات التحقق الأنثوي، التي تُقدّمها للنساء المجلات والتلفاز والأفلام والكتب التي تروج أنصاف الحقائق النفسية، ويقدمها أيضًا الآباء والمعلمون والمرشدون الذين يقبلون اللغز الأنثوي، وكأنها نوع من أنواع مصل الشباب يبقي معظم النساء في حالة يرقات جنسية، ويمنعهن من تحقيق النضج القادرات عليه. وهناك أدلة متزايدة على أن فشل المرأة في النمو حتى تكمل هويتها قد أعاق إشباعها الجنسي، بدلًا من أن يغنيه، حاكمًا عليها فعليًا بأن تكون خصيّة لزوجها وأبنائها، وسبّب عُصابات أو مشاكل، لم تحدد بعد على أنها عصابات، مساوية لتلك التي يسببها الكبت الجنسي.

لقد كانت هناك أزمات هوية للرجال في كل المفاصل الحاسمة من التاريخ الإنساني، على الرغم من أن أولئك الذين عانوا منها لم يعطوها ذلك الاسم. إذ لم يحدث إلّا في السنوات الأخيرة أن عزل منظّرو علم النفس والاجتماع واللاهوت هذه المشكلة، وأعطوها اسمًا. لكنها تعتبر مشكلة للرجل. تُحدّد بالنسبة للرجل على أنها أزمة النضج، اختيار الهوية، «القرار المتعلق بمن هو المرء، ومن سيكون» حسب تعبير المحلل النفسي الألمعي إيريك إيريكسون (Erik H. Erikson):

لقد أطلقت على الأزمة الرئيسية للمراهقة اسم أزمة الهوية؛ وهي تحدث في

تلك المرحلة من دورة الحياة التي يكون على كل شاب فيها أن يصوغ لنفسه منظورًا واتجاهًا مركزيًا ما، وحدة عاملة ما، انطلاقًا من بقايا طفولته المؤثرة وآمال بلوغه المتوقعة؛ عليه أن يكتشف شبهًا ذا معنى بين ما توصّل إلى رؤيته في نفسه وما يقوله له وعيه المصقول عن حكم الآخرين عليه وتوقعاتهم منه... تكون الأزمة لدى بعض الناس، في بعض الطبقات، وفي بعض المراحل التاريخية في حدها الأدنى، لكنها لدى أشخاص آخرين وطبقات أخرى وفي مراحل أخرى تكون ملحوظة بوضوح على أنها مرحلة حرجة، نوع من «الولادة الثانية»، عرضة للتفاقم إما بعُصابات واسعة الانتشار أو باضطراب أيديولوجي واسع[1].

بهذا المعنى، قد تعكس أزمة الهوية في حياة إنسان واحد عملية إعادة ولادة أو مرحلة جديدة في نمو الجنس البشري، أو تطلق مثل تلك العملية. «يحتاج الإنسان في بعض فترات تاريخه وفي بعض مراحل دورة حياته إلى توجه أيديولوجي جديد بالدرجة ذاتها من التأكيد والقوة التي يجب أن يحصل فيها على الهواء والغذاء» كما قال إيريكسون مسلطًا ضوءًا جديدًا على أزمة الشاب مارتن لوثر الذي ترك الكنيسة الكاثوليكية في نهاية العصور الوسطى ليصوغ هوية جديدة لنفسه وللإنسان الغربي.

على كل حال، ليس البحث عن هوية جديدًا في التفكير الأمريكي، على الرغم من أن كل إنسان يكتب عنه في كل جيل يكتشفه من جديد. في أمريكا، ومنذ البداية، كان مفهومًا -على نحو ما- أنّ الرجال يجب أن يشقوا طريقهم إلى المستقبل؛ كان الإيقاع دائمًا أسرع بكثير من أن تبقى هوية الإنسان ثابتة. وقد عانى رجال كثيرون في كل جيل من البؤس والتعاسة والشك لأنهم لم يستطيعوا أن يأخذوا صورة الإنسان الذي يريدون أن يكونوه من آبائهم. ولقد كان بحث الشاب، الذي لا يستطيع العودة إلى

---

(1) Erik H. Erikson, *Young Man Luther, A Study in Psychoanalysis and History*, New York, 1958, pp. 15. ff See also Erikson, *Childhood and Society*, New York, 1950, and Erikson, ''The Problem of Ego and Identity,'' Journal of the American Psychoanalytical Association, Vol. 4, 1956, pp. 56-121.

دياره، عن الهوية دائمًا موضوعًا رئيسيًا للكتّاب الأمريكيين. وقد اعتبر دائمًا صحيحًا وجيدًا في أمريكا للرجال أن يعانوا من عذابات النمو تلك، وأن يبحثوا عن هوياتهم، وأن يجدوها. ذهب فتى المزرعة إلى المدينة، وأصبح ابن صانع الألبسة طبيبًا، وعلّم أبراهام لينكولن نفسه القراءة.. كانت تلكم أكثر من مجرد قصص تحوّل أسمال بالية إلى ثروات. كانت جزءًا لا يتجزأ من الحلم الأمريكي. كانت المشكلة للكثيرين هي المال أو العرق أو اللون أو الطبقة، أي أيَّ شيء يمنعهم من الخيار، لا ما كانوا سيكونون عليه لو كانوا أحرارًا في الاختيار.

وحتى اليوم، يتعلم الشاب باكرًا بما يكفي أنه يجب أن يقرر من يريد أن يكون. إذا لم يقرر في نهاية المرحلة الإعدادية أو الثانوية أو في الجامعة، فيجب على نحو ما أن يتوصل إلى صيغة ما في سن الخامسة والعشرين أو الثلاثين، وإلا فسيعتبر ضائعًا. لكن، ينظر إلى هذا البحث عن هوية على أنه مشكلة أكبر الآن لأن أعدادًا متزايدة من الفتيان لا تستطيع أن تجد لها صورًا في ثقافتنا –من آبائهم أو من رجال آخرين– لتساعدهم في بحثهم. لقد اجتيحت الحدود القديمة، أما الحدود الجديدة فلم تتضح معالمها بوضوح بعد. يعاني المزيد والمزيد من الشباب في أمريكا اليوم من أزمة هوية نتيجة الحاجة إلى أية صورة للإنسان تستحق أن يسعى المرء وراءها، نتيجة الحاجة إلى هدف يحقق فعلًا قدراتهم الإنسانية.

ولكن لمَ لم يدرك المنظرون وجود أزمة الهوية هذه لدى النساء؟ ففي مصطلحات الأعراف القديمة واللغز الأنثوي الجديد لا يتوقع من النساء أن يكبرن ليكتشفن من هنّ، ليخترن هويتهن الإنسانية. التشريح قدر المرأة، يقول منظّرو الأنثوية، فهوية المرأة تتقرر ببيولوجيتها.

ولكن، هل هي كذلك؟ تسأل أعداد متزايدة من النساء أنفسهن هذا السؤال. كما لو كن يستيقظن من سبات، يسألن: «أين أنا... ما الذي

أفعله هنا؟» لقد بدأت النساء لأول مرة في تاريخهن يدركن أزمة الهوية في حياتهن، أزمة بدأت منذ عدة أجيال، وتفاقمت مع كل جيل، ولن تنتهي حتى ينعطفن، هن أو بناتهن، خلف زاوية مجهولة، ويصنعن من أنفسهن ومن حيواتهن الصورة الجديدة التي تحتاج إليها الآن بشدة نساء كثيرات.

بمعنى يتجاوز حياة أية امرأة بذاتها، أعتقد أن هذه أزمة نضج النساء.. انعطاف من مرحلة ما قبل النضج، التي لطالما سميت أنوثة، إلى الهوية الإنسانية الكاملة. أعتقد أنّ على النساء أن يعانين من أزمة الهوية هذه التي بدأت منذ مائة سنة وعليهن أن يعانين منها الآن ببساطة حتى يصبحن إنسانات بالكامل.

الفصل الرابع

الرحلة الحماسية

كانت الحاجة إلى هوية جديدة هي ما أطلقت النساء منذ قرن مضى في تلك الرحلة الحماسية، تلك الرحلة المذمومة المُساء تفسيرها بعيدًا عن البيت.

كانت السخرية من الحركة النسوية أمرًا شائعًا في السنوات الأخيرة كإحدى نكات التاريخ القذرة: أن ترثي بضحكة مكبوتة لتلك الناشطات النسويات القديمات اللواتي كافحن من أجل حقوق المرأة في التعليم العالي والعمل والتصويت. كنّ ضحايا عُصابيات للحسد القضيبي، أردن أن يكنّ رجالًا، كما يقال الآن. أنكرن -في النضال من أجل حرية المرأة في المشاركة في العمل وقرارات المجتمع الكبيرة على قدم المساواة مع الرجال- طبيعتهن كنساء، طبيعة لا تشبع نفسها إلا بالسلبية الجنسية وقبول سيطرة الذكور والأمومة الراعية.

لكن، إذا لم أكن مخطئة فهذه الرحلة الأولى هي ما يحمل الإشارة إلى كثير مما حدث للنساء منذ ذلك الحين. إنها إحدى النقاط العمياء الغريبة في علم النفس المعاصر ألّا يدرك حقيقة الشغف الذي دفع أولئك النساء إلى مغادرة بيوتهن بحثًا عن هوية جديدة أو، عند بقائهن في البيت، إلى التوق الشديد إلى ما هو أكثر. كان فعلهن فعل تمرّد، رفض عنيف لهوية

النساء كما كانت محددة حينها. كانت الحاجة إلى هوية جديدة هي ما قاد تلك الناشطات النسويات المتحمسات إلى رسم دروب جديدة للنساء. كانت بعض تلك الدروب وعرة على نحو غير متوقع، وكان بعضها ينتهي بطريق مسدودة، وربما كان بعضها زائفًا، لكن حاجة النساء إلى إيجاد دروب جديدة كانت حقيقية.

كانت مشكلة الهوية جديدة على النساء حينها، جديدة فعلًا. وكانت الناشطات النسويات يستكشفن الطريق على الحافة الأمامية من تطور المرأة. كان عليهن أن يثبتن أن المرأة إنسان. كان عليهن أن يحطمنّ، وبعنف إذا اقتضى الأمر، تمثال دريسدن الصغير الذي كان يمثّل المرأة النموذجية في القرن الماضي. كان عليهن أن يثبتن أن المرأة ليست مرآة سلبية فارغة، ليست مجرد ديكور لا فائدة منه، ليست حيوانًا بلا عقل، ليست شيئًا يجب التخلص منه من قبل الآخرين، عاجزة عن أن يكون لها صوت في أمر وجودها هي، قبل حتى أن تتمكن من النضال من أجل الحقوق التي كانت النساء بحاجة إليها ليصبحن مساويات إنسانيًا للرجال.

قيل لهن إنّ المرأة لا تتغير، وإنّ المرأة صبيانية، وإنّ مكان المرأة في بيتها. لكن، كان الرجل يتغير، وكان مكانه في العالم، وكان عالمه يتسع. وكانت المرأة تُترك خلفًا. كان التشريح قدرها؛ قد تموت وهي تلد طفلًا، وقد تعيش حتى الخامسة والثلاثين، وتلد اثني عشر طفلًا، في حين أن الرجل يتحكم بمصيره عن طريق ذلك الجزء من تكوينه التشريحي الذي لا يملكه أي حيوان آخر: عقله.

لكنّ المرأة أيضًا تملك عقلًا. وهي أيضًا لديها الحاجة الإنسانية إلى النمو. لكن العمل الذي يغذي الحياة، ويحركها نحو الأمام، لم يعد يجري في البيت، ولم تُدرَّب المرأة على فهم العالم والعمل فيه. وهي، محصورة في بيتها، ولدًا بين أولادها، سلبية، ليس تحت سيطرتها أي جزء من وجودها، لم تكن تستطيع أن توجد إلا لإسعاد الرجل. كانت تعتمد تمامًا على حمايته

في عالم ليس لها أي دور في صنعه: عالم الرجل. لم تستطع أن تكبر قطّ لتطرح السؤال الإنساني البسيط: «من أنا؟ ما الذي أريده؟»

حتى إذا أحبها الرجل، كطفلة أو لعبة أو قطعة ديكور، حتى لو أعطاها الياقوت والساتان والمخمل، حتى لو كانت دافئة في بيتها، آمنة مع أولادها، ألن تتوق إلى شيء أكثر؟ كانت، في ذلك الوقت، محددة تمامًا من قبل الرجل على أنها موضوع وليست ذاتًا، «أنا»، في ذاتها، حتى أنه لم يكن يتوقع منها أن تستمتع، أو تشارك، في فعل الجنس. «قضى وطره منها... قضى غرضه منها»، كما كانت الأمثال تقول. هل من الصعب جدًا على الفهم أن العتق، الحق في الإنسانية الكاملة، كان مهمًا بما يكفي لأجيال من النساء، مازلن على قيد الحياة، أو توفين مؤخرًا، لدرجة أن بعضهن قاتلن بقبضاتهن، وذهبن إلى السجن، ومتنَ حتى من أجله؟ من أجل الحق في النمو الإنساني، أنكرت بعض النساء جنسهن الخاص والرغبة في أن يحببن وفي أن يكنّ محبوبات وفي أن ينجبن أطفالًا.

إنّ القول بأنّ شغف الحركة النسوية وحماسها قد جاءا من عوانس متعطشات للجنس مليئات بالغيظ كارهات للرجال، من نساء لسن كالنساء فاقدات للقدرة الجنسية ومخصيات حرقهن الحسد للعضو الذكري إلى حد أنهن رغبن بإزالته من جميع الرجال أو تدميرهم، مطالبات بالحقوق فقط لأنهن يفتقدن القدرة على الحب بوصفهن نساء، هو تحريف للتاريخ لم يوضع، ويا للغرابة، موضع التساؤل. فماري وولستون كرافت (Mary Wollstonecraft)، وأنجيلينا جريمكي (Angelina Grimke)، وإرنستين روز (Ernestine Rose)، ومارجريت فولر (Margaret Fuller)، وإليزابيت كادي ستانتون (Elizabeth Cady Stanton)، وجوليا وورد هاوي (Julia Ward Howe)، ومارجريت سانغر (Margaret Sanger) جميعهن أحببن، وكنّ موضع حب، وتزوجن، ويبدو أن العديدات منهن كنّ شغوفات في علاقتهن مع أحبائهن وأزواجهن، في فترة كان شغف النساء محرّمًا تحريم

الذكاء، وكنّ، في الوقت ذاته، يخضن معركتهن من أجل نيل المرأة فرصة النمو لتحتل مكانة إنسانية كاملة. لكن، إذا كنّ، هنّ وأولئك اللواتي مثل سوزان أنتوني (Susan Anthony)، ممن أبعدهن حظهن أو تجربتهن المريرة عن الزواج، قد ناضلن من أجل أن تنال المرأة فرصة تحقيق ذاتها، لا بالنسبة للرجل، بل كفرد، فقد كان ذلك نابعًا من حاجة حقيقية وماسة، مثل الحاجة إلى الحب. قالت مارجريت فولر: «ما تحتاج إليه المرأة، لا أن تتصرف أو تحكم كامرأة، بل أن تنمو كطبيعة، وتميّز كعقل، وتعيش حرة كروح، وتطلق بلا عراقيل القوى التي منحت لها».

لم يكن أمام الناشطات النسويات سوى نموذج واحد، صورة واحدة، رؤية واحدة للإنسان الحر الكامل: الرجل. لأنه حتى وقت قريب، كان الرجال فقط (وليس جميعهم) هم من يملكون الحرية والتعليم اللازمين لتحقيق قدراتهم الكاملة، للاستكشاف والإبداع والاكتشاف، ولرسم مسارات جديدة للأجيال القادمة. كان الرجال فقط يملكون حق الاقتراع: الحرية في صياغة قرارات المجتمع المهمة. كان الرجال فقط يملكون حرية أن يحبوا، وأن يستمتعوا بالحب، وأن يقرروا لأنفسهم في عيني ربهم مسائل الصواب والخطأ. هل أرادت النساء تلك الحريات لأنهن أردن أن يكنّ رجالًا؟ أم أردنها لأنهن أيضًا بشر؟

لقد رأى هنريك إبسن رمزيًا هذا المعنى للنسوية. فعندما قال في مسرحيته **بيت الدمية** عام 1879 إن المرأة هي، بكل بساطة، إنسان، فإنه قد عزف نغمة جديدة في الأدب. لقد رأت آلاف النساء من الطبقة الوسطى في أوروبا وأمريكا في ذلك الوقت الفيكتوري أنفسهن في نورا. وفي عام 1960، بعد قرن تقريبًا من ذلك، رأت ملايين ربات المنازل الأمريكيات، ممن شاهدن المسرحية على التلفاز، أنفسهن أيضًا عندما سمعن نورا تقول:

لطالما كنت لطيفًا معي. لكن بيتنا لم يكن أكثر من حجرة لعب. لقد كنت زوجتك الدمية، تمامًا مثلما كنتُ في البيت دمية أبي؛ ولقد كان الأولاد هنا

دماي. كنت أظنه مرحًا عظيمًا أن تلعب معي، تمامًا مثلما كانوا يظنون أن لعبي معهم مرح عظيم. هذا ما كان عليه زواجنا، يا تورفالد...

كيف أُعددتُ لتربية الأولاد؟ ... هناك مهمة يجب أن أقوم بها أولًا. يجب أن أحاول وأعلّم نفسي... وأنت لست الرجل الذي سيساعدني في ذلك. يجب أن أقوم بذلك بنفسي. ولهذا سأتركك الآن... يجب أن أقف وحيدة إذا أردت أن أفهم نفسي وكل ما يحيط بي. ولهذا السبب لا أستطيع أن أبقى معك بعد الآن...

يذكّر الزوج المصدوم نورا بأن «واجبات المرأة الأكثر قداسة» هي واجباتها نحو زوجها وأولادها. ويقول: «أنت قبل كل شيء زوجة وأمّ»، لكنّ نورا تردّ عليه:

أعتقد أنني، قبل كل شيء آخر، إنسان له عقل مثلك تمامًا، أو في جميع الأحوال أنني يجب أن أصبح كذلك. أعرف جيدًا، يا تورفالد، أن معظم الناس يعتقدون أنك على حق، وأنّ وجهات النظر التي من ذلك النوع يمكن أن توجد في الكتب، لكنني لم أعد أستطيع أن أقنع نفسي بما يقوله معظم الناس، أو بما يمكن أن يوجد في الكتب. يجب أن أفكر في الأمور لنفسي، وأن أتوصل إلى فهمها...

إن القول بأن النساء قد قضين نصف قرن يناضلن من أجل «حقوق»، وأنهن في النصف الثاني كنّ يتساءلن ما إذا كنّ في النهاية يردن تلك الحقوق، هو كليشية جاهزة من كليشيهات وقتنا. «الحقوق» لها وقع باهت لدى الأشخاص الذين كبروا بعد الفوز بها. لكن، كما هو الحال مع نورا، كان على الناشطات النسويات أن يظفرن بتلك الحقوق قبل أن يتمكنّ من بدء الحياة والحب كإنسانات. لسن كثيرات تلك النساء اللواتي تجرأن حينها، أو الآن، على التخلّي عن الأمان الوحيد الذي عرفنه ... تجرأن على إدارة ظهورهن لبيوتهن وأزواجهن، ليبدأن البحث الذي بدأته نورا. لكن، لابدّ أن أعدادًا كبيرة منهن، حينها والآن، قد وجدن وجودهن ربات منازل فارغًا جدًا إلى درجة أنهن لم يعدن قادرات على الاستمتاع بحب الزوج والأبناء.

انطلق بعض منهن – وحتى قلة من الرجال الذين أدركوا أن نصف الجنس البشري محروم من حق أن يصبح إنسانًا بالكامل– لتغيير الظروف التي أبقت

النساء في العبودية. لُخّصت تلك الظروف، في المؤتمر الأول حول حقوق النساء في سينيكا فولز في نيويورك في عام 1848، كمظالم للمرأة ضد الرجل:

لقد أجبرها على الاستسلام لقوانين لم يكن لها في صياغتها أي صوت... لقد جعلها، إذا كانت متزوجة، ميتة مدنيًا في عيون القانون. أخذ منها جميع حقوق الملكية، حتى الأجور التي تكسبها... وهي تجبر، في عقد الزواج، على أن تعد بطاعة زوجها، الذي يصبح سيدها في كل شاردة وواردة، فالقانون يمنحه سلطة حرمانها من حريتها، وأن يطبق عليها عقابًا... وهو يغلق في وجهها كل سبل الثروة والامتياز التي يعتبرها أكثر تبجيلًا له. وهي غير معروفة كمدرّسة للاهوت أو الطب أو القانون. لقد أنكر عليها تسهيلات الحصول على تعليم شامل، وتُغلق في وجهها جميع الكليات. وكوّن وجدانًا عامًا زائفًا بإعطاء العالم قانونًا للأخلاق مختلفًا للرجال والنساء، لا يتساهل وحسب مع الجنح الأخلاقية، التي تستبعد النساء من المجتمع، بل ولا يعطيها سوى أهمية قليلة بالنسبة للرجال. لقد اغتصب امتياز يهوه ذاته، مدعيًا أن من حقه أن يعيّن لها مجال فعلها، عندما يعود ذلك لضميرها وربها. لقد حاول بكل طريقة استطاعها أن يحطم ثقتها بقواها الخاصة، وأن يقلل احترامها لذاتها، وأن يجعلها مستعدة للسير في حياة من الذل والتبعية.

كانت تلكم هي الظروف التي انطلقت الناشطات النسويات لتغييرها منذ قرن مضى، والتي جعلت من النساء ما كنّ عليه-«أنثويات»، كما عُرّفت الأنثوية حينها، وما تزال.

من الصعب أن يكون الكفاح لتحرير المرأة قد بدأ في أمريكا في أعقاب الحرب الثورية، واشتداده مع الحركة من أجل تحرير العبيد[1] مجرد صدفة.

(1) See Eleanor Flexner, *Century of Struggle: The Woman's Rights Movement in the United States*, Cambridge, Mass., 1959.

لم يحظَ هذا التاريخ المحدِّد لحركة حقوق المرأة، والذي نُشِر عام 1959 في ذروة حقبة اللغز الأنثوي، بالاهتمام الذي يستحقه، لا من قبل القارئ الذكي ولا من قبل الدّارسين. وبرأيي، يجب أن يُفرَض على كل فتاة تُقبَل في كلية أن تقرأه. أحد الأسباب التي يكشفها اللغز هو أن نساءًا قليلات جدًا تحت سن الأربعين يعرفن حقائق حركة حقوق المرأة. أنا مدينة جدًا للسيد فلكسنر على الأفكار الواقعية العديدة التي كان من الممكن أن تفوتني لولاها في محاولتي للوصول إلى الحقيقة الكامنة خلف اللغز الأنثوي وصورته الرهيبة عن الناشطات النسويات.

كان توماس باين (Thomas Paine)، الناطق الرسمي باسم الثورة، بين أوائل من أدانوا في عام 1775 وضع المرأة «حتى في البلدان التي قد يكنّ فيها الأكثر سعادة، مقيدات في رغباتهن في التصرف بممتلكاتهن، مسلوبات الحرية والإرادة من قبل القوانين، مستعبدات الرأي...». في أثناء الثورة، قبل نحو عشر سنوات من قيادة ماري وولستون كرافت للحركة النسوية في إنجلترا، قالت امرأة أمريكية، هي جوديث سارجنت موراي (Judith Sargent Murray)، إن المرأة كانت بحاجة إلى المعرفة لتتخيل أهدافًا جديدة، وتنمو محاولة الوصول إليها. في عام 1837، وهو العام الذي فتحت فيه مونت هوليوك أبوابها لإعطاء النساء فرصتهن الأولى في التعليم على نحو مساو لفرصة الرجل، كانت النساء أيضًا يعقدن أول مؤتمر وطني نسوي مناهض للعبودية في نيويورك. واجتمعت معًا النساء اللواتي أطلقن رسميًا حركة حقوق المرأة في سينيكا فولز، عندما تمّ رفض إعطائهن مقاعد في مؤتمر مناهضة العبودية في لندن. قررت إليزابيث ستانتون (Elizabeth Stanton) في شهر عسلها ولوكريشيا موت (Lucretia Mott) الأم المحتشمة لخمسة أبناء، وهما محجوزتان وراء ستارة في الصالة، أن ليس العبيد فقط من كانوا بحاجة إلى تحرير.

إذا كان هناك، في أي وقت وفي أي مكان من العالم، زيادة في الحرية الإنسانية فإن النساء قد فزن بحصة منها لهن. لم يخض الجنس الثورة الفرنسية، ولم يحرر العبيد في أمريكا، ولم يطح بالقيصر الروسي، ولم يخرج البريطانيين من الهند، لكن، عندما تحرك فكرة الحرية الإنسانية عقول الرجال، فإنها تحرك أيضًا عقول النساء. جاءت إيقاعات بيان سينيكا فولز مباشرة من إعلان الاستقلال:

> عندما يصبح ضروريًا، في مسار الأحداث البشرية، لجزء واحد من العائلة الإنسانية أن يشغل بين أهل الأرض مكانة مختلفة عن تلك التي شغلها حتى الآن... فعلينا أن نأخذ هذه الحقيقة كبديهية: لقد خلق جميع الرجال والنساء متساوين.

لم تكن النسوية نكتة قذرة. يجب خوض الثورة النسوية لأنّ النساء، ببساطة تامة، أوقفن في مرحلة من التطور أقلّ بكثير من قدرتهن الإنسانية. قال الموقر تيودور باركر (Theodore Parker) في بوسطن عام 1853: «تستنزف الوظيفة المنزلية كل قوى المرأة. أن نجعل نصف الجنس البشري يستنزف طاقاته في وظائف مدبرة المنزل والزوجة والأم هو هدر هائل لأثمن مادة صنعها الرب على الإطلاق». وهناك أيضًا فكرةٌ ممتدةٌ مثل خيط لامع، وأحيانًا خطير، عبر تاريخ الحركة النسوية تقول إن المساواة للمرأة ضرورية لتحرير الرجل والمرأة من أجل إشباع جنسي حقيقي[1]. لأنّ الحظّ من قدر المرأة حظّ أيضًا من قدر الزواج والحب وجميع العلاقات بين الرجل والمرأة. بعد الثورة الجنسية، كما قال روبرت ديل أوين (Robert Dale Owen)، «عندها سيموت احتكار الجنس مع أنواع أخرى غير عادلة من الاحتكار؛ ولن تكون النساء محصورات بفضيلة واحدة وعاطفة واحدة ومهنة واحدة»[2].

لم تتوقّع النساء والرجال الذين بدؤوا تلك الثورة «مقدارًا صغيرًا من الوهم أو التحريف أو السخرية». وهذا ما حصلن عليه؛ أطلق على أول من تحدّثن علنًا مطالبات بحقوق المرأة في أمريكا فاني رايت (Fanny Wright)، وهي ابنة نبيل اسكتلندي، وإيرنستين روز (Ernestine Rose)، وهي ابنة حاخام، على التوالي: «مومس الإلحاد الحمراء» و«امرأة أحط

(1) See Sydney Ditzion, *Marriage, Morals and Sex in America: A History of Ideas*, New York, 1953.

توثّق هذه المقالة السيرية الشاملة، التي أعدها أمين مكتبة جامعة نيويورك، للعلاقة المتبادلة المستمرة بين الحركات من أجل الإصلاح الاجتماعي والجنسي في أمريكا، وعلى نحو خاص، بين حركة الرجل من المزيد من التحقق الذاتي والتحقق الجنسي وحركة حقوق المرأة. تكشف الخطابات والكراسات التي جمعت عن أنه غالبًا ما ينظر الرجال، وكذلك النساء اللواتي يقدن حركة تحرير المرأة، إلى الحركة على أنها «خلق توازن عادل في السلطة بين الجنسين» في سبيل «تعبير أكثر إرضاءًا عن الجنسانية من قبل الجنسين».

(2) Ibid., p. 107.

ألف مرة من العاهرة». واستثار بيان سينيكا فولز احتجاجًا عنيفًا متراوحًا بين وصفه بـ«الثورة» و«العصيان بين النساء» و«حكم التنانير» و«التجديف على الله» من صحف ورجال دين، حتى أنّ ضعيفات القلوب سحبن توقيعهن. وتنافست التقارير المثيرة عن «الحب الحر» و«الدعارة المجازة قانونيًا» مع قصص خيالية عن جلسات محاكم ومواعظ كنسية وعمليات جراحية قوطعت فيما أهدت محامية أو كاهنة أو طبيبة زوجها بسرعة طفلًا.

كان على الناشطات النسويات، في كل خطوة على الطريق، أن يحاربن فكرة أنهن ينتهكن طبيعة المرأة التي منحها الله لها. اعترض رجل دين على مؤتمرات حقوق المرأة ملوحًا بالأناجيل ومقتبسًا من الكتاب المقدس: «قال القديس بولس...ورئيس كل امرأة رجل»...«دعوا نساءكم يصمتن في الكنائس، لأنه غير مسموح لهن أن يتحدثن»... «وإذا كنّ سيتعلمن أي شيء، فدعوهن يسألن أزواجهن في البيت؛ لأنه عار على المرأة أن تتكلم في الكنيسة»... «لكني لا أتحمل أن تقوم امرأة بالتلقين أو بفرض سلطتها على الرجل، بل أن تبقى صامتة؛ لأن آدم خلق أولًا، ثم خلقت حواء»... «قال القديس بطرس: وبالمثل أيتها الزوجات، كنّ خاضعات لأزواجكن»...

إنّ إعطاء النساء حقوقًا مساوية من شأنه أن يدمر تلك «الطبيعة الأنعم والألطف التي، لا تجعلهن ينفرن من دوامة الحياة العامة ومعركتها فحسب، بل وتجعلهن غير مؤهلات لها» حسبما قال سيناتور من نيوجرسي منغّمًا بورع في عام 1866. «إن لديهن رسالة أسمى وأقدس. إنها في متابعة صناعة شخصية الرجال القادمين. رسالتهن في البيت، عن طريق مداهناتهن وحبهن، من أجل إشباع عواطف الرجال عندما يعودون من معركة الحياة، وليس من خلال اشتراكهن أنفسهن في الصراع لصبّ مزيد من الزيت على النار».

وقال أحد أعضاء مجلس النواب من نيويورك، ممن عارضوا أول عريضة متعلقة بحق المرأة المتزوجة في الملكية والمكاسب: «لا يبدو أنهن اكتفين بأن يكن فاقدات للقدرة الجنسية، بل ويرغبن في أن يُفقدن كل أنثى

على الأرض تلك القدرة». ولأنّ «الله خلق الرجل ممثلًا للجنس البشري»، ثم «أخذ من جنبه مادة لخلق المرأة»، وأعادها إلى جنبه عن طريق الزواج «كجسد واحد، وجود واحد»، فقد رفض المجلس برضى ذاتي العريضة: «لقد أعطت سلطة أعلى من تلك التي تصدر التشريعات القانونية الأمر الشرعي بأن الرجال والنساء غير متساوين»[1].

استندت خرافة أن أولئك النساء هنّ «مسوخ، وغير طبيعيات» على القناعة بأن تدمير خضوع النساء المفروض من قبل الرب من شأنه أن يدمّر البيت، وأن يجعل من الرجال عبيدًا. تنشأ تلك الخرافات في كل نوع من الثورات يخضع جزءًا جديدًا من عائلة الإنسان للمساواة. ليس تصوير الناشطات النسويات على أنهن آكلات رجال ناريّات متوحشات، سواء جرى التعبير عنه على شكل إساءة للرب أو في المصطلحات المعاصرة للشذوذ الجنسي، مختلفًا عن التصنيف المقولب للزنجي على أنه حيوان بدائي، أو لعضو الاتحاد على أنه فوضوي. ما تخفيه المصطلحات الجنسية هو الحقيقة القائلة بأن الحركة النسوية كانت ثورة. كانت هناك بعض المبالغات بالطبع كما في أية ثورة، لكن مبالغات الناشطات النسويات كانت في حدّ ذاتها دلالة على ضرورة الثورة. لقد انبثقت من الأقاويل المنحطة عن حياة المرأة، وجاءت إنكارًا انفعاليًا لها: خضوع مستسلم متخفّ وراء لباقةٍ لطيفةٍ جعلت من النساء غرضًا لاحتقار الرجال، ومقنّع بطبقة رقيقة لدرجة أنهن، أنفسهن، شعرن بالاحتقار تجاه أنفسهن. وبالتأكيد كان التخلص من ذلك الاحتقار، واحتقار الذات، أصعب من الظروف التي سببتهما.

كنّ بالطبع يحسدن الرجل. قصّت بعض أوائل الناشطات النسويات شعرهن قصيرًا، وارتدين السراويل، وحاولن أن يكن مثل الرجال. كانت

(1) Yusi Suhl, *Ernestine L. Rose and the Battle for Human Rights*, New York, 1959, p. 158.

وهي تمثل وصفًا قويًا للمعركة من أجل حق النساء المتزوجات في ملكيتهن ودخولهن.

لدى أولئك النساء المتحمسات، بناءًا على الحياة التي رأين أمهاتهن يعشنها وعلى تجاربهن الخاصة، أسبابًا وجيهة لرفض الصورة التقليدية عن المرأة. كما رفض بعضهن الزواج والأمومة. لكن في إدارة ظهورهن للصورة الأنثوية القديمة، وفي الكفاح لتحرير أنفسهن وجميع النساء، أصبح البعض منهن نوعًا مختلفًا من النساء. أصبحن إنسانات كاملات.

يعيد اسم لوسي ستون (Lucy Stone) إلى الذهن اليوم صورة امرأة ضارية آكلة رجال ترتدي بنطالًا وتلوّح بمظلتها مهددة. احتاج الرجل الذي أحبها زمنًا طويلًا لإقناعها بالزواج منه، وعلى الرغم من أنها أحبته، وظلّت على حبه طوال حياتها المديدة، فإنها لم تحمل اسمه قط. عندما وُلدت صرخت أمها اللطيفة: «أوه، يا عزيزي! أنا آسفة لأنها فتاة. فحياة المرأة قاسية جدًا». قبل بضع ساعات من ولادة الطفلة، حلبت تلك الأم في مزرعة في غرب ماساشوستس في عام 1818 ثمانية أبقار، لأنّ عاصفة رعدية مفاجئة استدعت كل الأيدي إلى الحقل: كان إنقاذ محصول التبن أهم من المحافظة على أمّ على وشك الولادة. وعلى الرغم من أن هذه الأم اللطيفة المتعبة تحمّلت العمل الذي لا ينتهي في بيت المزرعة، وولدت تسعة أولاد، فقد كبرت لوسي ستون عارفة أنه «كانت هناك إرادة واحدة في بيتنا وتلكم هي إرادة والدي».

ثارت على أنها وُلدت فتاة إذا كان ذلك يعني أن تكون وضيعة، كما قال الكتاب المقدس، وكما قالت أمها. ثارت عندما كانت ترفع يدها في اجتماع الكنيسة دون أن تُعدّ، المرة تلو المرة. في اجتماع حلقة خياطة في الكنيسة، حيث كانت تصنع قميصًا لمساعدة شاب على الدخول إلى مدرسة لاهوتية، سمعت ماري لايون (Mary Lyon) تتحدث عن التعليم للنساء. تركت القميص غير مكتمل، وبدأت في عمر السادسة عشرة تعلّم في مدرسة مقابل دولار في الأسبوع، مدخرة ما تحصل عليه لمدة تسع سنوات، إلى أن جمعت ما يكفي لدخول الجامعة بدورها. أرادت أن تدرّب نفسها «على

الدفاع لا عن العبيد فقط، وإنما عن الإنسانية المعذبة في كل مكان. وأعني بشكل خاص أن أعمل على نهضة بنات جنسي». ولكن في أوبرلين، حيث كانت واحدة من أوائل خريجات «الدورة النظامية»، كان عليها أن تتمرّن سرًّا على الخطابة أمام جمهور في الغابة. إذ حتى في أوبرلين لم يكن مسموحًا للفتيات أن يتحدثن أمام جمهور.

> كانت الزميلات المختلطات في أوبرلين، في غسلهن لملابس الرجال، والعناية بغرفهم، وخدمتهم على المائدة، والاستماع إلى خطبهم، مع البقاء صامتات باحترام في التجمعات العامة، يُعددن لأمومة ذكية وحياة زوجية مذعنة كما ينبغي[1].

من حيث المظهر، كانت لوسي ستون امرأة صغيرة الحجم ذات صوت فضيّ لطيف يستطيع أن يهدئ حشدًا غاضبًا. كانت تلقي محاضرات عن إلغاء العبودية في أيام السبت والأحد ممثلةً جمعية مناهضة العبودية، وتحاضر مطالبة بحقوق المرأة في بقية أيام الأسبوع كنشاط ذاتي، مواجهةً، ومتغلبةً على رجال يهددونها بالعصي، ويرمون بكتب الصلاة والبيض على رأسها، حتى أنهم مرّةً في منتصف الشتاء، دسّوا أنبوبًا من النافذة، وفتحوا عليها ماءًا شديد البرودة.

انتشرت في إحدى البلدات الإشاعة المعتادة بأن امرأة «مسترجلة» ضخمة، ترتدي جزمة، وتدخّن السيجار، وتشتم مثل الفرسان، قد وصلت لتلقي محاضرة. لكنّ السيدات، اللواتي حضرن ليستمعن إلى هذه النزوة، عبّرن عن ذهولهن لأنهن وجدن لوسي ستون صغيرة وأنيقة لابسة فستانًا من الساتان الأسود مع كشكش مخرّم أبيض عن العنق «نموذج أصلي لأناقة المرأة...عذبة وصافية كالصباح»[2].

أغاظ صوتها القوى المدافعة عن العبودية، حتى أن صحيفة بوسطن

---

(1) Flexner, *op. cit.*, p. 46.
(2) Elinor Rice Hays, *Morning Star, A Biography of Lucy Stone*, New York, 1961, p. 83.

بوست نشرت قصيدة وقحة واعدةً بـ«نفخ بوق الشهرة بصوت عالٍ» للرجل الذي «سيغلق فم لوسي ستون بقبلة الزواج». شعرت لوسي ستون أن «الزواج للمرأة هو حالة من العبودية». حتى بعد أن تبعها هنري بلاكويل (Henry Blackwell) من سينسيناتي إلى ماساشوستس («لقد وُلدت متحركة»، كما اشتكى)، وأقسم أن «يرفض سيادة الرجل أو المرأة في الزواج»، وكتب لها: «التقيت بك في نياغارا، وجلست عن قدميك بجوار الدوامة ناظرًا إلى المياه القاتمة بشغف وشوق لا يتجزأ ولا ينطفئ في قلبي الذي لن تعرفيه ولن تفهميه»، وألقى خطابًا علنيًا لصالح حقوق المرأة؛ حتى بعد أن اعترفت بأنها أحبته، وكتبت: «بالكاد تستطيع أن تخبرني أي شيء لا أعرفه حول الفراغ في حياة امرأة عازبة»، فإنها عانت من نوبات صداع نصفي تعمي البصر بخصوص قرار الزواج منه.

في عرسهما، كتب الكاهن توماس هيجنسون (Thomas Higginson): «بكت البطلة لوسي مثل أية عروس قروية». وقال الكاهن أيضًا: «لم أؤد مراسم الزواج يومًا دون شعور متجدد بظلم نظام يصبح الرجل والمرأة فيه واحدًا، وهذا الواحد هو الزوج». وأرسل إلى الصحف العهد الذي ضمّ لوسي ستون وهنري بلاكويل أيديهما لقطعه قبل أن يقطعا عهد الزواج، وذلك حتى ينسخه الأزواج الآخرون:

> بينما نقرّ بعاطفتنا المشتركة من خلال تحملنا على رؤوس الأشهاد لعلاقة الزوج والزوجة... فإننا نعتبر واجبًا علينا أن نعلن أنّ هذا الفعل من جانبنا لا يتضمن أي إقرار أو وعد بالطاعة الطوعية لقوانين الزواج الحالية التي ترفض الاعتراف بأن الزوجة كائن عاقل مستقل، وتمنح في الوقت نفسه الزوج سيادة مؤذية وغير طبيعية[1].

قاومت لوسي ستون وصديقتها الموقرة الجميلة أنطوانيت براون (التي تزوجت لاحقًا شقيق هنري) ومارجريت فولر وأنجلينا غريمكي وأبّي كيلّي

(1) Flexner, *op. cit.*, p. 64.

فوستر، قاومن جميعًا الزواج المبكّر، ولم يتزوجن في الحقيقة حتى بدأن، في معركتهن ضد العبودية ومن أجل حقوق المرأة، يجدن كنساء هوية كانت مجهولة لأمهاتهن. وبعضهن، من مثل سوزان أنتوني وإليزابيث بلاكويل، لم يتزوجن قط؛ احتفظت لوسي سميث باسمها في خطوة تتجاوز الخوف الرمزي من أنك حين تصبحين زوجة تموتين كشخص. علّق المفهوم المعروف بـ«المرأة المغطاة»، والمكتوب في القانون، «الكائن نفسه أو الوجود القانوني للمرأة» لدى الزواج. «بالنسبة للمرأة المتزوجة، ذاتها الجديدة هي وليّها، شريكها، سيدها».

إذا كان صحيحًا أن الناشطات النسويات كنّ «نساء محبطات»، كما قال أعداؤهن حتى في ذلك الوقت، فذلك لأنه كانت لدى جميع النساء تقريبًا اللواتي عشن في ظل تلك الظروف من الأسباب ما يكفي للتسبّب بالإحباط. قالت لوسي ستون، في واحد من أكثر خطاباتها إثارة للمشاعر في عام 1855:

> لقد كنت، من السنوات الأولى التي تمتد إليها ذاكرتي، امرأة محبطة. عندما كنت أسعى مع أخوتي وراء مصادر المعرفة، كنت أُوَبّخ بكلمات مثل: «هذا غير مناسب لك؛ هذا لا يلائم النساء»... في التربية، في الزواج، في الدين، في كل شيء، الإحباط قدر المرأة. وسيكون عمل حياتي أن أعمّق هذا الإحباط في قلب كل امرأة حتى لا تعود تذعن له[1].

رأت لوسي ستون خلال حياتها قوانين كل ولاية تقريبًا تتغير جذريًا فيما يتعلق بالنساء، فتحت المدارس الثانوية أبوابها لهن وكذلك ثلثا الجامعات في الولايات المتحدة. وبعد موتها في عام 1893، كرّس زوجها وابنتها آليس ستون بلاكويل (Alice Stone Blackwell) حياتهما للمعركة غير المنتهية من أجل حق النساء في التصويت. وفي نهاية رحلتها الحماسية، استطاعت لوسي القول إنها كانت سعيدة لأنها ولدت امرأة. وكتبت إلى ابنتها في اليوم السابق على عيد ميلادها السابع عشر:

(1) Hays, *op. cit.*, p. 136.

أنا واثقة من أن أمي ترى وتعرف كم أنا سعيدة لأنني وُلدت، في زمن كانت فيه أشياء كثيرة بحاجة إلى المساعدة، وقد استطعت أن أمدّ يد المساعدة. آه يا أمي العجوز الغالية! كانت حياتها قاسية، وشعرت بالأسف لأنها أنجبت فتاة أخرى، عليها أن تعيش حياة المرأة القاسية، وتتحملها... لكنني سعيدة تمامًا لأنني أتيت[1].

لقد كان عشق الحرية لدى بعض الرجال، في أوقات معينة من التاريخ، في مثل قوة العواطف المألوفة للحب الجنسي أو أقوى منها. وإنها لحقيقة أن الأمر كان كذلك أيضًا للكثير من النساء اللواتي كافحن من أجل تحرير النساء، بغض النظر عن كيفية شرح قوة تلك العاطفة الأخرى. وعلى الرغم من عبوس معظم أزواجهن وآبائهن وسخرياتهم، وعلى الرغم من العدائية، إن لم يكن سوء المعاملة التام، الذي تعرضن له نتيجة سلوكهن «غير الأنثوي»، فإن الناشطات النسويات تابعن حربهن المقدّسة. هنّ أنفسهن كنّ يتعذبن بشكوك المراجعة الذاتية في كل خطوة على الطريق. كتبت ماري لايون أنه لم يكن من اللائق للأنثى أن تسافر في أرجاء نيو إنجلاند وهي تحمل حقيبة من المخمل الأخضر لجمع المال من أجل تأسيس جامعتها للنساء. وسألت: «هل ما أقوم به خطأ؟ لقد ركبت في العربة أو السيارات دون مرافقة... قلبي مريض، روحي متألمة من هذه الدماثة الفارغة، من هذه التفاهة اللطيفة. أنا أقوم بعمل عظيم، ولا أستطيع التراجع».

شعرت أنجيلينا غريمكي الجميلة أنها ستصاب بالدوار عندما قبلت ما كان القصد منه الهزل، وظهرت لتتحدث أمام الهيئة التشريعية في ماساشوستس حول العرائض المناهضة للعبودية، أول امرأة على الإطلاق تظهر أمام هيئة تشريعية. وقد أدانت رسالة رعوية سلوكها غير اللائق بالمرأة:

إننا نسترعي انتباهكم إلى المخاطر التي يبدو حاليًا أنها تهدد الشخصية الأنثوية بأذى واسع الانتشار ودائم... إن قوة المرأة هي تبعيتها، نابعة من إدراك ذلك الضعف الذي منحه الله لها من أجل حمايتها... لكنها عندما

(1) Ibid., p. 285.

تنتحل مكانة الرجل وأسلوبه كمصلح عام فإن شخصيتها تصبح غير طبيعية. إذا كانت الكرمة، التي تكمن قوتها وجمالها في أن تستلقي على العريشة، وتستر جزئيًا عناقيدها، تظن أنها ستنتحل استقلالية الدردار أو طبيعته الظليلة، فهي لن تتوقف عن حمل الثمار وحسب، بل وستسقط في التراب مجللة بالخزي والعار[1].

لقد جعلها شيء أكبر من القلق والإحباط ترفض أن «تشعر بالخزي إلى درجة التزام الصمت»، وجعل ربات المنازل في نيو إنجلاند يمشين ميلين وأربعة أميال وستة وثمانية في أماسٍ شتوية ليستمعن إليها.

قد تشهد المماثلة الانفعالية للنساء الأمريكيات مع المعركة من أجل تحرير العبيد، وقد لا تشهد، على الإثارة غير الواعية لثورتهن. لكن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أنّ النساء الأمريكيات، في التنظيم وتقديم العرائض والحديث علنًا من أجل تحرير العبيد، قد تعلمن كيف يحررن أنفسهن. في الجنوب، حيث أبقت العبودية النساء في البيت، وحيث لم يحصلن على أي نصيب من التعليم أو العمل الاستكشافي أو معارك المجتمع التعليمية، بقيت الصورة القديمة للأنوثة سليمة لم تُمس، وكان عدد الناشطات النسويات قليلًا. وفي الشمال، لم تعد النساء اللواتي شاركن في مشروع مترو الأنفاق، أو اللواتي عملن من أجل تحرير العبيد، كما كنّ مرة ثانية. مضت النسوية أيضًا إلى الغرب مع القطارات، حيث جعلت المناطقُ الحدوديةُ من النساء مساويات تقريبًا منذ البداية. (كانت ولاية وايومينغ أول ولاية تمنح النساء حق الاقتراع). على المستوى الفردي، يبدو أن الناشطات النسويات لم يكن لديهن من الأسباب لحسد الرجل أو كرهه أكثر ولا أقل مما كان لدى جميع النساء في وقتهن. أمّا ما تمتعن به فهو الاحترام الذاتي والشجاعة والقوة. وسواء أحببن الرجل أم كرهنه، نجون من إذلال الرجال لهن في حياتهن الخاصة أم عانين منه، فقد تماهين مع النساء. شعرت النساء، اللواتي قبلن بالظروف التي تحط من قدر المرأة، بالاحتقار لأنفسهن ولجميع النساء. أما

(1) Flexner, *op. cit.*, p. 46.

الناشطات النسويات، اللواتي ناضلن ضد تلك الظروف، فقد حررن أنفسهن من ذلك الاحتقار، وكانت أسبابهن لحسد الرجل أقل.

جاءت الدعوة إلى المؤتمر الأول لحقوق المرأة لأن امرأة متعلمة، كانت قد شاركت في تشكيل المجتمع كناشطة من أجل إلغاء العبودية، احتكت وجهًا لوجه مع حقائق بؤس ربات المنازل في بلدة صغيرة وعزلتهن. ومثل الخريجة الجامعية التي لديها ستة أولاد، والتي تعيش في ضاحية اليوم، كانت إليزابيث كادي ستانتون، التي انتقلت مع زوجها إلى بلدة سينيكا فولز الصغيرة، لا تهدأ في حياة من الخبز والطبخ والخياطة والغسيل والعناية بكل طفل. وكان زوجها، الناشط من أجل إلغاء العبودية، غائبًا غالبًا في أعماله. كتبت:

أفهم الآن الصعوبات العملية التي كان على معظم النساء أن يكافحن ضدها في منزل منعزل واستحالة تطوير المرأة نحو الأفضل إذا كان احتكاكها، في الجزء الأكبر من حياتها، هو مع الخدم والأطفال... ترك الاستياء العام الذي شعرت به تجاه قدر المرأة... والنظرة المتعبة القلقة لدى غالبية النساء فيّ أثرًا قويًا، مع شعور قوي بوجوب اتخاذ بعض التدابير الفعالة... لم يكن واضحًا لي ما الذي يجب فعله، أو من أين أبدأ، وكانت فكرتي الوحيدة هي اجتماع عام للاحتجاج والمناقشة[1].

لم تنشر سوى بيان موجز في الصحف، لكنّ ربات منازل وبنات، لم يعرفن قط أي نوع آخر من الحياة، جئن في عربات من دائرة نصف قطرها خمسون ميلًا ليستمعن إليها تتحدث.

مهما كانت جذورهن الاجتماعية والنفسية متباينة فإن جميع اللواتي قدن المعركة من أجل حقوق المرأة، في بدايتها وفيما بعد، تشاركن أيضًا بما هو أكثر من الذكاء المشترك، وتغذّين بما هو أكثر من التعليم المشترك في وقتهن. ولولا ذلك ما كنّ، أيًا تكن عواطفهن، ليتمكنّ من أن يخترقن برؤيتهن التحيّزات التي برّرت الحطّ من قدر المرأة، وأن يعبّرن بكلمات

(1) Ibid., p. 73.

واضحة عن صوتهن المختلف. علّمت ماري وولستون كرافت نفسها، ثمّ تعلمت بعد ذلك على يد تلك المجموعة من الفلاسفة الإنكليز الذين كانوا يبشّرون حينها بحقوق الإنسان. ومارجريت فولر، علّمها والدها أن تقرأ كلاسيكيات ست لغات، وانخرطت مع المجموعة المحيطة بإيمرسون (Emerson) من أتباع الفلسفة المتعالية. أما والد إليزابيث كادي ستانتون، وهو قاض، فقد وفّر لابنته أفضل تعليم متاح حينها، وأكمل ذلك بأن سمح لها بالاستماع إلى القضايا التي كان يحكم فيها. وحصلت إرنستين روز، ابنة الحاخام التي تمردت على عقيدة دينها القاضي بخضوع المرأة للرجل، على تعليمها في «التفكير الحر» من الفيلسوف الطوباوي الكبير روبرت أوين. كما تحدّت العرف الديني الأرثوذكسي لتتزوج الرجل الذي أحبته. وكانت تصرّ دائمًا، في أمرّ أيام النضال من أجل حقوق المرأة، على أن عدو المرأة ليس الرجل. «نحن لا نناضل ضد الرجل نفسه، بل ضد مبادئ سيئة».

لم تكن أولئك النساء آكلات رجال. فجوليا وورد هاوي، الابنة الألمعية والجميلة لنيويورك «400»، والتي درست بتركيز كل ميدان من الميادين التي أثارت اهتمامها، كتبت «ترتيلة معركة الجمهورية» بلا اسم، لأنّ زوجها كان يعتقد أن حياتها يجب أن تكون مكرسة له ولأولادهما الستة. ولم تلعب أي دور في الحركة من أجل حق الانتخاب حتى عام 1868، عندما التقت بلوسي ستون، التي «كانت لفترة طويلة موضوع واحد من مكروهاتي الخيالية. عندما نظرت في وجهها الأنثوي الحلو، وسمعت صوتها الوقور، شعرت أن موضوع نفوري لم يكن سوى وهم أثارته تحريفات ساذجة لا معنى لها... لم أستطع سوى القول: أنا معك»[1].

تكمن السخرية في خرافة آكلات الرجال تلك في أنّ ما كان يسمى مبالغات الناشطات النسويات قد نشأ من انعدام حيلتهن. فعندما تعتبر النساء بلا حقوق، وأنهن غير جديرات بأية حقوق، ما الذي يمكن أن يفعلنه

(1) Hays, *op. cit.*, p. 136.

لأنفسهن؟ في البداية، بدا أن ليس في مقدورهن القيام بأي شيء سوى الكلام. عقدن مؤتمرات حول حقوق المرأة في كل عام بعد عام 1848، في مدن صغيرة وكبيرة، مؤتمرات وطنية أو على مستوى الولاية، مرة تلو المرة، في أوهايو، وبنسلفانيا، وإنديانا، وماساشوستس. كنّ قادرات على الكلام حتى يوم القيامة حول الحقوق التي لم يكنّ يتمتعن بها. لكن، كيف يمكن للنساء أن يجعلن المشرّعين يتركونهن يحتفظن بما يكسبنه من مال، أو بأولادهن بعد الطلاق، في وقت لا يتمتعن فيه حتى بحق الاقتراع؟ كيف يستطعن أن يموّلن، أو ينظّمن، حملة للحصول على حق الاقتراع في وقت لا يملكن فيه أي مال خاص بهن، ولا حتى حق امتلاك ملكية؟

جعلت الحساسية عينها تجاه الاعتقاد الذي تغذيه تلك التبعية التامة في النساء كل خطوة خارج سجنهن اللطيف خطوة مؤلمة. حتى عندما حاولن تغيير الظروف، التي كانت ضمن قدرتهن على التغيير، فقد ووجهن بالسخرية. كانت الفساتين غير المريحة على نحو مذهل التي تلبسها «السيدات» في ذلك الوقت رمزًا لعبوديتهن: مشدّ معقود بإحكام حتى يكاد نفسهنّ ينقطع، نصف دزينة من التنانير والحواشي تزن ما بين عشرة أرطال واثني عشر رطلًا، وطويلة جدًا إلى حد أنها تكنس أوساخ الشارع. لقد جاء تصوير الناشطات النسويات على أنهن يقلدن سراويل الرجال جزئيًا من فستان «بلومر»[1]، وهو عبارة عن سترة وتنورة تصل إلى الركبة وسروال واسع يصل إلى الكاحل. لبسته إليزابيث ستانتون بحماس في البداية حتى تقوم بعملها المنزلي براحة، مثلما قد تلبس شابة اليوم بنطالًا قصيرًا أو سروالًا واسعًا. لكن، عندما كانت الناشطات النسويات يلبسن فستان بلومر في الأماكن العامة للدلالة على تحررهن، كانت النكات الوقحة من محرري الصحف والمتسكعين على زوايا الشوارع والفتيان الصغار غير محتملة

(1) Bloomer: سروال نسائيّ واسع، أخذ اسمه من السيدة التي استخدمته لأول مرة Amelia Bloomer - المترجم.

لحساسياتهن الأنثوية. حتى أنّ إليزابيث ستانتون قالت: «لبسنا الفستان من أجل الشعور بحرية أكبر، لكن ما الحرية الجسدية بالمقارنة مع العبودية العقلية»، وتخلّت ستانتون عن فستان بلومر. توقف معظمهن، مثل لوسي ستون، عن لبسه لسبب أنثوي: لم يكن لائقًا جدًا، إلا للسيدة بلومر نفسها الجميلة والصغيرة جدًا.

ومع ذلك، يجب التغلب على تلك الرقة العاجزة في عقول الرجال وفي عقول النساء الأخريات وفي عقولهن هنّ. عندما قررن تقديم عريضة من أجل حقوق النساء المتزوجات بامتلاك ملكية، كانت الأبواب تصفق في وجوههن في نصف الحالات حتى من قبل النساء، مع ملاحظة معتدة بأن لديهن أزواجًا ولسن بحاجة إلى القوانين لتحميهن. عندما جمعت سوزان أنتوني ورفيقاتها ستة آلاف توقيع في عشرة أسابيع، استقبلهن مجلس ولاية نيويورك بعاصفة من الضحك. وردّ المجلس بسخرية إنه بما أن السيدات يحصلن دائمًا على «الطعام الشهي المختار» على المائدة وعلى أفضل مقعد في العربة، ويخترن على أي جانب من السرير سيستلقين، «فإذا كان هناك ظلم وإجحاف، فالرجال هم من يعانون منه». وأنهم، على كل حال، سيتنازلون عن «التعويض»، فيما عدا الحالات التي وقّع فيها الزوج والزوجة على العريضة. «وفي تلك الحالة، سيوصون الطرفين بتقديم طلب من أجل قانون يجيز لهما تبادل الملابس، بحيث قد يلبس الزوج التنورة، وتلبس الزوجة السروال».

والعجيب هو أن الناشطات النسويات كنّ قادرات على الفوز بأي شيء.. أنهن لم يكنّ نساء سليطات مغتاظات، بل نساء متحمسات على نحو متزايد، يعرفن أنهن يصنعن تاريخًا. لدى إليزابيث ستانتون من الحيوية أكثر مما لديها من المرارة؛ ظلت تنجب الأطفال حتى الأربعينيات من عمرها، وتكتب لسوزان أنتوني أن هذا الطفل سيكون حقًا الأخير، والطريف أن ذلك لم يكن سوى البداية.. «تشجعي يا سوزان، لن نصل إلى أفضل ما

فينا حتى نصبح في الخمسينيات». كانت سوزان أنتوني -المزعزعة بألم المدركة لملامح وجهها، لا نتيجة معاملة الرجال لها (فقد كان هناك من طلبوا يدها)، بل نتيجة أخت أكبر جميلة وأمّ، تعاملتا مع فتاة حولاء على أنها مأساة- الوحيدة من بين القائدات النسويات في القرن التاسع عشر التي شابهت الخرافة عنهن. شعرت أن الأخريات قد خنّها، عندما أخذن يتزوجن، وينجبن الأطفال. ولكن رغم ذلك الشعور بأنها أقل من الآخرين، فإنها لم تكن عانسًا لاذعة تربي قطة. فعن طريق سفرها وحيدة من مدينة إلى أخرى، وعن طريق إلقائها بملاحظاتها في الاجتماعات، وعن طريق استخدام قدراتها كاملة، كمُنَظِّمَة وعضو في جماعة ضغط ومحاضرة، شقّت طريقها الخاص في عالم أوسع وأوسع.

غيّرت تلك النساء خلال حياتهن الصورة الأنثوية التي برّرت الحطّ من قدر المرأة. في أحد الاجتماعات، وفيم كان الرجال يسخرون من منح حق الاقتراع إلى نساء عاجزات إلى حدّ يجب معه رفعهن فوق برك الطين ودفعهن إلى العربات، رفعت ناشطة نسوية فخورة، اسمها سوجورنر تروث (Sojourner Truth)، ذراعها السوداء:

> انظروا إلى ذراعي! لقد حرثتُ الأرض، وزرعتها، وجمعت المحصول في مخازن الغلال... ألست امرأة؟ كنت أستطيع العمل بقدر ما يستطيع رجل أن يعمل، وأن آكل بمقدار ما يستطيع رجل أن يأكل -عندما كنت أتمكن من الحصول على طعام- وأن أتحمل الجلد بالسوط كذلك... لقد ولدت ثلاثة عشر ولدًا، ورأيت معظمهم يباع في سوق العبودية، وعندما كنت أصرخ مع أسى أمي، لم يساعدني أحد سوى يسوع المسيح. ألست امرأة؟

قُوّضت تلك الصورة عن الرقة الفارغة أيضًا بآلاف متزايدة من النساء اللواتي عملن في معامل القرميد: فتيات معمل لوويل اللواتي ناضلن ضد ظروف العمل المرعبة التي كانت، في جزء منها نتيجة دونية النساء المفترضة، أسوأ لهن حتى من تلك التي للرجال. لكن تلك النساء اللواتي كان عليهن، بعد اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة ساعة في المعمل، أن يقمن

بالواجبات المنزلية لم يتمكنّ من أخذ زمام القيادة في الرحلة الحماسية. معظم المناضلات النسائيات الرياديات كنّ نساءًا من الطبقة الوسطى قادتهن دوافع مركبة إلى تعليم أنفسهن وتحطيم تلك الصورة الفارغة.

ما الذي قادهن قدمًا؟ كتبت لويزا ماي ألكوت (Louisa May Alcott) في جريدتها، عندما قررت أن تتطوع ممرضة في الحرب الأهلية: «يجب أن أطلق طاقتي الحبيسة بطريقة جديدة. رحلة مثيرة جدًا إلى عالم جديد مليء بالمشاهد والأصوات المثيرة، مغامرات جديدة، وإحساس متزايد باستمرار بالمهمة العظيمة التي قمت بها. كنت أتلو صلواتي، فيما أمضي مندفعة عبر الوطن، أبيض بالخيم وزاخر بالوطنية وقد اصطبغ أحمر بالدم. زمن مهيب، لكني سعيدة لأنني عشت فيه».

ما الذي قادهن قدمًا؟ وحيدةً ومعذبة بشكوكها الذاتية، تجاهلت إليزابيث بلاكويل، بذلك التصميم الهائل الذي لم يسمع أحد بمثله قط على أن تصبح طبيبة، ضحكات السخرية والمآزق المؤقتة لتقوم بدراساتها التشريحية. عاركت من أجل حق حضور تشريح أعضاء التكاثر، لكنها قررت عدم المسير في موكب حفلة التخرج لأن ذلك لم يكن لائقًا بامرأة. ومجتنبةً حتى من زملائها الأطباء، كتبت:

> أنا امرأة وطبيبة أيضًا... أفهم الآن لماذا لم تُعَش هذه الحياة من قبل. إنه لمن الصعب أن تعيش، دون أي دعم سوى هدف كبير، ضد كل أصناف المعارضة الاجتماعية... أحب أن أحصل على شيء من التسلية بين حين وآخر. الحياة في مجملها جديّة زيادة عن اللزوم(1).

في غضون قرن من الصراع، خدع الواقع الخرافة القائلة بأن المرأة ستستخدم حقوقها من أجل الهيمنة الانتقامية على الرجل. عندما ظفرت الناشطات النسويات بالحق في التعليم المتساوي والحق في الحديث أمام الجمهور وامتلاك الملكية والحق في العمل في وظيفة أو مهنة وفي أن

(1) Flexner, *op. cit.*, p 46.

يتحكمن بما يكسبنه، أصبحت أسباب شعورهن بالقسوة ضد الرجل أقل. ولكن، كانت هناك معركة أخرى يجب خوضها. كما كتبت الألمعية م. كاري توماس (M. Carey Thomas)، أول رئيسة لجامعة براين ماور(Bryn Mawr)، في عام 1908:

النساء نصف العالم، لكن حتى قرن مضى، عاشت النساء حياة غسقية، نصف حياة مجزّأة، ونظرن خارجًا، ورأين الرجال مثل أشباح تمشي. كان عالمًا للرجل. كانت القوانين قوانين الرجل، وكانت الحكومة حكومة الرجل، وكان البلد بلد الرجل. الآن ظفرت النساء بالحق في التعليم العالي والاستقلالية الاقتصادية. والحق في أن يصبحن مواطنات في الدولة هو النتيجة التالية التي لا مناص منها للتعليم والعمل خارج المنزل. لقد مضينا بعيدًا، ويجب علينا أن نمضي أبعد. لا يمكننا أن نتراجع إلى الوراء[1].

كانت المشكلة هي أن حركة حقوق النساء قد أصبحت محترمة جدًا تقريبًا؛ ومع ذلك، دون حق الاقتراع لم تستطع جعل أي حزب سياسي يأخذها على محمل الجد. عندما عادت هاربيت بلاتش (Harriet Blatch)، ابنة إليزابيث ستانتون وأرملة رجل إنجليزي، إلى البلاد، عام 1907؛ وجدت الحركة التي أنشأتها أمها فيها تدور في روتين عقيم من حفلات الشاي والكعك. كانت قد اطلعت على التكتيكات التي استخدمتها النساء في إنجلترا لطرح القضية في وضع مشابه من الجمود: متحدثات يواجهن الآخرين في الاجتماعات العامة، إثارة متعمدة لرجال الشرطة، إضرابات عن الطعام في السجن؛ نوع من المقاومة غير العنيفة الدرامية التي استخدمها غاندي في الهند، أو تلك التي يستخدمها راكبو الحرية[2] في الولايات المتحدة الآن عندما تترك التكتيكات القانونية التمييز على حاله. لم تضطر

(1) Ibid., p. 235.

(2) Freedom Riders: ناشطون في حركة الحقوق المدنية، كانوا في مطلع الستينيات من القرن العشرين، يترافقون في مجموعات متعددة الأجناس ويركبون الحافلات في أنحاء الولايات الجنوبية في أمريكا احتجاجًا على التمييز العنصري - المترجم.

المناضلات النسويات الأمريكيات إلى اللجوء إلى الحدود القصوى التي وصلت إليها نظيراتهن الإنكليزيات اللواتي ظُلمن لفترة أطول من الزمن. لكنهن طرحن قضية حق الاقتراع حتى أثرن معارضة أقوى بكثير من تلك التي أثارتها القضية الجنسية.

وفي حين تفجّرت معركة تحرير النساء في القرن التاسع عشر من قبل معركة تحرير العبيد، فإنها تفجّرت في القرن العشرين من قبل معارك الإصلاح الاجتماعي، ومعارك جين أدامز (Jane Adams) وهل هاوس (Hull House)[1]، وتقدّم حركة الاتحاد، والإضرابات الكبيرة ضد ظروف العمل التي لا تطاق في المعامل. بالنسبة للفتيات العاملات في تريانغل شيرتويست (Triangle Shirtwaist)، اللواتي كنّ يعملن مقابل 6 دولارات في الأسبوع، وحتى وقت متأخر يصل إلى العاشرة ليلًا، وتُفرَض عليهن غرامة إذا تحدثن أو ضحكن أو غنّين، كانت المساواة مسألة أهم من التعليم أو حق الاقتراع. كنّ يصبرن على الإضراب في أشهر الجوع والبرد القارس؛ كانت العشرات منهن يتعرضن للضرب على يد الشرطة، ويُسحبن بعيدًا في سيارات نقل السجناء. كانت الناشطات النسويات الجديدات يجمعن المال من أجل دفع كفالة المضربات وثمن طعامهن، مثلما كانت أمهاتهن يساعدن العاملات في أنفاق القطارات.

خلف صرخات «أنقذوا الأنوثة» و«أنقذوا البيت» يمكن أن تلمح الآن تأثير الآلات السياسية المصابة بالجبن لمجرد فكرة ما قد تقوم به هذه المصلحات إذا ما حصلن على حق الاقتراع. كانت النساء، بعد كل شيء، يحاولن أن يغلقن الحانات. وقد ضغطت معامل البيرة، بالإضافة إلى مصالح أعمال أخرى، ولاسيما التي تعتمد على عمل الأطفال والنساء قليل الأجر، علنًا ضد التعديل المتعلق بحق المرأة بالتصويت في واشنطن. «كان رجال

(1) Hull House: مستوطنة اجتماعية أمريكية أسستها، عام 1889، في شيكاغو المصلحة الاجتماعية جين آدامز بهدف مساعدة الفقراء والأحداث الجانحين – المترجم.

النظام بوضوح غير واثقين من قدرتهم على ضبط زيادة في جمهور الناخبين، الذي بدا لهم نسبيًا حصينًا ضد الرشوة، مقاتلًا أكثر، ومصممًا على تشويش الإصلاحات المتراوحة من ضبط مياه البلاليع إلى إلغاء عمل الأطفال، والأسوأ من كل ذلك 'سياسة التنظيف'»[1]. وأشار أعضاء الكونغرس الجنوبيون إلى إن حق التصويت للنساء يعني أيضًا النساء الزنجيات.

تم خوض المعركة الأخيرة من أجل حق التصويت في القرن العشرين من قبل أعداد متزايدة من النساء اللواتي درسن في الجامعات بقيادة كاري تشابمن كات (Carrie Chapman Catt) ابنة سهب أيوا، والتي تعلمت في ولاية أيوا، وكانت معلمة وصحافية، وكان زوجها، وهو مهندس ناجح، يدعمها بقوة في معاركها. وضعت إحدى المجموعات، التي أطلقت على نفسها فيما بعد اسم **حزب المرأة**، عناوين رئيسية مستمرة مع مجموعات من المحتجين حول البيت الأبيض. بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان هناك الكثير من الهستريا حول النساء اللواتي قيدن أنفسهن إلى سياج البيت الأبيض. ونتيجة إساءة معاملتهن على يد الشرطة والمحاكم، فقد قمن بإضرابات عن الطعام في السجن، وعُذبن في النهاية بالتغذية القسرية. كان العديد من تلك النساء من طائفة الكويكرز[2]، ويرفضن العنف، لكن غالبية الناشطات النسويات دعمن الحرب، في الوقت الذي تابعن فيه حملتهن من أجل حقوق النساء. ولا يمكن إلّا بصعوبة اعتبارهن مسؤولات عن خرافة المناضلة النسوية آكلة الرجال المنتشرة اليوم، وهي خرافة لطالما ظهرت باستمرار منذ أيام لوسي ستون حتى الوقت الراهن، متى كان لدى أي شخص سبب للاعتراض على خروج النساء من البيت.

قامت النساء الأمريكيات، في هذه المعركة النهائية، وعلى مدى خمسين سنة بست وخمسين حملة استفتاء عام على الناخبين الذكور، و480 حملة

---

(1) Ibid., p. 299.

(2) Quakers: طائفة مسيحية تنبذ العنف وتلتزم بالسلمية – المترجم.

لحمل الهيئات التشريعية على تقديم التعديلات المتعلقة بحق التصويت إلى الناخبين، و277 حملة لحمل المؤتمرات الحزبية على مستوى الولاية على تضمين حق التصويت للنساء في برامجها، و30 حملة لحمل المؤتمرات الحزبية للانتخابات الرئاسية على تبنّي حق التصويت للنساء في برامجها و19 حملة مع 19 كونغرس متعاقبًا[1]. كان على أحد ما أن ينظّم كل هذه الاستعراضات والخطابات والعرائض والاجتماعات والضغط على المشرّعين وأعضاء الكونغرس. لم تعد الناشطات النسويات الجديدات مجرد حفنة من النساء المتفانيات؛ فقد كرست آلاف وملايين النساء الأمريكيات مع أزواجهن وأبنائهن وبيوتهن كل ما يستطيعون توفيره من وقت للقضية. الصورة الكريهة للمناضلات النسويات اليوم أقل شبهًا بالمناضلات أنفسهن منها بالصورة التي رعتها المصالح التي عارضت بضراوة حق الانتخاب للنساء في ولاية تلو الأخرى، والتي قامت بالضغط على المشرّعين وتهديدهم بالتدمير التجاري أو السياسي، واشترت الأصوات، وقامت حتى بسرقتها، حتى بعد مصادقة 36 ولاية على التعديل وبعدها.

أولئك اللواتي خضن الحرب ظفرن بما هو أكثر من حقوق فارغة على الورق. لقد تخلصن من ظل الاحتقار والاحتقار الذاتي الذي لطالما حطّ من قدر النساء على مدى قرون. وصفت إيدا أليكسا روس وايلاي (Ida Alexa Ross Wylie)، وهي ناشطة نسوية إنكليزية، وصفًا جميلًا الفرح وحس الإثارة والمكافآت الشخصية لتلك المعركة:

> وجدت، ويا لدهشتي، أنّ النساء، على الرغم من اصطكاك ركبهن ومن حقيقة أن ساق امرأة محترمة ما كانت لتذكر مجرّد ذكر في ذلك الحين، تمكنّ عند الحاجة من تجنّب شرطي لندني عادي. أصبح هدفهن من تمرين صغير جيدًا بما يكفي لوضع خضراوات ناضجة في عيون وزارية، وذكاؤهن حاد بما يكفي لإبقاء أفراد سكوتلند يارد [مركز شرطة لندن] يجرون في دوائر، ويبدون سخيفين جدًا. كانت قدرتهن على التنظيم الارتجالي وعلى السرية والإخلاص،

(1) Ibid., p. 173.

وإهمالهن المتحدي للطبقات والنظام الراسخ وحيًا لجميع المهتمين، ولاسيما لهنّ أنفسهن...

كان اليوم الذي أرسلتُ فيه، بلكمة يسارية مستقيمة على الفك، ضابطًا ضخم الهامة في شرطة التحقيق الجنائي إلى المكان المخصص للأوركسترا من المسرح، حيث كنا نعقد أحد اجتماعاتنا المحاربة، هو يوم نضوجي... بما أنني لم أكن عبقرية، لم تتمكن الحلقة من جعلي كذلك، لكنها حررتني لأكون ما كنت عليه حتى أقصى قدرة لي على الاحتمال...

لقد عملت على مدى سنتين من المغامرة المتهورة والخطيرة أحيانًا، وناضلت إلى جانب نساء نشيطات سعيدات متوازنات نفسيًا، يضحكن، بدل أن يكبتن ضحكهن، ويمشين بحرية، بدل أن يتمايلن، كن يستطعن أن يسبقن غاندي، ويخرجن بابتسامة ودعابة. نمتُ على أرضيات قاسية بين دوقات مسنات وطباخات قويات وبائعات فتيّات في المتاجر. كنّا غالبًا متعبات ومتأذيات وخائفات. لكننا كنّا راضيات كما لم نكن يومًا. تشاطرنا فرحًا في الحياة لم نعرفه من قبل قط. كانت معظم رفيقاتي في النضال زوجات وأمهات. وقد حدثت أشياء غريبة لحياتهن الأسرية. صار الأزواج يجيئون إلى البيت مساء بشوق جديد... أما الأولاد فقد تغيّر موقفهم بسرعة من الاحتمال الحاني للأمّ الحبيبة المسكينة إلى الانشداه الشديد. وبعد أن تحرروا من الجو الخانق لحبّ الأمّ لأنها كانت منشغلة جدًا بحيث لم يكن بمقدورها الاهتمام بهم إلا عرضًا، اكتشفوا أنهم يحبونها أكثر. كانت مرحة جدًا. وكانت شجاعة. ... كانت أولئك النساء اللواتي وقفن خارج الصراع –ويؤسفني القول أنهن الأغلبية الساحقة-، واللواتي كنّ أكثر من المعتاد نساء صغيرات، يكرهن المناضلات مع نوبة سامة من الحسد...[1]

هل عادت النساء فعلًا إلى البيت كردة فعل على النسوية؟ الحقيقة هي أن النسوية كانت، بالنسبة للنساء اللواتي ولدن بعد عام 1920، تاريخًا ميتًا. انتهت بوصفها حركة حيوية في أمريكا بالظفر بذلك الحق الأخير: حق التصويت في الانتخابات. في الثلاثينيات والأربعينيات كان نوع النساء

(1) Ida Alexis Ross Wylie, ''The Little Woman,'' *Harper's Magazine*, November, 1945.

الذي يناضل من أجل حقوق المرأة ما يزال مهتمًا بحقوق الإنسان والحرية.. للزنوج والعمال المظلومين، لضحايا فرانكو في أسبانيا وهتلر في ألمانيا. لكن، لم يكن أحد مهتمًا جدًا بحقوق النساء: لقد ظُفر بها جميعًا. ومع ذلك، كانت خرافة آكلة الرجال شائعة. كان يطلق على النساء، اللواتي أظهرن أية استقلالية أو مبادرة، «نصيرات لوسي ستون». وأصبحت كلمة «ناشطة نسوية»، مثل «صاحبة مهنة»، كلمة قذرة. لقد حطّمت الناشطات النسويات الصورة القديمة للمرأة، لكنهنّ لم يتمكنّ من إزالة العدائية والتحيّز والتمييز، فتلك الأمور بقيت. كما لم يتمكنّ من رسم الصورة الجديدة لما يمكن أن تصبح عليه النساء عندما يكبرن في ظلّ الظروف التي لم تعد تجعلهن أدنى من الرجال، تابعات، سلبيات، غير قادرات على التفكير والقرار.

كوّنت معظم الفتيات، اللواتي كبرن خلال السنوات التي كانت الناشطات النسويات فيها يُزلن أسباب تلك «التفاهة اللطيفة» المُشَوِّهة، صورتهن عن المرأة من أمهات مازلن عالقات فيها. ربما كانت تلك الأمهات هنّ النموذج الحقيقي لخرافة آكلة الرجال. حوّل ظلُّ الاحتقار والاحتقار الذاتي، الذي استطاع أن يحوّل ربة منزل لطيفة إلى امرأة سليطة مستبدة، أيضًا بعض بناتهن إلى نسخ غاضبة من الرجل. كان يُعتقد أن أول نساء في الأعمال وفي المهن هنّ شخصيات غريبة. فنتيجة إحساس بعضهن بعدم الأمان في حريتهن الجديدة، كنّ ربما يخشين أن يكنّ ناعمات أو لطيفات، أن يحببن، وينجبن الأطفال حتى لا يخسرن الاستقلالية التي فزن بها، وحتى لا يقعن مرة أخرى في الفخ، كما حدث مع أمهاتهن. لقد عزّزن الخرافة.

لكنّ البنات اللواتي كبرن مع الحقوق، التي ظفرت بها الناشطات النسويات، لم يستطعن العودة إلى الصورة القديمة للتفاهة اللطيفة، ولم تكن لديهن أيضًا أسباب عماتهن أو أمهاتهن ليكنّ نسخًا غاضبة من الرجل، أو ليخفن من أن يحببن الرجال. لقد وصلن، دون دراية منهن، إلى نقطة الانعطاف في هوية المرأة. لقد تجاوزن في نموهن حقًا الصورة القديمة؛

كنّ في النهاية حرّات في أن يكنّ ما اخترن أن يكنّ. لكن، أي خيار قُدّم لهن؟ في تلك الزاوية، المناضلة النسوية آكلة الرجال النارية، المرأة المهنية، بلا حب، وحيدة. وفي الزاوية الأخرى، الزوجة اللطيفة والأمّ التي يحبّها زوجها، ويحميها، والمحاطة بأبنائها الذين يحبونها حتى العبادة. وعلى الرغم من أن بنات كثيرات تابعن الرحلة الحماسية التي بدأتها جداتهن، فإن آلافًا أخرى منهن خرجت من المسيرة.. ضحايا خيار خاطئ.

كانت أسباب خيارهن بالطبع أعقد من الخرافة النسوية. كيف اكتشفت النساء الصينيات أخيرًا، بعد تقييد أقدامهن لأجيال عديدة، أنهن يستطعن الجري؟ لابدّ أن أول النساء اللواتي لم تقيد أقدامهن قد شعرن بألم شديد إلى حد أن بعضهن خاف من الوقوف، ناهيك عن المشي أو الجري. كلّما مشين أكثر، قلّ الألم في أقدامهن. ولكن، ما الذي كان ليحدث لو أن الأطباء، آملين أن يوفروا على الفتيات الصينيات الألم والضيق، طلبوا منهن أن يقيدن أقدامهن مرة أخرى قبل أن يكبر جيل واحد دون أقدام مقيدة؟ ولو أخبرهن المعلمون أنّ المشي بقدمين مقيدتين أنثوي، وأنه الطريقة الوحيدة التي تستطيع المرأة أن تمشي بها، إذا أرادت أن يحبها رجل؟ ولو أخبرهن العلماء أنهن سيكنّ أمهات أفضل، إذا لم يكن في مقدورهن السير بعيدًا عن أولادهن؟ ولو نشر البائعون المتجولون، مكتشفين أن النساء اللواتي لا يستطعن المشي يشترين المزيد من الأشياء التافهة، حكايات خرافية عن مخاطر الجري ونعيم التقييد؟ فهل ستكبر فتيات صغيرات صينيات كثيرات عندها راغبات في أن تُقيّد أقدامهن بإحكام وبلا أي إغراء بالمشي أو الجري؟

ليست النكتة الحقيقية التي لعبها التاريخ على النساء الأمريكيات هي تلك التي تجعل الناس يضحكون ضحكة مكبوتة، بتكلّف فرويدي رخيص، على الناشطات النسويات الميتات، بل النكتة التي لعبها التفكير الفرويدي على النساء الأحياء، محولًا ذكرى الناشطات النسويات إلى شبح للّغز

الأنثوي آكل للرجال، ومقلصًا رغبة المرأة الفعلية في أن تكون أكثر من مجرد زوجة وأمّ. ونتيجة تشجيع اللغز النساء على أن يتجنّبن أزمة هويتهن، والسماح لهن بتفادي الهوية كلها باسم التحقق الجنسي، فإنهن يعشن مرة أخرى بأقدام مقيدة في الصورة القديمة للأنوثة الممجدة. وهي الصورة القديمة ذاتها، على الرغم من الملابس الجديدة اللماعة، التي علقت النساء في فخها على مدى قرون، وجعلت الناشطات النسويات يتمردن.

الفصل الخامس

الأنانة[1] الجنسية لسيغموند فرويد

إن القول إنها بدأت مع سيغموند فرويد نصف خطأ. وهي، في الحقيقة، لم تبدأ في الولايات المتحدة حتى الأربعينيات من القرن العشرين. وهنا أيضًا، لم تكن بداية بقدر ما كانت منع نهاية. لم يتم التخلص بسهولة من التحّيزات القديمة -النساء حيوانات، أدنى من البشر، غير قادرات على التفكير كالرجال، وُلدن فقط لتغذية الرجال وخدمتهم- على يد الناشطات النسويات اللواتي خضن حربًا عنيفة ضد ذلك، وعلى يد العلم والتعليم، وعلى يد الروح الديمقراطية في نهاية المطاف. فقد عادت إلى الظهور مرة أخرى في الأربعينيات بقناع فرويدي. استمدّ اللغز الأنثوي قوته من الفكر الفرويدي؛ فقد كانت الفكرة التي قادت النساء، والذين درسوا النساء، إلى سوء تفسير إحباط أمهاتهن واستياء آبائهن وأخوتهن وأزواجهن، وعدم اكتفائهن وانفعالاتهن الخاصة وخياراتهن الممكنة في الحياة، من بنات أفكار فرويد. كما كانت فكرة فرويدية، أخذت شكل حقيقة واضحة، تلك التي أوقعت في الفخ عددًا كبيرًا من النساء الأمريكيات اليوم.

وإنه لأصعب بكثيرٍ على المرأة العصرية أن تشكّك باللغز الجديد من

(1) Solipsism، الأنانة: الإيمان بأن الشيء الوحيد الذي يستطيع المرء التأكد منه هو أنه موجود وأن المعرفة الحقيقية بأي شيء آخر مستحيلة - المترجم.

أن تشكك بالتحيّزات القديمة، والسبب في ذلك، جزئيًا، هو أن اللغز يُبثّ من قبل وكلاء التعليم وعلم الاجتماع أنفسهم الذين يفترض بهم أن يكونوا أول أعداء التحيّز؛ ومن جهة أخرى، لأنّ طبيعة الفكر الفرويدي نفسها تجعله، عمليًا، غير قابل للجدل. كيف يمكن لامرأة أمريكية متعلمة، ليست هي نفسها محلّلة، أن تتجرأ على الشك بالحقيقة الفرويدية؟ هي تعلم أن اكتشاف فرويد لأعمال العقل اللاواعي كان واحدًا من أعظم الاكتشافات في سعي الإنسان إلى المعرفة. وهي تعرف أن العلم الذي بُني على ذلك الاكتشاف قد ساعد كثيرًا من الرجال والنساء المعذبين. لقد عُلّمت أن المرء لا يصبح قادرًا على فهم الحقيقة الفرويدية إلا بعد سنوات من التدريب التحليلي. حتى أنها قد تعرف كيف أن العقل الإنساني يقاوم بلا وعي تلك الحقيقة. كيف يمكنها أن تتجرأ على أن تطأ الأرض المقدسة التي لا يسمح إلا للمحللين بدخولها؟

لا يستطيع أحد أن يشكّك بالعبقرية الأساسية لاكتشافات فرويد، ولا بالإسهامات التي قدمها للثقافة. ولا أنا أشكك بتأثير التحليل النفسي، كما يمارسه الفرويديون أو مناهضو الفرويدية. ولكنني أشكك، بناءًا على تجربتي الخاصة كامرأة وعلى معارفي عن النساء الأخريات من عملي مراسلة صحفية، بتطبيق النظرية الفرويدية عن الأنوثة على النساء اليوم. أشكك في استخدامها، لا في العلاج، بل كما تسرّبت إلى حياة النساء الأمريكيات عن طريق المجلات الشعبية وآراء من يُسمّون خبراء وتفسيراتهم. أعتقد أن الكثير من النظرية الفرويدية حول النساء قد تقادم، وأنه عقبة أمام الحقيقة بالنسبة للنساء في أمريكا اليوم، وأنه سبب رئيسي من أسباب المشكلة واسعة الانتشار التي لا اسم لها.

توجد هنا عدة مفارقات. فقد ساعد مفهوم فرويد عن الأنا العليا في تحرير الإنسان من استبداد «الأحكام المسبقة»، من استبداد الماضي الذي

يمنع الطفل من أن يصبح بالغًا. ولكنّ الفكر الفرويدي ساعد في خلق أنا عليا جديدة تشلّ المرأة الأمريكية المعاصرة المتعلمة- استبداد جديد لـ«الأحكام المسبقة» يقيّد النساء إلى صورة قديمة، ويمنع الخيار والنمو، وينكر عليهن الهوية الفردية.

لقد كان علم النفس الفرويدي، بتأكيده على التحرر من الأخلاقية الكبتيّة بهدف تحقيق الاكتفاء الجنسي، جزءًا من أيديولوجية تحرير النساء. الصورة الأمريكية الدائمة لـ«المرأة المتحررة» هي امرأة شابة في العشرينيات من عمرها: شعر كثيف مقصوص من الخلف حتى يصبح مستدق الطرف عند مؤخرة العنق، وركبتان عاريتان، متباهية بحريتها الجديدة في أن تعيش في أستوديو في غرينتش فيلليج أو قرب نورث سايد في شيكاغو، وأن تقود سيارة، وتشرب، وتدخن، وتستمتع بالمغامرات الجنسية، أو تتحدث عنها. ومع ذلك فاليوم، ولأسباب لم تكن في حياة فرويد نفسه، أصبح الفكر الفرويدي حصنًا أيديولوجيًا للثورة الجنسية المضادة في أمريكا. دون تعريف فرويد لطبيعة المرأة الجنسية لإعطاء الصورة التقليدية للأنوثة سلطة جديدة، لا أعتقد أن عدة أجيال من النساء الأمريكيات الجسورات المتعلمات كنّ سيتحولن بسهولة عن الإدراك المنبثق بمن هنّ، وما الذي يمكن أن يكنّه.

لقد فُهم مفهوم «حسد القضيب»، الذي ابتكره فرويد لوصف ظاهرة لاحظها في النساء -وكان ذلك لدى مريضاته من نساء الطبقة الوسطى في فيينا في الحقبة الفيكتورية-، تمامًا في هذا البلد في الأربعينيات، وكأنه شرح حرفي لكل ما لم يكن يسير على ما يرام مع النساء الأمريكيات. لم يعرف كثيرون ممن بشّروا بعقيدة الأنوثة المعرّضة للخطر، عاكسين حركة النساء الأمريكيات نحو الاستقلالية والهوية، قطّ أصلها الفرويدي. وكثيرون ممن تمسكوا بها -ولا أعني هنا القلّة من المحللين النفسيين، بل الكثيرين من ناشريها للعموم وعلماء الاجتماع والمربّين ومتلاعبي وكالات الإعلان

وكتاب المجلات وخبراء الأطفال ومستشاري الزواج والكهنة وخبراء حفلات الكوكتيل- ما كان لهم أن يعرفوا ما الذي قصده فرويد نفسه بحسد القضيب. لا يحتاج المرء إلّا إلى معرفة ما الذي كان فرويد يصفه في تلك النساء الفيكتوريات ليرى المغالطة في التطبيق الحرفي لنظريته عن الأنوثة على النساء اليوم. ولا يحتاج المرء إلّا إلى معرفة لماذا وصفه بتلك الطريقة ليفهم أن الكثير منه قد عفا عليه الزمن، وأنّ المعرفة التي تشكل جزءًا من تفكير كل عالم اجتماعي اليوم، ولكنها لم تكن معروفة بعد في زمن فرويد، قد نقضته.

من المتفق عليه عمومًا أنّ فرويد كان مراقبًا حاد الإدراك ودقيقًا للمشاكل المهمة في الشخصية الإنسانية، لكنّه كان في وصف تلك المشاكل وتفسيرها أسير ثقافته. وفي حين كان يكوّن إطارًا جديدًا لثقافتنا، لم يتمكن من التخلص من إطار ثقافته. حتى عبقريته لم تتمكن من منحه حينها معرفة بالعمليات الثقافية التي يكبر رجال ليسوا عباقرة معها اليوم.

إن فهم نسبية الفيزيائي، التي غيّرت في السنوات الأخيرة كل مقاربتنا للمعرفة العلمية، أصعب، وبالتالي أسهل، من فهم نسبية العالِم الاجتماعي. إن القول بأنه لا يوجد عالِم اجتماعي يستطيع أن يتحرر تمامًا من أسر ثقافته الخاصة ليس مجرد شعار، بل هو تعبير أساسي عن الحقيقة، فهو يستطيع فقط أن يفسّر ما يشاهده في الإطار العلمي لزمنه. وهذا صحيح حتى بالنسبة للمبدعين الكبار. فهم لا يستطيعون سوى ترجمة ملاحظاتهم الثورية إلى لغة ومبادئ قرّرها أصلًا تقدم العلم حتى زمنهم. حتى تلك الاكتشافات التي كوّنت مبادئ جديدة فإنها تتعلق بزاوية النظر الخاصة بصاحبها.

لم تكن معرفة الثقافات الأخرى وفهم النسبية الثقافية، اللذان يشكلان جزءًا من إطار عمل علماء الاجتماع في زماننا، مُتاحةً لفرويد. لقد أظهر البحث الحديث أن الكثير مما اعتقد فرويد أنه بيولوجي وغريزي وثابت ما

هو إلّا نتيجة أسباب ثقافية معينة[1]. والكثير مما وصفه فرويد على أنه من خصائص الطبيعة الإنسانية العامة لم يكن إلّا خصائص رجال ونساء معينين من الطبقة الوسطى الأوروبية عند نهاية القرن التاسع عشر.

فعلى سبيل المثال، تنبثق نظرية فرويد عن الأصل الجنسي للعُصاب من حقيقة أن الكثير من المرضى الذين راقبهم للمرة الأولى كانوا يعانون من الهستريا، ووجد أن الكبت الجنسي في تلك الحالات هو السبب. ومازال الفرويديون التقليديون يعبّرون عن اعتقادهم بالأصل الجنسي لجميع العُصابات، وبما أنهم يفتشون عن ذكريات جنسية غير واعية لدى مرضاهم، ويترجمون ما يسمعونه إلى رموز جنسية، فمازالوا ينجحون في إيجاد ما يبحثون عنه.

لكنّ الحقيقة هي أن حالات الهستريا، كما شاهدها فرويد، هي أقلّ بكثير هذه الأيام. من الواضح أن النفاق الثقافي في أيام فرويد فرض الكبت الجنسي. (يشكّ بعض المنظّرين الاجتماعيين أن غياب اهتمامات أخرى في تلك الإمبراطورية النمساوية المحتضرة قد سبّب الاستحواذ الجنسي لدى مرضى فرويد)[2]. وبالتأكيد، ركّزت ثقافةُ فرويد، التي أنكرت الجنس،

(1) Clara Thompson, *Psychoanalysis: Evolution and Development*, New York, 1950, pp. 131, ff:
لم يشدد فرويد على البيولوجي أكثر من الثقافي فحسب، بل وطور أيضًا نظرية ثقافية خاصة به تقوم على نظريته البيولوجية. كانت هناك عقبتان في طريقة فهم أهمية الظواهر الثقافية التي رآها وسجلها. وكان منخرطًا بعمق في تكوين نظرياته البيولوجية بحيث لم يولِ الاهتمام الكافي للجوانب الأخرى من البيانات التي جمعها. وهكذا، كان فرويد مهتمًا أساسًا بتطبيق نظريته عن الغرائز على المجتمع البشري. طور بدءًا من افتراض غريزة الموت، على سبيل المثال، شرحًا للظواهر الثقافية التي راقبها على أساس غريزة الموت. بما أنه لم يكن لديه منظور يحصل عليه من معرفة الثقافات المقارنة، فإن لم يتمكن من تقويم العمليات الثقافية على أنها عمليات ثقافية.... أثبت البحث الحديث أن الكثير مما اعتقد فرويد أنه بيولوجي هو ردة فعل على نمط معين من الثقافة، وليس خاصية للطبيعة الإنسانية العالمية.

(2) Richard La Piere, *The Fruedian Ethic*, New York, 1959, p. 62.

اهتمامَه عليه. وبعد ذلك، طوّر نظريته بوصف كل مراحل النمو على أنها جنسية مكيّفًا كل الظواهر التي شاهدها مع المبادئ الجنسية.

لقد انبثقت محاولته لترجمة كل الظواهر النفسية إلى تعابير جنسية ولرؤية كل مشاكل الشخصية البالغة على أنها تأثير التثبيت الجنسي للطفولة أيضًا، في جزء منها، من خلفيته في الطب، ومن مقاربته للسببية المتضمنة في التفكير العلمي لزمنه. وكان لديه الحياء نفسه حيال التعامل مع الظواهر النفسية بتعابيرها الخاصة التي غالبًا ما تزعج العلماء ذوي السلوك الإنساني. بدا له أن شيئًا يمكن وصفه بتعابير نفسية ويُربط بعضو تشريحي أكثر راحةً ومتانةً وحقيقيةً وعلميةً فيما هو ينتقل إلى عالم العقل اللاواعي غير المستكشف. وكما عبّر كاتب سيرة فرويد الذاتية إرنست جونز (Ernest Jones) عن ذلك، فإنه بذل «جهدًا هائلًا ليتمسك بالأمان الذي يمنحه التشريح الدماغي»[1]. وفي الواقع كانت لديه القدرة على رؤية الظواهر النفسية ووصفها بحيوية لدرجة أن مفاهيمه –حسد القضيب، الأنا، عقدة أوديب–، سواء أعطيت أسماء مستعارة من الفزيولوجيا أو الفلسفة أو الأدب، قد بدا أن لها حقيقة مادية صلبة. وكما قال جونز، كانت الحقائق النفسية «حقيقية وملموسة عنده مثلما هي المعادن لعالم المعادن»[2]. لقد أصبحت هذه القدرة مصدر تشوّش كبير، عندما انتقلت مفاهيمه إلى مفكرين أقل شأنًا.

ترتكز بنية النظرية الفرويدية الفوقية كلها على الحتمية الصارمة التي ميّزت التفكير العلمي للحقبة الفيكتورية. وقد استبدلت الحتمية اليوم برؤية أكثر تعقيدًا للسبب والنتيجة، من حيث العمليات والظواهر المادية والنفسية كذلك الأمر. وبموجب هذه الرؤية الجديدة، ليس العلماء السلوكيون بحاجة إلى استعارة لغة من الفزيولوجيا لشرح الحوادث النفسية أو إعطائها واقعًا زائفًا. ليست الظواهر الجنسية أكثر ولا أقل، على سبيل المثال، من ظاهرة

(1) Ernest Jones, *The Life and Work of Sigmund Frued*, New York, 1953, Vol. I, p. 384.
(2) Ibid., Vol. II (1955), p. 43.

كتابة شكسبير لهاملت، التي لا يمكن «شرحها» بدقة باختزالها إلى تعابير جنسية. حتى فرويد نفسه لا يمكن شرحه وفق مخططه النفسي الحتمي نفسه، على الرغم من أن كاتب سيرته الذاتية يعزو عبقريته و«شغفه الرائع بالمعرفة» إلى فضول جنسي لا يشبع، قبل سن الثالثة، بخصوص ما كان يحدث بين أمه وأبيه في غرفة النوم[1].

اليوم، يرى علماء الأحياء، وعلماء الاجتماع، وأعداد متزايدة من المحللين النفسيين؛ الحاجة أو الدافع إلى النمو الإنساني بوصفها حاجة إنسانية أولية، وهي أساسية كالجنس. ويُنظر الآن إلى المرحلتين «الفموية» و«الشرجية»، اللتين وصفهما فرويد من حيث التطور الجنسي -يحصل الطفل على متعته الجنسية أولًا عن طريق الفم من ثدي الأم، ثمّ من حركة أمعائه-، على أنهما مرحلتان في النمو الإنساني، تتأثران بالظروف الثقافية ومواقف الأهل بالإضافة إلى الجنس. عندما تنمو الأسنان، يستطيع الفم أن يعضّ، كما يستطيع أن يرضع. وتنمو العضلات والدماغ أيضًا، ويصبح الطفل قادرًا على التحكم والسيطرة والفهم؛ وحاجته إلى أن ينمو ويتعلم في عمر الخامسة أو الخامسة والعشرين أو الخمسين يمكن أن تلبّى أو تُنكر أو تُكبت أو تضمر أو تثار أو تثبّط على يد ثقافته تمامًا، كما يمكن أن يحدث ذلك لحاجاته الجنسية.

يؤكد اختصاصيو الطفل اليوم ملاحظة فرويد حول أن المشاكل بين الأمّ والطفل في المراحل الأولى تعبر عن نفسها في الأكل، وفيما بعد في تدريبه على استخدام المرحاض. ولكن في أمريكا في السنوات الأخيرة، كان هناك انخفاض ملحوظ في «مشاكل الأكل» لدى الأطفال. فهل تغيّر التطور الغريزي للطفل؟ مستحيل، إذا كانت المرحلة الفموية بالتعريف غريزية. أم إن الثقافة قد أزالت الأكل كبؤرة لمشاكل الطفولة المبكرة -من خلال التأكيد الأمريكي على التساهل في رعاية الطفل، أو ببساطة من خلال حقيقة

(1) Ibid., Vol. I, pp 7-14, 294; Vol. II, p. 483.

أنّ مجتمع الوفرة الذي نعيش فيه أصبح يسبّب قلقًا أقل لدى الأمهات؟ ونتيجة تأثير فرويد الشخصي على ثقافتنا فإن الأهل المتعلمين حريصون عادةً على عدم ممارسة ضغوط مولّدة للصراع في التدريب على استخدام المرحاض. إذ يرجّح أن تحدث الصراعات، التي من هذا القبيل، اليوم حين يتعلم الطفل الكلام أو القراءة[1].

في الأربعينيات، كان العلماء الاجتماعيون والمحللون النفسيون قد بدؤوا يعيدون تفسير المفاهيم الفرويدية على ضوء وعيهم الثقافي المتنامي. لكن، ويا للغرابة، لم يمنع ذلك تطبيقهم الحرفي لنظرية فرويد عن الأنوثة على النساء الأمريكيات.

الحقيقة هي أن النساء عند فرويد، أكثر حتى مما هنّ عند محرر مجلة في ماديسون أفينيو اليوم، هنّ نوع غريب دوني أدنى من مستوى البشر. كان يراهنّ دمىً طفلية توجد فقط على أساس حب الرجل، ليحببن الرجل، ويخدمن حاجاته. كان النوع نفسه من الأنانة غير الواعية التي جعلت الإنسان على مدى قرون يرى الشمس مجرد جسم لامع يدور حول الأرض. كبر فرويد بهذا الموقف الداخل عضويًا في ثقافته، لا ثقافة أوروبا الفيكتورية فحسب، بل والثقافة اليهودية التي يتلو فيها الرجال الصلاة يوميًا: «أشكرك يا إلهي على أنك لم تخلقني امرأة» وتتلو المرأة صلاتها في خضوع: «أشكرك يا إلهي على أنك خلقتني وفق إرادتك».

كانت والدة فرويد عروسًا جميلةً مطيعةً لرجل يبلغ من العمر ضعف عمرها؛ وكان والده يحكم الأسرة بسلطة استبدادية تقليدية في الأسر اليهودية في تلك القرون من الاضطهاد التي كان من النادر فيها للآباء أن يتمكنوا من إقامة سلطة خارج البيت. كانت أم فرويد تحب ابنها البكر الصغير سيغموند، وظنّت أنه منذور على نحو غامض للعظمة. بدا وكأنها

(1) Bruno Bettleheim, *Love Is Not Engough: The Treatment of Emotionally Disturbed Children*, Glencole, I11., 1950, p. 71; Letter 65, p. 145.

وُجدت فقط لإرضاء كل رغبة من رغباته. كانت ذكرياته عن الغيرة الجنسية التي شعر بها تجاه والده، الذي كانت الأمّ ترضي رغباته أيضًا، أساس نظريته عن عقدة أوديب. كانت حاجات فرويد ورغباته وأمنياته مع زوجته، كما مع أمه وأخواته، الشمس التي تدور حولها الأسرة. تتذكر آنا فرويد بعد سنوات أنه عندما قاطعت ضجة تدرّب أخواته على البيانو دراسته «اختفى البيانو، واختفت معه كل فرص أخواته في أن يصبحن موسيقيات».

لم يرَ فرويد في موقفه مشكلة، أو سببًا لأية مشكلة، لدى النساء. كانت طبيعة المرأة أن يحكمها الرجل ومرضها أن تحسده. تحتوي رسائل فرويد إلى مارثا، زوجته المستقبلية، والتي كتبها في أثناء سنوات خطبتهما الأربع (1882-1886) على تلك النبرة الحنون الراعية التي نجدها لدى تورفالد في مسرحية **بيت الدمية**، وهو يوبّخ نورا على ادعاءاتها بأنها إنسانة. كان فرويد قد بدأ يسبر أسرار الدماغ الإنساني في المخبر في فيينا، وكان على مارثا، «طفلته الحلوة»، أن تنتظر في رعاية أمها أربع سنوات حتى تمكّن من القدوم وإحضارها. يستطيع المرء أن يرى من رسائله أن هويتها بالنسبة له كانت محددة بالطفلة-ربة المنزل، على الرغم من أنها لم تعد طفلة، ولم تصبح ربة منزل بعد.

طاولات وكراس، أسرّة، مرايا، ساعة لتذكير الزوجين السعيدين بمرور الوقت، أريكة من أجل تمضية ساعة ممتعة من أحلام اليقظة، سجادات لمساعدة ربة المنزل في المحافظة على الأرضيات نظيفة، بياضات معقودة بشرائط جميلة في الخزانة وفساتين من آخر موضة وقبعات بأزهار اصطناعية، صور على الجدار، كؤوس للاستخدام اليومي وأخرى للنبيذ والمناسبات الاحتفالية، أطباق وصحون... وطاولة الخياطة والمصباح الدافئ وكل شيء يجب الإبقاء عليه مرتبًا ترتيبًا جيدًا وإلا فإن ربة المنزل التي قسمت قلبها إلى أجزاء صغيرة، جزء لكل قطعة من الأثاث، ستبدأ بالقلق. وهذا الغرض يجب أن يحمل شاهدًا على الأمر المهم الذي يجمع الأسرة معًا، وذاك الغرض من أجل الإحساس بالجمال، أو لأصدقاء أعزاء يرغب المرء بتذكرهم، أو لمدن زارها

المرء، أو لساعات يرغب المرء بتذكرها... هل علينا أن نعلّق قلوبنا على تلك الأشياء الصغيرة؟ نعم، وبدون تردّد...

أعرف، في نهاية المطاف، كم أنت حلوة، كيف يمكنك أن تحوّلي بيتًا إلى فردوس، كيف ستشاركينني اهتماماتي، كم ستكونين مرحة ودقيقة في الوقت نفسه. سأدعكِ تحكمين البيت قدر ما تشائين، وستكافئينني بالمقابل بحبك الحلو والارتفاع فوق كل نقاط الضعف التي تُحتَقر النساء غالبًا من أجلها. وبقدر ما تسمح لي نشاطاتي سنقرأ معًا ما نريد أن نتعلمه، وسأعلمك أشياء لا يمكن أن تكون مثار اهتمام فتاة ما دامت غريبة عن شريكها المستقبلي ومهنته...[1]

في 5 تموز من عام 1885، وبّخها على استمرارها في زيارة إليز، وهي صديقة من الواضح أنها قليلة الحشمة في نظرتها للرجال:

ما الخير في شعورك أنك الآن ناضجة جدًا بحيث لا يمكن لهذه العلاقة أن تسبب لك أي أذى؟... أنت رقيقة زيادة عن اللزوم، وهذا أمر عليّ أن أصححه، لأن ما يفعله أحدنا سيحسب على الآخر أيضًا. أنت امرأتي الصغيرة الغالية، وحتى إذا ارتكبت خطأ فأنت برغم ذلك لست كذلك... لكنك تعرفين كل ذلك يا طفلتي الحلوة...[2].

هذا الخليط الفيكتوري من الفروسية والتعطّف، والذي يوجد في نظريات فرويد العلمية عن النساء، جليّ في رسالة كتبها في 5 تشرين الثاني عام 1883 ساخرًا من وجهات نظر جون ستيوارت ميل حول «التحرر الأنثوي وقضية المرأة بالإجمال».

لم يظهر قطّ، في كامل عرضه، أن النساء كائنات مختلفة عن الرجال، لن نقول أقلّ، ولا العكس. هو يرى ظلم النساء شبيهًا بظلم الزنوج. تستطيع أية فتاة، حتى بدون حق التصويت أو الأهلية القانونية، يقبّل يدها رجل وهو مستعد من أجل حبها أن يتحدى الجميع، أن تصحح ما يقوله. إن فكرة إرسال النساء إلى الصراع من أجل الوجود، مثل الرجال تمامًا، هي فكرة وُلدت ميتة حقًا.

(1) Ernest L. Frued, *Letters of Sigmund Frued*, New York, 1960, Letter 10, p. 27; Letter 26, p. 71; Letter 65, p. 145.
(2) Ibid., Letter 74, p. 60; Letter 76, pp. 161 ff.

إذا، على سبيل المثال، تخيّلت فتاتي الحلوة اللطيفة منافسةً لي، فلن ينتهي الأمر إلّا بأن أقول لها، وهذا ما جرى بالفعل بعد سبعة عشر شهرًا، إنني مغرم بها، وإنني أناشدها أن تنسحب من الصراع إلى العمل الهادئ غير التنافسي في بيتي. من الممكن أن تخمد تغيرات في التنشئة كل السمات الرقيقة لامرأة بحاجة إلى الحماية، ولكنها مع ذلك منتصرة بقوة، وبذلك يمكن أن تكسب قوتها كالرجال. ومن الممكن أيضًا أنه في مثل تلك الحالة لن يكون مبررًا للمرء أن يندب موت الشيء الأكثر بهجةً، الذي يمكن أن يقدمه العالم لنا، ألا وهو الأنوثة المثالية. أو من أن كل الأعمال الإصلاحية في القانون والتعليم ستتحطم أمام الحقيقة القائلة إنّ الطبيعة، قبل العمر الذي يستطيع الرجل أن يشغل فيه مركزًا في المجتمع بوقت طويل، قد قرّرت قدر المرأة من خلال الجمال والسحر والعذوبة. لدى القانون والعرف الكثير ليعطيه للنساء مما منع عنهن سابقًا، لكن مركز النساء سيكون بالتأكيد ما هو عليه: في الشباب حبيبة معبودة، وفي سنوات النضج زوجة محبوبة[1].

بما أن نظريات فرويد قامت، باعتراف الجميع، على تحليله النفسي الثاقب والمستمر لذاته، وبما أن جنسانيته كانت بؤرة جميع نظرياته، فإن بعض المفارقات حول جنسانيته تبدو وثيقة الصلة بموضوعنا. تعطي كتاباته، كما لاحظ العديد من الدارسين، اهتمامًا بالجنسانية الطفلية أكثر بكثير من الاهتمام بتعبيراتها الناضجة. وقد أشار كاتب سيرته الذاتية الرئيسي، جونز، إلى أنه كان، حتى في تلك السنوات، عفيفًا وطهرانيًا وأخلاقيًا على نحو استثنائي. لم يكن في حياته الخاصة، نسبيًا، مهتمًّا بالجنس. لم يكن هناك سوى الأم المحبة حتى العبادة في شبابه، وفي سن السادسة عشرة، كانت هناك علاقة رومانسية لم توجد إلا في عالم الخيال مع فتاة اسمها جيزيل، وخطوبته من مارثا في سن السادسة والعشرين. لم تكن الأشهر التسعة التي عاشا خلالها في فيينا سعيدة جدًا، إذ من الواضح أنها كانت قلقة وخائفة منه؛ ولكن منفصلين بمسافة مريحة ولمدة أربع سنوات، كان هناك «هوى عظيم» حملته تسعمائة رسالة حب. يبدو أن ذلك الهوى قد اختفى بسرعة

(1) Jones, *op., cit.*, Vol I, pp. 176 f.

بعد زواجهما، على الرغم من أن كاتبي سيرته يلاحظون أنه كان أخلاقيًا صارمًا بحيث لم يبحث عن الإشباع الجنسي خارج الزواج. كانت المرأة الوحيدة في مرحلة النضج التي ركّز عليها عواطف الحب والكره العنيفة التي كان قادرًا عليها هي مارثا، خلال السنوات الأولى لخطوبتهما. بعد ذلك تركزت تلك الانفعالات على الرجال. وكما قال كاتب سيرته المحترم جونز: «قد يكون انحراف فرويد عما هو عادي في هذا المجال، بالإضافة إلى ثنائيته الجنسية العقلية الواضحة، قد أثّرا في آرائه النظرية إلى حدّ ما»[1].

أشار كتّاب سيرة أقل احترامًا، وحتى جونز نفسه، إلى أنه عندما يفكّر المرء في نظريات فرويد، على ضوء حياته الخاصة، تقفز إلى ذهنه صورة الخادمة العجوز الطهرانية التي ترى الجنس في كل مكان. من الممتع أن نلاحظ أن شكواه الرئيسية من ربة منزله الطيّعة هي أنها لم تكن «طيّعة» بما يكفي، بل، وفي تناقض ممتع، لم تكن «على طبيعتها» معه بحيث لم تتمكن من أن تكون «رفيقة في السلاح»[2].

ولكنها، كما اكتشف فرويد بألم، لم تكن في العمق طيّعة، وكانت لديها صلابة في الشخصية لم تترك نفسها بسهولة ليصوغها الآخرون. كانت شخصيتها متطورة تمامًا ومتكاملة جيدًا: وستستحق بحق أعلى مديح من المحلل النفسي بأنها «طبيعية»[3].

يحصل المرء على لمحة عن «نيّة فرويد، التي لن تتحقق أبدًا، في قولبتها

---

(1) Ibid., Vol. II, p 422.

(2) Ibid., Vol. I, p 721.

توصيفاته للنشاطات الجنسية واقعية جدًا، حتى أن العديد من القراء وجدوها جافة تقريبًا، وتنقصها الحرارة كليًا. من كل ما أعرفه عنه، يجب أن أقول إنه أظهر اهتمامًا شخصيًا أقل من المتوسط فيما هو غالبًا موضوع استغراقي. لم يكن هناك أي استمتاع أو تذوق في ذكر موضوع جنسي.... وهو يعطي الانطباع دائمًا بأنه شخص عفيف على نحو غير عادي -ليست كلمة «طهراني» في غير محلها هنا- وكل ما نعرفه من بواكير نموه يؤكد هذا التصور.

(3) Ibid., Vol. I, p. 102.

وفق الصورة الكاملة التي وضعها في ذهنه» عندما كتب لها أنها يجب أن «تصبح شابة تمامًا، حبيبة، عمرها أسبوع فقط، وستفقد بسرعة كل أثر للحدّة». لكنه بعد ذلك يلوم نفسه: «ليس مقيضًا للمحبوبة أن تصبح دمية، بل رفيقة جيدة تبقى لها كلمة معقولة حتى عندما يصل السيد الصارم إلى نهاية حكمته. كنت أحاول أن أحطّم صراحتها بحيث تضطر إلى الاحتفاظ برأيها حتى تتأكد من رأيي»[1].

وكما أشار جونز، فقد تألم فرويد عندما لم تحقق اختباره الرئيسي، أي «التطابق التام مع ذاته وآرائه ومشاعره ونواياه. لم تكن له فعلًا إن لم يلاحظ 'ختمه' عليها». وفرويد «اعترف أنّه سيكون من الممل ألا يتمكن المرء من رؤية أي شيء بحاجة إلى تصحيح في الشخص الآخر». ويشدّد مرة أخرى على أن حب فرويد «لم يكن يستطيع أن يتحرر، وأن يظهر إلّا تحت شروط مؤاتية جدًا... وربما كانت مارثا خائفة من محبها المستبد، وتجد ملاذها عمومًا في الصمت»[2].

وهكذا فقد كتب لها في النهاية: «إني أتراجع عمّا طلبته. أنا لا أريد رفيقة في السلاح، كما أملت أن أصنع منك. فأنا قوي بما يكفي لأحارب وحدي... وتبقين لي حبيبة حلوة ثمينة»[3]. لقد أنهى ذلك بالتأكيد «المرة الوحيدة في حياته التي تركّزت فيها انفعالات من ذلك القبيل [الحب والكره] على امرأة»[4].

كان الزواج تقليديًا، لكنه خلا من ذلك الشغف. كما وصفه جونز:

لا يمكن إلّا لقلة من حالات الزواج أن تكون أكثر نجاحًا. أثبتت مارثا، ولا شك، أنها زوجة رائعة وأمّ ممتازة. كانت مديرة تستحق الإعجاب.. ذلك النوع النادر من النساء الذي يستطيع أن يحتفظ بالخدم إلى ما لانهاية، لكنها لم تكن ذلك

(1) Ibid., Vol. I, pp. 110 ff.
(2) Ibid., Vol. I, p. 124.
(3) Ibid., Vol. I, p. 127.
(4) Ibid., Vol. I, p. 138.

النوع من ربات المنازل الذي يضع الأشياء قبل الأشخاص. كانت راحة زوجها وما يناسبه دائمًا في المقام الأول... لم يكن متوقعًا منها أن تتبع تحليقات خياله الطوافة بأكثر مما يستطيع معظم العالم[1].

كانت مكرّسة لحاجاته الجسدية مثل أمّ يهودية من أكثر الأمهات شغفًا، وكانت تنظم كل وجبة وفق برنامج صارم ليتفق مع ما يلائم «البابا». لكنها لم تحلم قط بمشاركته حياته على قدم المساواة. ولا فرويد اعتبرها وصية ملائمة على أبنائهما، ولاسيما بخصوص تربيتهم في حال وفاته. وهو يتذكر حلمًا ينسى فيه أن يناديها في المسرح. وتداعياته «تقتضي ضمنًا أن النسيان قد يكون مسموحًا في الأمور غير المهمة»[2].

يبدو أن تبعية النساء التي لا حدود لها، والتي تعتبر بديهية في ثقافة فرويد، وعدم وجود فرصة للعمل المستقل أو الهوية الشخصية، قد ولّدا غالبًا ذلك القلق والكبت في الزوجة وذلك التهيّج في الزوج، الأمران اللذان ميّزا زواج فرويد. وكما لخّص جونز الأمر، فإن موقف فرويد من النساء «لعلنا نستطيع القول إنها نظرة من الماضي، ويمكن عزو ذلك بسهولة إلى بيئته الاجتماعية والفترة التي كبر فيها أكثر من أي عوامل شخصية».

أيًا تكن آراؤه الفكرية في المسألة، فهناك عدة مؤشرات في كتابته ومراسلاته على موقفه الانفعالي. ستكون مبالغة، ولا شك، أن نقول أنه نظر إلى الجنس المذكّر على أنه أسياد التكوين، إذ لم يكن هناك أي أثر للتكبّر أو الفوقية في طبيعته، لكن، قد يكون من العدل أن نصف رأيه في الجنس المؤنث على أنّ وظيفتهن الرئيسية هي أن يكنّ ملائكة خادمات لحاجات الرجال وراحتهم. توضح رسائله وخياره في الحب بصراحة أنه لم يكن في ذهنه سوى نوع واحد للغرض الجنسي، هو الغرض الأنثوي اللطيف...

هناك شيء من الشك في أنّ فرويد وجد نفسية المرأة أكثر غموضًا من نفسية الرجل. حتى أنه قال مرة لماري بونابرت (Marie Bonaparte): «السؤال الكبير الذي لم يجب عليه أحد قط، والذي لم أتمكن من الإجابة عليه أيضًا،

(1) Ibid., Vol. I, p. 151.
(2) Helen Walker Puner, *Frued, His Life and His Mind*, New York, 1947, p. 152.

على الرغم من السنوات الثلاثين التي قضيتها في البحث في الروح الأنثوية، هو: ماذا تريد المرأة؟»[1].

ولاحظ جونز أيضًا:

كان فرويد أيضًا مهتمًا بنوع آخر من النساء، نوع ذي أثر فكري وربما ذكوري أكثر. لعبت نساء من ذلك القبيل عدة مرات دورًا في حياته، دور مكمّل لأصدقائه الرجال، على الرغم من أنه من عيار أخف، لكن، لم تكن لهنّ أية جاذبية جنسية عليه[2].

كان من بين تلك النساء أخت زوجته مينا بيرنايس (Minna Bernays)، الأذكى والأكثر استقلالية بكثير من مارثا، والمحللات أو نصيرات حركة التحليل النفسي اللواتي جئن لاحقًا: ماري بونابرت، جوان ريفيير (Joan Riviere)، لو أندرياس سالومي (Lou Andreas Salome). لكن ليس هناك شكّ، سواء لدى كاتبي سيرته المعجبين أو المعادين، في أنه لم يبحث عن الإشباع الجنسي خارج الزواج. وبالتالي يبدو أن الجنس كان بعيدًا تمامًا عن عواطفه الإنسانية، وهو ما عبّر عنه في فكره طيلة السنوات اللاحقة المنتجة من حياته الطويلة، وإلى درجة أقل، في صداقاته مع رجال ومع

(1) Jones, *op. cit.*, Vol. II, p. 121.
(2) Ibid., Vol. I, pp. 310 ff.

خلال السنوات التي كان فرويد يضع فيها نظريته الجنسية، قبل أن يحرره تحليله البطولي لذاته من اعتماد شغوف على مجموعة من الرجال، كانت عواطفه مركزة على طبيب أنف وحنجرة لامع اسمه فيلس. لأن فيلس كان قد اقترح «نظرية علمية» خيالية، وحصل على إخلاص فرويد طيلة حياته لها، وهذه النظرية اختصرت كل ظواهر الحياة والموت «بثنائية جنسانية»، وعبرت عنها على نحو رياضي من خلال جدول دوري يستند إلى الرقم 28، وهو رقم الدورة الطمثية الأنثوية. كان فرويد يتوق إلى اجتماعاته مع فيلس «كما يتوق إلى إشباع الجوع والعطش». كتب له: «لا أحد يستطيع أن يحل محل الاتصال مع صديق يطلبه جزء معين، وربما الأنثوي، مني». حتى بعد أن قام فرويد بتحليل نفسه، فقد ظل يتوقع أن يموت في اليوم المتوقع وفق الجدول الدوري الذي وضعه فيلس، والذي يمكن فيه اكتشاف كل شيء على أساس الرقم المؤنث 28، أو الرقم المذكر 23، والذي استخرج من نهاية دورة طمثية أنثوية إلى بداية الدورة التالية.

تلك النساء اللواتي اعتبرهن مكافئات له وبالتالي «مسترجلات». وقد قال مرة: «أستغرب دائمًا أنني لا أفهم الذي يتحدثون لغتي»[1].

على الرغم من أهمية الجنس في نظرية فرويد، يتكوّن لدى المرء انطباع من كلماته بأن فعل الجنس كان يبدو له حاطًا من قدر المرء؛ فإذا كان قدر النساء منحطًا إلى تلك الدرجة في عيون الرجال، فكيف يمكن أن يظهر الجنس في أي ضوء آخر؟ لم تكن تلك نظريته بالطبع. فبالنسبة لفرويد، كانت فكرة سفاح القربى مع الأمّ أو الأخت هي التي تجعل الرجل «ينظر إلى فعل الجنس على أنه شيء مخزٍ، وهو ما يوسّخ ويلوّث أكثر من الجسم وحده»[2]. وعلى كل حال، كان انحطاط قدر المرأة أمرًا مسلمًا به من قبل فرويد، فهو مفتاح نظريته عن الأنوثة. كانت القوة الدافعة لشخصية المرأة، في نظرية فرويد، هي حسدها للقضيب، الذي يجعلها تشعر أنها أقل قيمة بكثير في عينيها هي «كما في عيني الصبي، وربما فيما بعد، في عيني الرجل»، ويقود في الأنوثة العادية إلى الرغبة في قضيب زوجها، رغبة لا تشبع فعلًا قط حتى تمتلك قضيبًا عن طريق ولادة ابن. هي باختصار مجرّد «رجل فاشل»، رجل ينقصه شيء ما. وكما عبّرت المحلّلة النفسية البارزة كلارا ثومبسون (Clara Thompson) عن الأمر: «لم يتحرر فرويد قط من الموقف الفيكتوري تجاه النساء. لقد قبِلَ، كجزء محتوم من قدر المرأة، محدودية النظرة والحياة في الحقبة الفيكتورية... فمفهوما عقدة الخصاء وحسد القضيب، وهما فكرتان أساسيتان في كامل فكره، يقومان على الفرضية القائلة بأن النساء أقل من الرجال بيولوجيًا»[3].

ما الذي عناه فرويد بمفهوم حسد القضيب؟ فحتى أولئك الذين يدركون أن فرويد لم يتمكن من التخلص من ثقافته لا يشككون في أنه

(1) Ibid., Vol. I, p. 320.
(2) Sigmund Freud, ''Degradation in Erotic Life,'' *The Collected Papers of Sigmund Freud*, Vol. IV.
(3) Thompson, *op. cit.*, p. 133.

كتب حقًا ما رآه في تلك الثقافة. رأى فرويد إجماعًا على الظاهرة التي أطلق عليها حسد القضيب في نساء الطبقة الوسطى في فيينا في ذلك العصر الفيكتوري الذي أقام كل نظريته عن الأنوثة عليه. قال في محاضرة عن «سيكولوجيا النساء»:

> تتشكل عقدة الخصاء في الصبي بعد أن يكون قد تعلّم من رؤية الأعضاء التناسلية الأنثوية أن العضو الجنسي، الذي يقدّره عاليًا جدًا، ليس بالضرورة جزءًا من جسم المرأة... ومن تلك اللحظة فصاعدًا، يصبح تحت تأثير قلق الخصاء، الذي يؤمّن أقوى قوة دافعة لتطوره اللاحق. وتبدأ عقدة الخصاء في الفتاة، أيضًا، برؤية الأعضاء التناسلية للجنس الآخر. فهي تلاحظ فورًا الفرق وأهميته، وهو ما يجب الإقرار به. تشعر أنها في وضع سيء جدًا، وغالبًا ما تصرّح أنها ترغب في أن تملك أيضًا شيئًا مثل ذلك الشيء، وتسقط ضحية حسد القضيب، الأمر الذي يخلّف آثارًا لا يمكن التخلص منها على تطورها وتكوين شخصيتها، وحتى في أفضل الحالات، لا يتم التغلب عليه دون إنفاق كبير من الطاقة العقلية. وأن تدرك الفتاة حقيقة أنها ناقصة القضيب لا يعني أنها تقبل غيابه بسهولة. بالعكس، إنها تتشبث لفترة طويلة برغبة الحصول على شيء يشبهه، وتؤمن بذلك الاحتمال لعدد استثنائي من السنوات: وحتى في الوقت الذي تكون فيه معرفتها بالواقع قد قادتها منذ زمن طويل إلى التخلّي عن تحقيق هذه الرغبة لأنّها متعذرة تمامًا، فالتحليل يثبت أنها تبقى مستمرة في اللاوعي، وتحتجز شحنة لا بأس بها من الطاقة. وفي نهاية المطاف، قد تسهم الرغبة في الحصول على القضيب، الذي تتوق إليه كثيرًا، في الدوافع التي تجبر امرأة ناضجة على الذهاب إلى التحليل النفسي ويمكن غالبًا إدراك ما تتوقع أن تحصل عليه بشكل معقول تمامًا من التحليل النفسي، من مثل القدرة على السعي نحو مهنة فكرية، على أنه تحوير تصعيدي لهذه الرغبة المكبوتة[1].

وتابع فرويد قائلًا: «إن اكتشاف الفتاة لخصائها هو نقطة تحوّل في حياتها. إنها مجروحة في حبها لذاتها بالمقارنة غير السارة مع الصبي، المجهّز أفضل بكثير». تنخفض قيمة أمها وجميع النساء في نظرها، مثلما

(1) Sigmund Freud, ''The Psychology of Women,'' in *New Introductory Lectures on Psychoanalysis*, tr: W. J. H. Sprott, New York, 1993, pp. 107 f.

تنخفض قيمتهن للسبب ذاته في نظر الرجل، وهذا يقود إمّا إلى الكبت الجنسي الكامل والعُصاب، أو إلى «عقدة الذكورة» التي ترفض فيها التخلي عن النشاط «القضيبي» (أي «نشاط كذاك الذي يعتبر عادةً مميزًا للذكر»)، أو إلى «الأنوثة العادية» التي تُكبت فيها دوافع الفتاة للنشاط، وتتحوّل في رغبتها بالقضيب إلى والدها. «لكن وضع الأنوثة لا يتأسس إلّا عندما تستبدل الرغبة في القضيب بالرغبة في الحصول على ولد؛ إذ يأخذ الطفل مكان القضيب». عندما كانت تلعب بالدمى، «لم يكن ذلك بالفعل تعبيرًا عن أنوثتها»، لأن ذلك نشاط وليس سلبية. لا تجد «الرغبة الأنثوية الأقوى»، الرغبة في القضيب، تحققها الفعلي إلّا «إذا كان الطفل صبيًا صغيرًا يجلب معه القضيب المشتهى... تستطيع الأم أن تنقل إلى ابنها كل الطموح الذي سبق وكبتته في نفسها، وتستطيع أن تأمل أن تحصل منه على الإشباع من كل ما تبقى لها من عقدتها الذكورية»[1].

لكن، من الصعب جدًا التغلب على نقصها المتأصل وحسد القضيب الناتج عنه، إلى درجة أن الأنا الأعلى للمرأة -ضميرها ومُثُلها- لا تتشكل قط كاملةً كما هو الحال مع الرجل: «ليس لدى النساء سوى القليل من الحسّ بالعدالة، وهذا، ولا شك، يتصل برجحان الحسد في حياتهن العقلية». وللسبب ذاته، فإن اهتمامات النساء بالمجتمع أضعف من اهتمامات الرجال، و«قدرتهن على تصعيد غرائزهن أقل». أخيرًا، لا يستطيع فرويد الامتناع عن ذكر «انطباع يتلقاه المرء، المرة تلو المرة، في العمل التحليلي» بأنه حتى التحليل النفسي لا يستطيع أن يفعل الكثير للنساء نتيجة عجز الأنوثة المتأصل.

إن رجلًا في الثلاثين من عمره تقريبًا يبدو مليئًا بحيوية الشباب، وبمعنى ما، نتوقع من فرد لم يتطور على نحو كامل أن يكون قادرًا على الاستفادة من احتمالات التطور التي يفتحها التحليل النفسي أمامه. لكن، كثيرًا ما تذهلنا

(1) Ibid., p. 182.

امرأة في العمر ذاته تقريبًا بصلابتها النفسية وعدم قدرتها على التغيّر... لا توجد ممرات مفتوحة أمامها من أجل مزيد من التطور؛ كما لو أنها اجتازت العملية كلها، وبقيت بعيدة عصية على التأثير في المستقبل؛ وكأن التطور الصعب، في الحقيقة، الذي يقود إلى الأنوثة قد استنزف كل إمكانياتها الفردية... حتى عندما ننجح في إزالة آلامها بحل صراعها العصابي[1].

ما الذي كان يكتب عنه حقًا؟ إذا فسّر المرء «حسد القضيب»، مثلما أعيد تفسير بقية المفاهيم الفرويدية على ضوء معرفتنا الجديدة، بأن ما اعتقد فرويد أنه بيولوجي كان غالبًا ردّ فعل ثقافي، فإنه يرى ببساطة أن الثقافة الفيكتورية قد أعطت النساء أسبابًا عديدة لحسد الرجال: الظروف نفسها، في الواقع، التي كافحت الناشطات النسويات ضدها. إذا تمنّت المرأة التي حرمت من الحرية والمنزلة والمتع، التي استمتع بها الرجال سرًّا، أن تتمكن من الحصول على تلك الأشياء، في اختزال الحلم، فقد تتمنى أن تكون رجلًا، وأن ترى نفسها بذلك الشيء الوحيد الذي يجعل الرجال مختلفين على نحو قاطع، ألا وهو القضيب. سيكون عليها بالطبع أن تتعلم أن تبقي حسدها وغضبها مستورين: لتلعب دور الطفلة، اللعبة، الدمية، لأنّ مصيرها يعتمد على سحر الرجل. لكن تحت ذلك، ربما يظلّ الأمر يتقيّح حتى يجعلها تمرض رغبةً في الحب. إذا احتقرت نفسها سرًّا، وحسدت الرجل على كل ما ليست عليه، فقد تمارس الحب بشكل روتيني، أو حتى تشعر بهيام وضيع، ولكن هل ستكون قادرة على الحب الحر المبهج؟ لا يمكنك أن توضح حسد المرأة للرجل، أو احتقارها لذاتها على أنه مجرد رفض لقبول تشوّهها الجنسي، ما لم تعتقد أن المرأة بالطبيعة هي كائن أدنى من الرجل. وبالتالي، طبعًا، تصبح رغبتها في أن تكون مساوية له عُصابية.

هناك إدراك الآن بأن فرويد لم يعط انتباهًا مناسبًا، حتى لدى الرجل، لنمو الأنا أو الذات: «الدافع إلى السيادة أو التحكم أو الوصول إلى شروط

(1) Ibid., p. 184.

التحقق الذاتي مع البيئة»[1]. بدأ المحللون، الذين حرروا أنفسهم من تحيّز فرويد، وانضموا إلى علماء سلوكيين آخرين في دراسة الحاجة الإنسانية إلى النمو، يعتقدون أن هذه هي الحاجة الإنسانية الأساسية، وأن التدخّل فيها، في أي بُعدٍ كان، هو مصدر المشاكل النفسية. البعد الجنسي هو بعد واحد فقط من أبعاد الإمكانية البشرية. يجب التذكّر أن فرويد كان يعتقد أن جميع العُصابات جنسية في أصلها؛ فهو لم يرَ النساء إلّا من حيث علاقتهن الجنسية بالرجال. لكن في جميع تلك النساء اللواتي رأى فيهن مشاكل جنسية، لابدّ أنه كانت هناك مشاكل النمو المعوّق الحادة جدًا، نمو تنقصه هوية إنسانية كاملة-ذاتًا ناقصة غير ناضجة. لقد منع المجتمع النساء، كما كان حينها، وعن طريق الإنكار الصريح لتعليمهن واستقلاليتهن، من تحقيق إمكانياتهن كاملة، أو من تحقيق تلك الاهتمامات والمُثُل التي قد تحفّز نموّهن. كتب فرويد عن جوانب النقص تلك، لكنه لم يتمكن من شرحها إلّا على أنها حصيلة «حسد القضيب»؛ لم يرَ حسد النساء للرجل إلّا على أنه مرض جنسي. كان يرى أنّ النساء اللواتي يرغبن سرًا في أن يكنّ مساويات للرجل لا يستمتعن بأن يكنّ غرضه؛ وقد بدا في هذا وكأنه يصف حقيقة. ولكنْ، ألم يكن عندما رفض توق النساء إلى المساواة، مصورًا إياه على أنه «حسد القضيب»، يعبّر ببساطة عن رأيه الخاص بأن المرأة لا يمكن إطلاقًا، في الحقيقة، أن تكون مساوية للرجل، بأكثر من أنها قد تحمل قضيبه؟

لم يكن فرويد مهتمًا بتغيير المجتمع، بل بمساعدة الرجل والمرأة على

(1) Thompson, *op. cit.*, pp. 12 f:

ركزت الحرب العالمية الأولى (1914-1918) مزيدًا من الانتباه على محرِّكات الأنا.... فقد دخلت فكرة أخرى في التحليل النفسي في تلك الفترة تقريبًا ... وهي أن العدوان، بالإضافة إلى الجنس، قد يكون دافعًا مكبوتًا مهمًا. ... وفي النهاية، حل فرويد ذلك عن طريق نظريته الثانية في الغرائز. وجد العدوان مكانه كجزء من غريزة الموت. من الممتع أن توكيد الذات العادي، أي الدافع إلى قهر البيئة أو السيطرة عليها أو الوصول إلى شروط تحقيق الذات معها، لم يتم التشديد عليه على نحو خاص من قِبل فرويد.

التكيّف معه. وهكذا، فهو يحكي عن حالة عانس في منتصف العمر، نجح في تحريرها من معقّد-أعراضي (symptom-complex) منعها من لعب أي دور في الحياة مدة خمسة عشر عامًا. وبعد تحررها من تلك الأعراض «اندفعت في دوامة من النشاط حتى تطوّر مواهبها، التي لم تكن بأي شكل من الأشكال قليلة، وتخرج بشيء من التقدير والمتعة والنجاح في الحياة قبل فوات الأوان». ولكنّ كل محاولاتها توقفت عندما رأت أن لا مكان لها. وبما أنه لم يعد في مقدورها الانتكاس إلى أعراضها العُصابية، فقد بدأت تقع في حوادث: التواء في الكاحل أو في القدم أو في اليد. وعندما جرت معالجتها من ذلك بالتحليل النفسي، فإنها «بدلًا من الحوادث أخذت تصاب في المناسبات ذاتها بأمراض خفيفة، كالزكام أو التهاب البلعوم أو حالات أنفلونزا أو أورام روماتيزمية، إلى أن في النهاية، عندما قررت أن تستسلم لعدم النشاط، وصل الأمر كله إلى نهايته»[1].

حتى إذا اعتبر فرويد ومعاصروه النساء أدنى شأنًا بحكم الطبيعة النهائية التي منحها الله لهن، فإن العلم لا يبرر هذه النظرة الآن. فنحن نعرف الآن، أن سبب تلك الدونية هو قلّة تعليمهن وحجزهن في البيت. اليوم، وقد أثبت العلم مساواة النساء للرجال في الذكاء، وظهرت قدرتهن المساوية لهم في كل مجال عدا القوة العضلية الصرف، فإن نظريةً تقوم بوضوح على دونية المرأة الطبيعية ستبدو سخيفة وزائفة. لكن يبقى ذلك أساس نظرية فرويد عن النساء، على الرغم من قناع الحقيقة الجنسية الخالدة التي تخفي تفاصيلها اليوم.

بما أن أتباع فرويد لم يستطيعوا أن يروا المرأة إلّا في الصورة التي حددها فرويد -تابعة وطفلية وعاجزة وبلا أية إمكانية للسعادة، ما لم تتكيّف مع حقيقة أنها غرض الرجل السلبي- فقد أرادوا مساعدة النساء في التخلّص

(1) Sigmund Freud, ''The Anatomy of the Mental Personality,'' in *New Introductory Lectures on Psychoanalysis*, p. 96.

من حسدهن المكبوت، من رغبتهن العُصابية في أن يكنّ مساويات للرجل. أرادوا مساعدة النساء في إيجاد التحقق الجنسي بوصفهن نساء عن طريق تأكيد دونيتهن الطبيعية.

لكنّ المجتمع الذي حدّد تلك الدونية قد تغيّر تغيّرًا حادًا في الوقت الذي حوّل فيه أتباع فرويد ماديًا إلى أمريكا القرن العشرين أسباب الظرف الذي دعاه فرويد حسد القضيب بالإضافة إلى علاجاته. على ضوء معرفتنا الجديدة بالعمليات الثقافية والنمو الإنساني، يستطيع المرء أن يفترض أن النساء اللواتي كبرن في ظل الحقوق والحرية والتعليم، وهو ما كانت نساء العصر الفيكتوري محرومات منه، لا بدّ أن يكنّ مختلفات عن النساء اللواتي حاول فرويد علاجهن. يمكن للمرء أن يفترض أنّ لديهن أسبابًا أقل بكثير لحسد الرجل. لكنّ فرويد فُسّر للنساء الأمريكيات بتعابير حرفية على نحو غريب، حتى أن مفهوم حسد القضيب اكتسب حياة لغزية بذاته، كما لو أنه وُجد مستقلًا تمامًا عن النساء اللواتي لوحظ لديهن. كان الأمر كما لو أن صورة فرويد الفيكتورية عن النساء أصبحت أكثر حقيقيةً من نساء القرن العشرين اللواتي طُبّقت عليهن. لقد فهمت نظرية فرويد عن الأنوثة في أمريكا بحرفية شديدة حتى أن النساء اليوم لا يعتبرن مختلفات عن النساء الفيكتوريات. ورُفضت المظالم الحقيقية التي حملتها الحياة للنساء منذ قرن مضى مقارنة بالرجال كمجرد تبرير لحسد القضيب. والفرص الحقيقية التي منحتها الحياة للنساء الآن، مقارنة مع النساء في ذلك الوقت، محظورة باسم حسد القضيب.

تمكن رؤية التطبيق الحرفي للنظرية الفرويدية في هذه الفقرات من كتاب المرأة العصرية: الجنس الضائع بقلم المحللة النفسية مارينيا فارنهام (Marynia Farnham) وعالم الاجتماع فرديناند لندبرغ (Ferdinand Lundberg)، حيث تمت إعادة صياغته حتى الغثيان في المجلات ومقررات الزواج، إلى أن أصبحت معظم جمله جزءًا من حقيقة عصرنا المقبولة

التقليدية. فهما يساويان النسوية بحسد القضيب، ويصرّحان على نحو قطعي:

كانت النسوية، على الرغم من الصحة الخارجية لبرنامجها السياسي ومعظم (ليس كل) برنامجها الاجتماعي، في جوهرها مرضًا عميقًا... يثبّط الاتجاه الغالب في التدريب والتطوير الأنثوي اليوم... بالضبط تلك الميزات الضرورية لتحقيق المتعة الجنسية: قابلية التأثر والسلبية، استعدادٌ لقبول الاتكال دون خوف أو امتعاض، مع جوانية عميقة واستعداد للهدف النهائي للحياة الجنسية، ألا وهو التلقيح. ...

ليس في استطاعة العضوية الأنثوية أن تحقق مشاعر السعادة عن طريق الإنجاز المذكّر... كان خطأ الناشطات النسويات أنهن حاولن وضع النساء على طريق الإنجاز المذكّر أساسًا، بعيدًا عن طريق التربية الأنثوية...

إن القاعدة النفسية-الاجتماعية التي تبدأ بالتشكل إذًا هي التالية: كلما كانت المرأة أكثر تعليمًا، زادت فرصة وجود شيء من الاضطراب الجنسي لديها، على هذه الدرجة من الحدة أو تلك. وكلما زاد اضطراب الجنسانية لدى مجموعة معينة من النساء، قلّ عدد الأولاد لديهن... لقد منحهن القدر النعمة التي ألحّت عليها السيدة ماكبث؛ لقد كنّ فاقدات للقدرة الجنسية، لا في مسألة الولادة فقط، بل وفي مشاعر المتعة أيضًا[1].

وهكذا، فقد طمر مبسّطو فرويد جوهر تحيّزه التقليدي غير المُدرَك ضد النساء أعمق من أي وقت مضى في أرض صلبة ذات ظاهر علمي. كان فرويد مدركًا تمامًا لنزعته الخاصة إلى بناء مجموعة هائلة من الاستنتاجات انطلاقًا من حقيقة واحدة -طريقة خصبة وإبداعية، لكنها سلاح ذو حدين، إذا أسيء تفسير مغزى تلك الحقيقة الأحادية. كتب فرويد إلى يونغ (Jung) في عام 1909:

لقد أضحكني جدًا ظنّك أن أخطائي قد تُعبَد بعد رحيلي مثل آثار مقدسة، لكنّي لا أؤمن بذلك. بالعكس، أعتقد أن أتباعي سيسرعون إلى تدمير كل ما هو غير آمن وسليم فيما أخلفه ورائي بأقصى سرعة ممكنة[2].

(1) Marynia Farnham and Ferdinand Lundberg, *Modern Women: The Lost Sex*, New York and London, 1947, pp. 142 ff.

(2) Ernest Jones, *op. cit.*, Vol. II, p. 446.

لكن، في موضوع النساء، لم يضاعف أتباع فرويد أخطاءه فحسب، بل إنهم في محاولتهم الملتوية لجعل ملاحظاتهم عن النساء الحقيقيات منسجمة مع إطاره النظري أغلقوا الأسئلة التي تركها هو نفسه مفتوحة. وهكذا على سبيل المثال، فإن هيلين دوتش (Helene Deutsch)، التي ظهر كتابها الحاسم المؤلف من مجلدين سيكولوجيا المرأة-تفسير على ضوء التحليل النفسي The Psychology of Women-A Psychoanalytical Interpretaion في عام 1944، غير قادرة على ردّ كل مشاكل النساء إلى حسد القضيب بتلك الطريقة. فتقوم بما اعتبره فرويد نفسه غير حكيم، وتساوي بين «الأنوثة» و«السلبية»، وبين «الذكورة» و«الفاعلية»، لا في المجال الجنسي فقط، بل وفي جميع مجالات الحياة.

> مع إدراكي التام لخضوع وضع المرأة للتأثير الخارجي، فإنني أغامر بالقول إن الهويات الأساسية «مؤنث-سلبي» و«مذكّر-إيجابي» تؤكّد نفسها في جميع الثقافات والأعراق المعروفة، بأشكال متنوعة ونسب كميّة مختلفة.
>
> غالبًا ما تقاوم المرأة هذه الخاصية التي منحتها لها الطبيعة، وعلى الرغم من بعض المنافع التي تأخذها منها، فإنها تظهر أنماطًا من السلوك تفترض أنها ليست راضية تمامًا بوضعها... إن التعبير عن عدم الرضا ذاك، متحدًا بمحاولات مداواته، تنتج عنه «عقدة الذكورة»[1].

تنشأ «عقدة الذكورة»، على النحو الذي توضحه الدكتورة دوتش، مباشرة من «عقدة خصاء الأنثى». وبالتالي، ما يزال التشريح هو القدر، وما تزال المرأة «رجلًا فاشلًا». وبالطبع، تذكر الدكتورة دوتش عرضًا أنه «فيما يخص الفتاة، على أية حال، فإن الطبيعة تؤثّر تأثيرًا كابحًا فيما يتعلق بعدوانها ونشاطها». وهكذا يبدو أن حسد القضيب وتشريح الأنثى الناقص والمجتمع «تعمل جميعًا لإنتاج الأنوثة»[2].

---

(1) Helen Deutsch, *The Psychology of Women—A Psychoanalytical Interpretation*, New York, 1944, Vol. I, pp. 224 ff.

(2) Ibid., Vol. I, pp. 251 ff.

لكنّ الأنوثة «العادية» لا تتحقّق إلّا بقدر ما تنكر المرأة في النهاية جميع أهدافها الفعّالة الخاصة بها، وكل أصالتها، وتطابق ذاتها مع زوجها أو ابنها، وتحقق ذاتها من خلال نشاطاتهما وأهدافهما. ويمكن تصعيد هذه العملية بطريقة غير جنسية، كما هي، على سبيل المثال، حال المرأة التي تقوم بالبحث الأساسي لاكتشافات رئيسها الذكر. الابنة التي تكرّس حياتها لوالدها هي أيضًا تقوم بـ«تصعيد» أنثوي مُرضٍ. ولا يستحق إلّا النشاط النابع منها، أو أصالتها، على أساس المساواة، خزيَ «عقدة الذكورة». تصرّح هذه التابعة الأنثوية اللامعة لفرويد، على نحو قاطع، إنّ النساء اللواتي حققن السمو في الولايات المتحدة مع حلول عام 1944 بنشاط نابع من ذاتهن في مجالات مختلفة قد قمن بذلك على حساب تحققهن الأنثوي. وهي لا تذكر أية أسماء، لكنهن جميعًا يعانين من «عقدة الذكورة».

كيف أمكن لفتاة أو امرأة ليست محللة نفسية أن تسقط من حسابها تلك التصريحات المشؤومة التي بدأت فجأة في الأربعينيات تنهال من كل وسطاء وحي التفكير المتطور؟

سيكون من السخف أن نفترض أنّ الطريقة التي استخدمت فيها النظريات الفرويدية لغسل دماغ جيلين من النساء الأمريكيات المتعلمات كانت جزءًا من مؤامرة تحليل-نفسية. وقد جرى ذلك على يد مبسّطين حسني النية ومشوِّهين مُهمِلين؛ على يد مهتدين راشدين وأصحاب تقليعات رائجة؛ على يد أولئك الذين عانوا، وأولئك الذين شفوا، وأولئك الذين حولوا المعاناة إلى ربح؛ وفوق كل ذلك، على يد توافق من القوى والحاجات الخاصة بالشعب الأمريكي في زمن معين. في الحقيقة، كان القبول الحرفي بنظرية فرويد عن التحقق الأنثوي في الثقافة الأمريكية في تضاد مضحك-مبكٍ مع الصراع الشخصي للعديد من المحللين النفسيين الأمريكيين لتوفيق ما كانوا يرونه في مريضاتهم مع النظرية الفرويدية. قالت النظرية إن النساء يجب أن يكنّ قادرات على تحقيق أنفسهن كزوجات وأمهات، إذا فقط أمكن

علاجهن بالتحليل النفسي من «كفاحاتهن المذكّرة»، من «حسد القضيب». لكن لم يكن الأمر بتلك السهولة. يؤكد محلل من ويستشيستر: «لا أعرف سبب استياء النساء الأمريكيات إلى هذه الدرجة. يبدو، علىٰ نحو ما، من الصعب جدًا استئصال حسد القضيب لدى النساء الأمريكيات».

وأخبرني محلل نفسي من نيويورك، وهو واحد من آخر من تدرّبوا في معهد فرويد الخاص للتحليل النفسي في فيينا:

> لقد وجدت نفسي على مدى عشرين عامًا من التحليل النفسي للنساء الأمريكيات، المرة تلو المرة، في وضع أضطر فيه إلى تركيب نظرية فرويد عن الأنوثة على الحياة النفسية لمريضاتي بطريقة لم أكن راغبًا في تطبيقها. وقد وصلت إلى خلاصة مفادها إن حسد القضيب، بكل بساطة، أمرٌ لا وجود له. رأيت نساء معبّرات تمامًا، جنسيًا ومهبليًا، ولكنهن مع ذلك غير ناضجات أو متكاملات أو متحققات. كانت لديّ مريضة ترددت على أريكة التحليل النفسي نحو سنتين قبل أن أتمكن من مواجهة مشكلتها الحقيقية: لم تكن مكتفيةً بأن تكون مجرد ربة منزل وأمّ. حلمتْ ذات يوم حلمًا بأنها تدرّس صفًا. لم أستطع استبعاد التوق القوي في حلم ربة المنزل هذا بالقول إنه حسد القضيب، فقد كان تعبيرًا عن حاجتها الخاصة إلى التحقق الذاتي الناضج. قلت لها: «لا أستطيع تحليل هذا الحلم. يجب أن تفعلي شيئًا ما حياله».

هذا الرجل ذاته يدرّس المحللين الشباب في مركزه الطبي للدراسات العليا في جامعة شرقية رائدة: «إذا لم يوافق المريض الكتاب، فارموا بالكتاب واستمعوا إلى المريض».

لكنّ محللين كثيرين يرمون بالكتاب في وجوه مرضاهم، وتصبح النظريات الفرويدية حقيقة مقبولة حتى بين النساء اللواتي لم يضطجعن قطّ على سرير المحلل النفسي، لكنهن يعرفن فقط ما قرأنه، أو سمعنه. لم يتسرب، حتى هذا اليوم، إلى الثقافة الشعبية أنّ إحباط النساء الأمريكيات المتزايد وواسع الانتشار قد لا يكون مسألة جنسانية أنثوية. عدّل بعض المحللين، وهذا صحيح، النظريات تعديلًا كبيرًا حتى تناسب مرضاهم،

حتى إنهم أهملوها كليةً، لكن هذه الحقائق لم تنفذ قطّ إلى الوعي العام. قُبل فرويد بسرعة كبيرة وبشكل كامل عند نهاية الأربعينيات، حتى أن أحدًا، وخلال ما يزيد على عقد من السنوات، لم يجادل في عودة النساء الأمريكيات المتعلمات إلى المنزل. وعندما، في النهاية، أصبح طرح الأسئلة لا بدّ منه، إذ بات من الواضح أنّ شيئًا ما يسير في الاتجاه الخطأ، فقد طرحت تلك الأسئلة كليةً ضمن الإطار الفرويدي الذي كان جواب واحد فقط ممكنًا فيه: إن من الخطأ منح النساء التعليم والحرية والحقوق.

لقد كان قبول مذهب فرويد في أمريكا على نحو غير نقدي، في جزء منه، نتيجة الراحة ذاتها التي أمّنها من الأسئلة المزعجة حول الحقائق الموضوعية. أصبح علم النفس الفرويدي بعد الكساد، بعد الحرب، أكثر من مجرد علم للسلوك الإنساني، أصبح علاجًا للمعاناة. أصبح الأيديولوجية الأمريكية المنطوية على كل شيء.. أصبح دينًا جديدًا. ملأ فراغ الفكر والغاية الذي وُجد لدى العديد ممن لم يعد الإله أو العَلَم أو الحساب المصرفي كافيًا لهم، ولكنهم، مع ذلك، كانوا تعبين من الشعور بالمسؤولية تجاه الإعدامات غير القانونية ومعسكرات الاعتقال والأطفال الذين يعانون من الجوع في الهند وأفريقيا. أمّن مهربًا ملائمًا من القنبلة الذرية ومكارثي وكل المشاكل المربكة التي قد تفسد مذاق شرائح اللحم والسيارات والتلفاز الملون وأحواض السباحة في ساحة البيت الخلفية. أعطانا الإذن بأن نكبح الأسئلة المزعجة للعالم الأوسع، وأن نسعى وراء متعنا الشخصية. وإذا كان للدين النفسي الجديد -الذي جعل من الجنس فضيلة، وأزال كل إثم من العيب الخاص، وألقى بظلال الشك على إلهامات العقل والروح السامية- تأثيرًا شخصيًا مدمّرًا على النساء، أكثر مما له على الرجال، فإن أحدًا لم يخطط له بتلك الطريقة.

لقد تحوّل علم النفس -المستغرق طويلًا في عقدة نقصه العلمية، والمهووس بالتجارب المخبرية الصغيرة الدقيقة التي أعطت الوهم

باختزال التعقيد الإنساني في السلوك البسيط القابل للقياس لجرذان في متاهة- إلى حملة جديدة مانحة للحياة اكتسحت حقول الفكر الأمريكي القاحلة. كان فرويد هو القائد الروحي، ونظرياته هي الكتاب المقدس. وكم كان كل ذلك مثيرًا وحقيقيًا ومهمًا. كان تعقيده اللغزي جزءًا من سحره للأمريكيين الضجرين. وإذا بقي شيء منه مربكًا على نحو عصي على الفهم، فمن سيعترف أنه لم يستطع فهمه؟ أصبحت أمريكا مركز حركة التحليل النفسي، عندما فرّ محلّلون فرويدون ويونغيّون وأدلريون[1] من فيينا وبرلين، وازدهرت مدارس جديدة على عُصابات الأمريكيين المتزايدة ودولاراتهم.

لكنّ ممارسة التحليل النفسي، كشكل من أشكال العلاج، لم تكن مسؤولةً مبدئيًا عن اللغز الأنثوي، الذي كان من صنع الكتّاب والمحرّرين في وسائل الإعلام الجماهيرية والباحثين الدافعيين في وكالات الإعلان، ومن خلفهم، مبسّطي الفكر الفرويدي ومفسّريه في الجامعات والكليات. نزلت النظريات الفرويدية والفرويدية الزائفة في كل مكان مثل الرماد البركاني الدقيق. لقد تخلّل الفكر الفرويدي علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتعليم وحتى دراسة التاريخ والأدب. وكان المبشّرون الأكثر حماسًا للّغز الأنثوي هم الوظيفيون، الذين التهموا بسرعة لُقيمات من فرويد المهضوم اصطناعيًا، لينشئوا أقسامهم الجديدة عن «تعليم الزواج والحياة العائلية». علّمت المقرّرات الوظيفية حول الزواج فتيات الجامعات الأمريكيات كيف «يلعبن دور» المرأة -فالدور القديم أصبح علمًا جديدًا. ونشرت حركات ذات صلة خارج الجامعات -تعليم الأهل، مجموعات دراسة الطفل، مجموعات الدراسة الأمومية-الأبوية، وتعليم الصحة العقلية- الأنا العليا النفسية على امتداد البلاد آخذةً محل لعبة البريدج والكاناستا كوسيلة من وسائل التسلية بين الزوجات الشابات المتعلمات. وقد فعلت هذه الأنا

---

(1) نسبةً إلى فرويد ويونغ وأدلر.

العليا الفرويدية فعلها بين أعداد متزايدة من النساء الأمريكيات الشابات الحساسات، مثلما قال فرويد عن فعل الأنا العليا، ألا وهو تأبيد الماضي.

> لا يعيش الجنس البشري قطّ في الحاضر تمامًا؛ فأيديولوجيات الأنا العليا تؤبّد الماضي، تقاليد العرق والشعب التي تخضع، ولكن ببطء، لتأثير الحاضر والتطورات الجديدة، وبقدر ما تعمل من خلال الأنا العليا، تلعب دورًا مهمًا في حياة الإنسان، على نحو مستقل تمامًا عن الظروف الاقتصادية[1].

ردّد اللغز الأنثوي، الذي رفعته النظرية الفرويدية إلى مستوى الدين العلمي، نغمةً منفردةً وشديدة الحماية ومقيدة للحياة ومُنكرة للمستقبل بالنسبة للنساء. طلب مفكّرو عصرنا الأكثر تقدمًا من الفتيات، اللواتي كبرن وهن لاعبات بيسبول أو جليسات أطفال أو بارعات في الهندسة -تقريبًا مستقلات بما يكفي وواسعات الحيلة بما يكفي لمواجهة مشاكل عصر الانشطار والانصهار- أن يعدن، ويعشن حياتهن كما لو كنّ نورا المحصورة في بيت الدمية بقوة التحيّز الفيكتوري. وأبعدهن احترامهن لسلطة العلم وخوفهن منها -والآن تشارك الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس تلك السلطة- عن التشكيك باللغز الأنثوي.

(1) Sigmund Freud, ''The Anatomy of the Mental Personality,'' in *New Introductory Lectures on Psychoanalysis*, p. 96.

الفصل السادس

التجميد الوظيفي والاحتجاج المؤنث ومارجريت ميد

بدلًا من تدمير التحيّزات القديمة التي قيّدت حيوات النساء، اكتفى علم الاجتماع بإعطائها سلطة جديدة. وعبر عملية دائرية دقيقة، ألغت رؤى علم النفس والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع - التي كان يفترض بها أن تكون أسلحة قوية لتحرير النساء - على نحو ما، مفعول بعضها بعضًا موقعةً النساء في مركز ميت.

خلال السنوات العشرين الماضية، وتحت التأثير المحفّز للفكر الفرويدي، التقى محللون نفسيون وعلماء أنثروبولوجيا وعلماء اجتماع وعلماء نفس اجتماعيون وعاملون آخرون في العلوم السلوكية في ندوات مهنية ومؤتمرات تموّلها المؤسسات في العديد من المراكز الجامعية. بدا أن التخصيب التهجيني قد جعلهم جميعًا يزدهرون، لكن، أُنتجت مهجّنات غريبة. ففيما بدأ محللون نفسيون يعيدون تفسير مفاهيم فرويد من مثل الشخصية «الفموية» و«الشرجية»، على ضوء وعي مستعار من الأنثروبولوجيا بأن العمليات الثقافية كانت، ولابدّ، فاعلة في فيينا فرويد، انطلق علماء أنثروبولوجيا قاصدين جزر بحر الجنوب لرسم الخريطة القبلية وفق جداول «فموية» و«شرجية» حرفية. وغالبًا ما كان الأنثروبولوجيون، مسلّحين بـ«أفكار نفسية للعاملين الميدانيين في المجال الإثني»، يجدون

ما يبحثون عنه. وبدلًا من تفسير التحيّز الثقافي وتمحيصه خارج النظريات الفرويدية، ضاعفت مارجريت ميد (Margaret Mead)، والآخرون الذين كانوا روّادًا في ميادين الثقافة والشخصية، الخطأ عن طريق تكييف ملاحظاتهم الأنثروبولوجية الخاصة مع المبدأ الفرويدي. لكن، ما كان لأيّ من ذلك أن يكون له الأثر المجمّد ذاته على النساء لولا ضلال تزامن معه من قبل العلماء الاجتماعيين الأمريكيين اسمه الوظيفية (functionalism).

فقد بدأت الوظيفية -من خلال تركيزها بشكل أساسي على الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع، ووصولها إلى حدودها القصوى في الميدان التطبيقي لتعليم الحياة العائلية- كمحاولة لجعل العلم الاجتماعي أكثر «علمية» عبر استعارتها من البيولوجيا فكرة دراسة المؤسسات كما لو كانت عضلات أو عظام، من حيث «بنيتها» و«وظيفتها» في الجسم الاجتماعي. يهدف العلماء الاجتماعيون، بدراسة مؤسسة ما من حيث وظيفتها فحسب ضمن مجتمعها، إلى أن يحوّلوا بصرهم عن أحكام القيمة غير العلمية. وفي الممارسة، لم تكن الوظيفية حركة علمية بقدر ما كانت لعبة كلمات علمية. غالبًا ما فُسّرت عبارة «الوظيفة هي» بـ«الوظيفة يجب أن تكون»؛ ولم يدرك العلماء الاجتماعيون تحيّزاتهم في التنكّر الوظيفي بأكثر مما أدرك المحللون تحيزاتهم في التنكّر الفرويدي. أدخلت الوظيفية -من خلال إضفاء معنى مطلق وقيمة منافقة على المصطلح العام «دور المرأة»- النساء الأمريكيات في نوع من التجمّد العميق، مثل الحسناوات النائمات اللواتي ينتظرن أميرًا ساحرًا ليوقظهن، فيما العالم يتحرك في كل ما يحيط بالدائرة السحرية.

يبدو أنّ العلماء الاجتماعيين، ذكورًا وإناثًا، الذين رسموا هذه الدائرة الضيقة الموجعة حول النساء الأمريكيات، قد اشتركوا أيضًا في موقف معين هو ما سأسميه «الاحتجاج المؤنث». إذا كان هناك شيء من مثل الاحتجاج المذكّر -المفهوم التحليل-نفسي الذي تبنّاه الوظيفيون لوصف النساء اللواتي حسدن الرجال، وأردن أن يكنّ رجالًا، وبالتالي أنكرن أنهن نساء،

وأصبحن أكثر رجولة من أي رجل- فتمكن رؤية مقابله اليوم في احتجاج مؤنث يقوم به، على حد سواء، رجالٌ ونساءٌ ينكرون ما النساء عليه فعلًا، ويصنعون من «كونك امرأة» أكثر مما أمكن في أي يوم. الاحتجاج المؤنث، في أكثر معانيه صراحة، هو ببساطة وسيلة لحماية النساء من المخاطر المتأصلة في تحمّل المساواة الحقيقية مع الرجال. ولكن لمَ يجب أن يأخذ أي عالم اجتماعي، يتمتع بتفوق متحكِّم ربّاني، على عاتقه -أو عاتقها- حماية النساء من آلام النمو؟

لطالما أخمدت الوصائية صوت الأبواب التي توصد في وجوه النساء، ولطالما أخفت تحيّزًا حقيقيًا، حتى عندما تُقدّم باسم العلم. لو عبس جدّ قديم الطراز في وجه نورا، التي تدرس التفاضل والتكامل، لأنها تريد أن تصبح عالمة في الطبيعيات، وغمغم: «مكان النساء في البيت»، لأطلقت نورا ضحكةً بنفاد صبر: «جدّي! نحن في عام 1963»، لكنها لا تضحك على أستاذ علم الاجتماع المهّذب مدخّن الغليون، ولا على كتاب مارجريت ميد، ولا على المرجع الحاسم المؤلّف من مجلدين حول الجنسانية الأنثوية، عندما يقولون لها الأمر ذاته. تخفي عنها لغة الوظيفية المعقدة الغامضة وعلم النفس الفرويدي والأنثروبولوجيا الثقافية حقيقة أنهم يقولون ذلك على أساس ليس أشد تماسكًا بكثير من الأساس الذي يستند إليه الجدّ.

وهكذا، من شأن صديقتنا نورا أن تبتسم لرسالة الملكة فيكتوريا المكتوبة عام 1870: «الملكة متلهفة لتجنيد كل من يستطيع القراءة والكتابة للمشاركة في فحص هذه الحماقة الشريرة المجنونة المسماة 'حقوق المرأة' مع كل ما يترافق معها من أشياء مرعبة، والتي يستسلم لها جنسها المسكين الضعيف، ناسيًا كل معنى للشعور واللياقة الأنثويين... إنه موضوع يجعل الملكة غاضبة جدًا إلى حدّ لا تستطيع معه كبح نفسها. خلق الله الرجال والنساء مختلفين؛ دعوا إذا كلًا منهما يبقى في مكانه».

ولكنها لا تبتسم عندما تقرأ في الزواج للأشخاص العصريين:

الجنسان متتامان. الأعمال التي تتم داخل ساعتي هي التي تحرك العقارب، وتنبئني عن الوقت. فهل الأعمال، بالتالي، أهم من الإطار؟... لا طرف منهما أعلى أو أدنى من الآخر. يجب الحكم على كل منهما على أساس وظائفه الخاصة. وهي معًا تشكل وحدة عاملة وظيفيًا. وهكذا هو الحال مع الرجال والنساء، إذ يشكلان معًا وحدةً عاملةً وظيفيًا. كل منهما على انفراد هو، بمعنى ما، ناقص. إنهما متتامان... إذا انخرط الرجال والنساء في الأعمال ذاتها، وقاموا بوظائف مشتركة، فقد تتحطم العلاقة المتتامة[1].

نُشر هذا الكتاب في عام 1942. ودرسته الفتيات خلال السنوات العشرين الماضية كما لو كان كتابًا جامعيًا. وفيه تُقدّم لهن، تحت مظهر علم الاجتماع أو «الزواج والحياة العائلية» أو «التكيّف الحياتي»، نصيحة من هذا القبيل:

لكن، تبقى الحقيقة هي أننا نعيش في عالم من الواقع، عالم من الحاضر والمستقبل الفوري الذي ترتكز عليه يد الماضي الثقيلة، عالم مازال التقليد يسيطر عليه، والأعراف تمارس عليه تأثيرًا أقوى من تأثير المنظّرين... عالم يتزوج فيه معظم الرجال والنساء، وفيه معظم النساء المتزوجات هنّ ربات منازل. وقد يكون الحديث عما يمكن القيام به إذا تغيّرت الأعراف والتقاليد جذريًا، أو ما الذي قد يستجد بحلول عام 2000، تمرينًا عقليًا ممتعًا، لكنه لا يساعد شباب اليوم على التكيّف مع أمور الحياة التي لا بدّ منها أو رفع زواجاتهم إلى مستوى أعلى من الرضا[2].

وبالطبع، ينكر هذا «التكيّف مع أمور الحياة التي لا بدّ منها» السرعة التي تتغيّر فيها ظروف الحياة حاليًا، وحقيقة أنّ فتيات كثيرات، ممن يتكيّفن على هذا النحو في سن العشرين، سيكنّ على قيد الحياة في عام 2000. يحذّر هذا الوظيفي من أية مقاربة، ومن جميع المقاربات، إلى «الفروق بين الرجال والنساء»، باستثناء «التكيّف» مع تلك الفروق كما هي الآن. وإذا فكرت امرأة، مثل صديقتنا نورا، بحياة مهنية، فإنه يهزّ إصبعه محذّرًا:

(1) Henry A. Bowman, *Marriage for Moderns*, New York, 1942, p. 21.
(2) Ibid., pp. 22 ff.

لأول مرة في التاريخ، تواجه أعداد كبيرة من الشابات الأمريكيات هذه الأسئلة: هل سأحضّر نفسي طوعيًا لمهنة على أساس العزوبة طوال حياتي؟ أم سأحضرها لمهنة مؤقتة أتخلى عنها عندما أتزوج، وأتحمل مسؤوليات التدبير المنزلي والأمومة؟ أم يجب أن أحاول الجمع بين العمل المنزلي والمهنة؟... الغالبية العظمى من النساء المتزوجات هنّ ربّات منازل...

إذا كانت امرأة تستطيع أن تجد تعبيرًا مناسبًا عن الذات عن طريق مهنة بدلًا من الزواج، فنعمَ وحبّذا. لكنّ العديد من الشابات يتجاهلن حقيقة أنّ هناك مهنًا كثيرة لا تؤمّن أية بيئة مناسبة، ولا تقدّم أية فرصة للتعبير عن الذات. وإضافة إلى ذلك، لا يدركن أن أقلية من النساء فقط، مثل أقلية الرجال، لديهن أي شيء يستحق التعبير عنه على نحو خاص[1].

وهكذا، لا يبقى لنورا سوى الانطباع المبهج بأنها إذا اختارت مهنة، فهي أيضًا تختار العزوبة. فإذا كانت لديها أية أوهام حول الجمع بين الزواج والمهنة، فإن الوظيفيّ يلومها:

كم فردًا... يستطيع أن يتابع بنجاح مهنتين في الوقت ذاته؟ ليسوا كثرًا. يستطيع الشخص الاستثنائي ذلك، أما الشخص العادي فلا يستطيع. مشكلة الجمع بين الزواج والتدبير المنزلي، من جهة، ومهنة أخرى، من جهة ثانية، صعب على نحو خاص لأنّ الأرجح أن يتطلب المسعيان مواصفاتٍ من طبيعتين مختلفتين. فالأولى تتطلّب، حتى تكون ناجحة، إنكار الذات، أما الثانية فتتطلب تعزيز الذات. الأولى تتطلب التعاون، أما الثانية فتتطلب المنافسة... هناك فرصة أعظم للسعادة، إذا كان الزوج والزوجة يكمّلان بعضهما بدل أن يكون هناك تكرار في الوظيفة...[2].

وفقط في حال كانت لدى نورا أية شكوك بخصوص التخلي عن طموحاتها المهنية، تُقدّم لها هذه العقلنة المريحة:

يجب أن تعرف المرأة، التي هي ربة منزل حقيقية، شيئًا عن التعليم والديكور الداخلي والطبخ والغذائيات والاستهلاك وعلم النفس والفزيولوجيا والعلاقات الاجتماعية والموارد المجتمعية والملابس والتجهيزات المنزلية والسكن

(1) Ibid., pp. 62 ff.
(2) Ibid., pp. 74-76.

والصحة ومجموعة من الأشياء الأخرى... هي طبيب عام ممارس أكثر مما هي اختصاصية...

لا يجب أن يراود الشابة، التي تتخذ القرارات بخصوص التدبير المنزلي، أدنى شعور بالدونية... قد يقول أحدهم، كما يفعل البعض: «يستطيع الرجال أن تكون لهم مهن لأنّ النساء يصنعن البيوت». وقد يقول أحدهم إن النساء متحررات من ضرورة كسب الأجر، وإنهن حرّات في تكريس وقتهن لمسألة التدبير المنزلي المهمة جدًا لأن الرجال متخصصون في كسب الرزق. أو قد يقول أحدهم إن كاسب الرزق والمدبرة المنزلية يشكلان معًا مزيجًا متنامًا لا يعلى عليه[1].

ليس هذا المرجع في الزواج هو الأكثر حذاقة في مدرسته. من السهل جدًا تقريبًا أن نرى أنّ حجته الوظيفية لا تقوم على تسلسل حقيقي للحقيقة العلمية (من الصعب القول علميًا «هذا هو الوضع، وبالتالي هذا ما يجب أن يكون»). ولكن، هذا هو جوهر الوظيفية التي وصلت إلى الهيمنة على كل علم الاجتماع الأمريكي في هذه الفترة، سواء سمّى عالم الاجتماع نفسه «وظيفيًا» أم لا. كُلّفت الشابات- في الكليات التي لن تنزل قط إلى مستوى إعطاء «الدروس بطريقة تمثيل الأدوار» في ما يسمّى المقرر العائلي الوظيفي- بدراسة الكتاب المرجعي «تحليل الأدوار الجنسية في البنية الاجتماعية للولايات المتحدة» لتالكوت بارسونز (Talcott Parsons)، والذي يؤكد أن الدور الوحيد للمرأة هو «ربة المنزل» يُغزل عليه تأكيد متنوع عن «الحياة الأسرية» و«الفتنة» و«العِشرة الطيبة».

قد يكون من المبالغة القول إن الرجل البالغ لا يستطيع إلّا في حالات استثنائية جدًا أن يشعر باحترام الذات بصدق، ويستمتع بمنزلة محترمة في عيون الآخرين، إذا كان «لا يكسب عيشه» عن طريق دور مهني مقبول... أما في حالة الدور الأنثوي، فإن الوضع يختلف كليةً... فمنزلة المرأة الأساسية هي تلك التي تتمتع بها بوصفها زوجة زوجها، وأم أولادها...[2]

(1) Ibid., pp. 66 ff.
(2) Talcott Parsons, ''Age and Sex in the Social Structure of the United States,'' in *Eassays in Sociological Theory*, Glencoe, I11., 1949, pp. 223 ff.

يصف بارسونز، وهو عالم اجتماع محترم جدًا وباحث نظري وظيفي رائد، ببصيرة نافذة ودقة مصادر التوتّر في هذا «الفصل بين الأدوار الجنسية». ويشير إلى أنّ الجانب «المنزلي» من دور ربة المنزل «قد تراجع في أهميته إلى نقطة بالكاد يقارب فيها عملًا بدوام كامل لشخص نشيط»: إنّ «نموذج الفتنة يترافق، ولا مناص، مع مستوى عمري مبكر نسبيًا»، وبالتالي، «مع تزايد العمر، تنتج توترات خطيرة عن مشكلة التكيّف»، حتى أنّ نموذج «الشريك الطيب»، الذي يتضمن رعاية «إنسانوية» للفنون والرفاه المجتمعي، «يعاني من نقص في المكانة الممأسسة كليةً... فقط هؤلاء الذين يتمتعون بمبادرة وذكاء قويين هم من يحققون تكيّفات مُرضية تمامًا في هذا الاتجاه». وهو يصرّح إنه «من الواضح تمامًا أنّ الدور الأنثوي البالغ ينطوي على توتّر وعدم أمان كافيان لتوقّع حدوث مظاهر واسعة الانتشار تتجلّى على شكل سلوك عُصابي». لكنّ باسونز يحذّر:

من الممكن، بالطبع، للمرأة البالغة أن تعيش وفق النموذج المذكّر، وتبحث عن عمل في مجالات الإنجاز المهني في منافسة مباشرة مع رجال من طبقتها. لكن، من الملاحظ أنه على الرغم من التقدم الكبير في تحرير النساء من النموذج المنزلي التقليدي، فإن جزءًا صغيرًا جدًا قد مضى بعيدًا في هذا الاتجاه. من الواضح أيضًا أن التعميم لن يكون ممكنًا إلا مع تغيّرات عميقة في بنية العائلة.

ليس من شأن المساواة الحقيقية بين الرجال والنساء أن تكون «وظيفية»؛ إذ لا يمكن المحافظة على الوضع الراهن إلّا إذا كانت الزوجة والأمّ ربة منزل فقط أو، على الأكثر، صاحبة «عمل» لا صاحبة «مهنة» يمكن أن تمنح المرأة منزلة مساوية لتلك التي لزوجها. وهكذا، يجد بارسونز الفصل الجنسي «وظيفيًا» من حيث المحافظة على البنية الاجتماعية كما هي، وهو ما يبدو أنه همّ الوظيفيّ الرئيسي.

تتعارض المساواة المطلقة في الفرص بوضوح مع أي تضامن إيجابي في العائلة... فحين تكون النساء المتزوجات موظفات خارج المنزل، يكون ذلك،

للغالبية العظمى منهن، في مهن ليست على منافسة مباشرة على المنزلة مع تلك التي لرجال من طبقتهن ذاتها. تمضي اهتمامات النساء، ومعيار المحاكمة المطبق عليها في مجتمعنا، بعيدًا باتجاه التزيين الشخصي... ويُقترح أن يتعلق هذا الاختلاف وظيفيًا بالمحافظة على تضامن العائلة في بنيتنا الطبقية(1).

حتى عالمة الاجتماع البارزة ميرا كومارونسكي (Mirra Komarovsk)، التي يعدّ تحليلها الوظيفي لكيفية تعلّم الفتيات أن «يلعبن دور المرأة» في مجتمعنا ألمعيًا بالفعل، لا تستطيع أن تتخلص تمامًا من القالب الصارم الذي تفرضه الوظيفية: التكيّف مع الوضع الراهن. لأنّ تقييد ميدان بحث المرء بوظيفة مؤسسةٍ واحدةٍ في نظام اجتماعي معين، دون أخذ بدائل في الحسبان، يؤمّن عددًا غير محدود من التسويغات لجميع التباينات والمظالم في ذلك النظام. ليس مفاجئًا أن يكون العلماء الاجتماعيون قد بدؤوا يخطئون في وظيفتهم معتبرين أنها مساعدة الفرد على «التكيّف» في «دوره» في ذلك النظام.

لا يستطيع نظام اجتماعي أن يعمل إلّا لأن الأغلبية الساحقة قد كيّفت نفسها، على نحو ما، مع موقعها في المجتمع، وتؤدي الوظائف المتوقعة منها... من الواضح أن الاختلافات في تنشئة الجنسين تتعلق بالأدوار العائدة لكل منهما في الحياة الناضجة. تتدرّب مدبّرة المنزل المستقبلية على دورها ضمن المنزل، لكنّ الفتى يستعدّ لدوره بإعطائه مزيدًا من الاستقلالية خارج المنزل، عن طريق «توزيع الصحف»، أو القيام بعمل صيفي. يستفيد مورّد مادة ما من الاستقلالية والهيمنة والتحدي في السوق والتنافسية(2).

يكمن خطر «التنشئة التقليدية» للفتيات، كما تراه عالمة الاجتماع هذه، في فشلها المحتمل «في أن تطوّر في الفتاة الاستقلالية والموارد الداخلية

(1) Talcott Parsons, ''An Analytical Approach to the Theory of Social Stratification," *op. cit.*, pp. 174 ff.

(2) Mirra Koramovsky, *Women in the Modern World: Their Education and Their Dilemmas*, Boston, 1953, pp. 52-61.

وتلك الدرجة من توكيد الذات التي ستطلبها الحياة منها» في دورها بوصفها زوجة. وتتابع بالتحذير الوظيفي:

حتى إذا اعتبر أحد الأبوين عن حق [كذا] بعض السمات التقليدية للدور الأنثوي بلا قيمة، فإنه يخلق مخاطر للفتاة بإجبارها على الضلال بعيدًا عن الأعراف المقبولة لعصرها... حتى الخطوات نفسها، التي يجب أن يقوم بها الأهل لإعداد بناتهم لمواجهة الضرورات الاقتصادية والمسؤوليات العائلية للحياة العصرية، قد توقظ تطلعات، وتطوّر عادات تتنازع مع مقوّمات معينة لأدوارهنّ الأنثوية، على النحو الذي حُدّدت فيه هذه الأدوار اليوم. والتعليم نفسه، الذي يُفترض أن يجعل من ربة المنزل الجامعية خميرة ثقافية في عائلتها ومجتمعها، قد يطوّر لديها اهتمامات أحبطتها مراحل أخرى من التدبير المنزلي... إننا نتحمل خطر إيقاظ اهتمامات وقدرات تتعارض مرّة أخرى مع التعريف الحالي للأنوثة[1].

وتتابع لتستشهد بالحالة الأخيرة لفتاة أرادت أن تصبح عالمة اجتماع. كانت مخطوبة إلى جندي في الجيش لم يردها أن تعمل. وهي ذاتها كانت تأمل ألّا تجد عملًا جيدًا في علم الاجتماع.

كانت تشعر أن عملًا غير مرضٍ من شأنه أن يجعل من السهل عليها في المستقبل أن تتوافق في النهاية مع رغبات زوجها المستقبلي، حاجات البلد إلى عمال مدرّبين، عدم اليقين من مستقبلها، اهتماماتها الحالية، ومع ذلك استلمت عملًا روتينيًا. المستقبل وحده سيخبرها إن كان قرارها حكيمًا. إذا عاد خطيبها من الجبهة، وإذا جرى الزواج، وإذا كان قادرًا على إعالة العائلة دون مساعدتها، وإذا لم تُطعن أمنياتها المحبطة في الظهر، فلن تأسف على قرارها...

قد تكون أفضل فتاة متكيّفة، في اللحظة التاريخية الراهنة، هي تلك الذكية بما يكفي لتكون جيدة في المدرسة، لكنها ليست حادة الذكاء بحيث تحصل على علامات تامة...، مؤهلة ولكن ليس في مجالات جديدة نسبيًا للنساء؛ قادرة على الوقوف على قدميها وكسب معيشتها ولكن ليست معيشة جيدةً إلى حد منافسة الرجال؛ مؤهلة للقيام بعمل ما حسنًا (في حال لم تتزوج،

(1) Ibid., p. 66.

أو مضطرة للعمل) ولكنها ليست متطابقة مع مهنة لدرجة أن تحتاج إليها من أجل سعادتها[1].

وهكذا، فباسم التكيّف مع التعريف الثقافي للأنوثة، تنتهي عالمة الاجتماع الألمعية هذه -التي من الواضح أنها لا تؤمن بذلك التعريف (فتلك الكلمة «عن حق» تخونها)، وهي عمليًا تقرّ بالتطفيل المستمر للنساء الأمريكيات، فيما عدا الحالات التي يكون له النتيجة غير المقصودة المتمثلة بجعل «الانتقال من دور الابنة إلى دور الزوجة أصعب على الابنة مما هو الانتقال إلى دور الزوج على الابن».

منطقيًا، يُفترض أنه إلى الحدّ الذي تبقى فيه المرأة أكثر «طفولية»، وأقل قدرة على اتخاذ قراراتها، وأكثر اعتمادًا على أحد أبويها أو على كليهما في تشكيل سلوكها ومواقفها وتوجيههما، وأكثر تعلقًا بهما حتى أنها تجد من الصعب عليها الانفصال عنهما أو مواجهة رفضهما... أو تظهر أية مؤشرات أخرى على نقص التحرّر العاطفي إلى ذلك الحد، قد تجد أنه أصعب عليها، مما هو على الرجل، أن تنسجم مع المعيار الثقافي المتمثل بالولاء أساسًا للعائلة التي ستؤسسها فيما بعد. يُحتمل، بالطبع، أن يكون الأثر الوحيد للحماية المفرطة هو أن يخلق في المرأة تبعيّة معمّمة ستنتقل فيما بعد إلى الزوج وستمكّنها من أن تقبل باستعداد كامل دور الزوجة في عائلة ما تزال تتمتع بالعديد من السمات البطريركية[2].

وهي تجد دليلًا، في عدد من الدراسات، على أنّ فتيات الجامعة، في الحقيقة، أكثر طفولية وتبعية للأهل وارتباطًا بهم من الفتيان، ولا ينضجن، كما يفعل الفتيان، بتعلّم الوقوف وحدهن. ولكنها لا تستطيع أن تجد دليلًا -في عشرين نصًا عن الطب النفسي- على أن هناك، بناءًا على ذلك، مشاكل ناتجة عن المصاهرة مع أهل الزوجة أكثر مما هناك مع أهل الزوج.

(1) Ibid., pp. 72-74.
(2) Mirra Koramovsky, ''Functional Analysis of Sex Roles,'' *American Sociological Review*, August, 1950. See also ''Cultural Contradictions and Sex Roles,'' *American Journal of Sociology*, November, 1946.

من الجلي أنه، مع دليل كهذا فقط، يمكن لوظيفيّ أن يضع براحةِ التطفيل المتعمّد للفتيات الأمريكيات موضع التساؤل!

كانت الوظيفية مخرجًا سهلًا لعلماء الاجتماع الأمريكيين. لا يمكن أن يكون هناك شكّ في أنهم وصفوا الأشياء «كما هي»، لكنهم، في قيامهم بذلك، تحرّروا من مسؤولية بناء نظرية مستمدة من الحقائق ومن السبر بحثًا عن حقيقة أعمق. وتحرّروا أيضًا من الحاجة إلى أسئلة وأجوبة استنباطية ستكون ولا شكّ خلافية (في وقتٍ لم يكن فيه الخلاف مرحبًا به في الدوائر الأكاديمية، كما في أمريكا كلها). افترضوا حاضرًا أبديًا، وأقاموا تفكيرهم على رفض إمكانية مستقبل مختلف عن الماضي. وبالطبع يمكن لتفكيرهم أن يصمد فقط طالما أنّ المستقبل لم يتغير. وكما أشار سي. بي. سنو (C. P. Snow)، فإن العلم والعلماء مستقبليو التفكير. لكنّ العلماء الاجتماعيين كانوا، تحت راية الوظيفية، راهني التفكير بتصلّب أنكروا معه المستقبل؛ وفرضت نظرياتهم تحيّزات الماضي، ومنعت التغيير فعليًا.

وتوصّل علماء الاجتماع أنفسهم مؤخرًا إلى خلاصة مفادها أنّ الوظيفية «محرجة» نوعًا ما، لأنها فعلًا لم تقل شيئًا قط. وكما أشار كينغسلي ديفيس (Kingsley Davis) في خطابه الرئاسي حول «خرافة التحليل الوظيفي كطريقة خاصة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا» في الجمعية السوسيولوجية الأمريكية في عام 1959:

> لقد كان «التحليل الوظيفي»، خلال ما يزيد على ثلاثين سنة، موضوع جدل بين علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا... ومهما كان إستراتيجيًا في الماضي، فقد أصبح الآن عائقًا أمام التقدم العلمي، لا سندًا له... إن الاعاء بأن الوظيفيّة لا تستطيع معالجة التغيّر الاجتماعي، لأنها تضع مجتمعًا ساكنًا متكاملًا، هو ادعاء صحيح بالبداهة...[1].

(1) Kingsley Davis, ''The Myth of Functional Analysis as a Special Method in Sociology and Anthropology,'' *American Sociological Review*, Vol. 24, No. 6, December, 1959, pp. 757-772.

يشير ديفيس إلى أن الوظيفة أصبحت متطابقة إلى هذه الدرجة أو تلك مع علم الاجتماع =

لسوء الحظ، تأثرت المواضيع الجنسية للتحليل الوظيفي به بعمق. في وقت التغيير الكبير للنساء، في وقتٍ كان يجب أن يساعد فيه التعليم والعلم والعلوم الاجتماعية النساء على سد الثغرة، حوّلت الوظيفية «ما هو» للنساء، أو «ما كان»، إلى «ما يجب أن يكون». هؤلاء الذين قاموا بالاحتجاج الأنثوي، وجعلوا من كون المرء امرأة، أكثر بكثير مما يمكن أن يكون، وباسم الوظيفية أو نتيجة أية عقدة ذات أسباب شخصية أو فكرية، أغلقوا بابَ المستقبل على النساء. وفي الشأن المتعلق بالتكيّف كله، نُسيت حقيقة واحدة: كانت النساء يُكيَّفن في وضع أدنى من قدراتهن الكاملة. لم يقبل الوظيفيون كليّةً الفكرة الفرويدية بأن «التشريح هو القدر»، لكنهم يقبلون بصدقٍ تحديدًا مقيّدًا للنساء بنفس الدرجة: المرأة هي كما يعرِّفها المجتمع. ودرس معظم الأنثروبولوجيين الوظيفيين مجتمعاتٍ كان قدر المرأة فيها يتحدّد بالتشريح.

كان لمارجريت ميد التأثير الأقوى على النساء المعاصرات من حيث الوظيفية والاحتجاج الأنثوي. لقد كان لعملها في مجال الثقافة والشخصية -كتابًا إثر كتاب، ودراسة إثر دراسة- أثر عميق في نساء جيلي، والجيل الذي سبقه، والجيل الذي يكبر الآن. كانت، وما تزال، رمز المرأة المفكرة في أمريكا. لقد كتبت ملايين الكلمات في السنوات الثلاثين ونيّف ما بين كتابها (Coming of Age in Samoa) في عام 1928، وآخر مقالة كتبتها

= نفسه. هناك دليل استفزازي على أن دراسة علم الاجتماع نفسها، في السنوات الأخيرة، قد أقنعت النساء الجامعيات بتقييد أنفسهن بدورهن الجنسي التقليدي «الوظيفي». يبين تقرير حول «وضع النساء في علم الاجتماع المهني» أنه في حين أن معظم طلاب علم الاجتماع في المرحلة الجامعية الأولى هم من النساء، فقد كان هناك انخفاض حاد من عام 1949 إلى عام 1958 في عدد الدرجات العلمية، في علم الاجتماع، الممنوحة للنساء. (من 4143 إجازة جامعية عام 1949 إلى 3200 عام 1955 وإلى 3606 عام 1958). وفي منح نصف إلى ثلثي الدرجات العلمية للمرحلة الجامعية الأولى في علم الاجتماع إلى نساء، فإن النساء لم يتلقين سوى 25-43٪ من شهادات الماجستير، و8-19٪ من شهادة الدكتورة. وفي حين أن عدد النساء الحاصلات على شهادات عليا في جميع الميادين قد انخفضت بحدة خلال حقبة اللغز الأنثوي، فإن ميدان علم الاجتماع قد أظهر، بالمقارنة مع الميادين الأخرى، معدل «وفيات» عاليًا على نحو غير عادي.

حول النساء الأمريكيات في صحيفة **نيويورك تايمز** أو مجلة **ريدبوك**. وكتاباتها تدرسها فتيات يأخذن مقررات في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس والتربية والزواج والحياة العائلية في صفوف جامعية؛ ويدرسها في الدراسات العليا أولئك الذين سيدرّسون الفتيات، ويقدّمون استشارات للنساء؛ ويدرسها في كليات الطب أطباء الأطفال المستقبليون والأطباء النفسيون؛ وحتى في مدارس اللاهوت، يدرسها كهنة شباب تقدميون. كما تقرؤها فتيات ونساء من جميع الأعمار في المجلات النسائية وملاحق أيام الأحد، حيث تنشر بالسهولة نفسها التي تنشر فيها في المجلات الفكرية. مارجريت ميد هي أفضل مبسّط لأفكارها و يُستشعر تأثيرها في كل مستوى تقريبًا من مستويات الفكر الأمريكي.

لكن كان تأثيرها بالنسبة للنساء مفارقة، لغزًا يأخذ ما يحتاج إليه من أي مفكّر في ذلك الوقت. ربما أخذ اللغز الأنثوي من مارجريت ميد رؤيتها للتنوّع اللامتناهي للأنماط الجنسية والطراوة الهائلة للطبيعة الإنسانية، طبيعة تستند إلى اختلافات الجنس والمزاج التي وجدتها في ثلاثة مجتمعات بدائية: الأرابيش، حيث كل الرجال والنساء «أنثويون» و«أموميون» في الشخصية، وسلبيون جنسيًا لأنهم، جميعًا، تدربوا على أن يكونوا متعاونين وغير عدوانيين، ويستجيبون لحاجات ومطالب الآخرين؛ والمندوغومر، حيث الزوج والزوجة عنيفان وعدوانيان، ويمارسان قدرتهما الجنسية إيجابيًا و«مذكّران»؛ والتشامبولي[1]، حيث المرأة هي الشريك المهيمن الذي يدير بشكل لا شخصي، والرجل هو الشخص الأقل مسؤولية والتابع عاطفيًا.

إذا كان بالإمكان رفع هذه المواقف المزاجية التي نظرنا لها تقليديًا على أنها أنثوية- كالسلبية والاستجابية والاستعداد للتعلق بالأطفال- بسهولة على أنّها نمط مذكّر في قبيلة، ومحرّمة على غالبية النساء، وكذلك على غالبية الرجال

(1) Arapesh، وMundugumor، وTchambuli: أقوام بدائية تعيش في إقليم بابوا في غينيا الجديدة - المترجم.

في قبيلة أخرى، لا يعود لدينا أي أساس للنظر إلى جوانب السلوك تلك على أنها متصلة بالجنس... توحي المادة بأننا نستطيع القول إنّ الكثير من سمات الشخصية التي أسميناها مذكّرة أو مؤنثة، إن لم يكن جميعها، لا تتصل إلا قليلًا بالجنس، كاتصال الملابس والسلوك وشكل غطاء الرأس التي يعزوها مجتمع معين في عصر معين لكل جنس[1].

لعل الرؤية، التي انتقلت من تلك المشاهدات الأنثروبولوجية إلى الثقافة الشعبية، رؤية ثورية فعلًا للنساء الحرّات أخيرًا في تحقيق قدراتهن كاملة في مجتمع استبدل التحديدات الجنسية الاعتباطية باعتراف بالمواهب الفردية الحقيقية كما تحدث في كل جنس من الجنسين. كانت لديها تلك الرؤية أكثر من مرة:

حيث تكون الكتابة مقبولة على أنها مهنة يمكن أن يسعى وراءها كل من الجنسين، وتناسبه تمامًا، يجب عدم منع الأفراد الذين يتمتعون بموهبة الكتابة عنها نتيجة جنسهم، كما لا يجب أن يشكّوا، إذا كانوا يكتبون فعلًا، بذكورتهم أو أنوثتهم الجوهرية... وهنا يمكن أن نجد مخطط الطابق الأرضي لبناء مجتمع من شأنه أن يستبدل الفروق الحقيقية بتلك الاعتباطية. يجب أن ندرك أنه تحت تصنيفات الجنس والعرق السطحية توجد الإمكانيات ذاتها، وتتكرّر جيلًا بعد جيل، لتفنى وحسب، لأنّ المجتمع ليس فيه مكان لها.

تمامًا مثلما يسمح المجتمع الآن بممارسة فنّ من الفنون لأفراد من أي من الجنسين، فقد يسمح كذلك بتطوير مواهب مزاجية متعاكسة عديدة في كل جنس. سيتخلى عن محاولاته المتنوعة لجعل الصبيان يقاتلون، وجعل الفتيات يبقين سلبيات، أو لجعل جميع الأطفال يقاتلون... ليس من شأن أي طفل أن يتشكل، على نحو صارم، في نمط واحد من السلوك، بل بالعكس، يجب أن تكون هناك أنماط عديدة، في عالم تعلّم أن يسمح لكل فرد بالنمط الأكثر ملاءمة لمواهبه[2].

لكن ليست هذه هي الرؤية التي أخذها اللغز من مارجريت ميد، ولا

(1) Margret Mead, *Sex and Temperement in Three Primitive Societies*, New York, 1935, pp. 279 f.

(2) Margret Mead, *From the South Seas*, New York, 1939, p 321.

هي الرؤية التي تستمر في تقديمها. إذ يغيم تفسيرها، على نحو متزايد، في صفحاتها، ويتحوّل على نحو حاذق إلى تمجيد للنساء في دورهن المؤنث كما تحدّدَ بوظيفتهن البيولوجية الجنسية. وتبدو في بعض الأوقات وكأنها تفقد وعيها الأنثروبولوجي حول طراوة الشخصية الإنسانية، وتنظر إلى البيانات الأنثروبولجية من وجهة نظر فرويدية، حيث تقرّر البيولوجيا الجنسية كل شيء، فالتشريح قدر. وتبدو، في بعض الأحيان، وكأنها تجادل بتعابير وظيفية، وهكذا، ففي حين إن إمكانيات المرأة عظيمة ومتنوعة عظمة وتنوّع الإمكانيات الإنسانية غير المحدودة، يفضّل أن نحتفظ بالقيود البيولوجية الجنسية التي أرستها الثقافة. وأحيانًا، تقول الأمرين في الصفحة ذاتها، بل وتبدي نبرة تحذير من المخاطر التي تواجهها المرأة في محاولتها لتحقيق إمكانيةٍ إنسانيةٍ اعتبرها مجتمعها مذكّرة.

الاختلاف بين الجنسين هو أحد الشروط المهمة التي بنينا عليها التشكيلات العديدة من الثقافة الإنسانية التي تمنح الإنسان الكرامة والمكانة... كانت ميزة معينة تضفى أحيانًا على أحد الجنسين، وأحيانًا على الجنس الآخر. الآن، الصبيان هم من يُعتقد أنهم حسّاسون جدًا وبحاجة إلى رعاية مدلّلة خاصة، الآن، ... يعتقد بعض الناس أن النساء أضعف من أن يعملن خارجًا، فيما يرى آخرون أن النساء يحتملن الأعباء الثقيلة «لأنّ رؤوسهن أقوى من رؤوس الرجال»... لقد عزت بعض الأديان، بما في ذلك أدياننا التقليدية الأوروبية، للنساء دورًا أدنى في التراتبية الدينية، في حين بنت أديان أخرى كل علاقتها الرمزية مع عالم ما فوق الطبيعة على أشكال من المحاكاة المذكّرة لوظائف النساء الطبيعية... وسواء كنا نتعامل مع أمور صغيرة أم كبيرة، مع الأمور الصغيرة المتعلقة بالحلي ومواد التجميل أم مع قداسات مكانة الإنسان في الكون، فإننا نجد هذا التنوع الهائل في الطرق، المتعارضة غالبًا مباشرة بعضها مع بعض، والتي جرى فيها تنميط أدوار الجنسين.

لكننا نجد التنميط دائمًا. لا نسمع بأية ثقافة قالت، بلا مواربة، إنه لا يوجد فرق بين الرجال والنساء إلّا في الطريقة التي يسهمون فيها في خلق الجيل التالي؛ وإنهم، من جهة أخرى، ببساطة وفي جميع المجالات، بشر يتمتعون

بمواهب مختلفة، لا يمكن لأي منها أن تكون مقصورة على أي من الجنسين.

هل نتعامل مع ضرورة، لا نتجرأ على الهزء بها، لأنها متجذرة عميقًا في طبيعتنا البيولوجية اللبون إلى حد أن الهزء بها يعني مرضًا فرديًا واجتماعيًا؟ أم مع ضرورة، على الرغم من أنها ليست متجذرة إلى تلك الدرجة من العمق، فهي مناسبة جدًا اجتماعيًا ومُجرَّبة جدًا إلى درجة أنه لن يكون من المفيد أن نهزأ بها؛ ضرورة تقول، على سبيل المثال، إنه سيكون من الأسهل أن نجعل الأطفال يولدون ويتغذون إذا نمّطنا سلوك الجنسين على نحو مختلف جدًا، وعلمناهم أن يسيروا ويلبسوا ويتصرفوا بطرق متعاكسة وأن يتخصصوا في أنواع مختلفة من العمل؟[1].

وفي موضع آخر:

يجب أن نسأل أيضًا: ما هي إمكانيات اختلافات الجنس؟... إذا كان على الفتيان الصغار أن يواجهوا، ويستوعبوا، الصدمة المبكرة المتمثلة في معرفة أنهم لا يستطيعون أن يخلقوا طفلًا، مع التأكد واليقين بأنّ ذلك حق للمرأة بالولادة، فكيف يجعلهم ذلك أكثر طموحًا، على نحو خلّاق، وكذلك أكثر اعتمادًا على الإنجاز؟ وإذا كان للفتيات الصغيرات إيقاع نموّ يعني أنّ جنسهن يبدو لهن أصلًا أقل تأكدًا من أخوتهن، وبالتالي، يعطيهن إشارة زائفة صغيرة إلى إنجاز تعويضي يخمد دائمًا تقريبًا قبل يقين الأمومة، فربما يعني هذا تحديدًا لحسّهن بالطموح، ولكن، ما الإمكانيات الإيجابية الموجودة أيضًا؟[2]

تخون مارجريت ميد، في هذه الفقرات من كتاب ذكر وأنثى، وهو الكتاب الذي أصبح حجر الزاوية للّغز الأنثوي، توجهها الفرويدي، على الرغم من أنّها تمهّد بحذر لكل جملة تدلّ على حقيقة علمية بكلمة «إذا» صغيرة. لكنها «إذا» مهمة جدًا. لأنه عندما تصبح الفروق الجنسية أساس مقاربتك للثقافة والشخصية، وعندما تفترض أن الجنسانية هي القوة المحركة للشخصية الإنسانية (افتراض أخذته من فرويد)، وعندما، فوق ذلك، تعرف، كأنثروبولوجي، أن ليس هناك فروق جنسية صحيحة لكل ثقافة

(1) Margret Mead, *Male and Female*, New York, 1955, pp. 16-18.
(2) Ibid., p. 26.

إلا تلك المتضمنة في فعل الإنجاب، فستعطي، ولا شك، ذلك الاختلاف البيولوجي الوحيد، الاختلاف في الدور الإنجابي، أهمية متزايدة في تحديد شخصية المرأة.

لم تخفِ مارجريت ميد حقيقة أنّ المبادئ الفرويدية القائمة على مناطق الجسم كانت، بعد عام 1931، جزءًا من التجهيزات التي أخذتها معها في رحلاتها الميدانية الأنثروبولوجية(1). وهكذا، بدأت تساوي «تلك الجوانب الإبداعية الجازمة من الحياة، التي تقوم عليها البنية الفوقية لحضارة ما»، بالقضيب، وتحدّد الإبداع الأنثوي على أساس «الاستقبالية السلبية» للرحم.

سأكون، في مناقشة الرجال والنساء، مهتمة بالفروق الأساسية بينهما، الفرق في أدوارهما الإنجابية. فيما عدا الأجساد المخلوقة وفق أدوار تكمّل بعضها بعضًا لاستمرار الجنس البشري، ما الفروق التي تظهر في أداء الوظيفة أو في القدرات أو في الحساسيات أو في نقاط الضعف؟ كيف يتعلق ما يستطيع الرجال أن يقوموا به بحقيقة أن دورهم الإنجابي ينتهي في فعل واحد، وما الذي تستطيع النساء القيام به فيما يتعلق بحقيقة أن دورهن الإنجابي يستغرق تسعة أشهر من الحمل، وإلى وقت قريب، عدة أشهر من الإرضاع الطبيعي؟ ما إسهام كل جنس، منظورًا إليه كما هو، وليس على أنه مجرد نسخة غير تامة من الآخر؟

بما أننا نعيش في العالم المعاصر، لابسين ومكبوتين ومجبرين على نقل إحساسنا بأجسامنا بلغة الرموز البعيدة، مثل عصي المشي والمظلات والحقائب، فمن السهل أن نفقد رؤيةَ مخططِ الجسم البشري عن كثب. ولكن، عندما يعيش المرء وسط شعوب بدائية، حيث لا ترتدي النساء سوى مريلة

(1) Ibid., footnotes, pp. 289 f:

لم أبدأ العمل جديًا على موضوع مناطق الجسم إلى أن ذهبت إلى أرابيش عام 1931. وفي حين كنت مطلعة عمومًا على عمل فرويد الأساسي في هذا الموضوع، فإنني لم أرَ كيف يمكن تطبيقه ميدانيًا حتى قرأت تقرير غيزا روحيم Geza Roheim الميداني الأول «التحليل النفسي لأنماط الثقافة البدائية» ... ثم أرسلت إلى الوطن لأطلب ملخص أعمال ك. أبراهام K. Abraham. وبعد اطلاعي على معالجة إريكسون المنهجية لهذه الأفكار، أصبحت جزءًا عضويًا من تجهيزاتي النظرية.

صغيرة مصنوعة من العشب، وحتى هذه قد يطرحنها لإهانة بعضهن البعض أو ليستحممن في مجموعة، ولا يرتدي الرجال سوى شريط رخو التثبيت من لحاء الشجر المدقوق على شكل حرف (G)... ولا يلبس الأطفال الصغار أي شيء على الإطلاق، تصبح الاتصالات الأساسية التي تجري بين الأجساد حقيقية جدًا. لقد اخترعنا في مجتمعنا الآن طريقة علاجية يمكن أن تستنبط بجهد من ذكريات العُصابي، أو الخيالات المطلقة للذُهاني، كيف شكّل الجسم البشري ومداخله ومخارجه أصلًا نظرة الفرد المتنامية عن العالم[1].

في الواقع، بدت عدسة «التشريح قدر» صحيحة على نحو خاص لرؤية ثقافات وشخصيات ساموا ومانوس وأرابيش ومندوغومر وتشامبولي وآيتمول (Iatmul) وبالي (Bali)؛ صحيحة، كما لم تكن صحيحة قط، في ذلك التشكيل، لفيينا عند نهاية القرن التاسع عشر أو أمريكا في القرن العشرين.

كان القدر ما يزال هو القدر في الحضارات البدائية لجزر بحر الجنوب عندما زارتها مارجريت ميد لأول مرة. أمكن لنظرية فرويد، بأن الغرائز البدائية تحدّد شخصية البالغ، أن تجد إثباتًا مقنعًا. لم تشكّل الأهداف المعقّدة للحضارات الأكثر تقدمًا حينها -والتي يدير العقل البشري فيها الغريزة والبيئة، ويحولهما، على نحو متزايد- المصفوفةَ غير القابلة للنقض لكل حياة إنسانية. لابدّ أنّ رؤية الفروق البيولوجية بين الرجال والنساء على أنها القوة الأساسية في الحياة لدى تلك الشعوب البدائية العارية كانت أسهل بكثير. ولكن، لا يمكن إلّا إذا ذهبت إلى جزيرة كتلك، واضعًا عدسةً فرويديةً على عينك، ومتقبلًا، قبل أن تبدأ، ما أسماه بعض الأنثروبولوجيين غير الموقرين نظرية ورق التواليت في التاريخ، أن تستنتج من المشاهدات في الحضارات البدائية عن دور الجسد العاري، للذكور والإناث، درسًا للمرأة العصرية يفترض أن الجسد العاري يمكن أن يقرّر، بالطريقة ذاتها، مسار الحياة الإنسانية والشخصية في حضارة حديثة معقدة.

---

(1) Ibid., pp. 50 f.

الأنثروبولوجيون، اليوم، أقل ميلًا إلى أن يروا في الحضارة البدائية مخبرًا لمراقبة حضارتنا، نموذجًا مصغّرًا ترتسم عليه الأمور غير ذات الصلة؛ فالحضارة ليست مجرّد موضوع غير ذي صلة.

بما أنّ الجسد الإنساني لا يتغير بين قبائل بحر الجنوب البدائية وفي المدن الحديثة، يمكن لأنثروبولوجيّ، يبدأ بنظرية نفسية تختصر الشخصية الإنسانية والحضارة بتشابهات جسدية، أن ينتهي ناصحًا النساء المعاصرات بالعيش بأجسادهن بالطريقة ذاتها التي تعيش فيها نساء بحار الجنوب. المشكلة هي أن مارجريت ميد لم تستطع أن تعيد تكوين عالم، كعالم بحر الجنوب، لنعيش فيه: عالم تكون فيه ولادة طفل قمة التحقق الإنساني. (إذا كان الإنجاب الحقيقة الرئيسية والوحيدة للحياة الإنسانية، فهل سيعاني جميع الرجال اليوم من «حسد الرحم»؟).

في بالي، تسير البنات الصغيرات اللواتي أعمارهن بين الثانية والثالثة معظم الوقت ببطون صغيرة بارزة عمدًا، وتنقر النساء الأكبر سنًا عليها ملاعبات حين يمررن. ويداعبنهن قائلات: «حامل». وهكذا، تتعلم البنت الصغيرة أنها، على الرغم من أن علامات عضويتها في جنسها قليلة، إذ ليس نهداها سوى زرّين صغيرين ليسا أكبر من نهدي شقيقها، وأعضاؤها التناسلية مجرد ثنية بسيطة غير واضحة؛ ستصبح ذات يوم حاملًا، وذات يوم ستلد، وأن ولادة طفل هي، بالعموم، واحد من أروع الإنجازات الأكثر التي يمكن أن تعرض لعيني الأطفال الصغار في تلك العوالم البسيطة التي لا يرتفع أعلى مبنى فيها أكثر من خمسة عشر قدمًا، ولا يتجاوز أكبر قارب عشرين قدمًا طولًا. إضافة إلى ذلك، تتعلم الفتاة الصغيرة أنها ستلد طفلًا، لا لأنها قوية أو مليئة بالطاقة أو مبتكرة، ولا لأنها تعمل وتكافح وتحاول، وفي النهاية تنجح، بل ببساطة لأنها فتاة وليست صبيًا، والفتيات يتحولن إلى نساء، وفي النهاية –إذا حافظن على أنوثتهن– يلدن أطفالا[1].

كم هي مغرية، لامرأة أمريكية في القرن العشرين تنافس في مجال يتطلب المبادرة والطاقة والجهد، وفيه يمتعض الرجال من نجاحها، لامرأة

(1) Ibid., pp. 72 ff.

ذات إرادة وقدرة على المنافسة أقل من تلك التي لمارجريت ميد، رؤية عالم بحر الجنوب ذاك حيث تنجح المرأة، ويحسدها الرجال لمجرد أنها امرأة.

> في رؤيتنا الغربية للحياة، تستطيع النساء المخلوقات من ضلع الرجل، في الحد الأقصى، أن يكافحن بلا نجاح لتقليد قوى الرجل المتفوقة ومهنه العليا. لكنّ الفكرة الأساسية في الدين الشعائري هي أنّ النساء، بفضل قدرتهن على إنجاب الأطفال، يحملن سرّ الحياة. دور الرجل غير أكيد وغير محدّد وربما غير ضروري. وبجهد كبير توصّل الرجل إلى طريقة للتعويض عن نقصه الأساسي. يستطيع الرجال -مساحين بأدوات غامضة متنوعة تصدر ضجيجًا، تكمن قوتها في بقاء أشكالها الفعلية غير معروفة لأولئك الذين يسمعون أصواتها -وهكذا، يجب ألّا تعرف النساء والأطفال أنها في الواقع آلات ناي (flute) من الخيزران أو زنود خشبية مفرغة -أن يأخذوا الأطفال الذكور بعيدًا عن النساء، ويَسِمونهم كناقصين، ويقومون، هم أنفسهم، بتحويل الصبيان إلى رجال. صحيح أن النساء يصنعن البشر، لكن الرجال فقط هم من يستطيع أن يصنع الرجال[1].

صحيح أن هذا المجتمع البدائي كان «بنية مزعزعة محمية بعددٍ لامتناهٍ من المحرمات والمحاذير» -بخجل النساء وخوفهن المرفرف وغفرانهن تفاهة الذكور- ولم يتمكن من الاستمرار إلا بقدر ما حافظ الجميع على القواعد. «لقد كسر المبشّر الذي أرى النساء آلات الناي الثقافةَ بنجاح»[2]. لكنّ مارجريت ميد، التي قد تكون أرت الرجال والنساء الأمريكيين «نايات» محرماتهم ومحاذيرهم وخجلهم ومخاوفهم وغفرانهم تفاهة الذكور الاعتباطية والمزعزعة، لم تستخدم معرفتها بتلك الطريقة. خارج الحياة بالطريقة التي كانت عليها -في ساموا وبالي حيث حسدَ جميعُ الرجال النساءَ- رفعت مارجريت ميد مثالًا للنساء الأمريكيات أعطى واقعًا جديدًا لبنية التحيّز الجنسي المزعزعة: اللغز الأنثوي.

اللغة أنثروبولوجية، والنظريةُ، المُقَدَّمة على أنها حقيقة، فرويديةٌ، لكنّ

(1) Ibid., pp. 84 ff.
(2) Ibid., p. 85.

التوق هو للعودة إلى جنة عدن: جنة لا تحتاج فيها النساء إلّا إلى نسيان «السخط الإلهي» الذي وُلد من التعليم ليعدن إلى عالم يصبح فيه الإنجاز المذكّر مجرد تعويض بائس عن الحمل.

مشكلة الحضارة المتكررة هي تحديد الدور الذكوري على نحو مرض بما يكفي –سواء كان بناء الجنائن أو تربية القطيع، قتل الطرائد أو قتل الأعداء، بناء الجسور أو تداول الأسهم المصرفية- بحيث قد يصل الذكر، في مجرى حياته، إلى معنى ملموس لإنجاز لا يمكن الرجوع عنه، كانت معرفة طفولته عن الإشباع الذي يمنحه الحمل قد أعطته فكرة عنه. في حالة النساء، من الضروري فقط أن يسمح لهن بموجب الترتيبات الاجتماعية المعينة بتحقيق دورهن البيولوجي، لإحراز هذا الشعور بالإنجاز الذي لا رجعة عنه. إذا كانت النساء سيشعرن بالقلق والتساؤل، حتى في مواجهة الحمل، فلا بدّ أن يصبحن كذلك عن طريق التربية[1].

لم يكن ما أخذه اللغز الأنثوي من مارجريت ميد هو رؤيتها إمكانية المرأة الإنسانية العظيمة غير المختبرة، بل ذاك التمجيد للوظيفة الجنسية المؤنثة، التي اختبرت بالفعل في كل ثقافة، ولكن قلّما اختبرت في الثقافات المتحضرة، والتي تقدّر عاليًا إمكانية الإبداع الإنساني غير المحدودة، الذي قدّمه الرجل بشكل رئيسي، حتى الآن. كانت الرؤية التي أخذها اللغز من مارجريت ميد هي لعالم تكسب فيه النساء، لمجرّد أنهن نساء يلدن الأطفال، الاحترام ذاته الممنوح للرجال على إنجازاتهم الإبداعية –كما لو أن امتلاك الرحم والثديين يضفي على النساء مجدًا لا يمكن أن يعرفه الرجال، حتى إذا عملوا طيلة حياتهم لخلقه. في ذلك العالم، كل الأشياء الأخرى، التي تستطيع المرأة أن تقوم بها أو تكونها، هي مجرد بدائل للحمل بطفل. وتصبح الأنوثة أكثر من تحديدها من قبل المجتمع؛ تصبح قيمة يجب أن يحميها المجتمع من هجوم الحضارة المدمر مثل الجاموس المعرض للانقراض.

جعلت صفحات مارجريت ميد البلاغية عددًا كبيرًا من النساء

(1) Ibid., pp. 125 ff.

الأمريكيات يحسدن الأنوثة الصافية لامرأة عارية النهدين من ساموا، ويحاولن أن يحوّلن أنفسهن إلى بدائيات ضعيفات، نهود غير مقيدة بحمالة النهدين التي صنعتها الحضارة، وأدمغة لا تزعجها المعرفة التي صنعها الإنسان حول أهداف التقدم الإنساني.

لمجال النساء المهني البيولوجي بنية أوجيّة (climax) طبيعية يمكن تغطيتها وإسكاتها وكبتها وإنكارها علنًا، ولكنها تبقى عنصرًا جوهريًا في نظرة الجنسين إلى نفسيهما... تتحدث الفتاة البالينيزية الشابة التي يقول لها أحدٌ ما: «اسمك آي تيوا؟» فتشدّ قامتها وتجيب: «أنا أمّ باوا» على نحو قاطع. هي أمّ باوا؛ وباوا قد يموت غدًا، لكنها تبقى أمّ باوا؛ وفقط إذا مات قبل أن يعطى اسمًا، يناديها جيرانها «الأم المجرّدة». وهكذا، تقف مرحلة بعد مرحلة في تواريخ حيوات النساء منجزة نهائية لا جدل فيها. وهذا يعطي أساسًا طبيعيًا لتأكيد الفتاة الصغيرة على الوجود أكثر من تأكيدها على العمل. يتعلم الصبي الصغير أنّ عليه أن يتصرف مثل صبي، أن يقوم بالأشياء، ويثبت أنه صبي، ويثبت ذلك المرة تلو المرة، في حين تتعلم الفتاة الصغيرة أنها فتاة، وأن كل ما عليها القيام به هو الإحجام عن التصرف مثل صبي[1].

وهكذا تجري الأمور باستمرار حتى يميل المرء إلى القول: وماذا إذًا؟ أنت تولدين، تكبرين، تحبلين، تلدين طفلًا، يكبر الطفل؛ هذا صحيح في كل الثقافات المدوّنة وغير المدوّنة، تلك التي نعرفها من الحياة، وتلك المبهمة التي لا يعرفها إلّا الأنثروبولوجي الذي سافر بعيدًا. ولكن هل هذا كل ما في الحياة للمرأة اليوم؟ .

ليس الأمر إنكارًا لأهمية البيولوجيا حين نشكك في تحديد طبيعة المرأة القائم كليةً على اختلافها البيولوجي عن الرجل. قد تكون بيولوجيا الأنثى -«المجال المهني البيولوجي» للمرأة- ثابتة -هي نفسها في نساء العصر الحجري منذ عشرين ألف سنة، ونساء ساموا في الجزر النائية والنساء الأمريكيات في القرن العشرين- لكنّ طبيعة العلاقة الإنسانية مع البيولوجيا

(1) Ibid., pp. 135 ff.

تغيّرت. لقد أعطتنا معارفنا المتزايدة والقوة المتزايدة للذكاء الإنساني إدراكًا بالغايات والأهداف يتجاوز الحاجات البيولوجية البسيطة من جوع وعطش وجنس. وحتى هذه الحاجات البسيطة ليست لدى الرجال والنساء اليوم نفسها كما كانت في العصر الحجري أو ثقافات بحر الجنوب، لأنها الآن جزءٌ من نمط أكثر تعقيدًا من الحياة الإنسانية.

كانت مارجريت ميد بالطبع تعرف ذلك بوصفها أنثروبولوجية. وتوجد في جميع كلماتها التي تمجّد الدور الأنثوي كلمات أخرى تصوّر عجائب عالم تستطيع النساء فيه أن يحققن كل إمكانياتهن. لكنّ هذه الصورة مكسوّة تقريبًا، وعلى نحو ثابت، بالحذر العلاجي والفوقية التلاعبية اللذين يعتبران حالة نموذجية لدى كثيرين من العلماء الاجتماعيين الأمريكيين. عندما يتّحد هذا الحذر مع مبالغة في تقييم قوة العلم الاجتماعي، لا لمجرّد فهم الثقافة والشخصية، بل ولترتيب حياة المجتمع، فإنّ كلماتها تكتسب هالة حملة عنيفة قويمة؛ حملة عنيفة ضد التغيير. وهي تنضمّ إلى العلماء الاجتماعيين الوظيفيين الآخرين في توكيدهم على التكيّف مع المجتمع كما نجده، على عيش حيواتنا ضمن إطار التحديدات الثقافية التقليدية للأدوار المذكّرة والمؤنثة. وهذا الموقف واضح في الصفحات الأخيرة من كتاب **ذكر وأنثى** Male and Female.

إنّ إعطاء كل جنس ما يستحقه، اعتراف كامل بحساسياته وحاجاته إلى الحماية، يعني النظر إلى ما وراء التشابهات السطحية خلال فترة الطفولة المتأخرة، حين يبدو كلّ من الصبيان والفتيات، وقد وضع كل منهما جانبًا العديد من مشاكل التكيّف الجنسي، توّاقين للتعلم، وبالتالي قادرين على تعلّم الأشياء ذاتها... لكنّ كل تكيّف يقلّل من اختلاف أو حساسية لدى أحد الجنسين، أو من نقطة قوة تفريقية لدى الجنس الآخر، يقلّل من إمكانيتهما على إكمال أحدهما الآخر، ويقابل –رمزيًا– منع الوصول إلى الاستقبالية البنّاءة للأنثى والفاعلية البناءة المتجهة خارجًا القوية للذكر، مسكتًا إياهما معًا في النهاية ليتحوّلا إلى نسخة أكثر مللًا من الحياة الإنسانية يُحرَم كل

منهما فيها من اتساع الإنسانية التي كان يمكن لكل منهما أن يحصل عليها[1].

ليس هناك موهبة إنسانية قوية بما يكفي حتى تزهر تمامًا لدى شخص مهدّد بخسارة عضوية الجنس... بغض النظر عن أية نية طيبة قد نباشر بها برنامجًا لتربية الرجال والنساء على أن يقدموا إسهاماتهم الكاملة والخاصة في كل العمليات المعقدة للحضارة -الطب والقانون، التربية والدين، الفنون والعلوم- فإن المهمة ستكون صعبة جدًا...

ليس لتعبئة مواهب النساء سوى قيمة مشكوك فيها، إذا كان إدخالهن إلى مجالات حُدّدت أصلًا على أنها ذكرية يخيف الرجال، ويُفقد النساء قوتهن الجنسية، ويقمع الإسهام الذي يمكن أن تقدمه النساء، ويشوهه، إما لأنّ وجودهنّ يستبعد الرجال من المهنة، أو لأنّه يغيّر نوعية الرجال الذين يدخلونها... من الحماقة أن نتجاهل الإشارات التي تحذّرنا إلى أن الشروط الحالية التي تُغرَى فيها النساء بفعل فضولهن ودوافعهن التي تطورت في ظل النظام التعليمي نفسه مثل الرجال... سيئة لكل من الرجال والنساء[2].

كان من شأن دور مارجريت ميد، بوصفها الناطقة المهنية باسم الأنوثة، أن يكون أقل أهمية لو أن النساء الأمريكيات قد أخذن العبرة من حياتها، بدلًا من الاستماع إلى ما قالته في كتبها. لقد عاشت مارجريت ميد حياةً من التحدي المفتوح، وعاشتها بفخر كامرأة، إذا كانت أحيانًا واعية لذاتها. لقد تحرّكت على تخوم الفكر وأضافت إلى البنية الفوقية لمعارفنا، وأظهرت قدرات أنثوية تتجاوز بكثير ولادة طفل، وشقّت طريقها فيما كان ما يزال إلى حدّ بعيد «عالم الرجل» دون إنكار أنها امرأة؛ وفي الحقيقة، أظهرت في عملها معرفة امرأة فريدة لم يكن في مقدور أي أنثروبولوجي ذكر أن ينافسها. بعد قرون عديدة من سلطة ذكرية غير قابلة للجدل، كم من الطبيعي لشخص أن ينادي بسلطة أنثوية. ولكن الرؤى الإنسانية العظيمة المتعلقة بإيقاف الحروب وشفاء المرض وتعليم الأعراق أن تعيش معًا وبناء مباني جديدة وجميلة للناس حتى يعيشوا فيها، هي أمور أكثر من «طرق أخرى في إنجاب الأطفال».

---

(1) Ibid., pp. 274 ff.
(2) Ibid., pp. 278 ff.

ليس من السهل محاربة التحيّزات القديمة جدًا. لكن، بوصفها عالمة اجتماعية وامرأة، وجّهت ضربات معينة للصورة المتحيّزة عن المرأة قد تستمر طويلًا بعد حياتها. ففي إصرارها على أن النساء كائنات بشرية - كائنات بشرية فريدة، لا رجال ينقصهم شيء ما- خطت خطوة أبعد من فرويد. ولكن، لأنّ ملاحظاتها كانت تستند إلى مشابهات فرويد الجسدية، فقد اختصرت رؤيتها للنساء بتمجيد معجزة الأنوثة اللغزية، التي تحققها النساء ببساطة لمجرد أنهن نساء، تاركات النهود تكبر، ودم الطمث يتدفق، والطفل يرضع من الثدي المنتفخ. وتعبر مارجريت ميد مرة أخرى عن خيار غير ضروري عندما تحذّر النساء اللواتي يبحثن عن الإنجاز خارج دورهن البيولوجي من أنهن يعرّضن أنفسهن لخطر أن يتحولن إلى ساحرات فاقدات لقدرتهن الجنسية. وتقنع النساء الأصغر سنًا بأن يتخلّين عن جزء من إنسانيتهن التي كسبنها بجهد كبير حتى لا يخسرن أنوثتهن. وفي النهاية، فعلت الشيء ذاته الذي حذّرت منه؛ إذ أعادت في عملها خلق الحلقة المفرغة التي كسرتها في حياتها:

> قد نصعد السلّم من الفروق الجسدية البسيطة عبر التمايزات المتمّمة التي تبالغ في التأكيد على دور الاختلاف في الجنس، ونوسّع ذلك على نحو غير مناسب إلى جوانب الحياة الأخرى، إلى قوالب جاهزة من تلك النشاطات المعقدة كتلك الداخلة في الاستخدام الشكلي للذكاء، في الفنون وفي الإدارة الحكومية وفي الدين.
>
> لقد وجد هذا الميل إلى القيام بتحديدات اصطناعية تقصر نشاطًا ما على جنس واحد وتلك النشاطات التي تعتبر مجد الجنس البشري، والتي يعتمد عليها أملنا في البقاء في هذا العالم الذي بنيناه، في جميع إنجازات الحضارة المعقدة هذه، ونحن، بإنكارنا الإمكانيات الفعلية للكائنات البشرية، لا نحدّ الرجال والنساء معًا وحسب، بل وبنفس الدرجة، نحدّ تطوّر النشاط نفسه...
>
> هنا، توجد حلقة مفرغة لا يمكن أن نحدّد فيها بداية ولا نهاية، وفيها تقود مبالغة الرجال في تقدير أدوار النساء، أو مبالغة النساء في تقدير أدوار الرجال، أحد الجنسين، أو الآخر، إلى انتحال جزء من إنسانيتنا التي فزنا

بها بعد جهد جهيد أو إهماله أو حتى التنازل عنه. وهؤلاء الذين من شأنهم أن يكسروا الحلقة، هم نفسهم، نتاج لها، ويعبّرون عن بعض عيوبها في كل إيماءة، وقد لا يكونون أقوياء بما يكفي إلّا لتحديها، وليسوا قادرين على كسرها فعلًا. ومع ذلك، عندما يتمّ تحديدها وتحليلها، فيجب أن يكون ممكنًا خلق مناخ من الرأي يستطيع فيه آخرون -هم بدرجةٍ أقلّ نتاج الماضي الأسود لأنهم نشؤوا حاملين في يدهم ضوءًا يمكن أن يشعّ إلى الخلف وكذلك إلى الأمام- أن يقوموا، بدورهم، بالخطوة التالية[1].

ربما كان الاحتجاج الأنثوي خطوةً ضروريةً قامت بها بعض الناشطات النسويات، بعد الاحتجاج المذكر. كانت مارجريت ميد واحدةً من أوائل النساء اللواتي برزن في الحياة الأمريكية بعد الظفر بحقوق المرأة. كانت أمها عالمة اجتماعية وجدّتها مدرّسة؛ وكانت لديها صور خاصة عن نساء استكملن إنسانيتهن تمامًا، وحصلت على تعليم مساو لتعليم أي رجل. وكانت قادرة على القول باقتناع: من الجيد أن تكوني امرأة، لستِ بحاجةٍ لأن تكوني نسخة عن الرجل، تستطيعين أن تحترمي نفسك لأنك امرأة. قامت باحتجاج أنثوي مدوٍّ في حياتها وفي عملها. وكانت خطوة إلى الأمام عندما أثّرت في النساء العصريات المتحررات ليخترن، بناءًا على ذكائهن الحر، أن يلدن أطفالًا، أن يحملن بهم بوعي فخور ينكر الألم، ويرضعنهم في سن الإرضاع، ويكرّسن العقل والجسم للعناية بهم. كانت خطوة إلى الأمام في رحلة النساء المتعلمات الحماسية -وهي خطوة صارت ممكنة بفضل تلك الرحلة- حتى يقلن «نعم» للأمومة كغاية إنسانية واعية لا كعبء يفرضه الجسد. لأنّ حركة الولادة الطبيعية والإرضاع الطبيعي، التي ساعدت مارجريت ميد في إلهامها، لم تكن على الإطلاق عودةً إلى أمومة الأرض- الأم البدائية. هي حركة راقت للمرأة الأمريكية الشجاعة المتعلمة المستقلة، ونظيراتها في أوروبا الغربية وروسيا، لأنها مكّنتها من المرور بتجربة الولادة، لا كحيوانة بلا عقل، لا كموضوع يتعامل معه الطبيب المُولّد، بل كشخص مكتمل، قادرة على التحكم بجسدها بعقلها الواعي. ساعد عمل مارجريت

(1) Ibid., pp. 276-285.

ميد، ربما بدرجة أقل أهمية من ضبط النسل والحقوق الأخرى التي جعلت النساء أكثر مساواة مع الرجلَ، في أنسنة الجنس. لقد احتاج الأمر بائعة علمية خارقة لتعيد في الحياة الأمريكية العصرية خلق مجرد شكل للظروف التي كان رجال القبائل البدائية يقلّدون فيها بحسدِ الأمومة، ويفصدون أنفسهم. (يجتاز الزوج العصري التجارب اللاهثة مع زوجته فيما هي تستعد للولادة الطبيعية). ولكن هل تبيع النساءَ أكثر مما لديها؟

ربما لم يكن خطأها أنها أُخذت بحرفية بحيث أصبح الإنجاب دينًا أو مهنة لدرجة استبعاد كل نوع آخر من السعي الإبداعي، واستمرّت النساء في إنجاب الأطفال لأنهن لم يعرفن طريقة أخرى للإبداع. غالبًا، ما كان يُستشهد بكلامها مقتطعًا من سياقه من قبل الوظيفيين الأقل شأنًا والمجلات النسائية. ولقد تجاهل، هؤلاء الذين وجدوا عملها تأكيدًا لتحيّزاتهم ومخاوفهم التي لا يعترفون بها، لا تعقيد كل عملها فقط، بل والعبرة من حياتها المعقدة أيضًا. وعلى الرغم من كل الصعوبات التي لابدّ وأنها واجهتها رائدةً، كامرأة، مملكة الفكر المجرّد الذي كان مجال الرجل (يشير تقييم نقدي من جملة واحدة لكتاب **الجنس والمزاج** Sex and Temperament إلى الاستياء الذي غالبًا ما واجهته: «مارجريت، هل وجدت حتى الآن ثقافة يلد فيها الرجال الأطفال؟»)، فهي لم تتراجع قط عن الطريق الشاق نحو تحقيق الذات الذي لم تسافر فيه سوى قلّة من النساء منذ ذلك الحين. لطالما قالت للنساء أن يبقين على ذلك الطريق. وإذا كنّ لم يسمعن سوى كلماتها التحذيرية الأخرى، واستجبن لتمجيدها للأنوثة، فذلك ربما لأنهن لم يكنّ واثقات من أنفسهن ومن قدراتهن الإنسانية مثلما كانت هي.

عرفت مارجريت ميد، والوظيفيون الأقلّ شأنًا، آلام اختراق النقد القاسي الاجتماعي القديم ومخاطره[1]. وكانت هذه المعرفة هي المبرر الذي اتخذوه لتخفيف تصريحاتهم بخصوص قدرات النساء، فنصحوهن

(1) Margaret Mead, Introduction to *From the South Seas*, New York, 1939, p. xiii.

بعدم منافسة الرجال، وبالسعي إلى كسب الاحترام لأصالتهن كنساء. من الصعب القول أنها كانت وصية ثورية؛ لم تقلب الصورة التقليدية عن المرأة بأكثر مما قلبها الفكر الفرويدي. ربما كانت نيتهم تحطيم الصورة القديمة، لكنهم بدلًا من ذلك أعطوا اللغز الجديد مرجعيته العلمية.

بدأت مارجريت ميد، ويا للسخرية، في الستينيات تنبّه إلى خطر «عودة امرأة الكهوف»؛ ارتداد النساء الأمريكيات إلى الحياة المنزلية الضيقة، في حين كان العالم يرتجف على حافة المحرقة التكنولوجية. وتساءلت في مقطع من كتاب بعنوان **النساء الأمريكيات: الصورة المتغيّرة** American Women: The Changing Image، ظهر في مجلة ساتردي إيفنينغ بوست (Saturday Evening Post) في 3 آذار/ 1963:

> لماذا عدنا، رغم كل التقدم التكنولوجي، إلى صورة العصر الحجري؟... لقد عادت النساء، كل واحدة إلى كهفها المنفصل، منتظرةً بقلقٍ عودة زوجها وأطفالها، وحارسةً زوجها بغيرةٍ من النساء الأخريات، جاهلةً كليةً تقريبًا بأية حياة خارج باب بيتها... ليست المرأة الفرد هي من يُلقى عليه اللوم في هذا الارتداد إلى الخصوبة. إنه مناخ الرأي الذي تطوّر في هذا البلد...

من الواضح أن مارجريت ميد لا تعترف، أو ربما لا تدرك، دورها الخاص كمهندسة معمارية رئيسية في «مناخ الرأي» ذاك. من الواضح أنها قد تغاضت عن الكثير من عملها، الذي ساعد في إقناع عدة أجيال من النساء الأمريكيات العصريات القادرات «في أسلوب امرأة الكهف اليائسة لتكريس كل حياتهن للحياة المنزلية الضيقة –أولًا في أحلام تلميذة المدرسة والبحث عن أدوار تجعلهن جاهلات بإعجاب، ثم كأمهات، وبعدها كجدّات... قاصراتٍ نشاطاتهن على المحافظة على وجودهن الخاص والمملّ غالبًا».

على الرغم من أن مارجريت ميد قد تبدو الآن وكأنها تحاول إخراج النساء من البيوت، فما زالت تسبغ خصوصية جنسية على كل ما تفعله المرأة. ففي محاولتها لإغراء النساء بعالم العلم الحديث، بوصفهن «أمهات–معلّمات

العلماء الأطفال»، ما زالت تترجم الإمكانيات الجديدة المفتوحة للنساء والمشاكل الجديدة التي تواجههن كعضوات في الجنس البشري إلى تعابير جنسية. لكن، الآن توسّعت «تلك الأدوار التي عادت تاريخيًا إلى النساء» لتشمل المسؤولية السياسية عن نزع السلاح النووي -«ليبقين في الذهن، لا أطفالهن فقط، بل وأطفال العدو أيضًا». لأنها تتوصّل الآن، مبتدئةً بالمقدمة ذاتها، ومتفحصةً المجموعة ذاتها من الأدلة الأنثروبولوجية، إلى دورٍ جنسيّ للنساء مختلفٍ قليلًا؛ دور قد يشكك جديًا بالأساس الذي تقرّر عليه الأدوار التي يجب أن تلعبها المرأة- وتجد من السهل جدًا تغيير أدوار اللعبة من عقد إلى العقد الذي يليه.

لقد توّصل علماء اجتماعيون آخرون إلى خلاصة مدهشة مفادها: «أن تكوني امرأة لم يكن أكثر ولا أقل من أن تكوني إنسانة»[1]. لكنّ تخلفًا ثقافيًا أُدخل في اللغز الأنثوي. فبحلول الوقت الذي كانت فيه قلّةٌ من العلماء تكتشف العيوب في «دور المرأة»، كان المربّون الأمريكيون قد قبضوا عليه مثل كلمات سحرية. وبدلًا من تربية النساء استعدادًا للنضج الأكبر اللازم للمشاركة في المجتمع المعاصر -بكل ما ينطوي عليه ذلك من مشاكل وصراعات وعمل شاق، للمربّين كما للنساء- بدؤوا يربونهن على «لعب دور المرأة».

(1) Marie Johada and Joan Havel, ''Psychological Problems of Women in Different Social Roles - A Case History of Problem Formulation in Research,'' *Educational Record*, Vol. 36, 1955. pp. 325-333.

الفصل السابع

مربّون مُوَجَّهون بالجنس

لابدّ أن الأمر استمر عشرة أعوام أو خمسة عشر عامًا قبل أن يشك به المربّون.. المربّون قدامى الطراز بالطبع. أصيب المربّون الموجّهون بالجنس الجدد بالدهشة، لأنّ أحدًا ما قد أصابته الدهشة. وأصابتهم الصدمة، لأنّ أحدًا ما قد أصابته الصدمة.

الصدمة، اللغز، للساذج الذي راودته آمال عظيمة لأنّ التعليم العالي للنساء تجلّى بارتياد الجامعة من قبل عدد من النساء أكبر من أي وقت مضى، لكن قلّة قليلة منهن كنّ يتابعن بعد الجامعة ليصبحن فيزيائيات أو فيلسوفات أو شاعرات أو طبيبات أو محاميات أو سيدات دولة أو رائدات اجتماعيات أو حتى أستاذات جامعيات. و في السنوات الأخيرة، كان عدد الخريجات الجامعيات اللواتي تابعن ليتميزن في مهنة أو وظيفة أقل من عدد أولئك اللواتي تخرجن قبلَ الحرب العالمية الثانية، **الانقسام العظيم**[1]. وكان عددٌ أقل فأقل من الجامعيات يحضّرن أنفسهن لمهنة أو وظيفة تتطلب ما هو أكثر من الالتزام العَرَضي. كانت فتاتان من كل ثلاثة فتيات دخلن الجامعة يتركنها قبل إنهاءُ الدراسة. وفي الخمسينيات من القرن العشرين،

(1) الانقسام العظيم، أو الانقسام القاري، هو سلسلة من الشقوق الجبلية تمتد من آلاسكا إلى المسكيك، وتشكل الحد الفاصل الرئيسي لشمال أمريكا - المترجم.

لم تُظهر تلك اللواتي بقين في الجامعة، وحتى أكثرهن موهبة، أية إشارة على إرادتهن في أن يصبحن أي شيء أكثر من ربات منازل وأمهات من الضواحي. وفي الحقيقة، بدت الفتيات فجأة للأساتذة في جامعات فاسار وسميث وبرنارد، الذين كانوا يلجؤون إلى وسائل مستميتة لإثارة اهتمامهن بأي شيء يمكن أن تعلمهن إياه الجامعة، عاجزات عن أي طموح وأيّة رؤية وأيّ شغف سوى السعي إلى خاتم زواج. وبَدَون في سعيهن ذاك مستقتلات تقريبًا منذ السنة الجامعية الأولى.

وبعيدًا عن الوفاء لذلك الوهم الذي لا طائل منه والمتزايد شيئًا فشيئًا -أهمية التعليم العالي للنساء- بقي الأساتذة الطهرانيون هادئين في البداية. لكنّ إهمال التعليم العالي ومقاومته من قبل النساء الأمريكيات أخذ في النهاية يظهر في الإحصاءات[1]: في مغادرة رؤساء الجامعات والباحثين

---

(1) Mabel Newcomer, *A Century of Higher Education for Women*, New York, 1959, pp. 45 ff.

زادت نسبة النساء بين طلبة الجامعات في الولايات المتحدة من 21 في المئة عام 1870 إلى 47 في المئة عام 1920؛ وانخفضت إلى 35.2 في المئة عام 1958. أغلقت خمس جامعات نسائية، وتحولت 21 أخرى إلى جامعات مختلطة، واثنتان إلى كليات للراشدين. عام 1956، كانت 3 من كل 5 نساء في الجامعات المختلطة يدرسن مقررات في السكرتارية أو التمريض أو الاقتصاد المنزلي أو التربية. نالت أقل من واحدة من كل 10 درجة الدكتوراة، بالمقارنة مع واحدة من كل 6 عام 1920، و13 في المئة عام 1940. لم يحدث، منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى، أن انخفضت نسب النساء الأمريكيات اللواتي يتلقين درجات مهنية على النحو الذي انخفضت إليه في هذه الفترة. ويمكن أيضًا قياس مدى فشل النساء الأمريكيات على أساس فشلهن في التطور وفق إمكانيتهن. استنادًا إلى Womanpower، من بين جميع النساء الشابات القادرات على القيام بالعمل الجامعي، لا تذهب سوى واحدة من كل أربعة إلى الجامعة، بالمقارنة مع واحد من كل رجلين؛ ولا تقوم سوى واحدة من كل 300 امرأة قادرة على الحصول على شهادة دكتوراة بذلك فعلًا، بالمقارنة مع واحد من كل 30 رجلًا. وإذا استمر الوضع الحالي، فقد تُصنّف النساء الأمريكيات قريبًا بين أكثر النساء «تخلفًا» في العالم. قد تكون الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة التي انخفضت فيها نسبة النساء اللواتي يحصلن على تعليم عالٍ في السنوات العشرين الماضية؛ في حين ارتفعت هذه النسبة بثبات في

والمربّين الذكور للجامعات النسائية؛ وفي خيبة الأمل أو الإحباط المحيّر أو السخرية الباردة بين أولئك الذين بقوا منهم؛ وأخيرًا، في روح الشكّ التي سادت في الكليات والجامعات حول قيمة استثمار الأستاذ وقته في أية فتاة أو امرأة، بغض النظر عما تبدو عليه من موهبة وطموح. توقفت بعض الجامعات النسائية عن العمل؛ وقال بعض الأساتذة في الجامعات المختلطة أن واحدًا من كل ثلاثة مقاعد دراسية في الجامعات يجب ألّا يهدر على النساء؛ وتحدّث رئيس جامعة سارة لورانس، وهي جامعة نسائية ذات قيم فكرية رفيعة، عن فتح المكان للرجال؛ وتنبأ رئيس جامعة فاسار بنهاية كل الجامعات النسائية الأمريكية العظيمة التي كانت رائدة في التعليم العالي للنساء.

عندما قرأت أول إشارات حذرة حول ما كان يجري في التقرير الأولي للدراسة النفسية-الاجتماعية-الأنثروبولوجية التي أجرتها مؤسسة ميلون (Mellon Foundation) حول فتيات جامعة فاسار في عام 1956، قلت في نفسي: «يا للهول! كيف أمكن لفاسار أن تنحطّ هكذا؟»

> الالتزام القوي بنشاطٍ أو مهنةٍ، غير عمل ربة المنزل، نادرٌ جدًا. طالبات كثيرات، ربما الثلث، مهتمات بالدراسات العليا وبالحصول على مهنة كالتدريس مثلًا. لكنّ قلّة منهن تخطط للاستمرار في حياة مهنية إذا كانت ستتعارض مع الاحتياجات العائلية... لكن، بالمقارنة مع فترات سابقة، مثل «مرحلة الناشطات النسويات» على سبيل المثال، فإن عددًا قليلًا من الطالبات

= السويد وفرنسا وبريطانيا وكذلك في الدول الناشئة في آسيا والبلدان الشيوعية. مع حلول الخمسينيات، كانت نسبة النساء الفرنسيات اللواتي يحصلن على التعليم العالي أعلى من الأمريكيات؛ وزادت نسبة النساء الفرنسيات في المهن بأكثر من الضعف في غضون خمسين سنة. ونسبة النساء الفرنسيات في مهنة الطب وحدها هي خمسة أضعاف تلك التي للنساء الأمريكيات؛ و70 في المئة من الأطباء في الاتحاد السوفييتي نساء، بالمقارنة مع 5 في المئة في أمريكا. انظر:

Alva Amyrdal and Viola Klein, *Women's Two Roles - Home and Work*, London, 1956, pp. 33-64.

مهتمات بالسعي وراء مهن تتطلب العمل بجدّ، كالقانون أو الطب، بغض النظر عن الضغوط الشخصية أو الاجتماعية. وبالمثل، لا يجد المرء سوى أمثلة قليلة على شخصيات من مثل إدنا فنسنت ميلاي (Edna St. Vincent Millay)، شخصيات ملتزمات تمامًا بمواهبهن في وقت المراهقة ومقاومات لكل محاولات العبث بها...[1].

وتوسّع تقرير لاحق في ذلك:

اقتنعت طالبات فاسار، علاوة على ذلك، بأن أخطاء المجتمع ستصحّح نفسها تدريجيًا بقليل من التدخّل، أو دون تدخّل مباشر، من جانب طالبات الكليات النسائية... لا تتوقع فتيات فاسار، على العموم، تحقيق الشهرة أو القيام بإسهام طويل الأثر في المجتمع، أو استكشاف المناطق الحدودية أو، بطريقة أخرى، هزّ سكون نظام الأشياء الساكن... لا تتوقف المسألة عند النظر إلى العنوسة على أنها مأساة شخصية وحسب، بل تمتدّ لتعتبر النسل ضرورية للحياة الكاملة؛ وتؤمن طالبة فاسار أنّها على استعداد لتبنّي أطفال، إذا كان ذلك ضروريًا، لتكوين عائلة. باختصار، تحصر هويتها المستقبلية، إلى درجة كبيرة، بدور الزوجة-الأم المتوقع لها... وفي وصف المزايا التي يجب أن يحققها الزوج المثالي، فإنّ غالبية فتيات فاسار واضحات تمامًا في تفضيلهن الرجل الذي يتحمل الدور الأكثر أهمية، ألا وهو الاهتمام بمهنته واتخاذ غالبية القرارات التي تؤثر في الأمور خارج المنزل... إنّ الفكرة القائلة إن الأنثى يجب أن تحاول، في تفكيرهم، اغتصاب امتيازات الذّكر، هي فكرة كريهة من شأنها أن تخرّب جديًا دورهن المتوقّع بوصفهن زوجات مساعدات ومكمّلات مخلصات لرجل البيت[2].

رأيت التغيير، تغييرًا حقيقيًا جدًا، عندما عدت إلى جامعتي عام 1959، لأعيش لمدة أسبوع مع الطالبات في بيت الطالبات في جامعة سميث، ومن ثم انطلقت لأجري مقابلات مع فتيات من كليات وجامعات في عموم أرجاء الولايات المتحدة.

(1) Mervin B. Freedman، "The Passage through College،" in Personality Development During the College Years، ed. by Nevitt Sanford، Journal of Social Issues، Vol. XII، No. 4، 1956، pp. 15 f.

(2) John Bushnel, "Student Culture at Vassar," in *The American College*, ed. by Nevitt Sanford, New York and London, 1962, pp. 509 f.

اشتكى أستاذٌ محبوبٌ في علم النفس على وشك التقاعد: «إنهن ذكيات بما يكفي. لابدّ أن يكنّ كذلك ليصلن إلى هنا الآن. لكنهن ببساطة لا يدعن أنفسهنّ يهتممن. يبدو أنهن يشعرن أنّ ذلك سيقف في طريقهن عندما يتزوّجن المدير الشاب، ويربّين كل أولئك الأطفال في الضواحي. لم أستطع أن أجدول الحلقة الدراسية الأخيرة لطالباتي الممتازات في سنتهن الأخيرة. تداخلت حفلات كثيرة من تلك التي تنظم في البيوت للفتيات قبل الزواج. ولم تعتبر أية واحدة منهن الحلقة الدراسية مهمة بما يكفي لتؤجل حفلتها».

قلت في نفسي: «إنه يبالغ».

التقطتُ نسخة من جريدة الكليّة التي كنت محرّرتها ذات يوم. وصفت الطالبة المحررة الحالية صفًا حكوميًا، كانت خمس عشرة فتاة من الفتيات العشرين فيه يحكن الصوف «بتركيز السيدة دوفارج[1] ذات الوجه المتحّجر. أعلن المدرّس بتحدّ، أكثر مما هو بجدية، أنّ الحضارة الغربية تتجه إلى نهايتها. فتحوّلت الطالبات إلى دفاترهن وكتبن ‹الحضارة الغربية تتجه إلى نهايتها›، كل ذلك دون إسقاط غرزة واحدة».

لمَ يحتجن إلى مثل هذا الإغراء؟ تساءلتُ، متذكرةً كيف كنا نتحلّق بعد الصف لنناقش ما قاله الأستاذ؛ النظرية الاقتصادية، الفلسفة السياسية، تاريخ الحضارة الغربية، علم الاجتماع 21، العلم والخيال، وحتى تشوسر (Chaucer). سألت طالبة شقراء في السنة الأخيرة ترتدي اللباس الجامعي: «ما المقررات التي تهتم بها الطالبات حاليًا؟». ربما الفيزياء النووية؟ الفن المعاصر؟ حضارات أفريقيا؟ فردت عليّ، وهي تحدّق فيّ كما لو أنني ديناصور من عصور ما قبل التاريخ:

«لم تعد الفتيات يهتممن بأشياء من هذا القبيل. نحن لا نريد مهنًا. يتوقع

(1) السيدة دوفارج: إحدى الشخصيات الرئيسية في رواية تشارلز ديكنز قصة مدينتين – المترجم.

أهالنا منا أن نذهب إلى الجامعة. فنذهب جميعًا. أنت منبوذة اجتماعيًا في البيت إذا لم تفعلي. لكن، من شأن الفتاة التي تأخذ جديًا أي شيء تدرسه -كأن ترغب في المتابعة والقيام بأبحاث- أن تعتبر غريبة، غير أنثوية. أعتقد أن كل واحدة تريد أن تتخرج وفي إصبعها خاتم ألماسي. ذلك هو الأمر المهم».

اكتشفت قاعدة غير مكتوبة تمنع «الكلام المتخصص» حول المقررات، الكلام الفكري، في بعض البيوت الجامعية. وفي الحرم الجامعي، بدت الفتيات كما لو أنهن في عجلة من أمرهن، مندفعات... مندفعات. لم يجلس أحد، باستثناء بضع عضوات في الكلية، للحديث في المقاهي الرخيصة أو مخزن الأدوية عند الزاوية. كان من عادتنا أن نجلس ساعات نتناقش حول الحقيقة والفن للفن والدين والجنس والحرب والسلم وفرويد وماركس، وكل الأمور الخطأ في العالم. قالت لي طالبة باردة في سنتها الجامعية قبل الأخيرة:

«نحن لا نضيع وقتنا على هذا النحو. ليس لدينا جلسات هراء حول أشياء مجرّدة. نحن نتحدث، في المقام الأول، عن مواعيدنا مع الشبان. على أية حال، أنا أقضي ثلاثة أيام في الأسبوع خارج الحرم الجامعي. هناك شاب أهتمّ لأمره. أريد أن أكون معه».

واعترفت لي طالبة ذات عينين سوداوين في السنة الأخيرة، كما لو كانت تتحدث عن إدمان سري، أنّها تحب أن تتجول بين رفوف الكتب في المكتبة و«التقاط الكتب التي تثير اهتمامي».

«تتعلمين في السنة الأولى أن تشمخي بأنفك رافضة الذهاب إلى المكتبة. لكن لاحقًا.. حسنًا، يصدمك أنك لن تكوني في الجامعة في السنة القادمة. وفجأةً تتمنين لو أنك قرأت أكثر، وتحدثت أكثر، وأخذت المقررات الصعبة التي حذفتها. وهكذا تعرفين ما أنت مهتمة به. لكني أعتقد

أن هذه الأشياء لا تهمّ عندما تكوني متزوجة. لأنك حينها تهتمين ببيتك وتعليم أطفالك السباحة التزحلق، وفي الليل تتحدثين مع زوجك. أعتقد أننا سنكون أسعد مما كانت عليه الجامعيات من قبل».

تصرفت تلك الفتيات كما لو أن الجامعة مرحلة فاصلة يجب تجاوزها بفارغ الصبر وبكفاءة وبملل، لكن مثل الأعمال، بحيث يمكن أن تبدأ الحياة «الحقيقية». وكانت الحياة الحقيقية تبدأ عندما تتزوجين وتعيشين في بيت في الضواحي مع زوجك وأبنائك. هل كان طبيعيًا تمامًا، هذا الملل وهذه العجلة التي تشبه الأعمال؟ هل كان حقيقيًا هذا الانشغال بالزواج؟ لم تكن الفتيات، اللواتي أنكرن بلا تكلّف أي اهتمام جديّ بتعليمهن مع الحديث عن «عندما أتزوج»، غالبًا مهتمات جديًا برجل معين، كما اكتشفت. لم يكن لدى الفتيات، اللواتي كنّ يردن الانتهاء من العمل الجامعي ليقضين ثلاثة أيام في الأسبوع خارج الحرم الجامعي، أحيانًا موعد حقيقي يردن المحافظة عليه.

في زماني، كانت الفتيات المحبوبات، اللواتي قضين الكثير من عطل نهاية الأسبوع في ييل (Yale)، غالبًا جديات حيال عملهن مثلما هو الحال مع «الذكيات». حتى إذا كنت عاشقة مؤقتًا أو جديةً تمامًا، كنت خلال الأسبوع في الجامعة تعيشين حياة العقل، وتجدينها ممتعة ومتطلبة، وأحيانًا مثيرة، ودائمًا حقيقية. هل يمكن لهؤلاء الفتيات، اللواتي يجب أن يعملن الآن بجدّ أكبر بكثير، وأن يحزن قدرة أكبر بكثير ليدخلن جامعة كهذه في ظروف منافسة متنامية، أن يكنّ فعلًا ضجرات إلى هذه الدرجة من حياة العقل؟

استشعرت تدريجيًا التوتر، الاحتجاج النّكِدَ تقريبًا، الجهد المتعمّد –أو الجهد المجتنب عمدًا– الكامن خلف واجهاتهن الباردة. لم يكن ضجرهن مطابقًا لما يظهر منه. كان دفاعًا.. رفضًا للمشاركة. مثلما تكون المرأة، التي تعتقد أن الجنس إثمٌ، غيرَ حاضرة وهي تمارس الجنس كعمل روتيني،

بل تكون في مكان آخر، كذلك هؤلاء الفتيات، هنّ في مكان آخر. يقمن بالعمل بشكل روتيني، لكنهن يدافعن عن أنفسهن ضد أهواء العقل والروح المجرّدة التي تغرسها فيهن الجامعة -أهواء الفكر غير الجنسية الخطيرة.

شرحت لي طالبة جميلة في السنة الثانية: «الفكرة هي أن تكوني عَرَضية ودقيقة جدًا. لا تتحمسي جدًا تجاه عملك، أو أي شيء آخر. الطالبات اللواتي يأخذن الأمور بجدية كبيرة هنّ، إلى هذه الدرجة أو تلك، موضع شفقة وسخرية. كأن تريدي الغناء، فإذا كنت مصممة جدًا عليه، تجعلين الآخرين غير مرتاحين. غريبة».

وتوسّعت فتاة أخرى: «قد يشعرن بالأسف تجاهك. أعتقد أنك يمكن أن تكوني جدية في عملك، وألّا ينظر إليك على أنك مثقفة تمامًا، إذا كنْت تتوقفين هنا وهناك وتفكرين: أليس هذا هستيريًا جدًا. لأنك تقولين ذلك على نحو ساخر، فلا بأس».

وقالت فتاة تضع شعار أخويّة ما على كنزتها القرنفلية: «ربما يجب أن نأخذ الأمر بمزيد من الجدية. لكن لا تريد أية واحدة أن تتخرج، وتدخل في شيء لا يمكنها استخدامه. إذا كان زوجك رجل مؤسسة ما، فلا يمكن أن تكوني متعلمة بمستوى فائق. فالزوجة مهمة جدًا لمهنة زوجها. ولا يمكن أن تكوني مهتمة جدًا بالفن أو بشيء من ذاك القبيل».

وأخبرتني فتاة انسحبت من مرتبة الشرف في التاريخ: «لقد أحببت الأمر. كنت متحمسة جدًا لعملي إلى حدّ أنني كنت أحيانًا أذهب إلى المكتبة في الثامنة صباحًا ولا أخرج منها حتى العاشرة ليلًا. حتى أنني فكرت في أنني قد أرغب في الذهاب إلى كلية للدراسات العليا أو كلية للحقوق، وأن أستخدم عقلي فعلًا. لكنني فجأة خفت مما قد يحدث. أردت أن أحيا حياة مليئة غنية. أريد أن أتزوج وأن أنجب الأطفال وأن يكون لدي بيت جميل. فجأةً أحسست: لماذا أوجع دماغي؟ وهكذا،

أحاول في هذه السنة أن أحيا حياة كاملة. أحضر المقررات، لكنني لا أقرأ ثمانية كتب، ومع ذلك أشعر أنني أقرأ التاسع. أتوقف وأذهب إلى السينما. كانت الطريق الأخرى أصعب وأكثر إثارة. لا أعرف لماذا توقفت. ربما لأنني فقدت الشجاعة وحسب».

لا تبدو الظاهرة محصورة بكليّة بعينها؛ فالمرء يجدها بين الفتيات في أية كليّة، أو قسم في كلية، ما تزال تعرّض الطلاب لحياة العقل. قالت طالبة في السنة قبل النهائية من جامعة جنوبية: «منذ أن كنت فتاة صغيرة، كان للعلم سحر علي. كنت سأتخصص في علم الجراثيم، وأدخل في مجال أبحاث السرطان. لكني تحوّلت الآن إلى الاقتصاد المنزلي. أدركت أنني لا أريد الدخول في شيء بذلك العمق. لو أنني تابعت، لكنت واحدة من أولئك اللواتي يكرسن كل وقتهن لما يقمن به. استحوذ علي الأمر في أوّل سنتين، حتى أنني لم أكن أغادر المخبر. أحببته، لكني كنت أفتقد الكثير من الأشياء. كنت، إذا خرجت الفتيات للسباحة بعد الظهر، أبقى لأعمل على لطاخاتي وشرائحي. لا توجد فتيات في قسم علم الجراثيم هنا؛ فقط أنا مع ستين شابًا في المخبر. لم أعد أستطيع الاستمرار مع الفتيات اللواتي لا يفهمن في العلوم. لستُ مهتمة جدًا بالاقتصاد المنزلي، مثلما كنت بعلم الجراثيم، لكنني أدرك أنّ التغيير والخروج مع الناس كان أفضل لي. أدركت أن عليَّ ألا آخذ الأمور بكل تلك الجدية. سأعود إلى البيت، وأعمل في مجمع تجاري إلى أن أتزوج».

اللغز، بالنسبة لي، ليس في دفاع تلك الفتيات عن أنفسهن ضد الانخراط في حياة العقل، بل في أنّ المربّين يجب أن يرتبكوا من دفاعهن، أو يلقوا باللوم في ذلك على «ثقافة الطالب»، كما فعل بعض المربّين. الدرس الوحيد، الذي لم يكن بمقدور الفتاة أن تتفادى تعلمه، إلّا بصعوبة، إذا ذهبت إلى الجامعة بين عامي 1945 و1960، هو ألا تهتم، تهتم جديًا، بأي شيء إلى جانب الزواج وإنجاب الأولاد، هذا إذا أرادت أن تكون طبيعية وسعيدة

ومتكيّفة وأنثوية، وأن يكون لديها زوج ناجح وأطفال ناجحون، وأن يكون لها حياة جنسية طبيعية وأنثوية ومتكيّفة وناجحة. قد تكون تعلمت شيئًا من هذا الدرس في البيت، وشيئًا من الفتيات الأخريات في الجامعة، لكنّها تعلمته أيضًا، وبلا شك، من أولئك الذين عُهد لهم تطوير فكرها النقدي الإبداعي: أساتذتها الجامعيين.

لقد جرى تغيير دقيق وغير ملحوظ تقريبًا في الثقافة الأكاديمية للنساء الأمريكيات في السنوات الخمس عشرة الماضية: توجّه مربّيهن الجديد نحو الجنس. فلقد أصبح بعض رؤساء الجامعات وأساتذتها المكلفين بتعليم النساء، تحت تأثير اللغز الأنثوي، مهتمين بالقدرة المستقبلية لطالباتهم على الوصول إلى الرعشة الجنسية، أكثر من اهتمامهم باستخدامهن المستقبلي لذكائهن المدرّب. في الحقيقة، بدأ بعض مربّي النساء الرائدين بإشغال أنفسهم، عن وعي، بحماية الطالبات من غواية استخدام تفكيرهن النقدي الخلاق، مستخدمين الطريقة الحاذقة المتمثلة بتعليمه ألّا يكون نقديًا أو خلاقًا. وهكذا، أضاف التعليم العالي وزنه إلى العملية التي جرى فيها تشكيل النساء الأمريكيات خلال هذه الفترة، على نحو متزايد، وفق وظيفتهن البيولوجية، وعلى نحو متناقص، لتلبية قدراتهن الفردية. لم تستطع الفتيات، اللواتي ذهبن إلى الجامعة، أن يتجنبن، إلّا بصعوبة، تلك النتف من فرويد ومارغريت ميد، أو أن يتجنبن مقررًا في «الزواج والحياة العائلية» بعقائديته الوظيفية حول «كيف تلعبين دور المرأة».

على كل حال، لم يكن التوجه الجديد نحو الجنس في تعليم النساء مقصورًا على مقرر معيّن أو قسم أكاديمي. لقد دخل في جميع العلوم الاجتماعية؛ لكنه أكثر من ذلك، أصبح جزءًا من التعليم نفسه، لا لأن أستاذ اللغة الإنكليزية أو الموجّه أو رئيس الجامعة قد قرأ فرويد وميد، بل لأنّ التعليم كان الهدف الرئيسي للّغز الجديد؛ تعليم الفتيات الأمريكيات مع الفتيان أو مثلهم. إذا كان الفرويديون والوظيفيون على حق، فإن المربّين

مذنبون، وذنبهم هو نزع أنوثة النساء الأمريكيات أو الحكم عليهن بالإحباط بوصفهن ربات منازل وأمهات أو بممارسة مهن خاصة بالنساء العازبات أو بحياة دون نشوة جنسية. كان اتهامًا مُدينًا؛ اعترف العديد من رؤساء الجامعات والمنظّرين التربويين بذنبهم دون تذمّر، ووقعوا في الحقل الموجّه بالجنس. كانت هناك بضع صرخات غضب، بالطبع، من المربّين العتيقين، الذين مازالوا يؤمنون أن العقل أكثر أهمية من فراش الزوجية، لكنهم كانوا في الغالب على وشك التقاعد، وسيحل محلهم عاجلًا مدرّسون أصغر سنًا وأكثر تشربًا عقائديًا للتوجّه بالجنس بكل ما في الكلمة من معنى، أو كانوا غارقين في مواضيعهم الخاصة بحيث لم تكن لهم كلمة تذكر في السياسات العامة للكليّة.

كان المناخ التعليمي العام ناضجًا للحقل الجديد الموجّه بالجنس مع تأكيده على التكيّف. وكان هدف التعليم القديم، المتمثل بتطوير التفكير عن طريق التبحّر القوي في المجالات الفكرية الرئيسية، أصلًا محل ازدراء بين المربّين الذين يركّزون على الطفل. وكان معهد إعداد المدرّسين في كولومبيا المرتع الطبيعي للوظيفيّة التعليمية. ومثلما نفذ علم النفس والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع إلى كامل الجو المدرسي، فإنّ تعليم الأنوثة أيضًا انتشر من ميلز (Mills) وستيفنز (Stephens) ومدارس الفتيات الخاصة (حيث كانت قاعدته تقليدية أكثر منها نظرية) إلى المعاقل الأكثر تفاخرًا في مجموع الكليات الراقية[1] للنساء، وهي الجامعات التي كانت رائدة في التعليم العالي للنساء في أمريكا، وكانت شهيرة بمعاييرها الفكرية المتشددة.

بدلًا من فتح آفاق جديدة وعوالم أوسع أمام النساء الموهوبات، تقدّم

(1) في الأصل: Ivy League، وهو اصطلاح يُستَخدَم لوصف المجتمعات الراقية، ولدى الإشارة بهذا الاصطلاح إلى الجامعات فإن الجامعات المقصودة هي تلك التي تحتل المراتب الأولى في كلفة التعليم وجودته، وعلى رأسها هارفرد، وبراون، وكورنيل، وييل، وبرنكستن، وبنسلفانيا، ودارتموث، وكولومبيا - المترجم.

المربّون الموجهون بالجنس ليعلّموهن التكيّف مع عالم المنزل والأطفال. وبدلًا من تعليم الحقائق، لمواجهة تحيّزات الماضي الشعبية، أو الطرق النقديّة في التفكير التي لا يمكن للتحيّز أن يصمد في مواجهتها، قدّم المربّون الموجهون بالجنس للفتيات خلطةً مركبّة من الوصفات والأحكام غير النقدية المقيّدة للعقل والمؤذية للمستقبل أكثر بكثير من تلك الأوامر والنواهي التقليدية. تمّ معظمها عن وعي، ولأفضل الأسباب المساعدة، من قبل المربّين الذين آمنوا باللغز على النحو الذي قدّمه لهم فيه العلماء الاجتماعيون. حتى إذا لم يجد أستاذ ذكر أو رئيس جامعة هذا اللغز مصدر راحة إيجابي، توكيدًا لتحيّزاته هو، فليس لديه أي سبب لعدم الإيمان به.

تماشت النساء القليلات، اللاتي كن رئيسات جامعات أو أستاذات جامعيات، مع الوضع أو كانت سلطتهن -بوصفهن مدرّسات ونساء- مشكّكًا بها. إذا كنّ عوانس، إذا لم يكن لديهن أطفال، فيحرّم عليهن اللغز أن يتحدثن كنساء. (من شأن كتاب **المرأة العصرية: الجنس الضائع** أن يحرّم عليهن حتى التعليم). كانت العالمة اللامعة -التي لم تتزوج، ولكنها ألهمت أجيالًا عديدة من النساء الجامعيات أن يسعين وراء الحقيقة- موسومة بأنّها معلمة للنساء. لم تسمَّ رئيسة للكلية النسائية التي أوصلت تقليدها الفكري إلى أعلى مستوى؛ وسُلِّم تعليم الفتيات لرجل وسيم ورزين أكثر مناسبةً لتلقين الفتيات عقيدة دورهن الأنثوي المناسب. غالبًا، ما تركت العالمة كلية النساء لترأس قسمًا في جامعة كبيرة حيث حمَلَة شهادة الدكتوراه المحتملون هم، بأمان، من الرجال الذين لم تكن رغبتهم بالمنحة الدراسية وسعيهم وراء الحقيقة يعتبران عائقًا أمام التحقق الجنسي.

من حيث اللغز الجديد، كانت العالمة محل شك، ببساطة لأنّها امرأة. لم تكن تعمل لتعيل منزلها؛ لا بدّ أنها كانت مذنبة بالتزامٍ غير أنثوي حتى تستمر في العمل في مجالها طيلة كل تلك السنوات من العمل الجاد المضني قليل الأجر وصولًا إلى الدكتوراه. وكانت أحيانًا، في دفاعها عن نفسها، تتبنى

البلوزات المزخرفة أو نسخة أخرى غير ضارة من الاحتجاج الأنثوي. (لاحظ مراقب مرةً، في مؤتمرات المحللين النفسيين، أنّ المحلّلات السيدات يموّهن أنفسهن بقبعات أنثوية على الموضة جميلة ومزهّرة من شأنها أن تجعل ربة المنزل العادية من الضواحي تبدو مذكّرة بكل تأكيد). دكتورة في الطب أو حاملة دكتوراه، تقول هذه القبعات والبلوزات المزخرفة: لا تدعوا أحدًا يشكك بأنوثتنا. لكنّ الحقيقة هي أنّ أنوثتهن كانت موضع شك. تبنّت إحدى الجامعات النسائية الشهيرة شعارًا دفاعيًا يقول: «نحن لا نعلّم النساء ليكنّ عالمات، بل نعلّمهن ليكنّ نساء وأمهات». (تعبت الفتيات أنفسهن في النهاية كثيرًا من تكرار هذا الشعار كاملًا، فاختصرنه في ثلاثة حروف «ن و أ»[1]).

لم يصل الجميع في إعداد المناهج الموجهة بالجنس إلى الحدّ الذي وصله لين وايت (Lynn White)، وهو رئيس سابق لميلز كوليج، ولكن، إذا انطلقت من المقدمة القائلة أن النساء يجب ألا يُعلَّمن مثل الرجال، بل من أجل دورهن كنساء، فيجب أن تنتهي تقريبًا بمنهاجه، الذي وصل إلى استبدال الكيمياء الجامعية بمقرّر في الطبخ للمتقدمين.

يبدأ المربّي المُوجَّه بالجنس بقبول فكرة مسؤولية التعليم عن إحباط النساء الأمريكيات، العام والجنسي.

على مكتبي رسالة من أم شابة، تركت الجامعة منذ بضعة سنين:

«لقد أدركت أنني عُلّمت لأكون رجلًا ناجحًا، ويجب أن أتعلم الآن بنفسي أن أكون امرأة ناجحة». لا يمكن التعبير بمزيد من الإيجاز عن انعدام الصلة الأساسي في كثير مما يمرّر على أنه تعليم نسائي في أمريكا... فشلُ نظامنا التعليمي في أن يأخذ في الحسبان هذه الاختلافات الأساسية والبسيطة بين أنماط حياة الرجال والنساء العاديين مسؤول جزئيًا، على الأقل، عن الاستياء والقلق العميقين اللذين يؤثران في ملايين النساء...

(1) في الأصل WAM أي Women and mothers، نساء وأمهات.

سيبدو وكأنّه يجب على النساء، إذا أردن أن يستعدن احترامهن الذاتي، أن يقلبن تكتيكات النسوية القديمة التي أنكرت بسخط الاختلافات المتأصلة في ميول الرجال والنساء الفكرية والعاطفية. لا يمكن للنساء أن ينقذن أنفسهن، في أعينهن هن، من الاعتقاد أنهنّ أدنى شأنًا إلّا بإدراك تلك الاختلافات والإصرار عليها[1].

يساوي المربّي المُوجَّه بالجنس بين «إبداعيتنا الثقافية المبالغ في تقديرها على نحو واسع» و«قبولنا غير النقدي 'للتقدم' على أنه جيد بذاته» و«مذهب الفردانية الأنوية» و«الابتكار» و«البناء المجرد» و«التفكير الكمّي»، والتي فيها، بالطبع، الرمز المرعب هو إمّا الشيوعية أو القنبلة الذرية، بوصفها أمورًا مذكرة. وبالمقابل، هناك مساواة بين «الإحساس بالأشخاص وبما هو مباشر وبالعلاقات النوعية غير المادية، ومقت الإحصاءات والكميات» و«البديهي» و«العاطفي» وجميع تلك القوى التي «تهتم» بما هو «خيّر وحقيقي وجميل ومفيد ومقدّس»، و«تحافظ» عليه، على أنها أمور مؤنثة.

قد يضمّ التعليم العالي المؤنث علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس. («هذه دراسات أقل اهتمامًا بعبقرية الرجل القوي المكللة بالغار»، كما يمتدحها حامي الأنوثة التعليمي. «وهي مكرسّة لاستكشاف قوى المجتمع وقوى العقل الهادئة وغير المرئية... هي تطوّق الانشغال الأنثوي بالمحافظة والدلال»). وهي لا تشمل، إلّا بصعوبة، العلم الصرف (لأن النظرية المجردة والتفكير الكمّي ليسا أنثويين) أو الفنون الجميلة المذكّرة و«المتوهجة والمجردة». لكن الفنون التطبيقية، أو الأقل شأنًا، أنثوية: فن الخزف والنسيج والعمل الذي يصاغ باليد أكثر مما يصاغ بالدماغ. «تحب النساء الجمال بقدر ما يحبه الرجال، لكنهن يردن جمالًا مرتبطًا بعمليات المعيشة... اليد رائعة وتستحق الاحترام مثل الدماغ».

يستشهد المربّون الموجهون بالجنس باستحسان بقول كاردينال

(1) Lynn White, *Educating our Daughters*, New York, 1950, pp. 18-48.

تيسيرانت (Cardinal Tisserant): «يجب تعليم النساء بحيث يكنّ قادرات على النقاش مع أزواجهن». وهو يصرّ قائلًا: دعونا نوقف التعليم المهني للنساء بمجمله؛ فجميع النساء يجب أن يتعلمن كيف يصبحن ربات منازل. حتّى الاقتصاد المنزلي وعلم التدبير المنزلي، كما تُدرّس حاليًا في الجامعة، مذكّرة لأنّها «تقدّم على مستوى التدريب المهني»[1].

ها هنا تعليم أنثوي حقيقةً:

قد يتنبأ المرء بثقة أنّه عندما تبدأ النساء بتمني أمنياتهن المميزة المحسوسة بتعابير منهجية، فلن تقدّم كل كلية نسائية ومؤسسة مختلطة مقررًا نوويًا ثابتًا في العائلة وحسب، بل وستشعّ منها سلسلة مناهج تتعامل مع الغذاء والتغذية والنسيج والألبسة والصحة والتمريض والتخطيط المنزلي والديكور الداخلي وتصميم الحدائق وعالم النبات التطبيقي وتطور الطفل... هل سيكون من المستحيل أن نقدّم مقررًا ابتدائيًا في الغذاء على درجة من الإثارة والصعوبة إلى حدّ يحرّض على العمل بعد الجامعة، كما هي الحال، مع مقرر في الفلسفة بعد الكانطية؟... لنضع جانبًا الكلام عن البروتينات والكربوهيدرات وما شابه، إلّا سهوًا، كما على سبيل المثال حين نشير إلى أنّ كرنب بروكسل الإنكليزي المغلي جدًا ليس فقط أسوأ في الطعم والقوام، بل وفي محتواه البروتيني أيضًا. لمَ لا ندرس نظرية وتحضير طبق من بايلا الباسك أو شيش كباب منقوع جيدًا بالخل أو كلاوي خروف محمّرة بخمر الشيري أو كاري موثوق أو استخدام الأعشاب، حتى تلك التطويرات البسيطة من مثل تقديم الأرضي شوكي مع الحليب الطازج[2].

بالكاد يتأثر المربّي الموجّه بالجنس بالحجة القائلة أنّ المنهاج الجامعي يجب ألّا يتلوّث أو يضعف بمواضيع كالطبخ أو التدريب اليدوي الذي يمكن تعليمه بنجاح في مستوى المدرسة الثانوية. درّس هذه الأمور للفتيات في المدرسة الثانوية، ودرّسها مرة أخرى «بمزيد من التكثيف والخيال» في الجامعة. والفتيان أيضًا، يجب أن يحصلوا على شيء من التعليم «الذي يهتم

(1) Ibid., p. 76.
(2) Ibid., pp. 77 ff.

بالعائلة» ولكن ليس في وقتهم الجامعي الثمين؛ فالتدريب اليدوي المبكر في المرحلة الثانوية كافٍ «لتمكينهم في سنوات مستقبلهم من العمل بسعادة على طاولة النجارة في المرآب أو في الحديقة، محاطين بحلقة معجبة من الأطفال...أو في حفلة شواء»[1].

أصبح هذا النوع من التعليم، باسم التكيّف مع الحياة، حقيقة في حرم العديد من المدارس الثانوية كما في الجامعات. لم يكن من المتخيَّل أن يعود بنمو النساء إلى الوراء، لكنّه ساعد على ذلك بالتأكيد. عندما بدأ المربّون الأمريكيون، أخيرًا، التحقيق في هدر مواردنا الوطنية من الذكاء الإبداعي، وجدوا أنّ الذين خسرناهم، والذين كان يمكن أن يكونوا مثل أينشتاين أو شفايتزر أو روزفلت أو إديسون أو فورد أو فيرمي أو فروست، هم من النساء. لم يذهب إلى الجامعة من بين الأربعين بالمائة الألمع بين حملة الشهادة الثانوية سوى النصف؛ وكان ثلثا النصف الذي توقف من الفتيات[2]. عندما عبر الدكتور جيمس بي كونانت (James B. Conant) البلاد ليتحرّى ما الخطأ في المدارس الثانوية الأمريكية، اكتشف أن الكثير من الطلاب يأخذون مقررات سهلة حول كيفية القيام بالأمور، وهذا لا يوسّع فعلًا عقولهم. ومرة أخرى، كان معظم أولئك الذين كان يجب أن يدرسوا الفيزياء والجبر المتقدم والهندسة التحليلية وأربع سنوات من اللغة -ولم يفعلوا- من الفتيات. كان لديهن الذكاء والملكة الخاصة التي لم تكن مُوَجّهة بالجنس، لكن كان لديهن أيضًا الموقف الموجّه بالجنس القائل أنّ تلك الدراسات «غير أنثوية».

كانت فتاة ما، أحيانًا، تريد أن تأخذ موضوعًا صعبًا، لكن، كان مرشد، أو مدرّس ما، ينصحها بأن ذلك مضيعة للوقت -كما هو، على سبيل المثال، حال الفتاة في مدرسة ثانوية شرقية جيدة التي أرادت أن تصبح مهندسة

(1) Ibid., p. 79.
(2) See: Dael Wolfle, *America's Resources of Specialized Talent*, New York, 1954.

معمارية. ونصحها مرشدها بقوة بعدم التقدم بطلب قبول في أيّ شيء له علاقة بالعمارة، على أساس أنّ النساء نادرات في تلك المهنة وأنّها لن تدخلها على أية حال. لكنّها تقدمت بعناد إلى جامعتين تمنحان درجات في العمارة، وكلاهما، لدهشتها، قبلتاها. فقال لها مرشدها بأنه، على الرغم من قبولها، ليس هناك فعلًا أي مستقبل للنساء في العمارة؛ وأنّ من شأنها أن تقضي عمرها في غرفة رسم. ونُصحت بالذهاب إلى معهد متوسط، حيث سيكون العمل أسهل بكثير من العمارة، وحيث تتعلم كل ما تحتاج إلى معرفته عندما تتزوج[1].

ربما كان تأثير التعليم الموجّه بالجنس أكثر مكرًا في مستوى التعليم الثانوي، ممّا هو في التعليم الجامعي، لأنّ فتيات كثيرات ممّن خضعن له لم يدخلن الجامعة قط. التقطتُ خطة الدرس لواحد من تلك المقررات عن التكيّف الحياتي التي تُدرّس الآن في مدرسة إعدادية في الضاحية التي أعيش فيها. تحت عنوان «الفتاة البارعة» The Slick Chick. يعطي الدرس «أوامر ونواهي وظيفية للمواعدة» إلى فتيات في الحادية والثانية والثالثة عشرة من العمر –نوع من الإدراك المبكّر أو القسري لوظيفتهن الجنسية. وعلى الرغم من أن كثيرات منهن ليس لديهن بعد ما يملأن به حمالة الصدر، يُطلب منهن بمكر عدم ارتداء كنزة دون حمالة، وأن يرتدين شلحات تحت فساتينهن حتى لا يرى الصبيان أجسادهن. من غير المفاجئ أن تصبح فتيات متألقات كثيرات في السنة الثانية في هذه المدرسة واعيات لوظيفتهن الجنسية، ضجرات من جميع المواد في المدرسة، وليس لديهن أيّ طموح سوى الزواج وإنجاب الأطفال. لا يستطيع المرء إلّا أن يتساءل (خصوصًا عندما تحبل بعض تلك الفتيات في السنة الثانية من المدرسة الثانوية، ويتزوجن في عمر الخامسة عشرة أو السادسة عشرة) إن لم يكنّ قد تعلّمن ما يتعلق

(1) Cited in an address by Judge Mary H. Donlon in proceedings of "Conference on the Present Status and Prospective Trends of Research on the Education of Women," 1957, American Council on Education, Washington, D.C.

بوظيفتهن الجنسية أبكر من اللازم، في حين تمضي مواهبهن الأخرى دون أن يلاحظها أحد.

إعاقة الفتيات الموهوبات هذه عن النمو غير الجنسي الطبيعي منتشرة في أرجاء البلاد. ٪15 فقط من بين العشرة بالمائة الأوائل من خريجي المدارس الثانوية الذكور في إنديانا في عام 1955 لم يتابعوا تعليمهم، في حين ٪36 من الفتيات لم يتابعن تعليمهن[1]. وفي السنوات ذاتها التي أصبح فيها التعليم العالي ضرورة لكل من يريد وظيفة حقيقية تقريبًا في مجتمعنا المنفجر، انخفضت نسبة النساء بين طلاب الجامعات سنة بعد سنة. في الخمسينيات، تسرّبت النساء من الجامعات أيضًا بمعدل أسرع من الرجال؛ إذ لم تتخرج سوى ٪37 من النساء مقابل ٪55 من الرجال[2]. وفي الستينيات أصبحت نسبة المتسربين من الرجال من الجامعة مساوية لنسبة النساء[3]. لكن، في هذه الحقبة من المنافسة الحادة على المقاعد الجامعية، تكون كل فتاة تدخل الجامعة مقابل كل شابين «منتقاة بسوية أعلى»، واحتمال تركها الجامعة نتيجة الفشل الدراسي أقل. تتسرب النساء، كما يقول ديفيد ريسمان، إما ليتزوّجن، أو لخشيتهن من أن تشكل كثرة التعليم «عقبة أمام الزوج». لقد انخفض متوسط العمر عند الزواج الأول، في السنوات الخمس عشرة الأخيرة، إلى أصغر عمر في تاريخ هذا البلد، الأصغر بين بلدان العالم الغربي، بلغ تقريبًا المستوى ذاته الذي كان سائدًا في البلدان المسماة الأقل تطورًا. فمع وصول العلم والتعليم إلى بلدان آسيا وأفريقيا الجديدة، يرتفع عمر النساء عند الزواج الآن. واليوم، بفضل تعليم النساء الوظيفي الموجه بالجنس جزئيًا، أصبح معدل الزيادة السكانية السنوية في الولايات المتحدة

(1) See: "The Bright Girl: A Major Source of Untapped Talent," *Guidance Newsletter*. Science Research Associates Inc., Chicago, Ill., May, 1959.

(2) See Dael Wolfle, *op. cit.*

(3) John Summerskill, "Dropouts from College," in *The American College*, p. 631.

بين أعلى المعدلات في العالم - تقريبًا ثلاثة أضعاف ذاك السائد في دول أوروبا الغربية، وتقريبًا ضعف اليابان، وقريب جدًا من ذاك الذي في أفريقيا والهند[1].

وقد لعب المربّون الموجهون بالجنس دورًا مزدوجًا في هذا الاتجاه: بتعليم الفتيات بفعاليةٍ القيام بوظيفتهن الجنسية (والتي ربما سيقمن بها دون ذلك التعليم، وبطريقةٍ يكون احتمال منع نموهن فيها، في الاتجاهات الأخرى، أقل)؛ وبالتخلي عن مسؤوليتهم نحو تعليم النساء، بالمعنى الفكري الصارم. يرجّح أن تقوم النساء بدورهن البيولوجي، وأن يختبرن الحب الجنسي والأمومة، مع تعليم أو دونه. لكن دون تعليم، من غير المرجّح أن تُطوّر النساء، أو الرجال، اهتمامات عميقة تتخطى البيولوجيا.

يجب أن يجعل التعليم -وهو يستطيع ذلك- الشخص «واسعًا في نظرته ومنفتحًا على التجارب الجديدة ومستقلًا ومنظمًا في تفكيره وملتزمًا بعمق ببعض النشاط المنتج، وتستحوذ عليه التقاليد المستندة إلى فهم العالم وتكامل شخصيته»[2]. العائق الرئيسي أمام ذلك النمو لدى الفتيات هو تصورّهن المسبق الصارم حول دور المرأة، الذي يعزّزه المربّون الموجّهون بالجنس، صراحةً أو بعدم توجيه قدرتهم ومسؤوليتهم لاختراقه.

---

(1) Joseph M. Jones, "Does Overpopulation Mean Poverty?" Center for International Economic Growth, Washington, 1962. See also: *United Nations Demographic Yearbook*, New York, 1960, pp. 580 ff.

بحلول عام 1958، كان عدد أكبر من الفتيات في الولايات المتحدة يتزوج بعمر 15-19 أكثر من أية فئة عمرية أخرى. في جميع الدول المتقدمة الأخرى وفي العديد من الدول الناشئة الأقل تطورًا، كانت معظم الفتيات يتزوجن بعمر 20-24 أو بعد الخامسة والعشرين. لم يكن نمط الولايات المتحدة في زواج المراهقات يوجد إلّا في بلدان مثل باراغواي وفنزويلا وهندوراس وغواتيمالا والمكسيك ومصر والعراق وجزر فيجي.

(2) Nevitt Sanford, "Higher Education as a Social Problem" in *The American College*, p. 23.

انكشف ذلك المأزق المُوجّه بالجنس في الأعماق السحيقة لتلك الدراسة المؤلفة من ألف صفحة، الجامعة الأمريكية، عند تحليل «العوامل التي تشكّل دافعًا لدخول الجامعة»، في بحث شمل 1045 فتى و1925 فتاة. تدرك الدراسة أنّ الحاجة إلى الاستقلالية وإيجاد هوية في المجتمع، لا عن طريق الدور الجنسي أساسًا، بل عن طريق العمل، هي ما تجعل الفتيان ينمون في الجامعة. أمّا تهرّب الفتاة من النمو في الجامعة فتشرحه الحقيقة القائلة أنّ الهوية بالنسبة للفتاة جنسيةٌ حصرًا؛ وبالنسبة للفتاة، لا يُنظر إلى الجامعة ذاتها، حتى من قبل هؤلاء العلماء، على أنها المفتاح لهوية أوسع، بل على أنّها «منفذ متخفٍّ للدوافع الجنسية».

مسألة الهوية، بالنسبة للشاب، هي أساسًا مسألة مهنية-حرفية، في حين يعتمد تعريف الذات، بالنسبة للفتاة، بشكل مباشر أكثر، على الزواج. وهذا التمييز يستتبع عددًا من الاختلافات. تتمركز هوية الفتاة على نحو أكثر حصريةً على جنسها-دورها -زوجة من سأكون، وأيّ نوع من العائلة سيكون لدينا- في حين يتشكل تعريف الفتى لذاته حول نواتين، سيكون زوجًا وأبًا (هويته القائمة على الجنس-الدور)، لكنّه سيكون، أيضًا وأساسًا، عاملًا. يتبع ذلك اختلاف ذو صلة وأهمية خاصة في المراهقة: الهوية المهنية هي على العموم مسألة خيار شخصي يمكن أن يبدأ باكرًا، ويمكن أن توجّه إليه جميع موارد التخطيط المعقول والمدروس بعمق. يستطيع الفتى أن يبدأ التفكير والتخطيط لهذا الجانب من هويته مبكرًا... لا تسمح الهوية الجنسية، الحاسمة جدًا للتطور الأنثوي، بجهد واعٍ أو منظم من ذلك القبيل. إنها مسألة رومانسية غامضة مشحونة بالخيال واللغز والوهم. قد تتعلم الفتاة مهارات وأنشطة سطحية معينة عن الدور الأنثوي، لكن، سيُنظر لها على أنّها غير رصينة وغير أنثوية، إذا كانت جهودها تجاه الأنوثة واعية بوضوح شديد. الجوهر الحقيقي للاستقرار الأنثوي -العيش بحميمية مع رجل محبوب- هو توقّع مستقبلي بلا تدريب مسبق. وجدنا أنّ لدى الفتيان والفتيات في المراهقة مقاربات مختلفة للمستقبل؛ فالفتيان يخططون، ويختبرون بفعالية، من أجل تكوين هويات عمل مستقبلية، ويمحّصون بوضوح البدائل في مسعى لإيجاد الدور الذي ينسجم بأقصى راحة مع مهاراتهم واهتماماتهم المعينة وخصائصهم المزاجية

وحاجاتهم. أما الفتيات، فعلى العكس، مأخوذات أكثر بتخيلاتهن عن الفتيان وشعبيتهن والزواج والحب.

من الواضح أن حلم الجامعة يعمل بوصفه بديلًا لانشغال أكثر مباشرةً بالزواج: الفتيات اللواتي، لا يخططن للذهاب إلى الجامعة، هن أكثر وضوحًا في رغبتهن بالزواج، ولديهن حسّ أكثر تطورًا بدور جنسهن. هن أكثر إدراكًا وأكثر انشغالًا بصراحة بالجنسانية... تتبع رؤية الخيال على أنه منفذ للدوافع الجنسية تصور التحليل النفسي العام القائل أن الدوافع الممنوعة من التعبير المباشر عن نفسها ستبحث عن نمط مقنّع من الإشباع[1].

وبالتالي، لا يفاجئهم أنّ 70٪ من النساء الجديدات في جامعة من الغرب الأوسط أجبن على سؤال «ما الذي تأملين أن تخرجي به من الجامعة؟»، من بين أمور أخرى، بـ«رجل لي». كما فسّروا الإجابات التي تشير إلى رغبة في «ترك البيت» أو «السفر» والإجابات المتعلقة بالمهن الممكنة والتي قدمتها نصف الفتيات على أنها رموز على «الفضول تجاه الألغاز الجنسية».

الجامعة والسفر بديلان عن اهتمام أكثر انفتاحًا بالجنسانية. الفتيات اللواتي ينهين دراستهن بالمرحلة الثانوية أقرب إلى القيام بدور جنسي بالغ في زواجات مبكرة، ولديهن تصورات أكثر تطورًا عن دوافعهن الجنسية وأدوارهن الجنسية. أما الفتيات اللواتي يدخلن الجامعة، من الجانب الآخر، فيؤخرن التحقق الجنسي المباشر وتعيين الهوية الجنسية، لفترة من الزمن على الأقل. وخلال الفترة الانتقالية تتحول الطاقة الجنسية، وتشبع عن طريق نظام خيال يركّز على الجامعة وسحر الحياة الجامعية، والتسامي إلى تجربة حسية عامة[2].

لماذا يرى المربّون الفتيات، وفقط الفتيات، من هذا المنظور الجنسي بالكامل؟ فالفتيان أيضًا لديهم دوافع جنسية يمكن أن يتأجل إرضاؤها نتيجة الجامعة. لكن، فيما يخص الفتيان، لا يهتم المربّون بـ«الخيال» الجنسي، بل يهتمون بـ«الواقع»، ويُتوقع من الفتيان أن يحققوا الاستقلالية والهوية الذاتيتين عن طريق «تسليم أنفسهم لعالم ثقافتنا الجدير أخلاقيًا إلى أقصى

(1) Elizabeth Douvan and Carol Kaye, "Motivational Factors in College Entrance," in *The American College*, pp. 202-206.

(2) Ibid., pp. 208 f.

حد -عالم العمل- والذي يُقدّرون فيه كأشخاص ذوي إنجازات وإمكانيات مقدّرة». حتى إذا كانت تصورات الفتيان وأهدافهم المهنية غير واقعية في البداية -وهذه الدراسة أظهرت أنها لم تكن واقعية- فإن المربّين الموجهين بالجنس يدركون أنّ دوافع الفتيان وأهدافهم واهتماماتهم وتصوراتهم المسبقة الطفولية تلك، يمكن أن تتغير. ويدركون أيضًا أنّ آخر فرصة حاسمة للتغير هي، للغالبية، في الجامعة. لكن، من الواضح أنّ الفتيات لا يُتوقع منهن أن يتغيرن، ولا يُعطَين الفرصة لذلك. حتى في كليات التعليم المختلط، لا تحصل إلّا قلة من الفتيات على التعليم ذاته الذي يحصل عليه الفتيان. وبدلًا من تحفيز ما افترض علماء النفس أنّه قد يكون رغبة «كامنة» بالاستقلالية في الفتيات، فإن المربّين الموجهين بالجنس حفّزوا خيالهن الجنسي في تحقيق كل رغبتهن في الإنجاز والمكانة والهوية على نحو غير مباشر عن طريق الرجل. وبدلًا من تحدّي تصوّر الفتيات المسبق الضيّق الصارم الطفولي عن دور المرأة، فإنهم يغذّونه من خلال تزويدهن بخليط من مقررات الفن الحر، التي لا تنفع إلّا للمظاهر الخادعة للزوجات، أو برامج ضيقة من مثل «الغذائيات المؤسسية»، أقل بكثير من قدراتهن، وليست مناسبة إلّا لعمل مؤقت بين الجامعة والزواج.

وكما يعترف المربّون أنفسهم، فإن تدريب الكليات النسائية لا يجهزهن غالبًا لدخول عالم الأعمال أو العالم المهني عند مستوى ذي معنى، سواء عند التخرج أو بعده؛ إنّه غير مجهّز للإمكانات المهنية التي من شأنها أن تبرر التخطيط والعمل المطلوب من أجل التدريب المهني العالي. يقول المربّون الموجهون بالجنس، وهم موافقون على ذلك، إن الجامعة للنساء هي مكان للعثور على رجل. على افتراض أن الحرم الجامعي هو «سوق الزواج الأفضل في العالم»، كما لاحظ أحد المربّين، فهذا ينطبق على الجنسين. في حرم الجامعات اليوم، يتفق الأستاذ والطالب على الأمر التالي: الفتيات هنّ المهاجمات في تصيد الزواج. الفتيان، سواء كانوا متزوجين أم لا، هناك

ليوسّعوا عقلهم، وليجدوا هويتهم، أو ليرسموا خطة حياتهم؛ أما الفتيات، فهنّ هناك فقط لكي يحقق وظيفتهن الجنسية.

يكشف البحث أنّ ٩٠٪ أو أكثر من العدد المتزايد من الزوجات في الحرم الجامعي، اللواتي حفّزهن «الخيال والحاجة إلى التكيّف» للزواج، يفتحن، بالمعنى الحرفي للكلمة، طريق أزواجهن في الجامعة[1]. الفتاة التي تنسحب من المدرسة الثانوية أو الجامعة لتتزوج، وتنجب طفلًا، أو لتستلم عملًا، لتشق طريق زوجها هي امرأة معاقة عن ذلك النوع من النمو العقلي الطبيعي والفهم اللذين يجب أن يؤمنهما التعليم العالي، تمامًا مثلما يعيق عمل الأطفال نموهم الجسدي. كما تُمنع من الاستعداد والتخطيط الواقعيين لمهنة أو التزام من شأنه أن يوظّف قدراتها، ويجعلها مهمة للمجتمع ولنفسها.

في الفترة التي كان المربّون الموجهون بالجنس يكرسّون أنفسهم لتكيّف النساء الجنسي والأنوثة، بيّن الاقتصاديون تغيرًا جديدًا وثوريًا في التشغيل الأمريكي: لقد وجدوا تحت جزر ومدّ الازدهار والركود انخفاضًا مطلقًا لولبيًا في فرص تشغيل غير المتعلمين وغير المهرة. لكن، عندما زار اقتصاديو الحكومة حول دراسة «قوة العمل النسائية» حرم الجامعات، وجدوا أنّ الفتيات لا يتأثرن بالاحتمال الإحصائي القائل أنهن سيقضين خمسًا وعشرين سنة، أو أكثر، من أعمارهن بعد سن البلوغ في أعمال خارج المنزل. حتى عندما يكون من المؤكد عمليًا أن معظم النساء لن يقضين بعد الآن معظم أعمارهن ربات منازل متفرغات، فقد طلب منهن المربون الموجهون بالجنس ألّا يخططن لحياة مهنية خوفًا من إعاقة تكيّفهن الجنسي.

(1) Esther Lloyd-Jones, "Women Today and Their Education," *Teachers' College Record*, Vol. 57, No. 1, October, 1955; and No. 7, April, 1956. See also: Opal David, *The Education of Women-Signs for the Future*, American Council on Education, Washington, D.C., 1957.

منذ بضع سنوات، تسرّب التعليم الموجّه بالجنس أخيرًا إلى جامعة نسائية شهيرة، كانت فخورة في الماضي بحصتها الكبيرة من الخريجات اللواتي تابعن مسيرتهن ليلعبن أدوارًا ريادية في التربية والقانون والطب والفنون والعلوم والحكومة والخدمة الاجتماعية. كانت رئيسة هذه الجامعة ناشطة نسوية سابقة، وكانت ربما قد بدأت تعاني شيئًا من الشعور بالذنب لفكرة جميع أولئك النساء المتعلمات كالرجال. أشار استبيان أرسل إلى خريجات من جميع الأعمار إلى أن الغالبية العظمى منهن كنّ راضيات عن تعليمهن غير الموجّه بالجنس؛ لكنّ أقلية اشتكت من أن تعليمهن قد جعلهن مدركات على نحو مفرط لحقوق النساء والمساواة مع الرجال، ومهتمات زيادة عن اللازم بالمهن، ويستحوذ عليهن شعور متذمّر بأنهن يجب أن يفعلن شيئًا ما في المجتمع، وأنهن يجب على الأقل أن يواظبن على القراءة والدراسة وتطوير قدراتهن واهتماماتهن الخاصة. لمَ لم يتعلمن أن يكنّ ربات منازل وأمهات سعيدات؟

أدخلت رئيسة الجامعة الشاعرة بالذنب مقررًا وظيفيًا في الزواج والعائلة إلزاميًا لجميع الطالبات في السنة الثانية من الكلية -شاعرةً بالذنب شخصيًا لأنها رئيسة جامعة، بالإضافة إلى أنّ لديها عددًا كبيرًا من الأطفال وزوجًا ناجحًا؛ وشاعرةً بالذنب أيضًا لأنها كانت ناشطة نسوية متحمسة في أيامها، ولأنها تقدّمت كثيرًا في مهنتها قبل أن تتزوج؛ ومتلقيةً وابلًا من هجمات العلماء الاجتماعيين العلاجيين الذين اتهموها بمحاولة قولبة هؤلاء الفتيات الشابات في صورتها غير الأنثوية الخيالية المتطلبة ذاتيًا النشيطة المهجورة غير الواقعية المستحيلة.

بقيت الظروف التي أدّت إلى قرار الجامعة، بعد سنتين من ذلك، بإسقاط ذلك المقرّر الوظيفي مغلفةً بالسريّة. لن يتحدث أحد ممن لهم ارتباط رسمي بالجامعة عن ذلك. لكنّ أحد المربّين من الجوار، وكان هو نفسه وظيفيًا عنيدًا، قال بشيء من الاحتقار للتفكير الخاطئ الساذج إنهم صُدموا،

ولا شكّ، لأنّ الفتيات اللواتي أخذن المقرر الوظيفي تزوّجن بسرعة كبيرة. (تضمّن سجل صف عام 1959 في تلك الجامعة 75 زوجةً، وهو ما يعادل تقريبًا ربع الفتيات اللواتي كنّ ما يزلن في ذلك الصف). قال لي بهدوء:

لمَ يجب أن يقلقوا هناك لأنّ الفتيات يتزوجن أبكر قليلًا؟ لا ضير في الزواج المبكر، مع الإعداد المناسب. أخمّن أنهم لا يستطيعون أن يتجاوزوا الفكرة القديمة القائلة أن النساء يجب أن يتعلمن ليطوّرن عقولهن. هم ينكرون ذلك، ولكن لا يستطيع المرء أن يمتنع عن الشك في أنهم مازالوا يؤمنون بالحياة المهنية للنساء. للأسف، فكرة ذهاب النساء إلى الجامعة ليحصلن على زوج ملعونة لدى بعض المربّين.

في تلك الجامعة موضوع حديثنا، يُدرّس «الزواج والعائلة» مرة أخرى كمقرّر في علم الاجتماع، منسّقًا وفق التحليل النقدي لتلك المؤسسات الاجتماعية المتغيرة، لا وفق الفعل الوظيفي أو العلاج الجماعي. لكن، في المؤسسة المجاورة يشغل الأستاذ الذي زوّدني بالمعلومات الموقع الثاني في إدارة قسم مزدهر يتخصص في «تعليم الحياة العائلية» يحضّر حاليًا مائة طالب دراسات عليا لتدريس مقررات وظيفية في الزواج في الجامعات ودُور المعلمين الحكومية وكليات الراشدين وكليات المجتمعات المحلية والمدارس الثانوية على امتداد أمريكا. يشعر المرء أن هؤلاء المربّين الموجهين بالجنس يظنّون أنفسهم فعلًا محاربين -محاربين ضد قيم الفكر القديمة غير العلاجية غير الوظيفية، ضد التعليم القديم المتطلب عديم الجنس، الذي حصر نفسه بحياة العقل والسعي وراء الحقيقة، ولم يحاول قط أن يساعد الفتيات في ملاحقة الرجال أو الوصول إلى النشوة الجنسية أو التكيّف. كما شرح مزوّدي بالمعلومات:

تلك الفتيات مهتمات بالمواعدة والجنس، وكيف يتفاهمن مع الفتيان، وهل من المناسب إقامة علاقات قبل الزواج. ربما تحاول فتاةٌ ما أن تتخذ قرارًا بخصوص مجال اختصاصها؛ تفكّر في مهنة ما، وتفكّر أيضًا بالزواج. وهكذا، تنظمين موقفًا يقوم على تمثيل الأدوار لمساعدتها على فهم الأمر -وهكذا

ترى الأثر في الأولاد. ترى أنه لا يتوجب عليها أن تشعر بالذنب حيال أن تكون ربة منزل فقط.

هناك غالبًا جو من الدفاعية عندما يُطلب من مربّ موجّه بالجنس أن يعرّف «الطريقة الوظيفية» لشخص غير عالم بها. قال أحدهم لمراسلة صحفية:

من الجيد جدًا أن تتحدثي عن الأمر كله بكلمات كبيرة -تعميمات فكرية، مفاهيم مجرّدة، الأمم المتحدة- ولكن، علينا في مكان ما أن نبدأ بمواجهة تلك المشاكل المتعلقة بالعلاقات بين الأشخاص على نطاق أكثر تواضعًا. يجب أن نتوقف عن الطريقة المتمركزة على المدرّس وأن نعتمد الطريقة المتمركزة على الطالب. لا يتعلق الأمر بما تعتقدين أنهم يحتاجون إليه، بل بما يعتقدون أنّهم يحتاجون إليه. تلك هي الطريقة الوظيفية. تدخلين الصف وهدفك لم يعد تغطية محتوى معين، بل خلق جوّ يجعل طلابك يشعرون بالراحة، ويتحدثون بحرية حول العلاقات بين الأشخاص بمصطلحات أساسية لا بتعميمات فيها الكثير من الإدّعاء.

تميل الفتيات في سن المراهقة إلى أن يكنّ مثاليات جدًا. يعتقدن أنهن يستطعن أن يكتسبن مجموعة مختلفة من القيم، وأن يتزوجن فتى من خلفية مختلفة، وأنّ ذلك لا يهم فيما بعد. لكننا نجعلهن ينتبهن إلى أنّ ذلك يهم، حتى لا يمضين بخفة إلى زواجات مختلطة[1] وغيرها من الشراك[2].

سألت المراسلة لماذا تُدرّس مواضيع «اختيار القرين» و«التكيّف مع الزواج» و«التعليم من أجل الحياة العائلية» أصلًا في الجامعات، إذا كان المدرّس ملتزمًا بعدم التدريس، إذا لم يكن يجب تعلّم مادة ما أو تغطيتها، وإذا كان الهدف الوحيد هو مساعدة الطالب على فهم المشاكل والعواطف الشخصية. بعد معاينة عدد من مقررات الزواج لصالح مجلة **مادموزيل**

(1) الزواج المختلط هو الزواج الذي يكون فيه الزوجان من عرقين مختلفين، أو دينين مختلفين - المترجم.

(2) Mary Ann Guitar, "College Marriage Courses-Fun or Fraud?" *Mademoiselle*, February, 1961.

(Mademoiselle) توصلتُ إلى خلاصة تقول: «فقط في أمريكا قد تسمع خلسةً طالبًا لم يتخرّج بعد يقول لآخر ببراءة تامة: 'كان يجب أن تكون في الصف اليوم. تحدثنا عن لعب أدوار مذكّرة، وقد فتح زوج من الطلاب قلبيهما، وتحدّثا في أمور شخصية'».

الفكرة من لعب الأدوار، وهي تقنية مأخوذة من العلاج الجماعي، هي جعل الطلاب يفهمون المشاكل «على مستوى المشاعر». تثار الانفعالات التي تتسم بأنها أكثر عنفًا من تلك التي تثيرها القاعة الدراسية العادية في كلية، بلا شك، عندما يدعو الأستاذ الطلاب إلى تمثيل مشاعر «شاب وفتاة ليلة زفافهما».

هناك جو علاجي زائف عندما يستمع الأستاذ، بصبر، إلى أحاديث لا تنتهي لطلاب خجولين حول المشاعر الذاتية («يعبّرون عنها بالكلمات») على أمل إثارة «بصيرة المجموعة». ولكن، على الرغم من أنّ المقرر الوظيفي ليس علاجًا جماعيًا، فهو بالتأكيد إضفاء طابع عقائدي على الآراء والقيم عن طريق التلاعب بانفعالات الطلاب؛ وتحت هذا القناع التلاعبي، لا يعود خاضعًا للتفكير النقدي المطلوب في الميادين الأكاديمية الأخرى.

يأخذ الطلاب النّتف الموضوعة في كتبهم المدرسية، التي تشرح فرويد أو تقتبس من مارجريت ميد، على أنها كلام مقدس؛ ليس لديهم الإطار أو المرجع الذي يأتي من الدراسة الفعلية لعلم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا. في الحقيقة، تعطي مقرراتُ الزواج تلك، الزائفةُ علميًا، من خلال المنع الواضح للمواقف النقدية العادية في الدراسة الجامعية، قوة القانون العلمي لأمور ليست غالبًا أكثر من رأي شعبي. قد يكون الرأي رائجًا حاليًا، أو قديمًا أصلًا، في أوساط الطب النفسي، لكنّه غالبًا ما يكون مجرّد تحيّز مدعّم برطانة سيكولوجية أو سوسيولوجية وإحصاءات منتقاة بعناية لجعله يبدو بمظهر الحقيقة العلمية غير القابلة للجدل.

يقود النقاش حول العلاقة الجنسية قبل الزواج عادةً إلى نتيجة علمية تقول إنها خطأ. يبني أستاذٌ ما حجته ضد العلاقة الجنسية قبل الزواج على إحصاءات انتقائية لتبيّن أنّ التجربة الجنسية قبل الزواج تميل إلى جعل التكيّف مع الزواج أصعب. ولن يطّلع الطالب على الإحصاءات الأخرى التي تدحض هذا الرأي؛ إذا كان الأستاذ يعرف بها، فيستطيع في مقرر الزواج الوظيفي أن يشعر بحرية إهمالها لأنها غير وظيفية. («مجتمعنا مجتمع مريض. يحتاج طلابنا إلى نوع محدّد دقيق من المعرفة»). وهي «معرفة» وظيفية بحيث «لا يمكن إلّا للنساء الاستثنائيات أن يلتزمن بمهنة». وبالطبع، بما أنه لم تكن لدى معظم النساء في الماضي مهن، فإنّ القلّة التي كانت لديهن مهنة كنّ جميعًا «استثنائيات» -مثلما الزواج المختلط «استثنائي» والعلاقة الجنسية قبل الزواج للفتاة استثنائية. كلها ظواهر بأقل من ٪51. ويبدو أن الفكرة كلها من التعليم الوظيفي هي: ما يفعله ٪51 من السكان اليوم، يجب أن يفعله ٪100 غدًا.

وهكذا، فالمربّي الموجّه بالجنس يعزّز تكيّف الفتاة عن طريق ثنيها بالإقناع عن أي التزام سوى الالتزام «الطبيعي» بالزواج والعائلة. تتخطى مربية من ذلك النوع لعب الأدوار الخيالي، وتحضر إلى الصف أمهات عاملات سابقات ليتحدّثن عن ذنب ترك أطفالهن في الصباح. وبطريقة ما، قلّما تسمع الطالبات بامرأة كسرت التقاليد بنجاح -الطبيبة الشابة التي تدبّرت أختها أمر مزاولتها للمهنة عند ولادة أطفالها، الأم التي رتبت ساعات نوم أطفالها وفق جدول عملها دون مشاكل، الفتاة البروتستانتية السعيدة التي تزوجت من كاثوليكي، الزوجة المستقرة جنسيًا التي لا يبدو أن تجربتها قبل الزواج قد أضرّت بزواجها. ليس للحالات «الاستثنائية» أي شأن عملي لدى الوظيفي، على الرغم من أنه يعترف بدقة أن هناك استثناءات. (تحمل كلمة «الطفل الاستثنائي» في اللغة التربوية التخصصية معنى الإعاقة: الأعمى، المُقعد، المعاق، العبقري، خارق التقاليد -أي شخص مختلف عن العموم؛

بأية طريقة فريدة- تحمل عارًا شائعًا؛ إنه «استثنائي»). وبطريقة ما، تصل الطالبة إلى فكرة مفادها أنّها لا تريد أن تكون «المرأة الاستثنائية».

يُدخَل التوافق مكوّنًا عضويًا في تعليم التكيّف مع الحياة بطرق عديدة. لا يوجد سوى القليل من التحدّي أو النظام الفكري في مجرّد تعلّم التكيّف. مقرّر الزواج هو الأسهل في كل جامعة تقريبًا، بغض النظر عن مدى اهتمام الأساتذة في محاولتهم جعله صعبًا عن طريق فرض قراءات كثيفة وتقارير أسبوعية. لا يتوقع أحد أن تؤدي القصص التاريخية (التي ليست، عندما تُقرأ بلا انتفاع جدي، أكثر من مجرّد مسلسل درامي نهاري إذاعي أو تلفزيوني في الطب النفسي) أو لعب الأدوار أو الحديث حول الجنس في الصف أو كتابة أوراق شخصية إلى التفكير النقدي؛ ليست هذه هي الفكرة من الاستعداد للزواج.

ليس هذا لنقول إن دراسة علم اجتماعي ما، بذاتها، تنتج التوافق لدى النساء والرجال. فلا نصل إلى هذه النتيجة إلّا بصعوبة وذلك عند دراستها نقديًا وبدافعٍ من الأهداف المعتادة للمواضيع الفكرية، أو عند إتقانها بهدف الاستخدام المهني. أمّا بالنسبة للفتيات اللواتي يحرّم عليهن اللغز الجديد الالتزام المهني والفكري على السواء، فإن دراسة علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس هي غالبًا مجرد دراسة «وظيفية». وفي المقرر الوظيفي نفسه، لا تأخذ الفتيات تلك النُتَف من فرويد وميد والإحصاءات الجنسية والأفكار العميقة للعب الأدوار حرفيًا وخارج سياقها فحسب، بل وشخصيًا أيضًا -ليتصرّفن وفقها في حياتهن الخاصة. وهذا، في النهاية، هو الجوهر الأساسي لفكرة تعليم التكيّف مع الحياة. وقد تحدث بين المراهقين تقريبًا في أي مقرر يشمل مادة انفعالية أساسية. وستحدث بالتأكيد عندما تستخدم المادة قصدًا، لا لبناء معرفة نقدية، بل لإثارة الانفعالات الشخصية. يتطلب العلاج في تقليد التحليل النفسي التقليدي كبت التفكير النقدي (مقاومة فكرية) حتى تخرج الانفعالات الحقيقية وتُدرَس. في العلاج، قد

ينفع ذلك. ولكن، هل ينفع التعليم مختلطًا بالعلاج؟ لا يمكن لمقرر واحد إلّا بصعوبة أن يكون حاسمًا في حياة أي رجل أو امرأة، لكن عندما يتقرر أن هدف تعليم المرأة ذاته يجب ألّا يكون النمو الفكري، بل التكيّف الجنسي، فإن مسائل معينة قد تكون حاسمة جدًا.

قد يسأل المرء: إذا كان التعليم الموجّه نحو نمو العقل الإنساني يضعف الأنوثة، فهل يضعف التعليم موجّه نحو الأنوثة نموَّ العقل؟ ما الأنوثة، إذا كان بالإمكان تدميرها بتعليمٍ يجعل العقل ينمو، أو تستثار بعدم السماح للعقل بالنمو؟

حتى أنّ المرء قد يسأل سؤالًا بمصطلحات فرويدية: ما الذي يحدث عندما يصبح الجنس، لا هوية للنساء وحسب، بل والأنا والأنا العليا أيضًا؛ وعندما يتركّز التعليم، بدلًا من تطوير الذات، على تطوير الوظائف الجنسية؟ ما الذي يحدث عندما يعطي التعليم سلطة جديدة لمجموعة الـ«يجب» الأنثوية -التي لها أصلًا سلطة التقليد والعرف والتحيّز والرأي الشعبي- بدلًا من إعطاء النساء سلطة التفكير النقدي والاستقلالية للتشكيك في السلطة العمياء، قديمة أو جديدة؟ في كليّة بيمبروك (Pembroke)، وهي كلية نسائية في جامعة براون في مدينة بروفيدنس (Providence) في رود آيلاند (Rhode Island)، دعيت محللة نفسية زائرة لإدارة جلسة طنّانة حول «معنى أن تكوني امرأة». بدت الطالبات مرتبكات عندما قالت المحللة الضيفة، د. مارجريت لورانس، بلغة إنكليزية غير فرويدية بسيطة إن من الحماقة بمكان أن نقول للنساء اليوم أن مكانهن الرئيسي هو البيت، في حين يجري معظم العمل الذي اعتادت النساء على القيام به في الماضي الآن خارج البيت، و يقضي كل الآخرين في العائلة معظم وقتهم خارج البيت. أليس من الأفضل لهن أن يتعلمن حتى ينضممن إلى بقية العائلة، هناك خارجًا، في العالم؟

لم يكن هذا، على نحو ما، ما توقعت الفتيات سماعه من محللة نفسية سيدة، لأنه أقلق، على عكس الدرس الموجّه بالجنس الوظيفي العادي، الـ«يجب» الأنثوية التقليدية. وتضمّن أيضًا أنهن يجب أن يبدأن اتخاذ قرارات معينة بأنفسهن حول تعلمهن ومستقبلهن.

الدرس الوظيفي يمنح الراحة لطالبة السنة الثانية غير الواثقة التي لم تقم بالانفصال تمامًا بعد عن طفولتها. فهو لا يتحدى الأعراف الآمنة المريحة؛ ويقدّم لها كلمات معقدة لتقبل وجهة نظر أهلها، أو وجهة النظر الشعبية، دون أن تكون مضطرة إلى اكتشاف وجهات نظر خاصة بها. كما إنه يؤكد لها مرة أخرى أنها غير مضطرة للعمل في الكلية؛ أنها تستطيع أن تكون كسولة، وتتبع نزواتها، وأنها غير مضطرة إلى تأجيل متعتها الحالية من أجل أهداف مستقبلية؛ وليست مضطرة لقراءة ثمانية كتب من أجل حلقة بحث في التاريخ، أو لأخذ مقرر الفيزياء الصعب. قد يسبب لها ذلك عقدة الذكورة. ففي النهاية، يقول الكتاب:

> يُدفع ثمن عقلانية المرأة إلى درجة كبيرة على شكل فقدان مزايا أنثوية ثمينة... تشير جميع المشاهدات إلى الحقيقة القائلة أن المرأة المثقفة مسترجلة؛ فقد خضعت المعرفة الحدسية الدافئة فيها للتفكير البارد غير المنتج[1].

ليس على الفتاة أن تكون كسولة جدًا، غير واثقة جدًا حتى تلتقط الإشارة. التفكير، في نهاية المطاف، عمل صعب. وفي الحقيقة، سيكون عليها أن تقوم بتفكير صعب بارد جدًا حول معرفتها الحدسية الدافئة لتتحدّى هذا التصريح الجازم.

ليس من العجب أن أجيالًا عدة من فتيات الجامعة الأمريكيات ذوات العقل المرهف والروح المتقدة قد أخذن رسالة المربّين الموجهين بالجنس، وهربن من الجامعة ومن الحياة المهنية، ليتزوجن، وينجبن الأطفال قبل

(1) Helene Deutsch, *op. cit.*, Vol. I, pp. 224 ff.

أن يصبحن «مثقفات» أكثر من اللازم بحيث لا يتمكّن معه من الاستمتاع بالجنس، لا سمح الله، «بطريقة أنثوية».

تتعلم الفتاة، التي تكبر ولديها ذكاء وروح في أمريكا، في وقت مبكر بما يكفي، حتى دون مساعدة المربّين الموجهين بالجنس، أن تراقب خطوتها «لتكون مثل الأخريات جميعًا» لا لتكون ذاتها. تتعلم ألّا تعمل بجدّ، ألّا تفكر كثيرًا، وألّا تسأل الكثير من الأسئلة. تمتنع الفتيات عن الحديث علنًا في الصف في المدارس الثانوية وفي الكليات المختلطة خوفًا من تصنيفهن «ذكيات». وقد أثبتت دراسات عديدة هذه الظاهرة[1]؛ ويمكن لأية فتاة أو امرأة ذكية أن تثبتها من تجربتها الشخصية. لفتيات براين ماور طريقة خاصة في الحديث عندما يوجد فتيان حولهن، مقارنةً مع الحديث الفعلي الذي يمكن أن يسمحن لأنفسهن به عندما لا يكنّ خائفات من إظهار ذكائهن. وفي الكليات المختلطة، ينظر الآخرون إلى الفتيات -وهن يرين أنفسهن- أساسًا من حيث وظيفتهن الجنسية كصديقات للمواعدة وزوجات مستقبل. يقلن «إني أبحث عن أماني فيه»، بدلًا من إيجاد أنفسهن، وكل فعل من أفعال خيانة الذات يبعدهن أكثر عن الهوية، ويقرّبهن من احتقار الذات السلبي.

هناك استثناءات، بالطبع. وجدت دراسة ميلون (Mellon) أنّ بعض طلاب السنة الأخيرة في فاسار قد أظهروا، بالمقارنة مع طلاب السنة الأولى، نموًا كبيرًا في أربع سنوات -ذلك النوع من النمو نحو الهوية وتحقيق الذات الذي يعرف العلماء الآن أنه يحدث لدى الأشخاص في العشرينيات وحتى في الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات من أعمارهم، بعد زمن طويل من توقف نموهم الجسدي. لكن، لم تظهر الكثير من الفتيات أية علامة على

(1) Mirra Komarovsky, *op. cit.*, p. 70.

تشير الدراسات البحثية إلى أن ٪40 من الفتيات الجامعيات «يلعبن لعبة الصمت» مع الرجال. بما أن أولئك اللواتي لا يفعلن ذلك، يشملن اللواتي لا يثقلن كاهلهن زيادة عن اللزوم بالذكاء، فإن الغالبية العظمى من الفتيات الأمريكيات اللواتي يتمتعن بذكاء عالٍ يتعلمن بالتأكيد أن يخفين ذكاءهن.

النمو. كانت تلك الفتيات هنّ اللواتي قاومن بنجاح الانخراط في الأفكار أو في عمل الكلية الأكاديمي أو في المواضيع الفكرية والقيم الأكبر. قاومن التطور الفكري والتطوير الذاتي لصالح أن يكنّ «أنثويات»، غير ذكيات جدًّا، غير مهتمات جدًّا، غير مختلفات جدًا عن غيرهن من الفتيات. لم تكن المسألة أن اهتماماتهن الجنسية الفعلية تدخّلت؛ في الحقيقة، تولّد لدى علماء النفس الانطباع أنّ الأمر مع العديد من أولئك الفتيات هو أنّ «الاهتمام بالرجال والزواج هو نوع من الدفاع ضد التطور الفكري». فبالنسبة لتلك الفتيات حتى الجنس ليس حقيقيًا، بل هو مجرد نوع من التوافق. ولن يجد المربّون الموجهون بالجنس أي خطأ في هذا النوع من التكيّف. ولكن، على ضوء أدلة أخرى، قد يسأل المرء: هل يمكن أن يخفي ذلك التكيّف فشلًا في النمو يصبح في النهاية تشوّهًا إنسانيًا؟

منذ عدة سنوات، لاحظ فريق من علماء النفس من كاليفورنيا، كانوا يتابعون تطور 140 طفلًا ذكيًا، هبوطًا حادًا مفاجئًا في المنحنيات البيانية لمعدل الذكاء في بعض سجلات المراهقين. عند تحرّي هذه المسألة وجدوا أنه في حين بقيت منحنيات معظم الأطفال في المستوى العالي نفسه، سنة بعد سنة، فإن تلك المنحنيات التي هبطت كانت كلها لفتيات. لم يكن للهبوط علاقة بالتغيرات النفسية في سن المراهقة؛ فهو لم يوجد لدى جميع الفتيات. ولكن، وجدت في سجلات الفتيات، اللواتي هبط معدل ذكائهن، تصريحات متكررة مفادها أن «ليس من الذكاء حقًا بالنسبة للفتاة أن تكون ذكية». وبمعنى واقعي جدًا، كانت تلك الفتيات محتجزات في نموهن العقلي من قبل التوافق مع الصورة الأنثوية عند عمر الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة[1].

الحقيقة هي أن الفتيات اليوم، وأولئك المسؤولين عن تعليمهن يواجهون فعلًا خيارًا. يجب أن يختاروا بين التكيّف والتوافق وتجنب النزاع

(1) Jean Macfarlane and Lester Sontag, *Research reported to the Commission on the Education of Women*, Washington, D.C., 1954, (mimeo ms.).

والعلاج، من جهة؛ والفردية والهوية الإنسانية والتعليم بمعناه الحقيقي، مع كل آلام النمو التي ترافقه، من جهة أخرى. لكن، ليس عليهم أن يواجهوا الخيار الخطأ الذي رسمه المربّون الموجهون بالجنس، بتحذيراتهم الكئيبة من فقدان الأنوثة والإحباط الجنسي. لأنّ عالم النفس عميق الإدراك الذي درس فتيات فاسار كشف دليلًا جديدًا مفاجئًا حول الطالبات اللواتي اخترن أن ينخرطن فعلًا في تعليمهن. يبدو أن طالبات السنة الأخيرة، اللواتي أبدين أكبر إشارات على النمو، كنّ أكثر «ذكورةً»، بمعنى أنهن أقلّ سلبيةً وتقليديةً؛ ولكنهن كن أكثر «أنثوية» في حياتهن الانفعالية الداخلية، وقدرتهن على إشباعها. وكذلك فقد سجلن درجات عالية، أعلى بكثير من طالبات السنة الأولى، على مقاييس يفترض عمومًا أن تقيس العُصابات. وقد علّق عالم النفس على ذلك بالقول: «توصّلنا إلى النظر إلى الارتفاعات على تلك المقاييس على أنها دليل على أن التعليم يأخذ مجراه»[1]. وجد أن الفتيات اللواتي لديهن نزاعات أظهرن نموًا أعلى من أولئك المتكيّفات اللواتي لا رغبة لديهن في أن يصبحن مستقلات. كانت الفتيات الأقل تكيّفًا هن أيضًا الأكثر تطورًا -«مستعدات أصلًا حتى لمزيد من التغيرات ومزيد من الاستقلالية». ولم يتمكن مدير دراسة فاسار، في إجماله لها من تجنّب المفارقة النفسية: تعليم النساء يجعل منهن بالفعل أقل أنوثة وأقل تكيّفًا، لكنه يجعلهن ينمين.

> أن تكوني أقل «أنوثة» يرتبط عن كثب بأن تكوني أكثر تعليمًا وأكثر نضوجًا... لكن من الممتع أن نلاحظ أن الحساسية الأنثوية، التي قد يكون لها مصادر في الفزيولوجيا والتعيينات المبكرة، لا تنخفض في السنوات الأربع؛ يمكن فهم الاهتمامات «الأنثوية» وسلوك الدور الأنثوي، أي التقليدية والسلبية، على أنهما مكتسبات لاحقة وأكثر سطحيةً، وبالتالي، أكثر عرضة للانخفاض حين يصبح الفرد أكثر نضجًا وتعليمًا...

(1) Harold Webster, "Some Quantitative Results," in *Personality Development During the College Years*, ed. by Nevitt Sanford, Journal of Social Issues, 1956, Vol. 12, No.4, p. 36.

قد يقول المرء، إذا كنا مهتمين بالاستقرار وحده، فسنفعل حسنًا بأن نعدّ برنامجًا يبقي طالبات السنة الأولى كما هن، بدلًا من محاولة زيادة تعليمهن ونضجهن ومرونتهن فيما يخص السلوك القائم على الدور الجنسي. طالبات السنة الأخيرة أقل استقرارًا لأن هناك المزيد مما يحتاج إلى استقرار، وأقلّ تأكدًا من هويتهن لأن مزيدًا من الاحتمالات مفتوحة أمامهن[1].

لكنّ تلك النساء لم يكنّ، عند التخرّج، إلّا في «منتصف الطريق» في نموهن نحو الاستقلالية. توقّف مصيرهنّ على «ما إذا كنّ الآن يدخلن وضعًا يستطعن فيه متابعة النمو، أو إذا كنّ يجدن بعض الوسائل السريعة، ولكن التراجعية للتخلص من الضغط». الطيران إلى الزواج هو الطريقة الأسهل والأسرع للتخلص من ذلك الضغط. بالنسبة للمربّي الميّال إلى نمو النساء نحو الاستقلالية، ذلك الزواج «رجعي». أما بالنسبة للمربي الموجه بالجنس، فهو تحقيق للأنوثة.

أخبرني معالج في كلية أخرى عن فتيات لم يلتزمن بعمل ولا بأي نشاط آخر من نشاطات الكلية، وشعرن بأنهن سينهرن عاطفيًا لأنّ أهلهن رفضوا السماح لهن بترك الكلية ليتزوّجن الفتيان الذين وجدن فيهم «الأمان». عندما تقدمت أولئك الفتيات أخيرًا، مع بعض المساعدة، بطلب العمل -أو حتى بدأن يشعرن بمعنى الذات عبر المشاركة في نشاط من مثل إدارة الطلاب أو الجريدة المدرسية- فقدن حاجتهن الملحة إلى «الأمان». أنهين الدراسة الجامعية، وعملن، وخرجن مع شباب أكثر نضجًا، وهن الآن يتزوجن على أساس عاطفي مختلف تمامًا.

شعر هذا المعالج المحترف، على عكس المربي الموجّه بالجنس، أن تلك الفتاة التي تعاني إلى درجة الانهيار تقريبًا في السنة الأخيرة، والتي تواجه قرارًا شخصيًا حول مستقبلها -تواجه حتى نزاعًا متضادًا بين القيم

(1) Nevitt Sanford, ''Personality Development During the College Years'', *Journal of Social Issues*, 1956, Vol. 12, No. 4.

والاهتمامات والقدرات التي أعطاها تعليمها لها، والدور التقليدي لربة المنزل- «أصحّ» من الفتاة المستقرة الهادئة المتكيفة، التي لم «يؤثر» بها التعليم قط، والتي تنتقل بسلاسة من دورها بوصفها طفلة أهلها إلى زوجة زوجها، الأنثوي تقليديًا، دون أن تصحو قط على الهوية الفردية الموجعة.

ومع ذلك، فالحقيقة هي أن معظم الفتيات اليوم لا يدعن تعليمهن «يؤثّر» فيهن؛ يتوقفن قبل أن يقتربن من الهوية إلى تلك الدرجة. استطعت أن أرى ذلك في الفتيات في سميث، والفتيات اللواتي قابلتهن من الجامعات الأخرى، وكان ذلك واضحًا في بحث فاسار. أظهرت دراسة فاسار أنه عندما تبدأ الفتيات الشعور بالنزاعات وبآلام الهوية المتنامية، فإنهن يتوقفن عن النمو. يوقفن بوعي، بدرجة أو بأخرى، نموّهن ليلعبن الدور الأنثوي. أو، حتى نعبّر عن الأمر بكلمات أخرى، يتفادين التجارب الإضافية المساعدة على النمو. حتى بدأت الآن هذه الإعاقة عن النمو الطبيعي، أو تفادي النمو، تعتبر تكيّفًا أنثويًا طبيعيًا. ولكن، عندما تابعت دراسة فاسار النساء بعد السنة الأخيرة في الجامعة، حيث كنّ على شفا هذه الخطوة الحاسمة الموجعة في النمو الشخصي: الخروج إلى الحياة، وحيث كنّ بمعظمهن يلعبن الدور الأنثوي التقليدي، ظهرت هذه الحقائق:

1- جاءت تلك النساء، بعد عشرين أو خمس وعشرين سنة خارج الكلية، في مستوى أدنى من مستوى طالبات السنة الأخيرة على «مقياس التطور»، الذي شمل كامل سلسلة النمو العقلي والانفعالي والشخصي. هنّ لم يفقدن كل النمو الذي أُنجز في الجامعة (إذ سجلت الخريجات نقاطًا أكثر من طالبات السنة الأولى)، لكنهن -على الرغم من الاستعداد النفسي لمزيد من النمو في سن الحادية والعشرين- لم يتابعن نموهن.

2- كانت تلك النساء، في معظمهن، متكيّفات كربات منازل من الضواحي وأمهات حيّات الضمير ونشيطات في مجتمعاتهن المحلية. لكن، فيما

عدا النساء المهنيات المحترفات، لم يتابعن السعي وراء اهتمامات عميقة خاصة بهن. بدا أن هناك سببًا ما للاعتقاد بأن انقطاع النمو يتعلق بانعدام الاهتمامات الشخصية العميقة، بانعدام الالتزام الفردي.

3- كانت النساء الأكثر إثارة للمتاعب للعالم النفسي، بعد عشرين سنة، هنّ الأكثر أنثويةً بالمعنى التقليدي، أي أولئك اللواتي لم يكنّ مهتمات، حتى في الجامعة، بأي شيء سوى إيجاد زوج[1].

كانت هناك في دراسة فاسار مجموعة من الطالبات اللواتي، وهنّ في السنة الأخيرة، لم يعانين من نزاع أوصلهن إلى حافة الانهيار، ولم يتوقفن عن نموهن ليهربن إلى الزواج. هؤلاء هنّ الطالبات اللواتي كنّ يحضّرن لمهنة ما؛ لقد اكتسبن، في الجامعة، اهتمامات عميقة بما يكفي للالتزام بمهنة. وكشفت الدراسة أنّ كل تلك الطالبات اللواتي كانت لديهن طموحات مهنية كنّ يخططن فعليًا للزواج، لكنّ الزواج بالنسبة لهن هو نشاط يخترن المشاركة فيه طوعيًا، وليس شيئًا ضروريًا لأي إحساس بالهوية الذاتية. كان لدى تلك الطالبات إحساس واضح بالاتجاه ودرجة عالية من الاستقلالية والثقة بالذات أكثر من معظم الطالبات. قد يكنّ مخطوبات أو مرتبطات بحب عميق، لكنهن لا يشعرن أنّ عليهن أن يضحّين بشخصيتهن الفردية أو طموحاتهن المهنية إذا كنّ يتمنين أن يتزوجن. لم يتولّد لدى العلماء النفسيين مع تلك الفتيات الانطباع، كما حدث مع العديد من الأخريات، بأن الاهتمام بالرجال وبالزواج هو نوع من الدفاع ضد التطور الفكري. كان اهتمامهن برجل معين حقيقيًا، وفي الوقت ذاته لم يتدخل بتعليمهن.

لكن تجلّت الدرجة التي غسل بها اللغز الأنثوي دماغ المربّين الأمريكيين عندما وصف مدير دراسة فاسار لهيئة من زملائه فتاة «لا تحرز علامات عالية فقط، بل، وفي حالتها، هناك احتمال عالٍ لمتابعة مهنة علمية أو احترافية».

(1) Mervin B. Freedman, "Studies of College Alumni," in *The American College*, p. 878.

والدة جولي مدرّسة وعالمة والقوة المحركة في العائلة... تأتي الأم بعد الأب لأنها تأخذ الأمور ببساطة. لا يكترث الأب لأن تكون لزوجته وابنته ميول وأفكار تدل على ثقافة رفيعة، فقط ألّا تكون تلك الأمور له. تصبح جولي فتاة تحب قضاء وقت طويل خارجًا، منشقّة، تسيطر على أخيها الأكبر، لكنّ ضميرها لا يرتاح إذا لم تقم بالقراءة المطلوبة أو إذا تراجع معدل علاماتها. متمسكة بعزمها على القيام بدراسات عليا وبأن تصبح مدرسة. الشقيق الأكبر مدرس جامعي حاليًا وجولي، وهي الآن طالبة دراسات عليا، متزوجة من طالب دراسات عليا في العلوم الطبيعية.

عندما كانت في السنة الأولى، عرضنا بيانات المقابلة معها، دون تفسير، على مجموعة من الأطباء النفسيين والعلماء النفسيين والعلماء الاجتماعيين. فكرتنا عن فتاة واعدة حقًا. السؤال المعتاد: «ما مشكلتها؟» الرأي المعتاد: إنها بحاجة إلى معالجة نفسية. في الحقيقة لقد خُطبت في سنتها الثانية إلى عالِمها المتفتح، وأصبحت واعية على نحو متزايد لذاتها كمثقفة ودخيلة، لكنها مع ذلك لم تستطع أن تهمل عملها. «لو أنني فقط تمكنت من الفشل في شيء ما» قالت.

يتطلب الأمر مربيًا جريئًا جدًا اليوم ليهاجم الحقل الموجّه بالجنس، لأن عليه أن يتحدى، في الأساس، الصورة التقليدية للأنوثة. وتلك الصورة تقول إن النساء سلبيات، اتكاليات، ممتثلات للتقاليد، عاجزات عن التفكير النقدي أو الإسهام الأصلي في المجتمع؛ وفي أفضل تقاليد نبوءة التحقق الذاتي، يستمر التعليم الموجه بالجنس في جعلهن كذلك، كما في حقبة سابقة، عندما كان نقص التعليم يجعلهن كذلك. لا يسأل أحد ما إذا كانت امرأة اتكالية بسيطة أنثوية بشكل سلبي -في قرية بدائية أو في ضاحية- تستمتع فعلًا بسعادة أكبر وبتحقق جنسي أعظم مما تحققه امرأة التزمت في الجامعة باهتمامات جدية تتجاوز البيت. لم يسأل أحد، إلّا مؤخرًا جدًا، بعد أن أوصل الروس الأقمار إلى المدار والرجال إلى الفضاء، ما إذا كان يجب أن يكون التكيّف هدف التعليم. في الحقيقة، تمكّن المربّون

الموجهون بالجنس، الميالون جدًا إلى تكيّف النساء الأنثوي، بفرح من الاستشهاد بالحقائق الأكثر شؤمًا حول ربات المنازل الأمريكيات -فراغهن وكسلهن وضجرهن وإدمانهن على الكحول والمخدرات واستسلامهن للسمنة والمرض واليأس بعد الأربعين، عندما تكون وظيفتهن الجنسية قد أشبعت- دون أن ينحرفن قيد أنملة عن كفاحهن العنيف لتربية جميع النساء لهذه الغاية الوحيدة.

وهكذا، يتخلّص المربّي الموجّه بالجنس من النساء الثلاثينيات اللواتي يرجّح أن يعشن بعد الأربعين بثلاثة اقتراحات مرحة:

1 - دورة في «القانون والنظام لربة المنزل» لتمكينها من التعامل، كأرملة، مع التأمينات والضرائب والوصايا والاستثمارات.

2 - قد يتقاعد الرجال أبكر للمساعدة في البقاء برفقة زوجاتهم.

3 - الانخراط لفترة وجيزة في «خدمات مجتمعية طوعية أو في السياسة أو الفنون أو ما شابه»، على الرغم من أن القيمة الرئيسية ستكون علاجًا شخصيًا، لأنّ النساء لن يكنّ مُدرّبات لمثل ذلك. «لنأخذ مثالًا واحدًا، قد تطلق المرأة التي تريد تجربة، تستحق فعلًا أن تروى، حملة لتخليص مدينتها أو بلدها من تلك الأكزيما المقرفة في عالمنا المعاصر، ألا وهي لوحات الإعلانات الطرقية».

ستبقى لوحات الإعلانات الطرقية وتتكاثر مثل بكتريا تغزو المنظر الطبيعي، لكن، على الأقل ستكون هي قد أخذت مقررًا تعليميًا قويًا للكبار في السياسة المحلية. ثم تستطيع أن تسترخي، وتكرّس نفسها لنشاطات الخريجات التي تقوم بها الكلية التي تخرّجت منها. لقد وجدت كل امرأة تقترب من منتصف العمر حماسًا قويًا جديدًا في مطابقة نفسها مع الحياة الجارية لكليّتها وفي توسيع غرائزها الأمومية، الآن وقد كبر أولادها، لتشمل الأجيال الجديدة من الطالبات التي تقيم في حرمها[1].

(1) Lynn White, *op. cit.*, p. 117.

وقال، إنها يمكن أيضًا أن تأخذ عملًا بدوام جزئي لكن لا يجب أن تأخذ العمل من الرجال الذي يعيلون أسرهم، وفي الحقيقة، هي لن تمتلك المهارات أو التجربة اللازمة لعمل «مثير» جدًا.

... هناك طلب كبير على النساء المتمرسات، اللواتي يمكن الاعتماد عليهن، واللواتي يمكن أن يحررن النساء الأصغر سنًا من المسؤوليات العائلية في الأيام العادية أو بعد الظهر، حتى يستطعن أن يطوّرن اهتمامات مجتمعية، أو يستلمن أعمالًا بدوام جزئي خاصة بهن... ليس هناك أي سبب يبرّر إحجام نساء ذوات ثقافة وذرّية، فمن على أية حال وعلى مدى سنوات ربما بمعظم عملهن المنزلي، عن ترتيبات من هذا القبيل[1].

قد تضحك امرأة على وصف نزيه كهذا للحياة التي يهيئها لها التعليم الموجّه بالجنس لو أن اللغز الأنثوي لم يدمّر حسّ الفكاهة لديها: لمُّ شمل الخريجات عَرَضيًا والعمل المنزلي لامرأة أخرى. الحقيقة الحزينة هي أنه، في حقبة فرويد والوظيفية واللغز الأنثوي، لم ينجُ سوى مربّون قلائل من ذلك التشويه الجنسي لقيمهم. افترض ماكس ليرنر[2]، وحتى ريسمان

(1) Ibid., pp. 119 f.

(2) Max Lerner, *America As a Civilization*, New York, 1957, pp. 608-611:

لا تكمن الفكرة الجوهرية فيها في عجز النساء البيولوجي أو الاقتصادي، بل في شعورهن بأنهن عالقات بين عالم الرجل، الذي لا إرادة حقيقية لديهن لتحقيقه، وعالم خاص بهن؛ يجدن من الصعب عليهن فيه أن يحقق أنفسهن. ... عندما نصح وولت ويتمان النساء «بأن يتخلين عن الدمى والروايات الخيالية، وأن ينطلقن قدمًا، مثلما يفعل الرجال، في قلب الحياة الحقيقية المستقلة العاصفة»، فقد كان يفكر -كما العديد من معاصريه- في النوع الخطأ من المساواة. ... إذا كانت ستكتشف هويتها، فيجب أن تبدأ بإقامة إيمانها بذاتها على أساس أنوثتها، لا على الحركة من أجل النسوية. أشارت مارجريت ميد إلى أن دورة حياة المرأة البيولوجية فيها مراحل معينة محددة جيدًا من بدء الحيض إلى ولادة أولادها إلى توقف الحيض؛ وأنها في هذه المراحل من دورة حياتها، كما في إيقاعاتها الجسدية الأساسية، تستطيع أن تشعر بالأمان في أنوثتها، وليس عليها أن تؤكد قدرتها كما يفعل الرجل. وبالمثل، في حين إن الأدوار المضاعفة التي يجب أن تلعبها في الحياة مذهلة، فإنها تستطيع أن تحقق تلك الأدوار دون ارتباك إذا عرفت أن دورها المركزي هو ذاك الذي لها كامرأة. ... لكن تبقى وظيفتها المركزية هي خلق أسلوب حياة لنفسها ولبيتها الذي تكون فيه خالقة حياة ومحافظة عليها.

(Riesman) في كتابه **الحشد المنعزل** The Lonely Crowd، أن النساء لسن مضطرات للبحث عن استقلاليتهن عن طريق الإسهام المنتج في المجتمع، فقد يساعدن أزواجهن على نحو أفضل على مواصلة إسهاماتهم، عن طريق اللعب. وهكذا فقد عزل التعليم الموجه بالجنس الأجيال الأخيرة من النساء الأمريكيات، بلا شك، مثلما عزل تعليم «منفصلين لكن متساوين» الزنوج الأمريكيين الموهوبين عن فرصة تحقيق قدراتهم الكاملة في التيار العام للحياة الأمريكية.

إنّ قولنا إنّ الكليات في هذه الحقبة من التوافق لم تعلّم فعلًا أحدًا لا يشرح أي شيء. لا يدرك تقرير جاكوب[1]، الذي رفع هذا الاتهام ضدّ الجامعات الأمريكية عمومًا، وحتى الاتهام الأكثر دقةً الذي أعدّه سانفورد (Sanford) ومجموعته، أنّ فشل الجامعات في تعليم النساء حتى يحققن هوية تتجاوز دورهن الجنسي كان بلا شك عاملًا حاسمًا في تأبيد، إن لم يكن في إيجاد، ذلك التوافق الذي يشجبه المربّون اليوم على نحو رائج. لأنّ من المستحيل تعليم النساء تكريس أنفسهن لدورهن الجنسي على نحو مبكر وكامل إلى تلك الدرجة -النساء اللواتي، كما قال فرويد، يمكن أن يكنّ فاعلات جدًا بحق في تحقيق نهاية سلبية -دون جرّ الرجال إلى الفخ المريح ذاته. وفي الواقع، أدى التعليم الموجّه بالجنس إلى نقص في الهوية لدى النساء حُلّ بسهولة عن طريق الزواج المبكّر. وأيّ التزام سابق لأوانه بأي دور -الزواج أو العمل- يغلق باب التجارب والاختبار والإخفاقات والنجاحات في مجالات النشاط المختلفة الضرورية للشخص ليحقق النضج الكامل والهوية الفردية.

لاحظ المربّون المُوجَّهون بالجنس خطر إعاقة نمو الفتيان الطبيعي عن طريق العمل المنزلي المبكر. وكما عبّرت مارجريت ميد عن ذلك مؤخرًا:

(1) See Philip E. Jacob, *Changing Values in College*, New York,1957.

لقد كان العمل المنزلي المبكر دائمًا خاصية من خصائص البدائيين ومعظم القرويين وفقراء المدن... إذا كان هناك أطفال فهذا يعني، كما نعلم، أنّ حلقة البحث الفصلية للأب تصبح مختلطة بزجاجة حليب الأطفال... يروّض زواج الطلاب المبكر الفتيان بحيث لا تبقى لديهم فرصة للتطور الفكري الكامل. ليست لديهم فرصة لإعطاء وقتهم، ليس بالضرورة للدراسة، بمعنى البقاء في المكتبة، بل بمعنى أن الطلاب المتزوجين ليس لديهم الوقت ليجرّبوا وليفكّروا وليقضوا الليل في مناقشات غير رسمية وليتطوروا كأفراد. هذا ليس مهمًا للمثقفين فقط، بل وللفتيان الذين سيصبحون رجال الدولة مستقبلًا في البلد وسيصبحون محامين وأطباء وغيرها من المهن والأعمال[1].

ولكن ماذا عن الفتيات اللواتي لن يكتبن أبدًا حلقات البحث الفصلية نتيجة زجاجة حليب الطفل؟ نتيجة اللغز الأنثوي، لم ترَ سوى نساء قليلات أنّ حبس أنفسهن في ذلك الشغف وحده، الشغل وحده، الدور وحده في الحياة، يشكّل مأساة. للمربين التقدميين في أوائل الستينيات خيالاتهم البهيجة حول تأجيل تعليم النساء إلى ما بعد ولادة أطفالهن؛ وهم بالتالي يقرّون أنهم قد أسلموا أنفسهم، وبالإجماع تقريبًا، للزواجات المبكرة التي استمرت في الحدوث ولم تتراجع.

لكن، بتفضيل تلك الفتيات الأنوثة على النمو الموجع نحو الهوية الكاملة، وبعدم تحقيقهن جوهر الذات الصلب الذي لا يأتي من الخيال، بل من إخضاع الواقع، حُكِم عليهن بالمعاناة أساسًا من ذلك الشعور المشتت الممل بفقدان الهدف، أو بعدم الوجود، أو بعدم الانخراط في العالم الذي يمكن أن يسمى شذوذًا، أو بانعدام الهوية، أو ببساطة ذاك الذي يستشعر على أنه المشكلة التي لا اسم لها.

ومع ذلك، من السهل جدًا أن نجعل من التعليم كبش الفداء. أيًا تكن أخطاء المربين الموجهين بالجنس، فقد خاض المربون الآخرون معركةً

(1) Margaret Mead, "New Look at Early Marriages," interview in *U.S. News and World Report*, June 6, 1960.

محافظةً محبِطة لا طائل منها محاولين جعل النساء الموهوبات «يتصورن أهدافًا جديدة، وينمون بالوصول إلى تلك الأهداف». لكن، في التحليل الأخير، اختارت ملايين النساء الموهوبات في هذا البلد الحر، بأنفسهن، ألّا يستخدمن الباب الذي كان يمكن للتعليم أن يفتحه أمامهن. فقد كان خيار -ومسؤولية- التسابق في العودة إلى البيت، في النهاية، خيارهن.

الفصل الثامن

الخيار الخطأ

لا يفرض لغزٌ ما قبوله. فحتى «يغسل» اللغز الأنثوي أدمغة النساء الأمريكيات من الغايات الإنسانية غير الجنسية لأكثر من خمسة عشر عامًا، لابدّ أنه قد أشبع حاجات حقيقية لدى أولئك اللواتي تمسّكن به للأخريات، وأولئك اللواتي قبلن به لأنفسهن. ربما لم تكن هذه الحاجات هي نفسها لدى جميع النساء أو لدى جميع موزّعي اللغز. لكن، كانت هناك حاجات عديدة في هذا الوقت المحدد في أمريكا جعلتنا عاجزين عن مقاومة إغراء اللغز؛ حاجات إجبارية جدًا إلى حدّ أننا علّقنا التفكير النقدي، كما يفعل المرء حيال حقيقة حدسية. والمشكلة هي أنه عندما تكون الحاجة قوية بما يكفي يمكن للحدس أيضًا أن يكذب.

قبل أن يستحوذ اللغز الأنثوي على أمريكا مباشرة، كانت هناك حرب، تبعها كساد، وانتهت بتفجير قنبلة ذرية. وبعد وحشة الحرب، وفظاعة القنبلة، وفي مواجهة الشك المخيف، والضخامة الباردة للعالم المتغير، كانت النساء، وكذلك الرجال، يبحثن عن الواقع المريح للبيت والأطفال. لقد علّق الجنود الأمريكيون في الخنادق صور بيتي غرابل (Betty Grable)، لكنّ الأغاني التي طلبوا سماعها هي الأغاني التي كانت الأمهات يهدهدن بها أطفالهن حتى يناموا. وعندما خرجوا من الجيش، كانوا أكبر سنًا من أن

يعودوا إلى البيت.. إلى أمهاتهم. الحاجات إلى الجنس والحب حقيقية، على نحو لا يمكن إنكاره، لدى الرجال والنساء، الفتيان والفتيات، ولكن، لمَ بدت في ذلك الوقت للكثيرين الحاجات الوحيدة؟

كنّا جميعًا ضعفاء.. مشتاقين للوطن.. وحيدين.. خائفين. شعرت أجيال مختلفة متعددة بجوع مكبوت إلى الزواج والبيت والأطفال، جوع كان الجميع قادرين على إشباعه فجأة في الازدهار الذي عرفته أمريكا بعد الحرب. كان الجندي الأمريكي الشاب، الذي جعلته الحرب أكبر من عمره، يستطيع أن يحقق حاجته الوحيدة إلى الحب والأمّ بإعادة تكوين منزل طفولته. بدلًا من مواعدة عدة فتيات حتى الانتهاء من الجامعة والمهنة، كان يستطيع أن يتزوج معتمدًا على بوليصة الجندي، وأن يمنح أطفاله حب الأمّ الحنون الذي لم يعد هو طفلًا صغيرًا بما يكفي للبحث عنه لنفسه. ثمّ كان هناك الرجال الأكبر سنًا قليلًا: رجال في الخامسة والعشرين أُجلّت زواجاتهم نتيجة الحرب، وشعروا الآن أنهم يجب أن يعوّضوا عن الوقت الضائع؛ رجال ثلاثينيون أبعدهم الكساد أولًا ثم الحرب عن الزواج، أمّا إذا كانوا متزوجين، فقد حُرموا من الاستمتاع بالراحة التي يؤمنها البيت.

أمّا بالنسبة للفتيات، فقد أضافت سنوات الوحدة تلك إلحاحًا إضافيًا إلى بحثهن عن الحب. أولئك اللواتي تزوجن في الثلاثينيات ودّعن أزواجهن إلى الحرب؛ وأولئك اللواتي كبرن في الأربعينيات كنّ خائفات، وخوفهن محق، من أنهن قد لا يجدن الحب ولا البيت ولا الأطفال أبدًا، وهي أمور قلّة من النساء فقط على استعداد لأن يخسرنها عن طيب خاطر. وعندما عاد الرجال، حصل اندفاع متهور نحو الزواج. جعلت سنوات الوحدة التي كان الأزواج، أو الذين سيصيرون أزواجًا، خلالها بعيدين في الحرب -أو يمكن أن يرسلوا بعيدًا لدى سقوط قنبلة- النساء عرضة، على نحو خاص، للغز الأنثوي. قيل لهنّ أنّ البعد البارد للوحدة الذي أضافته الحرب إلى حياتهن كان الثمن الضروري الذي توجّب عليهن دفعه مقابل مهنة أو مقابل

أي اهتمام خارج البيت. وضعهن اللغز أمام خيار: الحب والبيت والأولاد، أو أهداف وغايات أخرى في الحياة. وبوضع النساء أمام هذا الخيار، هل كان من العجب أن تختار نساء أمريكيات كثيرات الحب ليكون كل غايتهن؟

حدثت الزيادة الكبيرة في معدل المواليد في سنوات بعد الحرب مباشرة في كل البلدان. لكنها لم تتداخل في معظم البلدان الأخرى مع لغز التحقق الأنثوي. ولم تؤدّ في البلدان الأخرى إلى زيادة أكبر في معدل المواليد في الخمسينيات مع زيادة الزواج والحمل بين المراهقات وزيادة حجم العائلة. تضاعف عدد النساء الأمريكيات اللواتي لديهن ثلاثة أبناء أو أكثر في عشرين سنة. وقادت النساء المتعلمات، بعد الحرب، كلّ النساء الأخريات في السباق من أجل إنجاب المزيد من الأطفال[1]. (أظهر الجيل السابق على جيلي، أي النساء اللواتي ولدن بين 1910 و1919، التغيّر بحدّة أعلى. فعندما كنّ في العشرينيات من أعمارهن، أدى معدل الحمل المنخفض بينهن إلى تحذيرات بأن التعليم سيمحو الجنس البشري، وأظهرن في الثلاثينيات من أعمارهن فجأة زيادة حادة في معدل الحمل، على الرغم من

(1) See: *the United Nations Demographic Yearbook*, New York, 1960, pp. 99-118 and pp. 476-490; p. 580.

كان المعدل السنوي لزيادة السكان في الولايات المتحدة في السنوات 1955-1959 أعلى بكثير منه في بقية الدول الغربية، وأعلى من ذاك الذي في الهند واليابان وبورما والباكستان. وفي الواقع تجاوزت الزيادة في أمريكا الشمالية (1.8) المعدل العالمي (1.7). وكان معدل الزيادة في أوروبا 0.8 وفي الاتحاد السوفييتي 1.7 وفي آسيا 1.8 وفي أفريقيا 1.9 وفي أمريكا الجنوبية 2.3. كانت الزيادة في البلدان الأقل تطورًا، بالطبع، نتيجة التقدم الطبي وانخفاض معدل الوفيات. أما في أمريكا فكانت بالكامل تقريبًا نتيجة زيادة معدل الولادة والزواج المبكر وزيادة حجم العائلة. فمعدل الولادة استمر في الزيادة في الولايات المتحدة من عام 1950 إلى عام 1959، في حين كان ينخفض في بلدان من مثل فرنسا والنرويج والسويد والاتحاد السوفييتي والهند واليابان. كانت الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة المسماة «متقدمة» وإحدى الدول القليلة في العالم، عام 1958، التي كانت فيها أعداد متزايدة من الفتيات يتزوجن في عمر 15-19 أكثر من أية فئة عمرية أخرى. حتى البلدان الأخرى التي أظهرت ارتفاعًا في معدل الولادة -ألمانيا وكندا والمملكة المتحدة وتشيلي ونيوزيلندة وبيرو- لم تظهر هذه الظاهرة من زواج المراهقات.

القدرة البيولوجية المنخفضة التي تجعل معدل الحمل ينخفض مع العمر).

يولد دائمًا مزيد من الأطفال بعد الحروب. لكنّ الانفجار السكاني الأمريكي اليوم يأتي، في جزء كبير منه، من زواج المراهقات. ارتفع عدد الأطفال المولودين لمراهقات بنسبة 165٪ بين 1940 و1957، استنادًا إلى أرقام ميتروبوليتان لايف إنشورانس Metropolitan Life Insurance. الفتيات اللواتي يفترض أن يذهبن إلى الجامعة بشكل عادي، لكنهن بدلًا من ذلك يغادرنها، أو يمتنعن عنها ليتزوجن (الزواج بعمر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة هو الأكثر حدوثًا في زواج الفتيات الأمريكيات اليوم؛ نصف النساء الأمريكيات لا يبلغن العشرين إلا وهنّ متزوجات)، هنّ منتجَات اللغز. يتوقفن عن التعليم بلا تردّد مقتنعات فعلًا أنهن سيجدن «التحقق» بوصفهن زوجات وأمهات. أفترض أن لدى الفتاة التي تعرف اليوم من الإحصاءات أو من مجرّد المشاهدة أنها إذا انتظرت لتتزوج حتى تنهي جامعتها، أو تتدرب على مهنة، فإن معظم الرجال سيكونون قد تزوجوا من امرأة أخرى، من الأسباب لتخشى خسارة التحقق الأنثوي ما كان لدى الفتيات في الأربعينيات نتيجة الحرب. ولكن هذا لا يفسّر لماذا يتركن الجامعة لإعانة أزواجهن، في حين يستمر الفتيان في تعليمهم.

لم يحدث ذلك في البلدان الأخرى. حتى في البلدان التي قتل فيها في أثناء الحرب عدد أكبر من الرجال، وأجبر عدد أكبر من النساء، وإلى الأبد، على خسارة التحقق بالزواج، لم تركض النساء عائدات إلى البيت في ذعر. وفي البلدان الأخرى اليوم، الفتيات متعطشات مثل الفتيان للتعليم الذي يعدّ الطريق إلى المستقبل.

جعلت الحرب النساء عرضة على نحو خاص للّغز، لكنّ الحرب بكل إحباطاتها لم تكن السبب الوحيد لعودتهن إلى البيت. ولا يمكن تفسيرها بـ«مشكلة الخادمة»، وهي عذر تعطيه المرأة المتعلمة غالبًا لنفسها. في أثناء الحرب، عندما ذهبت الطباخات والخادمات للعمل في المعامل الحربية،

كانت مشكلة الخادمة أشدّ حتى مما هي عليه في السنوات الأخيرة. لكن في ذلك الوقت، غالبًا ما كانت النساء المتحمسات يجرين ترتيبات منزلية غير تقليدية للوفاء بالتزاماتهن المهنية. (عرفت أُمّين شابتين في زمن الحرب، كانتا تجمعان القوى فيما كان زوجاهما في الخارج. كانت إحداهما، وهي ممثلة، تأخذ أطفال الاثنتين في الصباح، فيم الأخرى تقوم بعملها ما بعد الجامعي؛ وكانت الثانية تستلم المهمة بعد الظهر، عندما يكون لدى الأولى تدريب أو حفلة نهارية. وعرفت أيضًا امرأة قلبت ليل طفلها نهارًا بحيث ينام في بيت جارتها خلال الساعات التي تذهب فيها إلى مدرسة طبية). وفي المدن، كانت الحاجة حينها إلى حضانات أطفال ومراكز رعاية نهارية لأطفال الأمهات العاملات ملحوظةً ومحققةً.

لكن، في سنوات أنوثة ما بعد الحرب، اختارت النساء، اللواتي كان باستطاعتهن توفير المال لمربية أو مدبرة منزل بدوام كامل وإيجادها، أن يهتممن بالمنزل وبالأولاد بأنفسهن. وفي المدن في الخمسينيات، اختفت جميع مراكز الحضانة والرعاية النهارية للأمهات العاملات؛ وأثار مجرد اقتراح الحاجة إليها صرخات هستيرية من ربات المنازل المتعلمات وكذلك من مروّجي اللغز[1].

وبالطبع، عندما انتهت الحرب، عاد الجنود لأخذ الأعمال وملء المقاعد في الكليات والجامعات التي امتلأت لوهلة من الزمن بأعداد كبيرة من الفتيات. ولوقت قصير، كانت المنافسة حادة، وجعلت عودة ظهور التحيّزات القديمة المضادة للأنوثة في الأعمال والمهن من الصعب على فتاة أن تحتفظ بعمل، وأن تتقدم فيه. وهذا، بلا شك، أرسل نساء كثيرات راكضات إلى غطاء الزواج والبيت. مازال التمييز الدقيق ضد النساء، حتى لا نقول أي شيء عن التفريق في الأجور على أساس الجنس، قانونًا غير

(1) See: "The Woman with Brains (continued)," *New York Times Magazine*, January 17, 1960, for the outraged letters in response to an article by Marya Mannes, "Female Intelligence-Who Wants It?" *New York Times Magazine*, January 3, 1960.

مكتوب اليوم، وآثاره مدمّرة، ومحاربتها صعبة مثل المعارضة الفظيعة التي واجهتها الناشطات النسويات. لا تستطيع باحثة في مجلة تايم، على سبيل المثال، وبغض النظر عن موهبتها، أن تطمح إلى أن تصبح كاتبة، فالقانون غير المكتوب يجعل الرجال كتابًا ومحررين والنساء باحثات. هي لا تغضب؛ فهي تحب عملها، وتحب رئيسها في العمل. وهي ليست مقاتلة عنيفة من أجل حقوق النساء، فهذه ليست قضية لجماعة الصحيفة. ولكنها مثبِطة رغم كل شيء. إذا كانت لن تصل إلى أي مكان، فلم الاستمرار؟

غالبًا، ما كان يتم استبعاد النساء، ممتلئات بالمرارة، عن مجالاتهن المختارة وذلك بتجاهلهن لصالح رجلٍ ما، على الرغم من أنهن جاهزات وقادرات على القيام بعمل أفضل. في بعض الأعمال، كان على المرأة أن ترضى بالقيام بالعمل في حين يحصل الرجل على الفضل. أو كان عليها إذا حصلت على عمل أفضل أن تواجه مرارة الرجل وعدوانيته. ولأن السباق على التقدم في المؤسسة الكبيرة في كل مهنة في أمريكا تنافسي جدًا للرجال، فإن منافسة النساء هي الطامة الكبرى، ومن السهل خوضها ببساطة عبر استحضار ذلك القانون غير المكتوب. خلال الحرب، كانت قدرات النساء والمنافسة التي لا مناص منها مُرَحبًا بهما، أما بعد الحرب، فقد ووجهتا بتلك الستارة المهذبة، بل المستغلقة من العدائية. كان من الأسهل على المرأة أن تُحِب وتُحَب، وأن يكون لديها عذر لعدم التنافس مع الرجال.

ومع ذلك، ففي أثناء الكساد، ضحّت الفتيات الجسورات الموهوبات، وحاربن التحيّز، وتجرأن على المنافسة حتى يتابعن مهنهن، على الرغم من وجود عدد قليل فقط من الأماكن للمنافسة عليها. ولم تجد الكثيرات منهن أي تضارب بين المهنة والحب. في السنوات المزدهرة بعد الحرب، كانت هناك وفرة من الأعمال ووفرة من الأماكن في جميع المهن؛ لم تكن هناك حاجة حقيقية للتخلي عن كل شيء من أجل الحب والزواج. ففي نهاية المطاف، لم تترك الفتيات الأقل تعليمًا المعامل ويعدن خادمات. ارتفعت نسبة النساء في الصناعة بثبات منذ الحرب، ولكن، لم يكن ذلك في نسبة

النساء في المهن التي تتطلب تدريبًا وجهدًا والتزامًا ذاتيًا[1]. قالت لي واحدة من بنات جيلي بصراحة: «أعيش من خلال زوجي وأطفالي. هكذا أسهل. في هذا العالم الراهن، من الأسهل أن تكوني امرأة، إذا استفدت من ذلك».

بهذا المعنى، فإنّ ما حدث للنساء هو جزء مما حدث لنا جميعًا في سنوات ما بعد الحرب. وجدنا أعذارًا لعدم مواجهة المشاكل التي وجدنا الشجاعة يومًا لمواجهتها. سقطت الروح الأمريكية في نوم غريب؛ ذُهِل الرجال والنساء، الليبراليون الخائفون والراديكاليون المتحررون من الوهم والمحافظون، وأُحبطوا بفعل التغيير؛ توقفت الأمة كلها عن النمو. وعدنا

(1) See: National Manpower Council, Womanpower, New York, 1957.

في عام 1940، كان أكثر من نصف النساء العاملات في الولايات المتحدة تحت الخامسة والعشرين، وخمسهن أكثر من 45. وفي الخمسينيات تحدث ذروة المشاركة في العمالة المأجورة بين النساء الشابات اللواتي أعمارهن 18-19 سنة، والنساء فوق الخامسة والأربعين، ومعظمهن يشغلن وظائف لا تتطلب سوى القليل من التفكير. ويعود هذا الرجحان الجديد للنساء المتزوجات الأكبر سنًا في قوة العمل إلى حقيقة أنّ عددًا قليلًا من النساء في العشرينيات والثلاثينيات من أعمارهن يعملن الآن في الولايات المتحدة. اثنتان من بين كل خمسة نساء عاملات الآن يبلغن أكثر من 45 سنة من العمر، معظمهن زوجات وأمهات يعملن في دوام جزئي في عمل غير ماهر. هذه التقارير عن الملايين من الزوجات الأمريكيات اللواتي يعملن خارج البيت مضللة بأكثر من طريقة: من بين جميع النساء العاملات، هناك الثلث فقط يشغلن أعمالًا بدوام كامل، وثلث يشغلن أعمالًا بدوام كامل ولكن في جزء من السنة فقط -البائعات في المتاجر اللواتي يعملن استثنائيًا في فترات الأعياد مثلًا- والثلث يعملن في دوام جزئي في جزء من السنة. النساء في المهن هن، في الجزء الأكبر، تلك الأقلية المتضائلة من النساء العازبات؛ تتركّز الزوجات والأمهات غير المدربات الأكبر سنًا، من مثل أولئك البالغات 18 سنة غير المدربات، عند الطرف الأدنى من سلّم المهارات وسلّم الرواتب في المعامل والخدمات والعمل المكتبي. إذا ما أخذنا نمو السكان وزيادة الاحترافية في العمل في أمريكا، فإن الظاهرة المخيفة ليست الزيادة غير المهمة نسبيًا والمروّج لها كثيرًا في أعداد النساء الأمريكيات اللواتي يعملن الآن خارج البيت، بل حقيقة أن اثنتين من كل ثلاث نساء بالغات لا يعملن خارج البيت، الملايين المتزايدة من النساء الشابات غير الماهرات أو غير المتعلمات بما يكفي للعمل في أية مهنة.

See also: Theodore Cap low, *The Sociology of Work*, 1954, and Alva Myrdal and Viola Klein, *Women's Two Roles-Home and Work*, London, 1956.

جميعًا إلى إشراق البيت الدافئ، بالطريقة التي كنّا عليها عندما كنّا صغارًا ننام بسلام في الطابق الأعلى، فيما أهلنا يقرؤون، أو يلعبون البريدج في غرفة المعيشة، أو يتأرجحون على الشرفة الأمامية في أماسي الصيف في مدننا الأصلية.

عادت النساء إلى البيت مرة أخرى حالما تحرّر الرجال من القنبلة، ونسوا معسكرات الاعتقال، وتغاضوا عن الفساد، وسقطوا في توافق عاجز؛ تمامًا مثلما تجنّب المفكرون المشاكل الأكبر والأعقد لعالم ما بعد الحرب. كان أسهل وأكثر أمنًا أن نفكر في الحب والجنس، بدلًا من الشيوعية ومكارثي والقنبلة التي لا يمكن التحكّم بها. كان أسهل أن نبحث عن الجذور الجنسية الفرويدية في سلوك الإنسان وأفكاره وحروبه، بدلًا من النظر نقديًا في مجتمعه، والتصرّف على نحو بنّاء لتصحيح أخطائه. كان هناك نوع من الارتداد الذاتي، حتى من جانب الأشخاص الأبعد نظرًا والأكثر جرأة؛ أنزلنا عيوننا عن الأفق، وتأمّلنا بثبات في سُررنا.

نستطيع أن نرى كل ذلك الآن بطريقة استعادية. ثمّ، كان أسهل أن نُدخل الحاجة إلى الحب والجنس في هدف الحياة النهائي، متجنبين الالتزام الشخصي بالحقيقة في التزام جامع «بالبيت» و«العائلة». بالنسبة للعامل الاجتماعي والعالم النفسي والعدد الكبير من مستشاري «العائلة»، كان العلاج الموجّه تحليليًا للمرضى الخاصين حول المشاكل الذاتية المتعلقة بالجنس والشخصية والعلاقات بين الأشخاص أكثر أمنًا وكسبًا من السبر العميق بحثًا عن الأسباب الشائعة لمعاناة الإنسان. إذا كنت لم تعد تريد التفكير في كامل الجنس البشري، فعلى الأقل تستطيع أن «تساعد» الأفراد دون الوقوع في مشاكل. كتب إيروين شو (Irwin Shaw)، الذي نخس يومًا الضمير الأمريكي بخصوص القضايا الكبرى المتعلقة بالحرب والسلم والتمييز العرقي، عن الجنس والبغاء؛ وحصر نورمان ميلر (Norman Mailer) والكتاب الوجوديون الشباب روحهم الثورية في الجنس والمتع

والمخدرات والدعاية لأنفسهم بكلمات مؤلفة من أربعة أحرف. كان أسهل وأكثر رواجًا للكتّاب أن يفكروا في علم النفس بدلًا من السياسة، وفي الدوافع الخاصة بدلًا من الأهداف العامة. وارتدّ الرسّامون إلى انطباعيةٍ تجريديةٍ تباهت بالنظام، ومجّدت التهّرب من المعنى. وقلّص الكتّاب المسرحيون الهدف الإنساني إلى هراء مدّع لاذع: «مسرح العبث». أعطى الفكر الفرويدي عملية التهرّب الكاملة هذه بعدها المتعلق باللغز الفكري المعذِّب اللانهائي: عملية ضمن عمليّة، ومعنى ضمن معنى، حتى اختفى المعنى نفسه، ولم يوجد العالم الخارجي الباهت اليائس إلّا بصعوبة. وكما قال ناقدٌ مسرحي، في ملاحظة نادرة على تغيّرٍ في عالم خشبة المسرح عند تينيسي وليامز (Tennessee Williams)، كان الأمر كما لو أنّه لم يبقَ للإنسان أي واقع سوى انحرافاته الجنسية وحقيقة أنّه أحب أمه، وكرهها.

لقد أشبع الهوس الفرويدي في الثقافة الأمريكية أيضًا، فضلًا عن ممارسة العلاج النفسي نفسه، حاجة حقيقية في الأربعينيات والخمسينيات: الحاجة إلى أيديولوجيا، إلى هدف وطني، إلى تطبيقٍ للعقل على مشاكل الناس. وافترض المحللون أنفسهم مؤخرًا أنّ غياب أيديولوجية أو هدف وطني قد يكون مسؤولًا جزئيًا عن الفراغ الذاتي الذي يرسل بالعديد من الرجال والنساء إلى العلاج النفسي؛ هم فعلًا يبحثون عن هوية لا يمكن للعلاج وحده أن يؤمنها. توافق الإحياء الديني في أمريكا مع الاندفاع إلى التحليل النفسي، وربما حدث للسبب ذاته؛ خلف البحث عن هوية، أو عن ملاذ، هناك فراغ هدف أكبر. وإنه لذو مغزى الآن أن يقضي العديد من الكهّان الكثير من وقتهم في تقديم العلاج النفسي -مشورات رعوية- إلى أعضاء أبرشياتهم. فهل يتهربون بذلك، أيضًا، من الأسئلة الأكبر، من البحث الحقيقي؟

عندما كنت أجري مقابلاتي في حرم الجامعات في أواخر الخمسينيات،

شهد القساوسة وعلماء الاجتماع، على حد سواء، على «خصوصيانية»[1] الجيل. وكانوا يشعرون أن سببًا رئيسيًا لحركة الزواج المبكر هو أن الشباب لم يروا أية قيمة حقيقية أخرى في المجتمع المعاصر. من السهل على الناقد الاجتماعي المحترف أن يلوم الجيل الشاب على استغراقه الكلبي (cynical) الكامل في المتعة الشخصية والأمن المادي -أو على السلبية الفارغة للبِيْتِية[2]. لكن، إذا كان آباؤهم ومعلموهم ووعّاظهم قد تخلّوا عن الأهداف التي تعتبر أكبر من التكيّف العاطفي الشخصي والنجاح المادي والأمن، فأي هدف أكبر قد يتعلمه الشباب؟

أشبع الأطفال الخمسة والحركة إلى الضواحي و«افعل ذلك بنفسك» وحتى البِيتية الحاجات المنزلية؛ وأخذت هذه الأشياء مكان تلك الحاجات والأهداف الأكبر التي انشغل بها ذات يوم الأشخاص الأكثر حيوية في هذه الأمة. «أنا ضجِرٌ من السياسة... ليس هناك ما يمكن أن تقوم به حيالها على أية حال». عندما كان الدولار أرخص أو أغلى من أن تعيش حياة كاملة في سبيله، وكان كل مجتمعك يبدو وكأنه لا يهتم إلّا قليلًا بغير ذلك، كانت العائلة وحبها ومشاكلها، كان ذلك، على الأقل، جيدًا وحقيقيًا. وأعطى التصديق الساذج الحرفي لفرويد الوهم بأنه كان أكثر أهمية مما هو في الواقع لكامل المجتمع المعذَّب، لأنّ الحفظ الببغائي الحرفي للتعابير الفرويدية ضلل الأفراد المعذّبين، بحيث يعتقدون أنهم قد شفوا، في حين إنهم من الداخل لم يواجهوا بعد مشاكلهم الحقيقية.

---

(1) Privatism: مسلك في الحياة يتجاهل فيه المرء كل ما يقع خارج اهتماماته الخاصة - المترجم.

(2) Beatnikery: حركة البيتيين (المُرهَقين)، حركة نشأت في الولايات المتحدة في الخمسينيات، أطلق أصحابها على حركتهم هذا الاسم دلالة على ضيقهم بقيود المجتمع وقيوده الأخلاقية، وإلى رغبتهم في التماس السعادة عن طريق الانغماس في الملذات وإدمان المخدرات وإطلاق شعر الرأس واللحية وإهمال شأن النظافة الشخصية - المترجم.

لكن، تحت المجهر الفرويدي، بدأ مفهوم مختلف جدًا للعائلة يظهر. أصبح صراع أوديب وتنافس الأشقاء كلمات منزلية. وكان الاكتئاب خطرًا كبيرًا على الأطفال كالحمّى القرمزية. وكانت «الأمّ» هي من اختير من أجل تلقي اهتمام خاص. فقد اكتُشف فجأة أنّ من الممكن إلقاء اللوم على الأمّ في كل شيء تقريبًا. في تاريخ حالة كل طفل مضطرب، أو بالغ كحولي أو انتحاري أو فُصامي أو سيكوباتي أو عُصابي، أو ذكر عاجز جنسيًا أو مثلي الجنس، أو أنثى باردة مشوشة، أو أمريكي مصاب بالقرحة أو بالربو أو منزعج لأي سبب آخر، يمكن أن توجد أمّ. امرأة مكتئبة، مقموعة، منزعجة، معذَّبة، غير راضية، غير سعيدة. زوجة متطلبة، نقّاقة، شكسة. أمّ رافضة، مبالغة في الحماية، مهيمنة. كشفت الحرب العالمية الثانية أن ملايين الرجال الأمريكيين كانوا عاجزين نفسيًا عن مواجهة صدمة الحرب وعن مواجهة الحياة بعيدًا عن «الماما». من الواضح أن النساء الأمريكيات عانين من «خطأ» ما.

وبصدفة مشؤومة، حدث هذا الهجوم على الأمهات في الوقت ذاته الذي كانت النساء الأمريكيات قد بدأن يستخدمن حقوق تحريرهن، ويذهبن إلى الجامعات والمدارس المهنية بأعداد متزايدة، ويبرزن في الصناعة والمهن في منافسة لا مناص منها مع الرجال. كانت النساء قد بدأن للتو يلعبن دورًا في المجتمع الأمريكي الذي لم يعتمد على جنسهن، بل على قدراتهن الفردية. كان جليًا للعين المجرّدة وواضحًا للجنود العائدين أنّ أولئك النساء الأمريكيات كنّ بالفعل أكثر استقلالية وقوة عقل وجازمات في إرادتهن ورأيهن وأقلّ سلبية وأنثوية، على سبيل المثال، من الفتيات الألمانيات أو اليابانيات اللواتي تباهى الجنود الأمريكيون بأنهن «غسلن لنا ظهورنا». ولكن، لم يكن جليًا بالدرجة ذاتها أن أولئك الفتيات كن مختلفات عن أمهاتهن. وربما لهذا، وبشيء من التشويه الغريب للمنطق، ألقي باللوم فيما يتعلق بجميع عُصابات الأطفال الماضية والحالية على استقلالية وفردية

هذا الجيل الجديد من الفتيات الأمريكيات - الاستقلالية والفردية اللتان لم تملكهما ربات المنازل-الأمهات في الجيل السابق.

بدا الدليل محتومًا: الأرقام المتعلقة بالتسريحات من الجيش لأسباب نفسية في الحرب، ودور الأمهات في تواريخ حالاتهن؛ أرقام كينزي (Kinsey) الأولية حول عجز النساء الأمريكيات عن الاستمتاع بالرعشة الجنسية، ولاسيما المتعلمات منهن؛ حقيقة أنّ الكثير من النساء كنّ محبطات، وحوّلن ذلك إلى أزواجهن وأبنائهن. شعر المزيد والمزيد من الرجال في أمريكا أنهم غير ملائمين وعاجزين. كثيرات من تلك الأجيال الأولى من النساء المهنيات فقدن فعلًا الحب والأولاد، امتعضن من الرجال الذين نافسوهن، وامتعضوا منهن. وكان المزيد والمزيد من الرجال والنساء والأطفال الأمريكيين يذهبون إلى المستشفيات والعيادات العقلية والأطباء النفسيين. وُضع كل ذلك أمام عتبة بيت الأمّ الأمريكية المحبطة، «المسترجلة» بفعل تعليمها والممنوعة، بإصرارها على المساواة والاستقلالية، من إيجاد التحقق الجنسي كامرأة.

رُكّب ذلك كلّه مع الحجّة الفرويدية القائلة أنّ أحدًا لم يتوقف ليدرس كيف كانت أمهات ما قبل الحرب أولئك فعلًا. كنّ محبطات بالفعل. لكن، لم تكن أمهات الجنود غير المنسجمين، ذكور ما بعد الحرب المزعزعين العاجزين، نساءً عاملات متعلمات مستقلات، بل «مامات»[1]-ربات منازل معَذّبات تابعات مضحيات بذاتهن.

في عام 1940، كان أقلّ من ربع النساء الأمريكيات يعملن خارج البيت؛ وأولئك في معظمهن لم يكن متزوجات. كانت نسبة 2.5٪ فقط من الأمهات «نساءً عاملات». وُلِدت أمهات الجنود الأمريكيين، الذين كانت أعمارهم بين 18 و30 عامًا في عام 1940، في القرن التاسع عشر أو أوائل القرن

(1) نستخدم كلمة «مامات» moms جمعًا لكلمة «ماما» mom مقصود مقابل «أمهات» mothers جمعًا لكمة «أم» mother - المترجم.

العشرين، وكبرن قبل أن تحصل النساء الأمريكيات على حق التصويت، أو يتمتعن بالاستقلالية والحرية الجنسية وبالفرص التعليمية أو المهنية التي توفرت لهن في العشرينيات. وإجمالًا، لم تكن هؤلاء الـ«مامات» ناشطات نسويات، ولا نتاج الحركة النسوية، بل نساءًا أمريكيات يعشن الحياة الأنثوية التقليدية التي لربة منزل وأم. هل فعلًا كان التعليم، أو الأحلام المهنية أو الاستقلالية، هو ما جعل الـ«مامات» محبطات، ونقلن ذلك إلى أبنائهن؟ يؤكّد حتى كتابٌ ساعد في بناء اللغز الجديد -كتاب إدوارد ستركر (Edward Strecker) **أبناء أمهاتهم** Their Mothers' Sons- الحقيقة القائلة أن الـ«مامات» لم يكنّ نساءًا عاملات ولا ناشطات نسويات، ولم يستخدمن تعليمهن، إذا كنّ متعلمات؛ لقد عشن من أجل أبنائهن، ولم يكن لديهن أية اهتمامات تتجاوز البيت والأطفال والعائلة أو جمالهن. إنهن، في الحقيقة، ملائمات لصورة اللغز الأنثوي ذاتها.

ها هنا «الماما» التي وجدها الدكتور ستركر، بوصفه مستشارًا للطبيب العام للجيش والقوات البحرية، مذنبة في تاريخ حالات الأغلبية الساحقة من الـ1825000 رجل المرفوضين من الخدمة العسكرية نتيجة اضطرابات نفسية، والـ600000 المسرّحين من الجيش لأسباب نفسية-عصبية، والـ500000 الإضافيين الذين حاولوا أن يتهرّبوا من السحب إلى الجيش - أي نحو 3 ملايين رجل من أصل 15 مليونًا في الخدمة ارتدّوا إلى العُصاب، وغالبًا بعد بضعة أيام فقط من الدخول في الجيش، لأنه كان ينقصهم النضج، و«القدرة على مواجهة الحياة، والعيش مع الآخرين والتفكير بأنفسهم والوقوف على قدميهم».

«الماما» امرأة يحرّض سلوكَها الأمومي البحثُ عن تعويض عاطفي عن الضربات التي سددتها الحياة لأناها. في علاقتها مع أبنائها، كل فعل، وتقريبًا كل نفس، مصمّمٌ على نحو غير واعٍ، ولكنه حصري، لاستيعاب أولادها عاطفيًا، ولربطهم بها بإحكام. وحتى تحققَ هذا الهدف، لابدّ أن تدمغ أولادها بنمط السلوك غير الناضج... ليست أمهات الرجال والنساء القادرات على

مواجهة الحياة بنضج ميالات لأن يكنّ من النوع التقليدي للماما. الأرجح أن الماما لطيفة، شغوفة، مضحية بذاتها... تتحمل مشاكل كثيرة، ولا توفّر على نفسها عناء انتقاء ملابس أبنائها البالغين. إنها تراقب عقص شعرهم وانتقاء أصدقائهم ورفقائهم ورياضتهم ومواقفهم وآرائهم الاجتماعية. هي، إجمالاً، تقوم بالتفكير نيابة عنهم... تكون "هذه الهيمنة" أحيانًا شديدة واستبدادية، لكنها، في غالب الأحيان، ناعمة وإقناعية وملتوية على نحو ما... الطريقة الأكثر شيوعًا هي الطريقة المداورة التي يُجعل الطفل فيها يشعر أن الماما متأذية وأنها تحاول بجهد كبير إخفاء ذلك الأذى. الطريقة الناعمة أكثر نجاحًا دائمًا في منع مظاهر التفكير والفعل الشابّين...

قد تعترف الماما «المضحية بذاتها»، بتردّد، عندما تكون تحت ضغط شديد، أنّها ربما تبدو «منهكة»، وأنها فعلًا متعبة قليلًا. لكنها تزقو بابتهاج «وماذا في ذلك؟»... المعنى هو أنها لا تبالي بكيف تبدو أو تشعر، لأنّ في قلبها فرح الخدمة. تجد سعادتها من الفجر وحتى وقت متأخر من الليل في رعاية أطفالها. البيت يعود لهم. «يجب أن يكون هكذا تمامًا»؛ الوجبات في مواعيدها على الدقيقة، ساخنة وشهية. الطعام متوفر على مدار الساعة... ليس هناك أزرار ضائعة من الملابس في هذا البيت المرتّب. كل شيء في مكانه الصحيح. والماما تعرف أين هو. تضع الأشياء، بلا تذمّر وبسعادة، في أمكنتها بعد أن يبعثرها الأولاد هنا وهناك وفي كل مكان... أي شيء يحتاج إليه الأولاد، أو يريدونه، ستحصل لهم الماما عليه بابتهاج. إنه البيت الكامل... ويرجّح جدًا، أن يبقى واحدٌ، أو أكثر من الأبناء، نتيجة إخفاقه في إيجاد ملاذ هادئ مضاهٍ له في العالم الخارجي، في البيت السعيد، أو يعود إليه، ليحتمي في رحمه إلى الأبد[1].

قد تكون الـ«ماما» أيضًا هي «الحمقاء اللطيفة» بعبادتها القائمة على الجمال والملابس ومواد التجميل والعطور وتسريحات الشعر والنظام الغذائي والتمرين، أو «المثقفة الزائفة التي تتبع دائمًا دورات، وتحضر محاضرات، ولا تدرس بجدّ موضوعًا واحدًا، وتزيد معلوماتها فيه على نحو شامل، بل في شهر ما الصحة العقلية، وفي التالي مواد التجميل، فالعمارة

(1) Edward Strecker, *Their Mothers' Sons*, Philadelphia and New York, 1946. pp. 52-59.

اليونانية، ورياض الأطفال». أولئك كنّ «مامات» الأولاد الذين لم يستطيعوا أن يكونوا رجالًا على الجبهة أو في الوطن، في السرير أو خارجه، لأنهم أرادوا فعلًا أن يكونوا أطفالًا. وكان لدى كل هؤلاء المامات شيء مشترك فيما بينهن:

...الرضا العاطفي، إلى حد التخمة تقريبًا، الذي تشتقه من إبقاء أولادها يطرطشون حولها بأقدامهم في نوع من السائل السَّلويّ[1] النفسي، بدلًا من تركهم يسبحون بضربات النضج المصمِّمة الجريئة مبتعدين عن رحم الأمّ العاطفي... وبما أنها هي ذاتها غير ناضجة، فإنها تغذّي عدم النضج في أولادها، وهم، إجمالًا، محكوم عليهم أن يعيشوا حياة من النقص والتعاسة على المستويين الاجتماعي والشخصي...[2].

أستشهد بالدكتور ستركر بإسهاب لأنّه كان، ويا للغرابة، أحد المرجعيات في الطب النفسي الذي يستشهد فيه كثيرًا في طوفان المقالات والخطابات التي سادت بعد الحرب، والتي تدين النساء الأمريكيات على أنوثتهن الضائعة، وتطلب منهن العودة بسرعة إلى بيوتهن وتكريس حياتهن لأولادهن. في الواقع، كان مغزى حالات ستركر هو العكس تمامًا؛ فقد كانت للأبناء غير الناضجين أمهات كرّسن الكثير من حياتهن لأبنائهن، أمهات كان عليهن أن يبقين أولادهن أطفالًا، كي لا تنتهي حياتهنّ نهائيًا، أمهات لم يصلن قط إلى النضج، أو لم يُشَجَّعن على الوصول إليه: «حالة أو خاصية أن تكون ناضجة؛ النضج، النمو الكامل... استقلالية الفكر والفعل».. خاصية أن تكون إنسانة تمامًا. وهذا ليس مثله مثل الأنوثة تمامًا.

تؤخذ الحقائق من قبل لغزٍ ما وإلى درجة كبيرة بالطريقة ذاتها، فيما أظن، التي للظاهرة الغريبة التي تصبح فيها شطيرةُ همبرغر يلتهمها كلبٌ كلبًا، وتصبح الشطيرةُ التي يلتهمها إنسانٌ إنسانًا. أصبحت حقائق عُصاب

(1) Amniotic Fluid: مادة سائلة توجد داخل الكيس الغشائي المحيط بالجنين داخل الرحم - المترجم.

(2) Ibid., pp. 31 ff.

الجنود الأمريكيين في الأربعينيات دليلًا على أنّ النساء الأمريكيات قد ضللن عن التحقق الأنثوي بتعليم معدٍّ من أجل الحياة المهنية والاستقلالية والمساواة مع الرجال «وتحقيق الذات بأيّة تكلفة»، على الرغم من أنّ معظم تلك النساء المحبطات كنّ ببساطة ربات منازل. وبمفارقة ساحرة، حرَّف اللغزُ الأنثوي الدليلَ الكبير على الأذى النفسي، الذي وقع على الصبيان والبنات من قبل الأمهات المحبطات اللواتي كرّسن كل وقتهن لتلبية حاجات الأولاد، إلى دعوات للجيل الجديد من الفتيات للعودة إلى البيت وتكريس أوقاتهن لتلبية حاجات الأولاد.

لم يجعل أي شيء شطيرة الهمبرغر تلك ألذّ مذاقًا من أرقام كينزي الأولية التي أظهرت أن الإحباط الجنسي لدى النساء يتعلق بتعليمهن. الحقيقة المفزعة، التي تمّ اجترارها مرارًا وتكرارًا، هي أنّ ما بين 50 و85 بالمائة من النساء الجامعيات المشمولات بالدراسة لم يعرفن قط النشوة الجنسية، في حين أن أقلّ من خمس النساء المتعلمات حتى المرحلة الثانوية أبلغن عن المشكلة ذاتها. وكما فسّر كتاب **المرأة المعاصرة: الجنس الضائع** نتائج كينزي الأولية هذه:

> انخفض الفشل الكامل في تحقيق النشوة بين النساء اللواتي أكملن مرحلة الدراسة الابتدائية أو أقل إلى ما يقارب الصفر. وأشار الدكتور كينزي وزملاؤه إلى أن 100% من التفاعل المتمثل بهزة جماع كاملة وُجد عمليًا بين النساء الزنجيات غير المتعلمات... وبالتالي فالقاعدة النفسية-الجنسية التي تبدأ بالتشكل هي التالية: كلما كانت المرأة متعلمة أكثر، زاد احتمال وجود اضطراب جنسي لديها، بدرجة أكثر حدّة أو أقل...[1]

(1) Farnham and Lundberg, *Modern Woman, The Lost Sex*, p. 271. See also: Lynn White, *Educating Our Daughters*, p. 90.

تشير النتائج الأولية لدراسة دقيقة للعادات الجنسية الأمريكية يقوم بها د. أ. سي. كينزي من جامعة إنديانا إلى أن هناك ارتباط عكسي بين التعليم وقدرة المرأة على انجاز تحقيق هزة جماع اعتيادية في الزواج. وفق الدليل الحالي، والذي نعترف أنه غير نهائي 65٪ تقريبًا من الجماع الزوجي الذي تقوم به نساء بخلفيات جامعية يتم دون هزة جماع من قبلهن، بالمقارنة مع نحو 15٪ للنساء المتزوجات اللواتي لم يتجاوزن المرحلة الابتدائية.

مرّ عقد تقريبًا قبل نشر تقرير كينزي الكامل عن النساء، وجاء مناقضًا تمامًا لتلك النتائج الأولية. كم امرأة تدرك، حتى في هذا الوقت، أن تاريخ الـ5940 حالة من النساء الأمريكيات اللواتي درسهن كينزي أظهر أن عدد الإناث اللواتي يصلن إلى النشوة في الزواج، وعدد الإناث اللواتي يصلن إلى النشوة في 100٪ من المرات تقريبًا كان يتعلق بالتعليم، ولكن بالعكس: فكلما زاد تعليم المرأة كان احتمال التحقق الجنسي عندها أعلى. كان احتمال ألّا تعرف المرأة، التي لم تحصل إلّا على التعليم الابتدائي، الرعشة الجنسية قط أعلى، في حين كان احتمال أن تحقق المرأة، التي أنهت الجامعة، وتابعت دراساتها العليا أو المهنية، الرعشة الجنسية الكاملة في 100٪ من المرات أعلى بكثير. وبكلمات كينزي نفسه:

> وجدنا أن عدد الإناث اللواتي يصلن إلى الرعشة الجنسية، في أية فترة من خمس سنوات، هي أعلى بوضوح بين النساء اللواتي يتمتعن بخلفية تعليمية أعلى... أخفق عدد أكبر من إناث العينة اللواتي تمتعن بمستوى تعليمي منخفض، في كل فترة من فترات الزواج، من السنة الأولى وحتى السنة الخامسة عشرة على الأقل، تمامًا في الوصول إلى الرعشة الجنسية خلال الجماع الزوجي، بينما أخفق عدد صغير من الإناث الأفضل تعليمًا بالدرجة نفسها...

لا تتوافق هذه البيانات مع عملية حساب أولية غير منشورة قمنا بها منذ بضع سنوات. فاستنادًا إلى عينة أصغر، وإلى طريقة في الحساب أقلّ ملاءمة، يبدو أننا وجدنا عددًا أكبر من الإناث ذوات المستويات التعليمية الأدنى يحقق الرعشة الجنسية في الجماع الزوجي. لكن هذه البيانات تحتاج الآن إلى تصحيح...[1].

لكنّ اللغز الذي ازدهر بالأرقام المغلوطة الأولية لم يُصَحَّح بسهولة.

ثمّ كانت هناك الأرقام المخيفة وتواريخ حالات أطفال مهجورين

(1) Alfred C. Kinsey. et al., Staff of the Institute for Sex Research, Indiana University, *Sexual Behavior in the Human Female*, Philadelphia and London, 1953. pp. 378 f.

ومنبوذين لأنّ أمهاتهم كنّ عاملات. كم امرأة تدرك، حتى في هذا الوقت، أنّ الأطفال في تلك الحالات المنشورة، الذين ذبلوا نتيجة نقص الحنان الأمومي، لم يكونوا أبناء أمهات متعلمات من الطبقة الوسطى، تركنهم تحت رعاية آخرين بضع ساعات في اليوم ليمارسن مهنة أو ليكتبن قصيدةً أو ليخضن معركة سياسية، بل أطفالاً مهجورين فعلًا: لقطاء متروكين، على الأغلب عند الولادة، من قبل أمهات غير متزوجات وآباء سكارى، أطفال لم يكن لهم قطّ بيت، ولم يتلقّوا قط رعاية محبّة حنونة. كانت العناوين الرئيسية تُقدَّم من قبل أية دراسة تتضمن أن الأمهات العاملات مسؤولات عن جنوح الأحداث والصعوبات المدرسية أو الاضطرابات العاطفية لدى أطفالهن. مؤخرًا، حلّلت عالمة نفسية، هي الدكتورة لويس ميك ستولز (Lois Meek Stolz) من جامعة ستانفورد، جميع الأدلة من تلك الدراسات، واكتشفت أنّ المرء يستطيع في الوقت الحاضر أن يقول أي شيء -جيدًا كان أم سيئًا- حول أبناء الأمهات العاملات، ويدعم قوله ببعض النتائج البحثية. لكن، ليس هناك أي دليل حاسم على أنّ الأبناء أقل سعادة أو صحة أو تكيّفًا لأن أمهاتهم يعملن(1).

لا تحظى الدراسات، التي تظهر النساء العاملات على أنهن أمهات أسعد وأفضل وأكثر نضجًا، بكثير من الدعاية. يقول أحدهم: بما أن جنوح الأحداث يتزايد، والمزيد من النساء يعملن أو «متعلمات للقيام بنوع ما من أنواع العمل الفكري»، فهناك بالتأكيد علاقة سبب-نتيجة مباشرة. باستثناء أنّ الدليل يشير إلى أنه لا توجد مثل تلك العلاقة. منذ عدة سنوات، كان هناك الكثير من الدعاية لدراسة تقارن مجموعات متكافئة من الفتيان الجانحين وغير الجانحين. توصلت، من بين أمور أخرى، إلى أنّ نسبة الجنوح أو الهرب من المدرسة لم تكن أعلى في حالة الأمهات العاملات في عمل منتظم منها في حالة ربات المنازل. لكنّ عناوين مثيرة حذّرت من أنّ عددًا

(1) Lois Meek Stolz, "Effects of Maternal Employment on Children: Evidence from Research," *Child Development*, Vol. 31. No.4, 1960, pp. 749-782.

أكبر، على نحو ملحوظ، من الجانحين كانت أمهاتهم يعملن بلا انتظام. سببت هذه النتيجة الشعور بالذنب والكآبة للأمهات المتعلمات اللواتي تخلين عن مهن تتطلب تأهيلًا عاليًا، لكنهن نجحن في متابعة اختصاصهن بالعمل في دوام جزئي، أو بالعمل لحسابهن، أو باستلام أعمال مؤقتة مع فترات انقطاع يقضينها في البيت. استشهدت **نيويورك تايمز** بأمّ من هذا القبيل: «لقد كنت هنا ولسنوات أستلم قصدًا أعمالًا مؤقتة وأعمالًا بدوام جزئي، محاولةً ترتيب حياتي العملية وفق مصلحة الأولاد المثلى، والآن يبدو كما لو أنني كنت أقوم بأسوأ ما يمكن!»[1].

في الحقيقة، كانت هذه الأم، وهي امرأة حاصلة على تدريب مهني، وتعيش في حي مريح للطبقة الوسطى، تساوي نفسها بالأمهات في تلك الدراسة اللواتي تبيّن أنهن لم يكنّ يعشن في ظروف اقتصادية-اجتماعية فقيرة وحسب، بل وفي العديد من الحالات هنّ أنفسهن كنّ جانحات. وغالبًا ما كان أزواجهن مضطربين عاطفيًا.

وافترض الباحثون، الذين قاموا بتلك الدراسة، أن أبناء تلك النساء كانوا يعانون من صراعات عاطفية، لأنّ دافع الأمّ إلى العمل المتقطع «ليس الإضافة إلى دخل العائلة، بقدر ما هو للهرب من العمل المنزلي والمسؤوليات الأمومية». لكنّ اختصاصيًا آخر اعتبر، في تحليله للنتائج ذاتها، أن السبب الأساسي لكل من عمل الأمّ المتقطع وانحراف الابن هو عدم الاستقرار العاطفي لكلا الأبوين. أيًا يكن السبب، لم يكن الوضع بأي شكل من الأشكال مضاهيًا لذاك الذي لمعظم النساء المتعلمات اللواتي وجدن أنفسهن فيه. في الواقع، كما بيّن الدكتور ستولز، تشير دراسات عديدة أسيء تفسيرها كـ«دليل» على أن النساء لا يستطعن الجمع بين المهنة والأمومة فعليًا، إلى أنه، حين تكون الشروط الأخرى متساوية، فإن

(1) H. F. Southard, "Mothers' Dilemma: To Work or Not?" *New York Times Magazine*, July 17, 1960.

احتمال أن يعاني أبناء الأمهات العاملات، لأنهن يردن العمل، من القلق، أو أن يتعرضوا لمشاكل في المدرسة، أو «ينقصهم الشعور بالقيمة الشخصية»، أقل من احتمال أبناء ربات المنازل.

أجريت الدراسات الأولى على أبناء الأمهات العاملات في فترة كانت فيها قلّة من النساء المتزوجات يعملن، في رياض أطفال نهارية تخدم الأمهاتِ العاملات اللواتي كنّ بلا أزواج نتيجة الموت أو الطلاق أو الهجر. وقد قام بهذه الدراسات عمال اجتماعيون واقتصاديون للضغط من أجل إصلاحات من مثل راتب الأمهات التقاعدي. أمّا الاضطرابات ومعدل الوفيات المرتفع بين هؤلاء الأطفال، فلم يعثر عليها في دراسات أجريت في هذا العقد الأخير، حيث واحدة فقط من بين كل ثمانية من ملايين النساء المتزوجات العاملات لا تعيش مع زوجها.

في دراسة حديثة من هذا القبيل، استندت إلى ألفي أمّ، كانت الفوارق الوحيدة ذات المغزى هي أن عدد الأمهات-ربات المنازل اللواتي صرّحن: «يجعلني الأولاد عصبية» أكبر من عدد الأمهات العاملات اللواتي عبّرن عن الأمر ذاته؛ كما بدا أن ربات المنازل لديهن «مزيد من الأطفال». انتهت دراسة شهيرة في شيكاغو، يبدو أنها أظهرت أنّ عددًا أكبر من أمهات الجانحين يعملن خارج المنزل، إلى مجرّد إظهار أن عددًا أكبر من الجانحين قد جاؤوا من بيوت مفككة. وأظهرت دراسة أخرى على 400 طفل يعاني من اضطراب جدي (من مجتمع إحصائي مدرسي مؤلف من 16000 طفل) أنه حيث لم يكن البيت مفكّكًا، فإنّ عدد أمهات الأطفال المضطربين اللواتي عملهن ربات منازل هو ثلاثة أضعاف عدد الأمهات العاملات.

وأظهرت دراسات أخرى أنّ احتمال أن يكون أبناء الأمهات العاملات إما عدوانيين بشدّة أو مكبوتين بشدّة، واحتمال أن يكون أداؤهم في المدرسة ضعيفًا، أو «ينقصهم الشعور بالقيمة الشخصية» أقل من احتمال أبناء ربات المنازل، وأنّ احتمال أن «تفرح» الأمهات العاملات بالحمل أعلى من احتمال فرح ربات المنازل بذلك، واحتمال أن يعانين من «دور الأم» أقل.

كما بدا أن هناك علاقة أقرب وأكثر إيجابية مع الأولاد بين الأمهات العاملات اللواتي أحببن عملهن، من تلك التي للأمهات-ربات المنازل، أو الأمهات

اللواتي لم يكن عملهن يروق لهن. ولم تظهر دراسة في الثلاثينيات عن الأمهات المتعلمات حتى المرحلة الجامعية، وهن الأقدر على اختيار العمل الذي يحببنه، أي أثر سلبي لعملهن على تكيّفهن الزوجي والعاطفي، أو على عدد مشاكل الأبناء وجديّتها. عمومًا، تشاطرت النساء العاملات في صفتين فقط: كان احتمال حصولهن على تعليم عال أعلى، وكذلك احتمال أن يعشن في المدن[1].

أمّا في عصرنا نحن، حيث أصبحت حشود من النساء المتعلمات ربات منازل يعشن في الضواحي، فقد كان بينهن من لم يشغل بالها قط أن يكون تبوّل طفلها في السرير أو مصه لإبهامه أو مبالغته بالأكل أو رفضه الأكل أو انسحابه أو قلة أصدقائه أو عدم قدرته على البقاء وحيدًا أو عدوانيته أو جبنه أو بطؤه في القراءة أو مبالغته بالقراءة أو نقص انضباطه أو قسوته أو كبته أو استعراضيته أو نضوجه الجنسي المبكر أو نقص اهتمامه الجنسي علامةً على عُصاب أوّلي. فهذه، إذا لم تكن شذوذًا فعليًا أو جنوحًا فعليًا، فيجب أن تكون على الأقل علامات على فشل أبوي، أو نذر عُصاب مستقبلي. وقد كانت كذلك أحيانًا. كان على الأمومة، تحت بقعة الضوء الفرويدية، أن تصبح عملًا ومهنة بدوام كامل إن لم تكن عبادة دينية. قد تعني خطوةٌ زائغةٌ واحدة كارثة. تستطيع الأمهات بلا مهن وبلا أي التزام غير التزامهن ببيوتهن أن يكرّسن كل لحظة لأولادهن؛ يمكن أن يوجّهن كامل اهتمامهن لإيجاد علامات على عُصاب أوّلي-وربما لإنتاجه.

يمكنك دائمًا بالطبع أن تجد في تاريخ كل حالة حقائق مهمة حول الأمّ، ولاسيما إذا كنت تبحث عن حقائق، أو ذكريات، عن تلك السنوات الخمس الأولى التي يفترض أنها حاسمة. فبعد كل شيء، الأمّ في أمريكا دائمًا حاضرة؛ ويفترض أن تكون حاضرة. هل حقيقة أنهن حاضرات دائمًا، وأنهن حاضرات فقط بوصفهن أمهات، تتعلق على نحو ما بعُصابات أبنائهن؟ الكثير من الثقافات تنقل صراعاتها إلى الأبناء عن طريق الأمهات،

(1) Stolz, op. cit. See also Myrdal and Klein, op. cit., pp. 125 ff.

لكن، في الثقافات العصرية للعالم المتحضّر، ليست كثيرة تلك التي تعلّم أقوى نسائها وأقدرهن أن يتخذن من أبنائهن مهنة.

اعترف الدكتور سبوك قبل زمن غير طويل، وبشيء من الصعوبة، أنّ الأطفال الروس، الذين لأمهاتهم عادة هدف ما في حياتهن إضافة إلى الأمومة -يعملن في الطب أو العلم أو التربية أو الصناعة أو الحكومة أو الفن- بدوا على نحو ما أكثر استقرارًا وتكيفًا ونضجًا من الأطفال الأمريكيين، الذين لا تعمل أمهاتهم المتفرغات أي شيء سوى القلق بشأنهم. أيمكن أن تكون النساء الروسيات، على نحو ما، أمهات أفضل لأنّ لديهن هدفًا جديًا في حياتهن؟ على الأقل، أولئك الأمهات، كما قال الدكتور سبوك الطيب، أكثر ثقة بأنفسهن كأمهات. لا يتّكلن، كالأمهات الأمريكيات، على آخر كلمة قالها الخبراء، وأحدث بدع رعاية الطفل[1]. من الواضح أنه عبء مريع على الدكتور سبوك أن تكون لديه 13500000 من الأمّهات غير واثقات من أنفسهن إلى حدّ أن يربّين أبنائهن حرفيًا وفق كتابه، وأن يتصلن به، على نحو يرثى له، طلبًا للمساعدة عندما لا ينفع الكتاب.

لم تشر أية عناوين رئيسية إلى انشغال الأطباء النفسيين المتزايد بمشكلة «الاتكال» لدى الأطفال والأولاد البالغين الأمريكيين. درس الطبيب النفسي ديفيد ليفي (David Levy)، في دراسة شهيرة جدًا عن «الحماية الأمومية المفرطة»، بتفصيل دقيق، عشرين أمًّا دمّرن أبناءهن إلى حدّ مرضيّ عن طريق «المعاملة الأمومية لهم كأطفال وتدليلهم والحماية المفرطة لهم»[2]. وكانت حالةً نموذجيةً حالةُ صبي في الثانية عشرة من عمره عانى من «نوبات غضب مزاجية صبيانية في عمر الحادية عشرة عندما رفضت أمه أن تدهن له خبزته بالزبدة. كان ما يزال يطلب مساعدتها في ارتداء ملابسه... لخّص

(1) Benjamin Spock, "Russian Children Don't Whine, Squabble or Break Things-Why?" Ladies' Home Journal, October, 1960.
(2) David Levy, Maternal Overprotection, New York, 1943.

متطلباته في الحياة بإتقان شديد بقوله إن من شأن أمه أن تدهن خبزته بالزبدة إلى أن يتزوج، وبعد ذلك ستفعل زوجته ذلك...».

كانت جميع هؤلاء الأمهات، وفق مؤشرات فزيولوجية من مثل الحيض وحليب الثدي والعلامات المبكرة على «النمط الأمومي في السلوك»، قويات على نحو غير عادي في أساسهن الغريزي الأنثوي أو الأمومي، إذا كان بالإمكان وصف الأمر على هذا النحو. كانت النساء العشرون، باستثناء اثنتين، كما وصفهن الدكتور ليفي نفسه، مسؤولات ومستقرات وعدوانيات: «نُظر إلى الجانب الفعال أو العدواني من السلوك المسؤول على أنه نمط أمومي واضح من السلوك؛ لقد ميّز حيوات 18 امرأة من الأمهات العشرين المبالغات في حمايتهن منذ الطفولة». ولم يكن لدى أيّ منهن أيّ أثر لرفض غير واع للطفل أو للأمومة.

ما الذي جعل تلك النساء العشرين الأموميات بقوة (من الجلي أن القوة، وحتى العدوان، ليست مذكّرة عندما يعتبرها طبيب نفسي جزءًا من الغريزة الأمومية) ينتجن أولئك الصبيان الطفوليين على نحو مرضيّ؟ لشيء واحد، «استُخدم الابن وسيلةً لإرضاء رغبة شاذّة في الحب». كانت تلك الأمهات ينتعشن، ويضعن أحمر الشفاه عندما يحين موعد عودة الصبي من المدرسة، مثل زوجة تتزين من أجل زوجها أو فتاة لموعدها الغرامي، إذ لم تكن لديهن أية حياة أخرى بالإضافة إلى الابن. كانت لدى معظمهن، كما قال ليفي، طموحات مهنية مخذولة. كانت «الحماية الأمومية المفرطة» في الواقع نتيجة قوة تلك الأمهات وطاقتهن الأنثوية الأساسية -المسؤولة والمستقرة والفعالة والعدوانية- التي تنتج المرض في الطفل عندما مُنعت الأم من «قنوات التعبير الأخرى».

وكانت لمعظم تلك الأمهات أيضًا أمهات مسيطرات وآباء مذعنون، كما كان أزواجهن أبناء مطيعين لأمهات مسيطرات؛ وحسب المصطلحات الفرويدية، كانت الخصائية المحيطة بهم من كل جانب شديدة. خضع

الأبناء والأمهات لعلاج كثيف بطريقة التحليل النفسي على مدى سنوات، كان الأمل منه أن يكسر الحلقة المَرَضية. لكن، عندما فحص عاملو البحث، بعد بضع سنوات من الدراسة الأصلية، تلك الأمهات والأبناء الذين خضعوا لحماية مفرطة على نحو مرضيّ، لم تكن النتائج كما كان متوقعًا تمامًا. لم يكن العلاج النفسي، في معظم الحالات، فعالًا. ومع ذلك، لم يصبح بعض الأولاد مرضى عند البلوغ، ولم يكن ذلك نتيجة العلاج، بل نتيجة ظرف حصلت فيه الأمّ على اهتمام أو نشاط ما في حياتها الخاصة، فتوقفت ببساطة عن عيش حياة ابنها نيابة عنه. وفي بضعة حالات أخرى، نجا الابن لأنّه، باستخدام قدرته الخاصة، وجد لنفسه مساحة من الاستقلالية لم تكن أمه جزءًا منها.

شاهد علماء اجتماعيون إشارات أخرى على مشكلة علاقة الأمّ-الابن الحقيقية في أمريكا دون أن يخترقوا اللغز. فاكتشف عالم اجتماع اسمه أرنولد جرين (Arnold Green)، بالصدفة تقريبًا، بعدًا آخر للعلاقة بين تغذية حب الأمّ، أو نقصه، والعُصاب.

يبدو أنّ جيلًا كاملًا قد تربّى في مدينة ماساشوستس الصناعية، حيث كبر جرين، في ظلّ ظروف نفسية لابدّ وأنها كانت مؤذية: ظروف سلطة أبوية لاعقلانية حاقدة، بل ووحشية، وفقدان كامل للـ«حب» بين الأهل والطفل. حاول الآباء، وهم من المهاجرين البولنديين، أن يفرضوا على أبنائهم قواعد قاسية من العالم القديم، لم يكن أبناؤهم الأمريكيون يحترمونها. وجعل احتقار الأولاد وغضبهم وسخريتهم الأهل المذهولين يلجؤون إلى «سلطة لاعقلانية شخصية حاقدة لم تعد تجد سندًا لها في الآمال والطموحات المستقبلية للأولاد».

طبّق الأهل، في حنقهم وخوفهم من فقدان السيطرة التامة على أبنائهم، سياسة القبضة والسوط على أبنائهم على نحو تنقصه الفطنة. فأصوات الصفعات والصرخات والأنين والمناكدات وعويل التعذيب والحقد شائعة

كثيرًا على طول صفوف البيوت الخَرِبَة التابعة للمعامل، حتى أن العابر لا يعيرها سوى القليل من الاهتمام[1].

وبالتأكيد، هنا كانت تكمن بذور العُصابات المستقبلية، كما فهمها جميع الأهل الطيبين بعد الفرويدية في أمريكا. ولكن، عندما عاد جرين، وتفحّص كعالم اجتماع العُصابات التي لابدّ، وفق الكتاب، من أن تكون منتشرة جدًا، لم يجد، ويا لذهوله، أية حالة معروفة عن رفض الجيش نتيجة عُصاب في الجالية البولندية المحلية، ولم يجد في السلوك الصريح لجيل بأكمله في القرية «أي تعبير عن القلق أو مشاعر الذنب، أو قسوة الردّ أو العدوانية المكبوتة، وهي الأعراض المتنوعة الموصوفة على أنها خاصيّة الشخصية العُصابية الأساسية». وتعجّب جرين. لماذا لم يصبح هؤلاء الأبناء عُصابيين، ولماذا لم تدمّرهم تلك السلطة الأبوية اللاعقلانية الوحشية؟

لم يكن لديهم شيء من ذلك الحب الثابت المراقب الراعي الذي ألحّ على أمهات الطبقة الوسطى من قبل ممارسي الطب النفسي للأطفال؛ كانت أمهاتهم، مثل آبائهم، يعملن طيلة النهار في المعمل؛ وكانوا يُتركون في رعاية الأخوات أو الأخوة الأكبر سنًّا، ويركضون بحرية في الحقول والغابات، ويتجنّبون آباءهم ما أمكنهم ذلك. كان التشديد في تلك العائلات يوضع على العمل لا على العاطفة الشخصية: «الاحترام، لا الحب، هو الرابطة التي تجمع». لم تكن مظاهر الحب إجمالًا معدومة، حسب قول جرين، «لكن ليس هناك سوى القليل ممّا يجمعها مع تعريفات حب الوالد-الولد الموجودة في المجلات النسائية للطبقة الوسطى».

خطر في بال عالم الاجتماع أن غياب حب الأمّ الراعي الغامر هذا ذاته قد يفسّر لمَ لمْ يعانِ هؤلاء الأبناء من الأعراض العُصابية الموجودة بشكل عام لدى أبناء أهل الطبقة الوسطى. كانت سلطة الأهل البولنديين، مهما كانت وحشية ولاعقلانية، «خارجيةً بالنسبة لجوهر الذات»، كما

(1) Arnold W. Green, "The Middle-Class Male Child and Neurosis," American Sociological Review, Vol. II, No.1, 1946.

عبّر جرين عن الأمر. لم يمتلك الأهل البولنديون الأسلوب، ولا الفرصة، «لاستيعاب شخصية الطفل». وافترض جرين أنه ربما لم يسبب «نقص الحب» و«السلطة اللاعقلانية» في ذاتهما العُصاب، إلّا في سياق معين من «امتصاص الشخصية»- تشوّش الطفل الجسدي والعاطفي الذي يسبب الاتكال الخانع على الأهل والموجود بين أبناء الطبقة الوسطى المتعلمة جامعيًا الحضرية الأمريكية البيضاء البلدية.

هل «نقص الحب» هو سبب العُصاب، أم التنشئة الأبوية للطبقة الوسطى التي «تمتص» الذات المستقلة للطفل، وتخلق فيه حاجةً مفرطة إلى الحب؟ لطالما ركّز المحللون النفسيون على بذور العُصابات؛ وأراد جرين أن «يكتشف ما الذي في والد من الطبقة الوسطى الحديثة حتى يخصّب تربة عُصاب الطفل، كيفما زرعت البذرة الفردية».

وكالعادة، أشار السهم، على نحو مصيب، إلى الأمّ. لكنّ جرين لم يكن مهتمًا بمساعدة الأم الأمريكية العصرية على التكيّف مع دورها؛ بل بالعكس، وجد أنها تفتقد أي «دور» حقيقي كامرأة في المجتمع الحديث.

إنها تدخل في الزواج، وربما تحمل بطفل دون دور محدّد ومجموعة من الوظائف، كما في الماضي... وتشعر بالدونية تجاه الرجل، لأنها كانت نسبيًا، ومازالت، مقيّدة أكثر منه. لقد كان مدى التحرير الفعلي للنساء مبالغًا به على نحو شائع...

تحرز فتاة الطبقة الوسطى عن طريق زواج «جيد» مكانةً أعلى بكثير من تلك الممكنة لها عن طريق مهنة خاصة بها. لكنّ فترة مداعبة الوهم بمهنة، أو مباشرة واحدة، تتركها غير مناسبة للعمل الشاق المتمثل بتنظيف المنزل والبياضات وتحضير الوجبات... ليس لدى الأمّ سوى القليل لتقوم به، داخل البيت أو خارجه؛ فهي الرفيق الوحيد لابنها الوحيد. تفرض «العناية العلمية بالطفل» الحديثة إشرافًا متواصلًا وقلقًا مسهبًا على صحة الطفل وتناوله السبانخ ونمو الأنا لديه؛ ويتعقّد ذلك بالحقيقة المتمثلة في أنّ الكثير من الطاقة تُصرف على إكراه الطفل على السير مبكرًا وتدريبه على استخدام التواليت والكلام. لأنّ الأهل المنحدرين من الطبقة الوسطى في بيئة تتسم

بالمنافسة الشديدة يقارنون، على نحو متواصل، ومن يوم الولادة، تطوّر ابنهم مع تطوّر أبناء الجيران.

ويخمّن جرين أنّ أمهات الطبقة الوسطى ربما...

... يكنّ قد جعلن «الحب» ذا أهمية فائقة في علاقتهن بالابن، حبهن له وحبه لهن، وذلك، في جزء منه، نتيجة عقدة الحب في زماننا، التي تتفرّع في الطبقة الوسطى، وفي جزء آخر، بوصفه تعويض عن التضحيات الكثيرة التي يقمن بها تجاه الطفل. يعاني الطفل من الحاجة إلى الحب بالضبط لأنّه قد كُيّف بحيث يحتاج إليه... كُيّف مع تبعية عاطفية خانعة... ليست الحاجة إلى الحب الأبوي، بل التهديد المتواصل بسحبه بعد أن يكون الطفل قد كُيّف وفق تلك الحاجة، هو ما يكمن في جذر معظم العُصابات العصرية المميِزة؛ لن تحبك الماما إذا لم تأكل صحنك من السبانخ، أو لم تتوقف عن إسقاط قطرات من حليبك، أو لم تنزل عن تلك الأريكة. إلى حدّ أن شخصية الطفل تُمتص، ويلقى به في حالة من الذعر عبر هذه الطريقة في التعامل... قد تخلق نظرة استنكار، لدى طفل كهذا، رعبًا أكبر من ذاك الذي تخلقه عشرون دقيقة من الجَلد في ستانيسلاوس ووجكيك (Stanislaus Wojcik) الصغيرة.

لم يهتم جرين بالأمهات إلّا من حيث تأثيرهن على أبنائهن. ولكن، خطر له أنّ «امتصاص الشخصية» وحده لا يمكن، في نهاية المطاف، أن يفسّر العُصاب. وإلّا لكانت نساء الطبقة الوسطى من الجيل السابق، كما يقول، جميعًا قد عانين من تلك العُصابات، في حين أن أحدًا لم يذكر مثل تلك المعاناة لدى أولئك النساء. لا شكّ أنّ شخصية فتاة الطبقة الوسطى في أواخر القرن التاسع عشر كانت «مستغرقة» من قبل أهلها وبمطالب «الحب» والطاعة التامة. لكنّ «معدل العُصاب في ظل تلك الظروف لم يكن ربما مرتفعًا جدًا»، كما يستخلص عالم الاجتماع، لأنّه على الرغم من أن شخصية المرأة كانت «مستغرقة»، فإنها كانت مستغرقة باتساق «في دور تغيّر قليلًا نسبيًا من الطفولة إلى المراهقة إلى المغازلة وأخيرًا إلى الزواج»؛ لم تستطع قط أن تكون هي ذاتها.

ومن جهة أخرى، فإن الصبي من الطبقة الوسطى الحديثة مجبر على التنافس مع الآخرين.. على الإنجاز، الأمر الذي يتطلب درجة معينة من الاستقلالية وثبات الهدف والعدوانية وتوكيد الذات. وبالتالي، فإن الحاجة إلى أن يحبه الجميع، والتي رعتها الأم فيه، وعجزه عن وضع قيمه وأهدافه الخاصة عُصابيّان، لكنهما ليسا كذلك في الفتاة.

هذا التخمين الذي قام به عالم اجتماع في عام 1946 مستفزّ، لكنّه لا ينفذ أبعد من الدائرة الداخلية للنظرية الاجتماعية، لا ينفذ من حاجز اللغز الأنثوي، رغم الوعي الوطني المتزايد بأن شيئًا ما في الأمهات الأمريكيات لم يكن على ما يرام. حتى هذا العالم الاجتماعي، الذي نجح في اختراق اللغز، وفي أن يرى الأطفال من منظور مختلف عن حاجتهم إلى مزيد من حب الأمّ، لم يكن مهتمًا إلّا بمشكلة الأبناء الذكور. ولكن، ألم يكن المعنى الحقيقي أن دور ربة المنزل الأمريكية من الطبقة الوسطى أجبر كل أمّ على خنق شخصية كلّ من أبنائها وبناتها وامتصاصها؟ رأى الكثيرون الضياع المأساوي للأبناء الأمريكيين، الذين جُعلوا عاجزين عن الإنجاز والقيم الفردية والفعل المستقل؛ ولكنهم لم يروا ضياع البنات، أو الأمهات اللواتي حدث لهن ذلك قبل أجيال، على نحو مأساوي بالطريقة ذاتها. إذا كانت ثقافة ما لا تتوقع نضجًا إنسانيًا من نسائها، فإنّها لا ترى نقصه ضياعًا، أو سببًا محتملًا للعُصاب أو النزاع. الإهانة، الانعكاس الحقيقي لدور النساء على تعريف ثقافتنا، هي أننا لم نلاحظ، كأمّة، أن هناك خطب ما يتعلّق بالنساء، إلّا عندما رأينا تأثيراته على أبنائهن.

هل من المدهش أننا أخطأنا في فهم ما الذي كان فعلًا خطأ؟ كيف تمكنّا من فهمه وفق المصطلحات الجامدة للوظيفية والتكيّف؟ صفّق المربّون وعلماء الاجتماع عندما كانت شخصية فتاة الطبقة الوسطى تعدّل «باستمرار» من الطفولة عبر البلوغ عن طريق «دورها كامرأة». فليحيَ الدور إذا كان يخدم التكيّف. لم يكن ضياع الذات الإنسانية يعتبر ظاهرة تجب دراستها

في النساء- بل فقط الإحباط الناتج عن «التناقضات الثقافية في التكيّف مع الدور»، مثلما وصفت العالمة الاجتماعية الكبيرة روث بينيديكت (Ruth Benedict) حالة النساء الأمريكيات. حتى النساء أنفسهن، اللواتي شعرن بالبؤس وبانعدام الحيلة حيال نقص الذات لديهن، لم يفهمن ذلك الشعور، فأصبح المشكلة التي لا اسم لها. وفي إحساسهن بالعار والذنب، استدرن مرة أخرى نحو أبنائهن ليهربن من المشكلة. وهكذا، تكمل الدائرة ذاتها، من الأم إلى الأبناء والبنات، جيلًا بعد جيل.

قد ينبثق الهجوم المتواصل على النساء، الذي أصبح شغل الأمريكيين الشاغل في السنوات الأخيرة، أيضًا من الدوافع الهروبية التي أعادت الرجال والنساء إلى أمان البيت. يقال إنّ حب الأم مقدس في أمريكا، لكنّ الماما، مع كل التبجيل والتملّق الذي يقال لها، هي هدف آمن تمامًا، بغض النظر عن مدى صحة أو عدم صحة تفسير إخفاقاتها. لم يُدرج أحد على القوائم السوداء، أو يُفصل من عمله نتيجة هجومه على «المرأة الأمريكية». وبالإضافة إلى الضغوط النفسية من الأمهات والزوجات، كان هناك الكثير من الضغوط غير الجنسية في أمريكا العقد الماضي: المنافسة المستمرة المحفوفة بالمخاطر، العمل في المؤسسة الكبيرة المُغفَل الاسم والخالي غالبًا من الهدف- وقد منع ذلك أيضًا الرجل من الشعور كما يشعر الرجل. الأسلم له أن يلقي باللوم في ذلك على زوجته وأمه، بدلًا من إدراك الفشل في نفسه أو في الطريقة الأمريكية المقدسة في الحياة. لم يكن الرجال دائمًا يمزحون عندما يقولون أنّ زوجاتهم محظوظات لتمكنهن من البقاء في البيت طوال اليوم. وكان ذلك أيضًا مسكّنًا لتبرير التنافس العنيف بالقول لأنفسهم أنهم واقعون فيه «من أجل الزوجة والأولاد». وهكذا أعاد الرجال تكوين طفولتهم في الضواحي، وجعلوا من زوجاتهم أمهات. وقع الرجال في فخ اللغز دون أية همهمة معارضة. فقد وعدهم بأمهات لبقية حياتهم، كسبب لوجودهم وكتبرير لإخفاقاتهم

معًا. هل من الغريب جدًا أن يصبح الصبيان، الذين يكبرون مع كثير من حب الأمّ رجالًا غير قادرين على الاكتفاء قطّ؟

ولكن، لماذا تجلس النساء ساكنات تحت هذا الوابل من اللوم؟ عندما ترفع ثقافة ما عائقًا بعد عائق أمام النساء كذوات مستقلة؛ عندما تكون ثقافة ما قد رفعت عوائق قانونية وسياسية واجتماعية واقتصادية وتعليمية أمام قبول النساء النضج- حتى بعد أن تحطّم كل هذه العوائق، يبقى من الأسهل على المرأة أن تبحث عن ملاذ في البيت. من الأسهل أن تعيش من خلال زوجها وأولادها، بدلًا من أن تشقّ طريقها الخاص في العالم. لأنها ابنة الماما ذاتها التي جعلت من الصعب جدًا على الفتاة، كما على الصبي، أن تكبر. والحرية شيء مخيف. من المخيف أن تكبر أخيرًا، وتصبح متحررةً من التبعية السلبية. لماذا يجب على امرأة ما أن تزعج نفسها في أن تكون أي شيء أكثر من زوجة وأمّ، إذا كانت جميع قوى ثقافتها تخبرها أنها غير مضطرة لأن تفعل، وأنّ من الأفضل ألّا تكبر؟

وهكذا، قامت المرأة الأمريكية بخيارها الخطأ. أسرعت عائدة إلى البيت لتعيش على الجنس وحده، مبادلة شخصيتها الفردية بأمنها. وانجرّ زوجها خلفها، وأُغلق الباب في وجه العالم الخارجي. وبدآ يعيشان الكذبة الجميلة للغز الأنثوي، ولكن، هل يستطيع أيّ منهما أن يصدقها؟ فهي، في نهاية المطاف، امرأة أمريكية.. منتجَاً غير غكوس لثقافة تقف مقصّرة تمامًا عن إعطائها هوية منفصلة. وهو، في نهاية المطاف، رجل أمريكي يعتبر احترامه لفرديته وحريته في الخيار مفخرة أمته. ذهبا إلى المدرسة معًا؛ هو يعرف من هي. هل يتخّفى استعداده الخنوع لتلميع الأرضية بالشمع وغسل الصحون، عندما يعود إلى البيت تعِبًا عند الساعة 6:55، عن إدراكهما المذنب للواقع الكامن خلف الكذبة الجميلة؟ ما الذي يجعلهما يستمرّان في تصديقه، على الرغم من الإشارات المحذّرة التي نبتت فجأة على امتداد أرض الضواحي؟

ما الذي يبقي النساء في البيت؟ أية قوة في ثقافتنا هي على درجة من القوة كافية لكتابة «المهنة: ربة منزل» إلى حدّ أصبحت معه جميع الإمكانيات الأخرى للنساء غائمة تقريبًا؟

تجب خدمة القوى النافذة في هذه الأمة عن طريق هذه الصور الأسريّة الجميلة التي تحدّق بنا في كل مكان، مانعة المرأة من استخدام قدراتها في العالم. قد تكون للمحافظة على اللغز الأنثوي، بهذا المعنى، معانٍ ليست أنثوية قط. عندما يبدأ المرء التفكير في الأمر، أمريكا تعتمد بقوة نوعًا ما على تبعية النساء السلبية، على أنوثتهن. تجعل الأنوثة، إذا كان المرء ما يزال يريد أن يسميها كذلك، النساء الأمريكيات غاية البيع الجنسي وضحيته.

الفصل التاسع

البيع الجنسي

منذ بضعة أشهر، عندما بدأت أركّب أجزاء لغز انسحاب النساء إلى البيت، راودني شعور بأنّ شيئًا ما مفقود. تمكّنت من تتبع المسارات التي التفّ بها التفكير الدقيق على نفسه ليُؤبّد صورة مهجورة للأنوثة؛ تمكّنتُ من رؤية كيف تشابكت تلك الصورة مع تحيّز وإحباطات أسيء تفسيرها لإخفاء خواء «المهنة: ربة منزل» عن النساء أنفسهن.

ولكن، ما الذي يمدّ ذلك كله بالطاقة؟ إذا كان لدى قلّةٌ من النساء فقط -على الرغم من اليأس الذي لا اسم له لعدد كبير من ربات المنازل الأمريكيات، وعلى الرغم من الفرص المفتوحة لجميع النساء اليوم- هدف ما في الحياة، غير أن يكنّ زوجات وأمهات، فلابدّ وأن يكون شخصٌ ما، أو شيءٌ ما، نافذٌ إلى حدّ ما فاعلًا فعله. كانت الطاقة الكامنة وراء الحركة النسوية ديناميكية إلى حد تسرّبها حتى الجفاف؛ كان يجب أن تُغلق، أو تحوّل بشيء أكثر قوةً من قوة النساء تلك التي لم تقدّر حق قدرها.

هناك حقائق معينة في الحياة واضحة وشائعة إلى حدّ أن المرء لا يتحدث عنها أبدًا. الطفل وحده يكشفها دون تفكير: «لمَ لا يذهب الناس في الكتب إلى المرحاض؟» لمَ لا يقال إن الوظيفة الحاسمة فعلًا، إن الدور المهم فعلًا الذي تقوم به النساء بوصفهن ربات منازل هو شراء مزيد من الأشياء للمنزل. ينسى

المرء، في الحديث عن الأنوثة ودور المرأة، أنّ الأعمال الحقيقية لأمريكا هي التجارة. لكن، لتأبيد العمل المنزلي، لنمو اللغز الأنثوي، معنى (ودولارات) عندما يدرك المرء أن النساء هنّ الزبونات الأساسيات للأعمال الأمريكية. كان يجب أن يكتشف أحدٌ ما، في مكانٍ ما، وعلى نحوٍ ما، أنّ النساء يشترين مزيدًا من الأشياء إذا بقين في وضعهن ربّات منازل حيث عملهن قليل، وتوقهن لا اسم له، ولديهن طاقة يجب التخلّص منها.

ليست لدي أدنى فكرة كيف حدث ذلك. ليس صنع القرار في الصناعة سهلًا ومعقولًا، كما يدّعي أولئك الذين يؤمنون بالنظريات التآمرية في التاريخ. أنا متأكدة أنّ رؤساء جنرال فودز وجنرال إلكتريك وجنرال موتورز ومحلات ماكي وجيمبل والمدراء المتنوّعين لجميع الشركات التي تصنع المنظفات والخلاطات الكهربائية والمواقد الحمراء ذات الزوايا الدائرية والفرو الصناعي والشموع وتلوين الشعر ونماذج الخياطة المنزلية والنجارة المنزلية وغسولات تنظيف الأيدي والمبيّضات التي تحفظ المناشف ناصعة البياض لم يجلسوا قطّ حول طاولة اجتماعات من خشب الماهوجاني في غرفة مجلس الإدارة في ماديسون أفينيو أو وول ستريت، ويصوّتوا على اقتراح: «أيها السادة، أقترح، لمصلحة الجميع، أن نبدأ حملة متفق عليها بخمسين مليار دولار لوقف هذه الحركة الخطيرة للنساء الأمريكيات خارج البيت. يجب علينا أن نبقيهن ربّات منازل، دعونا لا ننسى ذلك».

يقول نائب رئيس مفكّر: «نساءٌ كثيراتٌ يتعلمن، ولا يردن البقاء في البيت. هذا غير صحي. إذا كنّ جميعًا سيصبحن عالمات وما شابه، فلن يكون لديهن وقت للتسوق. فكيف نستطيع أن نبقيهن في البيت؟ هنّ يردن مهنًا الآن».

يقترح المدير الجديد الذي يضع نظارات ذات إطار من العظم، ويحمل شهادة دكتوراه في علم النفس: «سنحررهن لتكون لديهن مهن في البيت. سنجعل التدبير المنزلي إبداعيًا».

وبالطبع، لم يحدث الأمر على ذلك النحو تمامًا. لم تكن مؤامرة

اقتصادية موجهة نحو النساء. كانت منتجًا ثانويًا لخلطنا العام مؤخرًا بين الوسائل والأهداف؛ شيءٌ ما حدث للنساء عندما بدأ خلط أعمال الإنتاج والبيع والاستثمار في الأعمال التي تهدف إلى الربح من جهة -وهذه ليست سوى الطريقة التي نُظِّم فيها اقتصادنا ليخدم حاجات الإنسان بكفاءة- بهدف أمتنا.. بغاية الحياة نفسها، من جهة أخرى. لا مزيد من الدهشة، إخضاع حيوات النساء في أمريكا لأهداف الشركات، على أن تُخضع علوم السلوك الإنساني لتجارة تضليل النساء بخصوص حاجاتهن الحقيقية. سيستغرق اقتصاديّ ذكيّ من الوقت ليكتشف ما الذي قد يبقي اقتصاد الرفاه لدينا مستمرًا إذا بدأ سوق ربات المنازل بالتناقص تمامًا ما قد يستغرقه اقتصادي ليكتشف ما الذي يجب فعله إذا لم يكن هناك تهديد بالحرب.

من السهل أن نرى لمَ حدث ذلك. عرفتُ كيف حدث عندما ذهبت لرؤية رجل يحصل على مليون دولار تقريبًا في السنة مقابل خدماته المهنية في التلاعب بعواطف النساء الأمريكيات لخدمة حاجات الأعمال. دخل هذا الرجل إلى الطابق الأرضي لعمل الإقناع الخفي في عام 1945، وواظب على تقدمه. المقرّ الرئيسي لمعهده للتلاعب الدافعي هو قصر فخم لبارون في ويستشستر العليا. جدران قاعة الرقص بارتفاع طابقين مليئة برفوف معدنية تحمل ألف دراسة ونيّف للتجارة والصناعة، و300 ألف مقابلة معمقة فردية معظمها مع ربات منازل أمريكيات[1].

تركني أرى ما أريد. وقال إنني أستطيع أن أستخدم أي شيء غير سري لشركة بعينها. ليس هناك أي شيء لإخفائه عن أي شخص أو للشعور بالذنب حياله - هناك فقط، في صفحة تلو الأخرى من تلك الدراسات العميقة، إدراك مرح لاذع للحياة الفارغة وغير الإبداعية والخالية من الهدف

(1) تم إجراء الدراسات، التي بنيتُ عليها هذا الفصل، على يد طاقم عمل معهد الأبحاث التحفيزية Institute for Motivational Research، بإدارة د. إرنست دتشر. وقد تكرم الدكتور دتشر، وزوملاؤه، بتوفير النتائج لي، وهي مُضمَّنة في ملف المعهد في كورتون-أون-هدسون في نيويورك.

وحتى الكئيبة جنسيًا التي تعيشها معظم ربات المنازل الأمريكيات. أراني هذا المُقنِع الخفي الأكثر فائدة بينهم، مستخدمًا تعابيره قليلة الحياء، الوظيفة التي يخدمها إبقاء النساء الأمريكيات ربات منازل: الخزان الذي يخلقه نقص الهوية وفقدان الهدف لديهن، والذي يجب تحويله إلى دولارات عند الشراء.

إذا ما تمّ التلاعب («إذا لم تكوني خائفة من استخدام الكلمة» كما قال) بربات المنازل الأمريكيات بشكل صحيح، فيمكن منحهن الإحساس بالهوية والهدف والإبداعية وتحقيق الذات وحتى البهجة الجنسية التي يفتقدنها عن طريق شراء الأشياء. أدركت فجأة مغزى التباهي بأن النساء يسيطرن على 75٪ من القوة الشرائية في أمريكا. رأيت فجأة النساء الأمريكيات ضحايا تلك الهبة المروّعة، تلك القوة عند لحظة الشراء. كشفت الأفكار العميقة التي شاركني بها بحرية عدة أشياء...

كشف مسح أجري في عام 1945 لصالح ناشر مجلة نسائية رائدة حول مواقف النساء من الأجهزة الكهربائية عن معضلة الأعمال. واعتبرت الرسالة محلّ اهتمام لجميع الشركات التي كان عليها، والحرب على وشك النهاية، أن تجعل المبيعات الاستهلاكية تحلّ محلّ عقود الحرب. كانت دراسة في «علم نفس التدبير المنزلي»؛ وقد حذّرت بأنه «لا يمكن فصل موقف المرأة من الأجهزة المنزلية عن موقفها من التدبير المنزلي عمومًا».

قُسمت النساء الأمريكيات، باستخدام عينة وطنية من 4500 زوجة (من الطبقة الوسطى وتعليمهن ثانوي أو جامعي)، إلى ثلاث فئات: «ربة المنزل الحقيقية» و«المرأة المهنية» و«مدبّرة المنزل المتوازنة». وفي حين تطابق 51٪ من النساء حينها مع «نمط ربة المنزل الحقيقية» («يُعتبر التدبير المنزلي من وجهة نظر نفسية اهتمام المرأة المسيطر. وفيه تحقق أقصى فخرها ورضاها في المحافظة على بيت مريح ومدار جيدًا لعائلتها. وهي تشعر -بوعي أو بلا وعي- أنه لا يمكن الاستغناء عنها، وأن لا أحد آخر يمكن

أن يتولّى عملها. ليس لديها سوى القليل من الرغبة، إن وجدت، في وظيفة خارج المنزل، وإذا كانت لديها مثل تلك الوظيفة فذلك لأنها مجبرة أو بفعل الظروف أو بفعل الضرورة»)، كان من الواضح أن هذه المجموعة تتناقص، وربما ستستمر في التناقص، لأنّ مجالاتٍ واهتماماتٍ جديدةً أصبحت الآن مفتوحة للنساء.

لكنّ أكبر سوق على الأجهزة كان سوق «ربة المنزل» هذه، على الرغم من أنّ لديها «مقاومة» معينة لقبول الأجهزة الجديدة يجب إدراكها والتغلب عليها. («فهي قد تخشى أيضًا أنها [الأجهزة] ستجعل الطريقة القديمة في القيام بالأمور التي لطالما ناسبتها غير ضرورية»). فقد كان العمل المنزلي، في نهاية المطاف، مبرّر كل وجودها. (قالت ربة منزل حقيقية: «لا أظن أنّ هناك طريقة لجعل العمل المنزلي أسهل لي، لأنني لا أعتقد أنّ الآلة يمكن أن تأخذ محل العمل بجدّ»).

مثّل النوع الثاني من النساء –المرأة المهنية أو الراغبة في أن تكون مهنية– أقلية، ولكنه كان «غير صحي» من وجهة نظر البائعين؛ حُذّر المعلنون بأنّه لن يكون في مصلحتهم أن يدعوا هذه المجموعة تكبر، لأنّ أولئك النساء، على الرغم من أنهن لسن بالضرورة ممن يشغلن وظائف، «لا يؤمنّ أنّ مكان المرأة هو أساسًا في البيت». («العديدات في هذه المجموعة لم يعملن قط فعليًا، لكنّ موقفهن هو التالي: 'أعتقد أن التدبير المنزلي هو إضاعة مرعبة للوقت. لو أنّ أبنائي كبروا بما يكفي، ولو كنت حرّة في مغادرة المنزل، لاستخدمت وقتي على نحو أفضل. لو أمكن أن يهتم أحد ما بوجبات عائلتي وغسيلها، لكان من دواعي سروري أن أخرج وأحصل على عمل'»). الفكرة التي يجب إبقائها في الذهن فيما يتعلق بالنساء المهنيات، كما قالت الدراسة، هي: صحيح أنهن يشترين الأجهزة الحديثة، ولكنهن لسن النوع الأمثل من الزبائن. فهن كثيرات الانتقاد.

النوع الثالث –ربة المنزل المتوازنة– هو «من وجهة نظر السوق، النوع

النموذجي». لديها بعض الاهتمامات الخارجية، أو شغلت عملًا ما قبل أن تعود حصريًا إلى التدبير المنزلي؛ هي «تقبل باستعداد» المساعدة التي يمكن أن تقدمها الأجهزة الميكانيكية، لكنها «لا تتوقع منها أن تقوم بالمستحيل»، لأنّها تريد أن تستخدم موهبتها الإدارية «في إدارة منزل حسن التسيير».

كان مغزى الدراسة واضحًا: «بما أن مدبرة المنزل المتوازنة تمثّل السوق ذا الإمكانات المستقبلية الأكبر، فسيكون في مصلحة مصنّعي الأجهزة أن يجعلوا المزيد والمزيد من النساء راغبات في الانتماء إلى هذه المجموعة. علّمْهن عبر الإعلانات أنّ من الممكن أن تكون لديهن اهتمامات خارجية، وأنّ يصبحن واعيات للتأثيرات الفكرية الأوسع (دون أن يصبحن نساء مهنيات). يجب أن يكون فنّ التدبير المنزلي الجيد هدف كل امرأة طبيعية».

كانت المشكلة -التي إن كان قد أدركها، في حينه، مُقنِع خفيّ لصناعة الأجهزة المنزلية، فقد أدركها بالتأكيد آخرون ينتجون منتجات منزلية- هي أنّ «جيلًا جديدًا كاملًا من النساء يجري تعليمه للقيام بأعمال خارج البيت. إضافة إلى ذلك، فإنّ رغبةً متزايدة في التحرّر أكيدةٌ». فكان الحلّ ببساطة تامة هو تشجيعهن على أن يكنّ ربات منازل «عصريات». المرأة المهنية، أو الراغبة في أن تصبح مهنية، والتي تكره بصراحة التنظيف ونفض الغبار والكيّ وغسل الملابس، أقلّ اهتمامًا بشمع جديد أو مسحوق غسيل جديد. المرأة المهنية -على عكس «ربة المنزل الحقيقية» و«مدبرة المنزل المتوازنة»، اللتين تفضلان أن يكون لديهما أجهزة كافية، وأن تقوما بالعمل المنزلي بنفسيهما- «تفضّل الخدم، لأنّ العمل المنزلي يأخذ الكثير من الوقت والطاقة». لكنها تشتري الأجهزة، سواء كان عندها خدم أم لا، لكن، «الأرجح أن تشتكي من الخدمة التي تقدمها الأجهزة»، كما أن «من الصعب بيعها».

فات الأوان على إعادة أولئك النساء، اللواتي يرغبن في أن يكنّ مهنيات، أو قد يصبحن كذلك، إلى ربات منازل حقيقيات، لكنّ الدراسة أشارت في

عام 1945 إلى إمكانية التدبير المنزلي المتوازن، أي المهنة البيتية. دعهن «يرغبن في الحصول على كعكتهن، ويأكلنها أيضًا... ويوفّرن الوقت، ويحصلن على مزيد من الراحة، ويتجنبن الوسخ والفوضى، ويحصلن على إشراف مُمَكنَن، ومع ذلك لا يردن التوقف عن الشعور بالإنجاز الشخصي والفخر في بيت حسن الإدارة، وهما أمران يأتيان من ‹قيامك بالأمر بنفسك›. وكما قالت ربة منزل شابة: ‹من اللطيف أن تكوني عصرية، كما لو أنك تديرين معملًا لديك فيه أحدث الآلات›».

لكن، لم يكن ذلك عملًا سهلًا للشركات ولا للمعلنين. غصّ السوق بآلات جديدة قادرة على القيام بكل العمل المنزلي تقريبًا؛ وكانت هناك حاجة إلى إبداع متزايد لإعطاء النساء الأمريكيات ذلك «الشعور بالإنجاز» والإبقاء مع ذلك على العمل المنزلي هدفهن الرئيسي في الحياة. توجّب باستمرار مقاومة التعليم والاستقلالية والفردية المتنامية وكل ما جعل منهن مستعدات لأهداف أخرى، وإعادة توجيهه نحو البيت.

أصبحت خدمات المتلاعب قيّمةً على نحو متزايد. وفي مسوح لاحقة، لم يعد يجري مقابلات مع نساء مهنيات؛ إذ لم يكنّ في البيت في أثناء النهار. فكانت النساء في عيناته، قصدًا، ربات منازل حقيقيات أو متوازنات، ربات المنازل الجديدات في الضواحي. المنتجات المنزلية والاستهلاكية معدّة في نهاية المطاف للنساء؛ تنفق خمسةٌ وسبعون بالمائة من جميع الميزانيات الإعلانية الاستهلاكية لاستدراج النساء؛ وهذا يعني ربات المنازل، أي النساء اللواتي تتاح مقابلتهن في أثناء النهار، النساء اللواتي لديهن وقت للتسوّق. وكانت مقابلاته المعمّقة واختباراته الإبرازية[1] و«مختبراته الحية» مصممةً بحيث تؤثّر في زبائنه، لكنّها تضمّنت في معظم الأحيان الأفكار العميقة البارعة لعالم اجتماعي ماهر، الأفكار التي يمكن استخدامها بربح.

---

(1) Projective Test: اختبار نفسي يكشف عن شخصية الشخص الذي يجري عليه الاختبار من خلال الطريقة التي يبرز فيها حقيقته لحوافز الاختبار – المترجم.

وقيلَ لزبائنه إنّ عليهم القيام بشيء ما حيال حاجة النساء الأمريكيات المتنامية هذه إلى القيام بعمل إبداعي.. «حاجة ربةِ المنزل العصريةِ غيرُ المُلبّاة الرئيسيةُ». فقد كتب في أحد التقارير على سبيل المثال:

يجب القيام بكل جهد لبيع الخلطة (س) على أنها أساسٌ تستخدم فيه المرأة جهدها الإبداعي.

يجب أن يشدّد الإغراء على حقيقة أن الخلطة (س) تساعد المرأة في التعبير عن إبداعيتها لأنها تخلصها من الإرهاق. وفي الوقت ذاته، يجب التأكيد على مناورات الطبخ والتسلية التي ترافقها بما يسمح لكِ بالشعور أنّ خَبْز الخلطة (س) هو خَبْز حقيقي.

لكنّ المعضلة مرة أخرى: كيف تجعل المرأةَ تنفق المال على الخلطة التي تزيل شيئًا من إرهاق الخَبْز عن طريق القول لها إنها «تستطيع أن تستخدم طاقتها حيث تكون مقدّرة فعلًا»، وفي الوقت نفسه، تمنعها من أن «تنشغل بحيث لا تجد وقتًا للخَبْز»؟ («أنا لا أستخدم الخلطة، لأنني لا لأقوم بأي خَبْز قط. هناك مشاكل كثيرة فيه. فأنا أعيش في شقة واسعة، فماذا عن المحافظة عليها نظيفةً، والاهتمام بطفلي، وعملي بدوام جزئي؛ لا وقت لدي للخَبْز»). ماذا أفعل حيال «شعورهم بالخيبة» عندما يخرج البسكويت من الفرن، وهو فعلًا مجرد خُبز، وليس هناك أيّ شعور بالإنجاز الإبداعي؟ («لمَ يجب أن أخبز بسكويتي في حين هناك الكثير من الأشياء الجيدة في السوق التي لا تحتاج إلّا إلى تسخين؟ لا معنى قط لتحمّل عبء القيام بخلطتك الخاصة، ثمّ تزييت الصاج، ثمّ خبز البسكويت»). ماذا تفعل حين لا تحصل المرأة على الشعور الذي كانت أمها تحصل عليه، عندما كان يجب صنع الكعك من أول العملية إلى آخرها؟ («كان عليكِ، في الطريقة التي كانت أمي تصنع بها الكعك، أن تنخلي الطحين بنفسك، وأن تضيفي البيض والزبدة، وكنت تعرفين أنّك قد صنعت شيئًا تستطيعين حقًّا أن تفخري به»).

وأكّد التقرير أن المشكلة يمكن معالجتها:

باستخدام الخلطة (س) تستطيع المرأة أن تثبت نفسها زوجةً وأمًا، لا بالخَبْز فقط، بل وبقضاء مزيد من الوقت مع عائلتها أيضًا. ... ويجب، بالطبع، أن يكون واضحًا أن الأطعمة المعّدة في البيت أفضل من جميع النواحي من تلك المعدّة في المخبز...

وامنح، فوق كل شيء، الخلطة (س) «قيمةً علاجيةً» من خلال عدم التشديد على سهولة طريقة التحضير والتشديد بالمقابل على «الجهد المحفّز للخَبْز». وهذا، من وجهة نظر إعلانية، يعني التأكيد على أنّه «مع وجود الخلطة (س) في البيت، ستكونين امرأة مختلفة... امرأة أكثر سعادةً».

إضافة إلى ذلك، قيلَ للزبون إنّ تعبيرًا في إعلانه يقول: «واصنعي تلك الكعكة بأسهل وأكسل طريقة موجودة» أثار «ردة فعل سلبية» لدى ربات المنازل الأمريكيات؛ فقد أصاب نقطة قريبة جدًا من «إحساسهن الأساسي بالذنب». («بما أنهن لا يشعرن قط أنهن يبذلن فعلًا جهدًا كافيًا، فمن الخطأ بالتأكيد القول لهنّ أنّ الخَبْز باستخدام الخلطة (س) هو الطريقة الكسولة»). وافتراض أن هذه الزوجة والأمّ المتفانية وراء موقد المطبخ، وهي تعدّ بقلقٍ كعكةً أو فطيرةً لزوجها أو أبنائها، كما أوحى، «تطلق ببساطة العنان لتوقها إلى الحلويات». والحقيقة ذاتها القائلة إن الخَبْز لربة المنزل عملٌ يساعدها على تبديد أية شكوك قد تراودها حيال دوافعها الحقيقية.

ولكن هناك طرق سهلة للتلاعب بإحساس ربات المنازل بالذنب، إذ ذكر التقرير:

قد يكون من الممكن أن توحي من خلال الإعلان أنّ عدم الاستفادة من جميع الاستخدامات الاثني عشر للمزيج يعني أنّ المرأة تحدّ من مساعيها لمنح عائلتها السعادة. يمكن إنجاز تحويل في الإحساس بالذنب. فبدلًا من إحساس المرأة بالذنب حيال استخدام الخلطة (س) للحلويات، ستُقاد إلى الشعور بالذنب إذا لم تستفد من فرصة منح عائلتها 12 متعة لذيذة ومختلفة. «لا تهدري مهارتك؛ لا تضعي حدودًا لنفسك».

مع منتصف الخمسينيات، ذكرت التقارير بسعادةٍ أنّ المرأة المهنية («المرأة التي نادت من أجل المساواة.. تقريبًا من أجل الهوية في كل ميدان من ميادين الحياة، المرأة التي ردّت على ‹العبودية المنزلية› بسخطٍ وشدّة») قد ولّت، وحلّت محلّها المرأة «الأقلّ دنيوية، الأقلّ تعقيدًا»، التي يمنحها نشاطها في جمعية أولياء الأمور والمعلمين «اتصالاتٍ واسعةً مع العالم خارج بيتها»، ولكنّها «تجد في العمل المنزلي وسيطًا للتعبير عن أنوثتها وشخصيتها الفردية». هي ليست مثل ربة المنزل المضحية بنفسها القديمة؛ فهي تعتبر نفسها مساوية للرجل. ولكّنها، مع ذلك، تشعر أنها «كسولة ومهملة ومسكونة بمشاعر الإحساس بالذنب»، لأنه ليس لديها ما يكفي من العمل تقوم به. يجب على المعلن أن يتلاعب بحاجتها إلى «إحساس بالإبداع»، ويحوّلها إلى شراء منتجه.

وهي تميل، بعد مقاومة أولية، إلى قبول القهوة السريعة والأطعمة المجمّدة والأطعمة الجاهزة والمواد التي توفّر التعب كجزء من روتينها. لكنّها تحتاج إلى تبرير، وتجده في الفكرة القائلة «إنني، باستخدام الأطعمة المجمّدة، أحرّر نفسي حتى أتمكّن من إنجاز أعمال أخرى مهمة بوصفي أمًّا وزوجة عصرية».

الإبداع جواب المرأة العصرية الديالكتيكي على مشكلة موقعها المتغير في الأسرة. الفرضية: أنا ربة منزل. الفرضية المضادة: أنا أكره العمل الشاق. حصيلتهما: أنا مبدِعة!

وهذا يعني جوهريًا أنه حتى إذا كانت ربة المنزل قد تشتري طعامًا معلبًا على سبيل المثال، وتوفر بذلك الوقت والجهد، فإنّها لا تترك الأمر يسير على هذا النحو. لديها حاجة كبيرة إلى «معالجة» العلبة، وبالتالي إلى إثبات مشاركتها الشخصية واهتمامها بإرضاء عائلتها.

يخدم الشعور بالإبداع أيضًا هدفًا آخر: إنّه منفذٌ لمواهب المرأة العصرية المحرّرة وذوقها الأفضل وخيالها الأكثر حريةً ومبادرتها الأعظم. وهو يسمح لها بأن تستخدم في البيت جميع القدرات التي يمكن أن تظهرها في مهنةٍ خارج البيت.

يشكّل التوق إلى فرص ولحظات إبداعية جانبًا رئيسيًا من جوانب دوافع الشراء.

المشكلة الوحيدة، كما تحذّر التقارير، هي أنها تحاول أن تستخدم عقلها ومحاكمتها. وسرعان ما تبتعد عن المحاكمة باستخدام المعايير الجماعية أو معايير الأغلبية. إنّها تطوّر معايير «مستقلة». («لا يهمّني الجيران. فأنا لا أريد أن أعيش وفق معاييرهم، أو أن أقارن نفسي بهم في كل مناسبة»). لا يمكن الوصول إليها دائمًا بالقول: «فلتجاري آل جونز»؛ إذ يجب أن يلتمس المعلن حاجتها هي إلى أن تعيش.

التمس ذلك الظمأ ... قل لها إنك تضيف مزيدًا من النكهة ومزيدًا من المتعة إلى حياتها، وإن في متناول يدها الآن أن تتذوق تجارب جديدة، وإنها تستحقّ أن تتذوّق هذه التجارب. وعلى نحو أكثر إيجابيةً، يجب أن تنقل لها أنك تعطيها «دروسًا في العيش».

قُدمت نصيحةٌ إلى منتج نوع معين من أجهزة التنظيف تقول: «يجب أن يكون تنظيف البيت مسليًا». وعلى الرغم من أنّ منتجَه ربما كان أقل كفاءة من المكنسة الكهربائية، فقد كان يسمح لربة المنزل أن تستخدم المزيد من طاقتها في العمل. أكثر من ذلك، كان يترك لربة المنزل أن تتوهّم بأنها قد أصبحت «محترفة.. خبيرة في تحديد أدوات التنظيف التي ستستخدمها في أعمال معينة».

شعور ربة المنزل هذا بأنها محترفة هو دفاع نفسي ضدّ أن تكون مجرّد «سيدة مكنسة» عامة وخادمة وضيعة لعائلتها في يوم تحرير العمل العام وعصره.

يخدم دور الخبيرة وظيفةً عاطفية مزدوجة: 1) يساعد ربة المنزل على تحقيق مكانة. 2) وهي تتحرك في مدار يتخطى بيتها وصولًا إلى عالم العلم الحديث في بحثها عن طرق جديدة أفضل للقيام بالأشياء.

وفي النتيجة، لم يكن هناك مناخ نفسي أفضل للأجهزة والمنتجات المنزلية. ربة المنزل العصرية في الحقيقة هجومية في مساعيها لإيجاد تلك المنتجات التي تحقق حاجتها فعلًا، حسب رأي خبيرها. هذا الاتجاه مسؤول عن شعبية المواد الشمعية والتلميعية المختلفة في البيت وعن الاستخدام المتنامي لملمّعات الأرضية وعن تشكيلة الممسحات وأدوات التنظيف للأرضيات والجدران.

تكمن الصعوبة في أن تمنحها «الشعور بالإنجاز»، الشعور بـ«تعزيز الأنا»، الذي اقتنعت بالبحث عنه في «مهنة» ربة المنزل، بينما في الواقع، «ليست المهمة التي تستهلك وقتها -التدبير المنزلي- بلا نهاية وحسب، بل هي مهمة يستخدم المجتمع لها الأفراد والمجموعات الأدنى والأقلّ تدريبًا والأكثر اضطهادًا ... يستطيع أيّ شخص يتمتع بظهر قوي كفايةً- ودماغ صغير كفايةً أن يقوم بهذه الأعمال اليومية التافهة». ولكن، حتى هذه الصعوبة يمكن التلاعب بها لبيع ربة المنزل المزيد من الأشياء:

إحدى الطرق التي تبني بها ربة المنزل هيبتها كمنظّفة لبيتها هي استخدام منتجات متخصصة لمهمات متخصصة...

عندما تستخدم منتجًا لغسيل الملابس وثانيًا للأطباق وثالثًا للجدران ورابعًا للأرضيات وخامسًا للستائر، إلخ، بدلًا من استخدام منظف لجميع الاستعمالات، فإن شعورها بأنّها مثل عامل غير ماهر يقلّ، ويزداد شعورها بأنّها مثل مهندس أو خبير.

وهناك طريقة أخرى لإشادة مكانتها الخاصة، وهي: «أقوم بالأشياء بطريقتي»؛ فتؤسّس لنفسها دور الخبيرة، وذلك بخلق مجموعتها الخاصة من «أسرار المهنة». فعلى سبيل المثال، قد يكون ذلك بأن «أضع دائمًا قليلًا من المبيّض في كلّ غسيلي -حتى الملوّن منه- لجعله نظيفًا فعلًا!»

ساعدها على «تبرير مهمتها الوضيعة، وذلك ببناء دورها الخاص بوصفها حامية العائلة؛ قاتلة الملايين من الميكروبات والجراثيم»، كما نصح التقرير. «ساعدها على أن تكون خبيرة، لا عاملة وضيعة ... اجعل العمل المنزلي مسألة معرفة ومهارة، لا مسألة قوة عضلية وكسل وجهد متواصل». وهناك طريقة فعّالة للقيام بذلك، هي تقديم منتج جديد. إذ يبدو أنّ هناك موجة متنامية من ربات المنازل «اللواتي يتطلعن إلى منتجات جديدة، لا تقلل عبء عملهن اليومي وحسب، بل وتشرك اهتمامهن العاطفي والفكري في عالم من التطوّر العلمي خارج البيت».

يلهث المرء إعجابًا بالإبداع الكامن في ذلك كله؛ تستطيع المرأة أن

تشارك في العلم ذاته بمجرد شراء شيء جديد، أو شيء قديم أعطيت له شخصية جديدة تمامًا.

بالإضافة إلى زيادة مكانة المرأة المهنية، يزيد جهاز تنظيف أو منتج جديد شعور المرأة بالأمان الاقتصادي والترف، تمامًا مثلما تفعل سيارة جديدة بالرجل. ورد ذلك على لسان 28% من النساء اللواتي أجبن على الاستبيان، حيث وافقن على هذا الرأي المحدّد: «أحبّ أن أجرب أشياء جديدة. لقد بدأت للتو أستخدم سائل تنظيف جديد، وهو، على نحو ما، يجعلني أشعر وكأنني ملكة».

ولكنّ مسألة ترك المرأة تستخدم عقلها، بل وتشارك في العلم عن طريق العمل المنزلي ليست بلا عوائق. يجب ألّا يريح العلم ربات المنازل جدًا من العمل الشاق؛ بل يجب بالأحرى أن يركّز على خلق وهمٍ بذلك الشعور بالإنجاز الذي يبدو أنّ ربات المنازل يحتجن إليه.

ولإثبات هذه النقطة، أُعطيت 250 ربة منزل اختبارًا عميقًا: طُلب منهن أن يخترن بين أربع طرق متخيّلة في التنظيف. كانت الطريقة الأولى نظامًا أوتوماتيكيًا بالكامل لإزالة الغبار والأوساخ، ويعمل باستمرار مثل نظام التدفئة المركزية. وفي الثانية، يجب على ربة المنزل أن تضغط على زر ليقلع. وكانت الطريقة الثالثة أداةً محمولةً، يجب على ربة المنزل أن تدور بها، وتوجهها إلى منطقة ما لإزالة الأوساخ منها. أما الرابعة، فكانت شيئًا عصريًا جديدًا تمامًا، وفيها تستطيع أن تكنس الوسخ بنفسها. جاء كلام ربات المنازل لصالح هذا الجهاز الأخير. إذا كان «يبدو جديدًا وعصريًا»، فستميل ربة المنزل إلى اقتناء الجهاز الذي يسمح لها أن تعمل بنفسها، كما قال التقرير. «أحد الأسباب المقنعة هو رغبتها في أن تشارك، لا أن يقتصر دورها على كبس الزر». كما لاحظت إحدى ربات المنازل. «أما بالنسبة لنظام تنظيف سحري يقوم على كبسة زر، حسنًا، ماذا سيحدث لتمريني، لإحساسي بالإنجاز، وماذا سأفعل في صباحاتي؟».

كشفت هذه الدراسة الفاتنة مصادفةً أن جهاز تنظيف إلكتروني معين

-لطالما اعتبر واحدًا من أعظم الأجهزة التي توفّر وقتنا- قد جعل فعليًا «التدبير المنزلي أكثر صعوبة مما يحتاج إليه». بدا من ردود ٪80 من ربات المنازل أولئك أنّه ما أن تشغّل المرأة هذا الجهاز حتى «تشعر أنّها مجبرة على القيام بتنظيفٍ ليس ضروريًا فعلًا». فالجهاز الإلكتروني فرض فعليًا مدى التنظيف الذي يجب القيام به ونوعه.

هل يجب إذًا تشجيع ربة المنزل على العودة إلى المكنسة الرخيصة البسيطة التي تترك لها أن تنظّف فقط بقدر ما تشعر أنه ضروري؟ لا، قال التقرير، بالطبع لا. ببساطة أعطِ تلك المكنسة العتيقة «مكانة» الجهاز الكهربائي بوصفها «ضرورة لتوفير وقت» ربة المنزل العصرية «وسترى أن مدبرة المنزل العصرية ستمتلك، وعلى نحو طبيعي، الاثنتين».

لم ينكر أحد، ولا حتى الباحثين في العمق، أنّ العمل المنزلي لا ينتهي، وأنّ تكراره الممل لا يمنح ببساطة الكثير من الرضا، ولا يتطلب الكثير من المعرفة الخبيرة التبجحية. ولكن، كانت ديمومته مفيدةً من وجهة نظر البائع. كانت المشكلة هي إبعاد الإدراك الأساسي الذي يكمن بخطرٍ في «آلاف المقابلات المعمقة التي أجريناها حول عشراتٍ من الأنواع المختلفة من منتجات التنظيف المنزلي»- إدراك أنه، كما قالت إحدى ربات المنازل، «أمر مرهق! يجب أن أقوم به، فأقوم به. إنه شرّ لابدّ منه، هذا كل ما في الأمر». ماذا تفعل؟ قدّمْ لشيءٍ واحدٍ المزيد والمزيد من المنتجات، اجعل التعليمات أكثر تعقيدًا، اجعل من الضروري فعلًا لربة المنزل أن «تكون خبيرةً». (قدّمَ التقرير نصيحةً مفادها أنّ غسل الملابس يجب أن يصبح أكثر من مسألة رمي الملابس في الغسالة وصب الصابون عليه. يجب فرز الألبسة بعناية، بعض الألبسة تحتاج برنامج الغسيل (A)، وبعضها تحتاج البرنامج (B) وبعضها يجب غسله باليد. وعندها يمكن لربة المنزل أن «تشعر بفخر عظيم من معرفة أيّ منتج من مستودع المنتجات تلك تستخدم في كل مناسبة»).

وتابع التقرير: استفدْ من «إحساس ربة المنزل بالذنب حيال الوسخ المخفي»، حتى تفلّي بيتها فليًا في عملية «تنظيف شامل»، وهو ما يمنحها «إحساسًا بالكمال» عدّة أسابيع. («أوقات التنظيف الشامل هي الأوقات التي تكون فيها مستعدة أعلى استعداد لتجريب منتجات جديدة، وإعلان ‹التنظيف الشامل› يحمل الوعد بالكمال»).

ويجب أن يؤكّد البائع أيضًا على بهجة القيام بكل مهمة منفصلة متذكرًا أن «جميع مدبرات المنازل تقريبًا، حتى أولئك اللواتي يمقتن عملهن جدًا، يجدن، ويا للمفارقة، مهربًا من قدرهن النهائي بقبوله؛ بـ‹إلقاء نفسي فيه› كما تقول ربة المنزل».

> تنسى لوهلة، وقد استغرقت في عملها –محاطةً بكل الأدوات والكريمات والمساحيق والصابون- كيف سيكون عليها أن تقوم بالمهمة مرة أخرى عاجلًا. بكلمات أخرى، تسمح ربة المنزل لنفسها أن تنسى لحظةً أنّ حوض المجلى سيمتلئ بسرعةٍ مرة أخرى بالصحون، وأنّ الأرض ستتسخ بسرعةٍ مرة أخرى، وتتمسّك بلحظة إنجاز مهمةٍ ما على أنّها لحظةٌ من السعادة الخالصة، كما لو أنّها أنهت للتو تحفةً فنيةً سترتفع مثل نصب تذكاري يشيد بها إلى الأبد.

هذا هو نوع التجربة الإبداعية الذي يمكن أن يمنحه بائع الأشياء لربة المنزل. وحسب تعبير إحدى ربات المنازل:

> لا أحب العمل المنزلي مطلقًا. أنا عاملة منزلية وسخة. لكنني بين فترة وأخرى أصبح نشيطة، وأذهب إلى المدينة فعلًا... عندما أحصل على نوع جديد من مواد التنظيف –مثلما حدث عندما ظهر جلاس واكس (Glass Wax) للمرة الأولى أو مُلمّعات الأثاث السيليكونية تلك- فإنني أستمتع به فعلًا، وأحوم في البيت ملمّعةً كل شيء. أحبّ أن أرى الأشياء تلمع. أشعر بأنني على ما يرام عندما أرى الحمّام يتلألأ.

وهكذا يقدّم المتلاعب نصيحته:

> طابق منتجك مع المكافآت المادية والروحية التي تحصل عليها ربة المنزل من الإحساس شبه الديني بالأمان الأساسي الذي يؤمّنه بيتها. تحدّث عن

«مشاعرها المسالمة السعيدة الخالية من الهموم» وعن «شعورها العميق بالإنجاز». ... لكن، تذكّر أنها لا تريد المديح من أجل المديح ... وتذكّر أيضًا أنّ مزاجها ليس «مرحًا» ببساطة. هي متعبة ومكتئبة قليلًا. ظاهريًا، الصفات أو الألوان البهيجة لا تعكس مشاعرها. وهي تستجيب بتفضيل أكبر للرسائل البسيطة والدافئة والمخلصة.

وجاء في الخمسينيات الاكتشاف الثوري لسوق المراهقات. بدأت المراهقات والمتزوجات الشابات يظهرن على نحو بارز في التقارير. اكتُشف أن الزوجات الشابات اللواتي لم يذهبن إلّا إلى المدرسة الثانوية، ولم يعملن قط، هنّ الأكثر «قلقًا» والأقلّ استقلاليةً، واللواتي يكون البيع لهنّ أسهل. يمكن القول لهؤلاء الشابات أنهن يستطعن، من خلال شراء الأشياء الصحيحة، أن يحققن المكانة التي للطبقة الوسطى، دون عمل أو دراسة. من شأن البيع القائم على أساس مجاراة آل جونز أن ينفع مرة أخرى؛ لم تكن الفردية والاستقلالية اللتان تحصل عليهما النساء الأمريكيات من التعليم والعمل خارج المنزل مشكلةً كبيرةً مع العرائس المراهقات. وذكر التقرير: في الحقيقية إذا كان من الممكن ترسيخ نمط «السعادة عن طريق الأشياء»، عندما تكون تلك النساء صغيرات بما يكفي، فيمكن تشجيعهن بأمان على الخروج والحصول على عمل بدوام جزئي لمساعدة أزواجهن على دفع ثمن كل الأشياء التي يشترونها. كانت الفكرة الرئيسية الآن هي إقناع المراهقات أنّ «السعادة عن طريق الأشياء» لم تعد امتيازًا للأغنياء أو الموهوبين؛ بل يمكن أن يستمتع بها الجميع إذا تعلّموا «الطريقة الصحيحة»، الطريقة التي يقوم بها الآخرون، إذا تعلّموا حرج أن تكون مختلفًا.

وبكلمات أحد هذه التقارير:

كانت 49% من العرائس الجديدات مراهقات. ومزيد من الفتيات يتزوجن في عمر الثامنة عشرة أكثر مما يتزوّجن في أي عمر آخر. وهذا التكوين المبكر للعائلة يُنتج عددًا أكبر من الشباب الذين هم على عتبة تحمل مسؤولياتهم واتخاذ قراراتهم في الشراء...

لكنّ الحقيقة الأكثر أهمية هي ذات طبيعة نفسية: فالزواج اليوم ليس مجرّد ذروة ارتباط رومانسي. بما أنه أكثر وعيًا وأكثر وضوحًا مما كان في الماضي، فهو أيضًا قرار بإقامة شراكة لتأسيس بيت مريح مجهّز بعدد كبير من المنتجات المرغوبة.

وجدنا، من خلال الحديث إلى عشرات من الأزواج الشباب والفتيات المقبلات على الزواج، أن أحاديثهن وأحلامهن كانت، كقاعدة عامة، تدور إلى درجة كبيرة حول بيوتهن المستقبلية وفرشها وحول التسوّق «لأخذ فكرة»، وحول مناقشة محاسن ومساوئ المنتجات المختلفة ...

العروس العصرية مقتنعة بقوة بالقيمة الفريدة للحب الزوجي وبإمكانيات إيجاد السعادة الحقيقية في الزواج وتحقيق مصيرها الشخصي في الزواج وعن طريقه.

لكنّ فترة الخطوبة في هذه الأيام ليست رومانسيةً وحالمةً ومُسكرةً إلّا لمدة محدودة. قد يكون من الآمن القول إنّ فترة الخطوبة تنحو إلى أن تكون تدريبًا على واجبات الزواج ومسؤولياته المادية. وفي أثناء انتظار العرس، يعمل الزوجان بجدّ، ويدّخران المال لشراء مشتريات معينة، ويبدآن حتى الشراء وفق خطة بالتقسيط.

ما المعنى الأعمق لهذا الخليط الجديد من القناعة شبه الدينية بأهمية الحياة الزوجية وجمالها، من جانب، ووجهة النظر المرتكزة على المنتج، من جهة أخرى؟...

تبحث العروس العصرية عن هدف واعٍ رأته جدّتُها، في العديد من الحالات، قدرًا أعمى، ورأته أمها عبوديةً. هذا الهدف هو أن تنتمي إلى رجل، وأن يكون لها بيت وأولاد، وأن تختار من بين جميع المهن الممكنة مهنة الزوجة-الأمّ-مدبّرة المنزل.

قيل للمعلنين إنّ للحقيقة القائلة بأنّ العروس الشابة تبحث الآن في زواجها عن «التحقق» التام، وأنها تتوقع الآن أن «تثبت قيمتها»، وأن تجد كل «المعاني الأساسية» للحياة في بيتها، وأن تشارك من خلال بيتها في «الأفكار المثيرة للعصر الحديث والمستقبل»، هي «تطبيقات عملية» هائلة.

لأنّ جميع هذه المعاني التي تبحث عنها في زواجها، حتى خوفها من أن «تُترَك خلفًا»، يمكن توجيها نحو شراء المنتجات. فعلى سبيل المثال، قيل لصانع منتجات من الفضة الإسترلينية، وهي منتَجات من الصعب جدًا بيعها:

> أكّد لها من جديد أنّها بالفضة الإسترلينية وحدها يمكن أن تكون آمنة تمامًا في دورها الجديد... فهي ترمز إلى نجاحها كامرأة عصرية. وفوق ذلك، صوّر لها، بطريقة درامية، التسلية والفخر اللذين تحصل عليهما من تنظيف الفضة. حرّض عندها فخر الإنجاز. «كم ستشعرين بالفخر وأنت تقومين بتلك المهمة الصغيرة المليئة بالتسلية...».

وعلاوةً على ذلك، قدّم هذا التقرير نصيحةً بالتركيز على الفتيات المراهقات الصغيرات جدًا. فالصغيرات يردن ما تريده «الأخريات»، حتى إذا كانت أمهاتهن لا يردنه. («كما قالت إحدى مراهقاتنا: ‹لقد بدأت كل الشلة بتشكيل مجموعاتهن الخاصة من الفضة الإسترلينية. نحن متحمسات حقيقيات لها.. نقارن النماذج، ونبحث في الإعلانات معًا. لم تملك عائلتي أية فضة إسترلينية، وهم يعتقدون أنني أتباهى عندما أنفق مالي عليها، لأنهم يعتقدون أن المصنوعات المطليّة تتمتّع بالجودة ذاتها. لكنّ البنات يعتقدن أنهم مخطئون›»). فلتصل إليهن في المدارس والكنائس ونوادي الفتيات والنوادي الاجتماعية. فلتصل إليهن عن طريق مدرّسي الاقتصاد المنزلي وقادة المجموعات وبرامج المراهقين التلفزيونية والإعلانات الموجهة للمراهقين. «هذا هو سوق المستقبل الكبير، والإعلان، الذي يعتمد على نقل الأحاديث من شخص لآخر بالإضافة إلى ضغط المجموعة، ليس التأثير الأكثر فعالية وحسب، بل هو -في غياب التقليد- تأثير ضروري جدًا أيضًا».

أمّا فيما يخص الزوجة الأكبر سنًا والأكثر استقلالية، فيمكن تلبية تلك النزعة التعيسة إلى استخدام مواد لا تتطلب إلّا القليل من العناية -أطباق من الستانلس ستيل أو من البلاستيك أو المناديل الورقية- بجعلها تشعر بالذنب نتيجة أثرها على الأطفال. («كما قالت لنا زوجةٌ شابةٌ: ‹أنا خارج البيت طوال اليوم، وبالتالي لا أستطيع أن أحضّر الوجبات، وأقدّمها بالطريقة

التي أريد. لا أحبّ الأمر على هذا النحو؛ فزوجي وأولادي يستحقون راحةً أفضل. أفكّر أحيانًا بأنّه قد يكون من الأفضل أن نتدبّر أمرنا براتب واحد، ونحصل على حياة بيتية حقيقية، لكن هناك دائمًا أشياء كثيرة نحتاج إليها»). يؤكّد التقرير على أن ذلك الإحساس بالذنب يمكن استخدامه لجعلها ترى المنتج -الفضة- على أنه وسيلة لتماسك العائلة؛ فهو يمنح «قيمة نفسية مضافة». أكثر من ذلك، يستطيع المنتج حتّى أن يلبّي حاجة ربة المنزل إلى الهوية: «أوحِ أنّه يصبح فعلًا جزءًا منك، يعكسك. لا تخش الإيحاء، على نحو غامضٍ، بأنّ الفضة الإسترلينية ستكيّف نفسها مع أي بيت وأي شخص».

وأشار تقرير آخر إلى أنّ صناعة الفرو تعاني من المشاكل، لأنّ فتيات المدارس الثانوية والجامعات الشابات يساوين بين معاطف الفرو و«انعدم النفع» و«الخليلة». ومرّة أخرى، كانت النصيحة هي الوصول إلى الفتيات الصغيرات جدًا قبل أن تتشكل لديهن مثل هذه الأفكار التعيسة. («بإطلاع الشابات على تجارب إيجابية مع الفرو تتعزّز احتمالات تسهيل طريقهن إلى شراء الملابس في سنوات المراهقة»). أشر إلى أنّ «ارتداء ثوب من الفرو يوطّد أنوثة المرأة وجنسانيتها». («إنه الشيء الذي تتطلع الفتاة إليه. إنه يعني شيئًا ما. إنه أنثوي». «إنني أربّي ابنتي على نحو صحيح. هي دائمًا تريد أن ترتدي ‹معطف الماما›. ستريد هذه الأشياء. إنها فتاة حقيقية»). لكن، تذكّر أنّ «فرو المِنْك قد مثّل رمزية أنثوية سلبية لكامل سوق الفرو». لسوء الحظ، كانت اثنتان من كل ثلاث نساء يشعرن أنّ لابسات فرو المنك هنّ «نهّابات... مستغلات... اتكاليّات... غير منتجات اجتماعيًا...».

وقال التقرير: إن الأنوثة اليوم لا يمكن أن تكون نهّابة واستغلالية على هذا النحو الصريح، كما لا يمكن أن تكون لديها «الأفكار القائمة على التميّز عن بقية الحشد والتمركز على الذات» التي قامت عليها آخر صيحات الموضة في الماضي. وهكذا، يجب الحدّ من «التوجّه نحو الأنا» في الفرو،

واستبداله بالأنوثة الجديدة لربة المنزل، التي يجب ترجمة التوجّه نحو الأنا بالنسبة لها إلى «الوجود معًا» والتوجّه نحو العائلة.

> ابدأ بخلق الشعور بأن الفرو ضرورة.. ضرورة مبهجة... وبالتالي، امنح الزبونة إذنًا أخلاقيًا بشراء شيء تشعر الآن أنّه موجّه نحو الأنا. ... امنح أنوثة الفرو شخصية أوسع، مطوّرًا بعض الرموز الآتية التي تدلّ على الهيبة والمكانة: امرأة سعيدة عاطفيًا... زوجة وأمّ تحظى بحب زوجها وأبنائها واحترامهم نتيجة ما هي عليه من شخصية، ونوعية الدور الذي تقوم به. ...

> ضع ملابس الفرو في محيط عائلي؛ أظهر السعادة والإعجاب اللذين تحصل عليهما العائلة والزوج والأبناء بفعل ثوب من الفرو؛ أظهر فخرهم بمظهر أمهم، بامتلاكها ثوبًا من الفرو. طوّر ألبسة من الفرو لتكون بمثابة هدايا «عائلية».. مكّن جميع العائلة من الاستمتاع بذلك الثوب في عيد الميلاد وغيره، وهكذا تقلّل من توجهه نحو الأنا بالنسبة لصاحبته، وتزيل إحساسها بالذنب نتيجة انغماسها بالملذات الظاهرية.

وهكذا، فقد كانت الطريقة الوحيدة التي يفترض بربة المنزل أن تعبّر بها عن نفسها، ولا تشعر بالذنب حيالها، هي شراء منتجات للبيت والعائلة. وأية دوافع إبداعية قد تكون لديها يجب أيضًا أن تكون موجهّة نحو البيت والعائلة، كما ذكر تقرير آخر لصناعة الخياطة المنزلية.

> تحقّق تلك النشاطات، من مثل الخياطة، معنى جديدًا ومكانة جديدة. فالخياطة لم تعد مترافقة مع الحاجة المطلقة. ... إضافة إلى ذلك، مع الارتفاع المعنوي للنشاطات الموجهة نحو المنزل، فإن الخياطة –وكذلك الطبخ والبستنة والديكور المنزلي– تقدّر بوصفها وسيلة للتعبير عن الإبداعية والفردية، وكذلك وسيلة لتحقيق «النوعية» التي يفرضها مستوى جديد من الذوق.

النساء اللواتي يخطن، كما اكتشف هذا المسح، هنّ ربات المنازل العصريات النشيطات الفعّالات الذكيات، النساء الأمريكيات العصريات الجديدات الموجهات نحو البيت، اللواتي لديهن حاجة كبيرة غير مشبعة إلى الإبداع والإنجاز وتحقيق الشخصية الفردية، التي يجب أن تمتلئ

بنشاط بيتي ما. كانت المشكلة الكبيرة لصناعة الخياطة المنزلية هي أنّ «صورة» الخياطة «باهتة»؛ فهي على نحو ما لم تحقّق الشعور بإبداع شيء مهم. فيجب على الصناعة عند بيع منتجاتهن أن تركّز على «الإبداع الدائم» في الخياطة.

ولكن، حسب النصيحة المقدمة إلى منتج أحد النماذج، لا يمكن حتى للخياطة أن تكون مبدعة جدًا أو فردية جدًا. كانت متابعة نماذجه تتطلب بعض الذكاء، وتترك مجالًا واسعًا للتعبير الفردي، وكان المنتِج يعاني من المشاكل لذلك السبب بالضبط؛ فقد كانت نماذجه تفترض أنّ المرأة «تعرف ما تحب، وربما تكون لديها أفكار محددة». ونُصِح بتوسيع هذه «الشخصية في الموضة المحدودة جدًا»، وأن يحصل على شخصية تحقّق «توافقًا في الموضة مع ما هو سائد»، وتروق لـ«المرأة غير المطمئنة لأزيائها»، «عنصر المتوافقة مع الموضة» التي تشعر «أن ليس من الأناقة أن تلبس على نحو مختلف جدًا». لأنّ مشكلة المنتج بالطبع لم تكن تلبية حاجة المرأة إلى الفردية والتعبير والإبداعية، بل أن يبيع المزيد من النماذج، وهو ما يتحقق على نحو أفضل من خلال بناء توافقٍ مع الموضة.

حلّلت التقارير، المرة تلو المرة، وعلى نحو ثاقب، حاجات ربة المنزل الأمريكية، بل وإحباطاتها السرية؛ وكان من الممكن تحريضها في كل مرّة، إذا ما تمّ التلاعب بتلك الحاجات بشكل صحيح، على شراء المزيد من «الأشياء». ففي عام 1957، ذكر تقرير للمتاجر الشاملة أنّ دورها في هذا العالم الجديد لا يقتصر على «بيع» ربة المنزل وحسب، بل وأن يشبع حاجتها إلى «التعليم»؛ أن يشبع توقها، وهي تجلس وحيدة في البيت، إلى الشعور بأنّها جزء من العالم المتغير. سيبيعها المتجر المزيد، كما قال التقرير، إذا فهم أنّ الحاجة الحقيقية، التي تحاول المرأة إشباعها عن طريق التسوّق، ليست شيئًا يمكنها أن تشتريه فيه.

لدى معظم النساء، لا حاجة مادية فحسب، بل ونوع من الإكراه النفسي على

زيارة المتاجر الشاملة. هنّ يعشن في عزلة نسبية. أفقهن محدود وكذلك تجاربهن. وهنّ يعرفن أنّ هناك حياة أوسع أبعد من أفقهن، ويشعرن بالخوف من أن تتجاوزهن الحياة.

تحطّم المتاجر الشاملة تلك العزلة. فالمرأة التي تدخل متجرًا شاملًا تشعر فجأةً أنها تعرف ما يجري في العالم. المتاجر الشاملة، أكثر من المجلات أو التلفاز أو أية وسيلة اتصال جماهيرية أخرى، هي مصدر المعلومات الرئيسي لدى النساء فيما يتعلق بجوانب الحياة المتنوعة...

وتابع هذا التقرير: هناك حاجات عديدة يجب أن يلبيها المتجر الشامل. فأولًا، ربة المنزل «بحاجة إلى أن تتعلّم وتتقدّم في الحياة».

نحن نرمز لمكانتنا الاجتماعية بالأشياء التي نحيط أنفسنا بها. فالمرأة التي كان زوجها يكسب ستة آلاف دولار منذ بضع سنوات، وهو الآن يكسب عشرة آلاف، تحتاج إلى أن تتعلم مجموعة جديدة كاملة من الرموز. والمتاجر الشاملة هي أفضل معلميها في هذا الموضوع.

وثانيًا، هناك الحاجة إلى الإنجاز، التي تشبعها ربة المنزل العصرية الجديدة أساسًا عن طريق «صفقة».

لقد وجدنا في اقتصاد الوفرة الذي نعيش فيه، أن الاهتمام بالأسعار ليس -إلى درجة كبيرة- حاجة مالية، بقدر ما هو حاجة نفسية لدى غالبية النساء. ... وبالتالي، فكلمة «صفقة» لا تعني -وعلى نحو متزايد- أنني «أستطيع الآن أن أشتري شيئًا لم أتمكن من تأمين المال اللازم لشرائه بسعر أعلى»، بل تعني أساسًا «إنني أقوم بعمل جيد بوصفي ربة منزل؛ إنني أسهم في رفاه العائلة، مثلما يفعل زوجي تمامًا عندما يعمل، ويحضر إلى البيت شيك الراتب».

السعر في حدّ ذاته لا يكاد يهمّ، قال التقرير:

بما أنّ الشراء هو مجرّد ذروة علاقة معقّدة، تستند -إلى حد كبير- إلى توق المرأة إلى معرفة كيف تكون امرأة جذّابة وربة منزل أفضل وأمًّا خارقة، إلخ، فاستخدمْ هذا الدافع في جميع نشاطك الترويجي والإعلاني. اغتنم كل فرصة لتشرح لها كيف سيساعدها متجرك على تحقيق أعزّ أدوارها في الحياة...

إذا كانت المتاجر مدارس المرأة في الحياة، فالإعلانات هي كتبها المدرسية.

لديهنّ شره لا ينضب إلى هذه الإعلانات التي تمنحهنّ الوهم بأنهنّ على اتصال مع ما يجري في عالم الأشياء غير الحية، أشياء يعبّرن من خلالها كثيرًا عن الكثير من دوافعهنّ...

مرّة أخرى، أشار تقرير في عام 1957، بمنتهى الدقة، إلى أنه على الرغم من «الجوانب الإيجابية العديدة للحقبة الجديدة التي تركّز على البيت»، فإنّ عددًا زائدًا من الحاجات قد تركّز، لسوء الحظ، على البيت، إلى حدّ أنّ البيت لم يكن قادرًا على أن يفي بها. هل هذا سببٌ لإطلاق جرس الإنذار؟ لا، في الواقع؛ فحتى هذه الحاجات هي مصدر للتلاعب.

ليست العائلة دائمًا هي القدر الذهبي النفسي الموجود عند نهاية قوس قزح الوعد بحياة عصرية، كما زُعم أحيانًا. وفي الحقيقة، توضع على العائلة اليوم مطالب نفسية لا تستطيع تلبيتها...

ولحسن حظ المنتجين والمعلنين في أمريكا (وأيضًا العائلة والرفاه النفسي لمواطنينا)، يمكن ملء الكثير من هذه الفجوة بالحصول على سلع استهلاكية.

تفي مئات المنتجات بمجموعة كاملة من الوظائف النفسية التي يجب أن يعرفها المنتجون والمعلنون، ويستخدموها في تطوير طرق في البيع أكثر كفاءةً. وتمامًا مثلما خدم الإنتاج يومًا متنفسًا للتوتر الاجتماعي، فالاستهلاك الآن يخدم الهدف نفسه.

يصرّف شراء الأشياء تلك الحاجات التي لا يمكن فعلًا إشباعها عن طريق البيت والعائلة؛ حاجة ربات المنازل «إلى التطابق مع شيء يتجاوز أنفسهن»؛ «إحساسٌ بالحركة مع الآخرين نحو أهداف تمنح الحياة معنى وهدفًا»، «هدفٌ اجتماعي غير مفنّد يمكن لكل فرد أن يكرّس جهوده له».

هناك حاجة عميقة في الطبيعة البشرية إلى شغل مكان ذي معنى في مجموعة تسعى إلى تحقيق أهداف اجتماعية ذات معنى. وعندما لا يتحقق ذلك، يصبح الفرد قلقًا. وهذا يفسّر لماذا نسمع، عندما نتحدث إلى الناس على امتداد الوطن، المرّة تلو المرّة، أسئلةً من مثل: «ما معنى كل ذلك؟». «إلى أين أذهب؟». «لمَ لا تبدو الأشياء أجدر فيمَ نعمل جميعًا بجدّ، ونملك الكثير من

الأشياء لنلعب بها؟».

السؤال هو: هل يستطيع منتجك أن يملأ هذه الفجوة؟

كانت «الحاجة المحبَطة إلى الخصوصية في الحياة العائلية»، في هذه الحقبة من «الوجود معًا»، أمنيةً سريةً أخرى تكشّفت في مسح معمق. ولكن، يمكن استخدام هذه الحاجة لبيع سيارة ثانية...

إضافة إلى السيارة التي تستمتع العائلة كاملة بها معًا، هناك السيارة للزوج والزوجة، كلّ على حدة؛ «قد يحصل المرء على استراحة قصيرة يحتاجها بشدة في السيارة وحده. وقد يفكّر في السيارة بوصفها قلعته الخاصة أو وسيلته لاستعادة الخصوصية». أو معجون الأسنان أو الصابون أو الشامبو «الفردي»، «الشخصي».

أشار مسح آخر إلى أنه كان هناك «نزعًا [محيّرًا] للجنس من الحياة الزوجية»، على الرغم من التأكيد الشديد على الزواج والأسرة والجنس. المشكلة: ما الذي يمكن أن يؤمّن ما شخّصه التقرير على أنه «غياب الشرارة الجنسية؟» الحل: نصح التقرير البائعين بـ«إعادة الليبيدو إلى إعلاناتهم». على الرغم من الشعور بأنّ منتجينا يحاولون بيع كل شيء من خلال الجنس، فإن الجنس -كما وجد في الدعايات التلفزيونية والإعلانات في المجلات الوطنية- تنقصه الحرارة جدًا، وهو ضيّق جدًا، كما ذكر التقرير. تزيل «الاستهلاكية» الرغبة الجنسية من الأمريكيين لأنها «فشلت في أن تعكس قوى الحياة الفاعلة في كل فرد، وهو ما يتجاوز بكثير العلاقة بين الجنسين». يبدو أن البائعين قد أخرجوا الجنسانية من الجنس، باستخدام الجنس نفسه[1].

يعكس معظم الإعلان العصري نزعتنا الوطنية الحالية نحو الحطّ من مكانة الجوانب المثيرة والمتمردة والحماسية في دوافع الحياة لدى الجنس البشري وتبسيطها وتقليلها، ويبالغ جدًا في تلك النزعة. ... لا أحد يفترض أن الإعلان يمكن، أو يجب، أن يصبح فاحشًا أو بذيئًا. تكمن المشكلة في أنه، من خلال

(1) في الأصل: sexed the sex out of sex – المترجم.

جبنه ونقص الخيال فيه، يواجه خطر أن يصبح فقيرًا في الليبيدو، وبالتالي غير واقعي وغير إنساني ومضجر.

كيف نستعيد الليبيدو، ونسترجع العفوية المفقودة والدافع وحب الحياة والفردية، وهي الأمور التي يبدو أن الجنس في أمريكا يفتقدها؟ يستنتج التقرير، في لحظة من شرود الذهن، أنّ «حبّ الحياة، بدءًا من الجنس الآخر، يجب أن يبقى غير ملوّث بالدوافع الخارجية... دع الزوجة تكون أكثر من ربة منزل... يجب أن تتحول إلى امرأة...».

دُعيت ذات يوم، وقد غمرت نفسي في الأفكار المتنوعة لهذه التقارير التي لطالما قُدّمت إلى المعلنين الأمريكيين على مدى السنوات الخمس عشرة الماضية، إلى تناول الغداء مع الرجل الذي يدير عملية البحث الدافعي تلك. ولقد كان مفيدًا جدًا في إظهاره لي القوى التجارية الكامنة وراء اللغز الأنثوي، وربما استطعت أن أكون مفيدة له. سألت بسذاجة: ما دام وجد من صعوبة كبيرة في منح النساء شعورًا حقيقيًا بالإبداع والإنجاز في العمل المنزلي، وحاول أن يخفّف من إحساسهن بالذنب والتحرّر من الوهم والإحباط، عن طريق جعلهنّ يشترين المزيد من «الأشياء»، فلماذا لا يشجعهنّ على شراء الأشياء بناءًا على ما تساويه تلك الأشياء، بحيث يكون لديهنّ الوقت للخروج من البيت والسعي وراء أهدافٍ إبداعيةٍ فعلًا في العالم الخارجي.

فقال: «لكننا ساعدناها في إعادة اكتشاف البيت بوصفه التعبير عن إبداعها. نساعدها على التفكير في البيت العصري، كما لو أنه استديو الفنان أو مختبر العالم». وهزّ كتفيه متابعًا: «وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ معظم المنتجين، الذين نتعامل معهم، ينتجون أشياء لها علاقة بالتدبير المنزلي».

وتابع: «يجب علينا في اقتصاد السوق الحر أن نطوّر الحاجة إلى منتجات جديدة. وحتى نفعل ذلك، يجب علينا أن نحرّر النساء حتى يرغبن بهذه المنتجات الجديدة. نساعدهنّ على إعادة اكتشاف أنّ التدبير المنزلي

أكثر إبداعًا من التنافس مع الرجال. وهذا يمكن التلاعب به. نبيعهنّ ما يجب أن يردنه، نسرّع اللاوعي، نسير به قدمًا. المشكلة الكبيرة هي تحرير المرأة من خوفٍ: ما الذي سيحصل لها إذا لم تكن مضطرةً إلى قضاء وقت طويل في الطبخ والتنظيف».

قلت: «هذا ما أعنيه. لماذا لا يقول إعلان خلطة الشطيرة للمرأة أنها تستطيع أن تستخدم الوقت الذي توفّره لتكون عالمة فلك مثلًا؟»

فأجاب: «ليس ذلك صعبًا جدًا. بضع صور.. عالمة الفلك تحصل على رجلها، عالمة الفلك بطلةٌ، اجعلي من الساحر للمرأة أن تكون عالمة فلك... ولكن لا». وهزّ كتفيه مرّة أخرى. «سيخاف الزبون كثيرًا. فهو يريد أن يبيع خلطة الشطيرة. يجب أن تريد المرأة البقاء في المطبخ. والمنتج يريد أن يأسرها مرة أخرى في المطبخ.. ونحن نريه كيف يفعل ذلك بشكل صحيح. إذا قال لها إنّ كل ما تستطيع فعله هو أن تكون زوجةً وأمًا، فستبصق في وجهه. أما نحن فنريه كيف يقول لها إنّ من الإبداع أن تكون في المطبخ. نحن نطلق حاجتها إلى أن تكون إبداعيةً في المطبخ. إذا قلنا لها أن تكون عالمة فلك، فربما تبتعد عن المطبخ». وأضاف: «إضافة إلى ذلك، إذا أردت أن تقومي بحملة لتحرير النساء ليصبحن عالمات فلك، فيجب أن تجدي أحدًا من مثل جمعية التعليم الوطنية ليدفع من أجل ذلك».

يجب أن يُمنح الباحثون الدافعيون الفضل على تبصراتهم في واقع حياة ربة المنزل وحاجاتها.. واقعٌ يفوت غالبًا على زملائهم في علم الاجتماع الأكاديمي وعلم النفس العلاجي، الذين رأوا النساء عبر الستار الوظيفي- الفرويدي. واكتشف المتلاعبون، لمصلحتهم ومصلحة زبائنهم، أنّ لدى الملايين من ربات المنازل الأمريكيات، اللواتي يفترض أنهن سعيدات، حاجاتٌ معقّدةٌ لا يمكن للبيت والعائلة والحب والأولاد أن يشبعوها. لكن، إذا استندنا إلى أخلاقيةٍ تتجاوز الدولار، فإنّ المتلاعبين مذنبون باستخدام أفكارهم لبيع النساء أشياء لن تلبي قط تلك الحاجات الملحّة باضطراد،

مهما كانت مبتكرة. هم مذنبون، لأنّهم يقنعون ربات المنازل بالبقاء في البيت مسمّرات أمام التلفاز، وحاجاتهن غير الجنسية مجهولة وغير مُشبَعة ومنصرفة بفعل البيع الجنسي إلى شراء الأشياء.

لا يمكن، إلّا بصعوبة، اتهام المتلاعبين وزبائنهم في عالم الأعمال الأمريكي بخلق اللغز الأنثوي. لكنهم الأكثر قوةً بين من يسعون إلى تأبيده؛ وملايينهم هي التي تغطي الأرض بصور مقنعةٍ تتملّق ربة المنزل الأمريكية، وتحوّل إحساسها بالذنب، وتخفي شعورها المتزايد بالخواء. لقد قاموا بذلك بنجاحٍ كبير، إذ استخدموا تقنيات ومفاهيم العلم الاجتماعي الحديث، وحوّلوها إلى تلك الإعلانات والدعايات الشائنة الذكية البسيطة على نحو مخادع، إلى حدّ أن مراقبًا للمشهد الأمريكي اليوم يقبل فكرة أن الغالبية العظمى من النساء الأمريكيات ليس لديهنّ أيّ طموح غير أن يكنّ ربات منازل على أنها حقيقة. إذا لم يكونوا مسؤولين كليّةً عن إرسال النساء إلى البيت، فهم بالتأكيد مسؤولون عن إبقائهن فيه. من الصعب تفادي خطابهم المتواصل في هذا الزمن من الاتصالات الجماهيرية؛ لقد سكبوا اللغز الأنثوي عميقًا في عقل كل امرأة، وفي عقول زوجها وأولادها وجيرانها. لقد جعلوا منه جزءًا من نسيج حياتها اليومية، ووبّخوها لأنّها ليست ربة منزل أفضل، ولا تحب عائلتها كفايةً، ولأنها تهرم.

هل يمكن لامرأة قط أن تشعر أنها على ما يرام وهي تطبخ على موقد قذر؟ لم يتمكن أحد حتى الآن من إبقاء الموقد نظيفًا فعلًا. الآن، لمواقد (RCA Whirlpool) أبوابٌ للفرن يمكن فكّها، وأدراجٌ للشواء يمكن تنظيفها في الحوض، وصفيحةٌ للزيت المتقطّر يمكن سحبها بسهولة... أوّل موقدٍ تستطيع أيّة امرأةٍ أن تبقيه نظيفًا تمامًا بسهولة... وتجعل أيّ شيءٍ مطبوخٍ ألذّ مذاقًا.

يقالُ الحب بطرق عديدة. إنّه عطاءٌ وقبول. إنّه حمايةٌ وانتقاء ... وأنت تعرف ما الأكثر أمنًا لأولئك الذين تحبهم. ورق التواليت لديهم هو دائمًا ماركة (Scott)... وهو الآن متوفرٌ بأربعة ألوان وبالأبيض.

بأية مهارة يحوّلون حاجتها إلى الإنجاز إلى أوهام جنسية تعدها بالشباب

الأبدي، ويبلّدون إحساسها بمرور الوقت. يقولون لها حتى إنها تستطيع أن تجعل الوقت يقف ساكنًا:

هل هي... أم لا؟ إنها مليئةٌ بالمرح مثل أبنائها، ونَضِرة الطلّة مثلهم تمامًا! طبيعيتها، والطريقة التي يتلألأ بها شعرها، ويلتقط الضوء، كما لو أنها وجدت السرّ الذي يجعل الوقت يقف ساكنًا. وبطريقةٍ ما لديها...

تمجّد الإعلانات، بمهارة متزايدة، «دور» المرأة بوصفها ربة منزل أمريكية، فالمعلنون يعرفون أنّ افتقارها ذاته إلى الهوية في ذلك الدور سيجعلها تنخدع بأي شيء يبيعونه.

من هي؟ إنها تتحمس مثل طفلتها البالغة من العمر ست سنوات لدى افتتاح المدرسة. إنها تفكّر في الأيام التي واجهتها في القطارات، وفي وجبات الغداء الموضّبة والأصابع المضمّدة وألف تفصيل وتفصيل. يمكن أن تكونَ أنتِ، في حاجة إلى نوع خاص من الملابس لحياتك النشيطة الواعدة بالمكافآت.

هل أنت هذه المرأة؟ تمنحين أطفالك المتعة والمزايا التي تريدينها لهم؟ تأخذينهم إلى أماكن، وتساعدينهم على القيام بالأشياء؟ وتقومين بما هو متوقع منك في أمور الكنيسة والمجتمع... وتطورين مواهبك بحيث تصبحين أكثر إثارة للاهتمام؟ يمكنك أن تكوني المرأة التي تتوقين إلى أن تكونيها وبليموث (Plymouth) كلها ملكك... اذهبي أينما شئت، ومتى شئت في بليموث جميلةٍ، هي لك، وليست لأي شخص آخر...

ولكن، لا يجعل موقدٌ جديدٌ، أو ورق تواليت أنعم، من المرأة زوجةً أو أمًا أفضل، حتى إذا كانت تظن أنّ ذلك هو ما تحتاج إلى أن تكونه. فصبغ شعرها لا يمكن أن يوقف الزمن؛ وشراء سيارة بليموث لن يمنحها هويةً جديدةً؛ وتدخين المارلبورو لن يؤمّن لها دعوةً إلى الفراش، حتى إذا كانت تظن أن ذلك ما تريده. ولكن، يمكن لهذه الوعود غير المشبعَة أن تبقيها إلى الأبد جائعةً للأشياء، وتبقيها بعيدةً دائمًا عن معرفة ما تحتاج إليه، أو تريده فعلًا.

كان إعلان على صفحة كاملة في مجلة **نيويورك تايمز** في 10

حزيران/ 1962 «مخصصًا للمرأة التي تقضي عمرها وهي تعيش وفق إمكانيتها!» وقد كُتب تحت صورة امرأة جميلة مزخرفة بفستان سهرة ومجوهرات وطفلين جميلين: «البرنامج الوحيد المتكامل كليًا لماكياج مغذٍّ للبشرة وللعناية بها.. مصمّم لرفع جاذبية المرأة إلى ذروتها الكاملة. المرأة التي تستخدم (ألتيما) يملؤها إحساس عميق بالتحقق. نوع جديد من الفخر. لأنّ مجموعة مواد التجميل هذه هي النهاية... لا شيء بعدها».

يبدو الأمر كله مضحكًا عندما تفهم ما هنّ مستعدات له. قد لا يكون لدى ربة المنزل من تلقي باللوم عليه سوى نفسها إذا ما سمحت للمتلاعبين بتملقها أو تهديدها لشراء أشياء لا تلبي حاجات عائلتها ولا حاجاتها الخاصة. ولكن، إذا كانت الدعايات والإعلانات تمثل حالة واضحة على تحذير المشتري بفحص السلعة، فالبيع الجنسي نفسه، المتخفي في محتوى افتتاحية مجلة أو برنامج تلفزيوني، أقلّ إضحاكًا وأكثر مكرًا في الآن ذاته. هنا ربة المنزل غالبًا ضحيةٌ غير واعية. لقد كتبت لصالح بعض المجلات التي يتصل البيع الجنسي فيها على نحو معقّد بمحتوى افتتاحياتها. فالمحررون، بوعي أو بلا وعي، يعرفون ما يريده المعلن.

لبّ المجلة (س) هو الخدمة.. الخدمة الكاملة للمرأة الكاملة التي هي مدبرة المنزل الأمريكية؛ الخدمة في جميع المجالات التي تحوز على أكبر اهتمام من المعلنين الذين هم أيضًا رجال أعمال. إنها تقدّم للمعلنين تركيزًا قويًا من مدبّرات المنازل المتفانيات الجادات ذوات الضمير الحي. نساء أكثر اهتمامًا بالبيت والمنتجات المعدّة للبيت. نساء أكثر استعدادًا للدفع وأكثر قدرةً عليه...

لا حاجة إطلاقًا لكتابة مذكّرة أو لقول جملة في مؤتمر لمحرري المجلات؛ فالرجال والنساء الذين يتخذون القرارات التحريرية يقومون بتسوية معاييرهم الرفيعة ذاتها وفق مصالح الدولار الإعلاني. وتأثير المُعلِن، كما كشف محرّرٌ سابقٌ لمجلة ماك كول مؤخرًا، غالبًا لا يكاد يكون ملحوظًا. فالذي يفرض نوع البيوت المصورة في صفحات «الخدمات» هم،

بما لا يقبل الشك، أصحاب الكلمة النهائية في الإعلان.

ومع ذلك، فأية شركة يجب أن تحقق ربحًا من منتجاتها؛ وأية مجلة أو شبكة بحاجة إلى الإعلان حتى تبقى. ولكن، حتى إذا كان الربح هو الدافع الوحيد ومعيار النجاح الوحيد، فإني أتساءل عمّا إذا كانت وسائل الإعلام لا ترتكب خطأ عندما تعطي الزبون ما تظن أنه يريد. وأتساءل عمّا إذا كان التحدي والفرص أمام الاقتصاد الأمريكي وأمام الشركات نفسها لا يكمن على المدى البعيد في السماح للنساء بالنمو، بدلًا من تغطيتهن بمصل الشباب الذي يبقيهن غافلات ومتعطشات للأشياء.

الجريمة الحقيقية هي القبول المتزايد والقاسي بنصيحة المتلاعب، بغضّ النظر عن مدى ربحيتها للاقتصاد الأمريكي، بـ«الوصول إليهن صغيرات»؛ الإعلانات التجارية التلفزيونية التي يغنّيها الأطفال، أو يتلونها، حتى قبل أن يتعلموا القراءة، الإعلانات الجميلة الكبيرة والسهلة سهولة «انظري يا سالي، انظري!» التي تصمّمها المجلات عمدًا لتحوّل الفتيات المراهقات إلى ربات منازل مبتاعات للأشياء قبل حتى أن يبلغن ويصبحن نساء:

> إنها تقرأ مجلة (س) من بدايتها إلى نهايتها ... وتتعلم كيف تتسوّق وتطبخ وتخيط وكل شيء آخر يجب أن تعرفه الفتاة الشابة. وهي تصمم ملابسها وفق ملابس مجلة (س)، وتنتبه إلى ما يقوله مستشار المجلة في أمور الجمال والمتأنقين ... وتستشار مجلة (س) حول أحدث بدع الموضة للمراهقات ... وأما كيف تشتري من هذه الإعلانات في مجلة (س)! تبدأ عادات الشراء في مجلة (س). أن تبدأ عادةً أسهل من أن توقف واحدةً! (اكتشف كيف تحمل النشرةُ الفريدة لمجلة (س) -مجلة (س) في المدرسة- إعلاناتك إلى صفوف الاقتصاد المنزلي في المدرسة الثانوية).

إننا نضحّي بفتياتنا للّغز الأنثوي، مثلما كانت ثقافة بدائية تضحي بالفتيات الصغيرات لآلهتها القبلية، ونُعِدّهن بكفاءة أكثر من أي وقت مضى من خلال البيع الأنثوي ليصبحن مستهلكات الأشياء التي أصبحت أمتنا مكرّسة لبيعها بربح. ظهر إعلانان مؤخرًا في مجلة إخبارية وطنية، لم يكونا

موجّهين للفتيات المراهقات، بل للمديرين الذين ينتجون ويبيعون الأشياء. أظهر أحدهما صورة صبي:

> أنا ذاهبٌ هكذا إلى القمر... أما أنتِ فلا يمكنك الذهاب لأنكِ فتاة! الأطفال يكبرون أسرع هذه الأيام. واهتماماتهم يمكن أن تشمل طيفًا واسعًا جدًا – من الزلاجات بعجلات إلى الصواريخ. والشركة (س) كبرت أيضًا، مع طيف واسع من المنتجات الإلكترونية للاستخدامات الفضائية والصناعية والحكومية على المستوى العالمي.

أما الإعلان الثاني فأظهر وجه فتاة:

> أيجب أن تكبر طفلة موهوبة لتصبح ربة منزل؟ يقدّر خبراء التربية أن مَلَكة الذكاء الشديد يملكها واحد فقط من كل خمسين طفلًا في أمتنا. فعندما تملك فتاة تلك المَلَكة، فإن السؤال الذي لا مناص من طرحه هو: «هل ستضيع هذه الملكة النادرة إذا أصبحت الفتاة ربة منزل؟». دعوا أولئك الفتيات الموهوبات يجبن عن ذلك السؤال بأنفسهن. أكثر من 90% منهنّ يتزوجن، والغالبية تجد عملها ربة منزل متحديًا ومجزيًا بما يكفي للاستفادة الكاملة من كل ذكائهن ووقتهن وطاقتهن... هي في أدوارها اليومية -ممرضة ومربية وأقتصادية ومجرّد ربة منزل بسيطة- تبحث باستمرار عن طرق لتحسين حياتها العائلية... ملايين النساء -اللواتي يتسوّقن لنصف العائلات في أمريكا- يقمن بذلك عن طريق توفير طوابع (ع).

إذا كانت تلك الفتاة الموهوبة تكبر لتصبح ربة منزل، فهل يستطيع حتى المتلاعب أن يجعل طوابع السوبر ماركت تستخدم كل ذكائها الإنساني وطاقتها الإنسانية في القرن الذي قد تعيشه فيما يذهب ذلك الصبي إلى القمر؟

يقول إعلان آخر: «لا تستخف قطّ بقوة المرأة». لكنّ تلك القوة كانت، ومازالت، محلّ استخفاف في أمريكا. أو بالأحرى، لم تكن تقدّر إلّا من حيث يمكن التلاعب بها لدى الشراء. لا يدخل ذكاء المرأة الإنساني وطاقتها في الحسبان حقًا. لكنهما مع ذلك يوجدان، ليستخدما من أجل غايةٍ ما أعلى شأنًا من العمل المنزلي وشراء الأشياء، أو يهدران. قد تكون

العلة أنّ المجتمع مريض لا أكثر، غير مستعدٍ لمواجهة مشاكله الخاصة، وغير قادر على تخيّل الأهداف والغايات المكافئة لقدرة أفراده ومعارفهم؛ مجتمع يختار أن يتجاهل قوة نسائه. وربما العلّة هي أنه مجتمع مريض أو غير ناضج فحسب، يختار أن يجعل من نسائه «ربات منازل»، لا أشخاص. وربما المسألة ببساطة هي أنّ الرجال والنساء غير ناضجين، وغير مستعدين لمواجهة تحديات المجتمع الكبيرة، ويستطيعون الانسحاب لفترة طويلة، دون أن يعانوا من كرب غير محتمل، إلى ذلك البيت الذي تستحوذ عليه الأشياء، ويجعلون منه غاية الحياة نفسها.

الفصل العاشر

التدبير المنزلي يتمدّد ليملأ الوقت المتاح

مضيت - وقد أصبحت لدي رؤية عن ربة المنزل العصرية السعيدة كما وصفها التلفاز والمجلات وعلماء الاجتماع الوظيفيون والمربّون الموجّهون بالجنس والمتلاعبون يتراقصون أمام عيني- بحثًا عن واحدة من تلك المخلوقات اللغزية. ومثل ديوجين حاملًا مصباحه، مضيت كمراسلة صحافية من ضاحية إلى ضاحية باحثة عن امرأة تتمتع بالموهبة والتعليم وحققت نفسها بوصفها ربة منزل. ذهبت أولًا إلى مراكز الصحة العقلية والعيادات الإرشادية في الضواحي وإلى محللين محليين ذوي سمعة طيبة وإلى قاطنين محليين ذوي اطلاع، وبعد أن شرحت لهم هدفي، طلبت منهم أن يوجّهوني، لا إلى ربات المنازل العُصابيات المحبطات، بل إلى النساء المؤهلات الذكيات المتعلمات اللواتي كنّ ربات منازل وأمهات متفرغات ومتكيّفات.

قال محلل نفسي: «أعرف الكثير من ربات المنازل أولئك ممن وجدن التحقق بوصفهن نساءً». فطلبت منه أن يحدّد لي أربعًا منهن، وذهبت لرؤيتهن.

الأولى، لم تعد بعد خمس سنوات من العلاج امرأة مندفعة، لكنّها لم تكن أيضًا ربة منزل متفرغة؛ فقد أصبحت مبرمجة حواسب. و كانت الثانية امرأة متألقة بالحيوية والنشاط مع زوج ناجح وثلاثة أولاد موهوبين مليئين بالحيوية والنشاط. عملت طوال حياتها الزوجية محللةً نفسيةً محترفة. وتابعت الثالثة جديًا بين حمولها مهنتها كراقصة. وكانت الرابعة تنتقل، بعد معالجة نفسية وبالتزام جديّ متزايد، إلى السياسة.

اتصلت بمرشدي مرة أخرى، وقلت له إنّه في حين بدت النساء الأربعة «متحققات»، فإنّ أيّة واحدة منهنّ ليست ربة منزل متفرغة، بل إنّ إحداهن كانت، في نهاية الأمر، زميلته في المهنة. فقال: «هذه مصادفة مع أولئك النساء الأربع». لكنّي أتساءل عمّا إذا كانت مصادفة حقًا.

وُجهت في مكان آخر إلى امرأة، قال مصدر معلوماتي إنّها حققت ذاتها فعلًا كربّة منزل، («إنها تخبز بنفسها»). اكتشفت أنّها، في الفترة التي كانت أعمار أبنائها خلالها أقلّ من ست سنوات، وكتبت في استمارة التعداد العام «المهنة: ربة منزل»، قد تعلمت لغةً جديدة (وحصلت على شهادة للتعليم)، وأنّها قد استخدمت تدريبها السابق في الموسيقى لتعمل عازفة أورغن متطوعة في الكنيسة، وبعد ذلك عازفة محترفة بأجر. وبعد مقابلتي لها بمدة قصيرة، استلمت وظيفة في التعليم.

لكنّ النساء اللواتي قابلتهن في العديد من الأمثلة كنّ منسجمات حقيقةً مع الصورة الجديدة للتحقق الأنثوي: أربعة أولاد أو خمسة أو ستة، يخبزن بأنفسهن، ويساعدن في بناء البيت بأيديهن، ويخطن ملابس أبنائهن. لم تكن لدى تلك النساء أية أحلام بالحصول على مهنة، ولا رؤى عن عالم أوسع من البيت؛ كانت كلّ طاقتهن متركّزة على حياتهن بوصفهن ربات منازل وأمهات؛ وقد تحقق طموحهن الوحيد وحلمهن الوحيد. ولكن، هل كنّ نساء متحققات؟

في ضاحية لذوي الدخل العالي، أجريت فيها مقابلات، كانت هناك ثمان وعشرون زوجةً. كان بعضهن خريجات جامعيات في الثلاثينيات أو مطلع الأربعينيات من العمر، أمّا الزوجات الأصغر سنًا فقد تركن الجامعة لكي يتزوجن. وكان أزواجهن، وإلى درجة كبيرة، مستغرقين في أعمال مهنية تتطلب الكثير من الجهد. وكانت واحدة فقط من تلك الزوجات تعمل في مهنة؛ في حين جعل معظمهن من الأمومة مهنةً مع شيء من النشاط المجتمعي. وكانت تسع عشرة امرأة من النساء الثماني والعشرين قد وَلَدن ولادة طبيعية (كان الأزواج والزوجات في حفلات العشاء هناك، ومنذ بضع سنوات، غالبًا ما يستلقون على الأرض ليمارسوا تمارين الاسترخاء الصحيحة معًا). وكانت عشرون امرأة منهن يرضعن أطفالهن إرضاعًا طبيعيًا. وكان العديد منهن حوامل في عمر الأربعين أو نحوه. كان لغز التحقق الأنثوي متبّعًا حرفيًا في ذلك المجتمع إلى درجة أنه إذا قالت فتاة صغيرة: «عندما أكبر سأصبح طبيبة»، فستصحح أمها كلامها: «لا يا عزيزتي، أنت فتاة. وستصبحين زوجةً وأمًا، مثل الماما».

ولكن ما الذي كانت عليه الماما حقًا؟ كانت ست عشرة امرأة من النساء الثماني والعشرين خاضعات للتحليل أو للعلاج النفسي التحليلي. وثماني عشر منهن يتناولن المهدئات، وحاول بعضهن الانتحار، ودخل بعضهن المستشفى لفترات مختلفة نتيجة الاكتئاب أو حالات ذهانية غامضة التشخيص. («ستدهشين من عدد تلك الزوجات السعيدات في الضواحي، اللواتي ببساطة يصيبهن الجنون في ليلة ما، ويركضن في الشارع صائحات بلا ملابس»، هذا ما قاله الطبيب المحلي، الذي لم يكن طبيبًا نفسيًا، والذي كان يستدعى في مثل تلك الحالات الطارئة). من بين النساء اللواتي كنّ يرضعن أطفالهن إرضاعًا طبيعيًا، استمرّت واحدةٌ في ذلك طويلًا حتى أخذ ابنها يعاني من نقص في التغذية اضطر معه طبيبها إلى التدخّل بالقوة.

ودخلت اثنتا عشرة واحدة منهن في علاقات خارج الزواج في الواقع أو الخيال.

كانت تلك النساء نساءً أمريكيات ذكيات رائعات، يمكن أن يكنّ موضع حسد على بيوتهن وأزواجهن وأولادهن وعلى مواهبهن الشخصية، العقلية والروحية. لماذا كانت الكثيرات منهن ذوات دافع شخصي؟ عندما رأيت فيما بعد هذا النموذج نفسه يتكرر مرارًا وتكرارًا في ضواحٍ متشابهة، أدركت أنّ من الصعب أن تكون تلك مصادفة. كانت تلك النساءُ متشابهات أساسًا في مجال واحد: كانت لديهن قدرات عقلية غير عادية ومقدرة غذّتها على الأقل بدايات التعليم العالي؛ وقد حرمتهن حياة ربات المنازل قاطنات الضواحي، التي كنّ يعشنها، من الاستخدام الكامل لتلك القدرات.

وأولئك هنّ النساء اللواتي بدأت أنتبه إلى الملاحظات التي يذكرنها عن المشكلة التي لا اسم لها؛ كانت أصواتهن كئيبةً وباردةً أو عصبيةً وهائجة؛ كنّ فاترات وضجِرات، أو «مشغولات» باهتياج بأمور البيت أو المجتمع. كنّ يتحدثن عن «التحقق» كزوجات وأمهات حسب شروط اللّغز، لكنهنّ كنّ تواقات جدًا إلى الحديث عن «المشكلة» الأخرى التي بدا أنهن متآلفات معها جدًا في الواقع.

قادت امرأة البحث عن مدرسين جيدين في النظام المدرسي المتخلّف في مجتمعها؛ كانت قد قضت فترتها في مجلس المدرسة. لقد فكرت جديًا في مستقبلها في عمر التاسعة والثلاثين بعد أن دخل أولادها جميعًا المدرسة: هل يجب أن تعود إلى الجامعة، وتحصل على الماجستير، وتصبح مدرّسة محترفة؟ لكنها بعد ذلك قرّرت فجأةً ألّا تتابع، وبدلًا من ذلك أنجبت طفلها الخامس. سمعت تلك النبرة الباردة في صوتها، وهي تبلغني أنّها قد تقاعدت من القيادة المجتمعية حتى «تتفرّغ مرةً أخرى لأمور البيت».

وسمعت ذات النبرة الباردة الحزينة في صوت امرأة أخرى وهي تقول لي: «إنني أبحث عن شيء يلبي رغبتي. أعتقد أنّ العمل سيكون أروع شيء في العالم، أن أكون مفيدةً. لكنني لا أعرف كيف أفعل أي شيء. زوجي لا يؤمن بعمل المرأة المتزوجة. أنا مستعدةٌ لقطع ذراعيّ الاثنتين لو أنني أستطيع إعادة أولادي صغارًا وأعيدهم إلى البيت. يقول زوجي: 'جدي شيئًا ممتعًا تشغلين نفسك به، لمَ يجب أن تعملي؟' وهكذا فأنا الآن ألعب الغولف كل يوم تقريبًا ووحدي تمامًا. عندما تمشين ثلاث أو أربع ساعات في اليوم، فعلى الأقل تستطيعين النوم ليلًا».

قابلت امرأةً أخرى في المطبخ الكبير لبيتٍ ساعدت في بنائه بنفسها. كانت تعجن بانهماك العجين لخبزها البيتي الشهير؛ وكان فستانٌ تقوم بخياطته لابنتها نصفَ منتهٍ على ماكينة الخياطة؛ وكان نولٌ يدويٌّ ينتصب في إحدى الزوايا. وكانت مواد الأطفال الفنية وألعابهم مبعثرة في كل أرجاء المنزل، من الباب الأمامي حتى الموقد: لم يكن في هذا المنزل العصري الثمين، كما في العديد من البيوت ذات الغرف الكبيرة والقليلة الأبواب التي انتشرت في تلك الحقبة، بابٌ بين المطبخ وغرفة المعيشة. ولم تكن لدى هذه الأمّ أية أحلام أو رغبة أو فكرة أو إحباط خاص بها لفصل غرفتها عن غرف أولادها. كانت حاملًا بابنها السابع؛ وكانت سعادتها تامة، كما قالت، وهي تقضي أيامها مع أبنائها. ربما كنا هنا أمام امرأة سعيدة.

ولكنني قبل أن أغادر مباشرةً قلتُ، كما لو أنّ الفكرة خطرت لي في تلك اللحظة، إنني اعتقدت أنّها كانت تمزح حين ذكرت أنها تحسد جارتها، وهي مصممة محترفة إضافة إلى أنها أمّ لثلاثة أولاد. فردّتْ: «لا، لم أكن أمزح»، وأخذت ربة المنزل الهادئة تلك، التي تعجن العجين لصنع الخبز الذي تصنعه دائمًا بنفسها، بالبكاء. وقالت: «أحسدها بشدة. فهي تعرف ما تريد أن تفعل. أما أنا فلا أعرف. لم أعرف قط. عندما أكون حاملًا والأطفال

صغار، أكون أحدًا ما، وأخيرًا، أمًّا. لكنهم بعد ذلك يكبرون. ولا يمكنني الاستمرار في إنجاب الأطفال».

في حين لم أجد قط امرأةً تتوافق فعلًا مع صورة «ربة المنزل السعيدة» تلك، لاحظتُ شيئًا آخر يتعلق بأولئك النساء القادرات اللواتي يعشن حياتهن في ظلّ اللغز الأنثوي الذي يمنحهن الحماية. كنّ مشغولات جدًا.. مشغولات بالتسوّق وبقيادة السيارة وباستخدام جلايات الصحون والمُجفِّفات والخلاطات الكهربائية والبستنة والتلميع بالشمع والصقل وبمساعدة الأولاد في وظائفهم والتماسك من أجل الصحة العقلية والقيام بألف عمل يومي صغير. وفي سياق مقابلاتي مع تلك النساء، بدأتُ أرى شيئًا ما خاصًا يتعلق بالزمن الذي يأخذه العمل المنزلي اليوم.

على الطريق في إحدى الضواحي، كان هناك منزلان على طراز المستعمرات، في كل منهما غرفة معيشة مريحة كبيرة ومكتبة صغيرة وغرفة طعام رسمية ومطبخ كبير مبهج وأربعة أسرّة وحديقة ومرجة بمساحة فدّان، وهناك في كلّ أسرةٍ زوجٌ يسافر كثيرًا وثلاثة أولاد بعمر المدرسة. كان المنزلان مرتبين جيدًا، وامرأة تأتي للتنظيف مرتين في الأسبوع؛ لكنّ الطبخ وغيره من العمل المنزلي، كانت تقوم به الزوجة التي كانت في الحالتين في أواخر الثلاثينيات من عمرها وذكية ومعافاة وجذابة وحسنة التعليم.

في البيت الأول، كانت السيدة (و)، وهي ربة منزل متفرغة، مشغولة معظم اليوم بالطبخ والتنظيف والتسوّق وقيادة السيارة والاهتمام بالأولاد. أما جارتها السيدة (د)، وهي عالمة أحياء دقيقة، فكانت تنجز كل هذه الأعمال الصغيرة قبل أن تذهب إلى مخبرها عند الساعة التاسعة، أو بعد أن تعود إلى البيت عند الساعة الخامسة والنصف. ولم يكن الأطفال مهملين في أيّ من العائلتين، لكنّ أولاد السيدة (د) كانوا أكثر اعتمادًا على أنفسهم. وكانت السيدتان تقضيان وقتًا لا بأس به في التسلية. كانت السيدة (و)، ربة

المنزل، تقوم بالكثير من العمل المجتمعي الروتيني، لكن، لم يكن «لديها الوقت» لتستلم وظيفة لرسم السياسات.. وهو ما عرض عليها كثيرًا لأنها امرأة مؤهلة ذكية. أقصى ما قامت به هو ترؤس لجنة لإدارة عرض راقص أو سوق خيرية لجمعية أولياء الأمور والمعلمين. أما السيدة (د)، العالمة، فلم تكن تقوم بأي عمل مجتمعي روتيني، لكنها كانت، إضافةً إلى عملها وبيتها، تعزف في خماسي وتري متخصص (فقد كانت الموسيقى مجال اهتمامها الرئيسي خارج العلم)، وقد شغلت منصبًا في رسم السياسات في منظمة الشؤون العالمية، وهو أحد اهتماماتها من أيام الجامعة.

كيف أمكن لنفس حجم البيت ونفس حجم العائلة وفي ظل شروط متماثلة تقريبًا من حيث الدخل والمساعدة الخارجية وأسلوب الحياة أن يأخذ من وقت السيدة (و) أكثر بكثير من وقت السيدة (د)؟ مع أن السيدة (و) لم تكن كسولة مطلقًا، في الحقيقة. لم يكن لديها قط وقت في المساء حتى لتقرأ، وهو ما كانت السيدة (د) تفعله غالبًا.

وفي بناية عصرية كبيرة في مدينة شرقية كبيرة، كانت هناك شقّتان تضمّ كلّ واحدة منهما ستّ غرف، وكلاهما قليلة الترتيب نوعًا ما، فيما عدا الأوقات التي تكون فيها المرأة التي تقوم بالتنظيف قد غادرت للتو أو قبل إقامة حفلة. ولدى كلّ عائلة من العائلتين، عائلة السيد (ج) وعائلة السيد (ر)، ثلاثة أطفال تحت العاشرة، ما يزال أحدهم رضيعًا. كان الزوجان في أوائل الثلاثينيات، وكان عملاهما يتطلبان الكثير من الجهد والوقت. لكن، كان يُتوقّع من السيد (ج)، الذي كانت زوجته ربة منزل متفرغة، أن يقوم بعمل منزلي عندما يعود إلى البيت ليلًا أو في أيام السبت، وكان يقوم بذلك فعلًا، أكثر مما كان ذلك متوقعًا من السيد (ر) الذي كانت زوجته تعمل رسامة رسوم توضيحية مستقلة، وكان عليها بالتأكيد القيام بنفس حجم العمل المنزلي فيما بين الساعات التي تقضيها وراء مرسمها.

لم تكن السيدة (ج) لسبب ما تستطيع أن تنهي عملها المنزلي قبل عودة زوجها إلى البيت ليلًا حيث تكون متعبة جدًا وعليه أن يقوم بالعمل. كيف كانت السيدة (ر) التي لم تكن تعتبر العمل المنزلي عملها الرئيسي تقوم به في زمن أقل بكثير؟

شاهدتُ هذا النمط المرة تلو المرة، في مقابلاتي مع النساء اللواتي عرّفن أنفسهن على أنهن «ربات منازل»، وقارنتهن مع القليلات ممن كنّ يتابعن مهنة، سواء بدوام كامل أو جزئي. وكان النمط نفسه يصحّ حتى حين يكون لدى ربة المنزل والمرأة صاحبة المهنة مساعدة منزلية متفرغة، حتى لو اختارت «ربات المنازل» القيام بعملهن المنزلي بتفرغ، حتى عندما يكنّ قادرات على توفير ما يكفي من المال لخادمتين. ولكني اكتشفت أيضًا أن العديد من ربات المنازل المتفرغات النشيطات باهتياج أصابهن الذهول لدى اكتشاف أنهن قادرات على أن ينهين في ساعةٍ العمل المنزلي الذي يستغرق منهن ست ساعات -أو الذي يبقى غير منجز حتى وقت الغداء- عندما يبدأن الدراسة أو العمل، أو يكون لديهن شأن مهم خارج البيت.

لاعبةً بسؤال كيف يمكن لساعة من العمل المنزلي أن تمتد لتملأ ست ساعات (نفس البيت، نفس العمل، نفس الزوجة)، عدتُ مرةً أخرى إلى المفارقة الأساسية للغز الأنثوي: لقد ظهر لتمجيد دور المرأة بوصفها ربة منزل في اللحظة ذاتها التي كانت فيها العوائق أمام مشاركتها الكاملة في المجتمع قد تقلّصت، في اللحظة ذاتها التي جعل العلم والتعليم وإبداع المرأة من الممكن لها أن تكون زوجة وأمًا، وأن تقوم في الآن ذاته بدور فعّال في العالم خارج البيت. ومن ثمّ يبدو تمجيد «دور المرأة» متناسبًا مع مقاومة المجتمع لمعاملة النساء على أنهن إنسانات كاملات؛ ولأنّ الوظيفة الحقيقية لذلك الدور أقل، زاد تزيينه بتفاصيل لا معنى لها لإخفاء خوائه. لقد لوحظت هذه الظاهرة، بشكل عام، في حوليات العلم الاجتماعي وفي

التاريخ -فروسية العصور الوسطى، على سبيل المثال، والأساس المصطنع للمرأة الفيكتورية- لكن قد تكون صدمةً، من نوع ما، للمرأة الأمريكية المتحررة أن تكتشف أن ذلك ينطبق إلى درجة كبيرة وملموسة على وضع ربة المنزل في أمريكا اليوم.

هل ينشأ اللغز الجديد للأنوثة المنفصلة، لكن المتساوية، لأنّه لم يعد ممكنًا قمع نموّ المرأة في أمريكا عن طريق لغز الدونيّة الأنثوية القديم؟ هل يمكن منع النساء من تحقيق كل قدراتهن من خلال جعل دورهن في البيت مكافئًا لدور الرجل في المجتمع؟ لم يعد من الممكن القول «مكان المرأة بيتها» بنبرة من الاحتقار. يجب تزيين العمل المنزلي وغسيل الصحون وتبديل البياضات باللغز الجديد حتى يصبح مساويًا لانقسام الذرّة واختراق الفضاء الخارجي وإبداع فنّ ينير المصير الإنساني والقيام بأعمال ريادية على الخطوط الأمامية للمجتمع. يجب أن يصبح إخفاءُ الحقيقة الواضحة، الذي ليس سوى بداية، غايةَ الحياة ذاتها.

عندما تنظر إليه بهذه الطريقة يصبح التضليل المضاعف للغز الأنثوي جليًا تمامًا:

1- كلما زاد تجريد المرأة من وظيفتها في المجتمع على مستوى قدراتها الذاتية، تمدّد عملها المنزلي وعملها أمًّا وزوجة، وزادت مقاومتها لإنهاء عملها المنزلي أو عملها أمًا وزوجة، ولأن تكون دون أية وظيفة على الإطلاق. (من الجلي أنّ الطبيعة البشرية تمقت أيضًا الفراغ، حتى في النساء).

2- تتناسب المدة اللازمة للقيام بالعمل المنزلي، لأيّة امرأة، عكسيًا مع متطلبات العملْ الآخر الذي تلتزم به. إذا لم يكن للمرأة اهتمامات خارجية، تكون مجبرةً عمليًا على تخصيص كل لحظة من وقتها لتوافه ترتيب المنزل.

صيغَ المبدأ البسيط القائل «يتمدّد العمل ليملأ الوقت المتاح» للمرة الأولى من قبل الإنكليزي سي. نورثكوت باركنسون (C. Northcote Parkinson) بناءًا على تجربته مع البيروقراطية الإدارية في الحرب العالمية الثانية. ريمكن ببساطة إعادة صياغة قانون باركنسون لربة المنزل الأمريكية: يتمدّد العمل المنزلي ليملأ الوقت المتاح، أو تتمدّد الأمومة لتملأ الوقت المتاح، أو حتى يتمدّد الجنس ليملأ الوقت المتاح. هذا ، بلا شك، هو التفسير الحقيقي للحقيقة القائلة إنّه حتى بوجود كل الأجهزة الجديدة التي توفّر الجهد، فإن ربة المنزل الأمريكية العصرية تقضي من الوقت في العمل المنزلي أكثر مما كانت جدتها تفعل. وهذا أيضًا جزء من تفسير انشغالنا الوطني بالجنس والحب والزيادة المستمرة في معدل المواليد.

دعونا نؤجل حاليًا المضامين الجنسية، وهي كثيرة، ولنفكّر في بعض ديناميكيات القانون نفسه، كتفسيرٍ للتخلّص من الطاقة الأنثوية في أمريكا. لنعد إلى الوراء عدة أجيال: لقد افترضت أنّ السبب الحقيقي لكل من النسوية وإحباط النساء هو فراغ دور ربة المنزل. كان عمل المجتمع الرئيسي وقراراته يجريان خارج البيت، وشعرت النساء بالحاجة إلى المشاركة في هذا العمل، أو قاتلن من أجل الحق في ذلك. إذا ما تابعت النساء، واستخدمن تعليمهن الذي فزن به حديثًا، ووجدن هوية جديدة في هذا العمل خارج البيت، فمن شأن آليات التدبير المنزلي أن تحتلّ في حياتهن المكان الثانوي ذاته الذي تحتله السيارة والحديقة ومنضدة العمل الحرفي في حياة الرجل. ومن شأن الأمومة والزوجية والحب الجنسي والمسؤولية العائلية أن تكتسب وحسب أهمية عاطفية جديدة، مثلما هو حالها مع الرجال. (لاحظ العديد من المراقبين الابتهاج الجديد الذي يستوعب فيه الرجال الأمريكيون أطفالهم -مع اختصار أيام عملهم الأسبوعي- دون تلك الحدّة في الغضب الذي تشعر به النساء اللواتي يكون أطفالهن هم عملهن).

ولكن، عندما أعاد لغز التحقق الأنثوي النساء إلى البيت، كان على التدبير المنزلي أن يتمدّد ليصبح عملًا بدوام كامل. وصار على الحب الجنسي والأمومة أن يصبحا كل ما في الحياة، أن يستنزفا طاقات النساء الخلّاقة وأن يتخلصا منها. يجب أن تتمدّد طبيعة المسؤولية العائلية نفسها لتحل محل المسؤولية تجاه المجتمع. وعندما بدأ ذلك يحدث، أدخل كل جهازٍ يقوم بتوفير الوقت إلى العمل المنزلي ترتيبات تتطلب مزيدًا من العمل. وفرض كلّ تقدّم علمي -كان يمكن أن يحرّر المرأة من العمل المرهق للطبخ والتنظيف والغسيل، وبالتالي يمنحها مزيدًا من الوقت لغايات أخرى- عليها بدلًا من ذلك عملًا مرهقًا جديدًا، حتى أن العمل المنزلي لم يتمدد ليملأ الوقت المتاح فقط، بل بالكاد يمكن القيام به في الوقت المتاح.

لا توفّر مجفّفة الملابس الأوتوماتيكية للمرأة الساعات الأربع أو الخمس في الأسبوع التي كانت تقضيها عند حبل الغسيل، إذا كانت، على سبيل المثال، تشغّل غسالتها الآلية ومجففتها كل يوم. ففي نهاية المطاف مازال عليها أن تملأ الآلة وتفرغها بنفسها، وأن تفرز الملابس وتضعها في مكانها. وكما قالت أمّ شابة: «من الممكن الآن تبديل الملاءات بأخرى نظيفة مرتين في الأسبوع. لكن في الأسبوع الماضي تعطّلت المجففة عندي ولم نبدّل الملاءات مدة ثمانية أيام. أخذ الجميع يشتكون. وشعرنا جميعًا أننا قذرون. وأنا أحسست بالذنب. أليس ذلك سخيفًا؟»[1].

تقضي ربة المنزل الأمريكية العصرية وقتًا في الغسيل والتجفيف والكي أكثر بكثير من الوقت الذي كانت أمها تقضيه. إذا كان لديها مجمّدة كهربائية أو خلّاط كهربائي فإنّها تقضي وقتًا في الطبخ أطول من ذاك الذي تقضيه امرأة لا تملك تلك الأجهزة التي توفّر العمل. فالمجمّدة المنزلية تأخذ

(1) Jhan and June Robbins, "Why Young Mothers Feel Trapped," Redbook, September, 1960.

بمجرّد وجودها مزيدًا من الوقت: إذ يجب قطف الفاصولياء المزروعة في حديقة المنزل وتحضيرها للتجميد. وإذا كان لديك خلّاط كهربائي فيجب أن تستخدميه: تستغرق تلك الوصفات الدقيقة بالكستناء المهروسة ونبات القرّة واللوز وقتًا أطول من الوقت اللازم لشواء شرحات الخروف.

استنادًا إلى مسح أجرته جامعة براين ماور بعد الحرب مباشرة، كان العمل المنزلي يستغرق 60.55 ساعة أسبوعيًا في عائلة زراعية نموذجية في الولايات المتحدة، بينما يستغرق 78.35 ساعة في عائلة تعيش في مدينة عدد سكانها أقل من 100 ألف، و80.57 ساعة في عائلة تعيش في مدينة عدد سكانها أكثر من 100 ألف[1]. فمع كل أجهزتن، تقضي ربات المنازل في الضواحي والمدن وقتًا في العمل المنزلي أطول من ذاك الذي تقضيه زوجة مزارع نشيطة، مع أن لديها بالطبع عملًا أكثر تقوم به.

في الخمسينيات، تحدّث علماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد المنزلي عن لغز وتناقضات محيّرة تتعلق بالوقت الذي كانت النساء يقضينه في العمل المنزلي حتى ذلك الوقت. فقد كشفت دراسة تلو الأخرى أنّ ربات المنازل الأمريكيات يقضين من الوقت في التدبير المنزلي الوقت نفسه تقريبًا، وحتى أكثر من الذي كانت النساء يقضينه قبل ثلاثين سنة، على الرغم من أن البيوت أصبحت أصغر والاهتمام بها أسهل، وعلى الرغم من أن لديهن سبعة أضعاف ما كان لدى أولئك من أجهزة التدبير المنزلي. لكن كانت هناك بعض الاستثناءات. كانت النساء اللواتي يعملن عدة ساعات في الأسبوع خارج المنزل -سواء في أعمال مأجورة أو في العمل المجتمعي- يقمن بالتدبير المنزلي، الذي ما زالت ربة المنزل المتفرغة تقوم به في ستين ساعة في الأسبوع، في نصف الوقت. ما زلن، على ما يبدو، يقمن بكل أعمال التدبير المنزلي التي تقوم بها ربة

(1) Carola WoerishofTer Graduate Department of Social Economy and Social Research, "Women During the War and After," Bryn Mawr College, 1945.

المنزل -الوجبات والتسوّق والتنظيف والأولاد- ولكن، حتى مع خمس وثلاثين ساعةً من العمل في الأسبوع في وظيفة، فإن أسبوع عملهن لم يكن أطول من أسبوع عمل ربة المنزل إلّا بساعة ونصف في اليوم. وألّا تكون تلك الظاهرة الغريبة قد تسببت إلّا بالقليل من التعليقات فمردّه إلى الندرة النسبية لتلك النساء. أمّا الظاهرة الأغرب، والتي أخفى اللغز مغزاها الحقيقي، فهي أنّه، على الرغم من نمو عدد السكان في أمريكا، وعلى الرغم من حركة أولئك السكان من الريف إلى المدينة مع النمو الموازي للصناعة والمهن الأمريكية في السنوات الخمسين الأولى من القرن العشرين، فإنّ نسبة النساء الأمريكيات العاملات خارج البيت لم تزدد إلّا قليلًا في الواقع، في حين أنّ نسبة النساء الأمريكيات في المهن قد انخفضت في الواقع[7]. انخفضت نسبة النساء من نحو نصف القوة المهنية للبلاد في عام 1930 إلى 35٪ فقط في عام 1960، على الرغم من أنّ عدد الخريجات الجامعيات قد تضاعف ثلاث مرات تقريبًا. كانت الظاهرة هي الزيادة الكبيرة في أعداد النساء المتعلمات اللواتي اخترن أن يكنّ ربات منازل فقط.

(7) يشير تيودور في (The Sociology of Work, p. 234) إلى أنه مع الاقتصاد المتوسّع بسرعة من عام 1900، والتمدين السريع جدًا للولايات المتحدة فإن الزيادة في تشغيل النساء من 20.4٪ في عام 1900 إلى 28.5٪ في 1950 كانت متواضعة جدًا. أوجزت جين وورن (Jean Warren) الدراسات الحديثة حول الوقت الذي تقضيه ربات المنازل الأمريكيات في العمل المنزلي، والتي تؤكد وصفي لأثر باركنسون ("Time: Resource or Utility," Journal of Home Economics, Vol. 49, January, 1957, pp. 21 ff). وتستشهد ألفا ميردال (Alva Myrdal) وفيولا كلين (Viola Klein) في (Women's Two Roles-Home and Work) بدراسة فرنسية أظهرت أن الأمهات العاملات اختصرن الوقت الذي يقضينه في العمل المنزلي بمقدار 30 ساعة أسبوعيًا، مقارنة مع ربة منزل متفرغة. ينقسم أسبوع عمل الأم العاملة والتي لديها ثلاثة أولاد إلى 35.2 ساعة في العمل 48.3 ساعة في العمل المنزلي، في حين تقضي ربة المنزل المتفرغة 77.7 ساعة في العمل المنزلي. وكانت الأم التي لديها عمل بدوام كامل أو مهنة، بالإضافة إلى تدبير أمور المنزل والأطفال، تعمل ساعة واحدة فقط في اليوم أكثر من ربة المنزل المتفرغة.

ومع ذلك، تبقى الحقيقة لربة المنزل من الضواحي والمدن أن المزيد والمزيد من الأعمال، التي كانت تتمّ في البيت، قد أصبحت خارجه: التعليب والخبز ونسج القماش وصنع الألبسة وتعليم الصغار والعناية بالمرضى ورعاية المسنين. من الممكن للنساء أن يعكسن التاريخ -أو يخدعن أنفسهن بأنهن يستطعن عكسه- عن طريق خبز خبزهن، لكنّ القانون لا يسمح لهن بتعليم أبنائهن في البيت، وقلّة من ربات المنازل فقط قد يجارين في ما يسمى مهارتهن العامة، الخبرة المهنية للطبيب والمستشفى لتمريض طفل يعاني من التهاب اللوزتين أو ذات الرئة في البيت.

هناك، إذن، أساس حقيقي للشكوى القائلة إن عددًا كبيرًا من ربات المنازل لديهن: «شعور بنوع ما من الفراغ، وبأنني غير نافعة، كما لو أنني غير موجودة». «أشعر في بعض الأوقات كما لو أن العالم يمرّ من أمام بابي فيما أجلس وأراقب وحسب». هذا الإحساس ذاته بالفراغ، هذا الإنكار القلق للعالم خارج البيت، غالبًا ما يقود ربة المنزل إلى مزيد من الجهد، مزيد من العمل المنزلي المهتاج لإبقاء المستقبل بعيدًا عن الرؤية. والخيارات التي تقوم بها ربة المنزل لملء ذلك الخواء -على الرغم من أنها تبدو وكأنها تقوم بها لأسباب منطقية وضرورية- تحبسها أكثر في الروتين المنزلي المبتذل.

المرأة التي لديها ولدان، على سبيل المثال، والتي تشعر بالضجر والملل في شقتها في المدينة، يقودها إحساسها بالعبث والفراغ إلى الانتقال، «لمصلحة الأولاد»، إلى منزل واسع في الضواحي. هذا البيت يستغرق زمنًا أطول لتنظيفه، وأعمال التسوّق والبستنة وقيادة السيارة و«افعل ذلك بنفسك» تستغرق كثيرًا من الوقت بحيث تبدو مسألة الفراغ -لوهلةٍ من الوقت- قد حلّت. ولكن عندما يصبح البيت مجهزًا والأولاد في المدرسة ومكانة العائلة في المجتمع قد توضّحت، لا يعود هناك «أي

شيء للتطلع إليه»، كما عبّرت إحدى النساء اللواتي قابلتهن عن الأمر. يعود الإحساس بالفراغ مرة أخرى، وبالتالي، يجب أن تعيد تزيين غرفة المعيشة، أو تلميع أرضية المطبخ بالشمع أكثر مما هو ضروري -أو إنجاب طفل آخر. قد يبقيها تغيير حفاضات الطفل، بالإضافة إلى كل العمل المنزلي الآخر، راكضة بسرعة بحيث تحتاج فعلًا إلى مساعدة زوجها في المطبخ ليلًا. ومع ذلك، ما من شيء فيه حقيقيّ تمامًا أو ضروري تمامًا كما يبدو.

كانت الحركة الانفجارية نحو الضواحي أحد التغيرات الكبرى في أمريكا منذ الحرب العالمية الثانية؛ تلك الامتدادات البشعة التي لانهاية لها، والتي بدأت تتحوّل إلى مشكلة وطنية. يشير علماء الاجتماع إلى ملمح مميز لتلك الضواحي، هو أنّ النساء اللواتي يعشن هناك أفضل تعليمًا من نساء المدينة، وأنّ غالبيتهن ربات منازل متفرّغات[1].

قد يظن المرء، لدى النظرة الأولى، أن نموّ الضواحي ووجودها ذاته يجعل النساء الأمريكيات العصريات المتعلمات يتحوّلن إلى ربات منازل متفرغات ويبقين كذلك. أم إن انفجار الضواحي بعد الحرب جاء، جزئيًا على الأقل، نتيجة الخيار التوافقي لملايين النساء الأمريكيات «بالبحث عن التحقق في البيت»؟ كان قرار الانتقال إلى الضواحي «لمصلحة الأولاد»، بين النساء اللواتي قابلتهن، يأتي بعد قرار التخلّي عن العمل أو المهنة والتحوّل إلى ربة منزل متفرغة، وعادةً بعد ولادة الطفل الأول أو الثاني حسب عمر المرأة عندما يصيبها اللغز. وبالطبع، كان اللغز، في حالة الزوجات الأصغر سنًا، يضرب مبكرًا جدًا بحيث كان خيار التفرّغ للزواج والأمومة يلغي التعليم من أجل أية مهنة، وكان الانتقال إلى الضواحي يأتي مع الزواج أو حالما لا تعود الزوجة مضطرة إلى العمل لدعم زوجها خلال الجامعة أو مدرسة الحقوق.

(1) Robert Wood, *Suburbia, Its People and Their Politics*, Boston, 1959.

وانتقال العائلات، التي تنوي الزوجة فيها متابعة هدف مهني محدد، إلى الضواحي أقلّ احتمالًا. هناك في المدينة بالطبع أعمال أكثر وأفضل للنساء المتعلمات؛ جامعات أكثر وأحيانًا مجانًا، ودورات مسائية معدّة للرجال الذين يعملون نهارًا، وغالبًا أكثر ملاءمةً من البرنامج التقليدي النهاري للأمّ الشابة التي تريد أن تكمل الجامعة أو تعمل لتحصل على درجة في الدراسات العليا. هناك أيضًا عرضٌ أفضل من المربيات بدوام كامل أو جزئي والمساعدة في التنظيف ورياض الأطفال ومراكز الرعاية النهارية وبرامج النشاط بعد الدوام المدرسي. ولكن كل هذه الاعتبارات ليست مهمة إلّا للمرأة التي لديها التزامات خارج البيت.

وفرصة أن يتمدّد التدبير المنزلي ليملأ الوقت المتاح في المدينة أقلّ. يأتي ذلك الشعور بـ«الزمن المراوح» القلِق مبكرًا إلى ربة المنزل المدينية المؤهلة المتعلمة، على الرغم من أن الوقت، عندما يكون أطفالها صغارًا، يكون أكثر من مليء؛ دفع العربة جيئةً وذهابًا في الحديقة، الجلوس على مقعد في الملعب لأنّ الأولاد لا يستطيعون اللعب خارجًا وحدهم. ومع ذلك، لا يوجد مجال في شقة المدينة لمجمّدة منزلية، ولا حديقة لزراعة الفاصولياء. وكل المؤسسات في المدينة كبيرة جدًا، والمكتبات مبنية سلفًا، وهناك مربيات محترفات يدرن رياض الأطفال وبرامج الاستجمام.

ليس مفاجئًا، إذن، أن تصوّت العديد من الزوجات الشابات للانتقال إلى الضواحي في أسرع وقت ممكن. ومثلما أغرت سهول كانساس الخالية المهاجر القلق، فإنّ الضواحي قدّمت، بجدّتها ونقص الخدمة الهيكلية فيها، في البداية على الأقل، تحديًا غير محدود لطاقة النساء الأمريكيات المتعلمات. والنساء، اللواتي كنّ قويات بما يكفي ومستقلات بما يكفي، اغتنمن الفرصة وأصبحن قائدات ومبتكرات في هذه المجتمعات الجديدة. لكنّ أولئك كنّ، في معظم الحالات، نساء متعلمات من قبل فترة التحقق

الأنثوي. تبدو قدرة الحياة في الضاحية على تحقيق المرأة الأمريكية المتعلمة، أو استخدام قدرات المؤهلة منهن فعلًا، متوقفة على استقلاليتها أو تحقيق ذاتها مسبقًا -أي على قوتها في مقاومة ضغوط التوافق، مقاومة العمل الذي يهدف إلى ملء الوقت وحسب في بيت الضاحية ومجتمع الضاحية، وإيجاد نفس النوع من الالتزام الجدي خارج المنزل الذي كانت لتقوم به في المدينة، أو خلقه. كان من المرجّح لمثل ذلك الالتزام في الضواحي، في البداية على الأقل، أن يكون على أساس طوعي، لكنّه كان متحديًا وضروريًا.

لكنْ، عندما تولّى اللغز الأمر جاء صنف جديد من النساء إلى الضواحي. كنّ يبحثن عن ملتجأ؛ وكنّ راغبات تمامًا في قبول مجتمع الضاحية كما وجدنه (كانت مشكلتهن الوحيدة هي «كيفية الانسجام فيه»)؛ كنّ مستعدات تمامًا لملء أيامهن بتوافه العمل المنزلي. ترفض النساء من هذا النوع، ومعظم أولئك اللواتي قابلتهن كنّ من جيل الخريجات الجامعيات بعد عام 1950، أن يستلمن أية وظائف متعلقة برسم السياسات في المنظمات المجتمعية؛ كنّ فقط يجمعن المال من أجل الصليب الأحمر أو مسيرة الدايمات (Dimes) والكشّافة أو مشرفات أو يستلمن الأعمال الأقل مستوى في جمعية أولياء الأمور والمعلمين. ويشرحن مقاومتهن لتحمّل مسؤولية اجتماعية جدية عادةً بالقول: «لا أستطيع أن آخذ الوقت من عائلتي». لكنّ الكثير من وقتهن يضيع في عمل لا معنى له. نوع العمل المجتمعي الذي يخترنه لا يتحدى ذكاءهن -ولا حتى يملأ وظيفة حقيقية أحيانًا. ولا يحصلن منه على الكثير من الرضا الشخصي، لكنه يملأ الوقت فعلًا.

وهكذا، يشغل رجالٌ، وعلى نحو متزايد في الضواحي التي يقطنها بشرٌ يسافرون يوميًا إلى المدينة للعمل، الأعمال الطوعية المثيرة فعلًا للاهتمام؛ قيادة دور الحضانة التعاونية والمكتبات المجانية ووظائف مجالس المدارس والوظائف المحلية الرسمية وحتى رئاسة جمعية أولياء

الأمور والمعلمين في بعض الضواحي[1]. فربة المنزل التي ليس «لديها وقت» لتحمّل مسؤولية جدية في المجتمع، مثل المرأة التي ليس «لديها وقت» لمتابعة مسيرة مهنية، تتجنّب القيام بالتزام جدّي قد تحقق عن طريقه ذاتها في النهاية؛ وهي تتجنّب ذلك من خلال التقدّم في روتينها المنزلي حتى تعلق في فخّه تمامًا.

تبدو أبعاد الفخ راسخةً ماديًا، لأنّ الانشغال الذي يملأ يوم ربة المنزل يبدو ضروريًا على نحو لا يمكن تفاديه. لكن هل ذاك الفخّ المنزلي وهمٌ على الرغم من واقعه المتين جدًا، وهمٌ خلقه اللغز الأنثوي؟ خذوا، على سبيل المثال، التصميم المفتوح للبيت المؤلف من طابقين أو المبني على طراز بيوت المزارع، والذي يتراوح سعره بين 14990 دولارًا و54990 دولارًا، والذي بني بالآلاف من مرتفعات روزلين إلى أجراف الباسيفيك. إنّها تخلق وهمًا بأنّها توفّر مزيدًا من المساحة مقابل مبلغ أقل من المال. لكنّ النساء اللواتي تباع إليهن هذه البيوت شبه مضطرات إلى عيش اللغز الأنثوي. ليس هناك جدران أو أبواب فعلية؛ فلا تكون المرأة في المطبخ الإلكتروني الجميل منفصلة أبدًا عن أبنائها. لا تحتاج أبدًا إلى أن تشعر بأنها وحدها وإن لدقيقة واحدة، لا تحتاج أبدًا إلى أن تخلو بذاتها. يمكنها أن تنسى هويتها في تلك البيوت الصاخبة ذات التصميم المفتوح. يساعد التصميم المفتوح أيضًا على إطالة العمل المنزلي ليملأ الوقت المتاح. وفي ما هو أساسًا غرفة واحدة يتمّ التنقّل فيها بحرية، بدلًا من عدّة غرف منفصلة بجدران وأدراج، هناك أشياء مبعثرة تحتاج باستمرار إلى التقاط. يغادر الرجل بالطبع البيت معظم النهار. لكنّ اللغز الأنثوي يحرّم ذلك على المرأة.

---

(1) See: "Papa's Taking Over the PTA Mama Started," *New York Herald Tribune*, February to, 1962.

كشف المؤتمر الوطني لجمعيات أولياء الأمور والمعلمين في عام 1962 أنّ 32٪ من رؤساء الجمعيات البالغ عددهم 46457 هم من الرجال. وفي بعض الولايات، كانت نسبة رؤساء الجمعيات الذكور أعلى، بما في ذلك نيويورك (33٪) وكونيكتيكت (45٪) وديلاوير (80٪).

حصلت صديقة لي، وهي كاتبة موهوبة تحوّلت إلى ربة منزل متفرغة، على تصميم لبيت أحلامها في الضواحي على يد مهندس معماري وفق مواصفاتها الخاصة، وذلك في الفترة التي حدّدت نفسها فيها كربّة منزل ولم تعد تكتب. كان البيت، الذي كلّف 50 ألف دولار تقريبًا، أشبه بمطبخ كبير بكل معنى الكلمة. كان هناك أستوديو منفصل لزوجها، المصوِّر، وحجيرات نوم صغيرة، لكن لم يكن هناك أي مكان تستطيع الخروج إليه من المطبخ، بعيدًا عن أولادها، في أثناء ساعات العمل. كان خشبُ الماهوجاني والستانلس ستيل لخزانات مطبخها المصمّم حسب طلبها والأجهزةُ الكهربائية حلمًا حقيقيًا، لكنني عندما رأيت ذلك البيت تساءلت: إذا أرادت يومًا أن تعود إلى الكتابة فأين ستضع آلتها الكاتبة؟

من الغريب قلة الأماكن التي يمكنك أن تكون فيها وحيدًا في تلك البيوت الواسعة والضواحي الممتدة. وجدت دراسة قام بها عالم اجتماع على الزوجات قاطنات الضواحي ذات الدخل المرتفع واللواتي تزوّجن صغيرات، واستيقظن، بعد خمسة عشر عامًا من حياة الأطفال وجمعية أولياء الأمور والمعلمين و«افعل ذلك بنفسك» والحديقة والشواء، على إدراك أنهن أردن أن يقمن بعمل حقيقي بأنفسهن، أنّ أولئك اللواتي قمن بشيء ما حيال الأمر غالبًا ما انتقلن مرة أخرى إلى المدينة[1]. ولكن بين النساء اللواتي تحدثتُ إليهن، كانت لحظة الحقيقة هذه تتميّز، على الأرجح، بإضافة غرفة لها باب إلى تصميم بيتهن المفتوح، أو ببساطة بوضع باب لإحدى غرف المنزل، «وهكذا أستطيع أن يكون لي مكان أخلو إليه، مجرّد باب يفصل بيني وبين الأولاد عندما أريد أن أفكر»، أو أعمل أو أدرس أو أكون وحدي.

(1) Nanette E. Scofield, "Some Changing Roles of Women in Suburbia: A Social Anthropological Case Study," transactions of the *New York Academy of Sciences*, Vol. 22, No. 6, April, 1960.

لكنّ معظم ربات المنازل الأمريكيات لا يغلقن ذلك الباب. ربما يخشين في النهاية أن يبقين وحيدات في تلك الغرفة. قال عالم اجتماع آخر إنّ معضلة ربة المنزل الأمريكية هي أنها لا تتمتع بالخصوصية لمتابعة اهتمامات حقيقية خاصة بها، ولكن حتى لو كان لديها ما يكفي من الوقت والمكان لتخلو لنفسها، فلن تعرف ما الذي تفعله بهما[1]. إذا جعلت من الزواج والأمومة سيرة حياتها، كما يقول لها اللغز، وإذا أصبحت مديرة البيت -وأنجبت من الأولاد ما يكفي لإعطائها ما يكفي من العمل لتقوم به-، وإذا بذلت القوة الإنسانية، التي يمنعها اللغز من بذلها في مكان آخر، في إدارة بيت مثالي والإشراف على أبنائها ومشاركة زوجها حياته المهنية بذلك التفصيل الدقيق، بحيث لا يبقى لها سوى بضع دقائق تدّخرها للعمل المجتمعي، ولا يبقى لها أي وقت لاهتمامات جدية أكبر، فمن ذا الذي سيقول إن تلك ليست طريقة في قضاء الحياة لها ذات أهمية ومزايا المعرفة الضليعة بأسرار الذرّة أو النجوم أو تأليف السيمفونيات أو ريادة مفهوم جديد في الحكم أو المجتمع؟

إن التبرير الوحيد الممكن بالنسبة للمرأة الموهوبة جدًا، والتي لديها القدرة على الخلق الثقافي بالإضافة إلى الخلق البيولوجي، هو أن تقنع نفسها -مثلما يحاول اللغز الجديد بقوة إقناعها- أنّ التفاصيل المادية الدقيقة للعناية بالطفل هي في الواقع خلاقة على نحو غامض؛ حتى أن طفلها سيكون محرومًا على نحو مأساوي إذا لم تكن حاضرة كل دقيقة؛ والعشاء الذي تقدّمه لزوجة رئيس زوجها في العمل حاسمٌ لمستقبل زوجها المهني تمامًا مثلما هي القضية التي يقاتل من أجلها في المحكمة أو المشكلة التي يحلّها في المختبر. ولأنّ الزوج والأبناء سيصبحون عاجلًا خارج البيت معظم اليوم، فيجب الاستمرار في إنجاب أطفال جدد، أو في جعل التفاصيل الدقيقة للعمل المنزلي نفسه مهمة بما يكفي، وضرورية بما

(1) Mervin B. Freedman, "Studies of College Alumni," in *The American College*, pp. 872 f.

يكفي، وصعبة بما يكفي، وخلاقة بما يكفي لتبرير وجودها نفسه.

إذا كان كامل وجود امرأة يُبرَّر بهذه الطريقة، وإذا كان عمل ربة المنزل مهمًا حقًا إلى هذه الدرجة وضروريًا إلى هذه الدرجة، فلماذا يجب أن يرفع أي شخص حاجبيه دهشة لأنّ زوجة أينشتاين جديد تتوقع من زوجها أن يضع جانبًا نظرية النسبية الباردة تلك ويساعدها في العمل الذي يفترض أن يكون جوهر الحياة نفسها: غيّر حفاض الطفل، ولا تنس أن تشطف الحفاض المتسخ في المرحاض قبل أن تضعه في سلّة الحفاضات، ثمّ شمّع أرضية المطبخ.

الدليل الأكثر سطوعًا القائل بأن «المهنة: ربة منزل»، بغض النظر عن مدى دقته، ليست بديلًا ملائمًا لعمل متطلب فعلًا ومهم بما يكفي للمجتمع ليدفع نقوده مقابله، ينبثق من مسرحية «الوجود معًا». قيل للنساء، اللواتي يمثلن في مسرحية الفضيلة والرذيلة هذه، إنّ لهن الأدوار الرئيسية، بحيث أنّ أدوارهن مهمة مثل -إن لم يكن أكثر من- أدوار أزواجهن التي يمثلونها في العالم خارج البيت. هل كان من غير الطبيعي، إذن، أن تلحّ النساء، بما أنهن يقمن بذلك العمل الحيوي، على أن يشارك أزواجهن في العمل المنزلي؟ كان بالتأكيد إحساسًا غير منطوق وإدراكًا غير منطوق لوقوع زوجات الرجال في الفخ، ذاك الذي جعل عددًا كبيرًا جدًا منهم يستجيبون لطلبات زوجاتهم بدرجات متفاوتة من الفضل. لكن، عندما جعلت النساء أزواجهن يشاركون في العمل المنزلي لم يعوّضن فعليًا عن استبعادهن من العالم الأكبر. وإذا كان ذلك قد فعل شيئًا، حتى بإزالة المزيد من وظائفهن، فإنّه زاد إحساسهن بالفراغ الفردي. كنّ بحاجة إلى أن يشاركن، على نحو غير مباشر، المزيد والمزيد من حيوات أزواجهن وأبنائهن. كان «الوجود معًا» بديلًا تعيسًا عن المساواة؛ كان تمجيد دور النساء بديلًا تعيسًا عن المشاركة الحرة في العالم بوصفهن أفرادًا.

لقد تكشّف الفراغ الحقيقي تحت الرتابة التي تعيشها ربة المنزل

الأمريكية بطرق عديدة. قرأ مدرّسٌ اسمه موريس إينغهاوسن (Maurice K. Enghausen) مؤخرًا في مدينة مينيابوليس قصةً في الجريدة المحلية عن أسبوع العمل الطويل لربة المنزل اليوم. فأعلن هذا الأعزب البالغ من العمر 36 سنة في رسالة إلى محرّر الصفحة أنّ «أيّ امرأة تنفق كل تلك الساعات هي إمّا بطيئة جدًا أو منظّمة سيئة لوقتها أو أنها، ببساطة، غير مؤهلة»، وعرض أن يتولّى أمور أي منزل ليريهن كيف يمكن القيام بالعمل.

وتحدّته عشرات ربات المنازل الغاضبات في أن يثبت ذلك. تولّى أمور منزل السيد والسيدة روبرت دالتون، اللذين لديهما أربعة أطفال تتراوح أعمارهم بين سنتين وسبع سنوات، مدة ثلاثة أيام. فقام في يوم واحد بتنظيف الطابق الأول وغسل ثلاث وجبات من الملابس وتعليقها خارجًا لتجفّ وكي كل الغسيل بما في ذلك الملابس الداخلية والملاءات، وأعدّ غداءًا من الحساء والشطائر وعشاءًا كبيرًا في باحة الدار، وصنع كعكتين، وحضّر نوعين من السلطة لليوم التالي، وألبس الأولاد وبدّل ملابسهم وغسلهم، وغسلَ القطع الخشبية، وفرك أرضية المطبخ. قالت السيدة دالتون إنّه كان أفضل منها في الطبخ. وأضافت: «أما بالنسبة للتنظيف، فأنا أكثر شموليةً، ولكن ربما ليس ذلك ضروريًا».

وبعد أن أشار إينغهاوسن إلى أنّه قد رتّب أمور بيته بنفسه على مدى سبع سنوات، وأنّه قد كسب المال في الجامعة من خلال العمل المنزلي، أضاف: «مازلت أتمنى لو أنّ تعليم 115 طالبًا هو بسهولة التعامل مع أربعة أطفال وبيت ... مازلت مصرًا على أن العمل المنزلي ليس بذلك العمل اليومي الذي لا ينتهي كما تدّعي النساء»[1].

تعزّز هذا الادّعاء، الذي عبّر عنه الرجال مرارًا وتكرارًا في مجالسهم

(1) Murray T. Pringle, "Women Are Wretched Housekeepers," *Science Digest*, June, 1960.

الخاصة وفي العلن، بدراسة حديثة تشمل الوقت والحركة. استخلصت هذه الدراسة من خلال تسجيل كل حركة قامت بها مجموعة من ربات المنازل وتحليلها أنّ معظم الطاقة المبذولة في العمل المنزلي زائدة عن اللزوم. وكشفت سلسلةٌ من الدراسات المكثّفة جرت برعاية جمعية القلب في ميشيغان في جامعة واين (Wayne) أنّ «النساء يبذلن أكثر من ضعفي الجهد الذي يجب أن يبذلنه»، مبدّدات طاقتهن عن طريق العادة والتقليد في حركة مهدورة وخطوات غير ضرورية.

يلقي السؤال المحيّر عن «تعب ربة المنزل» ضوءًا إضافيًا. أشار الأطباء في عدّة مؤتمرات طبية حديثة إلى فشلهم في شفائه أو الوصول إلى سببه. أشار طبيبٌ من كليفلاند في اجتماع للكلية الأمريكية لأطباء التوليد والنسائية إلى أنّ الأمهات اللواتي لا يستطعن التغلّب على «ذلك الشعور بالتعب»، ويشكين من أن أطباءهن لا يساعدونهن في ذلك، لسن مريضات ولا سيئات التكيّف، وإنما هنّ متعبات فعلًا. وقال الدكتور ليونارد لوفشين (Leonard Lovshin) من عيادة كليفلاند: «ليست هناك ضرورة لأيّ تحليل نفسي أو سبر عميق. فيوم عملها ست عشرة ساعة، سبعة أيام في الأسبوع... وبما أنّها صاحبة ضمير حي، فهي تشارك في فرق الكشافة للبنات والصبيان وفي اجتماعات جمعية أولياء الأمور والمعلمين وفي (heart drives) وعمل الكنسية ونقل الأطفال إلى الموسيقى والرقص». لكنّ الغريب، حسب ملاحظته، هو أنّ كمية العمل الذي تقوم به ربة المنزل وتعبها لا يتأثران بعدد أولادها. فمعظم تلك المريضات لم يكن لديهن سوى طفل أو اثنين. قال الدكتور لوفشين: «تشعر المرأة التي لديها طفل واحد بالتعب مع ذلك الطفل أربعة أضعاف المرأة التي لديها أربعة أطفال، وفي النهاية الأمر كله سواء».

قال بعض الأطباء الذين لم يجدوا أية مشكلة عضوية لدى تلك الأمهات المتعبات تعبًا مزمنًا لهن: «هذا كله في عقلك»، فيما أعطاهن

آخرون حبوبًا وفيتامينات وحقنًا ضد فقر الدم وضغط الدم المنخفض وضعف الاستقلاب، أو وصفوا لهن حمية غذائية (لدى ربة المنزل العادية زيادة في الوزن ما بين 12 و15 رطلًا)، أو منعوهن من الشرب (هناك نحو مليون ربة منزل كحولية معروفة في أمريكا)، أو أعطوهن مهدئات. كانت كل تلك العلاجات بلا جدوى، لأنّ تلك الأمهات كنّ متعبات فعلًا، كما قال الدكتور لوفشين[1].

وزعم أطباء آخرون، وقد وجدوا أنّ تلك الأمهات ينمن قدر حاجتهنّ وأكثر، أنّ السبب الأساسي لم يكن التعب بل الملل. أصبحت هذه المشكلة حادةً جدًا إلى حدّ أنّ المجلات النسائية تعاملت معها باستهجان –حسب المصطلحات التفاؤلية للغز الأنثوي. كانت «العلاجات»، التي اقتُرحت في سيلٍ من المقالات ظهرت في أواخر الخمسينيات، عادةً تشكيلةً تتمحور علىّ «المزيد من الإطراء والتقدير من جانب الزوج»، على الرغم من أنّ الأطباء الذين جرت مقابلتهم في تلك المقابلات أشاروا بوضوح كاف إلى أن السبب يكمن في دور «ربة المنزل-الأمّ». لكنّ المجلات توصّلت إلى خلاصتها الطبيعية: هذا قدر المرأة، وسيكون كذلك دائمًا، وعليها فقط أن تحصل منه على أفضل ما يمكن. وهكذا نشرت مجلة ريدبوك، في مقالة بعنوان «سبب التعب الدائم لدى ربات المنازل» في أيلول/ 1959، نتائج دراسة باروخ (Baruch) عن مريضات التعب المزمن:

> ... التعب من أي نوع هو إشارة إلى وجود شيء لا يسير على ما يرام. التعب الجسدي يحمي الكائن الحي من الأذى الناجم عن نشاط كبير جدًا لأي جزء من الجسم. والتعب العصبي، من جهة أخرى، هو عادةً إنذار بوجود خطر على الشخصية. وهذا يتبدى واضحًا جدًا في المريضة التي تشكو بمرارة من أنها «مجرّد ربة منزل»، ومن أنها تضيّع مواهبها وتعليمها في عمل منزلي مرهق، وتفقد جاذبيتها وذكاءها وفي الواقع هويتها نفسها كشخص، كما يشرح الدكتور هارلي ساندز (Harley C. Sands)، وهو

(1) See: *Time*, April 20, 1959.

أحد الرؤساء المشاركين في مشروع باروخ. وفي الصناعة، الأعمال الأكثر إرهاقًا هي تلك التي لا تشغل انتباه العامل إلّا قليلًا، ولكنها، في الوقت نفسه، تمنعه من التركيز على أي شيء آخر. تقول نساء كثيرات أن هذه الرمادية (gray-out) العقلية هي أكثر ما يزعجهن في اهتمامهن بالبيت والأطفال. «بعد فترة يصبح عقلك فارغًا» كما يقلن. «لا تستطيعين التركيز على أي شيء. الأمر مثل السير أثناء النوم».

واستشهدت المجلة أيضًا بطبيب نفسي اسمه جونز هوبكنز (Johns Hopkins) قال ما فحواه أن العامل الرئيسي الذي ينتج التعب المزمن لدى المريضات هو «رتابة لا يقطعها أي نصر أو كارثة كبيرين»، ولاحظ أنّ هذا «يلخّص مأزق العديد من الأمهات الشابات». وتورد المجلة أيضًا نتائج دراسة جامعة ميشيغان التي سئلت فيها 524 امرأة: «اذكري بعض الأشياء التي تجعلك تشعرين أنك (مفيدة ومهمة)، ولم تجب أية واحدة منهن تقريبًا (العمل المنزلي)»؛ وبين النساء العاملات، «كانت الأغلبية الساحقة من النساء المتزوجات والعازبات تشعر أنّ العمل أكثر إرضاءًا لهنّ من العمل المنزلي». وعند هذه النقطة تقحم المجلّة وجهة نظر هيئة التحرير: «لا يعني هذا بالطبع أن المهنة هي بديل التعب للأمّ الشابة. إذا كان هناك أي شيء، فالأمّ العاملة قد يكون لديها من المشاكل أكثر مما لدى العقيلة الشابة المحصورة بالعمل المنزلي». والخاتمة السعيدة للمجلة: «بما أن متطلبات العمل المنزلي وتربية الأولاد لا تتمتع بكثير من المرونة، فليس هناك حلّ كامل لمشاكل التعب المزمن. ولكن، تستطيع نساء كثيرات أن يخففن من التعب إذا توقفن عن طلب الكثير من أنفسهن. فمن خلال محاولة الفهم الواقعي لما تستطيع امرأة فعله، والأهمّ ما الذي لا تستطيع، قد تصبح، على المدى الطويل، زوجة وأمًا أفضل، وإن كانت متعَبة».

وتساءلت مقالةٌ أخرى من هذا النوع بعنوان «هل الملل سيِّئٌ لك؟» في مجلة **ماك كول**، في نيسان/ 1957: «هل تعب ربة المنزل المزمن ناتج عن الملل فعلًا؟» وأجابت: «نعم. تعب العديد من ربات المنازل المزمن

ناجم عن تكرار أعمالهن ورتابة الوضع والعزلة ونقص الدافع. لقد وُجد أن الأعمال المنزلية الثقيلة غير كافية لتفسير التعب. ... كلما فاق ذكاؤك متطلبات عملك، زاد مللك. والأمر على هذا النحو إلى حدّ أنّ الموظفين المتمرسين لا يستخدمون ذكاءً أعلى من المعدّل في الأعمال الروتينية. ... وهذا الملل إضافة، بالطبع، إلى الإحباطات اليومية التي تجعل عمل ربة المنزل العادية أكثر إرهاقًا عاطفيًا من عمل زوجها». العلاج: «الاستمتاع الصادق في جزء من العمل كالطبخ أو حافزٌ ما كحفلةٍ في عرض البحر وإطراء الذكر، فوق كل ذلك، هي بمثابة ترياق جيد ضد الملل المنزلي».

بدا لي أن المشكلة بالنسبة للنساء اللواتي قابلتهن لم تكن في كثرة المطلوب منهن بل في قلّته. قالت لي امرأة: «يغمرني نوع من الخدر عندما أعود إلى البيت من المهمات. كما لو أنه ليس هناك فعلًا ما يجب عليّ القيام به، على الرغم من وجود الكثير مما يجب القيام به في أنحاء البيت. وهكذا أحتفظ بزجاجة مارتيني في البرّاد وأصبّ لنفسي كأسًا حتى أشعر بأنني أقوم بشيء ما. أو أمرّر الوقت إلى أن يعود دون إلى البيت».

بعض النساء يأكلن فيما هنّ يمدّدن العمل المنزلي، لمجرّد أن يملأن الوقت المتاح. لطالما تمّ الربط بين البدانة والكحولية، كما العُصاب، وأنماط الشخصية التي تنبثق من الطفولة. ولكن، هل يفسّر ذلك معاناة ربات منازل أمريكيات كثيرات ممن بلغن نحو الأربعين من العمر من نفس النظرة الباهتة الباردة؟ هل يفسّر فقدانهن للحيوية والتشابه القاتل في حيواتهن والوجبات الخفيفة المختلسة بين الوجبات الرئيسية والمشروبات والمهدّئات والأقراص المنوّمة؟ حتى إذا أخذنا الشخصيات المختلفة لتلك النساء، فيجب أن يكون هناك شيء ما في طبيعة عملهن أو نمط حياتهن يدفعهن إلى هذه المهارب.

وهذا صحيح بالنسبة لعمل ربة المنزل الأمريكية بقدر ما هو صحيح لعمل معظم الرجال الأمريكيين على خطوط التجميع أو في مكاتب

الشركات: العمل الذي لا يستخدم كامل قدرات الرجل يترك لديه حاجة خالية فارغة إلى مهرب: التلفاز أو المهدئات أو الكحول أو الجنس. لكنّ أزواج النساء اللواتي قابلتهن كانوا غالبًا منخرطين في أعمالٍ تتطلب القدرة والمسؤولية والقرار. ولاحظت أنّهم عندما كانوا يُرهَقون بعمل منزلي، كانوا ينهونه في زمن أقل بكثير من ذاك الذي تستغرقه زوجاتهم. ولكن بالطبع، لم يكن ذلك العمل هو ما يبرّر حياتهم. وسواء وضعوا فيه مزيدًا من الطاقة لذلك السبب، أي لكي ينهونه باستخدامها، أو لم يكن يجب أن يأخذ العمل المنزلي الكثير من طاقتهم، فقد كانوا يقومون به أسرع، وأحيانًا كانوا يبدون مستمتعين به أكثر.

لطالما اشتكى النقاد الاجتماعيون خلال فترة «الوجود معًا» من أنّ المستقبل المهني للرجال يتأثر بكل هذا العمل المنزلي. لكن، يبدو أن معظم رجال النساء اللواتي قابلتهن لم يدعوا العمل المنزلي يتدخّل في مستقبلهم المهني. عندما كان الأزواج يقومون بذلك الجزء من العمل المنزلي في المساءات أو في أيام العطلة الأسبوعية لأنّ زوجاتهم لديهن مهن، أو لأنّ زوجاتهم قد جعلن من العمل المنزلي مهنة لا يستطعن القيام بها بأنفسهن، أو لأنّ زوجاتهم سلبيات جدًا أو اتكاليات أو أضعف من أن يقمن به، أو حتى لأنّ زوجاتهم يتركن العمل المنزلي لأزواجهن، انتقامًا منهم، فإنه لم يكن يتمدّد.

ولكنني لاحظت أنّ العمل المنزلي كان يتمدّد ليملأ الوقت المتاح لدى بعض الأزواج الذين يبدو أنّهم يستخدمون الأعمال المنزلية بمثابة عذر عن مواجهة تحديات مهنهم. قالت لي زوجة أستاذ جامعي: «أتمنى لو أنّه لا يصرّ على تنظيف البيت كلّه بالمكنسة الكهربائية في مساءات الثلاثاء. فالبيت لا يحتاج ذلك، وهو يمكن أن يعمل على كتابه». وقد أدارت بدورها، بوصفها عاملة اجتماعية مؤهلة، كلّ حياتها المهنية لتستنبط طرقًا للعناية ببيتها وأولادها دون توظيف خدم. وكانت، بمساعدة ابنتها، تقوم

بتنظيف شامل للبيت يوم السبت؛ فلم يكن بحاجة إلى تنظيف بالمكنسة الكهربائية يوم الثلاثاء.

إن القيام بالعمل الذي تكون مؤهلًا للقيام به هو علامة على النضج. ليست متطلبات العمل المنزلي والأطفال أو غياب الخدم هي ما يمنع معظم النساء الأمريكيات من النضج ليقمن بالعمل المؤهلات له. في حقبة سابقة، عندما كانت هناك وفرة من الخدم، لم تستخدم معظم نساء الطبقة الوسطى اللواتي استخدمن الخدم حريتهن للقيام بدور أكثر فعالية في المجتمع؛ كنّ مقيدات بحكم «دور المرأة» بالفراغ. في بلدان مثل إسرائيل وروسيا، حيث يتوقّع من النساء أن يكنّ أكثر من مجرّد ربات منازل، قلّما يوجد خدم، ومع ذلك فالبيت والأولاد والحب ليست مهملة بالتأكيد.

إنّ لغز التحقق الأنثوي، وعدم النضج الذي يغذيه، هما ما يمنعان النساء من القيام بالعمل المؤهلات له. ليس من الغريب أن تشعر النساء اللواتي عشن عشر أو عشرين سنة ضمن اللغز، أو اللواتي تكيّفن معه وهنّ صغيرات جدًا حتّى أنهن لم يجربن قطّ أن يكنّ مسؤولات عن أنفسهن، بالخوف من مواجهة اختبار العمل الحقيقي في العالم، وأن يتمسّكن بهويتهن ربات منازل؛ كما لو أنهن بذلك يحكمن على أنفسهن بالشعور «بالفراغ وعدم النفع كما لو أنني غير موجودة». يمكن لذلك العمل المنزلي، بل يجب عليه، أن يتمدّد ليملأ الوقت المتاح عندما لا يبدو هدف آخر في الحياة واضحًا على نحو مقبول. ففي نهاية المطاف، عندما لا يكون لدى ربة المنزل المتألقة والحيوية هدف آخر في الحياة، فإنّها، إذا قامت بالعمل المنزلي خلال ساعة من الوقت والأولاد في المدرسة، ستجد فراغ أيامها لا يطاق.

وهكذا، طردت امرأة من سكارسديل (Scarsdale) خادمتها، ولم تتمكن حتى مع قيامها بالعمل المنزلي والعمل المجتمعي العادي من

استنفاد كل طاقتها. «حللنا المشكلة»، قالت متحدثة عن نفسها وعن صديقة حاولت الانتحار. «نذهب للعب البولينغ ثلاث مرات في الأسبوع. ولولا ذلك لكنّا فقدنا عقولنا. نستطيع الآن على الأقل أن ننام في الليل». «هناك دائمًا طريقة ما تستطيعين بها التخلص من ذلك»، هذا ما سمعت امرأة تقوله لأخرى أثناء الغداء في (Schrafft) وهما تناقشان بشيء من عدم الاهتمام ما ستقومان به -وقد انقضى بعد الظهر- من العمل المنزلي الذي أمر به طبيباهما. لقد أصبحت أطعمة الحمية وصالات التمارين عملًا مربحًا في تلك المعركة غير المجدية لإزالة الدهن الذي لا يمكن تحويله إلى طاقة إنسانية من قبل ربة المنزل الأمريكية. إنّه لمن الصادم قليلًا أن تفكّر أنّ النساء الأمريكيات المتعلمات الذكيات مجبرات على «التخلّص» من طاقتهن الإنسانية الخلّاقة بتناول مسحوق طباشيري ومصارعة آلة. ولكن، لم تصب الصدمة أحدًا نتيجة الإدراك بأنّ التخلص من طاقة النساء الخلاقة، بدلًا من استخدامها في هدف أكبر في المجتمع، هو جوهر هوية ربة منزل ذاته.

يتوقف العيش وفق اللغز الأنثوي على عكس التاريخ، على الحطّ من التقدّم الإنساني. كانت إعادة النساء إلى البيت، لا كما فعل النازيون عندما أمروهنّ القيام بذلك، بل «بالدعاية بهدف استعادة حسّ النساء بالمكانة والتقدير الذاتي كنساء، أمهات فعليات أو ممكنات ... النساء اللواتي يعشن كنساء»، تعني أنّ النساء يجب أن يقاومن «بطالتهن التكنولوجية». لم تغلق معامل المعلبات والمخابز، لكن، حتى صنّاع اللغز شعروا بالحاجة إلى الدفاع عن أنفسهم ضد سؤال: «هل نحاول، في افتراضنا أنّ النساء قد يستردن بإرادتهن بعض وظائفهن في البيت كالطبخ وحفظ الأغذية وتزيين البيت، أن نعيد عجلة التقدم إلى الوراء؟»[1].

(1) Farnham and Lundberg, *Modern Women: The Lost Sex*, p.369.

وهم يجادلون بأن التقدّم ليس تقدمًا؛ فنظريًا، تحرير النساء من إرهاق العمل المنزلي يحرّرهن من أجل تبنّي أهداف أعلى، لكن «عندما تُفهم تلك الأهداف، تتم الدعوة إلى الكثير منها، ولا يُختار سوى القليل، وهذا ينطبق على الرجال كما على النساء». وبالتالي، دع جميع النساء يسترجعن ذلك العمل في البيت، الذي تستطيع جميع النساء القيام به بسهولة، ودع المجتمع يدير كواليسه بحيث أن هيبة النساء «تُحوّل بقوة إلى أولئك النساء المقدّرات لأنهن يخدمن المجتمع على أكمل وجه بوصفهن نساء».

على مدى خمسة عشر عامًا وأكثر، كانت هناك حملة دعاية، عليها إجماع في هذا البلد الديمقراطي كما في الديكتاتوريات الأكثر كفاءة، لإعطاء النساء «هيبة» بوصفهن ربات منازل. ولكن، هل يمكن إعادة خلق حسّ الذات في المرأة، الذي ارتكز مرةً على العمل الضروري والإنجاز في البيت، عن طريق العمل المنزلي الذي لم يعد ضروريًا بالفعل أو يستخدم بالفعل الكثير من القدرات، في بلد وفي وقت تستطيع النساء فيه أن يكن حرّات أخيرًا في الانتقال إلى ما هو أكثر. من الخطأ لأي امرأة ولأي سبب كان أن تقضي أيامها في عمل لا يتحرّك فيما العالم من حولها يتحرك، في عمل لا يستخدم حقًا طاقتها الخلاقة. النساء أنفسهن يكتشفن أنه على الرغم من أنّ هناك دائمًا «طريقة ما للتخلص منها»، لا يمكنهن أن يحصلن على الطمأنينة حتى يبدأن باستخدام قدراتهن.

هناك بالتأكيد الكثير من النساء في أمريكا السعيدات في هذه اللحظة كربات منازل، وبعضهن يستخدمن قدراتهن كليةً في دور ربة المنزل. لكنّ السعادة شيء وحيوية استخدام قدراتهن بالكامل شيء آخر. وكذلك ليس الذكاء الإنساني والقدرة الإنسانية شيئًا ساكنًا. لا يستطيع العمل المنزلي، مهما تمدّد لملء الوقت المتاح، أن يستخدم، إلّا بصعوبة، قدرات امرأة ذات ذكاء إنساني عادي أو متوسط، وبدرجة أقل بكثير قدرات الخمسين بالمائة من الإناث اللواتي كان ذكائهن في الطفولة فوق المتوسط.

منذ بضعة عقود اكتشفت مؤسسات مهتمة بالأشخاص المتخلفين عقليًا أن العمل المنزلي مناسب على نحو خاص لقدرات الفتيات ضعيفات العقل. وفي الكثير من المدن، كان هناك طلب كبير على نزلاء مؤسسات رعاية المتخلفين عقليًا للعمل في المنازل، والعمل المنزلي كان حينها أصعب بكثير مما هو عليه الآن.

وبالطبع تستلزم قراراتٌ أساسيةٌ، كتلك المتعلقة بتنشئة الأطفال والديكور الداخلي وإعداد قائمة الطعام والميزانية والتعليم والاستجمام، الذكاءَ. لكن، كما عبّر واحد من الخبراء القلائل في أمور البيت والعائلة عن الأمر، عندما رأى سخف اللغز الأنثوي، فإنّ معظم العمل المنزلي، أي ذلك الجزء الذي يأخذ معظم الوقت، «يمكن أن يقوم به طفلٌ في الثامنة من العمر بكفاءة».

إن دور ربة المنزل هو، بالتالي، مشابه لذاك الذي لرئيس شركة ليس من شأنه أن يقرّر سياساتها ويضع خططها العامة فحسب، بل ويقضي القسم الأكبر من وقته وطاقته في نشاطات من مثل كنس المعمل وتزييت الآلات. الصناعة بالطبع تعاني من شحّ في قدرات موظفيها أشدّ من أن تسمح لنفسها بهدرها بتلك الطريقة.

يأتي الإشباع الحقيقي الناجم عن «تكوين بيت» والعلاقة الشخصية مع الزوج والأبناء وجو الضيافة والطمأنينة والثقافة والدفء والأمان الذي تمنحه امرأة للبيت من شخصيتها، لا من مكنستها أو موقدها أو حوض الصحون. سيكون حصول امرأة على شعور مثيبٍ بالخلق الكامل عن طريق الأعمال الرتيبة المتعددة التي تشكل حصتها اليومية من العمل غير عقلاني تمامًا، مثله كمثل ابتهاج عامل على خط تجميع يشعر أنّه قد صنع سيارة لمجرّد أنه ثبّت عزقة فيها. من الصعب أنٍ أرى كيف يمكن للتنظيف بعد الوجبات ثلاث مرات في اليوم وإعداد قوائم المشتريات (3 ليمونات، كيسان من مسحوق الغسيل، علبة حساء) والوصول إلى الغبار المتجمع في مشعات التدفئة بالأداة المطاطية القاسية للمكنسة الكهربائية وتفريغ سلة المهملات وغسيل أرضيات الحمام يومًا بعد يوم وأسبوعًا بعد أسبوع وسنة بعد سنة أن يضيف إلى المجموع العام

لأيّ شيء فيما عدا التفاصيل قليلة الأهمية التي، في توضعها طرفًا لطرف، لا تقود إلى أي مكان[1].

ويمكن النظر إلى عدد من الظواهر الجنسية المرفوضة أكثر في هذه المرحلة الآن على أنها النتيجة التي لا مناص منها لذلك التوجيه السخيف لملايين النساء بقضاء أيامهن في عمل يستطيع طفل في الثامنة من عمره القيام به. إذ بغض النظر عن مدى عقلنة «مهنة البيت والعائلة» لتبرير ذلك الهدر المروّع لقوة المرأة المؤهلة؛ وبغض النظر عن مدى إبداعية المتلاعبين في ابتكار كلمات جديدة تبدو علمية، من مثل «lubrilator» وما شابه، لإعطاء الوهم بأن إلقاء الملابس في الغسالة الآلية هو فعل شبيه بفك رموز الشفرة الوراثية؛ وبغض النظر عن مدى مدّ العمل المنزلي ليملأ الوقت المتاح، فإنه يبقى لا يمثّل إلّا القليل من التحدي لعقل الإنسان البالغ. ولقد فاضت إلى هذا الفراغ العقلي مجموعة لا نهائية من الكتب عن فن الطبخ وبحوث علمية حول العناية بالطفل وفوق كل ذلك نصيحة حول تقنيات «الحب الزوجي»، والاتصال الجنسي. وهذه أيضًا لا تمثل سوى القليل من التحدي لعقل الإنسان البالغ. لقد كان بالإمكان التنبؤ تقريبًا بهذه النتائج. ولخوف الرجال الكبير، أصبحت زوجاتهم فجأةً «خبيرات»، يعرفن كل شيء، وأصبح من المستحيل منافسة تفوقهن الراسخ في البيت، وهو مجال كانا يشغلانه معًا، ومن الصعب جدًا التعايش معه أيضًا. وكما عبّر راسل لاينز (Russell Lynes) عن الأمر: بدأت النساء يعاملن أزواجهن على أنهم خدم بدوام جزئي، أو على أنهم أحدث الأجهزة الجديدة[2]. بدأت الزوجة الأمريكية الشابة، مسلحةً بدورة سريعة في الاقتصاد المنزلي أو الزواج والعائلة تحت حزامها وبنسخ من الدكتور

(1) Edith M. Stem, "Women are Household Slaves," *American Mercury*, January, 1949.

(2) Russell Lynes, "The New Servant Class," in *A Surfeit of Honey*, New York, 1957, p. 49-64.

سبوك والدكتور فان دو فيلد (Van de Velde) إلى جانب بعضهما على الرف؛ وبكلّ ذلك الوقت والطاقة والذكاء الموجهين إلى الزوج والأولاد والبيت، بسهولة وحتمًا وعلى نحو مشؤوم، بالهيمنة على العائلة تمامًا، أكثر حتى من «أمها».

الفصل الحادي عشر

الباحثات عن الجنس

لم أقم بدراسة كينزية[1]. ولكن عندما كنت أتعقّب المشكلة التي لا اسم لها، كانت ربات المنازل في الضواحي اللواتي قابلتهن يعطينني غالبًا بصراحة جوابًا جنسيًا على سؤال ليس جنسيًا على الإطلاق. كنت أسأل عن اهتماماتهن الشخصية وطموحاتهن وما الذي يفعلنه أو ما الذي يرغبن في القيام به، ليس بالضرورة بوصفهن زوجات أو أمهات، بل عندما لا يكنّ مشغولات بأزواجهن أو أبنائهن أو عملهن المنزلي. وربما كان السؤال حتى عمّا يفعلنه بتعليمهن. ولكنّ بعضًا من تلك النساء افترضن ببساطة أنّ سؤالي كان عن الجنس. هل كانت المشكلة التي لا اسم لها مشكلة جنسية في نهاية المطاف؟ كان يمكن أن أفكر على ذلك النحو، لولا وجود نغمة زائفة، ميزة لا واقعية غريبة في كلمات تلك النساء وهنّ يتحدثن عن الجنس. كنّ يقمن بتلميحات غامضة أو إشارات واضحة، وكنّ توّاقات إلى أن يُسألن عن الجنس، وغالبًا ما كنّ يتباهين بسرد التفاصيل الصريحة لمغامرة جنسية ما، حتى لو لم أسأل. لم يكنّ يختلقن تلك المغامرات، فقد كانت حقيقية، ولكن، ما الذي جعلها تبدو غير جنسية وغير حقيقية؟

---

(1) نسبة إلى ألفرد كينزي Alfred Kinsey، عالم بيولوجيا أمريكي (1894-1956) - المترجم.

قالت لي أم لأربعة أطفال في الثامنة والثلاثين من عمرها، إنّ الجنس هو الشيء الوحيد الذي يجعلها «تشعر أنها حية». لكن حدث خطأ ما، فزوجها لم يعد يمنحها ذلك الشعور. كانا يفعلانه بطريقة روتينية، إذ لم يكن مهتمًا فعلًا. وكانت قد بدأت تشعر بازدراء من قبله في الفراش. وقالت: «أحتاج إلى الجنس لأشعر أنني حية، لكنني لا أشعر بذلك حقًا».

وقالت أمّ لخمسة أولاد في الثلاثين من عمرها بصوت واقعي بارد، أضاف إلى لاواقعية الحالة، وهي تحوك سترة بهدوء، إنّها كانت تفكر بالهرب -ربما إلى المكسيك- لتعيش مع رجل على علاقة به. لم تكن تحبه، لكنّها فكّرت في أنّها إذا أعطته نفسها «كليةً»، فقد تجد ذلك الشعور الذي تعرف الآن أنّه «الشيء الوحيد المهم في الحياة». وماذا عن الأولاد؟ كانت، على نحو غامض، تظن أنّها ستأخذهم معها، لأنّه لم يكن يمانع. ما الشعور الذي كانت تبحث عنه؟ لقد وجدته في البداية مع زوجها، كما افترضت. هي على الأقل تتذكر أنها عندما تزوجته -وكانت في الثامنة عشرة حينها- كانت «تشعر أنها سعيدة جدًا إلى حدّ الموت». لكنّه لم «يمنحها نفسه كليةً»؛ كان يعطي الكثير من ذاته لعمله. وهكذا، وجدت ذلك الشعور وهلةً من الزمن، كما ظنت، مع أطفالها. وبعد وقت قصير من فطام ابنها الخامس في سن الثالثة أقامت أول علاقة. واكتشفت أنّها «منحتني ذلك الشعور المدهش مرة أخرى؛ أن أمنح نفسي كليةً لشخص آخر». لكنّ تلك العلاقة لم يكتب لها أن تستمر؛ فقد كان لديه أولاد كثيرون، وكذلك هي. قال لها عندما انفصلا: «لقد منحتني إحساسًا بالهوية». وتساءلت: «وماذا عن هويتي أنا؟». وهكذا خلت بنفسها شهرًا في ذلك الصيف تاركة الأولاد مع زوجها. «كنت أبحث عن شيءٍ لم أكن متأكدة منه، لكنّ الطريقة الوحيدة التي كنت أحصل فيها على ذلك الشعور هي أن أعشق شخصًا ما». أقامت علاقة أخرى، لكنّ ذلك الشعور لم يظهر في تلك المرة. وهكذا مع هذه العلاقة الجديدة، أرادت أن تذهب بعيدًا تمامًا. قالت وهي تحوك بهدوء:

«الآن وقد عرفت كيف أحصل على ذلك الشعور، سأظل، بكل بساطة، أجرّب حتى أجده ثانية».

وسافرت بالفعل إلى المكسيك مع ذلك الرجل الظليل الذي لا ملامح له آخذةً معها أولادها الخمسة؛ لكنها عادت بعد ستة أشهر مع أولادها وكلّ شيء. من الواضح أنها لم تجد ذلك «الشعور» الخيالي. وأيًا يكن ما حدث، فإنه لم يكن حقيقيًا بما يكفي للتأثير في زواجها الذي استمر كما من قبل. ما هو بالضبط الشعور الذي توقعت الحصول عليه من الجنس؟ ولماذا كان دائمًا على نحو ما بعيدًا عن متناولها؟ هل يصبح الجنس غير حقيقي، خيالًا، عندما يحتاج المرء إليه ليشعر أنّه «حيّ»، وليشعر بـ«هويتي الخاصة»؟

تحدّثتُ في ضاحية أخرى إلى امرأة جذابة في أواخر الثلاثينيات من عمرها ولديها اهتمامات «ثقافية»، لكنها غامضة نوعًا ما وغير مركزة. كانت تبدأ رسم لوحات ولا تنهيها، وتجمع نقودًا لحفلات موسيقية لا تذهب إليها، وتقول أنها لم «تجد مركز توازنها بعد». واكتشفتُ أنها تورّطت في نوع من البحث الجنسي عن المكانة، كانت له نفس الادعاءات الغامضة وغير المركزة التي لاهتماماتها الثقافية، وكان في الواقع جزءًا منها. تباهت بالبراعة الفكرية والتميّز المهني للرجل الذي ألمحت إلى أنه أراد أن ينام معها. قالت لي: «هذا يجعلك تشعرين بالفخر، كأنه إنجاز. ولا ترغبين بإخفائه. تريدين أن يعرف الجميع به، عندما يكون رجلًا بمكانته». أما إلى أي مدى أرادت هي أن تنام مع ذلك الرجل، بمكانته المهنية أو دونها، فتلك مسألة أخرى. عرفتُ فيما بعد من جيرانها أنّها كانت أضحوكة المجتمع المحلي. كان الجميع «يعرفون» في الواقع أن عروضها الجنسية لم تكن تتعلق بالشخص، وكانت متوقعة إلى حدّ أن لا أحد، إلّا -اللهمّ- زوج جديد في المنطقة، قد يأخذها على محمل الجد بما يكفي للاستجابة لها.

لكنّ الحاجة الجنسية النهمة، على نحو واضح، لأمّ لأربعة أولاد أصغر سنًا بقليل في تلك الضاحية ذاتها لم تكن أضحوكةً. كان لبحثها الذي لا

يشبع عن الجنس، رغم إقامتها علاقة تلو الأخرى، مختلطًا بالكثير من «المصاحبات خارج الزواج» وبلا تمييز، كما كان كينزي ليعبّر عنه، عواقب حقيقية وكارثية على زواجين آخرين على الأقل. عاشت أولئك النساء وأخريات مثلهن، من الباحثات عن الجنس اللواتي يعشن في الضواحي، حرفيًا ضمن الحدود الضيقة للغز الأنثوي. كنّ ذكيات، لكنهن «ناقصات» على نحو غريب. لقد توقفن عن محاولات جعل العمل المنزلي أو العمل المجتمعي يمتدّ ليملأ الوقت المتاح، وتحوّلن بدلًا من ذلك إلى الجنس. ومع ذلك، لم يشعرن بالتحقق. لم يكن أزواجهن يرضونهن، كما قلن؛ ولم تكن العلاقات خارج الزواج أفضل حالًا. وفي مصطلحات اللغز الأنثوي، إذا راود امرأةً حسٌّ بـ«الفراغ» الشخصي، إذا لم تشعر بالتحقق، فيجب أن يكون السبب جنسيًا. فلماذا إذن لا يرضيها الجنس؟

وتمامًا مثلما استخدمت فتيات الجامعة الخيال الجنسي عن الحياة الزوجية لحمايتهن من النزاعات وآلام النمو والعمل الملتزم بالعلم أو الفن أو المجتمع، هل كانت النساء المتزوجات يضعن، في بحثهن الجنسي الذي لا يشبع، تلك الطاقات الهجومية التي يمنعهن اللغز الأنثوي من استخدامها لغايات إنسانية أكبر؟ هل يستخدمن الجنس أو الخيال الجنسي لملء حاجات ليست جنسية؟ هل هذا هو السبب في أن جنسهن يبدو خيالًا، حتى عندما يكون حقيقيًا؟ هل هذا هو السبب في عدم شعورهّن «بالاكتفاء» حتى عندما يصلن إلى النشوة الجنسية؟ هل يندفعن إلى ذلك البحث الجنسي الذي لا يشبع، لأنهنّ لم يجدن في الزواج الاكتفاء الجنسي الذي يعد به اللغز الأنثوي؟ أم إنّ ذلك الشعور بالهوية الشخصية، بالاكتفاء، الذي يبحثن عنه في الجنس هو شيء لا يستطيع الجنس وحده أن يمنحه؟

الجنس هو الحدّ الوحيد المفتوح للنساء اللواتي لطالما عشن ضمن قيود اللغز الأنثوي. لقد أُجبر الحدّ الجنسي خلال السنوات الخمس عشرة الماضية على التمدّد، ربما إلى ما بعد حدود الممكن، ليملأ الوقت المتاح،

ليملأ الفراغ الذي خلقه إنكار أهداف وغايات أكبر على النساء الأمريكيات. لقد أُثبت الجوع الجنسي المتزايد لدى النساء الأمريكيات إلى حد الغثيان من قبل كينزي ومن قبل علماء الاجتماع وروائيي الضواحي ووسائل الإعلام الجماهيرية والإعلانات والتلفاز والأفلام والمجلات النسائية التي تروّج للشهية الأنثوية الشرهة إلى الخيال الجنسي. ليس من المبالغة القول أنّ عدّة أجيال من النساء الأمريكيات المؤهلات قد قُلّصت بنجاح إلى مخلوقات جنسية، إلى باحثات عن الجنس. لكن، لا شكّ في أنّ شيئًا لم يجر على ما يرام.

وبدلًا من تحقّق الوعد بنعيم هزة الجماع المطلقة، يصبح الجنس في أمريكا اللغز الأنثوي اندفاعًا وطنيًا كئيبًا على نحو غريب، إن لم يكن زيفًا احتقاريًا. وتصبح الروايات المتخمة بالجنس صريحةً على نحو متزايد وبليدةً على نحو متزايد؛ ولهزّة الجنس في المجلات النسائية كآبةٌ تبعث على المرض؛ يشير التدفق الذي لا ينتهي من الكتيبات التي تصف طرائق جنسية جديدة إلى نقص دائم في الإثارة. ويتمّ قياسُ نهود فنّانات هوليوود الناشئات الذي يزداد باستمرار، والظهورُ المفاجئ للرموز القضيبية الذكرية بوصفها «وسيلة تحايل» إعلانية، عن هذا المللَ الجنسي. لقد أصبح الجنس غير شخصي، وينظر إليه من وجهة نظر هذه الرموز المبالغ فيها. ولكن الأكثر سخريةً من بين جميع الظواهر الجنسية الغريبة التي ظهرت في فترة اللغز الأنثوي هو ازدياد الجوع الجنسي المحبَط لدى النساء الأمريكيات واشتداد صراعاتهن حول الأنوثة، عندما تحوّلن من النشاط المستقل إلى البحث عن التحقق الفردي عن طريق دورهن الجنسي في البيت. وفيما حوّلت النساء الأمريكيات اهتماماتهن نحو السعي الحصري والواضح والهجومي إلى التحقق الجنسي، أو تمثيل الوهم الجنسي، تزايدت أيضًا لامبالاة الرجال الأمريكيين الجنسية وعدائيتهم تجاه النساء.

وجدت دليلًا على هذه الظواهر في كل مكان. هناك، كما قلت، جوّ

من اللاواقعية المبالغ بها حول الجنس اليوم، سواء تجلّى في الصفحات الفاسقة بصراحة لرواية شعبية أو في الأجساد الغريبة التي تكاد تكون عديمة الجنس للنساء اللواتي يستخدمن في صور الأزياء. واستنادًا إلى كينزي، لم تكن هناك زيادة في «المنافذ» الجنسية في العقود الأخيرة. لكنّ العقد الأخير شهد زيادة هائلة في الاستغراق الأمريكي بالجنس والخيال الجنسي[1].

درس عالم نفسي في كانون الثاني/ يناير، 1950، ومرة أخرى في كانون الثاني/ يناير، 1960، كل الإشارات إلى الجنس في الصحف والمجلات وبرامج التلفاز والراديو والمسرحيات والأغاني الشعبية والروايات الأكثر مبيعًا والكتب غير الروائية في أمريكا. ووجد زيادة هائلة في الإشارات

(1) لقد علّق العديد من المؤرخين على الانشغال الأمريكي بالجنس من وجهة نظر مذكّرة. «لقد وصلت أمريكا إلى التركيز على الجنس أكثر من أية حضارة منذ الرومان»، كما قال ماكس ليرنر في (*America as a Civilization*, p. 678)، ويطلق ديفيد ريسمان في كتابه (*The Lonely Crowd*) New Haven, 1950, p. 172 ff، على الجنس: «الحدّ الأخير». يتخلل الجنس، أكثر من أي وقت، ومع انخفاض الاهتمام بالعمل، وقت النهار بالإضافة إلى الشعور بوقت التسلية. وينظر إليه على أنه سلعة استهلاكية، لا من قبل الطبقات الغنية القديمة التي لم تكن بحاجة للعمل، بل ومن قبل الجماهير المتعطلة الحديثة أيضًا. ... أحد أسباب التغيير هو أن النساء لم يعدن أشياء للمستهلك الاكتسابي بل هنّ أنفسهن نظيرات في المجموعات. ... اليوم، أصبحت الملايين من النساء، المتحررات بفضل التكنولوجيا من الكثير من مهمات العمل المنزلي، واللواتي أعطتهن التكنولوجيا العديد من المساعدات على الرومانسية؛ رائدات مع الرجال على تخوم الجنس. وبما أن الرجال أصبحوا زبائن عارفين، فإن قلقهم من عدم إرضاء النساء قد نما أيضًا...

كان الأطباء السريريون هم من لاحظ أساسًا أن الرجال هم غالبًا أقل تلهفًا من زوجاتهم كـ«مستهلكين» جنسيين. قال الدكتور الراحل أبراهام ستون، الذي قابلته قبل وفاته بوقت قصير، إن الزوجات يشكين أكثر فأكثر من الأزواج «غير الملائمين» جنسيًا. ويذكر الدكتور كارل مينينجر أنه مقابل كل زوجة تشكو جنسانية زوجها المفرطة، هناك دزينة من الزوجات اللواتي يشكين من أن أزواجهن فاترون وعاجزون جنسيًا. يستشهد بهذه «المشاكل» في وسائل الإعلام الجماهيرية على أنها دليل إضافي على أن النساء الأمريكيات يفقدن «أنوثتهن»، وهذا يؤمّن ذخيرة جديدة للّغز. انظر:
John Kord Lagemann, "The Male Sex," *Redbook*, December, 1956.

الصريحة إلى الرغبات والتعبيرات الجنسية (بما في ذلك «العري والأعضاء الجنسية ودراسة البراز و‹القذارة› والخلاعة والاتصال الجنسي»). وقد شكلت هذه أكثر من 50٪ من الإشارات الملحوظة إلى الجنسانية الإنسانية، في حين حلّ «الجماع خارج الزواج» (بما في ذلك «الزنا والبغاء والعلاقات الجنسية غير المشروعة والدعارة والأمراض التناسلية») في المرتبة الثانية. وكانت الإشارات إلى الجنس في وسائل الإعلام الأمريكية في عام 1960 أكثر بمرتين ونصف من مثيلتها في عام 1950، ما شكّل زيادة من 509 إشارات جنسية «مباحة» إلى 1341 إشارة في وسائل الإعلام المائتين التي جرت عليها الدراسة. أمّا ما يسمى بـ«المجلات الرجالية» فلم تبلغ زيادات جديدة في استغراقها بأعضاء جنسية أنثوية معينة وحسب، بل إن طفرةً في المجلات ازدهرت بصراحة موجهةً نحو المثلية الجنسية. لكن الظاهرة الجنسية الجديدة الأكثر مفاجأة كانت بوضوح هي الخلاعة «النهمة» في الروايات الأكثر مبيعًا وقصص الدوريات التي تشكل النساء جمهورها الأساسي.

وعلى الرغم من قبول العالم النفسي من وجهة نظر مهنية الموقف «المجيز» من الجنس بالمقارنة مع الإنكار الزائف له فيما مضى، فقد انتقل إلى التخمين:

> أصبح وصف الأعضاء الجنسية شائعًا جدًا في الروايات العصرية، إلى حدّ أنّ المرء يتساءل عما إذا كان ذلك شرطًا لازمًا لإرسال عمل روائي إلى قائمة الكتب الأكثر مبيعًا. بما أنّ الوصف القديم المعتدل للاتصال الجنسي قد فقد على ما يبدو قدرته على الإثارة، وحتى الانحرافات الجنسية أصبحت الآن شائعة في الرواية العصرية، فالخطوة المنطقية الحالية تبدو هي الوصف التفصيلي للأعضاء الجنسية نفسها. ومن الصعب تخيّل ما ستكون الخطوة التالية في الخلاعة[1].

بهت اهتمام الرجال، من عام 1950 إلى عام 1960، بتفاصيل الاتصال

(1) Albert Ellis, The Folklore of Sex, New York, 1961, p. 123.

الجنسي أمام شره النساء، سواء كما صُوّرت في وسائل الإعلام تلك أو بوصفهم جمهورها. وأصلًا مع حلول عام 1950 كانت التفاصيل الشهوانية للفعل الجنسي التي يمكن أن توجد في المجلات الرجالية موجودة على نحو أكثر بكثير في الروايات الأكثر مبيعًا التي تباع أساسًا للنساء.

وفي أثناء الفترة ذاتها، أظهرت المجلات النسائية استغراقًا متزايدًا بالجنس متخفّيًا على نحوٍ مثير للغثيان[1]. وصفت تلك المقالات الرئيسية «الصحية» -من مثل «إنجاح الزواج»، «هل يمكن إنقاذ هذا الزواج؟»، «قل لي يا دكتور»- التفاصيل الجنسية الأكثر حميميةً في هيئة أخلاقية على أنها «مشاكل»، وكانت النساء يقرأن عنها بالروحية نفسها التي يقرأن بها تاريخ الحالات المرضية في كتب علم النفس. ونمّت الأفلام والمسرح عن استغراق متنام بالجنس المنحرف أو المريض، فكل فيلم جديد وكل مسرحية جديدة أكثر إثّارة قليلًا مما سبقهما في محاولة للمفاجأة أو الدغدغة.

وفي الوقت ذاته، كان المرء يستطيع أن يرى في خطوة موازية تقليص الجنسانية الإنسانية إلى أضيق حدودها النفسية في عددٍ كبير جدًا من الدراسات النفسية عن الجنس في الضواحي وفي تحقيقات كينزي. عالج تقريرا كينزي في عامي 1948 و1953 الجنسانية الإنسانية بوصفها لعبة بحث عن المكانة الهدف فيها هو أكبر عدد ممكن من «المنافذ»؛ الرعشات المتحققة على قدم المساواة عن طريق الاستمناء أو الاحتلام أو ممارسة الجنس مع الحيوانات وفي وضعيات مختلفة مع الجنس الآخر وقبل الزواج وخارجه وبعده. كان كل ما ذكره محقّقو كينزي والطريقة التي ذكروه بها، والذي لا يقل عن الروايات والمجلات والمسرحيات المتخمة بالجنس، أعراضًا لنزع الشخصية المتزايد وعدم النضج والتعاسة والانعدام الزائف للمعنى في استغراقنا الجنسي المبالغ به.

---

(1) See the amusing parody, “The Pious Pornographers,” by Ray Russell, in *The Permanent Playboy*, New York, 1959.

أصبحت الحقيقة القائلة إنّ هذا التصعيد في «الشهوة والإثارة والخلاعة» الجنسية ليس تمامًا علامة جلية على التوكيد الصحي للاتصال الجنسي الإنساني، فيما أخلت صورة الرجال اللاهثين وراء النساء المكان للصورة الجديدة التي تلهث النساء فيها وراء الرجال. وبدت الحدود القصوى المبالغ فيها والمنحرفة للأوضاع الجنسية ضرورية لإثارة البطل والجمهور على حد سواء. وربما كان أفضل مثال على هذا القلب المنحرف هو الفيلم الإيطالي **الحياة حلوة** (La Dolce Vita)، الذي نجح في أمريكا، بكل مزاعمه الفنية والرمزية، نتيجة دغدغته الجنسية التي رُوّج لها كثيرًا. وعلى الرغم من أنّ هذا الفيلم كان تعليقًا على الجنس والمجتمع في إيطاليا، فقد كان في الخصائص الرئيسية لاستغراقه الجنسي وثيق الصلة بالمشهد الأمريكي.

وكما هي الحال على نحو متزايد في الروايات والمسرحيات والأفلام الأمريكية، كانت الباحثات عن الجنس بشكل رئيسي هنّ النساء، اللواتي يُقدَّمن على أنهن مخلوقات جنسية بلهاء يبالغن في لبسهن، أو يلبسن ما هو أدنى من المألوف (نجمة هوليوود) والطفيليات الهستيريات (صديقة الصحفي). إضافة إلى ذلك، هناك الفتاة الغنية المتخبّطة جنسيًا التي تحتاج إلى المحاكاة المنحرفة لسرير العاهرة المستعار، والنساء المتعطشات للجنس في عربدة القصور المترفة اللواتي يلعبن «الغميضة» على ضوء الشموع، وأخيرًا المرأة المطلّقة التي تؤدي رقصة تعرّ متمعّجة أمام جمهور متوحّد ضجرٍ لامبالٍ.

كان جميع الرجال في الحقيقة أكثر ضجرًا وأكثر انشغالًا من أن يزعجوا أنفسهم. البطل السلبي اللامبالي المنجرف من امرأة باحثة عن الجنس إلى أخرى -دون جوان، مثليٌ جنسي كامن، منجرّ في الخيال إلى الفتاة الصغيرة عديمة الجنس، البعيدة عن متناوله عبر الماء. هذه الحدود القصوى المبالغ بها للأوضاع الجنسية تنتهي أخيرًا في تجرّد عن الشخصية يخلق مللًا منتفخًا لدى البطل والجمهور على حد سواء. (قد يشرح الملل من الجنس المتجرد

عن الشخصية أيضًا الحضور المتناقص لمسارح برودواي وأفلام هوليوود والرواية الأمريكية). وقبل المشاهد الأخيرة لفيلم (La Dolce Vita) بكثير -حين يخرجون جميعًا للتحديق في السمكة الميتة المنتفخة- أصبحت رسالة الفيلم واضحة تمامًا: «الحياة الحلوة» بليدة.

كما ظهرت صورة المرأة الباحثة عن الجنس الهجومية أيضًا في روايات من مثل (Peyton Place) و(The Chapman Report)، التي تشبع، عن وعي، الجوع الأنثوي إلى الخيال الجنسي. وسواء كانت هذه الصورة الروائية للأنثى المتحرقة للجنس تعني أنّ النساء الأمريكيات قد أصبحن باحثات شرهات عن الجنس في الحياة الحقيقية أم لا، فعلى الأقل لديهن شهية لا تشبع نحو الكتب التي تعالج الفعل الجنسي؛ شهية لا يبدو أنّ الرجال دائمًا -في الرواية وفي الحياة الحقيقية- يشاركون فيها. قد يكون لهذا التناقض في الاستغراق الجنسي بين الرجال والنساء في أمريكا -في الرواية أو في الواقع- تفسير بسيط. تبحث ربات المنازل في الضواحي على نحو خاص غالبًا عن الجنس أكثر مما يجدنه، لا بسبب المشاكل التي يمثلها الأولاد العائدون إلى البيت من المدرسة، أو السيارات المركونة في المداخل الخاصة والخدم الذين ينشرون الشائعات فحسب، بل وببساطة تامة لأنّ الرجال ليسوا متوفرين بكثرة. الرجال عمومًا يقضون معظم ساعاتهم في مساع وأهواء غير جنسية، وحاجتهم إلى جعل الجنس يتمدّد حتى يملأ الوقت المتاح أقل. وهكذا فالنساء الأمريكيات محكوم عليهن من سن المراهقة حتى أواخر منتصف العمر أن يقضين معظم حياتهن في خيال جنسي. حتى عندما تكون العلاقة الجنسية -أو «المداعبات خارج الزواج» والتي وجد كينزي أنها في تزايد- حقيقية، فإنّها لا تصل قط إلى مستوى الحقيقية التي دفع اللغز النساء إلى الإيمان بوجودها.

وكما عبّر كاتب (The Exurbanites)[1] عن الأمر:

(1) الذين يعيشون في مناطق مزدهرة بعد الضواحي - المترجم.

في حين قد تكون العلاقة بالنسبة لشريكها شيئًا عرضيًا تمامًا، ومن المحتمل أنها كذلك فعلًا، ومصحوبة بالطبع بكلام معسول مفصّل خصيصًا لإقناعها بالعكس تمامًا، فإنها غالبًا ما تعلق بصدق تمامًا بما تتصور أنه حب حياتها الحقيقي. ولأنها مثبطةٌ بفعل عيوب زواجها ومضطربةٌ وغير سعيدة وغاضبة وغالبًا ذليلة نتيجة سلوك زوجها، فإنها تكون مستعدةً نفسيًا للرجل الذي سيطبق عليها بمهارة وتروٍّ سحره وذكاءه وسلوكه المغوي... وهكذا، في الحفلات الشاطئية وفي حفلات مساءات أيام السبت وفي الرحلات الطويلة بالسيارات من مكان إلى مكان –حيث في كل هذه المناسبات يتفرّق الزوجان بشكل طبيعي– يمكن قول أوّل الكلمات، وتحضير الأرضية تحضيرًا أوليًا، وإثارة أول الخيالات، وتبادل النظرات الأولى ذات المعنى، واستراق القبلة المتهورة الأولى. وغالبًا، فيما بعد عندما تدرك المرأة أنّ ما كان مهمًا لها كان عرضيًا له، تستطيع أن تبكي، ثمّ تستطيع أن تجفّف دموعها وتنظر حولها من جديد[1].

لكن، ما الذي يحدث عندما تقيم امرأة كل هويتها على دورها الجنسي؛ عندما يكون الجنس ضروريًا لجعلها «تشعر أنّها حية»؟ وللتعبير عن الأمر ببساطة تامة، هي تضع مطالب مستحيلة على جسمها وعلى «أنوثتها» وكذلك على زوجها و«رجولته». قال لي استشاري في شؤون الزواج إن العديد من زوجات الضواحي الشابات اللواتي عالجهن يضعن «مطالب ثقيلة على الحب والزواج، لكن ليس هناك أية إثارة أو لغز، وأحيانًا، وتقريبًا حرفيًا، لا يحدث شيء».

إنه شيء تدرّبتْ عليه وتعلّمت من أجله، كل هذه المعلومات الجنسية والاستحواذ الجنسي، هذا النمط المرسوم بوضوح والقائل إنّها يجب أن تكرّس نفسها لتصبح زوجة وأمًا. ليس هناك عجب في أن يجد غريبان، رجلٌ وامرأة، كائنان منفصلان، أحدهما الآخر. كل ذلك مرسوم مسبقًا، سيناريو يُتّبَع دون صراع الحياة وجمالها وروعها الغامض. وهكذا تقول له: افعل شيئًا، اجعلني أشعر بشيء ما، ولكن ليس في نفسها أية قوة لإثارة ذلك.

يصرّح طبيب نفسي أنه لطالما رأى الجنس «يذبل ويموت ببطء» عندما

(1) A. C. Spectorsky, *The Exurbanites*, New York, 1955, p. 223.

تستخدم النساء أو الرجال العائلة «للتعويض في القرب والعاطفة عن الفشل في تحقيق الأهداف والإشباع في المجتمع الأوسع»[1]. أحيانًا، كما قال لي «لا يكون هناك سوى القليل من الحياة الحقيقية بحيث في النهاية حتى الجنس يتدهور، ويموت تدريجيًا، وتمرّ شهور بلا أية رغبات على الرغم من أنهما في سنّ الشباب». فالفعل الجنسي «يميل إلى أن يصبح آليًا ومجردًا عن الشخصية وتفريغًا جسديًا يترك الشريكين أكثر وحدةً بعد الفعل مما كانا عليه قبله. ويذبل التعبير عن العاطفة الرقيقة. ويصبح الجنس مجالًا للصراع من أجل الهيمنة والتحكم. أو يصبح عملًا روتينيًا مملًا فارغًا، يتمّ وفق جدول زمني».

وعلى الرغم من أنّ أولئك النساء لا يجدن أي اكتفاء في الجنس، فإنهن يتابعن بحثهن الذي لا ينتهي. بالنسبة للمرأة التي تعيش وفق اللغز الأنثوي، ليس هناك أي طريق للتحقّق أو المكانة أو الهوية إلّا الطريق الجنسي: تحقيق الخضوع الجنسي، والمكانة بوصفها غرض جنسي مرغوب، والهوية بوصفها زوجة ناجحة جنسيًا وأم. ومع ذلك، ولأن الجنس لا يلبّي فعلًا تلك الحاجات، فإنها تسعى إلى دعم خوائها بالأشياء، إلى أن يصبح حتى الجنس نفسه في النهاية، والزوج والأولاد الذين تقوم عليهم هويتها، ممتلكات وأشياء. تعيش المرأة، التي ليست هي نفسها سوى غرض جنسي في النهاية، في عالم من الأغراض وغير قادرة على أن تلمس في الآخرين الهوية الفردية التي تفتقدها هي ذاتها.

هل الحاجة إلى نوع من الهوية أو الإنجاز هي التي تدفع ربات المنازل في الضواحي إلى تقديمٍ أنفسهن بتوقٍ إلى الغرباء والجيران؛ وهو ما يجعل الأزواج «أثاثًا» في بيوتهم؟ في رواية صدرت حديثًا حول الخيانة الزوجية في الضواحي، يتحدّث الكاتب على لسان لحّام يستغلّ ربات المنازل الوحيدات في الجوار:

(1) Nathan Ackerman, *The Psychodynamics of Family Life*, New York, 1958, pp. 112-127.

أتعرف ما هي أمريكا؟ إنها حوض زلق كبير من الضجر ... ولا يمكن لأي زوج أن يفهم ذلك الحوض الزلق. ولا يمكن لأيّ امرأة أن تشرحه لأخرى لأنّ الجميع متورّطٌ في ذلك الضجر الزلق ذاته. وبالتالي، فكل ما يجب على الرجل فعله هو الفهم. نعم، يا حبيبتي، أعرف، أعرف، حياتك تعيسة، هاكِ بعض الأزهار، هاكِ بعض العطر، هاكِ كلمة «أحبك».. و.. اخلعي بنطالك. ... أنت وأنا، نحن أثاث في بيتنا. ولكن، إذا ذهبنا إلى البيت في الجوار، فآه! هناك نحن أبطال! كلهن يبحثن عن المغامرة العاطفية لأنهن تعلمنها من الكتب والأفلام. وما الذي يمكن أن يكون أكثر مغامرةً من رجل مستعد للمخاطرة بتلقي طلقة من زوجك مقابل الحصول عليك... والشيء الوحيد المثير في هذا الرجل هو أنه غريب ... هي لا تملكه. تقول لنفسها إنها عاشقة، وإنها مستعدة للمخاطرة ببيتها وسعادتها وكبريائها وكل شيء، فقط لتكون مع هذا الغريب الذي يملؤها مرّة في الأسبوع. ... في أي مكان تجد فيه ربة منزل، تجد أيضًا خليلةً محتملة لغريب[1].

وجد كينزي من مقابلاته مع 5940 امرأة أنّ الزوجات الأمريكيات، ولاسيما من الطبقة الوسطى، بعد عشرة أعوام أو خمسة عشر من الزواج، قد تحدثن عن رغبة جنسية أكبر مما يبدو أن أزواجهن يشبعونها. لقد دخلت واحدة من كل أربع نساء مع وصولها إلى سن الأربعين في علاقة ما خارج الزواج، على نحو متقطع عادةً. وبدت بعضهن قادرات بنهم على «رعشات متعددة». وانخرط عدد متزايد منهن في «مداعبات خارج الزواج» أكثر شبهًا بممارسات سن المراهقة. وجد كينزي أيضًا أنّ الرغبة الجنسية للأزواج الأمريكيين، ولاسيما في المجموعات المتعلمة من الطبقة الوسطى، على ما يبدو تتضاءل فيما رغبات زوجاتهم تتزايد[2].

ولكنّ الأكثر تَسبّبًا بالقلق، من العلامات على الجوع الجنسي المتزايد وغير المشبع بين النساءِ الأمريكيات في هذه المرحلة من اللغز الأنثوي، هي تلك العلامات على النزاع المتزايد على أنوثتهن. هناك دليل على أنّ

(1) Evan Hunter, *Strangers When We Meet*, New York, 1958, pp.23 1-235.
(2) Kinsey, et al., *Sexual Behavior in the Human Female*, pp. 353 ff., p. 426.

العلامات على النزاع الجنسي الأنثوي، والذي يشار له غالبًا بلباقةٍ باسم «المشاكل الأنثوية»، تحدث في وقت أبكر من أي وقت مضى، وعلى نحو مكثّف، في هذه المرحلة حيث تسعى النساء إلى تحقيق أنفسهن في وقت مبكر جدًا وحصريًا عن طريق الجنس.

أخبرني رئيس قسم الأمراض النسائية في مستشفى شهير أنه يرى، وعلى نحوٍ متزايد، لدى الأمهات الشابات نفس الاعتلال في الدورة المبيضية -إفراز مهبلي، تأخر في الدورة الشهرية، عدم انتظام في التدفق الطمثي وفترة التدفق، أرق، متلازمة التعب، عجز جسدي- وهي أمور لم يكن يراها إلّا لدى نساء في أثناء انقطاع الطمث. قال:

> المسألة هي ما إذا كانت الأمهات الشابات سينهرن مرضيًا عندما يفقدن وظيفتهن الإنجابية. أرى نساء كثيرات يعانين من هذه الصعوبات الطمثية، وأنا واثق من أنّ فراغ حياتهن يفعّلها، مثلما تفعّلها حقيقة أنهن ببساطة قد قضين آخر ثمانية وعشرين عامًا متعلقات بآخر ابن حتى لم يبق لديهن ما يتعلقن به. وعلى العكس من ذلك، لا تعاني النساء اللواتي أنجبن أولادًا، وأقمن علاقات جنسية، لكنهن يتمتعن على نحوٍ ما بشخصيات أكثر حماسًا، دون أن يكنّ مضطرات باستمرار إلى تبرير أنفسهن كنساء بإنجاب طفل آخر والإصرار عليه، إلّا من القليل من هبّات الحرارة والأرق والاضطراب والهياج العصبي.

النساء اللواتي يعانين من مشاكل أنثوية هنّ اللواتي أنكرن أنوثتهن، أو الإناث مرضيًا. ولكننا نرى هذه الأعراض الآن لدى المزيد والمزيد من الزوجات الشابات في العشرينيات من أعمارهن، نساء شابات استُنزفن في أولادهن، نساء لم يطوّرن أية موارد سوى أولادهن؛ يدخلن مع الاعتلال ذاته في دورتهن المبيضية، والصعوبات الطمثية المميّزة لفترة انقطاع الطمث. أقول لامرأة في الثانية والعشرين من العمر لديها ثلاثة أولاد، وتعاني من أعراض تظهر أكثر في فترة انقطاع الطمث: «مشكلتك الوحيدة هي أنك أنجبت عددًا كبيرًا من الأولاد أسرع مما ينبغي»، وأحتفظ لنفسي برأيي، «لم تتطور شخصيتك بما يكفي».

وفي هذا المستشفى نفسه، أجريت دراسات على نساء في فترة النقاهة بعد عمليات استئصال الرحم ونساء يعانين من شكاوى طمثية ونساء لديهن حمول صعبة. أولئك النساء الأكثر معاناةً من الألم والغثيان والإقياء والكرب الانفعالي والجسدي والاكتئاب وفتور الشعور والقلق هنّ النساء «اللواتي كانت حياتهن تدور، وعلى نحو حصري تقريبًا، حول الوظيفة الإنجابية وإرضائها بالأمومة. عبّرت امرأة عن نموذج أصلي يمثّل هذا الموقف بالقول: ‹حتى أكون امرأة، يجب أن أكون قادرة على أن أكون أمًّا›»[1]. أمّا الأقل معاناةً من النساء فكنّ يتمتعن «بذوات متكاملة جيدًا»، وبعناصر من الذكاء، وكانت اهتماماتهن، حتى في المستشفى، تتجه نحو الخارج، بدلًا من الانشغال بأنفسهن ومعاناتهن.

وقد رأى أطباء التوليد ذلك أيضًا. قال لي أحدهم:

إنه لشيء مضحك. النساء اللواتي يعانين من آلام الظهر والنزيف وصعوبة الحمل والولادة، هنّ اللواتي يعتقدن أن كل هدفهن في الحياة هو أن ينجبن أطفال. أمّا النساء اللواتي لديهن اهتمامات أخرى غير أن يكنّ آلات إنجابية فمشاكلهن في إنجاب الأطفال أقل. لا تسأليني عن تفسير ذلك. فأنا لست طبيبًا نفسيًا. ولكننا لاحظناه جميعًا.

وتحدث طبيب نسائية آخر عن مريضات كثيرات في هذه الفترة من «تحقيق الأنوثة» ممن لم يجلب لهن إنجاب الأطفال ولا الاتصال الجنسي «التحقق». كنّ حسب كلماته:

نساءً يشعرن بعدم التأكد فيما يتعلق بجنسهن وحاجتهن إلى إنجاب الأطفال مرة تلو الأخرى ليثبتن أنهن أنثويات؛ نساءً أنجبن طفلهن الرابع أو الخامس لأنهن لا يستطعن التفكير في القيام بأي شيء آخر؛ نساءً مهيمنات، وهذا شيء آخر يهيمنّ عليه؛ ومن ثمّ لدي مئات المريضات، وهنّ فتيات جامعيات لا يعرفن ما يفعلن بأنفسهن، تأتي بهن أمهاتهن لتركيب واقٍ أنثوي ضد الحمل.

(1) Doris Menzer-Benaron M.D., et al., "Patterns of Emotional Recovery from Hysterectomy," *Psychosomatic Medicine*, XIX. No.5, September, 1957. pp. 378-388.

ولأنهن غير بالغات فالذهاب إلى السرير لا يعني لهن شيئًا؛ إنه مثل تناول الدواء، لا نشوة ولا شيء. والزواج بالنسبة لهن تهرّب.

المعدّل العالي لحدوث المغص الشديد مع الطمث والغثيان والإقياء في أثناء الحمل والاكتئاب مع الولادة والكرب النفسي والفيزيولوجي الشديد مع انقطاع الطمث أصبحت أمور تُقبَل على أنها جزء «طبيعي» من بيولوجيا الأنثى[1]. هل هذه الوصمات التي تسمُ مراحل الدورة الجنسية الأنثوية -الطمث - الحمل - انقطاع الطمث - هي جزء من طبيعة النساء الثابتة

(1) لقد أثبتت دراسات كثيرة الحقيقة القائلة أن ٪75-85 من الأمهات الشابات في أمريكا اليوم تراودهن مشاعر سلبية -الاستياء والحزن وخيبة الأمل والرفض التام- عندما يحملن للمرة الأولى. في الواقع، يورد مرتكبو اللغز الأنثوي نتائج تؤكّد للأمهات الشابات أنهن «طبيعيات» تمامًا حين يراودهن ذلك الرفض الغريب للحمل، وأن المشكلة الحقيقة الوحيدة هي «الإحساس بالذنب» حيال ذلك الشعور. وهكذا تذكر مجلة ريدبوك في مقالة بعنوان «كيف تشعر النساء حقيقة حيال الحمل؟» (تشرين الثاني/ نوفمبر 1958) أن مدرسة هارفارد للصحة العامة وجدت أن ٪80-85 من «النساء الطبيعيات يرفضن الحمل عندما يحملن»؛ ووجدت عيادة كلية لونغ آيلاند أن أقل من الربع «سعيدات» بحملهن؛ وتجد دراسة نيو هافن أن 17 فقط من بين 100 امرأة كن «سعيدات» حيال إنجاب طفل. تعليقات صوت السلطة التحريرية:
«الخطر الحقيقي الذي ينشأ عندما يكون حمل ما غير مرغوب فيه ويمتلئ بالمشاعر المضطربة هو أن المرأة قد تصاب بالإحساس بالذنب، وينتابها الذعر لأنها تعتقد أن ردود أفعالها غير طبيعية أو شاذة. يمكن تدمير كل من العلاقات الزوجية وعلاقات الأم-الطفل نتيجة ذلك. ... وأحيانًا يكون اختصاصي في الصحة العقلية مطلوبًا لتهدئة مشاعر الذنب. ... ليس هناك أي وقت لا تراود المرأة العادية فيه مشاعر الاكتئاب والشك عندما تعلم أنها حامل».
لا تذكر هذه المقالات الدراسات العديدة التي تشير إلى أن النساء في البلدان الأخرى، سواء الأكثر أو الأقل تقدمًا من الولايات المتحدة، وحتى النساء الأمريكيات «المهنيات»، لديهن احتمال أقل للمعاناة من ذلك الرفض العاطفي للحمل. قد يكون الاكتئاب عند الحمل «طبيعيًا» لربة المنزل-الأم في حقبة اللغز الأنثوي، ولكنه ليس طبيعيًا للأمومة. وكما قالت روث بينيديكت، فإنه ليس ضرورة بيولوجية، لكنّها ثقافتنا التي تخلق الانزعاجات، الجسدية والنفسية، عن الدورة الأنثوية. انظر مؤلفها: Continuities and Discontinuities in Cultural Conditioning.

والأبدية، كما يفترض شعبيًا، أم أنها تتعلق، على نحو ما، بذلك الخيار غير الضروري بين «الأنوثة» والنمو الإنساني والجنس والذات؟ عندما تكون المرأة «مخلوقًا جنسيًا»، فهل ترى، بلا وعي، في كل خطوةٍ من خطوات دورتها الجنسية الأنثوية تنازلًا عن سبب وجودها نفسه، أو نوعًا من الموت؟ أولئك النساء اللواتي يملأن العيادات هنّ تجسيدات للغز الأنثوي. نقص النشوة الجنسية، و«المشاكل الأنثوية» المتزايدة، والبحث النهم المشوّش عن الجنس والاكتئاب عند اللحظة التي تصبح فيها أمًّا، وتوق النساء الغريب إلى استئصال أعضائهن الجنسية الأنثوية عن طريق عمليات استئصال الرحم دون سبب طبي - كل هذه الأمور تبيّن كذبة اللغز الكبيرة. ومثل نبوءة الموت المتحققة ذاتيًا، فإن اللغز الأنثوي -من خلال صرخته ضد فقدان الأنوثة- يجعل من الصعب على النساء -وعلى نحو متزايد- أن يثبتن أنوثتهن، وعلى الرجال أن يكونوا ذكوريين فعلًا، وعلى الرجال والنساء أن يستمتعا بالحب الجنسي الإنساني.

رأيت فجأةً لماذا كان وجود جوّ اللاواقعية، الذي خيّم على مقابلاتي مع الباحثات عن الجنس من ربات المنازل في الضواحي، اللاواقعية التي تخلّلت الروايات والمسرحيات والأفلام التي استحوذ عليها الجنس -مثلما تخلّلت الحديث الشعائري عن الجنس في حفلات الضواحي- خيالًا صرفًا على جزيرة شديدة البعد ظاهريًا عن الضواحي التي يكون البحث عن الجنس فيها كلي الوجود. في أثناء الأسبوع تعيش هذه الجزيرة مثل ضاحية فيها الكثير من المبالغة، لأنّها بعيدة تمامًا عن المؤثرات الخارجية، عن عالم العمل والسياسة، وحتى الرجال لا يعودون إلى البيت ليلًا خلال الأسبوع. وكانت النساء اللواتي يقضين الصيف هناك ربات منازل شابات جذابات جدًا. لقد تزوجن باكرًا، ويعشن من خلال أزواجهن وأبنائهن؛ ولم يكن لديهن أي اهتمام بالعالم خارج البيت. وهنا على هذه الجزيرة، على عكس الضاحية، لم تكن هناك أية طريقة أمام تلك النساء لتشكيل لجان أو مطّ

العمل المنزلي حتى يملأ الوقت المتاح. لكنهن وجدن لهوًا جديدًا يضربن به عصفورين بحجر واحد، لهوًا أعطاهن حسًا زائفًا بالمكانة الجنسية، لكنه أراحهن من الضرورة المخيفة لإثباته. كانت هناك على تلك الجزيرة مستوطنة من «الفتيان» خارجة للتو من عالم تنيسي وليامز (Tennessee Williams). وكانت تلك النساء خلال الأسبوع، عندما يكون رجالهن في المدينة من أجل العمل، يقمن بحفلات قصف «وحشية» تستمر طوال الليل مع أولئك الفتيان عديمي الجنس. وبنوع من الحيرة المرحة، تساءل زوجٌ استقل القارب نحو الجزيرة، على نحو غير متوقع، في ليلة من ليالي الأسبوع العادية ليسلّي زوجته الوحيدة الضجرة: «لماذا يقمن بذلك؟ ربما للأمر علاقة بأن هذا المكان أصبح أموميًا».

وربما أيضًا له علاقة بالملل؛ إذ لم يكن لديهن أي شيء آخر يفعلنه هناك. لكنه كان يبدو كالجنس؛ وهذا ما جعله مثيرًا جدًا، على الرغم من أنه لم يكن هناك بالطبع أي احتكاك جنسي. ربما حققت ربات المنازل أولئك وأصدقائهن أنفسهم بعضهم بالبعض الآخر. لأنهم كانوا، مثل البغي التي تستدعى بالهاتف في رواية ترومان كابوتي (Truman Capote) **فطور عند تيفاني** Breakfast at Tiffany's، التي تقضي الليل بلا جنس مع مثلي جنسي سلبي، مثل الأطفال تمامًا في معتزلهم عن الحياة. وكانا يبحثان بعضهما في البعض الآخر عن إعادة التأكيد غير الجنسي نفسه.

ولكن، في الضواحي حيث في معظم ساعات النهار لا يوجد عمليًا أي رجال -لإضفاء حتى مظهر جنسي- يجب أن تبحث النساء، اللواتي ليست لهن أية هوية غير أن يكنّ مخلوقات جنسية، في النهاية عن إعادة تأكيدهن عن طريق امتلاك «الأشياء». ويرى المرء فجأةً لماذا يلبي المتلاعبون الجوع الجنسي في محاولتهم لبيع منتجات ليست جنسية ولو من بعيد. طالما أمكن توجيه حاجات المرأة إلى الإنجاز والهوية نحو البحث عن مكانة جنسية، فإنها تكون ضحية سهلة لأي منتج يعدها على نحو مفترض بتلك المكانة؛

مكانة لا يمكن تحقيقها بجهد أو إنجاز خاصين بها. وبما أنّ ذلك البحث الذي لا ينتهي عن المكانة، كغرض جنسي مرغوب، قلّما يُشبَع في الواقع لمعظم ربات المنازل الأمريكيات (اللواتي يستطعن في أفضل الأحوال أن يبدين مثل إليزابيت تايلور)، فإنه يترجم بسهولة شديدة إلى بحث عن المكانة عن طريق امتلاك الأشياء.

وبالتالي، فالنساء هجوميات في البحث عن المكانة في الضواحي، وبحثهن يتمتع بنفس زيف بحثهن عن الجنس ولاواقعيته. فالمكانة -في نهاية المطاف- هي ما يبحث عنه الرجال ويحصلون عليه عن طريق عملهم في المجتمع. لا يمكن لعمل امرأة -عملها المنزلي- أن يمنحها مكانة؛ فمكانته هي أدنى مكانة تقريبًا من أي عمل في المجتمع. ويجب أن تحقق المرأة مكانتها على نحو غير مباشر عن طريق عمل زوجها. فالزوج ذاته وحتى الأولاد يصبحون رموزًا للمكانة، لأنه عندما تحدّد امرأة نفسها ربة منزل، يصبح البيت والأشياء الموجودة فيه بمعنى من المعاني هويتها؛ إنها تحتاج إلى هذه الزخارف الخارجية لتدعم فراغها الذاتي، لا لأنّ الأشياء التي تحتاجها من أجل المكانة تأتي في النهاية من عمل زوجها، ولكن لأنها يجب أن تهيمن عليه وتملكه، نتيجة فقدان هوية خاصة بها. إذا لم يكن زوجها قادرًا على تأمين الأشياء التي تحتاجها من أجل مكانتها، فإنه يصبح موضوع احتقار، تمامًا مثلما تحتقره إذا لم يستطع إشباع حاجاتها الجنسية. إن عدم رضاها عن ذاتها نفسه تشعر به عدم رضا عن زوجها وعلاقتهما الجنسية. وقد عبّر طبيب نفسي عن الأمر بالقول: «إنها تطلب الكثير من الإشباع من علاقاتها الزوجية. ويمتعض زوجها من الأمر ويصبح غير قادر على القيام بوظيفته الجنسية معها على الإطلاق».

أيمكن أن يكون هذا هو سبب الموجة العارمة من الامتعاض بين الأزواج الشباب الجدد تجاه الفتيات اللواتي طموحهن الوحيد هو أن يكنّ زوجاتهم؟ قد تبهت العدوانية القديمة ضد «المامات» المستبدات والفتيات

المهنيات الهجوميات على المدى الطويل أمام العدوانية الذكرية الجديدة نحو الفتيات اللواتي خلّف سعيهن النشيط وراء «العمل المنزلي» نوعًا جديدًا من الهيمنة والعدوان. فأن يصبح الرجل هو الأداة أو الوسيلة الجنسية أو «الرجل الحاضر في البيت»، ليس بالتأكيد حلمه الذي يتحقّق.

في آذار/ مارس 1962، أشار مراسل صحفي في مجلة **ريدبوك** إلى ظاهرة جديدة على مشهد الضواحي، «يشعر الآباء الشباب أنهم عالقون في الفخ»:

> يشعر أزواج كثيرون أنّ زوجاتهم، من خلال اقتباسهن المحكم للسلطات في مجال إدارة البيت وتربية الأطفال والحب الزوجي، قد أقمن نظامًا مبرمجًا بإحكام وموضوعًا وفق تصورات ضيقة للحياة العائلية، لا يترك مجالًا لسلطة الزوج أو وجهة نظره. (قال أحد الأزواج: «منذ أن تزوجت، أشعر أنني فقدت كلّ شجاعتي. لم أعد أشعر أنني رجل. مازلت شابًا، ولكني لا أستمتع كثيرًا بالحياة. لا أريد نصيحة، لكني أشعر أحيانًا وكأن شيئًا ما يتفجّر في داخلي»). اعتبر الأزواج زوجاتهم المصدر الرئيسي لإحباطهم، يأخذن محل الأولاد وأصحاب العمل والموارد المالية والأقرباء والمجتمع والأصدقاء. ... الأب الشاب لم يعد حرًا في أن يرتكب أخطاءه، أو يقوم بدوره في أزمة عائلية. فزوجته وقد قرأت الفصل السابع تعرف ما الذي يجب القيام به بالضبط.

وتتابع المقالة لتقتبس من عامل اجتماعي:

> قد يشكل إلحاح المرأة العصرية على تحقيق الاكتفاء الجنسي لنفسها مشكلة كبيرة لزوجها. يمكن ملاطفة الزوج وإطراؤه وتملقه على أدائه وكأنه محبّ خبير. لكن إذا ازدرته زوجته، وانتقدته، وكأنه أثبت أنه عاجز عن حمل جذع شجرة إلى علية المنزل، فهذه إشارة إلى أن هناك مشكلة. ... إنه لأمر ينذر بالخطر أن نلاحظ أنّ عددًا لا بأس به من الأزواج بعد خمس سنوات من الزواج قد مارسوا الخيانة الزوجية، وأنّ نسبة أكبر بكثير لديها إغراء جديّ لممارستها. وغالبًا ما تكون تلك الخيانة وسيلة لتوكيد الذات أكثر مما هي بحث عن المتعة.

أجريتُ منذ أربع سنوات مقابلات مع عدد من الزوجات في طريقٍ ذي مظهر ريفي مصطنع في ضاحية رائجة. كان لديهن كل ما يردن: بيوت

جميلة وعدد من الأولاد وزوج لطيف. اليوم، وفي ذلك الطريق ذاته، هناك فيض متنام من بيوت الأحلام التي تعيش فيها -ولأسباب متعددة، وأحيانًا لا تحصى- الزوجات وحيدات مع الأولاد، في حين انتقل الأزواج -وهم أطباء ومحامون ومديرو حسابات- إلى المدينة. استنادًا إلى علماء الاجتماع، فإنّ الزوج في أمريكا هو من يطلب الطلاق في معظم الحالات تقريبًا، حتى إذا كانت الزوجة هي من يحصل عليه[1]. هناك بالطبع أسباب عديدة للطلاق، لكن يبدو أن السبب الرئيسي بينها هو المقت والعدائية المتزايدان لدى الرجال تجاه أحجار الطواحين الأنثوية المعلقة حول أعناقهم، عدائية غير موجهة دائمًا إلى زوجاتهم، بل وإلى أمهاتهم والنساء اللواتي يعملن معهم؛ في الحقيقة إلى النساء عمومًا.

طبقًا لكينزي، فإن غالبية المنافذ الجنسية للرجال الأمريكيين من الطبقة الوسطى ليست علاقاتهم مع زوجاتهم بعد السنة الخامسة عشرة من الزواج؛ وفي سن الخامسة والخمسين ينخرط رجل من كل رجلين أمريكيين في علاقة جنسية خارج الزواج[2]. هذا البحث الذكري عن الجنس -العلاقة الغرامية في المكتب، والعلاقة العرضية أو الأكثر ثباتًا، وحتى الجنس من أجل الجنس المجرّد عن الشخص، كما سخر منه مؤخرًا فيلم **الشقة** (The Apartment)، تحرّضه ببساطة الحاجة إلى الهرب من الزوجة المفترسة. وأحيانًا يبحث الرجل عن العلاقات الإنسانية التي تضيع عندما يصبح مجرّد ملحق لـ«عمل» زوجته المنزلي الهجومي. وأحيانًا يجعله مقته لزوجته في النهاية يبحث في الجنس عن غرض بعيد تمامًا عن أية علاقة إنسانية. وأحيانًا يبحث في الخيال أكثر مما في الواقع عن طفلةٍ ما، عن لوليتا[3] (Lolita) ما،

(1) See William J. Goode, *After Divorce*. Glencoe, Ill., 1956.

(2) A. C. Kinsey, et al., *Sexual Behavior in the Human Male*, Philadelphia and London, 1948, p. 259, pp. 585-588.

(3) بطلة رواية فلاديمير نابوكوف الشهيرة، والتي تحمل اسمها. ولوليتا، في الرواية، فتاة في الثانية عشرة يقع في حبها زوج أمها الخمسيني – المترجم.

كغرض جنسي، حتى يهرب من تلك المرأة البالغة، التي تكرّس كل طاقاتها الهجومية، بالإضافة إلى طاقاتها الجنسية، للعيش من خلاله. لا شك في أن الغضب الذكري من النساء -وضد الجنس بالضرورة- قد تزايد على نحو هائل في فترة اللغز الأنثوي(1). وكما كتب رجلٌ في رسالة إلى صحيفة **فيليج فويس** (Village Voice)، وهي صحيفة قرية جرينيتش في نيويورك، في شباط/ فبراير، 1962: «لم تعد المشكلة ما إذا كان البيض أفضل من أن يتزوجوا السود أو العكس، بل ما إذا كانت النساء جيدات بما يكفي لأن يتزوجن الرجال، لأن النساء على طريق الخروج».

الرمز العام لهذه العدائية الذكرية هو هروب كتّاب المسرح والروائيين الأمريكيين من مشاكل العالم إلى نوع من الهوس بصور الأنثى المفترسة، البطل الذكر المستشهد السلبي (في ملابس المثلية أو الغيرية الجنسية)، البطلة الطفولية المتخبّطة جنسيًا، والتفاصيل الجسدية للتطور الجنسي المكبوح. إنّه عالم خاص، ولكنه ليس خاصًا إلى حدّ لا تستطيع معه الملايين من الرجال والنساء، الفتيان والفتيات، أن يتماثلوا معه. ومسرحية تنيسي وليامز **فجأة في الصيف الماضي** Suddenly Last Summer هي مثال فاضح على هذا العالم.

لقد أضاع البطل المثلي جنسيًا الهَرِم من عائلة جنوبية قديمة والمسكون بالطيور العملاقة التي تلتهم السلاحف البحرية الصغيرة حياته في السعي وراء شبابه الذهبي الضائع. وقد «التُهم» هو نفسه من قبل أمه الأنثوية المغوية، تمامًا مثلما في النهاية التُهم حرفيًا على يد عصابة من الفتيان صغار السن. وإنه لذي مغزى ألّا يظهر بطل هذه المسرحية أبدًا؛ هو بلا وجه وبلا جسم. والشخصية الوحيدة «الحقيقية»، على نحو لا يمكن إنكاره، هي الأم

(1) الاحتقار المذكر للمرأة الأمريكية، كما قولبت نفسها وفق اللغز الأنثوي، تبيّن على نحو محزن في عدد تموز/ يوليو 1962 من مجلة **إسكواير** (Esquire) «المرأة الأمريكية، وجهة نظر جديدة». انظر على نحو خاص:
"The Word to Women-'No'" by Robert Alan Aurthur, p. 32

آكلة الرجال. وهي تظهر مرارًا وتكرارًا في مسرحيات وليامز وفي مسرحيات وروايات معاصريه بالإضافة إلى الأبناء مثليي الجنس والبنات الشهوانيات والدونجوانات الذكور الحقودين. كل هذه المسرحيات هي صرخة متألمة من الحب–الكره المهووس ضد النساء. وإنه لأمر ذي معنى، أن يكون كتّاب جنوبيون قد كتبوا عددًا كبيرًا من هذه المسرحيات ، حيث تبقى «الأنوثة» التي يرفعها اللغز إلى مستوى القداسة سليمة إلى أقصى حد.

هذا الغضب الذكري هو بالتأكيد نتيجة حقد لا يهدأ نحو النساء الطفيليات اللواتي يمنعن أزواجهن وأبناءهن من النضج، ويبقينهم مغمورين في ذلك المستوى الممرض من الخيال الجنسي. لأن الحقيقة هي أن الرجال أيضًا يُسحبون الآن من عالم الواقع الكبير إلى عالم الخيال الجنسي المعوّق عن النمو، الذي كانت بناتهم وزوجاتهم وأمهاتهم مجبرات على البحث عن «التحقق» فيه. وبالنسبة للرجال أيضًا، يتبنى الجنس نفسه شخصية الخيال اللاواقعية؛ أي يصبح مجردًا عن الشخص وغير مُشبِع وأخيرًا غير إنساني.

هل هناك في النهاية صلةٌ بين ما يحدث للنساء في أمريكا والمثلية الجنسية الذكرية العلنية المتزايدة؟ وفق اللغز الأنثوي، ينتج «استرجال» النساء الأمريكيات، الناتج عن التحرير والتعليم والحقوق المتساوية والمهن، سلالة من الرجال «الأنثويين» على نحو متزايد. ولكن هل هذا هو التفسير الحقيقي؟ في الحقيقة، لم تظهر أرقام كينزي زيادة في المثلية الجنسية لدى الأجيال التي شهدت تحرير النساء. كشف تقرير كينزي في عام 1948 أن 37٪ من الرجال الأمريكيين قد مرّوا بتجربة مثلية جنسية واحدة على الأقل، وأنّ 13٪ كانوا مثليين جنسيًا أساسًا (مدة ثلاث سنوات على الأقل بين عمر 16 و55)، و3٪ كانوا مثليين جنسيًا حصرًا، أي نحو مليوني رجل. ولكن «لم يكن هناك دليل على أنّ مجموعة المثليين جنسيًا ضمّت رجالًا الآن أكثر أو أقل مما كان عليه الوضع في الأجيال الأكبر سنًا»[1].

(1) Kinsey, et al., Sexual Behavior in the Human Male. p. 631.

وسواء كانت هناك زيادة في المثلية الجنسية في أمريكا، أم لا، فقد كانت هناك بالتأكيد زيادة في السنوات الأخيرة في تجلياتها[1]. ولا أعتقد أن ذلك لا علاقة له بالاعتناق الوطني للغز الأنثوي. لأنّ اللغز الأنثوي قد مجّد باسم الأنوثة عدم نضج طفلي سلبي يجري تمريره من الأمهات إلى الأبناء بالإضافة إلى البنات، وأبّده. ليس المثليون الجنسيون الذكور -والدون جوانات الذكور الذين ينتج اندفاعهم إلى اختبار قوتهم عن مثلية جنسية غير واعية- أقل من الباحثات عن الجنس؛ إنهم مثل بيتر بان، أطفال إلى الأبد، خائفون من العمر، يتمسكون بالشباب في بحثهم الدائم عن إعادة تأكيد أنفسهم بشيء من السحر الجنسي.

أشار فرويد والمحللون النفسيون بدقة إلى دور الأمّ في المثلية الجنسية. لكنّ الأمّ التي يصبح ابنها مثليًا ليست عادة المرأة «المتحرّرة» التي تنافس الرجال في العالم، بل نموذج اللغز الأنثوي ذاته، أي المرأة التي تعيش من خلال ابنها، التي تُستَخدم أنوثتها في إغواء افتراضي لابنها، والتي تربط ابنها بها بنوع من التبعية لا يستطيع معه أن ينضج ليحب امرأة، كما لا يستطيع غالبًا أن يتعامل كشخص بالغ مع الحياة من ذاته. وحبّه للرجال يقنّع حبّه المفرط المحرّم لأمه؛ وكرهه لكل النساء، ونفوره منهن، هما ردة فعل على المرأة الوحيدة التي منعته من أن يصبح رجلًا. وشروط حب الأمّ-الابن المفرط هذا معقدة. كتب فرويد:

> تحقّقنا -في جميع الحالات التي درسناها- من أن الانقلابات التي تحدث لاحقًا تمرّ في طفولتهم عبر مرحلة من التثبّت الكثيف جدًا، والذي لا يستمر إلّا فترة قصيرة، على المرأة (عادةً الأمّ)، وبعد تجاوزها يماثلون أنفسهم بالمرأة ويعتبرون أنفسهم موضوعًا جنسيًا؛ وهكذا، يقومون على أساس

(1) See: Donald Webster Cory, *The Homosexual in America*; New York, 1960, preface to second edition, pp. xxii ff. Also: Albert Ellis, *op. cit.*, pp. 186-190. Also: Seward Hiltner, "Stability and Change in American Sexual Patterns," in *Sexual Behavior in American Society*, Jerome Himelhoch and Sylvia Fleis Fava, eds., New York, 1955, p. 321.

نرجسي بالبحث عن شباب يشبهونهم، في أشخاص يرغبون في أن يحبوهم كما أحبتهم أمهاتهم[1].

ويستطيع المرء أن يقول مستنتجًا من أفكار فرويد، إنّ ذلك الإفراط في الحب-الكره متضمّن تقريبًا في علاقة الأمّ والابن؛ حيث يجبرها دورها الحصري بوصفها زوجة وأمًا، ونفيها إلى البيت، على العيش من خلال ابنها. كانت المثلية الجنسية الذكرية، ومازالت، أكثر شيوعًا بكثير من المثلية الجنسية الأنثوية. فالأب لا يُغرى أو يُجبر من قبل المجتمع بنفس الدرجة على أن يعيش من خلال ابنته أو يغويها. ليس الرجال الذين يصبحون مثليين مكشوفين كثرًا، ولكنّ عددًا كبيرًا منهم قد كبت ما يكفي من هذا الحب-الكره ليشعر، لا باشمئزاز شديد من المثلية وحسب، بل وبتحوّل عام وتصعيدي نحو النساء.

اليوم، حيث أيّ التزام جدّي خارج البيت، وليس المهنة فقط، هو خارج المجال المسموح به لربات المنازل-الأمهات «الأنثويات»، فإنّ نوع تكريس الأمّ-الابن الذي يمكن أن ينتج مثلية جنسية كامنة، أو صريحة، لديه مجال واسع ليتمدّد حتى يملأ الوقت المتاح. يُمنع الفتى الذي خُنق بهذا الحب الأمومي الطفيلي من النمو، لا جنسيًا فقط، بل وبجميع الطرق. المثليون جنسيًا غالبًا ما ينقصهم النضج لإنهاء المدرسة والقيام بالتزامات مهنية مستمرة. (وجد كينزي المثلية أكثر شيوعًا بين الرجال الذين لا يتجاوزون المرحلة الثانوية، وأقل شيوعًا بين الخريجين الجامعيين)[2].

تميّز اللاواقعية السطحية وعدم النضج وغياب الاكتفاء الإنساني المستمر -التي تميّز حياة المثلي الجنسية- عادةً كل حياته واهتماماته. هذا

(1) Sigmund Freud, Three Contributions to the Theory of Sex, New York, 1948, p. 10.

(2) Kinsey, et al., *Sexual Behavior in the Human Male*, pp. 610 ff. See also: Donald Webster Cory, *op. cit.*, pp. 97 ff.

النقص في الالتزام الشخصي بالعمل وبالتعليم وبالحياة خارج الجنس هو «أنثوية» ملازمة. ومثل بنات اللغز الأنثوي، يقضي الأبناء معظم حياتهم في خيال جنسي؛ قد يرتاح المثليون جنسيًا الحزينون بالتقارب مع الباحثات عن الجنس من ربات المنازل الشابات.

لكنّ المثلية الجنسية المنتشرة فوق المشهد الأمريكي مثل ضباب معتم ليست أقل شؤمًا من البحث غير الناضج عن الجنس الذي تقوم به النساء الشابات الهجوميات في زواجات مبكرة أصبحت القاعدة لا الاستثناء. وهي ليست أقلّ إخافةً من سلبية الرجال الشباب الذين يذعنون للزواج المبكر، بدلًا من مواجهة العالم وحدهم. يبدأ ضحايا اللغز الأنثوي أولئك بحثهم عن العزاء في الجنس في عمر أصغر فأصغر. أجريت في السنوات الأخيرة مقابلات مع عدد من الفتيات المتخبّطات جنسيًا من عائلات مرتاحة في الضواحي، بما في ذلك عدد -وهذا العدد متزايد[1]- من الفتيات اللواتي يتزوجن في مرحلة مبكرة من المراهقة لأنهن حوامل. من خلال الحديث مع تلك الفتيات ومع الاختصاصيين الذين يحاولون مساعدتهن، يرى المرء بسرعة أن الجنس بالنسبة لهن ليس جنسًا على الإطلاق. لم يبدأن حتى بمعرفة الاستجابة الجنسية، وبدرجة أقل «الاكتفاء». إنهن يستخدمن الجنس -الجنس المزيف- ليمحون نقص الهوية؛ وقلّما يهتممن بالفتى الذي يقمن معه العلاقة؛ فالفتاة، عندما لا يكون لديها هي أي حسّ بذاتها، لا «ترى» شريكها بالمعنى الحرفي للكلمة تقريبًا. ولن يكون لديها حسّ بذاتها إذا كانت تستخدم تبريرات اللغز الأنثوي السهلة لتتهرّب في البحث عن الجنس من الجهود التي تؤدي إلى الهوية.

لقد كان الجنس المبكر والزواج المبكر دائمًا من خصائص الحضارات

(1) ازدادت الولادات خارج الزواج بنسبة 194 في المئة بين عامي 1956 و1962، وازدادت الأمراض التناسلية بين الشباب والشابات بنسبة 132 في المئة. (مجلة التايم، 16 آذار/ مارس، 1962).

الأقل تطورًا، وفي أمريكا من خصائص المناطق الريفية والأحياء الفقيرة في المدن. لكنّ إحدى نتائج كينزي الملفتة للانتباه هي أن تأجيل النشاط الجنسي لم يكن مميّزًا للأصل الاجتماعي-الاقتصادي بقدر ما كان مميزًا كذلك للهدف النهائي مقاسًا بالتعليم على سبيل المثال. كان فتى منحدر من حي فقير يتابع دراسته في الجامعة ليصبح عالمًا أو قاضيًا يبدي نفس التأخير في نشاطه الجنسي في المراهقة الذي يبديه الآخرون الذين صاروا فيما بعد علماء وقضاة، وليس كالآخرين المنحدرين من الحي الفقير ذاته. أمّا الفتيان الذي حافظوا على مسارهم، الذين لم ينهوا دراستهم الجامعية، ولم يصبحوا علماء أو قضاة، فأظهروا مزيدًا من ذلك النشاط الجنسي المبكر المميّز للأحياء الفقيرة[1]. أيًّا يكن ما يشير إليه هذا بخصوص العلاقة بين الجنس والفكر، فقد بدا أنّ تأجيلًا معينًا في النشاط الجنسي يرافق النمو في النشاط العقلي اللازم للتعليم العالي والناتج عنه وتحقيق المهن ذات القيم العليا للمجتمع.

وحسب تقرير كينزي، بدا أنه توجد، حتى بين الفتيات، علاقة بين المستوى النهائي للنمو العقلي أو الفكري مقاسًا بالتعليم والاكتفاء الجنسي. فالفتيات اللواتي تزوجن في سن المراهقة -واللواتي في حالات كينزي توقفن عادةً عن التعليم في المرحلة الثانوية- بدأن القيام بعلاقات جنسية قبل الفتيات اللواتي تابعن تعليمهن في الجامعة أو في التعليم المهني. لكنّ هذا النشاط الجنسي المبكر لم يكن يؤدي عادةً إلى النشوة الجنسية؛ وكانت أولئك الفتيات مازلن يعانين من مستوى من التحقق الجنسي، من حيث النشوة بعد خمس سنوات أو عشر أو خمس عشرة سنة من الزواج، أقل من أولئك اللواتي تابعن تعليمهن[2]. وكما هو الحال مع الفتيات المتخبّطات جنسيًا في الضواحي، بدا أنّ الاستحواذ الجنسي المبكر يشير إلى جوهر ذاتي ضعيف أخفق حتى الزواج في تقويته.

(1) Kinsey, et al., *Sexual Behavior in the Human Male*, pp. 348 ff.,427-433.
(2) Kinsey, et al., *Sexual Behavior in the Human Female*, pp. 293, 378, 382.

هل هذا هو السبب الحقيقي لذلك النوع من البحث عن الجنس الاندفاعي الذي نراه اليوم في التخبّط الجنسي، المبكر منه والمتأخر، أو الغيرية الجنسية أو المثلية الجنسية؟ أهي صدفة أن تصبح الظواهر العديدة للجنس اللاشخصي -جنس دون ذات، جنس نتيجة فقدان الذات- متفشية في الفترة التي يقال فيها للنساء الأمريكيات أن يعشن على الجنس وحده؟ أهي صدفة أن يتمتع أبنائهن وبناتهن بذوات ضعيفة جدًا بحيث يلجؤون في عمر يزداد انخفاضًا إلى البحث عن جنس لا إنساني ولا وجه له؟ أوضح الأطباء النفسيون أنّ المشكلة الأساسيةً في التخبّط الجنسي هي عادةً «انخفاض التقدير الذاتي» والذي يبدو أنه ينبثق غالبًا من ارتباط مبالغ به بين الأمّ والابن؛ ونوع البحث عن الجنس هو غير ذي صلة نسبيًا. كما تقول كلارا ثومبسون (Clara Thompson) في حديثها عن المثلية الجنسية:

قد تعبّر المثلية الجنسية الصريحة عن الخوف من الجنس المقابل، الخوف من المسؤولية لدى البالغين ... قد تمثّل رحلةً من الواقع إلى الاستغراق في الإثارة الجسدية شبيهة جدًا بالنشاطات الجنسية الذاتية للشخص الشيزوفريني، أو قد تكون عرضًا من أعراض تدميرية الذات أو الآخرين. ... لدى الأشخاص الذين يعانون من ضعف التقدير الذاتي ميلٌ إلى التمسّك بجنسهم لأنّه أقلّ إخافة. ... لكنّ الاعتبارات الواردة أعلاه لا تنتج المثلية الجنسية دائمًا، نتيجة الخوف من رفض الثقافة والحاجة إلى التوافق اللذين يدفعان غالبًا هؤلاء الأشخاص نفسهم إلى الزواج. أن يكون الشخص متزوجًا لا يعني بأي حال من الأحوال أنه شخص ناضج. ... يُكتشف أحيانًا أن ارتباط الأمّ-الابن هو الجزء المهم من اللوحة. ... ربما يكون التخبّط الجنسي أكثر شيوعًا بين المثليين الجنسيين منه بين الغيريين، لكنّ مغزاه في بنية الشخصية متشابه جدًا في الحالتين. إن الاهتمام الرئيسي في الحالتين هو بأعضاء التناسل وتحفيز الجسد. أما الشخص المختار للمشاركة في العملية فليس مهمًا. فالعملية الجنسية اندفاعية وهي محلّ الاهتمام الوحيد[1].

(1) Clara Thompson, "Changing Concepts of Homosexuality in Psychoanalysis" in *A Study of Interpersonal Relations, New Contributions to Psychiatry*, Patrick Mullahy, ed., New York, 1949, pp. 218 f.

يخفي النشاط الجنسي الاندفاعي عادةً، سواء كان مثليًا أم غيريًا، فقدانًا للقوة في مجالات الحياة الأخرى. وعلى عكس اللغز الأنثوي، ليس الإشباع الجنسي بالضرورة دليلًا على التحقق لدى المرأة أو الرجل. واستنادًا إلى ما يقوله إريك فروم:

يرى المحللون النفسيون غالبًا مرضى، قدرتهم على الحب، وبالتالي على أن يكونوا قريبين من الآخرين، مدمّرةً، ومع ذلك فهم يؤدّون وظيفتهم جنسيًا على نحو جيد جدًا، وفي الواقع يجعلون الإشباع الجنسي بديلًا عن الحب لأنّ قدرتهم الجنسية هي القوة الوحيدة التي يثقون بها. فهم يوازنون عجزهم عن أن يكونوا منتجين في جميع مجالات الحياة الأخرى والتعاسة الناتجة عن ذلك بنشاطاتهم الجنسية، ويُقنّعونهما بها[1].

هناك صوت خفيض مشابه للبحث عن الجنس في الجامعات، على الرغم من أنّ القدرة الكامنة على أن يكون المرء «منتجًا في جميع مجالات الحياة الأخرى» عالية. أشار طبيب نفسي استشاري لطلاب جامعة هارفارد- رادكليف مؤخرًا إلى أنّ فتيات الجامعات غالبًا ما يبحثن عن «الأمان» في هذه العلاقات الجنسية الكثيفة نتيجة شعورهن بعدم الكفاية، عندما يكون عليهن، ولأول مرة في حياتهن، أن يعملن بجدّ، ويواجهن منافسة حقيقية، ويفكرن بإيجابية بدلًا من التفكير بسلبية؛ وهي «ليست تجربة غريبة فقط، بل تقريبًا قريبة من الألم الجسدي».

الحقائق المهمة هي نقص التقدير الذاتي والنقص في المتعة والطاقة والقدرة على العمل بطريقة خلاقة. ويبدو الاكتئاب وكأنه نوع من إعلان الاستقلال، من العجز، وصرخة مكتومة للمساعدة أيضًا. وهو يحصل في وقت ما وبدرجات مختلفة عمليًا لدى كل فتاة في أثناء مسيرتها في الجامعة[2].

قد يمثل كل هذا ببساطة «الاستجابة الأولى لمراهق ساذج حساس لبيئة

(1) Erich Fromm, "Sex and Character: the Kinsey Report Viewed from the Standpoint of Psychoanalysis," in *Sexual Behavior in American Society*, p. 307.

(2) Carl Binger, "The Pressures On College Girls Today," *Atlantic Monthly*, February, 1961.

جديدة ومعقدة ومتطورة على نحو مخيف»، كما قال الطبيب النفسي. لكن، إذا كان الأمر يتعلق بمراهِقة، فمن الواضح أنه يجب ألّا يُتَوقع منها أن تواجه التحدي، وأن تتقن العمل المؤلم، وأن تواجه المنافسة، كما هو الحال مع الفتى. ويعتبر الطبيب النفسي أنّ من «الطبيعي» أن تبحث الفتاة عن «أمانها» في «الحب»، على الرغم من أن الفتى نفسه قد يكون «وعلى نحو مدهش غير ناضج ومراهقًا واتكاليًا»؛ «قصبة ضعيفة، على الأقل من وجهة نظر حاجات الفتاة». يخفي اللغز الأنثوي الحقيقة القائلة أنّ هذا البحث المبكر عن الجنس، ضار بما يكفي للفتى -أو الفتاة- الذي لا يبحث عن أكثر ممّا يقدمه الجنس، لا يستطيع أن يمنح أولئك النساء الشابات تلك «الصورة الأوضح عن أنفسهن» والتقدير الذاتي الذي يحتجن إليه و«القوة لإتباع حياة خلّاقة ومُرضية». لكنّ اللغز لا يخفي عن الفتى دائمًا الحقيقة القائلة إنّ اتكال الفتاة عليه ليس جنسيًا في الحقيقة، وإنه قد يخنق نموه. هذا هو سبب عدوانية الفتى؛ حتى عندما يستسلم بعجز للدعوة الجنسية.

كتبت طالبة من جامعة رادكليف مؤخرًا وصفًا حساسًا للمرارة التي تنمو لدى فتى تجاه الفتاة التي لا تستطيع أن تدرس من دونه؛ مرارة لم يخفّف منها حتى الجنس الذي يتهربان به ليلًا من الدراسة معًا.

هي كانت تثني زاوية الصفحة، وهو أراد أن يطلب منها التوقّف؛ أثاره الفعل الميكانيكي الصغير على نحو لا يتناسب مع حجمه، وتساءل عمّا إذا كان متوترًا لأنهما لم يمارسا الجنس مدة أربعة أيام... وفكّر: أراهن على أنها تحتاج إليه الآن، وهذا هو سبب ارتعاشها بهذه الطريقة، والدموع على وشك أن تطفر من عينيها، وقد يكون سبب تخريب الامتحان عليّ. لكنه كان يعرف أن ذلك لم يكن عذرًا؛ وشعر باستيائه يتفاقم وهو يتساءل لماذا لم يراجع فعلًا. ... ما كانت الساعة لتدعه ينسى كم من الوقت كان يضيّع ... أخذ يغلق كتبه بقوة يصدر عنها صوت اصطفاق، وأخذ يكوّمها فوق بعضها. رفعت إليانور نظرها، ورأى الرعب في عينيها...

قال: «انظري، سأرافقك في طريق العودة الآن. هناك ما يجب علي القيام به

الليلة»... تذكّر أنّ أمامه طريق طويل للعودة، ولكنّه عندما انحنى بسرعة ليقبّلها ألقت ذراعيها حوله، واضطر إلى الارتداد بحدّة حتى ينصرف. في النهاية تركته يذهب، وهمست وقد غابت ابتسامتها: «هال، لا تذهب». تردّد. «أرجوك، لا تذهب، أرجوك...». ورفعت نفسها لتقبّله، وعندما فتحت فمها شعر أنّ هناك حيلة عليه، لأنه إذا وضع لسانه بين شفتيها، فلن يكون قادرًا على الرحيل. قبّلها، وبدأ، نصف واعٍ، ينسى أنّ عليه الذهاب... شدّها نحوه وهو يسمعها تئنّ بألم واستثارة. ثمّ ارتدّ إلى الوراء، وقال بصوت متهدّج: «أليس هناك مكان نستطيع الذهاب إليه؟»... كانت تنظر حولها بتلهّفٍ وأملٍ، وتساءل مرّة أخرى، كم من رغبتها شغف، وكم منها جشع: الفتيات يستخدمن الجنس ليسيطرن عليك، كان يعرف ذلك؛ من السهل جدًا عليهن أن يتظاهرن بالإثارة[1].

أولئك، بالطبع، هم أوائل الأبناء الذين كبروا في ظلّ اللغز الأنثوي، أولئك الشباب الذين يستخدمون الجنس كعزاء سهل على نحو مشكوك فيه عندما يواجهون أوّل الحواجز الصعبة في السباق. لِمَ يصعب على أولئك الشباب أن يتحمّلوا المشقّة، أن يقوموا بجهد ما، من أجل تأجيل المتعة الحالية مقابل أهداف مستقبلية طويلة الأجل؟ الجنس والزواج المبكر هما أسهل مخرج؛ ادعاء البلوغ في عمر التاسعة عشرة يُجَنّب مسؤولية النضج على انفراد. وحتى إذا كان أبٌ يحاول أن يجعل ابنه يصبح «مذكرًا»، أن يصبح مستقلًا وفعّالًا وقويًا، فقد كان الأب والأمّ، كليهما، يشجّعان ابنتهما بتلك التبعية الجشعة الضعيفة السلبية المعروفة بـ«الأنثوية»، متوقِعَين منها بالطبع أن تجد «الأمان» في فتى، وغير متوقِعَين منها قطّ أن تعيش حياتها الخاصة.

وهكذا تضيق الحلقة. يلقي الجنس بلا نفس، المرفوع إلى درجة القداسة على يد اللغز الأنثوي، ظلًّا يزداد قتامةً على صورة الرجل عن المرأة وصورة المرأة عن نفسها. يصبح أصعب على الفتى والبنت، كليهما، أن يهربا ليجدا نفسيهما في العالم، ليحبّا أحدهما الآخر في علاقة جنسية إنسانية. تنمّ

(1) Sallie Bingham, "Winter Term," *Mademoiselle*, July, 1958.

ملايين المتزوجات قبل سن التاسعة عشرة -في محاكاة مضحكة للبحث عن الجنس في عمر أصغر فأصغر- عن زيادة في عدم النضج والتبعية العاطفية والسلبية من جانب الضحايا الجديدات للغز الأنثوي. قد يتبدّد ظلّ الجنس بلا نفس للحظة في بيت أحلام مشمس في الضواحي. ولكن، ما الذي ستفعله تلك الأمهات الطفوليات والآباء غير الناضجين لأطفالهم في ذلك الفردوس الخيالي، حيث يخفي السعي وراء المتعة والأشياء ذات الصلات الرخوة بالواقع المعاصر المعقّد؟ أي نوع من الأبناء والبنات ستربّي تلك الفتيات اللواتي أصبحن أمهات قبل أن يواجهن ذلك الواقع، أو يقطعن صلاتهن به بأن يصبحن أمهات؟

هناك معانٍ مخيفةٍ لمستقبل أمتنا في التنعيم الطفيلي الذي يُمَرّر إلى الجيل الجديد من الأبناء نتيجة اعتناقنا العنيد للّغز الأنثوي. ليست مأساة الأبناء الذين يمثّلون أدوار الخيالات الجنسية لأمهاتهم-ربات المنازل سوى إشارة واحدة من إشارات التجريد المتزايد من الإنسانية الجاري على أرض الواقع. وبـ«تمثيل» الأطفال هذا تمكن رؤية اللغز الأنثوي أخيرًا في كل مراهقته المريضة والخطيرة.

الفصل الثاني عشر

التجريد المتزايد من الإنسانية:
معسكر الاعتقال المريح

تؤكّد لنا الأصوات التي ترثي الآن لانسحاب النساء الأمريكيات إلى البيت مرة أخرى أنّ البندول قد بدأ يتأرجح في الاتجاه الآخر. ولكن هل بدأ فعلًا؟ هناك أصلًا إشارات إلى أنّ بنات النساء المؤهلات والنشيطات اللواتي عدن إلى البيت ليعشن في صورة ربة المنزل يجدن من الصعب عليهن أكثر مما هو على أمهاتهن أن يمضين قدمًا في العالم. ويبدو أنّ تغيّرًا دقيقًا ومدمّرًا قد جرى على شخصية الأطفال الأمريكيين. لقد شاهد أطباء سريريون ومحللون نفسيون وعلماء اجتماعيون كثيرون دليلًا على شيء شبيه بمشكلة ربة المنزل التي لا اسم لها وعلى نحوٍ مَرَضيّ أكثر في أبنائها وبناتها. وقد لاحظوا بقلق متزايد ظاهرةً جديدةً ومخيفةً لدى الأطفال الأمريكيين هي ما يبدو عليهم من سلبية ورخاوة وضجر. ليست التنافسية التي أحدثها فريق صغار كرة البايسبول أو السباق إلى الجامعة هي ما تمثل الإشارة الخطرة ، بل نوع من التطفيل يجعل أطفال الأمهات-ربات المنازل عاجزين عن المحاولة وعن تحمّل الألم والإحباط وعن الانضباط اللازم للمنافسة على أرض ملعب البايسبول أو عن الدخول إلى الجامعة. هناك أيضًا نوع جديد من الأطفال الحمقى المسرنمين الذين يمثّلون دورًا، الذين

يفعلون ما يفترض بهم أن يفعلوه، أي ما يفعله الأطفال الآخرون، ولكن لا يبدو أنهم يشعرون بأنهم على قيد الحياة أو حقيقيون في فعله.

سمعت في ضاحية شرقية في عام 1960 طالبًا في الصف الثاني الثانوي يوقف طبيبًا نفسيًا، كان قد ألقى لتوه كلمة في اجتماع، ويسأله عن «اسم تلك الحبة التي يمكن أن تأخذها لتنوّم نفسك مغنطيسيًا بحيث تستيقظ وأنت تعرف كل شيء تحتاج إليه في الامتحان دون أن تدرس». وفي ذلك الشتاء نفسه أخبرتني فتاتان جامعيتان في قطار إلى نيويورك في أثناء منتصف أسبوع الفحص النصفي أنهما كانتا ذاهبتين إلى بعض الحفلات «لتصفية ذهنيهما» بدلًا من الدراسة من أجل الامتحانات. وشرحت لي إحداهما: «لقد أثبت علم النفس أنه عندما يكون لديك الدافع فعلًا، فإنك تتعلمين بسرعة. أمّا إذا كان المدرّس لا يستطيع أن يجعل الدرس ممتعًا بما يكفي لتتعلميه دون جهد، فتلك مشكلته، وليست مشكلتك». وقال لي طالب لامع، كان قد ترك الجامعة، إنها مضيعة للوقت؛ «فالحدس» هو المهم، ولكنهم لا يعلّمون ذلك في الجامعة. عمل بضعة أسابيع في محطة وقود وشهرًا في محل لبيع الكتب. ثمّ توقّف عن العمل وأخذ يقضي وقته لا يفعل أي شيء بالمعنى الحرفي للكلمة؛ ينهض ويأكل ويذهب إلى السرير، لا يقرأ حتى.

رأيت هذه النوعية نفسها من السرنمة الحمقاء لدى فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، أجريت معها مقابلة في ضاحية من ضواحي ويستشيستر في تحقيق عن التخبّط الجنسي لدى المراهقين. كانت بالكاد تنجح في عملها المدرسي على الرغم من ذكائها؛ «لم تكن تستطيع أن تعمل بجد» كما قال الموجّه. كانت تبدو دائمًا ضجرة وغير مهتمة ومشوّشة. كما لم تكن تبدو واعية تمامًا، مثل دمية يحرّك خيوطها شخص آخر، عندما كانت كل يوم بعد الظهر تذهب في سيارة مع مجموعة من الفتيان الأكبر سنًا، وكانوا جميعًا ممن تركوا المدرسة في بحثهم عن «الملذّات».

لقد رأى العديد من المراقبين هذا الشعور بأن هؤلاء الأطفال الجدد،

لسبب ما، لا ينضجون «فعلًا». واكتشف مربٍّ من تكساس، وقد أحسّ بالضيق لأن فتيان الجامعة لم يكونوا مهتمين فعلًا بالمقررات التي يعتبرونها جواز سفر آليًا إلى العمل المناسب، ولأنّهم أيضًا لم يكونوا يهتمون فعلًا بأي شيء يقومون به خارج المدرسة. كانوا في الأغلب «يقتلون الوقت» وحسب. وكشف استبيان أنه لم يكن لدى هؤلاء الأطفال، بالمعنى الحرفي للكلمة، أي شيء يكنّون نحوه شعورًا قويًا بما يكفي لأن يموتوا من أجله، إذ لم يكن هناك أي شيء يقومون به فعلًا ويشعرون أنهم أحياء حقًا فيه. كانت الأفكار والتفكير التصوّري، التي تميّز الإنسان وتصنع فرادته، غائبة تمامًا عن عقولهم وحيواتهم[1].

حاول ناقد ومحللان نفسيان عميقا البصيرة أن يحدّدا بدقة هذا التغيّر في الجيل الأصغر سنًا بوصفه تغيّرًا في الشخصية الأمريكية. وسواء كان نحو الأفضل أو نحو الأسوأ، وسواء كان مسألة مرض أم صحة، فقد رأوا أنّ الشخصية الإنسانية التي يمكن تمييزها بجوهر ذاتي قوي ومستقر تستبدل «بشخصية يقودها الآخرون»[2] غير متبلورة وغامضة. لم يجد ديفيد ريسمان في الخمسينيات أي فتى، أو فتاة، يتمتع بذلك الحس الناشئ بالذات والذي يستخدم ليميّز المراهقة الإنسانية، «على الرغم من أنني بحثت عن شباب مستقلين في عدّة مدارس عامة وعدّة مدارس خاصة»[3].

وفي جامعة سارة لورانس، حيث كان الطلاب في السابق يتحمّلون مسؤولية كبيرة عن تعليمهم وتنظيم أمورهم الخاصة، اكتُشِف أنّ الجيل الجديد من الطلاب أصبح ضعيفًا ولامباليًا وعاجزًا عن التعامل مع تلك

(1) Marjorie K. McCorquodale, "What They Will Die for in Houston," *Harper's*, October, 1961.

(2) See David Riesman, *The Lonely Crowd*; also Erich Fromm, *Escape From Freedom*, New York and Toronto, 1941, pp. 185-206. Also Erik H. Erikson, *Childhood and Society*, p. 239.

(3) David Riesman, introduction to Edgar Friedenberg's *The Vanishing Adolescent*, Boston, 1959.

الحرية. فإذا ما تركوا لتنظيم نشاطاتهم بأنفسهم، فلن ينظّموا أية نشاطات؛ ولم يعد مقرّر معدّ لاهتمامات الطلاب الخاصة صالحًا لأنّ الطلاب لم تعد لديهم اهتمامات قوية خاصة بهم. وقد وصف هارولد تايلور، الذي كان في حينها رئيس جامعة سارة لورانس، التغيّر على النحو الآتي:

في حين كان من الممكن في سنوات سابقة الاعتماد على دافع الطلاب القوي ومبادرتهم لممارسة أمورهم الخاصة ولتشكيل تنظيمات جديدة ولابتكار مشاريع جديدة، سواء في الخدمة الاجتماعية أو الميادين الفكرية، فقد بات واضحًا الآن أن المسؤولية عن الإدارة الذاتية تعتبر غالبًا للكثير من الطلاب عبءًا يجب تحمّله، لا حقًا يجب المحافظة عليه. ... الطلاب الذين منحوا حرية كاملة في إدارة حيواتهم الخاصة واتخاذ قراراتهم الخاصة لم يرغبوا غالبًا في القيام بذلك. ... ويبدو أن الطلاب في الجامعة يجدون صعوبة متزايدة في تسلية أنفسهم، بعد أن أصبحوا معتادين على الاتكال على تسلية مرتّبة لهم يقتصر دورهم فيها على المشاركة في ترتيبات معدّة سلفًا. ... كان الطلاب عاجزين عن أن يخطّطوا لأنفسهم أي شيء يجدونه ممتعًا بما يكفي للانخراط فيه[1].

في البداية، ألقى المربّون باللائمة في ذلك على الحذر والمحافظة اللذين وسما حقبة المكارثية، أو على العجز الذي ولّدته القنبلة الذرّية؛ لكن فيما بعد، وفي مواجهة التقدّم السوفييتي في سباق الفضاء، ألقى السياسيون والرأي العام باللائمة على «الرخاوة» العامة من جانب المربّين. لكن، أيًا تكن نقاط ضعف المربّين، فإن أفضلهم أدركوا جيدًا أنّهم يتعاملون مع سلبية جلبها الطلاب معهم إلى المدرسة، «سلبية أساسية» مخيفة... «تطلب أشياء بطولية من أولئك الذين يجب عليهم أن يتعاملوا يوميًا معهم في المدرسة أو خارجها»[2]. تجلّت سلبية الجيل الأصغر سنًا الجسدية هذه في انهيار عضلي جعل ناقوس الخطر يدق أخيرًا في البيت الأبيض. وكانت سلبيتهم

(1) Harold Taylor, "Freedom and Authority on the Campus," in *The American College*, pp. 780 ff.

(2) David Riesman, introduction to Edgar Friedenberg's *The Vanishing Adolescent.*

الانفعالية واضحة في الحركة البِيتية- وهي شكل من أشكال ثورة المراهقة لا غاية له ولا شغف شخصيًا فيه. بدأت نسب جنوح الأحداث المرتفعة بالدرجة ذاتها التي في الأحياء المدينية الفقيرة تظهر في ضواحي غرف النوم البهيجة بين أبناء أعضاء المجتمع الناجحين المتعلمين المحترَمين والذين يحترمون أنفسهم، وأولاد الطبقة الوسطى الذين يتمتعون بكل «المزايا» و«الفرص». ما كان لفيلم اسمه «كنتُ فرانكشتاين مراهقًا» I Was a Teenage Frankenstein أن يبدو مضحكًا للأهل في ويستشستر وكونيكتيكت الذين زارتهم الشرطة الأخلاقية في عام 1960 لأنّ أطفالهم كانوا يتناولون المخدرات في حفلات يقيمونها في غرف لعب كل منهم المكسوة بخشب الأناناس؛ أو لأهل في مقاطعة بيرجن، اعتقل أطفالهم في عام 1962 نتيجة انتهاك جماعي للقبور في مقبرة في ضاحية، أو لأهل في ضاحية في لونغ آيلاند، كانت بناتهم البالغات من العمر ثلاثة عشر عامًا يشغّلن خدمة «بغي هاتف» افتراضية. كانت هذه السلبية الجديدة خلف تخريب الممتلكات العامة أو الخاصة الذي لا معنى له وأعمال الشغب في فلوريدا في عطلة الربيع والتخبّط الجنسي وارتفاع الأمراض الجنسية بين المراهقين وحالات الحمل غير الشرعية والتسرّب المنذر بالخطر من المدرسة الثانوية والجامعة. كانت «الملذّات» بالنسبة لهؤلاء الأطفال «النّهمين» الضجرين الكسالى هي الطريقة الوحيدة لقتل رتابة الوقت الفارغ.

استشعر أولئك الذين درسوا سلوك الجنود الأمريكيين، ممن كانوا أسرى حرب في كوريا في الخمسينيات، الحقيقة القائلة أنّ هذه السلبية كانت أكثر من مسألة ضجر، وأنها إشارة إلى تدهور في الشخصية الإنسانية. لاحظ الطبيب في الجيش الرائد كلارنس أندرسون (Clarence Anderson)، الذي سُمح له بالتحرّك بحرية بين معسكرات السجن لمعالجة الأسرى:

في المسير، كان الجندي القوي، في المعسكرات المؤقتة والدائمة، يأخذ الطعام من الضعيف. ولم يكن هناك أي نظام لمنع ذلك. كان رجال كثيرون

مرضى، وبدلًا من مساعدتهم وتمريضهم من قبل الآخرين، كانوا يتعرضون للإهمال، أو لما هو أسوأ من ذلك. كان الزّحار شائعًا، وجعل بعض الرجال ضعيفين إلى حدّ يعجزون معه عن السير. وفي ليالي الشتاء، كان رفاق الرجال العاجزين المصابين بالزّحار يدحرجونهم خارج الأكواخ ويتركونهم ليموتوا في البرد[1].

مات نحو 38٪ من الأسرى، وهو معدل موت بين الأسرى أعلى منه في أية حرب أمريكية سابقة، بما في ذلك الثورة الأمريكية. أصبح معظم الأسرى هامدين غير فاعلين منسحبين داخل قواقع صغيرة نصبوها في

(1) See Eugene Kinkead, *In Every War But One*, New York, 1959.

كانت هناك محاولة في السنوات الأخيرة لرفض أو التخفيض من هذه النتائج. لكنّ شريطًا مسجلًا لحديث أدلى به أمام جمعية الأطباء النفسيين الأمريكيين في عام 1958 الدكتور وليام ماير، الذي كان في أحد فرق الجيش من الأطباء النفسيين وضباط الاستخبارات الذين قابلوا السجناء العائدين في عام 1953 وحللوا البيانات، جعل العديد من أطباء الأطفال واختصاصيي الطفل يسألون، بكلمات الدكتور سبوك: «هل الأهل المتساهلون على نحو استثنائي أكثر عددًا اليوم، وهل يضعفون شخصية أطفالنا؟».

(Benjamin Spock, "Are We Bringing Up Our Children Too 'Soft' for the Stern Realities They Must Face?" *Ladies' Home Journal*, September, 1960.)

مهما كانت النتيجة واخزة لكبريائنا الأمريكي، يجب أن يكون هناك تفسير لانهيار الجنود الأمريكيين الأسرى في كوريا، لأنه كان مختلفًا، لا عن سلوك الجنود الأمريكيين في الحروب السابقة وحسب، بل وعن سلوك جنود الدول الأخرى أيضًا في كوريا. لم ينجح جندي أمريكي واحد في الفرار من معسرات اعتقال العدو، كما فعلوا في كل الحروب الأخرى. ولم يكن معدل الوفيات الصادم الذي بلغ 38٪ بينهم قابلًا للشرح، حتى بالنسبة للسلطات العسكرية، على أساس المناخ أو الطعام أو المرافق الطبية غير الملائمة في المعسكرات، كما لم يكن ناتجًا عن الوحشية أو التعذيب. «التهاب الاستسلام» هو ما وصف به طبيب المرض الذي مات الأمريكيون بفعله؛ كانوا ببساطة يقضون الأيام ملتفين تحت البطانيات، ويقصرون نظامهم الغذائي على الماء وحده، حتى الموت، وعادة خلال ثلاثة أسابيع. بدت تلك الظاهرة حكرًا على الأمريكيين. لم يفقد الرجال الأتراك، الذين كانوا جزءًا من قوة الأمم المتحدة في كوريا، أي رجل نتيجة المرض أو الجوع؛ كانوا يبقون معًا، ويطيعون أوامر ضباطهم، ويتمسكون بالأنظمة الصحية، ويتعاونون في العناية بالمرضى، ويرفضون الإخبار عن بعضهم بعضًا.

مواجهة الواقع. لم يفعلوا أي شيء للحصول على الطعام أو الحطب، أو ليحافظوا على نظافتهم، أو ليتواصلوا مع بعضهم مع البعض الآخر. تفاجأ الرائد لأنّ هؤلاء الجنود الأمريكيين الجدد، وبشكل عام تقريبًا، «كانت تنقصهم سعة الحيلة الأمريكية القديمة»، أي القدرة على التعامل مع أي وضع جديد وبدائي. وخلص إلى ما يلي: «كان ذلك جزئيًا -وجزئيًا فقط، حسب اعتقادي- نتيجة الصدمة النفسية الناتجة عن الأسر. لكنه كان أيضًا، فيما أظن، نتيجة فشل جديد في تدريب شبابنا في الطفولة والمراهقة - رخاوة جديدة». وعلّق عالم نفسي، مسقطًا من اعتباره غاية الجيش الدعائية: «كان هناك بالتأكيد شيء ما يمثّل خطأ مريعًا في هؤلاء الشباب؛ لا الرخاوة، بل الصلابة والصقل والهشاشة. سأسميه فشل الأنا، انهيار الهوية. ... يستطيع نمو المراهق، ويجب، أن يؤدي إلى نضج إنساني كامل معرّفٍ على أنه تطوير حسّ مستقر بالذات...»[1].

كان الأسرى الكوريون، بهذا المعنى، نماذج على نوع جديد من الأمريكيين، الذين من الواضح أنّهم تربّوا بطرق «معادية للوضوح والنمو» على أيدي أفراد هم أنفسهم «لم تتشكّل شخصياتهم بما يكفي» لأن يطوّروا «ذلك النوع من الشخصية والذهن الذي يرى نفسه على نحو أكثر وضوحًا من أن يوافق على خيانته».

كان الإدراك المفاجئ بأنّ هذا الغياب السلبي للهوية هو «شيء جديد في التاريخ»، جاء -وجاء فقط- عندما بدأ يظهر في الفتيان. أمّا الوجود اللامبالي الاتكالي الطفولي الذي لا غاية له، والذي يبدو لاإنسانيًا، على نحو لافت للنظر، عند النظر إليه على أنه الشخصية الناشئة للرجل الأمريكي الجديد، فهو يذكّر على نحو غريب بالشخصية «الأنثوية» المألوفة كما حدّدها اللغز. أليست الخصائص الرئيسية للأنوثة -والتي ربطها فرويد خطأً بالبيولوجيا الجنسية- هي السلبية وضعف الأنا أو الإحساس بالذات وضعف الأنا

(1) Edgar Friedenberg, The Vanishing Adolescent, pp. 212 ff.

الأعلى أو الضمير الإنساني ونكران الأهداف العملية والطموحات واهتمامات المرء الخاصة بأن يحيا من خلال الآخرين وعدم القدرة على التفكير المجرّد والانسحاب من النشاط الموجّه نحو العالم لصالح النشاط الموجّه نحو الداخل أو الخيال؟

ما معنى هذا؟ هذا الظهور الآن لشخصية مأسورة في مستوى من الخيال الطفولي والسلبية لدى الفتيان الأمريكيين كما لدى الفتيات؟ الفتيان والفتيات، الذين رأيت المشكلة لديهم، هم أبناء الأمهات اللواتي عشن ضمن حدود اللغز الأنثوي. كنّ يحققن أدوارهن كنساء بطريقة عادية مقبولة. بعضهنّ تمتعن بما هو أكثر من الموهبة العادية، وبعضهن تمتعن بما هو أكثر من التعليم العادي، لكنهن كنّ متشابهات في درجة انشغالهن بأولادهن الذين كانوا، على ما يبدو، اهتمامهن الرئيسي والوحيد.

أخبرتني إحدى الأمهات، وهي تعاني من اضطراب مريع لأنّ ابنها لم يتمكن من تعلم القراءة، أنها كانت، عندما عاد إلى البيت مصطحبًا التقرير المدرسي الأول من الروضة عن تقدمه، «مهتاجة مثل طفل، منتظرة أن يطلب مني أحد ما الخروج في موعد غرامي مساء السبت». كانت مقتنعة أن المعلمات مخطئات في قولهن أنه كان يتجوّل في أرجاء الغرفة حالمًا، غير قادر على الانتباه زمنًا طويلًا بما يكفي للقيام باختبار الاستعداد للقراءة. وقالت أمّ أخرى أنّها لم تكن تستطيع تحمّل أن يعاني أبناؤها من أية مشكلة أو ألم على الإطلاق. كان الأمر كما لو أنهم هي نفسها. قالت لي:

كنت أسمح لهم أن يقلبوا الأثاث، وأن يبنوا بيوتًا في غرفة المعيشة تبقى على حالها أيامًا، حتى لم يكن هناك مكان لي أجلس فيه وأقرأ. لم أستطع أن أتحمّل جعلهم يفعلون ما لا يريدون فعله، حتى تناول الدواء عندما يكونون مرضى. لم أستطع أن أحتمل أن يكونوا تعيسين، أو أن يتشاجروا، أو أن يغضبوا مني. لم أستطع أن أفصلهم عن نفسي على نحو ما. كنت دائمًا متفهمة وصبورة. كنت أشعر بالذنب إذا ما تركتهم ولو بعد ظهر يوم ما. كنت أهتمّ بكل صفحة من وظائفهم؛ كنت أركّز دائمًا على أن أكون أمًّا جيدة. كنت فخورة بأن ستيف

لم يدخل في مشاجرات مع الأطفال الآخرين في الحي. ولم أدرك أنّ شيئًا ما لا يسير على ما يرام إلّا حين بدأ أداؤه في المدرسة يسوء، وبدأت تراوده كوابيس بخصوص الموت، ولم يعد يرغب في الذهاب إلى المدرسة خوفًا من الصبيان الآخرين.

وقالت امرأة أخرى:

اعتقدت أنّ علي أن أكون في البيت كل يوم بعد الظهر عندما يعودون من المدرسة. قرأت كل الكتب المعّينة لهم حتى أستطيع أن أساعدهم في عملهم المدرسي. لم أكن على مدى سنوات سعيدة ومتحمسة قدر سعادتي وحماسي في تلك الأسابيع التي كنت أساعد فيها ماري على تحضير ملابسها للجامعة. لكنني انزعجت حين لم تختر دراسة الفنون. كان ذلك حلمي، قبل أن أتزوج بالطبع. ربما يكون من الأفضل أن تعيشي أحلامك الخاصة.

لا أعتقد أنها مجرد صدفة أن تكون السلبية المتزايدة -واللاواقعية الشبيهة بالأحلام- لأطفال اليوم قد أصبحت منتشرة إلى هذه الدرجة في السنوات ذاتها التي شجّع فيها اللغز الأنثوي الغالبية العظمى من النساء الأمريكيات -بما في ذلك أكثرهن موهبة، والأعداد المتزايدة من المتعلمات- على التخلّي عن أحلامهن، بل وتعليمهن أن يعشن من خلال أبنائهن. لقد ازداد، ولا شك، في هذه السنوات «امتصاص» شخصية الطفل من قبل أمهات الطبقة الوسطى، وهو ما كان واضحًا أصلًا لعالم اجتماع عميق النظر في الأربعينيات. كانت النساء، دون اهتمامات جدية خارج البيت ومع جعل العمل المنزلي روتينيًا بفضل الأجهزة، قادرات على تكريس أنفسهن، وعلى نحو حصري تقريبًا، لعبادة الطفل من المهد حتى الروضة. وحتى عندما كان الأولاد يذهبون إلى المدرسة، كانت أمهاتهم قادرات على مشاركتهم حياتهم، على نجو غير مباشر وأحيانًا حرفيًا. أضبحت العلاقة مع الأبناء بالنسبة للعديد منهن علاقة حب أو نوعًا من «التكافل».

«التكافل»، إذا أردنا التعبير عنه بطريقة بسيطة، مصطلح بيولوجي يشير إلى عملية يعيش فيها كائنان حيّان كأنهما واحد. في حالة الكائنات الإنسانية،

عندما يكون الجنين في الرحم، فإن دم الأمّ يمدّه بأسباب الحياة؛ فالطعام الذي تأكله يجعله ينمو، وأكسجينه يأتي من الهواء الذي تتنفسه، وهي تطرح فضلاته. هناك وحدة بيولوجية في البداية بين الأمّ والطفل، عملية معقّدة ومدهشة. لكنّ هذه العلاقة تنتهي مع قطع الحبل السرّي ومجيء الطفل إلى العالم كائنًا إنسانيًا منفصلًا.

عند هذه النقطة، يفسّر علماء نفس الطفل «تكافلًا» نفسيًا أو انفعاليًا بين الأمّ والطفل، يحلّ حب الأمّ فيه محلّ السائل الأمينوسي الذي كان الطفل يستحمّ ويتغذّى فيه داخل الرحم. يغذّي هذا التكافل الانفعالي نفس الطفل حتى يصبح مستعدًا لأن يولد نفسيًا، كما كان. وهكذا يصوّر الكتّاب النفسيون -مثل مدّاحي الحب الأمومي الأدبيين والدينيين قبل الفترة النفسية- حالةً تكون الأمّ والطفل فيها ما يزالان يحتفظان بالوحدة الصوفية؛ ليسا بالفعل كائنين منفصلين. تضمّن «التكافل» بقوة، على أيدي الناشرين النفسيين التبسيطيين، أن الرعاية المحبّة الثابتة من قبل الأمّ ضرورية بالمطلق لنمو الطفل على مدى عدد غير محدد من السنوات.

لكنّ مفهوم «التكافل» زحف في السنوات الأخيرة، وبنسبة متزايدة، إلى تاريخ الحالات المرضية للأطفال المضطربين. يبدو أنّ المزيد والمزيد من أمراض الأطفال الجديدة تنبع من تلك العلاقة التكافلية مع الأمّ، والتي منعت الأطفال من أن يصبحوا ذواتًا مستقلة. ويبدو أن هؤلاء الأطفال المضطربين «يمثّلون» رغبات الأمّ اللاواعية أو صراعاتها؛ الأحلام الطفولية التي لم تتخلص منها أو لم تتوقف عنها بعد، بل مازالت تحاول أن تشبعها لنفسها في شخص ابنها.

يُستخدم مصطلح «تمثيل» في العلاج النفسي لوصف سلوكِ مريضٍ لا يتفق مع حقيقة حالة معينة، بل هو تعبير عن رغبات طفولية غير واعية أو خيال. يبدو قولنا، إن الرغبات الطفولية اللاواعية التي «يمثّلها» الطفل المضطرب ليست رغباته هو، بل رغبات أمه، غامضًا. لكنّ المعالجين

يستطيعون أن يتعقبّوا الخطوات الحقيقية التي تدفع بها الأم، بلا وعي، ابنها -وهي تستخدمه لإشباع أحلامها الطفولية- إلى السلوك المدمّر لنموّه. لم تدرّب زوجة المدير في ويستشستر، التي دفعت ابنتها في عمر الثالثة عشرة إلى التخبّط الجنسي، على تطوير مفاتنها الجنسية فحسب -وبطريقة تتجاهل تمامًا شخصية الطفلة- بل وغرست فيها، حتّى قبل أن يبدأ نهداها بالظهور، وعن طريق التنبيهات ودرجة معينة من الارتياب، توقّعها بأن تمثّل الطفلة في الحياة الحقيقية خيالات أمها عن الدعارة.

لم يُعتبر تمثيل الأمهات ولا للآباء أحلامهم من خلال أبنائهم أمرًا مَرَضيّاً قطّ، إلّا عندما يتجاهل الحلم واقع الطفل أو يشوهه. لقد كُتبت الروايات وتواريخ الحالات المرضية عن الفتى الذي أصبح رجل أعمال سيئ لأنّ ذلك كان حلم أبيه له، فيما كان يمكن أن يكون عازف كمان جيدًا؛ أو الفتى الذي ينتهي الأمر به في مستشفى عقلي ليحبط حلم أمه في أن يصبح عازف كمان عظيم. إذا كانت العملية في السنوات الأخيرة قد أخذت تبدو مَرَضية، فلأنّ أحلام الأمهات التي يمثلها الأطفال قد أصبحت طفولية على نحو متزايد. لقد أصبحت تلك الأمهات أنفسهن أكثر طفولية، ولأنهن مجبرات على البحث عن المزيد والمزيد من الإشباع من خلال الطفل، فإنهن غير قادرات على فصل أنفسهن في النهاية عنه. وهكذا، فسيبدو أن الطفل هو من يدعم الحياة في الأم في تلك العلاقة «التكافلية»، والطفل عمليًا يجري تدميره في العملية.

أُدخل هذا التكافل المدمّر، بالمعنى الحرفي للكلمة، في اللغز الأنثوي. والعملية مستمرة. تبدأ في جيل وتستمر في الجيل التالي على النحو الآتي تقريبًا:

1 - إن اللغز الأنثوي، من خلال السماح للفتيات بالتهّرب من اختبارات الواقع والالتزامات الحقيقية في المدرسة والعالم، وذلك بوعد التحقق السحري عن طريق الزواج، يحتجز تطورهن عند مستوى طفولي تنقصهن فيه الهوية الشخصية مع ضعف أكيد في الجوهر الذاتي.

2 - كلما كان تطفيل الفتاة أكبر وجوهرها الذاتي أضعف، كان بحثها عن «التحقق» كزوجة وأمّ أبكر، وازدادت حصرية عيشها من خلال زوجها وأبنائها. وبالتالي تصبح صِلاتها بعالم الواقع وحسّها الذاتي بذاتها أضعف باضطراد.

3 - بما أن لدى العضوية الإنسانية حافز حقيقي للنمو، فإن المرأة التي تهرب من نموّها الذاتي عبر التمسّك بالحماية الطفلية بدور ربة المنزل ستعاني على نحو متزايد -إلى الحد الذي لا يسمح لها فيه ذلك الدور بالنمو الذاتي- من المرض، الفسيولوجي منه والانفعالي. وستكون أمومتها مَرَضية على نحو متزايد لها ولأولادها. كلّما زاد تطفيل الأمّ، قلّ احتمال أن يتمكن الولد من تحقيق فرديته الإنسانية في العالم الحقيقي. سيكون لدى الأمهات الطفليات أولاد أكثر طفليّة، سينسحبون في وقت أبكر حتى إلى الخيال من اختبارات الواقع.

4 - ستكون علامات هذا الانسحاب المَرَضي أكثر وضوحًا في الصبيان، لأنه، حتى في الطفولة، يُتوقع من الصبيان أن يقوموا باختبارات الواقع التي يسمح اللغز الأنثوي للفتيات بأن يتهربن منها بالخيال الجنسي. لكنّ هذه التوقعات نفسها في النهاية تجعل الصبيان ينمون أكثر باتجاه تكوين ذاتٍ قويةٍ، وتجعل الفتيات أسوأ الضحايا إضافة إلى أنهن «ناقلات عدوى» التجريد المتزايد لأبنائهن من الإنسانية.

علمت من أطباء نفسيين وأطباء سريريين في الضواحي كيف تعمل هذه العملية. يصف طبيب نفسي اسمه أندراس أنجيال (Andras Angyal)، ليس بالضرورة بالعلاقة مع النساء، العملية بأنها «تهرّب عُصابي من النمو». وهناك طريقتان رئيسيتان للتهرّب من النمو. الأولى «عدم الالتزام»: حيث يعيش رجل حياته -مدرسته وعمله وزواجه- «متحركًا مع التيار دون أن يكون أبدًا ملتزمًا من أعماقه بأية أفعال». وهو يشعر بنفسه على نحو غامض بأنه «يلعب دورًا». على السطح، يبدو وكأنه يتحرك بشكل طبيعي في الحياة، ولكن ما يفعله فعلًا هو «السير مع التيار».

أمّا الطريقة الأخرى في التهرّب من النمو فسمّاها أنجيال طريقة «العيش البديلي». وهي تكمن في إنكار منهجي وكبت لشخصية المرء، ومحاولة استبدالها بشخصية أخرى، «تصوّرٌ مرفوع إلى درجة المثال، معيار للطيبة المطلقة يحاول المرء أن يعيش على أساسها، قمع كل تلك الدوافع الحقيقية المخالفة للمعيار غير الواقعي والمبالغ فيه» أو ببساطة أخذ الشخصية التي تمثّل «النموذج الرائج في وقتها».

التجلّي الأكثر انتشارًا للعيش البديلي هو اعتماد مبني خصوصًا على شخص آخر، وهو ما يؤخذ غالبًا خطأً على أنه حب. لكنّ تلك الارتباطات المتماسكة والشديدة جدًا تفتقد كل الجوانب الجوهرية في الحب الحقيقي: الإخلاص والتفهّم البديهي والفرح بوجود الشخص الآخر لما هو عليه وبطريقته. وبالعكس، فإن هذه الارتباطات تملّكية جداً وتميل إلى تجريد الشريك من «حياة خاصة به». ... هناك حاجة إلى الشخص الآخر، لا بوصفه شخصًا ما يربط المرء نفسه به، بل ليملأ فراغه الداخلي وتفاهته. لم تكن هذه التفاهة أصلًا سوى خيال، لكنها مع الكبت الذاتي المتواصل تقترب من أن تكون حقيقية.

تخفق كل هذه المحاولات لكسب شخصية بديلة عن طريق العيش البديلي في تحرير الشخص من شعور غامض بالفراغ. يترك كبت الاندفاعات التلقائية الحقيقية الشخص في حالة من الخواء الانفعالي المؤلم وتقريبًا مع حسّ بعدم الوجود...[1].

ويخلص أنجيال إلى أنه «يمكن فهم عدم الالتزام والعيش البديلي على أنها محاولات لحلّ الصراع بين الدافع إلى النمو والخوف من مواجهة أوضاع جديدة»، ولكن، على الرغم من أنها قد تخفف مؤقتًا من الضغط، فإنها لا تحلّ فعلياً المشكلة؛ «فنتيجتها هي دائمًا التهرّب من النمو الشخصي، حتى إذا لم يكن ذلك قصدها».

(1) Andras Angyal, M.D., "Evasion of Growth," *American Journal of Psychiatry*, Vol. 110, No. 5, November, 1953, pp. 358-361. See also Erich Fromm, *Escape from Freedom*, pp. 138-206.

وعلى أية حال، عدم الالتزام والعيش البديلي هما في صلب تعريفنا التقليدي للأنوثة. هذه هي الطريقة التي يعلّم فيها اللغز الأنثوي الفتيات أن يبحثن عن «التحقق بوصفهن نساءً»؛ هذه هي الطريقة التي تعيش وفقها معظم النساء الأمريكيات اليوم. ولكن إذا كان لدى العضوية الإنسانية دافع داخلي للنمو وللامتداد ولتصبح كل ما تستطيع أن تصبحه، فليس من المفاجئ أن تبدأ أجساد النساء السليمات وعقولهن بالتمرّد وهنّ يحاولن التكيّف مع دور لا يسمح بذلك النمو. إنّ أعراضهن التي تحيّر الأطباء والمحلّلين هي إشارة تنبيه إلى أنهن لا يستطعن أن يصادرن وجودهن، ولا أن يتهرّبن من نموهن بدون معركة.

رأيت هذه المعركة تخوضها نساء أجريت معهن مقابلات ونساء من مجتمعي، وهي غالبًا لسوء الحظ معركة خاسرة. تخلّت فتاة شابة، أولًا في المدرسة الثانوية، ولاحقًا في الجامعة، عن كل اهتماماتها وطموحاتها الجدية لتصبح «محبوبة». تزوّجت في عمر مبكر، ولعبت دور ربة المنزل التقليدية إلى حدّ كبير بالطريقة ذاتها التي لعبت بها دور الفتاة الجامعية المحبوبة. لا أعرف في أية نقطة فقدت الأثر في التمييز بين ما كان حقيقيًا وما كان سطحيًا، لكنها عندما أصبحت أمًّا، كانت أحيانًا تستلقي على الأرض، وترفس بقدميها في ذلك النوع من الغضب الذي لم تكن قادرة على معالجته لدى ابنتها البالغة من العمر ثلاث سنوات. وفي عمر الثامنة والثلاثين جرحت رسغيها في محاولة للانتحار.

وعانت امرأة ذكية جدًا من اكتئاب حادّ قبل ولادة طفلها تمامًا، كانت هذه المرأة قد تخلّت عن مهنة تتطلب الكثير من الجهد والوقت، هي العمل في أبحاث السرطان، لتصبح ربة منزل. وبعد أن تعافت، كانت «قريبة» جدًا من طفلها لدرجة أنها اضطرت للبقاء معه في الحضانة كل صباح مدة أربعة أشهر، لأنّه كان، إن لم تفعل، يصاب بهياج عنيف مع دموع ونوبات غضب. في الصف الأول، كان غالبًا ما يتقيأ في الصباح عندما يضطر لتركها. وعنفه

في الملعب وصل إلى حد الخطر على نفسه وعلى الآخرين. وعندما أخذ أحد الجيران منه مضرب كرة كان على وشك أن يضرب به طفل على رأسه، اعترضت أمه بعنف على «إحباط» ولدها. وجدت من الصعب جدًا عليها أن تضبطه بنفسها.

وعلى مدى فترة عشر سنوات، وفيما هي تجتاز على نحو صحيح كل حركات الأمومة في الضواحي، باستثناء عدم قدرتها على التعامل بصرامة مع أبنائها، بدت بوضوح أقلّ نشاطًا فأقل، وأقلّ فأقل تأكدًا من قيمتها الخاصة. في اليوم الذي سبق شنقها نفسها في قبو منزلها ذي الطابقين أخذت أطفالها الثلاثة للفحص عند طبيب الأطفال، وقامت بترتيبات حفلة عيد ميلاد ابنتها.

لجأت قلّة من ربات المنازل في الضواحي إلى الانتحار، ومع ذلك فهناك دليل آخر على أن النساء يدفعن ثمنًا انفعاليًا وجسديًا باهظًا للتهرّب من نموهن. وكما نعرف الآن، لسنَ بيولوجيًا الطرف الأضعف في الجنس البشري. فعددِ النساء اللواتي يتوفين في كل مجموعة عمرية أقل من عدد الرجال. لكن في أمريكا، من الوقت الذي تتحمل فيه النساء دورهن الجنسي الأنثوي كربات منازل، لا يعدن يعشن بالحيوية والمتعة وحس الهدف، وهي أمور تعتبر مميّزة للصحة الإنسانية الحقيقية.

في الخمسينيات، لاحظ أطباء نفسيون ومحلّلون نفسيون وأطباء في جميع الميادين أنّ متلازمة ربة المنزل بدت وكأنها تصبح مَرَضية على نحو متزايد. تحوّلت الأعراض المعتدلة مجهولة السبب -بثرات نازفة وتوعّك وعصبية وإعياء لدى ربات المنازل الشابات- إلى نوبات قلبية وقرحات نازفة وارتفاع ضغط الدم والتهاب القصبات والرئة؛ والكرب الانفعالي الذي لا اسم له تحوّل إلى انهيار ذُهاني. وشهد هذا العقد وحده بين ربات المنازل-الأمهات الجديدات في بعض الضواحي التي يضيئها نور الشمس زيادة خيالية في «الذُهانات الأمومية» وحالات اكتئاب تتراوح بين المعتدلة والانتحارية وهلوسات حوالي الولادة. واستنادًا إلى السجلات الطبية التي

جمّعها الدكتور ريتشارد جوردون (Richard Gordon) وزوجته كاثرين (هو طبيب نفسي وهي عالمة نفس اجتماعي) في ضواحي بيرجن كاونتي في ولاية نيوجيرسي خلال الخمسينيات، فإنّ واحدة من كل ثلاث أمهات تقريبًا عانت من الاكتئاب أو الانهيار الذهاني حوالي الولادة. وهذا يضاهي التقديرات الطبية السابقة للانهيار الذهاني لدى واحدة من كل 400 حامل، وحالات الاكتئاب الأقل حدةً لدى واحدة من كل 80.

في فترة ما بين عامي 1953-1957 كان واحد بالعشرة من بين المرضى النفسيين البالغين البالغ عددهم 746 في بيرجن كاونتي زوجات شابات أصبن بالانهيار حوالي الولادة. في الحقيقة أصبحت ربات المنازل الشابات (تتراوح أعمارهن بين 18 و44) اللواتي يعانين، لا من اكتئاب الولادة فقط، بل ومن جميع الاضطرابات النفسية والنفسية-البدنية متزايدة الخطورة، في الخمسينيات، وإلى حدّ بعيد، المجموعة الغالبة بين المرضى النفسيين الراشدين. وكان عدد الزوجات الشابات المضطربات، مرة أخرى، أكبر من عدد الأزواج الشباب بأكثر من النصف، وأكبر من أية مجموعة أخرى بثلاثة أضعاف (أعطت تقارير أخرى عن مرضى المستشفيات الخاصة والعامة في الضواحي نتائج مشابهة). من بداية الخمسينيات حتى نهايتها، حلّت ربات المنازل الشابات أيضًا، وعلى نحو متزايد، محل الرجال بوصفهن المعانيات الرئيسيات من النوبات القلبية والقرحات وارتفاع الضغط والتهاب القصبات الرئوية. وفي المستشفى الذي يخدّم هذه المقاطعة ذات الضواحي، تشكّل النساء الآن 40% من مرضى القرحة[1].

(1) See Richard E. Gordon and Katherine K. Gordon, "Social Factors in the Prediction and Treatment of Emotional Disorders of Pregnancy," *American Journal of Obstetrics and Gynecology*, 1959, 77:5, pp. 1074-1083; also Richard E. Gordon and Katherine K. Gordon, "Psychiatric Problems of a Rapidly Growing Suburb," *American Medical Association Archives of Neurology and Psychiatry*, 1958, Vol. 79; "Psychosomatic Problems of a Rapidly Growing Suburb," *Journal of the American Medical Association*, 1959, 170:15; and "Social Psychiatry of a Mobile Suburb," *International Journal of Social Psychiatry*, 1960, 6: 1, 2, pp. 89-99.

نُشِرت بعض هذه النتائج والاستنتاجات البحثية في كتاب الزوجين جوردون بالتعاون مع ماكس جنثر، والذي ضم دراسات الحالات وتسجيل المشاهدات.

ذهبت لأرى الدكتور جوردون وزوجته كاثرين، اللذين عزَوَا الأمراض المتزايدة بين ربات المنازل الشابات الجديدات أولئك -والتي لم توجد بين النساء في مناطق ريفية مشابهة، أو في الضواحي والمدن الأقدم- إلى «تنقليّة» سكان الضواحي الجدد. لكنّ الأزواج «المتنقلين» لم يكونوا ينهارون مثلما كانت زوجاتهم وأبناؤهم. أشارت دراسات سابقة عن اكتئاب الولادة إلى أنّ النساء المهنيات أو العاملات الناجحات يعانين أحيانًا من «تضارب الأدوار» عندما يصبحن ربات منازل-أمهات. لكنّ أولئك الضحايا الجديدات، اللواتي كان معدل اكتئاب أو انهيار الولادة بينهن أكبر بكثير من كل التقديرات السابقة، لم يردن قط أن يكنّ أكثر من ربات منازل-أمهات؛ كان ذلك كل ما هو متوقع منهن. أشار الدكتور جوردون وزوجته إلى أن نتائجهما لا تشير إلى أنّ ربات المنازل الشابات هن بالضرورة عرضة لضغط أكثر من أزواجهن؛ وتظهر النساء ببساطة ميلًا متزايدًا للاستسلام للضغط. أيمكن أن يعني ذلك أن دور ربة المنزل-الأم كان كبيرًا عليهن؟ أم أنه لم يكن كافيًا؟

لم تشترك أولئك النساء في بذور العُصاب ذاتها من الطفولة؛ وفي الحقيقة، بعضهن لم يظهرن أيًا من تلك البذور. لكنّ تشابهًا مفاجئًا ظهر في تواريخ حالاتهن المرضية تمثّل في حقيقة أنهن قد تخلّين عن تعليمهن عند مستوى أدنى من مستوى قدراتهن. المُعانيات هن اللواتي انسحبن من المدرسة الثانوية أو الكلية؛ وهنّ، أكثر من النساء المماثلات لهن في العمر، قد دخلن الجامعة، وتركنها عادةً بعد سنة[1](10). والعديدات منهنّ أيضًا قد جئن من «المجموعات الإثنية الأكثر تقييدًا» (إيطالية أو يهودية) أو من مدن صغيرة في الجنوب حيث «النساء محميات ويبقين اتكاليات». والعديدات لم يتابعن الدراسة ولا العمل، ولم يتحركن في العالم بمفردهن

(1) Richard E. Gordon, "Sociodynamics and Psychotherapy," *A .M.A. Archives of Neurology and Psychiatry*, April, 1959, Vol. 81, pp. 486-503.

بأية صفة كانت. قلة منهنّ، وهنّ اللواتي انهرن، سبق وشغلن أعمالًا قليلة المهارة نسبيًا، أو كانت لديهن بدايات اهتمامات ولكنهن تخلّين عنها عندما أصبحن ربات منازل-أمهات في الضواحي. لكن لم تكن لدى معظمهن أية طموحات سوى أن يتزوجن رجلًا ذا مستقبل واعد؛ العديدات كنّ يحققن، لا أحلامهن فقط، بل وأحلام أمهاتهن المحبطة بالمكانة عن طريق الزواج من رجال مؤهلين طموحين. وكما وصفهن الدكتور جوردون لي: «لم تكن لديهن أية كفاءة. لم يقمن بأي شيء. لم يتمكّن حتى من تنظيم اللجان التي كان يجب تنظيمها في تلك الأماكن. لم يُطلب منهن قط أن يستخدمن أنفسهن، أن يتعلمن كيف يقمن بعمل ومن ثمّ يقمن به فعلًا. العديدات منهنّ انسحبن من المدرسة. الحصول على طفل أسهل من الحصول على علامة تامة. لم يتعلمن قط أن يتحمّلن الضغوط أو الألم أو العمل الشاق. ما أن صار السير عسيرًا، حتى انهرن».

ربما لأنّ أولئك الفتيات كنّ سلبيات واتكاليات أكثر من غيرهن ومحصورات في الضواحي، فقد كنّ أحيانًا يبدين وكأنهن يصبحن طفليات مثل أطفالهن. وأظهر أولادهن سلبية وطفولية بدت مَرَضية وكانت تظهر في عمر مبكر لدى الأبناء الصبيان. يجد المرء في عيادات الصحة النفسية في الضواحي اليوم الغالبية الساحقة من المرضى الأطفال صبيانًا، في عكسٍ مأساوي ومتعذر تفسيره من نواح أخرى للحقيقة القائلة إن معظم المرضى البالغين في جميع العيادات ومكاتب الأطباء اليوم هم نساء، أي ربات منازل. قال لي محلل نفسي من بوسطن، لديه العديد من المريضات، واضعًا جانبًا المصطلحات النظرية لمهنته: «صحيح أنّ هناك نساء مريضات أكثر بكثير من الرجال. وشكاواهن متنوعة، لكن إذا نظرت عميقًا، فستجدين ذلك الشعور الكامن بالفراغ، ليس دونيةً، بل شيء يشبه التفاهة. المسألة هي أنهن لا يسعين إلى تحقيق أية أهداف خاصة بهن».

وأخبرني طبيب آخر في عيادة للصحة النفسية في الضواحي عن أمّ شابة لفتاة في السادسة عشرة من العمر انشغلت كليًا، منذ انتقالهم إلى الضاحية منذ سبع سنوات، بأولادها، باستثناء قليل من عمل الخير في المجتمع. وعلى الرغم من قلق هذه الأمّ الدائم على ابنتها («أفكر فيها طوال اليوم، ليس لديها أصدقاء، وهل ستدخل الجامعة؟»)، فقد نسيت اليوم الذي كان على ابنتها فيه أن تجري امتحانات دخول الجامعة.

كان قلقها على ابنتها وما تقوم به قلقها الوحيد على ذاتها وعلى ما لم تكن تقوم به. عندما تعاني أولئك النساء من الانشغال الكامل بما لا يقمن به بأنفسهن، لا يكون لدى الأولاد فعليًا سوى القليل جدًا من التواصل معهن. أفكّر في طفل آخر، عمره سنتان، يعاني من أعراض حادة جدًا لأن هناك غيابًا شبه تامّ للتواصل الفعلي مع أمه. هي مشغولة بالبيت طوال اليوم وكل يوم. يجب عليّ أن أعلّمها أن تقوم حتى بالتواصل الجسدي مع طفلها. لكنّ المشكلة لن تحلّ حتى تواجه الأم حاجتها هي إلى تحقيق الذات. الاستجابة للأبناء لا علاقة لها بمقدار الوقت، والقدرة على الحضور لكل طفل من حيث ما يحتاج إليه يمكن أن يحدث في جزء من الثانية. والأمّ يمكن أن تكون موجودة هناك طوال اليوم، ومع ذلك فهي ليست هناك بالنسبة للطفل، بسبب انشغالها بنفسها. وهكذا يحبس أنفاسه في نوبات غضب انفعالية؛ يتشاجر بغضب؛ يرفض أن يدعها تتركه في الحضانة؛ حتى في عمر التاسعة يطلب الصبي أن تذهب أمه معه إلى الحمّام، أن تستلقي معه، وإلّا فإنه لا يستطيع النوم. أو يصبح انطوائيًا إلى درجة الفُصام. وهي تحاول باهتياج أن تستجيب لحاجات الطفل ومطالبه. ولكن إذا كانت قادرة فعلًا على تحقيق نفسها، فستكون قادرة على أن تكون موجودة من أجل ولدها. يجب أن تكون هي نفسها كاملة، وموجودة بنفسها، حتى تساعد الطفل على النمو وتعلم كيف يتعامل مع الواقع، وأن يعرف حتى ما هي مشاعره الحقيقية.

وفي عيادة أخرى، تحدّث مُعالج عن أمّ مذعورة لأنّ ابنها لم يكن قادرًا على تعلّم القراءة في المدرسة على الرغم من أن اختبارات الذكاء لديه أعطت نتائج عالية. كانت الأم قد تركت الجامعة، وألقت بنفسها في دور ربة

المنزل، وعاشت الوقت الذي كان الصبي فيه سيدخل المدرسة، وستحقق هي ذاتها عن طريق إنجازاته. وإلى أن جعل العلاج الأم «تفصل» نفسها عن الطفل، لم يكن لديه أيّ حسّ بذاته ككائن مستقل. ما كان يستطيع القيام بأي شيء، وما كان ليقوم به، حتى في اللعب، إلّا إذا طلب منه أحد ما ذلك. لم يستطع حتى أن يتعلم القراءة التي تتطلب ذاتًا خاصة به.

الأمر الغريب، كما قال المُعالج، هو أنها، مثل الكثير من النساء الأخريات في هذه الحقبة من «الدور الأنثوي»، في محاولتها لأن تكون «امرأة حقيقية»، زوجة وأمًا جيدة، «كانت تلعب فعلًا دورًا ذكوريًا جدًا. ... كانت تدفع الجميع حولها -مسيطرةً على حيوات الأولاد، مسيّرةً البيت بيد من حديد، مديرةً أعمال النجارة، تُلحُّ على زوجها بأن يقوم بأعمال عابرة لم ينهها قطّ، مديرةً المالية، مراقبةً الاستجمام والتعليم- وكان زوجها مجرد رجل يدفع الفواتير».

اكتُشف مؤخرًا في مجتمع ويستشستر، ذات النظام المدرسي المشهور على المستوى العالمي، أنّ أداء الخريجين ذوي السجلات الممتازة في المدرسة الثانوية في الجامعة ضعيف جدًا، ولم يحرزوا الكثير من النجاح الذاتي فيما بعد. وكشف تحقيق سببًا نفسيًا بسيطًا. كانت الأمهات طوال المرحلة الثانوية يقمن، بالمعنى الحرفي للكلمة، بوظائف أبنائهن وأوراقهم الفصلية. كنّ بهذه الطريقة في الغش يبعدن أبناءهن وبناتهن عن النمو العقلي. وأوضح محلّل آخر كيف أن جنوح الأحداث ينتج عن «تمثيل» الطفل لحاجات أمه، عندما يكون نموّ الأمّ قد عُوّق.

عادةً، كان يُنظَر، في العقل الباطن، إلى الوالد الأكثر أهمية -عادةً الأم، على الرغم من أنّ الأب دائمًا معنيٌّ على نحو ما- على أنّه يشجّع سلوك الطفل غير الأخلاقي وغير الاجتماعي. إذ تُشبع حاجات الوالد العُصابية، على نحو غير مباشر، عن طريق سلوك الطفل. وهذه الحاجات العصابية للوالد توجد إمّا

نتيجة عجز حالي ما عن إشباعها في عالم البالغين، أو نتيجة تجارب مُعَوِّقة في طفولته؛ أو نتيجة مزيج من كلا العاملين، وهو الأكثر شيوعًا[1].

لقد رأى هؤلاء الذين راقبوا الجانحين الصغار، وحاولوا مساعدتهم، عملية التجريد المتزايد من الإنسانية هذه على أرض الواقع، واكتشفوا أن الحبّ لا يكفي لمواجهتها. ليس الحب التكافلي أو التساهل، الذي كان ترجمة لحب الأمّ في أثناء سنوات اللغز الأنثوي، كافيًا لخلق ضمير اجتماعي وقوة شخصية في الطفل. ولهذا فإنه يقتضي أمًّا ناضجةً تتمتع بجوهر ذاتي راسخ، وحاجاتها الغريزية والجنسية متكاملة مع ضميرها الاجتماعي. «يدلّ الرسوخ على والد تعلّم كيف يمكن الوصول إلى جميع أهدافه الرئيسية في مسارٍ إبداعي ما...»[2].

وذكر معالجٌ حالة فتاة في التاسعة من عمرها قامت بالسرقة. قالت أمها الراغبة في حمايتها، بشيء من «التساهل الناتج عن حاجتها إلى إشباع بديلي»، إنها ستتخلص من ذلك مع مرور الزمن. وفي لحظة معينة، سألت الفتاة ذات التاسعة المُعَالج: «متى ستقوم أمي بالسرقة الخاصة بها؟».

يمكن رؤية هذا النمط من التجريد المتزايد من الإنسانية في حالته القصوى، في حالات الأطفال الفصاميين: الأطفال «المتوحّدين» أو «الشاذّين»، كما يطلق عليهم أحيانًا. زرت عيادة مشهورة مضى عليها في دراسة هؤلاء الأطفال عشرون عامًا. وقد بدا للبعض أنّ حالات هؤلاء الأطفال، المحتجزة عند مستوى بدائي قبل-طفلي، خلال هذه الفترة، في ازدياد. وتختلف المرجعيات فيما يخص سبب هذه الحالة الغريبة، وما إذا كانت فعلًا في ازدياد أم إنها فقط بدت كذلك لأن تشخيصها الآن أصبح أكثر. فحتى وقت متأخر، كان يعتقد أنّ معظم هؤلاء الأطفال متخلفون عقليًا. لكن الحالة أصبحت ملحوظة أكثر الآن في المستشفيات وفي العيادات ومن قبل

(1) Adelaide M. Johnson and S. A. Szu rels, "The Genesis of Antisocial Acting Out in Children and Adults," *Psychoanalytic Quarterly*, 1952,21 :323-343.
(2) Ibid.

أطباء وأطباء نفسيين. وهي تختلف عن الأنواع العضوية من التخلف العقلي التي لا يمكن شفاؤها. إذ يمكن أن تعالج، وأن تشفى أحيانًا.

يماثل هؤلاء الأطفال أنفسهم غالبًا مع أشياء أو أغراض غير حية كالسيارات وأجهزة الراديو وغيرها، أو مع حيوانات كالخنازير والكلاب والقطط. ويبدو أن لب المشكلة هو أنّ هؤلاء الأطفال لم ينظموا ذواتٍ قوية بما يكفي أو يطوروها للتعامل مع واقع الطفل؛ لا يستطيعون أن يميّزوا أنفسهم على أنهم مستقلون عن العالم الخارجي؛ وهم يعيشون على مستوى الأشياء أو الدافع البيولوجي الغريزي الذي لم يُنظَّم مطلقًا ضمن إطار عمل إنساني. أما بالنسبة للأسباب، فقد شعرت المرجعيات أنّها «يجب أن تفحص شخصية الأم، وهي الوسط الذي يحوّل الطفل البدائي فيه نفسه إلى كائن إنساني اجتماعي»[1].

زرت في العيادة (مركز جيمس جاكسون باتنام للأطفال في بوسطن) العاملين الذين كانوا حذرين بخصوص استخلاص نتائج تتعلق بالأطفال الذين يعانون من اضطراب عميق. لكنّ أحد الأطباء قال بشيء من انعدام الصبر فيما يخص التيار المتزايد من «الأنوات المفقودة والأنوات الهشة والأنوات ضعيفة التطور» التي صادفها، «إنه الشيء الذي لطالما عرفناه؛ إذا كان الوالد يعاني من أنا هشّة، فسيعاني الطفل منها أيضًا».

كانت معظم أمهات الأطفال الذين لم يطوروا جوهرًا ذاتيًا إنسانيًا هنّ أنفسهن «أفرادًا غير ناضجين إلى أبعد حد»، على الرغم من أنهن على السطح «يعطين الانطباع بأنهن متكيّفات جيدًا». كنّ اتكاليات على أمهاتهن، وهربن من الاتكالية إلى زواج مبكر، و«قد كافحن ببطولة من أجل بناء الصورة التي خلقنها للمرأة والزوجة والأمّ الرائعة والمحافظة عليها».

---

(1) Beata Rank, "Adaptation of the Psychoanalytical Technique for the Treatment of Young Children with Atypical Development," *American Journal of Orthopsychiatry*, XIX, 1, January, 1949.

إن حاجة المرأة إلى أن تصبح أمًا. والأمل والتوقعات بأنها من خلال هذه التجربة قد تصبح شخصًا حقيقيًا وقادرةً على اختبار العواطف الحقيقية، قويةً إلى حدّ أنها بذاتها قد تخلق القلق والتردّد والخوف من الفشل. ولأنها محرومة تمامًا من التعبيرات التلقائية عن المشاعر الأمومية، فإنها تدرس بانتباه جميع الطرق الجديدة في التنشئة وتقرأ مقالات حول الصحة الجسدية والنفسية[1].

ولا تقوم رعايتها الكلية لابنها على التلقائية، بل على إتباع «الصورة التي يجب أن تكون عليها الأم الجيدة»، على أمل أنها «من خلال التطابق مع الطفل، الذي من لحمها ودمها، قد تختبر على نحو غير مباشر أفراح العيش الحقيقي والمشاعر الحقيقية».

وهكذا، يُحوَّل الطفل من «القصور الذاتي السلبي» إلى «الصراخ في الليل» إلى اللاشفقة. «لا يشكل الطفل السلبي تهديدًا، لأنه لا يبالغ في طلباته من أمه، التي تشعر دائمًا أنها معرضة لخطر انكشاف أن ليس لديها عاطفيًا ما تقدمه سوى القليل، أو لا شيء، وأنها مجرّد خداع». عندما تكتشف أنها لا تستطيع أن تجد تحقّقها الشخصي فعلًا من خلال الطفل:

... فإنها تقاتل بشراسة للسيطرة. ربما لا على نفسها فقط، بل وعلى الطفل أيضًا. الصراعات حول التدريب على استخدام المرحاض والفطام هي عمومًا معارك تحاول من خلالها أن تعيد الاعتبار لذاتها. ويصبح الطفل هو الضحية الحقيقية؛ ضحية عجز الأم الذي يخلق بدوره فيها عدائيةً تصل إلى حد التدمير. والطريقة الوحيدة الباقية أمام الطفل حتى ينجو هي أن يتراجع. أن ينسحب. لا من الأمّ الخطيرة فقط، بل ومن كل العالم أيضًا[2].

وهكذا فإنه يصبح مجرّد «شيء» أو حيوان أو «هائم قلق يبحث عن لا أحد ولا مكان، يترنّح في الغرفة متمايلًا نحو الأمام والخلف ودائرًا حول الجدران كما لو كانت قضبانًا يجب أن يخترقها».

---

(1) Ibid.
(2) Ibid.

كان الأطباء في هذه العيادة قادرين على تتبع أثر نمط مشابه يعود بضعة أجيال إلى الوراء. كان التجريد من الإنسانية متزايدًا حقًا.

يمكن أن نفترض على ضوء الملاحظات السريرية أن النزاع الذي اكتشفناه في جيلين ربما وُجد على نطاق واسع على مدى أجيال من قبل وأنه سيستمرّ في أجيال قادمة. ما لم يُقاطع هذا النمط بتدخّل علاجي أو يُنقَذ الطفل من قبل شخص-أب مذكّر، وهو رجاء لن تقودنا تجربتنا إلى توقعه[1].

ولكن لا العلاج ولا الحب كافيان لمساعدة هؤلاء الأطفال، إذا استمرت الأم في العيش على نحو غير مباشر عن طريق الطفل. لاحظت هذا النمط ذاته لدى العديد من النساء اللواتي قابلتهن؛ نساء كنّ يسيطرن على بناتهن، أو يربينهن على أساس الاتكالية والتوافق السلبيان، أو يدفعنهن بلا وعي إلى القيام بنشاطات جنسية. كانت إحدى أكثر النساء اللواتي قابلتهن مأساويةً أمّ تلك الفتاة ذات الثلاثة عشر عامًا التي تمشي في نومها. زوجة مدير ثرية حياتها مليئة بكل أشكال الزخارف، كانت تعيش وفق صورة «الوجود معًا» ذاتها للعيش في الضواحي، باستثناء أنه كان مجرّد قشرة. كانت حياة زوجها الحقيقية هي عمله؛ حياة لم يستطع، أو لم يشأ، أن يشاطر زوجته فيها. وبحثت عن استرداد إحساسها بالحياة عن طريق دفع ابنتها ذات الثلاثة عشر عامًا بلا وعي إلى التخبّط الجنسي. كانت تعيش في حياة ابنتها الجنسية الزائفة، التي كانت بالنسبة للفتاة خاليةً من الشعور الفعلي بحيث أصبحت فيها مجرّد «شيء».

كان عددٌ قليلٌ من المعالجين والاستشاريين يحاولون «مساعدة» الأم والأب، مفترضين، كما أظن، أنه لو كانت حاجات الأم العاطفية-الجنسية مشبعةً في الزواج من قبل زوجها، لما كانت بحاجة إلى حلّها عن طريق ابنتها، ولكانت ابنتها نفسها قادرة على النمو بعيدًا عن «التشيّؤ» نحو الأنوثة. وقد

(1) Beata Rank, Marian C. Putnam, and Gregory Rochlin, M.D., "The Significance of the 'Emotional Climate' in Early Feeding Difficulties," *Psychosomatic Medicine*, X, 5, October, 1948.

حدث ذلك لأنّ الزوج لديه مشاكل كثيرة خاصة به بدت معها توقعات الأم بالحصول إلى الأبد على حب كاف منه معتمةً، فكان الاستشاريون يحاولون أن يجعلوا الأمّ تطور بعض الاهتمامات الحقيقية في حياتها الشخصية.

لكن، مع نساء أخريات قابلتهن -كنّ قد تهرّبن من نموّهن الذاتي بالعيش البديلي ونقص الغايات الشخصية- لم يفلح حتى الأزواج الأكثر حبًا في إيقاف الأذى المتزايد لحيواتهن وحيوات أبنائهن. لقد رأيت ما يحدث عندما تدفع النساء، بلا وعي، بناتهن إلى النشاط الجنسي في عمر صغير جدًا، لأنّ المغامرة الجنسية هي المغامرة الوحيدة الحقيقية -أو وسيلة تحقيق المكانة أو الهوية- في حيواتهن. واليوم، تعاني تلك الفتيات -اللواتي كنّ «يمثّلن» أحلام أمهاتهن وطموحاتهن المحبطة بالطريقة الأنثوية «العادية»، واللواتي ربطن عرباتهن بالنجوم الصاعدة لرجال مؤهلين وطموحين- في حالات كثيرة، من ذات الإحباط وعدم التحقق اللذين عانت منهما أمهاتهن. لا يندفعن جميعًا حافيات الأقدام إلى مخفر الشرطة خائفات من أن يقتلن الزوج والطفل اللذين أوقعاهن في فخ ذلك البيت، كما يعتقدن. لا يصبح جميع أبنائهن تهديدات عنيفة في الحي وفي المدرسة؛ ولا «تمثّل» جميع بناتهن خيالات أمهاتهن الجنسية، ويحملن في سن الرابعة عشرة. كما لا تبدأ كل ربات المنازل أولئك تناول المشروب عند الساعة الحادية عشرة صباحًا لإخفاء الأنين المكتوم لغسالة الصحون أو الغسالة الآلية أو المجفّفة والتي هي، في النهاية، أصوات الحياة الوحيدة في ذلك البيت الخالي، لأن جميع الأولاد يخرجون واحدًا تلو الآخر إلى المدرسة.

لكن، في ضواحٍ مثل بيرجن كاونتي، ارتفع معدل «الانفصال» على نحو مفرط ليصل إلى 100٪ تقريبًا في الخمسينيات، لأنّ الرجال الطموحين المؤهلين تابعوا نموهم في المدينة، في حين تهرّبت زوجاتهم من النمو عن طريق العيش البديلي أو عدم الالتزام محققات دورهن الأنثوي في البيت. ما دام الأولاد في البيت، وما دام الزوج موجودًا، كانت الزوجات يعانين

على نحو متزايد من أمراض حادة، لكنهن يتعافين منها. لكن كانت هناك في بيرجن كاونتي في ذلك العقد زيادة حادة في عدد حالات الانتحار بين النساء اللواتي تجاوزن الخامسة والأربعين، وفي عدد المريضات النفسيات اللواتي جئن للاستشفاء ممن كبر أبناؤهن وغادروا البيت[1]. كانت ربات المنازل اللواتي دخلن للاستشفاء ولم يتعافين بسرعة، فوق كل ذلك، هنّ أولئك اللواتي لم يطوّرن قدراتهن الخاصة في العمل خارج المنزل[2].

ما زال الانهيار الكبير، الذي قد يحدث عندما تصل أعداد متزايدة من ربات المنازل-الأمهات الشابات الجديدات تلك، واللواتي هنّ منتجات للغز الأنثوي، إلى سن الأربعين، مسألة تأمّل. لكنّ التطفيل المتزايد لأبنائهن وبناتهن، كما ينعكس في سلسلة الزواجات المبكرة، قد أصبح حقيقية منذرة بالخطر. في المؤتمر الوطني لجمعية دراسات الأطفال Child Study Association الذي عقد في آذار/ مارس 1962 تمّ الإدراك أخيرًا أن الزواجات والأبوّة المبكرة الجديدة، والتي كانت في الماضي تعتبر مؤشرًا على «تحسّن النضج العاطفي» لدى الجيل الأصغر سنًا، هي علامة على «التطفيل» المتزايد. اتفق المهنيون العاملون في مجال الطفل والأسرة على أنّ ملايين الشباب الأمريكيين، الذين كانوا في الستينيات يتزوجون قبل سن العشرين، دليل على عدم النضج والاتكالية العاطفية اللذين يبحثان عن الزواج بوصفه طريقًا مختصرًا سحريًا إلى حالة النضج، حلّ سحري لمشاكل لا يستطيعون مواجهتها بأنفسهم. وتمّ تشخيص هؤلاء العرسان والعرائس الطفليين على أنهم ضحايا «علاقة الحب الحزين والمريض [لهذا الجيل] مع أبنائهم».

ستعترف فتيات كثيرات أنهن يردن الزواج لأنهن لم يعدن يردن العمل. إنهن يخفين الأحلام التي يحلمن بموجبها أن يعتني أحد ما بهن بقية حياتهن دون

(1) Richard E. Gordon and Katherine K. Gordon, "Social Psychiatry of a Mobile Suburb," *op. cit.*, pp. 89-100.

(2) Ibid.

قلق مع القليل فقط من الأثاث ليقمن بالقليل من العمل المنزلي وجولات التسوّق الممتعة في المدينة وأطفال سعداء وجيران لطفاء. ويبدو الحلم بزوج، على نحو ما، قليل الأهمية، لكنه، في خيالات الفتيات عن الزواج، يتعلّق عادةً برجل يملك قوّة أب قوي موثوق لا يتهدّم ولطف أمّ طيبة وعطاءها وحبها المتفاني. أما الشباب فغالبًا ما يرجعون رغبتهم في الزواج إلى الرغبة في الحصول على امرأة حنون في البيت وممارسة الجنس بانتظام بطلبه منها دون عناء ولا إزعاج. ... في الحقيقة، ما يفترض أن يضمن النضج والاستقلالية هو رجاء مكتوم بضمان الاتكالية وإطالة علاقة الطفل-الأهل مع مزايا أن يكون المرء طفلًا وبأقل ما يمكن من القيود[1].

وكانت هناك علامات مشؤومة أخرى على امتداد الأمة على وجود عنف متزايد غير مضبوط بين الأهل الشباب وأبنائهم عالق في فخ تلك الاتكالية السلبية. ذكر طبيب نفسي أنّ ردة فعل تلك الزوجات على عدائية أزواجهن هي أن يصبحن أكثر اتكاليةً وسلبيةً، حتى يصبحن أحيانًا، وبالمعنى الحرفي للكلمة، عاجزات عن الحركة أو القيام بخطوة واحدة بأنفسهن. وهذا لم يجعل أزواجهن يعاملونهن بمزيد من الحب، بل بمزيد من الغيظ. وما الذي كان يحدث للغيظ الذي لم تكن الزوجات يجرؤن على استخدامه ضد أزواجهن؟ فكّروا في هذا الخبر الذي نشر مؤخرًا (مجلة تايم، 20 تموز/يوليو 1962) حول «متلازمة الطفل المنتهك».

تصبح الحادثة للعديد من الأطباء متشابهة على نحو مفجع. يُحضر طفلٌ، عمره عادةً أقل من ثلاث سنوات، إلى المكتب وهو يعاني من كسور متعددة، تتضمن غالبًا كسرًا في الجمجمة. يعبّر الأبوان عن قلق مناسب ويقولون أن الطفل سقط عن السرير أو تدحرج على الدرج أو تأذى على يد أحد زملائه في اللعب. لكنّ صورة الأشعة وخبرة الطبيب تقوده إلى نتيجة مختلفة: لقد تعرّض للضرب على يد أبويه.

وجد فريق من جامعة كولورادو من خلال الوثائق التي جمعها من 71

(1) Oscar Sternbach, "Sex Without Love and Marriage Without Responsibility," an address presented at the *38th Annual Conference of The Child Study Association of America*, March 12, 1962, New York City (mimeo ms.).

مستشفى 302 حالة طفل منتهك في سنة واحدة؛ مات منهم 33 وعانى 85 من ضرر دماغي دائم. وكان احتمال عيش الأهل الذي دُفعوا «إلى رفس أبنائهم ولكمهم ولي أذرعهم وضربهم بالمطارق أو بالطرف ذي الإبزيم من أحزمتهم وحرقهم بالسجائر أو المكاوي الكهربائية» في تلك البيوت ذات الطابقين في الضواحي مثل احتمال عيشهم في شقق. وتنبأت الجمعية الطبية الأمريكية أنه عندما تكتمل الإحصاءات المتعلقة بمتلازمة الطفل المنتهك، «فالأرجح أن نكتشف أن تكون سببًا للموت أكثر انتشارًا من تلك الأمراض المدروسة على نحو شامل والمعروفة جيدًا كاللوكيميا والتليّف الكيسي والحَثْل العضلي muscular dystrophy».

كان الأرجح أن الأم هي من تقوم بضرب الطفل المنتهك. كما قالت أم شابة لأربعة أطفال للطبيب وهي تعترف بأمنيتها في قتل نفسها:

> لا يبدو هناك أيّ سبب أمامي للاستمرار في العيش. ليس هناك ما أتطلع إليه. أنا وجيم لم نعد حتى نتحدث معًا إلّا عن الفواتير والأشياء التي تحتاج إلى إصلاح في البيت. أعرف أنه مستاء من أنه عجوز إلى هذه الدرجة ومن أنه مربوط هكذا وهو ما يزال شابًا، وهو يلقي باللوم في ذلك عليّ، لأنني من أراد أن نتزوج حينها. لكنّ أسوأ ما الأمر هو أنني أشعر بالحسد تجاه أطفالي. وتقريبًا أكرههم، لأنّ لديهم حيواتهم أمامهم، أما حياتي فقد انتهت.

قد تكون مصادفة رمزية، وقد لا تكون، لكن في الأسبوع ذاته الذي أدركت فيه جمعية الطفل والأسرة المعنى الحقيقي للزواجات المبكرة، أظهرت مراجعة الكتب في صحيفة **نيويورك تايمز** (الأحد في 18 آذار/ مارس 1962) شعبية جديدة غير مسبوقة بين البالغين الأمريكيين للكتب التي تدور عن علاقات «الحب» بين البشر والحيوانات. خلال نصف قرن، لم يكن هناك كتب عن الحيوانات على قائمة الكتب الأكثر مبيعًا بمقدار ما كان منها خلال السنوات الثلاث الماضية (1959-1962). وفي حين هيمنت الحيوانات دائمًا على أدب الأطفال الصغار، فإنّ البشر مع سن

النضج يصبحون أكثر اهتمامًا بالبشر الآخرين. (إنه مجرّد رمز، لكنّ رجحان صور الحيوان على صور الإنسان، في اختبار رورشاخ (Rorschach test)، هو علامة على التطفيل). وهكذا فقد حمل التجريد المتزايد من الإنسانية العقل الإنساني في السنوات الخمس عشرة الماضية من عبادة الشباب إلى «علاقة الحب المريض» تلك مع أبنائنا؛ من الاستغراق في التفاصيل الجسدية للجنس منزوعًا من إطاره الإنساني إلى علاقة حب بين الإنسان والحيوان. فأين سينتهي الأمر؟

أعتقد أنه لن ينتهي، ما دام اللغز الأنثوي يقنّع فراغ دور ربة المنزل مشجعًا الفتيات على التهرّب من نموّهن عن طريق العيش البديلي وعن طريق عدم الالتزام. لقد مضينا بعيدًا جدًا في إلقاء اللوم على الأمهات اللواتي التهمن أبناءهن، أو الإشفاق عليهن، الأمهات اللواتي بذرن بذور التجريد المتزايد من الإنسانية، لأنهن أنفسهن لم يبلغن مرحلة الإنسانية الكاملة. إذا كانت الأمّ هي المخطئة، فلم لا يكون هذا هو الوقت لكسر هذا النمط، وذلك بحثّ كل تلك الحسناوات النائمات على النضج وعيش حياتهن الخاصة؟ لن يكون هناك قط ما يكفي من الأمراء الساحرين، أو ما يكفي من المعالجين، لكسر ذلك النمط الآن. إنه عمل المجتمع، وفي النهاية، عمل كل امرأة بمفردها. إذ ليست قوة الأمهات هي المخطئة بل ضعفهن، اتكاليتهن الطفولية وعدم نضجهن السلبيان اللذان يُؤخذان خطأً على أنهما «أنوثة». يجبر مجتمعنا الصبيان، إلى الحد الذي يستطيعه، على النضج وتحمّل آلام النمو وتعليم أنفسهم العمل والاستمرار. فلماذا لا تجبر الفتيات على النضج، وعلى أن يحققن، على نحو ما، الجوهر الذاتي الذي سينهي المعضلة غير الضرورية، الخيار الخطأ بين الأنوثة والإنسانية المتضمن في اللغز الأنثوي؟

لقد حان الوقت للتوقّف عن حضّ الأمهات على «حب» أبنائهن أكثر، ولمواجهة المفارقة بين طلب اللغز من النساء أن يكرّسن أنفسهن تمامًا لبيتهن

وأولادهن والحقيقة القائلة أن معظم المشاكل، التي تعالج الآن في عيادات إرشاد الأطفال، لا تُحَلّ إلّا بمساعدة الأمهات على تطوير اهتمامات مستقلة خاصة بهن وبألّا يحتجن إلى إشباع حاجاتهن العاطفية من خلال أولادهن. لقد حان الوقت للتوقّف عن حضّ النساء على أن يكنّ أكثر «أنوثة». حين ينمّي ذلك فيهن سلبيةً واتكاليةً تجعل الجنس مجردًا عن الشخص، ويفرض عبئًا مستحيلًا على أزواجهن، سلبية متنامية في أبنائهن.

ليست مبالغة أن نطلق على الوضع الراكد لملايين ربات المنازل الأمريكيات صفة المرض، مرض على هيئة ضعف متزايد في الجوهر الذاتي الإنساني ينقلنه إلى أبنائهن وبناتهن في وقت تجعل الجوانب المجردة من الإنسانية للثقافة الجماهيرية العصرية من الضروري للرجال والنساء أن يمتلكوا جوهرًا ذاتيًا قويًا، قويًا بما يكفي للمحافظة على الفردية الإنسانية عن طريق ضغوط بيئتنا المتغيرة المخيفة والتي لا يمكن التنبؤ بها. ليست قوة النساء سبب هذا المرض، بل دواءه. لا يمكن تحطيم اللغز الأنثوي وإيقاف تجريد الأولاد المتزايد من الإنسانية إلّا عند السماح للنساء باستخدام كامل قوّتهن وبالنمو حتى يحققن كامل قدراتهن. لم تعد معظم النساء يستطعن، بوصفهن ربات منازل، استخدام كامل قوّتهن وأن ينمون حتى تحقيق كامل قدراتهن.

من الملحّ أن نفهم كيف أن الظرف نفسه الذي تكون المرأة فيه ربة منزل يمكن أن يخلق لديها إحساسًا بالفراغ وبعدم الوجود وبالتفاهة. هناك جوانب في دور ربة المنزل تجعل من المستحيل تقريبًا على امرأة تتمتع بذكاء امرأة بالغة أن تحتفظ بحسٍّ بالهوية الإنسانية وبالجوهر الذاتي المتين أو بالـ«أنا» التي لا يكون الإنسان –رجلًا أو امرأة– حيًا بالفعل دونها. أنا مقتنعة أنّ هناك، بالنسبة للنساء الموهوبات في أمريكا اليوم، شيءٌ خطير في وضع ربة المنزل نفسه. وبمعنى ما، ليس ذلك بعيد الاحتمال كما يبدو؛ فالنساء اللواتي «يتكيّفن» كربات منازل، اللواتي يكبرن وهنّ يردن أن يكنّ «ربة منزل

فقط»، هنّ في خطر يعادل الخطر الذي كان فيه ملايين الأشخاص الذين ساروا إلى حتفهم في معسكرات الاعتقال، والملايين الإضافية التي رفضت أن تصدّق وجود معسكرات الاعتقال.

في الحقيقة، هناك فكرة غريبة غير مريحة عن السبب الذي يجعل امرأة قادرة بسهولة على فقدان حسها بالذات كربّة منزل في مشاهدات نفسية معينة حول سلوك السجناء في معسكرات الاعتقال النازية. ففي تلك الأوضاع المبتكرة قصدًا من أجل تجريد الإنسان من إنسانيته، يصبح السجناء، بالمعنى الحرفي للكلمة، «جثثًا تسير». تخلّى أولئك الذين «تكيّفوا» مع ظروف المعسكرات عن هويتهم الإنسانية، ومضوا بلامبالاة تقريبًا إلى موتهم. من الغريب، أن الظروف التي دمّرت الهوية الإنسانية للكثير من السجناء ليست التعذيب والوحشية، بل ظروف شبيهة بتلك التي تدمّر هوية ربة المنزل الأمريكية.

كان السجناء في معسكرات الاعتقال مُجبرين على تبنّي سلوك طفولي، على التخلّي عن فرديتهم والاندماج في كتلة غير متبلورة. دُمّرت، منهجيًا، قدرتهم على تقرير المصير وعلى التنبؤ بالمستقبل والاستعداد له. كانت عملية تدريجية، حدثت في مراحل دقيقة عمليًا، ولكن في النهاية، مع تدمير الاحترام الذاتي لدى البالغين وإطارهم المرجعي اكتملت عملية التجريد من الإنسانية. كانت هذه هي العملية كما لاحظها برونو بيتلهايم (Bruno Bettelheim)، وهو محلّل نفسي وعالم نفس تربوي، عندما كان سجينًا في داكاو (Dachau) وبوخنفالد (Buchenwald)[1] في عام 1939 [2].

عندما دخل السجناء معسكر الاعتقال، انفصلوا تقريبًا بطريقة صادمة عن اهتماماتهم الراشدة الماضية. وكان هذا، بحد ذاته، ضربة قوية لهويتهم

---

(1) معسكرا اعتقال شهيران في ألمانيا النازية - المترجم.

(2) Bruno Bettelheim, *The Informed Heart-Autonomy in a Mass Age*, Glencoe, Ill., 1960.

فوق كل احتجازهم الجسدي. تمكنت قلّة منهم، قلة فقط، من العمل سرًا بطريقة كانت محطّ اهتمامهم في الماضي. لكن كان من الصعب القيام بذلك وحدهم؛ فقد كان حتى الحديث عن تلك الاهتمامات الراشدة الأكبر، أو إظهار شيء من المبادرة في السعي وراءها، يثير عدائية السجناء الآخرين. كان السجناء الجدد يحاولون أن يبقوا اهتماماتهم القديمة حيّة، لكنّ «السجناء القدامى بدوا مهتمين أساسًا بمشكلة كيف يعيشون بأحسن ما يمكن في المعسكر».

كان معسكر الاعتقال بالنسبة للسجناء القدامى هو الحقيقة الوحيدة[1]. لقد اختُصِر وجودهم إلى انشغال طفولي بالطعام وطرح الفضلات وإشباع الحاجات المادية البدائية؛ لم تكن لديهم أية خصوصية ولا أي حافز من العالم الخارجي. ولكن، فوق ذلك كله، كانوا مجبرين على قضاء أيامهم في عملٍ يسبب لهم إرهاقًا شديدًا؛ لا لأنه قاتل جسديًا، بل لأنه رتيب لا نهاية له ولا يتطلب أي تركيز عقلي ولا يمنح أي أمل بالتقدم أو التقدير، وكان أحيانًا بلا معنى وتتحكم به حاجات الآخرين أو سرعة الآلات. لم يكن عملًا ينبثق من شخصية السجين؛ لم يكن يسمح بالمبادرة الحقيقية ولا بالتعبير عن الذات ولا حتى بتحديد حقيقي للوقت.

وكلما كان السجناء يتخلّون أكثر عن هويتهم الإنسانية الراشدة، كانوا يزدادون انشغالًا بالخوف من فقدان قدرتهم الجنسية، ويصبحون أكثر انشغالًا بالحاجات الحيوانية الأكثر بساطة. جلب لهم الراحة في البداية أن يتخلّوا عن فرديتهم، وأن يفقدوا أنفسهم في الكتلة مغفلة الأسماء؛ أن يشعروا أنّ «الجميع كانوا في المركب ذاته». لكنّ الغريب أنه لم تنمُ صداقات حقيقية في ظلّ هذه الظروف[2]. وحتى المحادثة، التي كانت تسلية السجين المفضلة، وكان لها دور كبير في جعل الحياة محتملة، توقفت بسرعة عن

(1) Ibid., pp. 162-169.
(2) Ibid., p. 231.

أن يكون لها أي معنى حقيقي[1]. وهكذا تصاعد الغضب فيهم. لكنّ غضب الملايين، الذي كان يستطيع أن يسقط سياجات الأسلاك الشائكة وبنادق قوات الشرطة النازية، تحوّل، بدلًا من ذلك، ضد أنفسهم، بل وضد السجناء الأضعف منهم. ثمّ شعروا أنهم أضعف حتى مما هم عليه في الواقع، ورأوا قوات الشرطة والسياجات أكثر حصانة مما كانت عليه فعلًا.

وقيل، أخيرًا إنّ السجناء أصبحوا أسوأ عدو لأنفسهم، وليس قوات الشرطة. لأنهم لم يتمكنوا من تحمّل رؤية وضعهم كما كان فعلًا؛ لأنهم أنكروا حقيقة مشكلتهم ذاتها، وفي النهاية «تكيّفوا» مع المعسكر نفسه كما لو كان الحقيقة الوحيدة؛ لقد احتجزوا في سجنٍ من صنع عقولهم. لم تكن بنادق الشرطة قوية بما يكفي لإبقاء كل أولئك السجناء خاضعين. لقد تمّ التلاعب بهم ليبقوا أنفسهم في الفخ؛ حبسوا أنفسهم بجعل معسكر الاعتقال العالم كله، بإغلاق أعينهم عن عالم الماضي الأوسع وعن مسؤوليتهم تجاه الحاضر وعن إمكانياتهم من أجل المستقبل. هؤلاء الذين نجوا، الذين لم يموتوا ولم يفنوا، هم أولئك الذين حافظوا بدرجة جوهرية ما على القيم والاهتمامات الراشدة التي كانت جوهر هويتهم في الماضي.

يبدو كل ذلك بعيدًا جدًا عن الحياة السهلة لربة المنزل الأمريكية ساكنة الضواحي. ولكن أليس بيتها في الحقيقة معسكر اعتقال مريح؟ ألم تحبس النساء اللواتي يعشن في صورة اللغز الأنثوي أنفسهن ضمن الجدران الضيقة لبيوتهن؟ لقد تعلّمن أن «يتكيّفن» مع دورهن البيولوجي. لقد أصبحن اتكاليات وسلبيات وطفوليات؛ لقد تخلّين عن إطارهن المرجعي الراشد ليعشن عند المستوى الإنساني الأدنى القائم على الطعام والأشياء. لا يتطلب العمل الذي يقمن به قدرات راشدة؛ إنه عمل رتيب لا ينتهي وغير مُرضٍ. لا تجري بالطبع تهيئة النساء الأمريكيات للإبادة الجماعية، لكنهن يعانين من موت بطيء للعقل والروح. وتمامًا مثل السجناء في معسكرات

(1) Ibid., pp. 233 ff.

الاعتقال، هناك نساء أمريكيات قاومن ذلك الموت، وأفلحن في المحافظة على جوهر ذاتي، ولم يفقدن التماسّ مع العالم الخارجي، ويستخدمن قدراتهن لغايات إبداعية ما. إنهن نساء ذوات روح وذكاء، وقد رفضن أن «يتأقلمن» مع دور ربة المنزل.

قيل مرارًا وتكرارًا إن التعليم قد أبعد النساء الأمريكيات عن «التأقلم» مع دورهن ذاك. لكن إذا كان التعليم -الذي يخدم النمو الإنساني، والذي يركّز ما اكتشفه العقل الإنساني وأبدعه في الماضي، ويعطي الإنسان القدرة على خلق مستقبله- قد جعل المزيد والمزيد من النساء الأمريكيات يشعرن أنهن مقيدات ومحبطات ومذنبات كربّات منازل، فبالتأكيد تجب رؤية ذلك على أنه علامة واضحة على أن النساء قد تجاوزن دور ربة المنزل.

من غير الممكن أن يحافظ المرء على هويته عن طريق التكيّف ولأية فترة من الزمن مع إطار مرجعي هو في حد ذاته مدمّر للهوية. إنه لمن الصعب جدًا على الإنسان أن يحتمل مثل ذلك الانقسام «الداخلي» المتوافق ظاهريًا مع واقع واحد، فيما هو يحاول أن يحافظ داخليًا على القيم التي ينكرها. معسكر الاعتقال الذي مشت إليه النساء الأمريكيات، أو أُقنعن به، هو بالضبط حقيقة من ذلك القبيل، إطار مرجعي ينكر على المرأة الهوية الإنسانية الراشدة. ومن خلال التكيّف معه تقزّم المرأة ذكاءها ليصبح طفوليًا، وتبتعد عن الهوية الفردية لتصبح روبوتًا بيولوجيًا بلا اسم ضمن حشد سهل الانقياد. تصبح أقل من إنسان، تقع فريسة الضغوط الخارجية، وهي بدورها توقع زوجها وأبناءها فريسة لها. وكلما طال انقيادها، قلّ شعورها بأنها موجودة فعلًا. تبحث عن أمنها في الأشياء، وتخفي الخوف من فقدان قدرتها الإنسانية باختبار قدرتها الجنسية، وتعيش حياة بديلية (vicarious) من خلال أحلام اليقظة العامة أو من خلال زوجها وأولادها. لا تريد أن يذكّرها أحد بالعالم الخارجي؛ تصبح مقتنعة أن ليس هناك ما تستطيع فعله بخصوص حياتها أو العالم الذي من شأنه أن يحدث فرقًا. ولكن بغض النظر عن عدد المرات

التي تحاول فيها أن تقول لنفسها إنّ هذا التخلّي عن الهوية الشخصية هو تضحية ضرورية لأولادها وزوجها، فإن ذلك لا يخدم أية غاية حقيقية. وبالتالي تصبح الطاقة الهجومية، التي يجب أن تستخدمها في العالم بدلًا من ذلك، الغضبَ الرهيبَ الذي لا تجرؤ على تحويله ضد زوجها وتشعر بالخجل من تحويله ضد أطفالها، وفي النهاية تحوّله ضد نفسها، حتى تشعر وكأنها لا توجد. ومع ذلك، في معسكر الاعتقال المريح كما في المعسكر الحقيقي، هناك شيء قوي جدًا في المرأة يقاوم موت ذاتها.

يتحدث بيتلهايم، واصفًا تجربة لا تنسى في معسكر الاعتقال، عن مجموعة من السجناء العراة -الذين لم يعودوا بشرًا، بل مجرّد روبوتات سهلة الانقياد- الذين جرى صفهم في رتل لدخول غرفة الغاز. أمر الضابط الآمر في الشرطة النازية إحدى السجينات، بناء على معرفته أنها كانت راقصة فيما مضى، أن ترقص له. ففعلت، وفيما هي ترقص، اقتربت منه وانتزعت مسدسه وأطلقت النار عليه. أرديت قتيلة على الفور، لكن بيتلهايم يُدفع إلى السؤال:

> أليس محتملًا أن يكون الرقص، على الرغم من الوضع الغريب الذي رقصت فيه، قد جعلها مرةً أخرى شخصًا. فمن خلال رقصها جرى تمييزها كفرد، وطُلب منها أن تؤدي ما كان يومًا مهنتها المختارة. لم تعد مجرّد رقم، سجينة مجردة من الشخصية لا اسم لها، بل الراقصة التي كانتها يومًا. لكنها في تحوّلها للحظةٍ استجابت، كما كانت ذاتها القديمة تستجيب، مدمّرة العدو المصمّم على تدميرها حتى إذا كان عليها الموت نتيجة لذلك.

على الرغم من مئات الآلاف من الأشخاص الموتى وهم على قيد الحياة، الذين كانوا يسيرون بهدوء إلى قبورهم، فإن هذا المثال الواحد يبيّن أنه يمكن في ثانيةٍ استعادة الشخصية القديمة، وإبطال تدميرها، عندما نقرّر بذاتنا أننا نرغب في أن نتوقف عن أن نكون وحدات في النظام. وهذه الراقصة، ممارسةً حريتها الضائعة التي لم يفلح حتى معسكر الاعتقال في سلبها -لتقرر كيف يمكن أن يرغب المرء في أن يفكّر ويشعر بخصوص ظروف حياته- تحررت من

سجنها الحقيقي. وقد تمكنت من القيام بذلك لأنها كانت مستعدة للمخاطرة بحياتها لتحقيق الاستقلالية مرة أخرى[1].

ليس بيت الضواحي معسكر اعتقال ألماني، ولا ربات المنازل الأمريكيات في طريقهن إلى غرفة الغاز. لكنهن عالقات في فخ، وحتى يتخلصن منه يجب عليهن، مثل الراقصة، أن يمارسن في النهاية حريتهن الإنسانية، وأن يستعدن إحساسهن بالذات. يجب أن يرفضن أن يكنّ بلا اسم ومجردات من الشخصية ومتلاعب بهن، وأن يعشن حيواتهن الخاصة مرة أخرى وفق الغاية التي يخترنها ذاتيًا. يجب أن يبدأن بالنمو.



(1) Ibid., p. 265.

الفصل الثالث عشر

الذات المُصادرة

تزايد اهتمام علماء السلوك الإنساني بالحاجة الإنسانية الأساسية إلى النمو، وبإرادة الإنسان في أن يكون كل ما هو مؤهل له. افترض مفكرون في مجالات عديدة -من بيرجسون إلى كورت جولدشتاين وهاينز هارتمان وأولبورت وروجرز ويونغ وأدلر ورانك وهورني وأنجيال وفروم وماي وماسلو وبيتلهايم ورايسمان وتيليش والوجوديين- جميعًا وجود نزعة إيجابية معينة نحو النمو ضمن العضوية، تقودها من الداخل نحو تطوّر أكثر امتلاءًا ونحو تحقّق الذات. لا تتضمن هذه «الرغبة في السلطة» أو «توكيد الذات» أو «الهيمنة» أو «الاستقلالية»، حسب التسميات المتنوّعة التي أطلقت عليها، عدوانًا أو صراعًا تنافسيًا بالمعنى العادي؛ إنها الفرد مؤكّدًا وجوده وإمكانياته كوجود متمتع بحقه الشخصي؛ إنها «الشجاعة في أن تكون فردًا»[1]. أكثر من ذلك، لقد قدّم العديد من هؤلاء المفكرين مفهومًا جديدًا للإنسان السليم نفسيًا، وللحالة السوية وعلم الأمراض. تعتبر

(1) Rollo May, "The Origins and Significance of the Existential Movement in Psychology," in *Existence, A New Dimension in Psychiatry and Psychology*, Rollo May, Ernest Angel and Henri F. Ellenberger, eds., New York, 1958, pp. 30 f. (See also: Erich Fromm, *Escape from Freedom*, pp. 269 ff.; A. H. Maslow, *Motivation and Personality*, New York, 1954; David Riesman, *The Lonely Crowd*).

الحالة السوية «أعلى تفوق يستطيع الإنسان الوصول إليه». والفرضية هي أنّ الإنسان لا يكون سعيدًا وراضيًا ذاتيًا وسليمًا وخاليًا من الإحساس بالذنب إلّا عندما يحقق نفسه ويصبح ما يستطيع أن يكونه.

في هذا التفكير النفسي الجديد، الذي يبحث عن فهم ما يجعل الناس إنسانيين، ويعرّف العُصاب على أنه ذاك الذي يدمّر قدرة الإنسان على تحقيق وجوده الخاص، يصبح الزمن المهم هو المستقبل. لا يكفي المرء أن يكون محبوبًا ومقبولًا من قبل الآخرين، أن يكون «متكيفًا» مع ثقافته، بل يجب عليه أن يأخذ وجوده على محمل الجد بما يكفي للقيام بالتزام بالحياة وبالمستقبل؛ إنه يجرّد من وجوده من خلال الفشل في تحقيق وجوده كاملًا.

لقد حاول الأطباء النفسيون على مدى سنوات «علاج» صراعات مرضاهم عن طريق تكييفهم مع الثقافة. لكنّ التكيّف مع ثقافة لا تسمح للمرء بتحقيق وجوده الكامل ليس علاجًا إطلاقًا، وفقًا للمفكرين النفسيين الجدد.

> يقبل المريض عالمًا ضيقًا دون صراع، لأن عالمه الآن متماثل مع الثقافة. وبما أن القلق لا يأتي إلّا مع الحرية، فإنّ المريض يتغلب بشكل طبيعي على قلقه: يتحرّر من أعراضه لأنه يتخلى عن الإمكانيات التي سببت قلقه. ... هناك بالتأكيد مسألة إلى أي مدى يستطيع هذا التحرّر من الصراع، عن طريق التخلّي عن الوجود، أن ينجح دون أن يولّد في الأفراد وفي المجموعات يأسًا مغمورًا، استياءً سينفجر فيما بعد في تدميرية ذاتية، فالتاريخ يعلن المرّة تلو المرّة أنّ حاجة الإنسان إلى الحرية ستندلع عاجلًا أم آجلا[1].

قد لا يعرف هؤلاء المفكرون مدى الدقة التي يصفون بها نوع التكيّف الذي فرض على ربات المنازل الأمريكيات. ولكنّ ما يصفونه بتدمير ذاتي لدى الرجل ليس، كما أعتقد، أقل تدميرًا لدى النساء اللواتي يتكيّفن مع اللغز

(1) Rollo May, "Contributions of Existential Psychotherapy," in *Existence, A New Dimension in Psychiatry and Psychology*, p.87.

الأنثوي، اللواتي يتوقّعن أن يعشن من خلال أزواجهن وأبنائهن، اللواتي لا يردن سوى أن يكنّ محبوبات وآمنات، وأن يكنّ مقبولات من الآخرين، اللواتي لا يقمن بأيّ التزام خاص بهن نحو المجتمع أو نحو المستقبل، اللواتي لا يحقّقن قطّ إمكانيتهن الإنسانية. لقد جُرِدت أولئك النساء المتكيّفات، أو المُعَالَجَات، اللواتي يعشن بلا نزاع أو قلق في عالم البيت الضيّق، من وجودهن؛ أمّا الأخريات، المحبطات البائسات فمازال لديهن أمل. لأنّ المشكلة التي لا اسم لها، التي تعاني منها نساء أمريكيات كثيرات اليوم، هي نتيجة التكيف مع صورة لا تسمح لهن بأن يكنّ ما يستطعن أن يكنّه الآن. إنه اليأس المتزايد بين النساء اللواتي جُرّدن من وجودهن، على الرغم من أنهنّ، عبر القيام بذلك، قد يكنّ أيضًا تهرّبن من ذلك الشعور بالخوف والوحدة الذي يأتي دائمًا مع الحرية.

> يحدث القلق عند النقطة التي تواجه فيها إمكانيةٌ ناشئةٌ الفرد، إمكانية لتحقيق وجوده؛ ولكنّ هذه الإمكانية ذاتها تتضمن تدمير الأمان الحالي الذي يعطي، بناءً على ذلك، دفعة للنزعة إلى إنكار الإمكانية الجديدة[1].

ليس من شأن التفكير الجديد، الذي ليس محصورًا، بأي شكل من الأشكال، بالوجوديين، أن يزيل بالتحليل النفسي شعور شخص بالذنب نتيجة رفضه أن يقبل الإمكانيات الفكرية والروحية لوجوده. ليست المشاعر الإنسانية بالذنب جميعها بلا أساس؛ إذ لا يفترض بالتحليل النفسي أن يزيل الشعور بالذنب نتيجة قتل شخص آخر، والأمر نفسه ينطبق على الشعور بالذنب نتيجة قتل المرء نفسه. وكما قيل عن أحد الرجل: «كان المريض مذنبًا لأنه حبس في داخله بعض الإمكانيات الجوهرية»[2].

لم يُدرس فشل النساء في تحقيق كامل إمكانيات وجودهن على أنه مرض. فهو يعتبر تكيّفًا أنثويًا طبيعيًا في أمريكا وفي معظم البلدان في

(1) Ibid., p. 52.
(2) Ibid., p. 53.

العالم. ولكن يستطيع المرء أن يطبّق على ملايين النساء المتكيّفات في دور ربة المنزل أفكار أطباء الأمراض العصبية والأطباء النفسيين الذين درسوا مرضى ذكورًا ذهبت أجزاء من أدمغتهم وأشخاصًا فصاميين جُرّدوا، لأسباب أخرى، من قدرتهم على الارتباط بالعالم الحقيقي. يُنظر إلى هؤلاء الأشخاص الآن على أنهم قد فقدوا العلامة الفريدة على الوجود الإنساني: القدرة على السمو فوق الحاضر والتصرّف على ضوء الممكن، القدرة الغامضة على تشكيل المستقبل[1].

إنها بالضبط هذه القدرة الإنسانية الفريدة على أن يسمو المرء فوق الحاضر، على أن يعيش حياته استنادًا إلى غايات تمتدّ إلى المستقبل -أن يعيش لا تحت رحمة العالم، بل بوصفه بنّاء ذلك العالم ومصممه- وذلك هو التمييز بين السلوك الحيواني والإنساني، أو بين الإنسان والآلة. وجد الدكتور كورت جولدشتاين، في دراسته للجنود الذين أصيبوا بأذيّات دماغية دائمة، أنّ ما فقدوه لم يكن أكثر ولا أقل من القدرة على التفكير الإنساني المجرّد: أن تفكّر على أساس «الممكن»، أن تنظّم فوضى التفاصيل المادية بفكرة، أن تتحرك وفق غاية. كان أولئك الرجال مقيّدين إلى الوضع المباشر الذي وجدوا أنفسهم فيه؛ كان إحساسهم بالزمن والفراغ مبتورًا على نحو عنيف؛ لقد فقدوا حريتهم الإنسانية[2].

إنّ تشابه الأيام يقلّص عالم الفصامي المكتئب، الذي «كان كل يوم بالنسبة له جزيرة معزولة بلا ماض ولا مستقبل». عندما يكون لدى مريض من هذا القبيل وهمٌ مرعبٌ بأن إعدامه وشيك، فذلك «نتيجة موقفه المشوّه تجاه المستقبل، وليس سببه».

(1) Ibid., pp. 59 f.

(2) See Kurt Goldstein, *The Organism, A Holistic Approach to Biology Derived From Pathological Data on Man*, New York and Cincinnati, 1939; also *Abstract and Concrete Behavior*, Evanston, Ill., 1950; *Case of Idiot Savant* (with Martin Scheerer), Evanston, 1945; *Human Nature in the Light of Psychopathology*, Cambridge, 1947; *After-Effects of Brain Injuries in War*, New York, 1942.

لم يكن هناك أيّ فعل -أو رغبة-، يمتدّ إلى المستقبل منبعثًا من الحاضر ورابطًا بين الأيام المتشابهة الباهتة. وفي النتيجة، حافظ كل يوم على استقلالية غير عادية؛ كان كل يوم من أيام الحياة -وقد فشل في أن ينغمس في إدراك أي استمرارية للحياة- يبدأ من جديد، مثل جزيرة معزولة في بحر رمادي لزمن عابر. ... لم يبدُ أنّ هناك أيّة رغبة في المضي أبعد من ذلك؛ كان كلّ يوم رتابةً مثيرةً للغضب بنفس الكلمات وبنفس الشكاوى، إلى أن يشعر المرء أنّ هذا الوجود قد فقد كل معنى للاستمرارية الضرورية.... لم يعش انتباهه إلّا فترة قصيرة، وبدا هو عاجزًا عن المضي إلى ما هو أبعد من أكثر الأسئلة ابتذالا[1].

يكشف العمل التجريبي الذي يقوم به علماء نفس مختلفون أنّ الأغنام يمكن أن تربط الماضي والمستقبل بالحاضر مدة خمس عشرة دقيقة تقريبًا، وأنّ الكلاب يمكنها فعل ذلك مدة نصف ساعة. أمّا الإنسان فيستطيع أن يحضر ماضي آلاف السنين إلى الحاضر كموجّه لأفعاله الشخصية، ويستطيع أن ينتقل بخياله إلى المستقبل، لا نصف ساعة فقط، بل أسابيع وسنوات. هذه القدرة على «التسامي فوق حدود الزمن المباشرة»، وعلى الفعل وردة الفعل، وعلى رؤية تجربة المرء في أبعاد الماضي والمستقبل معًا، هي خاصية فريدة من خصائص الوجود الإنساني[2]. وهكذا، فقد حُكم على الجنود الذين تأذّت أدمغتهم بالجحيم اللاإنساني «للرتابة اليومية» الأبدية.

ربات المنازل اللواتي يعانين من رعب المشكلة التي لا اسم لها هنّ ضحايا هذه «الرتابة اليومية» القاتلة ذاتها. وكما قالت لي واحدةٌ منهن: «أستطيع فهم المشكلة الحقيقية؛ الأيام المملّة التي لا تنتهي هي ما تجعلني يائسة». ليس لدى ربات المنازل اللواتي يعشن وفق اللغز الأنثوي هدف

(1) Eugene Minkowski, “Findings in a Case of Schizophrenic Depression,” in *Existence, A New Dimension in Psychiatry and Psychology*, pp. 132 f.

(2) O. Hobart Mowrer, “Time as a Determinant in Integrative Learning,” in *Learning Theory and Personality Dynamics*, New York, 1950.

شخصي يمتدّ إلى المستقبل. ولكن، بغير هدف من ذلك القبيل، يحرّض قدراتهن الكامنة، لا يستطعن النمو نحو تحقيق الذات. بدون هدف من ذلك القبيل، يفقدن الحسّ بحقيقتهن، لأنّ الهدف هو ما يعطي الحياة اليومية طابعها الإنساني[1].

لم تفقد ربات المنازل الأمريكيات أدمغتهن، ولا هنّ فصاميات بالمعنى السريري. ولكن، إذا كان هذا التفكير الجديد صحيحًا، والدافع الإنساني الأساسي ليس السعي نحو المتعة أو إشباع الحاجات البيولوجية، بل الحاجة إلى النمو وتحقيق المرء إمكانياته كاملة، فإن أيامهن المريحة الفارغة الخالية من الهدف هي -في الواقع- سببٌ لرعب لا اسم له. لقد تهرّبن، باسم الأنوثة، من الخيارات التي كان من شأنها أن تمنحهن هدفًا شخصيًا.. حسًّا بوجودهن. لأنّ قيم الحياة الإنسانية، كما يقول الوجوديون، لا تتحقق من تلقاء نفسها أبدًا. «يمكن للإنسان أن يخسر وجوده نتيجة خياراته الشخصية على نحو لا تستطيعه الشجرة أو الحجر»[2].

إنّ القول بأن المرأة، إذا ما حُرمت من تحقيق طبيعتها الحقيقية، مريضة،

---

(1) Eugene Minkowski, *op. cit.*, pp. 133-138:

«إننا نفكّر ونتصرّف ونرغب فيما وراء ذلك الموت، ومع ذلك، لم نتمكن من النجاة. يشير وجود الظاهر ذاته، كالرغبة في القيام بشيء للأجيال المقبلة، بوضوح إلى موقفنا في هذا المجال. لدى مريضنا، كان هذا الدافع نحو المستقبل هو ما بدا أنه غائب تمامًا. ... في هذا الدافع الشخصي، هناك عنصر توسّع؛ إننا نتجاوز حدود ذاتنا ونترك بصمتنا الخاصة على العالم حولنا، خالقين أعمالًا تفصل نفسها عنا لتعيش حيواتها الخاصة. ويصاحب ذلك شعور إيجابي معين، ندعوه 'القناعة' وهي المتعة التي ترافق كل عمل مكتمل أو قرار حاسم. وهذا شعور فريد. ... يتألف تطورنا الفردي الكامل في محاولة التفوق على ما أنجز أصلًا. عندما تظلم حياتنا العقلية، فإن المستقبل أمامنا يغلق...»

(2) Rollo May, "Contributions of Existential Psychotherapy," pp. 31 f.

في فلسفة نيتشه، تتحدد الفردية والكرامة الإنسانيتان «كمهمة تُعطى لنا، ويتوجب علينا حلها». وفي فلسفة تيليتش، إذا لم يكن لدى المرء «الشجاعة على الفعل»، خسر وجوده. أما عند سارتر، فإن خيارات المرء هي التي تقرر هويته.

هو بالتأكيد صحيح بالنسبة لإمكانية المرأة الإنسانية الكاملة، بالدرجة نفسها لما كان منظّرون نفسيون سابقون يعتبرونه صحيحًا فقط بخصوص إمكانيتها الجنسية. يمكن لإحباط قدرات فردية، وليس حاجات كالجنس مثلًا، أن يسبّب العصاب. يمكن تخفيف قلقها بالعلاج، أو تسكينه بالحبوب، أو تفاديه مؤقتًا بالعمل الدؤوب. لكنّ قلقها ويأسها هو، رغم ذلك، إنذار على أنّ وجودها الإنساني في خطر، على الرغم من أنها قد وجدت التحقق، وفق معتقدات اللغز الأنثوي، زوجةً وأمًا.

لم نتوصّل، إلّا مؤخرًا، إلى قبول الحقيقة القائلة إنّ هناك تدرّجًا تطوريًا أو هرميًا لحاجات الإنسان (وبالتالي المرأة)، تتدرّج من الحاجات، التي نسميها عادة الغرائز لأنها مشتركة مع الحيوانات، إلى الحاجات التي تأتي لاحقًا في التطور الإنساني. هذه الحاجات اللاحقة -الحاجات إلى المعرفة وإلى تحقيق الذات- غريزيةٌ، بالمعنى الإنساني، مثل الحاجات المشتركة مع الحيوانات الأخرى إلى الطعام والجنس والبقاء. يبدو أن الظهور الواضح للحاجات اللاحقة يستند إلى الإشباع السابق للحاجات الفزيولوجية. ليس لدى الإنسان الجائع إلى درجة الخطر أي اهتمام غير الطعام. أمّا القدرات غير المفيدة في إشباع الجوع فتدفع إلى المؤخرة. «ولكن ما الذي يحدث لرغبات الإنسان عندما تكون هناك وفرة من الطعام وبطنه ممتلئ دائمًا؟ تظهر فورًا حاجات أخرى (وأعلى)، وهذه الحاجات تهيمن على العضوية بدلًا من الجوع الفزيولوجي»[1].

وبمعنى ما، تبتعد تراتبية الحاجات التطورية هذه أكثر فأكثر عن المستوى الفزيولوجي، الذي يعتمد على البيئة المادية، وتتجه نحو مستوى مستقل نسبيًا عن البيئة، ويتحدّد ذاتيًا أكثر فأكثر. ولكن، يمكن لإنسانٍ ما أن يتثبت عند مستوى حاجات أدنى؛ ويمكن الخلط خطأً بين الحاجات الأعلى، أو توجيهها إلى سبلٍ قديمة، وقد لا تظهر قط. يمكن

(1) A. H. Maslow, *Motivation and Personality*, p. 83.

تجميد التقدم الذي يقود في النهاية إلى أعلى مستوى إنساني بسهولة؛ تجميده بالحرمان من حاجة أدنى، كالحاجة إلى الطعام أو الجنس؛ و تجميده أيضًا بتوجيه كل الوجود إلى مستوى أدنى من الحاجات أو رفض الاعتراف بوجود حاجات أعلى.

لقد جُمّد تطوّر النساء في حضارتنا عند المستوى الفزيولوجي، ولم يتم الاعتراف، في حالات كثيرة، بأية حاجة أعلى من الحاجة إلى الحب أو الإشباع الجنسي. حتى الحاجة إلى احترام الذات وتقدير الذات وتقدير الآخرين -«الرغبة في القوة وفي الإنجاز وفي الكفاية وفي التفوّق والكفاءة وفي الثقة بمواجهة العالم وفي الاستقلالية والحرية»- ليس معترفًا بها بوضوح للنساء. ولكن بالتأكيد، يمكن لخذلان الحاجة إلى تقدير الذات، الذي يُنتِج مشاعر الدونية والضعف والعجز لدى الرجل، أن يكون له التأثير ذاته على المرأة. لا يمكن لتقدير الذات عند المرأة، كما عند الرجل، أن يقوم إلّا على القدرة الحقيقية والكفاءة والإنجاز؛ على احترام مستحق من قبل الآخرين، بدلًا من تزلّف غير مبرر. وعلى الرغم من التمجيد الذي يسبغ على «المهنة: ربة منزل»، فإنّ تلك المهنة لا تتطلب تحقيق المرأة لكامل قدراتها أو تسمح بها، لا يمكنها أن تؤمّن تقديرًا ذاتيًا كافيًا، وأقل من ذلك بكثير أن تمهّد الطريق إلى مستوى أعلى من تحقيق الذات.

إننا نمرّ بزمن اختزلت فيه الكثير من الحاجات الإنسانية العَليا إلى حلول رمزية للحاجة الجنسية، أو ينظر إليها على أنها كذلك. يشكّك عدد من المفكرين المتقدمين الآن جديًا بتلك «التفسيرات بالاختزال». ففي حين يمكن العثور على كل نوع من الرمزية الجنسية والمرض العاطفي من قبل أولئك الذين يستكشفون، وهذا هدفهم، الأعمال والحياة المبكرة لأشخاص من مثل شكسبير أو دافنشي أو لنكولن أو أينشتاين أو فرويد أو تولستوي، فإن هذه «الاختزالات» لا تفسّر العمل الذي يعيش بعد

الإنسان، الإبداع الفريد الذي كان إبداعه هو، وليس إبداع إنسان يعاني من مرض شبيه. لكنّ رؤية الرمز الجنسي أسهل من رؤية الجنس نفسه كرمز. إذا كانت حاجات المرأة إلى الهوية وإلى التقدير الذاتي وإلى الإنجاز وأخيرًا إلى التعبير عن شخصيتها الفردية الإنسانية الفريدة غير معترف بها من قبلها هي، أو من قبل آخرين في حضارتنا، فإنها مجبرة على البحث عن الهوية والتقدير الذاتي في القنوات الوحيدة المفتوحة لها: السعي إلى التحقق الجنسي والأمومة وملكية الأشياء المادية. وعندما تقيّد إلى هذه المساعي، يعّوق نموها الطبيعي عند مستوى أدنى من العيش، وتمنع من تحقيق حاجاتها الإنسانية الأعلى.

بالطبع، قليلٌ هو المعروف حول المرض أو آليات هذه الحاجات الإنسانية العليا -الرغبة في المعرفة والفهم والبحث عن المعرفة والحقيقة والحكمة والدافع لحلّ الألغاز الكونية- لأنّها ليست مهمة في العيادة في التقليد الطبي لشفاء المرض. سيكون هذا النوع من علم الأمراض النفسية، بالمقارنة مع أعراض العُصابات الكلاسيكية، من مثل تلك التي رأى فرويد أنها تنبعث من كبت الحاجة الجنسية، باهتًا وحاذقًا، ويمكن إهماله بسهولة، أو تعريفه على أنه عادي.

ولكنها حقيقةٌ، يثبتها التاريخ، إن لم تكن مثبتة في العيادة أو المخبر، تلك التي تقول إن الإنسان قد بحث دائمًا عن المعرفة والحقيقة، حتى في مواجهة أعظم الأخطار. أكثر من ذلك، لقد أظهرت دراسات حديثة عن الأشخاص الأصحاء نفسيًا أنّ البحث في المسائل الكبيرة والانشغال بها، هو أحد الخصائص المحدّدة للصحة الإنسانية. هناك شيء أقلّ من إنساني تمامًا لدى أولئك الذين لم يعرفوا قط التزامًا بفكرة ما، الذين لم يخاطروا قط باستكشاف المجهول، الذين لم يحاولوا قط ذلك النوع من الإبداع الذي يعتبر الرجال والنساء قادرين عليه من حيث الممكن. وكما عبّر أ. هـ. ماسلو عن الأمر:

تصرخ القدرات مطالبة باستخدامها، ولا يتوقف صراخها إلّا عندما تستخدم جيدًا. وهذا يعني أنّ القدرات هي أيضًا حاجات. ليس استخدام قدراتنا تسلية وحسب، بل ضرورة أيضًا. يمكن أن تصبح القدرة غير المستخدمة، أو العضو غير المستخدم مركزًا للمرض، وإلّا فإنه يضمر، وبالتالي يقلّص الشخص[1].

ولكنّ النساء في أمريكا لا يُشجَّعن على استخدام طاقاتهن الكاملة، ولا يُتوقّع ذلك منهن. بل يشجعن، باسم الأنوثة، على التهرّب من النمو الإنساني.

ليس للنمو جوائز ومتعة فقط، بل وأوجاع حقيقية عديدة أيضًا، وسيكون له ذلك دائمًا. كلّ خطوة نحو الأمام هي خطوة نحو اللامألوف، ويُفكَّر فيها على أنها قد تكون خطرة. وهي كثيرًا ما تعني التخلّي عن شيء مألوف وجيد ومُرض. وكثيرًا ما تعني رحيلًا وانفصالًا مع ما يعقبه من حنين ووحدة وتفجّع. وهي أيضًا غالبًا ما تعني التخلّي عن حياة أبسط وأسهل وأقل جهدًا مقابل حياة أصعب وأكثر تطلبًا. النمو يمضي على الرغم من هذه الخسارات، وهو لذلك يتطلب الشجاعة والقوة في الفرد وكذلك الحماية والإذن والتشجيع من المحيط ولاسيما للطفل[2].

ماذا يحدث إذا كان المحيط لا يحبّذ تلك الشجاعة والقوة؛ وأحيانًا يمنعهما عمليًا، وقلّما يشجّع فعليًا ذلك النمو في الطفل الذي تصادف أنه أنثى؟ ماذا يحدث إذا اعتبر النمو الإنساني معاديًا للأنوثة، للتحقق كامرأة، لجنسانية المرأة؟ ينطوي اللغز الأنثوي على خيار بين «أن تكوني امرأة» أو المخاطرة بآلام النمو الإنساني. لقد قامت آلاف النساء، وقد اختصرن من قبل محيطهن إلى مجرّد العيش البيولوجي، وهُدْهِدَ لهن ليدخلن في شعور زائف بأمان مجهول في معسكرات اعتقالهن المريحة، بالخيار الخطأ. والسخرية في خيارهن الخطأ هي التالية: يقدّم اللغز «التحقق الأنثوي»

(1) A. H. Maslow, "Some Basic Propositions of Holistic-Dynamic Psychology," an unpublished paper, Brandeis University.

(2) Ibid.

على أنه الجائزة التي تحصل عليها المرأة مقابل أن تكون مجرّد زوجة وأم. ولكن، ليست صدفة ألّا تكون آلاف ربات المنازل في الضواحي قد عثرن على تلك الجائزة، وستبدو الحقيقة البسيطة هي أنّ تلك النساء لن يعرفن التحقق الجنسي قط وذروة تجربة الحب الإنساني حتى يسمح لهن بالنمو حتى تحقيق كامل قوّتهن ككائنات إنسانية، ويُشجَّعن على ذلك. لأنّ تحقيق الذات، استنادًا إلى المنظّرين النفسيين، بعيدًا عن منع أعلى تحقق جنسي، مرتبط على نحو معقد به. وهناك ما هو أكثر من سببٍ نظري للاعتقاد بأنّ هذا صحيح بالنسبة للنساء مثلما هو صحيح بالنسبة للرّجال.

في أواخر الثلاثينيات بدأ البروفيسور ماسلو بدراسة العلاقة بين النشاط الجنسي وما أسماه «شعور السيطرة» أو «تقدير الذات» أو «مستوى الأنا» لدى النساء؛ 130 امرأة ذوات تعليم جامعي أو مستوى يضاهيه في الذكاء، تتراوح أعمارهن بين العشرين والثامنة والعشرين، معظمهن متزوجات، ومن الطبقة الوسطى المدينية البروتستانتية[1]. ووجد، على عكس ما قد يتوقعه المرء من منظور نظريات التحليل النفسي والصورة التقليدية للأنوثة، أنه كلما كانت المرأة أكثر «سيطرة» كانت أكثر استمتاعًا بنشاطها الجنسي، وكانت أقدر على «تسليم» نفسها بمعنى نفسي، على منح نفسها بحرية في الحب والوصول إلى النشوة الجنسية. لم تكن المسألة أنّ أولئك النساء اللواتي يحتللن مرتبة أعلى في «السيطرة» هن أكثر «رغبةً جنسية»، بل أنهن كنّ، فوق كل شيء، على حقيقتهن، على نحو أكثر اكتمالًا، أكثر حرية في أن يكنّ أنفسهن؛ وبدا ذلك مرتبطًا، على نحو معقد، بحرية أعلى في منح أنفسهن في الحب. لم تكن تلك النساء «أنثويات» بالمعنى العادي، لكنهن استمتعن

(1) A. H. Maslow, “Dominance, Personality and Social Behavior in Women,” *Journal of Social Psychology*, 1939, Vol. 10, pp. 3-39; and “Self Esteem (Dominance-Feeling) and Sexuality in Women,” *Journal of Social Psychology*, 1942, Vol. 16, pp. 259-294.

بالتحقق الجنسي إلى درجة أعلى بكثير من النساء الأنثويات بالمعنى التقليدي في نفس الدراسة.

لم أرَ قط مضامين هذا البحث تناقش في الأدبيات النفسية الشعبية حول الأنوثة أو جنسانية النساء. ربما لم يلاحظ في ذلك الوقت، حتى من قبل المنظّرين، على أنه معلم رئيسي. لكنّ نتائجه محفّزة لتفكير النساء الأمريكيات اليوم، اللواتي يعشن حيواتهن وفق أوامر اللغز الأنثوي. تذكّروا أنّ هذه الدراسة قد أجريت في أواخر الثلاثينيات قبل أن يبلغ اللغز كامل قوته. فمن الواضح أنه لم يكن لدى تلك النساء القويات الشجاعات المتعلمات تضارب بين القوة التي تدفعهن ليكنّ هنّ أنفسهن وليحببن. وهنا الطريقة التي مايز فيها البروفيسور ماسلو تلك النساء عن أخواتهن الأكثر «أنوثة»، من حيث أنفسهن ومن حيث جنسانيتهن:

> يتضمن الشعور العالي بالسيطرة ثقةً جيدةً بالذات وتوكيدًا جيدًا وتقييمًا عاليًا لها ومشاعر بالقدرة العامة أو التفوّق، ويتضمن، من جانب آخر، قلّةً في الخجل والجبن والارتباك أو الحرج. ويتضمن الشعور المنخفض بالسيطرة قلّةً في الثقة بالذات وتوكيدها وتقديرها؛ وهناك، بدلًا من ذلك، مشاعر شاملة بالدونية العامة والخاصة والخجل والجبن والخوف والارتباك.... المرأة التي تصف نفسها بأنها تفتقد تمامًا ما قد تطلق عليه «الثقة بالذات عمومًا»، ستصف نفسها بأنها واثقة بذاتها في بيتها أو في الطبخ أو الخياطة أو في أنّها أمٌّ ... ولكنها دائمًا تقريبًا تبخس إلى هذه الدرجة أو تلك قدراتها ومواهبها الخاصة؛ بينما تقيس المرأة عالية السيطرة عادةً قدراتها بدقة وواقعية[1].

لم تكن تلك النساء ذوات السيطرة العالية «أنثويات» بالمعنى التقليدي، وذلك في جزء منه لأنهن يشعرن بالحرية في الاختيار بدلًا من أن يكنّ مقيدات بالتقليد، وفي جزء آخر، لأنهن قويات كأفراد أكثر من معظم النساء.

(1) A. H. Maslow, "Dominance, Personality and Social Behavior in Women," *op. cit.*, pp. 3-11.

تفضّل تلك النساء أن يُعاملن «كأشخاص لا كنساء». يفضّلن أن يكنّ مستقلات، وأن يقفن على أقدامهن، وهنّ عمومًا لا يهتممن بالامتيازات التي تتضمّن أنهن أدنى أو ضعيفات أو أنهن يحتجن اهتمامًا خاصًا، ولا يستطعن الاهتمام بأنفسهن. وهذا لا يعني أنهن لا يستطعن التصرّف وفق الأعراف. بل يفعلن ذلك عندما يكون ضروريًا أو مرغوبًا لأي سبب، ولكنهن لا يأخذن الأعراف العادية على محمل الجد. هناك عبارة شائعة تقول: «يمكن أن أكون لطيفة وحلوة وعريشة متسلقة كأي شخص آخر، ولكنّ لساني في فمي». ... القواعد بحد ذاتها لا تعني عمومًا أي شيء لتلك النساء. إنهن لا يمتثلن للقواعد إلّا عندما يقبلن بها ويتمكنّ من رؤية الهدف من ورائها.... إنهن قويات وهادفات ويمشن وفق القواعد، لكنّ تلك القواعد مستقلة ويتوصلن إليها شخصيًا. ...

أما النساء ذوات السيطرة المنخفضة فهن مختلفات جدًا. فهن عادةً لا يتجرأن على كسر القواعد، حتى عندما لا يوافقن عليها (وهو أمر نادر). ... فضيلتهن وأخلاقهن عادةً تقليدية بالكامل. أي أنهنّ يفعلن ما علّمهن أهلهن ومعلموهن ودينهن القيام به. أمر السلطة عادةً لا يُشكك به علنًا، وهنّ أكثر ميلًا إلى قبول الوضع الراهن في كل مجال من مجالات الحياة، الديني منها والاقتصادي والتعليمي والسياسي[1].

وجد البروفيسور ماسلو أنه كلما زادت سيطرة امرأة أو قوة ذاتها، كانت أقل تمركزًا على الذات، واهتمامها أكثر توجهًا نحو الخارج، نحو الناس الآخرين ومشاكل العالم. ومن جانب آخر، كان الانشغال الرئيسي للنساء ذوات السيطرة المنخفضة والأكثر أنوثة، بالمعنى التقليدي للكلمة، هو أنفسهن وعقد نقصهن. من وجهة نظر نفسية، كانت امرأة ذات سيطرة عالية أشبه برجل ذي سيطرة عالية منها بامرأة ذات سيطرة منخفضة. وهكذا، اقترح البروفيسور ماسلو أن عليك أن تطلق صفة «مذكّر» على كل من الرجال والنساء ذوي السيطرة العالية، أو تسقط مصطلحي «مذكّر» و«مؤنّث» معًا لأنهما «مضللان» جدًا.

(1) Ibid., pp. 13 f.

تشعر نساؤنا ذوات السيطرة العالية بأنهن أقرب إلى الرجال منهن إلى النساء في الأذواق والمواقف والأهواء والقابليات والفلسفة والشخصية الداخلية عمومًا. ... كثيرًا ما تُشاهد لديهن العديد من الصفات التي تعتبر في ثقافتنا «رجولية»، كالقيادة وقوة الشخصية والشخصية الاجتماعية القوية والتحرّر من التوافه وانعدام الخوف أو الخجل وغير ذلك. وهنّ عادةً لا يهتممن بأن يكنّ ربات منازل أو طباخات فحسب، بل يرغبن في أن يجمعن بين الزواج والعمل. ... قد لا يتجاوز راتبهن راتب مدبّرة منزل، لكنهن يشعرن أنّ العمل الآخر أكثرُ أهميةً من الخياطة والطبخ وغيره[1].

وفوق كل ذلك، كانت المرأة ذات السيطرة العالية أكثر حريةً نفسيًا؛ أكثر استقلاليةً. أمّا المرأة ذات السيطرة المنخفضة فلم تكن حرة في أن تكون على حقيقتها، بل موجّهةً من قبل الآخرين. كلما زاد حظّها من قدر ذاتها وعدم ثقتها بذاتها، زاد احتمال شعورها بأنّ رأي الآخرين أصحّ من رأيها، وأمنيتها لو كانت مثل شخص آخر. أولئك النساء «يُعجَبن عادةً بالآخرين، ويحترمنهم أكثر مما يحترمن أنفسهن»؛ وترافق هذا «الاحترام الهائل للسلطة» وتصنيم الآخرين وتقليدهم و«الخضوع الطوعي [التام] لهم» والاحترام الكبير لهم مع «الكُره والاستياء والحسد والغيرة والشك والريبة».

وفي حين كانت النساء ذوات السيطرة العالية غاضبات بحرية، لم يكن لدى النساء ذوات السيطرة المنخفضة «من 'الجرأة' ما يكفي لإظهار الغضب عندما يكون ضروريًا». وبالتالي، كان هدوؤهن «الأنثوي» مترافقًا مع «مشاعر الخجل والدونية وشعور عام بأنّ أي شيء يمكن أن يقلنه سيكون غبيًا ومثار سخرية». «لا تريد [المرأة التي من هذا القبيل] أن تكون قائدة إلّا في خيالاتها، لأنها تخشى أن تكون في المقدمة، تخشى المسؤولية، وتشعر أنها ستكون غير كفؤة».

ومرةً أخرى، وجد البروفيسور ماسلو صلة واضحة بين قوة الذات والجنسانية، حرية أن تكون المرأة هي ذاتها وحرية «تسليم نفسها». ووجد

(1) Ibid., p. 180.

أن النساء «الجبانات، الخجولات، المتواضعات، المرتّبات، اللبقات، الهادئات، الانطوائيات، المتراجعات، الأكثر أنوثةً والأكثر تقليديةً» لم يكنّ قادرات على الاستمتاع بذلك النوع من التحقق الجنسي، الذي كانت النساء ذوات السيطرة العالية وتقدير الذات يستمتعن به بحرية.

> سيبدو وكأنّ كل دافع جنسي أو رغبة جرى الحديث عنهما في أي يوم من الأيام قد يظهران بحرية وبدون كابح لدى أولئك النساء. ... بشكل عام، الفعل الجنسي قابلٌ لأن يؤخذ، لا على أنه طقس جدّيّ مع جوانب مخيفة ومختلف في صفته الأساسية عن جميع الأفعال الأخرى، بل بوصفه لعبة، تسلية، فعل حيواني ممتع جدًا[1].

أكثر من ذلك، وجد ماسلو أنه حتى في الأحلام والخيالات، تمتّعت النساء ذوات السيطرة التي تفوق المعدّل بالنشاط الجنسي، في حين كانت الأحلام الجنسية لدى النساء ذوات السيطرة المنخفضة دائمًا «ذات طبيعة رومانسية، أو قلقة ومشوّهة ورمزية ومكتومة».

هل تجاهل صنّاع اللغز تلك النساء القويات المبتهجات جنسيًا، عندما عرّفوا السلبية ورفض الإنجاز الشخصي والنشاط في العالم بأنها ثمن التحقق الجنسي الأنثوي؟ ربما لم يرَ فرويد وأتباعه هذا النوع من النساء في عياداتهم عندما خلقوا تلك الصورة عن الأنوثة السلبية. وربما كانت قوة الذات التي وجدها ماسلو لدى الحالات التي درسها ظاهرة جديدة لدى النساء.

(1) A. H. Maslow, "Self-Esteem (Dominance-Feeling) and Sexuality in Women," pp. 288.

لكنّ ماسلو يشير إلى أن النساء اللواتي يعانين من «عدم استقرار الأنا» يتظاهرن «بتقدير ذاتي» لا يمتلكنه حقيقةً. على هؤلاء النساء أن «يهيمِنَّ» بالمعنى العادي، في علاقاتهن الجنسية، للتعويض عن «عدم استقرار الأنا»؛ وبالتالي فقد كنّ إما خصائيات أو مازوشيات. وكما أشرت، يجب أن تكون أولئك النساء شائعات جدًا في مجتمع لا يعطي النساء سوى فرصة قليلة لتقدير الذات الحقيقي؛ وقد كان ذلك، بلا شك، أساس خرافة آكلات الرجالاً وأساس مساواة فرويد بين الأنوثة وحسد القضيب الخصائي و/ أو السلبية المازوشية.

أبعد اللغز حتى العلماء السلوكيين عن استكشاف العلاقة بين الجنس والذات لدى النساء في الحقبة التالية. ولكن، بتجاهل كامل لقضايا النساء، أصبح العلماء السلوكيون في السنوات الأخيرة قلقين، على نحو متزايد، من إقامة صورتهم للطبيعة الإنسانية على دراسةٍ لعيناتها المريضة أو معاقة النمو؛ مرضى في العيادات. وفي هذا السياق، شرع البروفيسور ماسلو بدراسة الأشخاص الأموات والأحياء الذين لم يظهروا أي دليل على العُصاب أو الذُهان أو اضطراب الشخصية؛ الأشخاص الذين أظهروا، من وجهة نظرة، دليلًا إيجابيًا على تحقيق الذات، أو «إشباع الحاجات الذاتية»، التي يعرّفها على أنها «الاستخدام الكامل للمواهب والقدرات والإمكانيات واستغلالها. يبدو أن هؤلاء الأشخاص يحققون أنفسهم، ويقومون بأفضل ما يستطيعون القيام به»[1].

انبثقت أمور عديدة من هذه الدراسة، وهي تؤثّر مباشرة في مشكلة النساء في أمريكا اليوم. نتيجة أمر واحد؛ فمن بين الشخصيات العامة التي شملتها دراسة ماسلو، لم يتمكّن من العثور إلّا على امرأتين حققتا ذاتيهما فعلًا، هما إليانور روزفلت وجين أدامز. (أمّا الرجال، فكان من بينهم لينكولن وجيفرسون وأينشتاين وفرويد وجي دبليو كارفر وديبس وشويتزر وكريسلر وغوته وثورو ووليام جيمس وسبينوزا ووايتمان وفرانكلين روزفلت وبيتهوفن). وفضلًا عن الشخصيات العامة والتاريخية، درس عن كثب عددًا قليلًا من الأشخاص المجهولين الذين حققوا معاييره -جميعهم في الخمسينيات أو الستينيات من أعمارهم-، واستعرض 3000 طالب جامعة ليجد أنّ 20 فقط من بينهم بدا وأنهم يتطورون باتجاه التحقق الذاتي؛ وهنا أيضًا لم توجد سوى قلّة من النساء. وفي الحقيقة، تضمّنت نتائجه أنّ التحقق الذاتي، أو التحقيق الكامل للإمكانيات الإنسانية، لم يكن ممكنًا للنساء في مجتمعنا، إلّا بصعوبة.

(1) A. H. Maslow, *Motivation and Personality*, pp. 200 f.

ووجد البروفيسور ماسلو في دراسته أنّ لدى الأشخاص الذين يحققون أنفسهم دائمًا التزام، حسّ بأن لديهم رسالة في الحياة يجعلهم يعيشون في عالم إنساني كبير، إطار مرجعي يتجاوز الخصوصانية (privatism) والاستغراق بالتفاصيل الصغيرة للحياة اليومية.

لدى هؤلاء الأفراد عادةً رسالة ما في الحياة، مهمة ينجزونها، مشكلة خارج أنفسهم، تتطلّب الكثير من طاقاتهم. ... وبشكل عام، ليست هذه المهمات شخصية أو أنانية، بل تهتمّ أكثر بخير الجنس البشري عمومًا أو بأمّة عمومًا. ... وبما أن هؤلاء الأشخاص يهتمّون عادةً بالقضايا الأساسية والمسائل الأبدية، فإنهم يعيشون عادةً في أوسع إطار مرجعي ممكن. ... إنهم يعملون ضمن إطار من القيم الواسعة وليس الصغيرة، الكونية وليس المحلية، وعلى أساس قرن من الزمن وليس لحظة. ...[1].

علاوة على ذلك، رأى البروفيسور ماسلو أن الأشخاص الذين يحققون ذاتهم، الذين يعيشون في عالم أكبر، لا يتذلون أنفسهم، في استمتاعهم بالعيش اليومي، بالتفاهات التي يمكن أن تصبح مغيظة، على نحو لا يطاق، لأولئك الذين تعتبر لهم العالم الوحيد. «... لديهم القدرة المدهشة على أن يثمّنوا مرارًا وتكرارًا وبشكل جديد وببساطة خيرات الحياة الأساسية بورع ومتعة ودهشة وحتى نشوة، مهما تكن هذه التجارب قد أصبحت تافهة للآخرين»[2].

وذكر أيضًا: «الانطباع القوي ذاته بأن المتع الجنسية توجد بأقصى شدتها وكمالها البهيج لدى الأشخاص الذين يحققون ذاتهم». بدا وكأن تحقيق القدرة الشخصية في هذا العالم الأوسع فتح آفاقًا جديدةً للنشوة الجنسية. ومع ذلك، لم يكن الجنس، أو حتى الحب، هو الغاية المحرّكة في حيواتهم.

---

(1) Ibid., pp. 211 f.
(2) Ibid., pp. 214.

النشوة الجنسية لدى الأشخاص الذين يحققون ذاتهم هي، في الوقت ذاته، أكثر أهمية وأقل أهمية مما هي لدى الأشخاص العاديين. إنها غالبًا تجربة عميقة وشبه صوفية، ومع ذلك فهؤلاء الأشخاص يحتملون غياب النشاط الجنسي بسهولة أكبر. ... الحب عند مستوى حاجات أعلى يجعل الحاجات الأدنى وإحباطها وإشباعها أقلّ أهميةً وأقلّ مركزيةً، وإهمالها أسهل. ولكنه أيضًا يجعل الاستمتاع بها أكثر حميميةً عند إشباعها. ... هناك في الوقت ذاته استمتاع بالطعام، ونظرة له على أنه غير مهم نسبيًا في نظام الحياة الشامل. ... يمكن الاستمتاع بالجنس من أعماق القلب، الاستمتاع به أكثر بكثير من إمكانية الشخص العادي، في الوقت ذاته الذي لا يلعب فيه دورًا مركزيًا في فلسفة الحياة. إنه شيء يجب الاستمتاع به، شيء يجب أخذه على أنه بديهي، شيء للبناء عليه، شيء مهم جدًا أساسًا مثل الماء والطعام، ويمكن الاستمتاع به قدر الاستمتاع بهما، ولكن إشباعه يجب أن يؤخذ على أنه بديهي[1].

ليست النشوة الجنسية، لدى هؤلاء أشخاص، دائمًا «تجربة صوفية»؛ إذ يمكن أن تؤخذ أيضًا بشيء من الخفّة، وعلى أنها تجلب «التسلية والمرح والابتهاج والشعور بالسعادة والفرح. ... إنها مبهجة وظريفة ولعوب؛ وليست كفاحًا في المقام الأول، إنها أساسًا متعة وبهجة». كما وجد، بالتناقض مع وجهة النظر التقليدية ومنظّري الجنس السرّيين، أنّ نوعية الحب والإشباع الجنسي لدى الأشخاص الذين يحققون أنفسهم تتحسّن مع ازدياد عمر العلاقة. («إنه أمر شائع جدًا أن يقول هؤلاء الأشخاص إن الجنس الآن أفضل مما كان عليه في الماضي، ويبدو أنه يتحسن كل الوقت»). لأنّ شخصًا من هذا النوع يصبح مع السنوات على حقيقته أكثر فأكثر، وأصدق مع نفسه، ويبدو أنه أيضًا تصبح لديه علاقات أعمق مع الآخرين، ويصبح قادرًا على المزيد من الاندماج والحب والتماثل مع الآخرين على نحو أكثر كمالًا وبالمزيد من التسامي فوق حدود الذات، دون أن يتخلّى مطلقًا عن شخصيته الفردية الخاصة.

(1) Ibid., pp. 242 f.

ما نراه هو اندماج قدرة كبيرة على الحب، وفي الوقت ذاته، احترام كبير للآخر واحترام كبير للذات. ... يبقى هؤلاء الأشخاص في علاقات الحب الأشدّ كثافة وإبهاجًا هم أنفسهم، ويبقون في النهاية أسياد أنفسهم أيضًا، يعيشون وفق معاييرهم الخاصة، على الرغم من استمتاعهم الشديد مع الآخرين[1].

لقد عُرّف الحب في مجتمعنا عُرفيًا، على الأقل بالنسبة للنساء، على أنه اندماجٌ كامل لذاتين وخسارةٌ للاستقلالية؛ «وجودٌ معًا»، تخلٍ عن الشخصية الفردية بدلًا من تقويتها. ولكنّ ماسلو وجد، في حب الأشخاص الذين يحققون ذاتهم، أن الشخصية الفردية تقوى، وأنّ «الأنا، بمعنى ما، تندمج بأنا أخرى، ولكنها، بمعنى آخر، تبقى منفصلة وقوية كما هي دائمًا. يجب أن ينظر إلى النزعتين، إلى التسامي فوق الشخصية الفردية وإلى شحذها وتقويتها، على أنهما شريكتان، وليس على أنهما متناقضتان».

ووجد أيضًا في حب الأشخاص الذين يحققون ذاتهم النزعة إلى المزيد والمزيد من التلقائية التامة وإسقاط الدفاعات ونمو الحميمية والصدق والتعبير عن الذات. وجد هؤلاءُ الأشخاص أنّ من الممكن أن يكونوا على حقيقتهم، وأن يشعروا أنهم طبيعيون؛ أن يكونوا عراة نفسيًا (وكذلك جسديًا)، ومع ذلك يشعرون أنهم محبوبون ومرغوبون وآمنون؛ أن يتركوا أخطاءهم ونقاط ضعفهم ونواقصهم الجسدية والنفسية تظهر بحرية. لم يكن عليهم دائمًا أن يبذلوا أقصى جهدهم لإرضاء الآخرين، لإخفاء الأسنان الاصطناعية أو الشيب أو علامات العمر؛ لم يكن عليهم أن «يعملوا» باستمرار على علاقاتهم؛ كان لديهم القليل جدًا من الغموض أو الفتنة والقليل جدًا من التحفّظ والكتمان والسريّة. ولم يبدُ أنّ لدى هؤلاء

(1) Ibid., pp. 257 f.

وجد ماسلو أن أشخاصه الذين حققوا ذواتهم «يتمتعون، على عكس الشائع، بالقدرة النادرة على أن يستمتعوا بانتصارات شريكاتهم، لا بالشعور بالتهديد من تلك الانتصارات... ومثال مؤثر جدًا في هذا المجال هو الفخر الحقيقي لرجل من هذا القبيل بإنجازات زوجته حتى عندما تبزّ انجازاته». (Ibid., p. 252).

الأشخاص عدائية بين الجنسين. وفي الحقيقة، وجد أنّ أولئك الأشخاص «لم يقوموا بأي تفريق حاد حقيقي بين أدوار الجنسين وشخصياتهما».

هذا يعني أنهم لم يفترضوا أنّ الأنثى سلبية والذكر إيجابي، سواء في الجنس أو الحب أو أي شيء آخر. كان جميع أولئك الأشخاص واثقين من رجولتهم إلى حدّ أنهم لم يكونوا يمانعون في أن يتحملوا بعض الجوانب التي تعتبر ثقافيًا خاصة بدور الجنس المقابل. وكان من الجدير بالملاحظة، على نحو خاص، أنهم كانوا قادرين على أن يكونوا محبين إيجابيين وسلبيين معًا، وكان ذلك أوضح ما يكون في الفعل الجنسي وفعل الحب الجسدي. التقبيل وتلقّي القبلات، أن يكونوا فوق أو تحت في الفعل الجنسي، أن يقوموا بالمبادرة وأن يبقوا هادئين ويتلقوا الحب، أن يسخروا وأن يُسخَر منهم؛ وقد وجدت كل هذه الأشياء لدى الجنسين[1].

وهكذا، ففي حين يبدو الحب المذكّر والمؤنث، الإيجابي والسلبي، من وجهة النظر التقليدية وحتى المتطورة، على قطبين متضادين، فلدى الأشخاص الذين يحققون ذاتهم «تُحلّ الانشطارات ويصبح الفرد إيجابيًا وسلبيًا معًا، أنانيًا ومتفانيًا معًا، مذكّرًا ومؤنثًا معًا، مهتمًا بذاته ومهملًا لها معًا».

والحب، بالنسبة للأشخاص الذين يحققون ذاتهم، يختلف عن التعريف التقليدي للحب من جهة أخرى أيضًا؛ إذ لم تكن الحاجة هي ما يحفّزه، للتعويض عن نقص في النفس؛ بل كان بنقاءٍ أكبر حبّاً «هبةً»، نوعًا من «الإعجاب العفوي»[2].

كان ذلك النوع من الإعجاب والحب النزيه يعتبر في الماضي قدرة فوق بشرية، لا قدرة إنسانية طبيعية. ولكن كما يقول ماسلو: «يُظهر البشر في أفضل حالاتهم، عندما يكونون ناضجين تمامًا، العديدَ من الخصائص التي كان المرء في حقبة ماضية يظنّ أنّها امتيازات فوق طبيعية».

وهناك، في كلمتي «ناضجين تمامًا»، تكمن الإشارة إلى أحجية المشكلة

(1) Ibid., p. 245.
(2) Ibid., p. 255.

التي لا اسم لها. لا يمكن بلوغ تسامي النفس في النشوة الجنسية، كما في التجربة الإبداعية، إلّا من قبل شخص هو نفسه/ها، كامل/ـة، من قبل شخص قد حقق هويته/ ها. يعرف المنظّرون أنّ هذا صحيح للرجال، على الرغم من أنهم لم يدرسوا تضميناته بالنسبة للنساء. لقد رآه الأطباء وأطباء النسائية وأطباء التوليد وأطباء إرشاد الأطفال العياديون وأطباء الأطفال واستشاريو الزواج والقساوسة في الضواحي الذين يعالجون مشاكل النساء، دون أن يضعوا اسمًا له، أو حتى يذكروه بوصفه ظاهرة. إنّ ما رأوه يثبت ذلك للمرأة كما للرجل، فالحاجة إلى تحقيق الذات -الاستقلالية وتحقيق الذات والشخصية الفردية وإشباع الرغبات الذاتية- مهمةٌ أهمية الحاجة الجنسية، مع العواقب الخطيرة ذاتها التي لإحباطها. مشاكل المرأة الجنسية هي، بهذا المعنى، منتجات ثانوية لكبت حاجتها الأساسية إلى النمو وتحقيق إمكانياتها كإنسانة، إمكانيات يتجاهلها لغز التحقق الأنثوي.

لقد شكّ محلّلون نفسيون فترة طويلة بأنّ ذكاء المرأة لا يزهر تمامًا عندما تنكر طبيعتها الجنسية؛ ولكن بالمثل هل يمكن لطبيعتها الجنسية أن تزهر تمامًا عندما يجب عليها أن تنكر ذكاءها، قدرتها الإنسانية العليا؟ كلّ الكلمات التي كتبت منتقدةً النساء الأمريكيات على خصاء أزواجهن وأبنائهن، أو على السيطرة على أبنائهن، أو على جشعهن المادي، أو على برودهن الجنسي، أو على إنكار الأنوثة، قد تغلّف ببساطة حقيقةً أساسية واحدة: لا تستطيع المرأة، بأكثر مما يستطيع الرجل، أن تعيش على الجنس وحده؛ وإنّ كفاحها من أجل الهوية والاستقلالية -ذاك «التوجّه المنتج شخصيًا المستند إلى الحاجة الإنسانية إلى المشاركة الفعالة في مهمة إبداعية»- يرتبط على نحو معقّد بتحققها الجنسي، كشرط على نضجها. يجب عليها، في محاولة العيش على الجنس وحده في صورة اللغز الأنثوي، أن «تخصي» زوجها وأبناءها الذين لا يستطيعون أبدًا أن يمنحوها ما يكفي من الإشباع للتعويض

عن نقص في الذات، ولتمرّر لبناتها خيبتها غير المنطوقة وتشويه سمعتها الذاتي واستياءها.

قال لي البروفيسور ماسلو إنّه يعتقد أنّ تحقيق الذات ليس ممكنًا للنساء اليوم في أمريكا إذا كان شخص يستطيع أن ينمو من خلال آخر؛ أي إذا كانت المرأة تستطيع أن تحقق إمكانياتها من خلال زوجها وأولادها. «لا نعرف إذا كان ذلك ممكنًا أم لا».

لقد تهرّب منظّرو النفس الجدد، وهم رجال، عادةً من مسألة تحقيق الذات للمرأة. افترضوا، مُربِكين أنفسهم باللغز الأنثوي، أنّه يجب أن يكون هناك «فرق» غريب يسمح للمرأة بأن تجد تحققها الذاتي عن طريق العيش من خلال زوجها وأبنائها، في حين أنّ الرجل يجب أن ينمو ليحقق ذاته. مازال صعبًا جدًا، حتى على المنظّرين النفسيين الأكثر تقدمًا، أن يروا المرأة بوصفها ذاتًا مستقلةً، إنسانة غير مختلفةً، في ذلك الخصوص، في حاجتها إلى النمو عن الرجل. تستند معظم النظريات التقليدية حول النساء، وكذلك اللغز الأنثوي، إلى هذا «الفرق». لكنّ الأساس الفعلي لهذا «الفرق» هو الحقيقة القائلة إنّ إمكانية تحقيق الذات الحقيقي للنساء لم يوجد حتى الآن.

لقد ارتكب العديد من علماء النفس، ومن ضمنهم فرويد، خطأ الافتراض أنّ طبيعة المرأة الجوهرية هي أن تكون سلبيةً وممتثلة للتقاليد واتكالية وخائفة وطفلية، وذلك بناءًا على ملاحظات عن نساء لم يتمتعن بالتعليم وبالحرية اللازمين للعب دورهن كاملًا في العالم؛ وذلك تمامًا مثلما ارتكب أرسطو، الذي أقام صورته عن الطبيعة الإنسانية على ثقافته وعصره، خطأ افتراض أن الطبيعة الجوهرية لرجلٍ ما هي العبودية لمجرّد أنه عبدٌ، وبالتالي «فقد كان من الجيد له أن يكون عبدًا».

الآن حيث التعليم والحرية والحق في العمل على التخوم الإنسانية

العظيمة –وهي جميع الطرق التي حقق الرجال أنفسهم عن طريقها– مفتوحة للنساء، فإن ظلّ الماضي المرفوع إلى درجة القداسة في لغز التحقق الأنثوي هو ما يمنع النساء من إيجاد طريقهن. يبشّر اللغز بتحقق النساء الجنسي عن طريق التنازل عن الذات. لكن، هناك دليل إحصائي كبير على أن فتح تلك الطرق أمام النساء الأمريكيات إلى هويتهن الخاصة في المجتمع قد أحدث زيادة حقيقية وكبيرة في قدرة النساء على التحقق الجنسي: النشوة الجنسية. استمتعت النساء الأمريكيات، في السنوات الواقعة بين «تحرير» النساء الذي ظفرت به الناشطات النسويات وثورة اللغز الأنثوي الجنسية المضادة، زيادةً من عقدٍ لعقد في النشوة الجنسية. وقد كانت النساء اللواتي استمتعن بذلك على أكمل ما يمكن، فوق كل شيء، هنّ اللواتي تعلّمن من أجل المشاركة الفعّالة في العالم خارج البيت.

يوجد هذا الدليل في دراستين شهيرتين، لا يُستشهد بهما عادة لهذه الغاية. أولهما، دراسة كينزي، استندت إلى مقابلات مع 5940 امرأة وصلن سن النضج في عقود القرن العشرين المختلفة التي تمّ الظفر فيها بتحرير النساء وقبل حقبة اللغز الأنثوي. وحتى وفق مقياس كينزي للتحقق الجنسي، النشوة الجنسية (التي انتقدها العديد من علماء النفس وعلماء الاجتماع والمحللين نتيجة تشديدها الميكانيكي الضيّق فوق الفزيولوجي، وإهمالها للفوارق الدقيقة النفسية الأساسية)، فإن دراسته تظهر زيادة كبيرة في التحقق الجنسي في تلك العقود. بدأت الزيادة مع الجيل الذي وُلد بين عامي 1900 و1909، والذي بلغ أبناؤه سن النضج وتزوّجوا في العشرينيات؛ أي حقبة النسوية والظفر بحق التصويت والتشديد الكبير على حقوق النساء والاستقلالية والمهن والمساواة مع الرجال، بما في ذلك حق التحقق الجنسي. استمرت الزيادة في الزوجات اللواتي يبلغن النشوة الجنسية والانخفاض في النساء الباردات في كل جيل من الأجيال

اللاحقة وصولًا إلى الجيل الأصغر في عيّنة كينزي التي كانت تتزوج في الأربعينيات[1].

وأظهرت النساء الأكثر «تحررًا»، النساء اللواتي تعلّمن إلى ما بعد الجامعة من أجل مهن احترافية، قدرة على الاستمتاع الجنسي الكامل والنشوة الكاملة أكبر بكثير من البقية. أظهرت أرقام كينزي، على نحو يخالف اللغز الأنثوي، أنّه كلما كانت المرأة أكثر تعلمًا، كان احتمال أن تستمتع بالنشوة الجنسية الكاملة في عدد أكبر من المرات أعلى، واحتمال أن تكون باردة جنسيًا أقل. ظهر الاستمتاع الجنسي الأكبر بين النساء اللواتي أكملن الجامعة، بالمقارنة مع أولئك اللواتي لم يتجاوزن المرحلة الابتدائية أو الثانوية، وكان أكبر حتى بين النساء اللواتي تابعن ما بعد الجامعة في تدريب مهني عالٍ، من السنة الأولى للزواج، واستمر في الظهور في السنة الخامسة والعاشرة والخامسة عشرة من الزواج. وفي حين لم يجد كينزي سوى امرأة واحدة من كل عشر نساء لم تعرف قط النشوة الجنسية، فإن غالبية النساء اللواتي قابلهن لم يعرفنها كاملة، طيلة الوقت، أو تقريبًا طيلة الوقت، باستثناء تلك النساء اللواتي تجاوزن في تعليمهن المرحلة الجامعية. أظهرت أرقام كينزي أيضًا أنّ النساء اللواتي تزوّجن قبل العشرين كنّ الأقل احتمالًا في أن يعرفن النشوة الجنسية، والأرجح أن يستمتعن بها عددًا أقل من المرات في الزواج أو خارج الزواج، على الرغم من أنهن بدأن إقامة علاقات جنسية قبل النساء اللواتي أنهين دراستهن الجامعية أو ما بعد الجامعية بخمس أو ست سنوات.

وفي حين أظهرت بيانات كينزي أنّ «نسبة أعلى بوضوح من الإناث الأفضل تعليمًا، على عكس الإناث الحاصلات على المرحلة الابتدائية و

(1) (26) A. C. Kinsey. et al., *Sexual Behavior in the Human Female*, pp. 356 ff.; Table 97, p. 397; Table 104, p. 403. (انظر الجدولين 1 و2).

الثانوية فقط، قد وصلن فعلًا إلى النشوة في نسبة أعلى من عمليات الجماع الزوجية» مع مرور السنين، فإن الاستمتاع المتزايد بالجنس لم يعنِ، للقسم الأكبر منهن، زيادة عدد مرات القيام بالجنس في حياة المرأة. إجمالًا، كان هناك ميل خفيف في الاتجاه المعاكس. وكانت تلك الزيادة في الجنس خارج الزواج ملحوظة أقل بين النساء الحاصلات على تدريب مهني(1).

ربما مكّن شيءٌ ما في ما يسمى القوة «غير الأنثوية»، أو تحقيق الذات الذي تحرزه النساء المتعلمات من أجل مهن احترافية، النساءَ من التمتع باكتفاء جنسي في زواجاتهن أعلى من النساء الأخريات -مقاسًا بالنشوة الجنسية- وبالتالي فاحتمال أن يبحثن عنه خارج الزواج أقل. أو ربما لديهن ببساطة حاجة أقل للبحث عن المكانة أو الإنجاز أو الهوية في الجنس. تعزّزت العلاقة بين اكتفاء المرأة الجنسي وتحقيق الذات، التي أشارت إليها نتائج كينزي، بالحقيقة التي أشار إليها العديد من النقّاد، وهي أنّ عينة كينزي كانت أكثر تمثيلًا للنساء المهنيات المحترفات والخريجات الجامعيات، والنساء اللواتي يتمتعن «بسيطرة» عالية أو قوة شخصية. كما كانت عيّنة كينزي أقل تمثيلًا لربة المنزل الأمريكية «النمطية» التي تكرّس حياتها لزوجها وبيتها وأولادها؛ كانت أقل تمثيلًا للنساء قليلات التعليم، فلأنها استخدمت متطوّعات، كانت أقل تمثيلًا للنوع السلبي المذعن الممثل للتقاليد من النساء، اللواتي وجد ماسلو أنهن عاجزات عن الاستمتاع الجنسي(2). ربما لم تكن ربة المنزل الأمريكية «العادية» تشعر بزيادة التحقق الجنسي وانخفاض البرود اللذين وجدهما كينزي في عقود ما بعد تحرير النساء بالدرجة نفسها التي شعرت بها تلك القلة من النساء اللواتي عرفن التحرّر مباشرة عن طريق التعليم والمشاركة في المهن. ومع ذلك، فالانخفاض في البرود كان كبيرًا

(1) Ibid., p. 355.
(2) See Judson T. Landis, “The Women Kinsey Studied,” George Simpson, “Nonsense about Women,” and A. H. Maslow and James M. Sakoda, “Volunteer Error in the Kinsey Study,” in *Sexual Behavior in American Society*.

جدًا في تلك العينة الكبيرة، إذا كانت غير تمثيلية، البالغة نحو 6000 امرأة، التي وجدها حتى نقّاد كينزي مهمة.

ولا يمكن إلّا بصعوبة القول، إن هذه الزيادة في اكتفاء المرأة الجنسي المصحوبة بتقدمها نحو المشاركة المتساوية في الحقوق والتعليم والعمل والقرارات في المجتمع الأمريكي هي مجرد صدفة. لقد كان التحرر الجنسي المطابق للرجال الأمريكيين -نزع حجاب الاحتقار عن العلاقة الجنسية والحطّ من قدرها- بالتأكيد مرتبطًا بنظرة الرجل الأمريكي الجديدة إلى النساء الأمريكيات على أنهن مساويات له، أشخاص مثله، ولسن مجرّد غرض جنسي. من الواضح أنه كلما تقدّمت النساء مبتعدات عن تلك الحالة، أصبح الجنس فعل اتصال أكثر إنسانيةً، بدل أن يكون نكتة قذرة للرجال؛ وأصبحت النساء أقدر على حب الرجال، بدل الخضوع، بنفور سلبي، لرغبتهم الجنسية. في الحقيقة، ما كان للّغز الأنثوي نفسه -مع اعترافه بالمرأة فاعلًا في الفعل الجنسي، لا مجرّد مفعول به، وافتراضه أن مشاركتها الفاعلة والراغبة أساسية لمتعة الرجل- أن يأتي لولا تحرير النساء نحو المساواة الإنسانية. وكما تنبأت أوائل الناشطات النسويات، لقد عزّزت حقوق النساء فعلًا الوصول إلى تحقّق جنسي أكبر للرجال والنساء.

أظهرت دراسات أخرى أيضًا أن التعليم والاستقلالية زادا من قدرة المرأة الأمريكية على الاستمتاع بالعلاقة الجنسية مع الرجل، وبالتالي على توكيدٍ أكملَ لطبيعتها الجنسية كامرأة. أظهرت تقارير متكررة، قبل كينزي وبعده، أن النساء المتعلمات جامعيًا لديهن معدل طلاق أقل بكثير من المتوسّط. وبدقة أكبر، أشارت دراسة اجتماعية ضخمة شهيرة، قام بها إرنست بيرغيس (Ernest W. Burgess) وليونارد كوتريل (Leonard S. Cottrell)، إلى أنّ فرص النساء بالسعادة في الزواج تزايدت مع زيادة إعدادهن المهني؛ حيث تظهر المعلمات والممرضات المحترفات والطبيبات والمحاميات عددًا أقل من الزواجات التعيسة بالمقارنة مع أية مجموعة أخرى من النساء. وكان

احتمال استمتاع تلك النساء بالزواج أعلى من احتمال استمتاع النساء اللواتي يشغلن مناصب تتطلب مهارة، وهؤلاء بدورهن كانت لديهن زواجات أسعد من تلك النساء اللواتي لم يعملن قبل الزواج، أو اللواتي ليس لديهن أي طموح مهني، أو اللواتي عملن في عمل غير متوافق مع طموحاتهن، أو اللواتي كان تدريبهن العملي، أو خبرتهن الوحيدة هي العمل المنزلي أو العمل غير الماهر. في الحقيقة، كلما كان دخل المرأة عند الزواج أعلى، زاد احتمال سعادتها الزوجية. وكما يعبّر علماء الاجتماع عن الأمر:

> من الظاهر أنّه في حالة الزوجات، تكون المزايا التي تؤهل للنجاح في عالم الأعمال، كما يقيسه الدخل الشهري، هي المزايا ذاتها التي تؤهل للنجاح في الزواج. الفكرة التي يمكن طرحها بالطبع هي أنّ الدخل يقيس على نحو غير مباشر التعليم لأن مقدار التدريب التعليمي تؤثر في الدخل[1].

أظهر أقل من 10٪ من بين 526 زوجًا تكيّفًا زوجيّاً «منخفضًا» في الحالات التي كانت الزوجة فيها قد عملت مدة سبع سنوات أو أكثر، أو قد أنهت الجامعة أو التدريب المهني، أو لم تتزوج قبل سن الثانية والعشرين. أما الزوجات اللواتي تعلمن إلى ما بعد الجامعة، فأقلّ من 5٪ من الزواجات سجّلت علامات «متدنية» في الزواج. يبين (الجدول 3)[2] العلاقة بين الزواج وإنجاز الزوجة التعليمي.

كان من الممكن للمرء أن يتنبأ، من ذلك الدليل، بوجود فرصة ضعيفة نسبيًا للسعادة الزوجية أو للاكتفاء الجنسي أو حتى للنشوة أمام النساء اللواتي شجّعهن اللّغز على الزواج قبل العشرين، أو الامتناع عن التعليم العالي والمهن والاستقلالية والمساواة مع الرجال من أجل الأنوثة. وفي الواقع، أظهرت المجموعة الأصغر سنًا من الزوجات اللواتي درسهنّ

(1) Ernest W. Burgess and Leonard S. Cottrell, Jr., *Predicting Success or Failure in Marriage*, New York, 1939, p. 271.

(2) في ملحق الجداول في نهاية الكتاب – الناشر.

كينزي -الجيل الذي وُلد بين عامي 1920 و1929، اللواتي واجهن اللغز الأنثوي بكل مظاهره في الأربعينيات، عندما بدأ سباق العودة إلى البيت- مع السنة الخامسة من الزواج انقلابًا حادًا في ذلك الاتجاه إلى التحقق الجنسي الذي تزايد في الزواج والذي كان واضحًا في كل عقد منذ تحرير النساء في العشرينيات.

لقد ارتفعت نسبة النساء اللواتي يستمتعن بالنشوة الجنسية في كل الحياة الجنسية الزوجية، أو كلها تقريبًا، في السنة الخامسة من الزواج من 37% من النساء في الجيل الذي وُلد قبل عام 1900 إلى 42% في الأجيال التي وُلدت في العقدين التاليين. أما المجموعة الأصغر سنًا، والتي كانت سنتها الخامسة من الزواج في أواخر الأربعينيات، فقد تمتّعت بالنشوة الجنسية الكاملة في عدد من الحالات (36%) أقلّ حتى من النساء اللواتي وُلدن قبل عام 1900 [1].

هل من شأن دراسة جديدة لكينزي أن تكتشف أنّ الزوجات الشابات، اللواتي هنّ منتجَات اللغز الأنثوي، يتمتعن بالتحقق الجنسي بدرجة أقلّ حتى من جدّاتهن الأكثر تحررًا والأكثر استقلاليةً والأكثر تعليمًا، والأكثر نضجًا عند الزواج؟ لم تكن سوى ٪14 من نساء كينزي قد تزوجن بعمر العشرين؛ في حين أنّ أغلبية ظاهرة (٪53) قد تزوجن بعمر الخامسة والعشرين. وهذا مختلف جدًا عن أمريكا الستينيات التي تتزوج ٪50 من النساء فيها بعمر المراهقة.

مؤخرًا دفعت هيلين دوتش (Helene Deutsch) -وهي محللة نفسية بارزة تجاوزت حتى فرويد في المساواة بين الأنوثة والسلبية المازوشية، وفي تحذير النساء من أنّ «النشاط الموجّه نحو الخارج» والعقلانية «المسترجلة» قد تؤثّر في النشوة الأنثوية الكاملة- مؤتمرًا للتحليل النفسي إلى حالة من الاضطراب عندما افترضت أنه ربما تكون «النشوة الجنسية» للنساء قد بولغ

(1) A. C. Kinsey, et al., *Sexual Behavior in the Human Female*, p.403.

في التشديد عليها. في الستينيات، أصبحت فجأة غير متأكدة جدًا من أنّ النساء يجب أن تكون لديهن، أو يمكن أن تكون لديهن، نشوة جنسية حقيقية. ربما يكون اكتفاء أكثر «تشتتًا» هو كل ما يمكن توقعه. ففي نهاية الأمر، كان لديها مريضات ذُهانيات بالتأكيد، ممن يبدو أنهن كنّ يحققن النشوة؛ لكن معظم النساء اللواتي رأتهن لا يبدو الآن أنهن كن يحققنها على الإطلاق.

ما الذي يعنيه ذلك؟ أيمكن أنّ النساء لم يكنّ حينها يعرفن النشوة؟ أم إن شيئًا ما قد حدث في هذا الوقت الذي جرى فيه تشديد كثير على التحقق الجنسي لإبعاد النساء عن معرفة النشوة الجنسية؟ لم يوافق جميع الخبراء. ولكن في سياقات أخرى غير مهتمة بالنساء، ذكرَ المحللون أنّ الأشخاص السلبيين الذين «يشعرون بالفراغ نفسيًا» -الذين يفشلون في «تطوير ذواتٍ ملائمة»، ولديهم «إحساس ضعيف بهويتهم»- لا يستطيعون تسليم أنفسهم لتجربة النشوة الجنسية خوفًا من عدم وجودهم الشخصي[1]. لقد أنكرت نساء كثيرات، مشدوداتٍ إلى بحث جنسي يستهلك الجميع من قبل مبسّطي «الأنوثة» الفرويدية، في الواقع كل شيء من أجل النشوة التي يفترض أن تكون هناك عند نهاية قوس قزح.

(1) Sylvan Keiser, "Body Ego During Orgasm," *Psychoanalytic Quarterly*, 1952, Vol. XXI, pp. 153-166:

«يتصف الأفراد من هذه الفئة بالفشل في تطوير ذوات ملائمة ... يكذّب التكريس القلق نحو أجسادهم والعناية المبالغ فيها بمشاعرهم الداخلية بالفراغ وعدم الكفاية ... لدى هؤلاء المرضى حسّ قليل بهويتهم الخاصة، وهم دائمًا مستعدون لأخذ شخصية شخص آخر. ليس لديهم سوى القليل من القناعات الشخصية، ويستسلمون بسهولة لآراء الآخرين... بين مثل هؤلاء المرضى أساسًا يمكن الاستمتاع بالمضاجعة فقط إلى نقطة الرعشة الجنسية ... لا يجرؤون على أن يسمحوا لأنفسهم بالتقدّم غير المكبوح نحو الرعشة الجنسية مع ما يلازمها من فقدان للسيطرة، أو فقدان للوعي بالجسم، أو الموت ... في حالات عدم اليقين حول بنية صورة الجسد وحدوده، قد يقول المرء أن الجلد لا يخدم كمغلّف يحدّد بحدّة الانتقال من الذات إلى البيئة؛ يندمج الواحد تدريجيًا بالآخر؛ ليس هناك أي توكيد بكونك كيان مميّز ممنوح القوة على منح نفسه دون أن يعرّض سلامة المرء للخطر».

باختصار، لقد وجّهن الكثير من طاقاتهن الانفعالية وحاجاتهن نحو الفعل الجنسي. وكما قال شخصٌ ما عن امرأة جميلة حقًا، لقد بولغ في عرض صورتها في الإعلانات والتلفاز والأفلام، إلى درجة أنك تشعر بالخيبة عندما ترى الحقيقة. يمكن للمرء أن يفترض، دون حتى التنقيب في الأعماق المظلمة للّاوعي، أنه كان يطلب كثيرًا من النشوة الجميلة، لا للعيش وفق مزاعمه المبالغ فيها في الإعلان فقط، بل لتشكيل ما يعادل علامة تامة في الجنس أو زيادة في الراتب أو تقييمًا جيدًا في يوم الافتتاح أو ترقية إلى وظيفة محرّر رئيسي أو أستاذ مساعد، وبدرجة أقل بكثير «خبرة الذات» الأساسية، معنى الهوية[1]. وكما ذكر معالج نفسي:

أحد الأسباب الرئيسية لعدم تحقيق عدد كبير من النساء التفتّح الكامل لجنسانيتهن اليوم هو، ويا للسخرية، أنهنّ يبالغن في تصميمهن على تحقيقها. يشعرن بالعار إذا لم يصلن إلى أعلى حسيّة تعبيرية إلى حدّ أنهن يدمرن، على نحو مأساوي، رغباتهن الخاصة. وهذا يعني أنه بدلًا من التركيز بوضوح على المشكلة الحقيقية المطروحة، فإن أولئك النساء يركّزن على مشكلة مختلفة تمامًا، أي «أوه، أي شخص ساذج وغير كفؤ أنا لأكون غير قادر على تحقيق الإشباع بلا صعوبة». نساء اليوم مهووسات غالبًا بفكرة كيف، بدلًا من ماذا، يقمن بالأمر عندما يمارسن علاقات زوجية. وهذا مهلك.

إذا كان الجنس نفسه، كما عبّر محلّل نفسي آخر عن الأمر، قد بدأ يتحول إلى خاصية «مثيرة للكآبة» في أمريكا، فهذا ربما لأنّ الكثيرين من الأمريكيين،

(1) Lawrence Kubie, "Psychiatric Implications of the Kinsey Report," in *Sexual Behavior in American Society*, pp. 270 ff:

«يغطى هذا الهدف البيولوجي البسيط بالعديد من الأهداف الدقيقة التي لا يكون الفرد نفسه مدركًا لها. بعضها قابل للتحقيق، وبعضها لا. وحيث تكون الغالبية قابلة للتحقق، فالنتيجة النهائية للنشاط الجنسي، عندها، هي شفق اكتمال واكتفاء آمنين. ولكن، حيث لا تكون الأهداف غير الواعية قابلة للتحقق، فسواء حدثت الرعشة الجنسية أم لم تحدث، يبقى هناك حالة تالية للجماع من حاجة غير مشبعة، وأحيانًا من الخوف أو الغيظ أو الاكتئاب».

ولاسيما النساء الباحثات عن الجنس، يقحمون في البحث الجنسي كل حاجاتهم المحبطة إلى تحقيق الذات. تعاني النساء الأمريكيات، ببساطة تامة، من مرض كبير هو الجنس بلا روح. لم يحذّرهن أحد من أنّ الجنس لا يمكن أبدًا أن يكون بديلًا عن الهوية الشخصية؛ أن الجنس وحده لا يستطيع أن يمنح المرأة هويةً بأكثر مما يمنح الرجل؛ أنه قد لا يكون هناك تحقق جنسي للمرأة التي تبحث عن نفسها في الجنس.

لقد أصبح السؤال المتعلق بكيف يستطيع الشخص أن يحقق قدراته إلى أبعد حد، وبالتالي يحقق الهوية، أمرًا مهمًا للفلاسفة والمفكرين الاجتماعيين والنفسيين في عصرنا، ولسبب وجيه. نشر مفكرو أزمنة أخرى الفكرة القائلة إنّ الناس يتحدّدون، وإلى حد بعيد، بالعمل الذي يقومون به. يفرض العمل الذي يجب على الإنسان القيام به ليأكل، وليبقى حيًا، وليلبي الضرورات المادية لبيئته، هويته. وبهذا المعنى، عندما ينظر إلى العمل على أنه مجرّد وسيلة للبقاء، فإن الهوية الإنسانية قد فرضتها البيولوجيا.

أما اليوم، فقد تغيّرت مشكلة الهوية الإنسانية. لأنّ العمل الذي حدّد مكان الإنسان في المجتمع وإحساسه بذاته قد غيّرا أيضًا عالم الإنسان. لقد خفّف العمل وتقدّمُ المعرفة من اعتماد الإنسان على بيئته؛ لم تعد بيولوجيا الإنسان والعمل الذي يجب أن يقوم به من أجل البقاء البيولوجي كافيين لتحديد هويته. يمكن أن يُرى ذلك بأوضح ما يمكن في مجتمعنا ذي الوفرة؛ لم يعد البشر بحاجة إلى العمل طوال اليوم ليأكلوا. لديهم حرية غير مسبوقة في اختيار نوع العمل الذي سيقومون به؛ ولديهم أيضًا مقدار من الوقت غير مسبوق، فضلًا عن الساعات والأيام التي يجب فعليًا قضاءها في كسب المعيشة. وفجأة، يدرك المرء أهمية أزمة الهوية اليوم للنساء، وعلى نحو متزايد للرجال. يرى المرء الأهمية الإنسانية للعمل، لا

على أنه مجرّد وسيلة للبقاء البيولوجي، بل بوصفه مانح الذات وما يقوم على تسامي الذات، بوصفه خالق الهوية الإنسانية والتطوّر الإنساني.

لأنّ «تحقيق الذات» أو «تحقق الذات» أو «الهوية» لا تأتي من النظر في المرآة في تأمّل المرء الاستغراقي في صورته الشخصية. هؤلاء الذين حققوا أنفسهم على النحو الأكثر كمالًا، بمعنى يستطيع العقل الإنساني إدراكه، على الرغم من عدم إمكانية تحديده بوضوح، فعلوا ذلك خدمة لهدف إنساني أكبر من أنفسهم. لقد استخدم رجال من ميادين مختلفة كلمات مختلفة لهذه العملية الغامضة التي يأتي منها معنى الذات. المتصوفون الدينيون، الفلاسفة، ماركس، فرويد.. جميعهم كانت لديهم أسماء مختلفة لها: يجد الإنسان ذاته بفقدان ذاته؛ الإنسان محدّد بعلاقته بوسائل الإنتاج؛ تنمو الأنا، النفس، عبر فهم الواقع والسيطرة عليه، عبر العمل والحب.

يبدو أن أزمة الهوية لدى الإنسان الأمريكي، التي أشار إليها إيريك إيريكسون وآخرون في السنوات الأخيرة، تحصل نتيجة فقدان العمل أو القضية أو الهدف الذي يستثير إبداعه، وتُعالَج بإيجادها[1]. البعض لا يجدونها إطلاقًا، لأنها لا تأتي من الانشغال بالعمل أو من دقّ بطاقة العمل على ساعة الدوام. لا تأتي من مجرّد كسب المعيشة والعمل حسب خطة وإيجاد مكان آمن كرجل في مؤسسة. تفترض الحجة التي يقدّمها رايسمان وآخرون، والقائلة إن الإنسان لم يعد يجد هويته في العمل المحدّد على أنه عمل مقابل أجر، إنّ هوية الإنسان تأتي من خلال عمل خلّاق خاص به يسهم في المجتمع البشري: يصبح الجوهر الذاتي مُدركًا، يصبح حقيقيًا، وينمو من خلال العمل الذي يستند إلى المجتمع البشري.

(1) Erik H. Erikson, *Childhood and Society*, pp. 239-283, 367- 380. See also Erich Fromm, *Escape from Freedom and Man for Himself*; and David Riesnian, *The Lonely Crowd*.

لقد أصبح العمل، وهو المادة الرئيسية الوسخة للاقتصادي، الحدّ الجديد لعلم النفس. لقد استخدم الأطباء النفسيون فترة طويلة «العلاج المهني» مع المرضى في مستشفيات الأمراض العقلية؛ وقد اكتشفوا مؤخرًا أنه حتى تكون له قيمة نفسية حقيقية، فيجب ألّا يكون مجرّد «علاج»، بل عملًا حقيقيًا، يخدم غاية حقيقية في المجتمع. ويمكن النظر إلى العمل الآن على أنه مفتاح المشكلة التي لا اسم لها. بدأت أزمة الهوية عند النساء الأمريكيات منذ قرن، عندما انتزع منهن المزيد والمزيد من العمل المهم للعالم، والمزيد المزيد من العمل الذي يستخدم قدراتهن، والذي كنّ قادرات على إيجاد تحققهن الذاتي من خلاله.

كانت هناك حاجة حتى القرن الماضي، وحتى في القرن الماضي، إلى النساء القويات القادرات من أجل تمهيد أرضنا الجديدة؛ فقد سيّرن مع أزواجهن المزارع والمزروعات والعِزَب الغربية. كانت تلك النساء عضوات محترمات ويحترمن أنفسهن في مجتمع تتركّز غايته الريادية في البيت. كانت القوة والاستقلالية والمسؤولية والثقة بالذات والانضباط الذاتي والشجاعة والحرية والمساواة جزءًا من الشخصية الأمريكية لكل من الرجال والنساء، في كل الأجيال الأولى. عملت النساء، اللواتي جئن في عنبر المسافرين ذي التعريفة الأرخص في السفن من ايرلندة وايطاليا وروسيا وبولندا، إلى جانب أزواجهن في دكاكين الحلويات وفي المصابغ، وتعلّمن اللغة الجديدة، وادّخرن المال لإرسال أبنائهن وبناتهن إلى الجامعة. لم تكن النساء في أمريكا قط «أنثويات»، ولم يُعتبرن عارًا إلى ذلك الحد الذي كان عليه حالهن في أوروبا. بدت النساء الأمريكيات للرحّالة الأوروبيين قبل وقتنا بزمن طويل أقلّ سلبية وطفولية وأنوثة من زوجاتهم في فرنسا أو ألمانيا أو بريطانيا. بصدفة من صدف التاريخ، شاركت النساء الأمريكيات في عمل المجتمع فترة أطول، وكبرن مع الرجال. كان التعليم الابتدائي والثانوي للفتيان والفتيات على قدم المساواة دائمًا تقريبًا هو القاعدة؛ وفي الغرب،

حيث شاركت النساء في العمل الريادي أطول فترة، كانت حتى الجامعات مختلطة منذ البداية.

لم تبدأ أزمة الهوية لدى النساء في أمريكا حتى الوقت الذي لم تعد فيه نار النساء الرائدات وقوتهن وقدرتهن لازمة، ولم تعد مستخدمة، في بيوت الطبقة الوسطى في المدن الواقعة في الشرق والغرب الأوسط، عندما انتهت الريادة وبدأ الرجال بناء المجتمع الجديد في صناعات ومهن خارج البيت. لكن، كانت بنات النساء الرائدات قد كبرن أكثر اعتيادًا على الحرية والعمل من أن يرضين بوقت الفراغ والأنوثة السلبية[1].

---

(1) انظر: (Alva Myrdal and Viola Klein (Women's Two Roles)، الذي أشار إلى أن عدد النساء الأمريكيات اللواتي يعملن الآن خارج البيت يبدو أكبر مما هو عليه لأن الأساس الذي تقام المقارنة معه عمومًا كان صغيرًا على نحو غير عادي: منذ قرن من الزمن، كانت نسبة النساء الأمريكيات العاملات خارج المنزل أصغر بكثير مما هي عليه في البلدان الأوروبية. وبكلمات أخرى، ربما كانت مشكلة المرأة في أمريكا قاسية على نحو غير عادي لأن إزاحة النساء الأمريكيات من العمل الجوهري والهوية في المجتمع كان أكثر عنفًا -أساسًا نتيجة النمو السريع جدًا وتصنيع الاقتصاد الأمريكي. أُبعدت النساء اللواتي كبرن مع الرجال في أيام الجبهة تقريبًا بين ليلة وضحاها إلى الشذوذ -وهم اسم اجتماعي معبّر جدًا لذلك الإحساس بعدم الوجود أو عدم الهوية الذي يعاني منه الشخص الذي ليس له مكان حقيقي في المجتمع- حيث ترك العمل المهم البيت، وحيث بقين. وعلى العكس، في فرنسا، حيث كان التصنيع أبطأ، والمزارع والمحلات العائلية الصغيرة ما تزال مهمة نسبيًا في الاقتصاد، كانت النساء منذ قرن من الزمن مازلن يعملن بأعداد كبيرة -في الحقل وفي المحل- واليوم، ليست غالبية النساء الفرنسيات ربات منزل متفرغات بالمعنى الأمريكي للّغز، لأنّ عددًا كبيرًا منهن مازال يعمل في الحقول، بالإضافة إلى ذلك، فإن واحدة من كل ثلاثة، كما في أمريكا، يعملن في الصناعة والمبيعات والمكاتب والمهن. كان نمو النساء في فرنسا متوازيًا إلى حدّ كبير مع نمو المجتمع، لأن نسبة النساء الفرنسيات في المهن قد تضاعفت في خمسين سنة. ومن اللافت للانتباه أنّ اللغز الأنثوي لا يسود في فرنسا، إلى الحد الذي يفعله هنا؛ هناك صورة مشروعة في فرنسا للمرأة المهنية الأنثوية والمثقفة الأنثوية، ويبدو الرجال الفرنسيون مستجيبين للنساء جنسيًا، دون أن يساووا بين الأنوثة والفراغ الممجّد

لم تكن امرأة أمريكية -بل جنوب أفريقية، السيدة أوليف سكراينر (Olive Schreiner)- تلك التي حذّرت عند مطلع القرن من أن نوعية وظائف النساء وكميتها في المجال الاجتماعي تتزايد بالسرعة ذاتها التي تتقدم بها الحضارة؛ وأنه إذا لم تظفر النساء مرة أخرى بحقهن في حصة كاملة من العمل المحترم والمفيد، فإن عقل المرأة وعضلاتها ستضعف في حالة طفيلية؛ ونسلها، ذكورًا وإناثًا، سيضعف على نحو متصاعد، والحضارة نفسها ستتدهور[1].

رأت الناشطات النسويات بوضوح أنّ التعليم والحق في المشاركة في العمل المجتمعي الأكثر تقدمًا هما أعظم حاجات النساء. لقد كافحن من أجل الحقّ في هوية إنسانية كاملة وجديدة للنساء وظفرن بها. ولكن كم كانت بناتهن وحفيداتهن، اللواتي اخترن أن يستخدمن تعليمهن وقدراتهن لأية غاية خلّاقة، لأي عمل مسؤول في المجتمع، قليلات؟ كم منهن قد جرى تضليلهن، أو ضلّلن أنفسهن، للتمسك بالأنوثة الطفولية التي شبّت عن الطوق لـ«المهنة: ربة منزل»؟

لم يكن خيارهن الخطأ مسألة ثانوية. نحن نعرف الآن أنّ النساء يتمتعن بطيف الإمكانيات ذاته الذي يتمتع به الرجال. لا تستطيع النساء، كما الرجال، أن يجدن هويتهن إلّا في العمل الذي يستخدم كامل قدراتهن. لا يمكن لامرأة أن تجد هويتها عبر الآخرين؛ عبر زوجها وأولادها. لا يمكنها أن تجدها في رتابة العمل المنزلي الباهت. وكما قال مفكرون من جميع

= أو تلك الأم الخصائية آكلة الرجال. ولم تضعف العائلة -في الواقع أو في اللغز- بعمل النساء في الصناعة والمهن. يظهر (Myrdal and Klein) أنّ النساء المهنيات الفرنسيات يستمررن في إنجاب الأطفال، ولكن ليس بالأعداد الكبيرة التي تنجب بها ربات المنازل الأمريكيات المتعلمات الجديدات.

(1) Sidney Ditzion, *Marriage, Morals and Sex in America, A History of Ideas*, New York, 1953, p. 277.

العصور، لا يمكن للإنسان أن يصبح مدركًا حقًا لنفسه، ويبدأ بأخذ وجوده على محمل الجد، إلّا عندما يواجه بصراحة حقيقة أنه يمكن أن يجرّد من حياته الشخصية. أحيانًا لا يأتي هذا الإدراك إلّا عند لحظة الموت. أحيانًا يأتي من مواجهةٍ ألطف مع الموت: موت الذات في امتثال سلبي مع العادات، أو في عمل لا معنى له. يفرض اللغز الأنثوي تمامًا ذلك الموت الحي للنساء. يجب أن تبدأ المرأة الأمريكية، مُواجِهةً موت ذاتها البطيء، بأخذ حياتها بجدية.

قال عالم النفس الأمريكي العظيم، وليام جيمس (William James)، منذ نحو قرن من الزمن: «إننا نقيس أنفسنا بالعديد من المقاييس. قوتنا وذكاؤنا وثروتنا وحتى حظنا الجيد هي أشياء تدفئ قلوبنا وتجعلنا نشعر بأنفسنا أهلًا للحياة. ولكن أعمق من كل هذه الأمور، هناك الإحساس بمقدار الجهد الذي يمكن أن نبذله، وهو قادر على كفاية حتى نفسه بدونها»[1].

إذا لم تبذل النساء في النهاية ذلك الجهد، ليصبحن كل ما في مقدورهن أن يصبحن، فسيُجرّدن من إنسانيتهن الخاصة. اليوم، ترتكب المرأة التي ليس لديها أي هدف أو أية غاية أو أي طموح يشكّل أيامها في المستقبل، ويجعلها تمتدّ وتنمو إلى ما بعد ذلك العدد القليل من السنوات التي يستطيع جسدها فيها أن يفي بوظيفته البيولوجية، نوعًا من الانتحار. لأنّ ذلك المستقبل، بعد نصف قرن من انتهاء سنوات الحمل والولادة، هو حقيقة لا تستطيع امرأة أمريكية إنكاره. ولا تستطيع أن تنكر أنها بوصفها ربة منزل، تترك العالم يندفع من أمام بابها، فيمَ هي تجلس وتراقب وحسب. الرعب الذي تشعر به حقيقيّ، إذا لم يكن لها مكان في ذلك العالم.

(1) William James, *Psychology*, New York, 1892, p. 458.

لقد نجح اللغز الأنثوي في دفن ملايين النساء الأمريكيات على قيد الحياة. ليست هناك أية طريقة أمام تلك النساء لكسر معسكرات الاعتقال المريحة إلّا بأن يبذلن أخيرًا جهدًا؛ ذلك الجهد الإنساني الذي يتخطى البيولوجيا، يتخطى جدران البيت الضيقة، للمساعدة في تشكيل المستقبل. وفقط بمثل هذا الالتزام الشخصي بالمستقبل تستطيع النساء الأمريكيات أن يحطّمن شرك ربة المنزل ويجدن التحقّق فعلًا زوجاتٍ وأمهات؛ عبر تحقيق إمكانياتهن الفريدة بوصفهن كائنات إنسانية مستقلة.

الفصل الرابع عشر

خطة حياة جديدة للنساء

«من السهل قول ذلك»، تلاحظ المرأة داخل شرك ربة المنزل، «لكن ماذا أستطيع أن أفعل، وحيدة في المنزل حيث الأولاد يصرخون، والغسيل يجب فرزه، ولا توجد جدّة لتجلس مع الطفل؟». من الأسهل أن تعيش عبر شخص آخر بدلًا من أن تصبح ذاتك الكاملة. الحرية في أن تعيش حياتك الخاصة وتخطّطها مخيفةٌ، إذا لم تكن قد واجهتها من قبل. مخيفةٌ عندما تدرك امرأة أخيرًا أن ليس هناك جواب عن سؤال «من أنا؟»، إلّا الصوت في داخلها. قد تمضي سنوات على أريكة المحلل النفسي لتحقيق «تكيّفها مع الدور الأنثوي»، وحلّ العوائق أمام «تحققها زوجةً وأمًا». ومع ذلك، فقد يقول الصوت في داخلها: «ليس هذا هو». لا يستطيع حتى أفضل محلل نفسي أن يمنحها الشجاعة للاستماع إلى صوتها الخاص. عندما لا يطلب المجتمع إلّا القليل من النساء، فيجب على كل امرأة أن تستمع إلى صوتها الداخلي، لإيجاد هويتها في هذا العالم المتغير. يجب عليها أن تخلق من حاجاتها وقدراتها خطة حياة جديدة، موفِّقة فيها بين الحب والأولاد والبيت، وهي الأمور التي حدّدت أنوثتها في الماضي، مع العمل من أجل غاية أكبر تُشكل المستقبل.

مواجهة المشكلة لا تعني حلّها. ولكن، عندما تواجهها امرأة، مثلما تفعل

النساء اليوم في كل أرجاء أمريكا دون مساعدة كبيرة من الخبراء، عندما تسأل نفسها: «ما الذي أريد القيام به؟» فإنها تبدأ بإيجاد أجوبتها الخاصة. عندما تنفذ رؤيتها إلى ما هو أبعد من أوهام اللغز الأنثوي -وتدرك أن لا زوجها ولا أولادها ولا الأشياء في بيتها ولا الجنس ولا التشابه مع جميع النساء الأخريات يمكن أن يمنحها ذاتًا- فإنها غالبًا ما تجد الحل أسهل بكثير مما كانت تتوقعه.

من بين النساء العديدات اللواتي تكلمت معهن في الضواحي والمدن، كان بعضهن قد بدأ للتو في مواجهة المشكلة، في حين كانت أخريات يسرن قدمًا في طريقهن إلى حلّها، فيمَ لم تعد تمثّل لأخريات مشكلةً. في هدوء بعد ظهر يوم نيساني، قالت لي امرأة، وجميع أولادها في المدرسة:

أضع كلّ طاقاتي في الأولاد، أتجوّل بهم بالعربة، وأقلق بشأنهم، وأعلّمهم الأشياء. وفجأةً، أصبح هناك ذلك الشعور المرعب بالفراغ. وأصبح كل ذلك العمل الطوعي الذي التزمت به -الكشّافة وجمعية أولياء الأمور والمعلمين واتحاد الأندية- فجأةً وكأنه لا يستحق القيام به. عندما كنت فتاة صغيرة، أردت أن أصير ممثلة. فات الأوان على العودة إلى ذلك. كنت أبقى في البيت طوال اليوم، أنظّف أشياء لم أنظفها منذ سنوات. كنت أقضي كثيرًا من الوقت أبكي وحسب. تحدثت مع زوجي عن أنّ تلك هي مشكلة المرأة الأمريكية، كيف تتخلّين عن مهنة من أجل الأولاد، ومن ثمّ تصلين إلى نقطة لا يمكنك العودة منها. شعرت أنني أحسد جدًا النساء القليلات اللواتي أعرفهن، واللواتي كانت لديهن مهارة محددة، وواظبن العمل عليها بجديّة. لم يكن حلمي بأن أصبح ممثّلة واقعيًا؛ لم أعمل على تحقيقه. هل يجب علي أن ألقي بكامل نفسي للأولاد؟ لقد قضيت كل حياتي مغمورة تمامًا بالآخرين، ولم أعرف قط أيّ نوع من الأشخاص كنت أنا نفسي. الآن أعتقد أن حتى إنجاب طفل آخر لن يحلّ ذلك الفراغ طويلًا. لا يمكنك العودة؛ عليك الاستمرار. يجب أن تكون هناك طريق حقيقية ما أستطيع السير بها بنفسي.

كانت هذه المرأة قد بدأت للتو بحثها عن الهوية. وقد قامت امرأة أخرى بالأمر بطريقة مختلفة، وأصبح بإمكانها أن تنظر خلفها الآن، وترى المشكلة

بوضوح. كان بيتها حيويًا وعَرَضيًا، لكنها عمليًا لم تعد «مجرّد ربة منزل». كانت تحصل على أجر مقابل العمل الذي تقوم به رسّامةً محترفة. قالت لي إنها عندما توقفت عن الامتثال لصورة الأنوثة التقليدية، فإنها بدأت أخيرًا تستمتع بأنها امرأة. قالت:

كنت أعمل بجدّ للمحافظة على هذه الصورة الجميلة لنفسي زوجةً وأمًا. ولدت جميع أولادي ولادة طبيعية. وأرضعتهم جميعًا إرضاعًا طبيعيًا. غضبت مرّة من امرأة أكبر سنًا في حفلة، عندما قلت إن الولادة هي أهمّ شيء في الحياة.. الحيوان الأساسي، فقالت: «ألا تريدين أن تكوني أكثر من مجرّد حيوان؟».

أنت فعلًا تريدين ما هو أكثر، ولكنك لا تعرفين ما هو. وهكذا تبذلين المزيد من جهدك في التدبير المنزلي. ليس عملًا متطلبًا كفايةً، مجرّد كي الفساتين لابنتك الصغيرة، وبالتالي تختارين الفساتين المكسّرة التي تتطلب المزيد من الكي، وتصنعين خبزك بنفسك، وترفضين الحصول على غسّالة صحون. تعتقدين أنك إذا جعلت منه تحديًا كبيرًا بما يكفي، فسيكون مُرضيًا على نحو ما. ولكنه ليس مُرضيًا.

أوشكت على إقامة علاقة. كنت أشعر بسخط شديد على زوجي. كنت أشعر بنوبة من الغضب إذا لم يساعد في عمل البيت. ألححت على أن يغسل الصحون، وينظّف الأرضيات وكل شيء. ما كنّا لنتشاجر، ولكن لا يمكن أن تخدعي نفسك أحيانًا في منتصف الليل.

لم أتمكن من الظهور مسيطرة على هذا الشعور بأنني أردت من الحياة ما هو أكثر. وهكذا ذهبت إلى طبيب نفسي. واستمرّ يحاول جعلي أستمتع بأنني أنثى، لكنّ ذلك لم ينفع. ثمّ ذهبت إلى طبيب آخر، جعلني، على ما يبدو، أكتشف من أنا، وأنسى هذه الصورة الأنثوية الجميلة. أدركت أنني غاضبة من نفسي وغاضبة من زوجي، لأنني تركت المدرسة.

كنت أضع الأطفال في السيارة، وأقود فحسب، لأنني لم أكن أحتمل أن أبقى وحيدة في البيت. بقيت أريد أن أفعل شيئًا، لكنني كنت خائفة من المحاولة. وذات يوم، رأيت في طريق خلفيّ فنانًا يرسم، وكان هناك صوتٌ ما يناديني، لم أتمكن من منع نفسي من القول: «هل تعطي دروسًا؟».

كنت أهتم بالبيت والأولاد طوال اليوم، وبعد أن أنتهي من غسل الصحون ليلًا، أرسم. ثمّ أخذت الغرفة التي كنا سنستخدمها لإنجاب طفل آخر –كان خمسة أطفال جزءًا من لوحتي الجميلة– واستخدمتها مرسمًا لي. أتذكّر أنني في إحدى الليالي، كنت أعمل، وأعمل. وفجأةً كانت الساعة الثانية صباحًا، وكنت قد انتهيت. نظرت إلى اللوحة، وكنت كما لو أنني أجد نفسي.

لا أستطيع التفكير ما الذي كنت أحاول أن أفعله بحياتي قبل ذلك، أحاول أن أنسجم مع صورة ما لامرأة رائدة من زمن قديم. ليس علي أن أثبت أنني امرأة عن طريق خياطة ملابسي بنفسي. أنا امرأة، وأنا على حقيقتي، وأشتري ملابسي وأحبها. لم أعد تلك المريضة الملعونة، أو الأم المثالية المحبّة. لا أغيّر ملابس الأطفال من رأسهم حتى قدميهم كل يوم، ولا مزيد من الألبسة المكسّرة. لكن يبدو أنه قد صار لدي المزيد من الوقت لأستمتع بهم. لم أعد أقضي الكثير من الوقت في العمل المنزلي الآن، لكنه ينتهي قبل أن يعود زوجي إلى البيت. اشترينا غسّالة صحون.

كلما زاد الوقت الذي تقضينه في غسل الصحون، قلّ الوقت الذي يبقى لك للقيام بشيء آخر. ليس هناك أية مزية في غسل الصحون وتنظيف الأرضيات. الداكرون وغسالات الصحون والقماش الذي لا يحتاج إلى كي.. هذا رائع، هذا هو الاتجاه الذي يجب أن تأخذه الحياة المادية. هذا وقتنا، وقتنا الوحيد على الأرض. لا يمكننا أن نستمر في هدره. وقتي هو كل ما أملك، وهذا ما أريد أن أفعله به.

لا أريد أن أصنع مثل ذلك الإنتاج من زواجي الآن لأنه حقيقي. على نحوٍ ما، عندما بدأت أملك حسّاً بذاتي، أصبحت أكثر معرفةً بزوجي. سابقًا، كانَ كما لو أنه جزء مني، وليس إنسانًا مستقلًا. أظنّ أنني لم ابدأ الاستمتاع بأني امرأة إلّا عندما توقفت عن محاولة أن أكون امرأة.

ثم كانت هناك أخريات، يتأرجحن جيئة وذهابًا، مدركات للمشكلة، ولكنهنّ لسن متأكدات تمامًا ممّا يجب أن يفعلنه بخصوصها. قالت رئيسة لجنة لجمع الأموال في الضواحي:

أحسد جين التي تبقى في البيت، وتقوم بالعمل الذي تريد القيام به. لم أفتح مسند لوحات الرسم منذ شهرين. أبقى منخرطةً في لجان لا أهتمّ بها.

إنه الشيء الذي يجب القيام به للانسجام مع المجتمع هناك. ولكنّ ذلك لا يجعلني أشعر بالهدوء الداخلي، الطريقة التي أشعر بها عندما أرسم. قال لي فنان في المدينة: «يجب أن تأخذي نفسك بمزيد من الجدية. يمكن أن تكوني فنانة وربة منزل وأمًا؛ الأمور الثلاثة معًا». أعتقد أنّ الشيء الوحيد الذي يوقفني هو أنه عمل شاق.

وقالت لي شابة من أوهايو:

لقد شعرت مؤخرًا بهذه الحاجة. شعرت أنّ علينا ببساطة أن نملك بيتًا أكبر، أن نضيف ملحقًا للبيت، أو ننتقل إلى حيّ أفضل. ذهبت في جولة ترفيهية مسعورة، لكنها كانت مثل العيش في أوقات توقّف حياتك فقط.

يعتقد زوجي أنني إذا كنت أمًا جيدة، فتلك أهمّ مهنة موجودة. أعتقد أنها أهم حتى من مهنة. ولكني لا أعتقد أن معظم النساء هنّ أمهات بكليتهن. أستمتع مع أولادي، لكني لا أحب أن أقضي كل وقتي معهم. أنا ببساطة لست من عمرهم. أستطيع جعل العمل المنزلي يأخذ المزيد من وقتي. لكنّ الأرضيات لا تحتاج التنظيف بالمكنسة الكهربائية أكثر من مرتين في الأسبوع. كانت أمي تكنسها كل يوم.

أردت دائمًا العزف على الكمان. عندما ذهبت إلى الجامعة، كانت الفتيات اللواتي أخذن الموسيقى على محمل الجدّ مميزات. فجأة، بدا وكأن صوتًا في داخلي يقول: هذا هو الوقت المناسب، لن تحصلي على فرصة أخرى. شعرت بالحرج، أن أمارس العزف في الأربعين. إنه يستنزفني ويوجع كتفي، لكنه يجعلني أشعر أنني متوحدة مع شيء أكبر مني. يصبح العالم فجأة حقيقيًا، وأنت جزء منه. تشعرين أنك موجودة فعلًا.

سيكون خطأ تمامًا مني أن أقدّم لأية امرأة أجوبة عملية سهلة عن هذه المشكلة. ليست هناك أجوبة سهلة في أمريكا اليوم؛ إنه لصعب على كل امرأة، ومؤلم لها، ويأخذ ربما وقتًا طويلًا منها، حتى تجد جوابها الخاص. أولًا، يجب أن ترفض على نحو قاطع لصورة ربة المنزل. وهذا لا يعني، بالطبع، أن تطلّق زوجها، وتهجر أولادها، وتتخلّى عن بيتها. ليس عليها أن تختار بين الزواج والمهنة؛ كان هذا هو الخيار الخطأ للّغز الأنثوي. في

الواقع الفعلي، ليس الجمع بين الزواج والأمومة، وحتى الغاية الشخصية التي تمتد طوال العمر، التي أطلق عليها ذات يوم «المهنة»، صعبًا على النحو الذي يوحي به اللغز الأنثوي. بل يتطلب مجرّد خطة حياة جديدة؛ من حيث أنها تشمل كامل حياة المرأة.

أول خطوة في تلك الخطة هي رؤية العمل المنزلي على ما هو عليه؛ لا على أنه مهنة، بل شيء يجب القيام به بأسرع وأكفأ ما يمكن. عندما تتوقف المرأة عن القيام بالطبخ والتنظيف والغسيل والكي و«شيء أكثر»، يمكنها أن تقول: «لا، لا أريد فرنًا دائري الزوايا، لا أريد أربعة أنواع مختلفة من الصابون». تستطيع أن تقول «لا» لأحلام اليقظة الكبيرة تلك التي تعرضها المجلات النسائية والتلفاز، «لا» لباحثي الأعماق والمتلاعبين الذين يحاولون أن يسيّروا حياتها. ثمّ تستطيع أن تستخدم المكنسة الكهربائية وغسّالة الصحون وجميع الأجهزة الأوتوماتيكية، وحتى البطاطا المهروسة السريعة، حسبما تستحقه هذه الأشياء فعلًا، لتوفير الوقت الذي يمكن استخدامه بطرق أكثر ابتكارًا.

الخطوة الثانية، وربما الأصعب لمنتَجات التربية الموجهة بالجنس، هي رؤية الزواج على حقيقته، واضعاتٍ جانبًا حجاب التمجيد المبالغ به المفروض من قبل اللغز الأنثوي. كان العديد من النساء اللواتي تحدثت معهن يشعرن، على نحو غريب، أنهن منفصلات عن أزواجهن، وساخطات باستمرار على أبنائهن، عندما كنّ يرين في الزواج والأمومة التحقق النهائي لحيواتهن. لكن عندما بدأن باستخدام مواهبهن المتنوعة، واضعاتٍ غايةً خاصة بهن في المجتمع، لم يتحدثن عن شعور جديد بأنهن «على قيد الحياة» أو «الكمال» في أنفسهن وحسب، بل ومع فارق جديد، وإن كان صعب التحديد، في الطريقة التي كنّ يشعرن بها تجاه أزواجهن وأبنائهن. لقد رددت الكثيرات صدى كلمات هذه المرأة:

المضحك في الأمر هو أنني أستمتع مع أولادي أكثر الآن وقد أصبح لدي غرفة

خاصة. في الماضي، عندما كنت أضع ذاتي بكاملها في الأولاد، كان الأمر كما لو أنني أبحث عن شيء ما من خلالهم. لم أكن أستطيع أن أستمتع بهم كما أفعل الآن، كما لو كانوا غروب الشمس، شيء ما يقع خارجي، منفصل عني. في الماضي، كنت أشعر أنني مشدودة بقوة نحو الأسفل من قبلهم، كنت أحاول الهرب في عقلي. ربما يجب على المرأة أن تعتمد على نفسها، لتكون فعلًا مع أبنائها.

قالت لي زوجة محامٍ من نيوإنجلاند:

ظننت أنني انتهيت. وصلت إلى نهاية الطفولة، وتزوجت، وأنجبت طفلًا، وكنت سعيدة بزواجي. لكنني كنت، على نحو ما، يائسة، لأنني افترضت أن تلك هي النهاية. كنت أرفع المنجَّدات في أسبوع، ولوحات الأحد في الأسبوع الذي يليه. كان بيتي نظيفًا تمامًا. وكنت أكرّس، بكل معنى الكلمة، الكثير من الوقت لتسلية ابني. لم يكن بحاجة إلى كل تلك الرفقة مع شخص بالغ. امرأة بالغة تلعب مع طفل طوال اليوم، موزّعةً نفسها في مائة اتجاه لملء الوقت، طابخةً طعامًا ممتازًا لا يحتاج أحد إليه، ثم أغضب إذا لم يأكلوه؛ تفقدين حسّك السليم ذاك المميّز للبالغين، كلّ حسّك بنفسك كإنسان.

أنا الآن أدرس التاريخ، مقرر كل سنة. والأمر يسير على ما يرام، لكنني لم أضيّع ليلة واحدة في سنتين ونصف. قريبًا سأصير مدرّسة. أحبّ أنّي زوجة وأم، لكني أعرف الآن أنه عندما يكون الزواج هدف حياتك، لأنه ليست لديك رسالة أخرى، فإنه يصبح أمرًا موحشًا تعيسًا. من قال إن النساء يجب أن يكنّ سعيدات، وأن يلهون، وأن يتسلّين؟ يجب أن تعملي. ولكنك لست مضطرة لأن يكون لديك وظيفة. ولكن يجب عليك أن تعالجي شيئًا ما بنفسك، وأن تدركي حقيقته، حتى تشعري أنك على قيد الحياة.

ليس الجواب على المشكلة التي لا اسم لها ساعة في اليوم، أو عطلة أسبوعية، أو حتى أسبوع إجازة من الأمومة. تفترض تلك «الساعة بلا عمل للأم»[1]، التي ينصح بها خبراء الطفل والأسرة أو الأطباء المربكين بمثابة ترياق لتعب ربة المنزل أو شعورها بأنها عالقة في الفخ، تلقائيًا أنّ المرأة

(1) See "Mother's Choice: Manager or Martyr," and "For a Mother's Hour," *New York Times Magazine*, January 14, 1962, and March 18, 1962.

هي «مجرّد ربة منزل»، أمٌّ الآن وإلى الأبد. يستطيع شخص مستهلك تمامًا في عمله أن يستمتع «بوقت العطلة». لكنّ الأمهات، اللواتي تحدثت إليهن، لم يجدن أية راحة سحرية في «ساعة بلا عمل»؛ وفي الحقيقة، غالبًا ما كنّ يتخلّين عنها لأدنى ذريعة، إمّا من الإحساس بالذنب أو من الملل. ستتابع المرأةُ، التي ليس لديها أي هدف خاص في المجتمع، المرأةُ التي لا تستطيع ترك نفسها تفكّر في المستقبل، لأنها لا تفعل أي شيء لتمنح نفسها هوية حقيقية فيه، الشعورَ باليأس في الحاضر؛ بغض النظر عن عدد «الساعات بلا عمل» التي تأخذها. يجب أن تفكّر حتى امرأة شابة جدًا الآن بنفسها كإنسان أولًا، لا كأم، والوقت ما يزال في متناول يديها، وأن تضع خطة حياة على أساس قدراتها الخاصة، والتزامًا خاصًا بها نحو المجتمع، يمكن بموجبها أن تتكامل التزاماتها زوجةً وأمًا.

لخّصت إحدى النساء اللواتي قابلتهن، وهي عاملة في مجال التثقيف الصحي النفسي، كانت على مدى سنوات «مجرّد ربة منزل» في مجتمعها في إحدى الضواحي، الأمر قائلةً: «أتذكّر شعوري بأن الحياة لم تكن مليئة بما يكفي بالنسبة لي. كنت أستخدم نفسي على قدر قدراتي. لم يكن ترتيب البيت كافيًا. لا يمكنك أن تعيدي الجنّي إلى القمقم. لا يمكنك أن تنكري عقلك الذكي؛ أنت بحاجة إلى أن تكوني جزءًا من النظام الاجتماعي».

وقالت وهي تنظر من فوق أشجار حديقتها إلى الشارع الفارغ الهادئ في الضاحية:

إذا قرعتِ على أي باب من هذه الأبواب، فكم امرأة تستخدم كل قدراتها ستجدين؟ ستجدينهن يشربن، أو يجلسن متراخيات، يتحدثن مع نساء أخريات، ويراقبن الأطفال وهم يلعبون، لأنهن لا يحتملن أن يبقين وحيدات، أو يشاهدن انتلفاز، أو يقرأن كتابًا. لم يؤثر المجتمع في النساء بعد، لم يجد طريقة بعد لاستخدام مهاراتهن وقدراتهن، فيما عدا الحمل والولادة. أعتقد أن النساء، على مدى السنوات الخمس عشرة الماضية، كنّ يهربن من أنفسهن. والسبب الذي جعل الشابات منهن يصدقن بسذاجة هذا العمل الأنثوي هو

اعتقادهن بأنهن إذا عدن وبحثن عن الرضا في البيت، فسيكون ذلك أسهل. ولكنه لن يكون. فهناك في نقطة ما على طول الخط يجب على المرأة أن تجد نفسها كشخص، إذا كانت ستتصالح مع ذاتها.

الطريقة الوحيدة للمرأة، كما للرجل، حتى تجد نفسها، حتى تعرف نفسها كشخص، هي عمل إبداعي خاص بها. ليست هناك طريقة أخرى. لكن العمل، أي عمل، ليس هو الجواب؛ ففي الحقيقة، قد يكون جزءًا من الفخ. النساء اللواتي لا يبحثن عن أعمال مساوية لقدراتهن الفعلية، أو اللواتي لا يدعن أنفسهن تطوّر اهتمامات وأهداف تمتدّ طوال الحياة وتتطلب تعليمًا وتدريبًا جديين، أو اللواتي يتولّين عملًا بعمر العشرين أو الأربعين «للمساعدة في البيت» أو لمجرّد قتل الوقت الإضافي، يمشين، بالتأكيد نفسه الذي لأولئك اللواتي يبقين داخل فخّ ربة المنزل، إلى مستقبل غير موجود.

إذا كان لعمل أن يكون مخرجًا من الفخّ لامرأة ما، فيجب أن يكون عملًا تستطيع أخذه على محمل الجد بوصفه جزءًا من خطة حياتها، عملًا يمكنها أن تنمو فيه بوصفها جزءًا من المجتمع. تقدّم مجتمعات الضواحي، ولاسيما المجتمعات الجديدة التي لم تأخذ الأنماط الاجتماعية والثقافية والتربوية والسياسية والاستجمامية فيها شكلها النهائي بعد، عددًا كبيرًا من الفرص للمرأة الذكية الكفؤة. لكنّ ذلك العمل ليس بالضرورة «وظيفة». أقامت النساء في ويستشيستر، في لونغ آيلاند، في ضواحي فيلادلفيا، عيادات للصحة النفسية ومراكز فنية ومعسكرات نهارية. وكانت نساء في المدن الكبيرة والصغيرة، في كل مكان من نيوإنجلاند إلى كاليفورنيا، رائدات حركات جديدة في السياسة والتعليم. حتى إذا لم يؤخذ هذا العمل على أنه «وظيفة» أو «مهنة»، فقد كان غالبًا مهمًا جدًا للمجتمعات المتنوعة التي يُدفع للمهنيين الآن أجر مقابل القيام به.

لم يبق الآن في بعض الضواحي والمجتمعات سوى القليل من العمل

الذي يتطلب الذكاء لغير المهنيين؛ باستثناء بضعة وظائف قيادية، تفتقر معظم النساء هذه الأيام إلى الاستقلالية والقوة والثقة بالذات لتولّيها. إذا كانت في المجتمع نسبة عالية من النساء المتعلمات، فليس هناك ببساطة عدد كافٍ من تلك الوظائف لتدويرها بينهن. ونتيجة ذلك، غالبًا ما يتمدّد العمل المجتمعي في بنيةٍ مليئة باللجان والبيروقراطية لا تخدم إلّا ذاتها، في أنقى معنى لقانون باركنسون[1]، حتى لتبدو غايتها الحقيقية وكأنها مجرّد إبقاء النساء مشغولات. ليس هذا العمل، الذي لا غاية له سوى إبقاء النساء مشغولات، مُرضيًا للنساء الناضجات، ولا يساعد النساء غير الناضجات على النمو. ليس الهدف من ذلك القولَ إنّ عمل المرأة مشرفةً على الكشافة الصغار، أو في لجنة لجمعية أولياء الأمور والمعلمين، أو في تنظيم عشاء عامّ، ليس مفيدًا؛ بل إنه ببساطة غير كاف لامرأة ذكية وموهوبة.

انخرطت إحدى النساء اللواتي قابلتهن في دوامة لا نهاية لها من النشاطات المجتمعية ذات الشأن، لكنّ تلك النشاطات لم تكن تفضي إلى أي اتجاه بالنسبة لمستقبلها، ولم تكن تستخدم فعلًا ذكاءها الاستثنائي. وفي الواقع، بدا ذكاءها وكأنه يتراجع؛ كانت تعاني من المشكلة التي لا اسم لها، وعلى نحو يزداد حدّة إلى أن قامت بخطوتها الأولى نحو التزام جدّي. هي اليوم «مدرّسة محترفة» وزوجة وأم هادئة.

> في البداية، استلمتُ لجنة جمع التبرعات في المستشفى، لجنة المتطوعين في أعمال كتابية للعيادة. كنت المشرفة على رحلات الأطفال الميدانية. كنت آخذ دروسًا في البيانو مقابل نحو 30 دولارًا في الأسبوع، وأدفع لجليسات الأطفال حتى أستطيع العزف من أجل متعتي الخاصة. وضعت نظام ديوي العشري للمكتبة التي أنشأناها، إضافة إلى دور المشرفة المعتاد وجمعية أولياء الأمور والمعلمين. كان الإنفاق المالي على جميع هذه الأشياء يقتطع شريحة لا بأس

---

(1) Parkinson's Law: قانون وضعه في القرن العشرين الباحث الإنكليزي سي باركنسون مفاده أن العمل يتمدد ليملأ الوقت المتاح، وأن عدد المرؤوسين يتزايد بغض النظر عن مقدار العمل الناتج - المترجم.

بها من دخل زوجي. ومع ذلك فهي لا تملأ حياتي. كنت مضطربة ونكدة المزاج. كنت أنفجر باكية بلا سبب. لم أكن أستطيع التركيز حتى لإنهاء قصة بوليسية.

كنت مشغولة جدًا، أركض من الصباح إلى المساء، ومع ذلك لم يكن لدي شعور حقيقي بالاكتفاء. أنت تربّين أطفالك، بالتأكيد، ولكن كيف يمكن أن يكون ذلك مبرّر حياتك؟ يجب أن يكون لديك هدف نهائي ما، هدف طويل الأمد، يبقيك مستمرةً. النشاطات المجتمعية هي أهداف قصيرة الأمد؛ تقومين بمشروع، وانتهى الأمر؛ ثمّ عليك أن تتصيدي مشروعًا آخر. يقولون إنك، في العمل المجتمعي، يجب ألّا تزعجي الأمهات الشابات اللواتي لديهن أطفال صغار. هذا عمل الأمهات اللواتي وصلن إلى منتصف العمر وكبر أبناؤهن. ولكن بالضبط أولئك المقيّدات بالأطفال هنّ من يحتجن إلى القيام بذلك. فعندما لا تكوني مقيدة بأطفال صغار، أسقطي ذلك من حسبانك؛ لأنك تكونين بحاجة إلى عمل حقيقي.

نتيجة اللغز الأنثوي (وربما نتيجة الخوف الإنساني البسيط من الفشل، عندما ينافس المرء دون أفضلية جنسية أو عذر)، فإن القفزة من هاوٍ إلى محترف هي غالبًا الأصعب بالنسبة للمرأة في طريقها للخروج من الفخ. ولكن حتى إذا لم تكن المرأة مضطرة للعمل لتأكل، لا يمكنها أن تجد هوية إلّا في عمل ذي قيمة حقيقية للمجتمع[1]؛ عمل يدفع مجتمعنا عادةً أجرًا مقابله. أن يدفع لك أجر هو بالطبع أكثر من مكافأة؛ فهو يتضمن التزامًا

(1) يصبح معنى أن العمل يجب أن يكون «حقيقيًا»، لا مجرّد «علاج» أو إضاعة وقت، لتأمين أساس للهوية جليًا على نحو متزايد في نظريات الذات، حتى عندما لا تكون هناك إشارة معينة إلى النساء. وبالتالي، في تحديد بدايات «الهوية» في الطفل، يقول إريكسون في الطفولة والمجتمع (Childhood and Society, p. 208):

«يجب أن يشتق الطفل النامي، في كل خطوة، معنى حيويًا للواقع من إدراك أن طريقته الفردية في التحكم بالتجربة (تركيب أناه) هي متغير ناجح من هوية المجموعة وهي متوافقة مع زمكانها وخطة حياتها. وفي هذا لا يمكن خداع الأطفال بالمديح الفارغ والتشجيع المتعطّف. ربما يجب أن يقبلوا الدعم المصطنع لتقديهم الذاتي بدلًا من شيء أفضل، لكنّ هوية أناهم لا تكتسب قوة حقيقية إلا من الاعتراف القويم والحار بالإنجاز الحقيقي، أي الإنجاز الذي له معنى في الثقافة».

محددًا. ونتيجة الخوف من ذلك الالتزام، تخدع مئات النساء المتعلمات والمؤهلات في الضواحي أنفسهن بخصوص الكاتبة أو الممثلة التي كان يمكن أن يكنّها، أو يشغلن أنفسهن بالفن أو الموسيقى مغفلات «إغناء أنفسهن» على النحو الذي يفعله الهواة، أو يتقدمن بطلبات للعمل موظفات استقبال أو بائعات أو للعمل في أعمال أقل بكثير من مؤهلاتهن. وهذه أيضًا طرق للتهرّب من النمو.

لقد تُعزي ملل النساء الأمريكيات المتنامي من العمل التطوعي وتفضيلهن العمل بأجر، بغض النظر عن مدى تدنّي مستواه، إلى الحقيقة القائلة إن المحترفات قد تولّين معظم الوظائف التي تتطلب ذكاء في المجتمع. لكنّ الحقيقة القائلة إن النساء لا يصبحن محترفات، وإن مقاومة النساء في السنوات العشرين الماضية للالتزام بعمل، مأجور أو غير مأجور، يتطلب المبادرة والقيادة والمسؤولية، هي نتيجة اللغز الأنثوي. جرى تأكيد موقف عدم الالتزام هذا بين ربات المنازل الشابات بدراسة جرت مؤخرًا في مقاطعة ويستشيستر[1]. في ضاحية سكانها من ذوي الدخل العالي، أرادت أكثر من 50٪ من مجموعة من ربات المنازل اللواتي تتراوح أعمارهن بين 25 و35، ممن ينتمي أزواجهن إلى المجموعة التي يفوق دخلها 25 ألف دولار سنويًا، الذهاب إلى العمل: 13٪ فورًا، والبقية في غضون 15-5 سنة. ومن بين أولئك اللواتي خططن للذهاب للعمل كانت ثلاث من أصل كل أربع يشعرن أنهن غير مؤهلات كفاية. (حصلت جميع أولئك النساء على تعليم جامعي ما، لكنّ واحدة فقط كانت خريجة؛ وثلثهن تزوجن بعمر العشرين أو قبله). لم تكن الحاجة الاقتصادية هي دافع أولئك النساء للذهاب إلى العمل، بل ما أسماه عالم الأنثروبولوجيا الذي أجرى المسح «الحاجة النفسية إلى أن يكنّ منتجات اقتصاديًا». من الواضح أن العمل التطوعي

(1) Nanette E. Scofield, "Some Changing Roles of Women in Suburbia: A Social Anthropological Case Study," *Transactions of the New York Academy of Sciences*, Vol. 22. 6, April, 1960.

لم يحقق تلك الحاجة؛ فعلى الرغم من أن 62٪ من تلك النساء كنّ يقمن بعمل تطوعي، فقد كان من النوع الذي يستمر «يومًا واحدًا أو أقل». وعلى الرغم من أنهن كنّ يردن أعمالًا، ويشعرن بأنهن غير مؤهلات كفاية، فمن بين الـ45٪ اللواتي كن يأخذن مقررات تعليمية، كانت القليلات فقط يعملن للحصول على درجة جامعية. كان عنصر الخيال في خططهن للعمل ملحوظًا من خلال «المشاريع الصغيرة التي تبدأ وتنتهي بتكرار محزن». عندما رعت جمعية الخريجات منتدى من جلستين في الضاحية حول «عودة النساء في منتصف العمر إلى العمل»، لم تحضر سوى 25 امرأة. وكخطوة أولى، طُلب من كل امرأة أن تأتي إلى الاجتماع الثاني بملخّص. كان الملخّص يتضمن كتابة فكرة ما و«صدق الغاية»، على حد تعبير الباحث. تمتعت امرأة واحدة فقط بما يكفي من الجدية لكتابة ملخّص.

وفي ضاحية أخرى، هناك مركز إرشادي، أعطى في السنوات الأولى من حركة الصحة النفسية مدى حقيقيًا لذكاء النساء المتعلمات جامعيًا في المجتمع. هم، بالطبع، لم يقوموا بالعلاج قط، لكنهم في السنوات الأولى أداروا المركز وقادوا مجموعات أولياء الأمور للمناقشة حول الأمور التعليمية. أمّا الآن وقد أصبح «التعليم من أجل الحياة العائلية» مهنيًا، فإن محترفين يديرون المركز ويقودون مجموعات المناقشة، وهؤلاء المحترفون يحملون شهادات ماجستير ودكتوراه في اختصاصهم. وفي عدد قليل جدًا من الحالات التي «وجدت النساء فيها أنفسهن» في العمل في مركز الإرشاد، تابعن في المهنة الجديدة، وحصلن على شهادة ماجستير أو دكتوراه. انسحب معظمهن عندما كان الاستمرار يعني الانقطاع عن دور ربة المنزل، والالتزام جديًا بمهنة.

إن النوع الوحيد من العمل الذي يسمح لامرأة كفوءة بأن تحقق قدراتها على نحو تام، وبأن تنجز هويتها في المجتمع في خطة حياة يمكن أن تشمل الزواج والأمومة، هو، ويا للسخرية، النوع الذي حرّمه اللغز الأنثوي؛ الالتزام

مدى الحياة بفنّ أو علم، بسياسة أو مهنة. والتزام من هذا القبيل ليس مقيدًا بعمل معين أو منطقة معينة. إنه يسمح بالتغيّر من عام لعام، قد يكون عملًا مأجورًا بدوام كامل في مجتمع ما وبدوام جزئي في آخر، وقد يكون ممارسة مهارة احترافية في عمل تطوعي جدّي، أو فترة من الدراسة في أثناء فترة الحمل أو بداية الأمومة، عندما يكون عمل بدوام كامل غير ممكن عمليًا. إنه خيط مستمر، بقي حيًا عن طريق العمل والدراسة والاتصالات في الميدان، في أي جزء من البلد.

لم تعانِ النساء، اللواتي وجدتُ أنهن قمن بمثل تلك الالتزامات طويلة الأمد، وأبقينها حيّة، من المشكلة التي لا اسم لها. ولا هنّ يعشن في صورة ربة المنزل. ولكن، لا تقدّم الموسيقى أو الفن أو السياسة حلًا سحريًا للنساء اللواتي لم يلتزمن جديًا، أو لم يستطعن القيام بالتزام من ذلك القبيل. تبدو «الفنون» من النظرة الأولى وكأنها الجواب المثالي للمرأة. إذ تمكن ممارستها، في نهاية المطاف، في البيت. وهي لا تتطلب بالضرورة تلك المهنية المفزعة، فهي أنثوية على نحو مناسب، ويبدو أنها تقدّم مجالًا لا محدودًا للنمو والهوية الشخصيين، دون الحاجة إلى المنافسة في المجتمع من أجل الأجر. لكنني لاحظت أنه عندما لا تأخذ النساء الرسم أو فن الخزف جديًا بما يكفي ليصبحن محترفات -ليحصلن على أجر مقابل عملهن، أو لتعليمه للآخرين، وليعترف بهن نظيرات للمحترفين الآخرين- فعاجلًا أم آجلًا، يتوقفن عن ذلك العمل الهاوي؛ فرسم يوم الأحد، وفن الخزف التافه لا يجلب ذلك الإحساس المطلوب بالذات، عندما لا يكون ذا قيمة لأي شخص آخر. فالهاوي الذي لا يكون عمله جيدًا بما يكفي لأن يرغب أحد ما بدفع أجر مقابل سماعه أو رؤيته أو قراءته لا يكتسب مكانة حقيقية عن طريقه في المجتمع، أو هوية شخصية حقيقية. فهذه محجوزة لأولئك الذين بذلوا جهدًا، واكتسبوا المعرفة والخبرة ليصبحوا محترفين.

هناك بالطبع عدد من المشاكل العملية التي ينطوي عليها القيام بالتزام

مهني جدي. ولكن، على نحو ما، لا تبدو هذه المشاكل غير قابلة للتذليل إلا عندما تبقى المرأة نصف منغمسة في معضلات اللغز الأنثوي وآثامه الزائفة؛ أو عندما تكون رغبتها في «شيء أكثر» مجرّد خيال، وهي غير راغبة بالقيام بالجهد الضروري. قالت لي نساء المرّة تلو المرة إنّ الخطوة الحاسمة لهن كانت ببساطة القيام بالزيارة الأولى إلى وكالة تشغيل الخريجات، أو إرسال طلب للحصول على شهادة معلّم، أو ترتيب مواعيد مع أشخاص من أعمال سابقة. من المدهش أن نرى بكم من العقبات والتبريرات يستطيع اللغز الأنثوي أن يفيض لمنع المرأة من القيام بتلك الزيارة أو كتابة تلك الرسالة.

كانت ربة منزل أعرفها في إحدى الضواحي قد عملت مرّة في صحيفة، وكانت متأكدة من أنها لن تستطيع الحصول على عمل كهذا مرة أخرى، لأنها ابتعدت فترة طويلة. وبالطبع لم تكن تستطيع أن تترك أطفالها (الذين كانوا جميعًا في ذلك الوقت في المدرسة أثناء النهار). وكما تبيّن فيما بعد، عندما قرّرت أخيرًا أن تفعل شيئًا ما حيال الأمر، وجدت عملًا ممتازًا في مجالها القديم بعد زيارتين فقط إلى المدينة. وقالت امرأة أخرى، وهي عاملة اجتماعية نفسية، إنها لم تتمكن من تولّي عمل منتظم في مؤسسة، وإنما أعمال تطوعية دون مواعيد نهائية تستطيع التخلّي عنها عندما ترغب لأنها لم تكن تستطيع الاعتماد على عاملة التنظيف. وفي الحقيقة، لو أنها استخدمت عاملة تنظيف، وهو ما كانت الكثيرات من جاراتها يقمن به لأسباب أقلّ من ذلك بكثير، لكان عليها أن تلتزم بنوع العمل الذي من شأنه أن يمثّل اختبارًا حقيقيًا لقدراتها. من الواضح أنها كانت خائفة من اختبار كهذا.

تنسحب أعداد كبيرة من ربات المنازل في الضواحي اليوم من النشاط التطوعي أو الفن أو العمل، أو يتخلّين عن هذه الأشياء، في اللحظة ذاتها التي يكون كل ما هو مطلوب منهن فيها هو التزام أكثر جدية. لا تتقدم قائدة جمعية أولياء الأمور والمعلمين إلى مجلس المدرسة. وتخاف قائدة رابطة الناخبات من الاستمرار في الاتجاه السائد المضطرب لحزبها السياسي.

تقول: «لا تستطيع النساء أن يحصلن على دور في صنع السياسات. لن ألعق الطوابع». بالطبع سيتطلب منها الفوز بدور في صنع السياسات في حزبها مزيدًا من الجهد في مواجهة تحيّزات الرجال والمنافسة معهم.

تتولّى بعض النساء الوظائف، ولكنهن لا يضعن خطة الحياة الجديدة الضرورية. قابلت امرأتين موهوبتين، وكلتاهما كانتا تشعران بالملل كربّتي منزل، وكلتاهما كانتا قد حصلتا على عمل في مركز الأبحاث ذاته. أحبتا العمل الذي ينطوي على تحدّ متزايد، وحصلتا بسرعة على ترقية. ولكن، في الثلاثينيات من العمر، وبعد عشر سنوات من عملهما ربتي منزل، كانتا تكسبان القليل جدًا من المال. كانت المرأة الأولى، التي تدرك بوضوح المستقبل الذي يعدها به هذا العمل، تنفق عمليًا كامل راتبها على عاملة تنظيف تأتي ثلاثة أيام في الأسبوع. أمّا المرأة الثانية، التي كانت تشعر أنّ عملها ليس مبررًا إلّا إذا «ساعد في نفقات العائلة» فما كانت تنفق أي مال على المساعدة في التنظيف. ولم تفكر في أن تطلب من زوجها وأولادها المساعدة في الأعمال المنزلية الصغيرة، ولا في توفير الوقت عن طريق طلب البقالة بالهاتف وإرسال الغسيل إلى المصبغة. تركت عملها بعد سنة من التعب المضني. لدى المرأة الأولى، التي قامت بالتغييرات والتضحيات المنزلية الضرورية اليوم -في سن الثامنة والثلاثين- عملًا رائدًا في المعهد وتقدّم إسهامًا كبيرًا في دخل العائلة، علاوة على ما تدفعه لمساعدتها في العمل المنزلي التي تعمل بدوام جزئي. أما الثانية، فبدأت بعد أسبوعين من «الاستراحة» تعاني من اليأس القديم. ولكنها أقنعت نفسها أنها «ستخدع» زوجها وأبناءها أقلّ عن طريق عمل يمكنها أن تقوم به في البيت.

صورة ربة المنزل السعيدة التي تقوم بعمل إبداعي -الرسم أو النحت أو الكتابة- هي إحدى أنصاف أضاليل اللغز الأنثوي. هناك رجال ونساء يستطيعون القيام بذلك؛ ولكن عندما يعمل رجل في البيت، فإن زوجته تبقي الأولاد بصرامة بعيدين عن طريقه، وإلا فالويل لها. ولكن ليس ذلك

سهلًا على المرأة؛ إذا كانت جادة بخصوص عملها، فيجب غالبًا أن تجد مكانًا ما خارج البيت للقيام به، وإلا فإنها تخاطر بأن تصبح غولًا على أبنائها وهي تطالبهم بإلحاح بأن يتركوا لها شيئًا من الخصوصية. يتشتت انتباهها، ويتقطّع تركيزها ما بين عملها ودورها بوصفها أمًّا. يتطلب عمل بلا مفاصل، يمتد من التاسعة صباحًا إلى الخامسة بعد الظهر، مع فصل واضح بين العمل المهني والعمل المنزلي، انضباطًا أقل بكثير، وهو عادة أقل وحدةً. يمكن أن تفقد المرأة، التي تحاول أن تكيّف مهنتها مع القيود المادية لحياتها المنزلية، شيئًا من الحافز والصداقات الجديدة التي تأتي من أنها جزء من العالم المهني.

يجب أن تقول المرأة «لا» للّغز الأنثوي بوضوح تام، في الواقع، حتى تحافظ على الانضباط والجهد اللذين يتطلبهما أي التزام مهني. فاللغز ليس مجرّد بنيان فكري. يمتلك عدد كبير من النساء، أو يعتقدن أنهن يمتلكن، حقًا مكتسبًا في «المهنة: ربة منزل». مهما كان طويلًا الزمن الذي قد تأخذه المجلات النسائية وعلماء الاجتماع والمربّون والمحللون النفسيون لتصحيح الأخطاء التي تؤبّد اللغز الأنثوي، يجب على المرأة أن تعالجها الآن، في التحيّزات والمخاوف غير المحقة والمعضلات غير الضرورية التي يعبّر عنها زوجها أو أصدقاؤها أو جيرانها وربما القسيس أو الخوري أو الحاخام أو معلمة طفلها في الحضانة أو العامل الاجتماعي حسن النية في العيادة الإرشادية أو أطفالها الصغار الأبرياء. لكن المقاومة، من أي مصدر كانت، تُرى على نحو أفضل لما هي عليه.

حتى المقاومة التقليدية للأرثوذكسية الدينية مقنّعة اليوم بالتقنيات التلاعبية للعلاج النفسي. فالنساء المنحدرات من أصل كاثوليكي أو يهودي تقليدي لا يخرقن بسهولة صورة ربة المنزل؛ فهي مرفوعة إلى درجة القداسة في قوانين دينهن، في فرضيات طفولتهن وطفولة أزواجهن، وفي تعاريف الكنيسة العقائدية للزواج والأمومة. نستطيع رؤية السهولة التي يمكن تزيين

العقيدة بها في المعتقدات النفسية للّغز في «موجز مقترح لنقاشات الأزواج المتزوجين» من مكتب حياة الأسرة في أبرشية نيويورك. تُوَجّه هيئة محلّفين مؤلفة من ثلاثة أزواج متزوجين أو أربعة، بعد تمرين من قبل «قسّ-ميسّر»، بأن تطرح سؤال: «هل يمكن لزوجة عاملة أن تشكّل تحديًا لسلطة الزوج؟».

معظم المخطوبين مقتنعون أن ليس هناك ما هو غير طبيعي أو خطأ في الزوجة العاملة. ... لا تثر العداوة، أعطِ إيحاءات، ولا تعطِ آراء جازمة. ... يجب أن يشير الأزواج في الهيئة إلى أن العروس السعيدة في عمل يمتد من التاسعة صباحًا إلى الخامسة بعد الظهر يجب أن تفكر فيما يلي:

- ربما تقوّض، بحذاقة، حسّ زوجها بالمهنة باعتباره من يكسب قوت الأسرة ورأسها. يمكن لعالم العمل التنافسي أن يغرس في ذهن العروس العاملة مواقف وعادات قد تجعل من الصعب عليها التكيّف مع قيادة زوجها. ...
- في نهاية يوم العمل، تقدّم لزوجها ذهنًا وجسمًا متعبين في وقت يتطلع هو فيه إلى تشجيع مبهج وحماس نشيط من شريكته. ...
- بالنسبة لبعض العرائس، قد يكون التوتر المضاعف الناتج عن أنهن نساء عاملات وربات منازل بدوام جزئي من بين العوامل العديدة التي تسهم في العقم...

انسحبت امرأة كاثوليكية قابلتها من مجلس الولاية لرابطة الناخبات عندما ادعى العالم النفسي في المدرسة، إضافة إلى استياء القسّيس وزوجها، أنّ صعوبات ابنتها في المدرسة ناجمة عن نشاطها السياسي. قالت لي: «من الصعب على المرأة الكاثوليكية أن تبقى متحررة. لقد استقلت. سيكون أفضل للجميع أن أكون مجرّد ربة منزل». في تلك اللحظة رنّ جرس الهاتف، واسترقت السمع باهتمام إلى نصف ساعة من الحديث عن إستراتيجية سياسية رفيعة، من الظاهر أنها لم تكن من الرابطة، بل من اللجنة المحلية للحزب الديمقراطي. عادت السياسية «المتقاعدة» إلى المطبخ لتنهي إعداد الغداء، واعترفت أنّها الآن تقوم بنشاطها السياسي في البيت «مثل مدمن على الكحول أو المخدرات، ولكن لا يبدو أني قادرة على التخلّي عنها».

تخلّت امرأة أخرى، وهي من الدين اليهودي، عن مهنتها طبيبةً عندما أصبحت زوجة طبيب، مكرّسة نفسها لتربية أبنائها الأربعة. ولم يشعر زوجها بالسعادة عندما بدأت تصقل معلوماتها لإعادة القيام بامتحاناتها الطبية بعد وصول أصغر أبنائها إلى عمر المدرسة. وبذلت كامرأة هادئة غير واثقة من ذاتها جهدًا يكاد لا يصدق للحصول على ترخيصها بعد خمسة عشر عامًا من اللا فاعلية. قالت لي بنبرة اعتذارية: «لا يمكنك التوقف عن الاهتمام. حاولت أن أجعل نفسي غير مهتمة، لكنني لم أستطع». واعترفت لي أنها عندما تتلقى استدعاءًا في الليل، فإنها تتسلّل شاعرةً بالذنب كما لو كانت تلتقي عاشقًا.

وحتى بالنسبة لامرأة في تقليد أقل أرثوذكسية، فإن السلاح الأقوى للّغز الأنثوي هو حجة أنها ترفض زوجها وأبناءها نتيجة العمل خارج البيت. وإذا مرض طفلها، أو عانى زوجها من مشاكل، لأيّ سبب من الأسباب، فإنّ اللغز الأنثوي والأصوات الماكرة في المجتمع، وحتى صوت المرأة الداخلي، تلوم «رفضها» دور ربة المنزل. وعندها يحدث أن يموت الكثير من التزام المرأة تجاه نفسها والمجتمع في لحظة الولادة، أو يأخذ انعطافًا جديًا.

قالت لي امرأة إنها تخلّت عن عملها في التلفاز لتصبح «مجرّد ربة منزل»، لأنّ زوجها قرّر فجأة أن مشاكله في عمله هي نتيجة فشلها في «لعب الدور الأنثوي»؛ كانت تحاول أن «تنافسه»؛ كانت تريد «أن تلبس البنطال». وكانت هي، مثل معظم النساء اليوم، حسّاسة تجاه اتهامات من هذا النوع؛ يطلق طبيب نفسي على ذلك اسم «متلازمة الإحساس بالذنب لدى المرأة المهنية». وهكذا بدأت تكرّس كل الطاقات، التي كانت تضعها يومًا في عملها، لإدارة عائلتها، ولاهتمام نقديّ نقّاق بمهنة زوجها.

لكنّها في وقت فراغها في الضواحي، حققت شاردة الذهن نجاحًا محليًا باهرًا بوصفها مديرة مجموعة في المسرح المحلي. كان هذا، إضافة إلى

اهتمامها النقدي بمهنة زوجها، أكثر تدميرًا لأناه وأكثر استفزازًا له ولأبنائها من عملها المهني الذي نافست فيه بموضوعية مهنيين آخرين في عالم بعيد جدًا عن البيت. في أحد الأيام، وفيما كانت تدير تمرينًا في المسرح المحلي، صدمت سيارة ابنها. ألقت باللوم على نفسها نتيجة الحادث، مقرّرةً هذه المرة، من قلبها، أنها ستصير «مجرّد ربة منزل».

وعانت، على الفور تقريبًا، من حالة حادة من المشكلة التي لا اسم لها؛ جعل اكتئابها واتكاليتها حياة زوجها جحيمًا. بحثت عن مساعدة تحليل- نفسية؛ أمرها معالجها عمليًا بالعودة إلى العمل، مبتعدًا عن طريقة المحللين النفسيين التقليديين اللا توجيهية. بدأت كتابة رواية جدية بذلك النوع من الالتزام الذي تهرّبت منه حتى عندما كان لديها عمل. وفي استغراقها ذاك، توقفت عن القلق بشأن مهنة زوجها؛ وبدقة أكثر، توقفت عن تخيّل حادث آخر يصيب ابنها في كل مرة يبتعد فيها عن ناظريها. ومع ذلك، وعلى الرغم من أنها بعيدة جدًا عن النكوص، فقد كانت أحيانًا تتساءل عما إذا كانت تضع زواجها على خشبة الفرم.

وعلى نحو معاكس للّغز، انكبّ زوجها -مستجيبًا إما للمتنفّس الذي أمّنه توقّف اتكالها الهستيري أو لأسباب مستقلة خاصة به- على ما يعادل تلك الرواية في مهنته. بقيت هناك مشاكل بالطبع، لكنها كانت مختلفة عن المشاكل القديمة؛ فعندما حطّما فخّيهما، بدأت علاقتهما أحدهما بالآخر تنمو مرة أخرى.

ومع ذلك، هناك مع كل نوع من النمو مخاطر. التقيت في إحدى مقابلاتي بامرأة، طلّقها زوجها بعد ذهابها إلى العمل بوقت قصير. كان زواجهما قد أصبح هدّامًا جدًا. وربما يكون حسّ الهوية الذي حققته المرأة من عملها قد جعلها أقل استعدادًا لقبول التدميرية، وربما تستعجل الطلاق؛ لكنه أيضًا جعلها أقدر على تجاوزه.

لكن، في أمثلة أخرى، أخبرتني النساء أنّ اعتراضات أزواجهن العنيفة

اختفت، عندما قرّرن في النهاية، وذهبن إلى العمل. هل بالغن في اعتراضات أزواجهن ليتهربن من اتخاذ القرار بأنفسهن؟ كان الرجال الذين قابلتهم في هذا السياق يُفاجؤون أحيانًا، عندما يكتشفون أنّ «من المريح» لهم ألّا يبقوا الشمس والقمر الوحيدين في عالم زوجاتهم؛ أصبحوا عرضةً لدرجة أقل من النقّ وعدد أقل من المطالب التي لا تشبع، ولم يعودوا يشعرون بالذنب حيال استياء زوجاتهم. وكما عبّر أحد الرجال عن الأمر بالقول: «ليس العبء المالي فقط أخف، وهذا بصراحة مريح، بل إن عبء الحياة كله يبدو أسهل منذ أن ذهبت مارجريت إلى العمل».

لكن، هناك أزواج لم تتبدّد مقاومتهم بسهولة. فقد أُغري الزوج العاجز عن تحمّل أن تقول زوجته «لا» للّغز الأنثوي ذاته غالبًا بالخيال الطفلي في أن تكون له أمّ دائمة الحضور، أو هو يحاول أن يحيا مرة أخرى ذلك الخيال من خلال أطفاله. من الصعب على المرأة أن تقول لزوج من هذا القبيل إنها ليست أمه، وإنّ أولادهما سيكونون أفضل بعيدًا عن عنايتها الدائمة. ربما إذا أصبحت فعلًا على حقيقتها، ورفضت أن تمثّل خياله أكثر من ذلك، فسيستيقظ فجأة ويراها ثانية. ومن ثمّ قد يبحث مرة أخرى عن أمّ أخرى.

هناك خطر آخر، تواجهه المرأة في طريقها للخروج من فخّ ربة المنزل، هو عدوانية ربات المنازل الأخريات. وتمامًا مثلما يستاء الرجل، الذي يتهرّب من النمو في عمله، من نموّ زوجته، تستاء النساء، اللواتي يعشن على نحو غير مباشر من خلال أزواجهن وأبنائهن، من المرأة التي لديها حياة خاصة بها. يمكن للمرأة التي هي أكثر من مجرّد ربة منزل أن تتوقع في حفلات العشاء، وفي أمور الحضانة، وفي اللقاءات المفتوحة لجمعية أولياء الأمور والمعلمين، بعض الأشواك من جاراتها في الضاحية. فهي لم يعد لديها الوقت للكلام الفارغ في جلسات شرب القهوة التي لا تنتهي في غرفة الطعام؛ هي لم تعد تستطيع المشاركة في ذلك الوهم العائلي القائل: «نحن جميعًا في القارب ذاته»؛ فوجودها يهزهز ذلك القارب. ويمكنها أن تتوقع

وضع بيتها وزوجها وأولادها تحت تدقيق شديد، وبفضول يفوق العادي، بحثًا عن أدنى علامة على وجود «مشكلة». ولكنّ هذا النوع من العدائية يخفي أحيانًا حسدًا سريًا. قد تكون ربة المنزل الأكثر عدائية بين «ربات المنازل السعيدات» هي أول من تطلب النصيحة من جارتها صاحبة المهنة الجديدة بخصوص أن تسير قدمًا هي نفسها.

هناك دائمًا بالنسبة للمرأة التي تسير قدمًا ذلك الحسّ بالخسارة الذي يرافق التغيير: الصديقات القديمات و خسارة الأعمال الروتينية المألوفة والمؤكدة، فيمَ الجديدة لم تتضح بعد. أسهل جدًا على المرأة أن تقول «نعم» للغز الأنثوي، وألّا تخاطر بآلام السير قدمًا، لأنّ الرغبة في بذل الجهد -«الطموح»- ضرورية ضرورة المقدرة ذاتها، إذا كانت ستخرج من فخّ ربة المنزل. لقد جعل اللغز الأنثوي من «الطموح» مثل «المهنة» كلمة قذرة. عندما أجرت بولي ويفر (Polly Weaver)، وهي محرّرة مجلّة مادموزيل، استبيانًا شمل 400 امرأة في عام 1956، حول موضوع «الطموح» و«المنافسة»[1]، عبّرت معظمهن عن «مشاعر الذنب» لأنّ لديهن طموح. حاولن، حسب كلمات الآنسة ويفر، أن «يجعلنه نهضويًا، لا دنيويًا وأنانيًا كالأكل. فوجئنا... بعدد النساء اللواتي يدفعن أنفسهن من الصباح إلى المساء من أجل عمل أو من أجل المجتمع أو الكنيسة، على سبيل المثال، ولكنّهن لا يردن منه ما يساوي خمسة سنتات لأنفسهن. لا يردن المال، أو المركز الاجتماعي أو السلطة أو النفوذ أو التقدير. ... هل تخدع أولئك النساء أنفسهن؟».

من شأن اللغز أن يقدّم نساء ينكرن الطموح لأنفسهن. فالزواج والأمومة هما الغاية؛ بعد ذلك، يفترض بالنساء أن يكنّ طموحات فقط لأزواجهن وأبنائهن. تدفع نساء عديدات ممّن «يخدعن أنفسهن»، في الواقع، بالزوج

(1) Polly Weaver, "What's Wrong with Ambition?" *Mademoiselle*, September, 1956.

والأبناء إلى تحقيق طموحهن الخاص غير المعترف به. لكن، كان هناك العديد من النساء الطموحات صراحةً بين أولئك اللواتي أجبن على استبيان مجلة مادموزيل؛ ولم يبدُ أنهن يعانين من ذلك.

لم يكن لدى النساء الطموحات، اللواتي أجبن على استبياننا، سوى القليل مما يأسفن عليه بخصوص التضحية بالصديقات القديمات اللطيفات وبالرحلات العائلية والوقت لقراءة كتب لا يريد أحد الحديث عنها. قلن إنهنّ حصلن على أكثر ممّا تخلّين عنه، واستشهدن بصديقات جديدات، وبالعالم الأكبر الذي انتقلن إليه، وبدوافع النمو العظيمة التي حصلن عليها عندما عملن مع النابغات والموهوبات – وأكثر من كل ذلك، الرضا الذي يحصلن عليه من العمل بكامل طاقتهن، مندفعات مثل طنجرة بخار. في الحقيقة، تجعل بعض النساء الطموحات السعيدات الأشخاص المحيطين بهن –أزواجهن وأولادهن وزملائهن- سعداء. ... ليست امرأة طموحة جدًا سعيدة أيضًا في تخّليها عن مكانتها بالكامل من أجل نجاح زوجها. ... الطموح، بالنسبة للمرأة الطموحة النشيطة، هو الخيط الذي ينظم حياتها من البداية إلى النهاية، يربط حياتها، ويمكّنها من التفكير بحياتها كعمل فني لا كمجموعة من الأجزاء...

بالنسبة للنساء اللواتي قابلتهن، اللواتي عانين من المشكلة التي لا اسم لها، وحللنها، كان تحقيق طموح خاص بهن -سواء كان دفينًا في نفوسهن منذ زمن بعيد أو جديدًا تمامًا- في العمل بأقصى طاقة، أو الحصول على إحساس بالإنجاز، يشبه العثور على جزء ضائع في لغز حياتهن. غالبًا ما كان المال الذي يحصلن عليه يجعل حياة العائلة كلها أسهل، لكن لم تزعم أيّة واحدة منهن أن ذلك هو السبب الوحيد للعمل، أو الشيء الرئيسي الذي حصلن عليه منه. فقد عاد ذلك الإحساس بأن تكوني جزءًا من العالم بالتمام والكمال -«لم تعودي جزيرة، بل جزءًا من البر الرئيسي». كنّ يعرفن أن ذلك لم يأت من العمل وحده، بل من الكل -زواجهن وبيتهن وأولادهن وعملهن وتغيّرهن وصلاتهن المتنامية مع المجتمع. لقد أصبحن مرة أخرى إنسانات، لا «مجرّد ربات منزل». تلك النساء هنّ المحظوظات. ربما يكون رفض الطفولة، أو مراهقة منفّرة، أو تعاسة في الزواج، أو

طلاق، أو ترمّل، هو ما دفع بعضهن إلى ذلك الطموح. إنها لسخرية من اللغز الأنثوي، واتهام له أيضًا، أنه غالبًا ما دفع بالنساء التعيسات، بالبطّات القبيحات، إلى إيجاد أنفسهن، في حين أصبحت الفتيات اللواتي انسجمن مع صورة ربات المنازل «السعيدات» المتكيفات، ولم يكتشفن قط حقيقة أنفسهن. ولكنّ القول إنّ «الإحباط» قد يكون جيدًا للفتاة هو خطأ في فهم الفكرة؛ إذ لا يجب أن يكون الإحباط ثمن هوية المرأة، وليس هو في حد ذاته المفتاح. لقد منع اللغز الفتيات الجميلات، والقبيحات أيضًا، اللواتي كان يمكن أن يكتبن قصائد مثل إديث سيتويل (Edith Sitwell)، من اكتشاف مواهبهن، ومنع الزوجات السعيدات والتعيسات، اللواتي كان يمكن أن يجدن أنفسهن، مثلما فعلت روث بينيديكت (Ruth Benedict) في الأنثروبولوجيا، من اكتشاف حتى مجالاتهن الخاصة. وفجأة تقع آخر قطعة من اللغز في مكانها المناسب.

كان هناك شيء، قلّما كانت حتّى النساء الأكثر إحباطًا يجدن دونه طريقًا للخروج من الفخّ. وبغض النظر عن تجربة الطفولة، وبغض النظر عن الحظ في الزواج، كان هناك شيء أنتج الإحباط لدى جميع نساء ذلك الوقت، ممن حاولن التكيّف مع صورة ربة المنزل. كان هناك شيء مشترك بين جميع النساء اللواتي قابلتهن، ممن وجدن في النهاية طريقهن الخاص.

مفتاح الفخّ هو بالطبع التعليم. لقد جعل اللغز الأنثوي تعليم النساء يبدو مشبوهًا وغير ضروري وحتى خطيرًا. ولكني أعتقد أن التعليم، والتعليم وحده، قد أنقذ، ويمكن أن يستمر في إنقاذ، النساء الأمريكيات من مخاطر اللغز الأنثوي الأكبر.

في عام 1957، عندما طُلب مني أن أقوم باستبيان على الخريجات من زميلات دفعتي في الكلية بعد خمسة عشر عامًا من التخرّج من جامعة سميث، تمسّكت بالفرصة، معتقدةً أنني سأتمكن من دحض القناعة المتزايدة بأن التعليم جعل النساء «مسترجلات»، وأعاق تحققهن الجنسي، وسبّب

نزاعات غير ضرورية وإحباطات. اكتشفت أنّ النقاد كانوا نصف محقّين؛ فالتعليم كان خطيرًا ومحبطًا، ولكن فقط حين لم تكن النساء يستخدمنه.

كان 89٪ من النساء المائتين، اللواتي أجبن على الاستبيان في عام 1957، ربات منازل. لقد مررن بجميع أنواع الإحباط التي يمكن أن يسببها التعليم لربات المنازل. ولكن عندما سئلن: «ما الصعوبات التي واجهتها في القيام بدورك كامرأة؟ ... ما الإشباعات والإحباطات الرئيسية في حياتك اليوم؟ ... كيف تغيّرتِ من الداخل؟ ... كيف تشعرين حيال تقدّمك في العمر؟ ... ما الذي تتمنين لو أنك قمت به على نحو مختلف؟ ...» اكتُشِف أنّ مشاكلهن الحقيقية، بوصفهن نساء، لم تكن نتيجة تعليمهن. عمومًا، كنّ يأسفن على شيء واحد؛ أنهن لم يأخذن تعليمهن على محمل الجد بما يكفي، وأنهن لم يخططن لاستخدامه استخدامًا جديًا.

من بين الـ97٪ من أولئك النساء اللواتي تزوّجن -عادةً بعد 3 سنوات من الجامعة- 3٪ فقط طلّقن؛ أمّا الـ20٪ اللواتي كنّ مهتمات برجل آخر منذ الزواج، فمعظمهن «لم يفعلن أي شيء حيال ذلك». أما الأمهات، فـ86٪ منهن نظّمن ولادة أطفالهن واستمتعن بالحمل؛ و70٪ أرضعن أطفالهن إرضاعًا طبيعيًا من شهر إلى تسعة أشهر. وكان لديهن من الأولاد أكثر من أمهاتهن (المتوسط: 2،94)، ولكنّ 10٪ منهن فقط سبق وراودهن الشعور بأنهن «معذّبات» كأمهات. وعلى الرغم من أنّ 99٪ منهنّ ذكرن أنّ الجنس لم يكن سوى «عاملًا من بين عدة عوامل» في حياتهن، فهنّ لم يشعرن أنهن مكتملات جنسيًا، ولم يكنّ قد بدأن تمامًا الشعور بأنهن مكتفيات جنسيًا من أنهن نساء. نحو 85٪ منهن ذكرن أن الجنس «يتحسّن مع مرور السنوات»، لكنهن أيضًا وجدنه «أقل أهمية مما كان عليه في الماضي». وهنّ يتشاركن الحياة مع أزواجهن «بأكمل ما يمكن للمرء أن يفعل مع إنسان آخر»، لكنّ 75٪ منهن اعترفن بسهولة أنهن لم يستطعن مشاركتها كلها.

ومعظمهن (60٪) لم يستطعن القول بصدق، في الحديث عن مهنتهن

الرئيسية كمدبرات منزل، أنهن كنّ يجدنها «مُرضية تمامًا». لم يكن يقضين سوى أربع ساعات في المتوسط يوميًا في العمل المنزلي، ولم يكنّ يستمتعن به. ربما كان صحيحًا أنّ تعليمهن جعلهن محبطات في دور ربّة المنزل. بما أن تلك النساء تلقين تعليمهن قبل فترة اللغز الأنثوي، فإن العديد منهن واجهن انقطاعًا حادًا عن هويتهن المنبثقة في دور ربة المنزل ذاك. ومع ذلك فقد استمرت معظم تلك النساء في النمو ضمن إطار التدبير المنزلي في الضواحي؛ ربما نتيجة الاستقلالية وحسّ الغاية والالتزام بقيم أكبر أعطاها التعليم لهن.

لقد وجدت نحو 79٪ منهن طريقة ما للسعي وراء الأهداف التي أعطاها لهن التعليم، كانت للجزء الأعظم منهن ضمن القيود المادية لمجتمعاتهن. على الرغم من رسوم العجوز هيلين هوكينسون (Helen Hokinson) الكاريكاتورية، كان تحمّلهن المسؤولية المجتمعية عمومًا فعل نضج، التزامًا استخدم قوة الذات وجدّدها. كان للنشاط المجتمعي، عند أولئك النساء، دائمًا تقريبًا طابع الابتكار والفردية، لا طابع الامتثال أو البحث عن المكانة أو الهرب. أنشأن رياض أطفال تعاونية في الضواحي التي لم تكن فيها رياض، وأقمن مقاصف ومكتبات للمراهقين في المدارس، حيث لم يكن جوني يقرأ ببساطة لأنه لم تكن هناك كتبًا جيدة. ابتكرن برامج تعليمية جديدة، أصبحت في النهاية جزءًا من المنهاج. كانت إحداهن مساعدةً لي شخصيًا في الحصول على 13 ألف توقيع لإجراء استفتاء شعبي على إخراج السياسة من النظام المدرسي. وطالبت إحداهن علنًا بإلغاء التمييز العنصري في المدارس في الجنوب. وأقنعت إحداهن أطفالًا بيضًا بالحضور إلى مدرسة فيها فصل عنصري بالفعل في الجنوب. وضغطت إحداهن لتخصيص اعتماد مالي لعيادات الصحة النفسية من خلال الهيئة التشريعية لولاية في الغرب. وأقامت إحداهن برامج للفنون في المتاحف لطلاب المدارس في كل مدينة من المدن الثلاث التي عاشت فيها منذ الزواج.

وأنشأت أخريات، أو قدن، مجموعات كورالية في الضواحي أو مسارح مدينية أو مجموعات دراسية للسياسة الخارجية. كانت 31٪ منهن نشيطات في السياسة الحزبية المحلية، من مستوى اللجنة إلى مستوى مجلس نواب الولاية. وذكرت أكثر من 90٪ منهن أنهن كنّ يقرأن الجريدة كاملة كل يوم، وأنهن كنّ يصوتن بانتظام. من الجليّ أنهن لم يكنّ يشاهدن برامج التلفاز النهارية، ويبدو أنهن لم يلعبن البريدج قط، ولم يقرأن المجلات النسائية. ولم يكن نصف عدد الكتب التي قرأنها، والذي يتراوح بين خمسة عشر كتابًا وثلاثمائة لكل منهن، على قائمة الكتب الأكثر مبيعًا.

تمكنت تلك النساء، وهنّ يواجهن الأربعين، من الحديث بصراحة تامة عن الشيب الذي يغزو شعرهن، وعن أنّ «بشرتهن تبدو ذابلة ومتعبة»، ومع ذلك يقلن، دون كبير أسف على الشباب الضائع: «لدي إحساس متنامٍ بتحقيق الذات وبالصفاء الداخلي والقوة». «لقد أصبحت على حقيقتي أكثر».

كان أحد أسئلة الاستبيان: «كيف تتصورين حياتك بعد أن يكبر الأولاد؟». كانت لدى معظمهن (60٪) خطط معيّنة للعمل أو الدراسة. خطّطن لإنهاء تعليمهن في النهاية، فالعديدات ممن لم تكن لديهن طموحات مهنية في أثناء الجامعة لديهن تلك الطموحات الآن. لقد وصلت قلة منهن إلى «أعماق المرارة»، إلى «حافة التحرّر من الوهم واليأس»، محاولاتٍ العيش على أنهن مجرّد ربات منازل. واعترفت قلّة منهن بلهفة أنّ «تسيير أمور بيتي وتربية أربعة أولاد لا يستخدمان حقًا تعليمي أو الكفاءة التي بدا يومًا أنني أمتلكها. لو كان ممكنًا فقط أن أجمع بين الأمومة والمهنة». أمّا الأكثر مرارة فكنّ أولئك اللواتي قلن: «لم أكتشف قطّ أي نوع من الأشخاص أنا. ضيّعتُ الجامعة محاولةً إيجاد نفسي في الحياة الاجتماعية. أتمنى الآن لو أنني دخلت في شيء بما يكفي من العمق لتكون لي حياة خلّاقة خاصة بي». لكنّ معظمهن كنّ يعرفن الآن من هنّ، وما الذي أردن أن يفعلنه؛

80٪ شعرن بالأسف على أنهن لم يخطّطن جديًا لاستخدام تعليمهن في عمل مهني. لن يعود التقدير السلبي ولا حتى المشاركة النشيطة في شؤون المجتمع كافيين عندما يكبر أولادهن قليلًا. ذكرت نساء كثيرات أنهن كن يخطّطن كي يعلّمن؛ ولحسن حظهن، أعطتهن الحاجة الكبيرة إلى معلمات فرصة العودة إلى التيار. وتوقّعت أخريات سنوات من الدراسة الإضافية قبل أن يصبحن مؤهلات في اختصاصاتهن المختارة.

لأولئك الخريجات المائتين من جامعة سميث مثيلاتهن من النساء على امتداد البلاد، نساء ذكيات وموهوبات يشققن طريقهن خارجات من فخ ربة المنزل، أو لم يقعن في الفخ قط نتيجة تعليمهن. لكن، كانت تلك الخريجات في عام 1942 من بين آخر النساء الأمريكيات اللواتي تعلّمن قبل اللغز الأنثوي.

ويرى المرء في استبيان آخر أجابت عليه تقريبًا 10 آلاف خريجة من جامعة ماونت هوليوك (Mount Holyoke) في عام 1962 –وهي الذكرى السنوية المائة وخمس وعشرون لتأسيسها– أثر اللغز في النساء المتعلمات في آخر عقدين. أظهرت خرّيجات ماونت هوليوك معدل زواج مرتفع وطلاق منخفض مشابه (2٪ بالمجمل). لكن قبل 1942، معظمهن تزوجن بعمر الخامسة والعشرين أو أكثر؛ وبعد عام 1942 أظهر العمر عند الزواج انخفاضًا حادًا، كما شهدت نسبة اللواتي لديهن أربعة أولاد أو أكثر ارتفاعًا حادًا. قبل عام 1942، تابع ثلثا الخريجات أو أكثر دراسة أعلى من ذلك؛ لكنّ تلك النسبة انخفضت بثبات. لم تحصل سوى القليلات في الصفوف الأخيرة على شهادات عالية في الفنون أو العلوم أو القانون أو الطب أو التربية بالمقارنة مع الـ40٪ في عام 1937. ويبدو أيضًا أنّ عددًا متناقصًا بحدّة يشارك في آفاق أوسع تتعلق بالالتزام الوطني أو الدولي؛ لقد انخفضت المشاركة في النوادي السياسية المحلية إلى 12٪ مع صف عام 1952. ومن عام 1942 فصاعدًا، لم تنتسب إلّا قلّة من الخريجات

إلى مهنة ما. سبق لنصف جميع خريجات ماونت هوليوك العمل يومًا ما، لكنهن لم يعدن يعملن، أساسًا لأنهن اخترن «دور ربة المنزل». عاد بعضهن إلى العمل؛ لزيادة الدخل ولأنهن أحببن العمل. أما في صفوف عام 1942 وصاعدًا، حيث معظم النساء هنّ الآن ربات منازل، فالنصف تقريبًا لم تكن لديهن نيّة العودة إلى العمل.

إن مساحة الالتزام المتقلّصة تجاه العالم خارج البيت بدءًا من عام 1942 فصاعدًا مؤشر واضح على أثر اللغز الأنثوي في النساء المتعلمات. فأنا أدرك، وقد رأيت الفراغ اليائس والشعور «بالوقوع بالفخ» لدى العديد من النساء الشابات اللواتي تعلّمن في ظل اللغز أن يكنّ «مجرد ربات منازل»، أهمية تجربة زميلاتي. فالعديدات منهن كن قادرات، نتيجة تعليمهن، على الجمع بين التزامات جديّة خاصة بهن والزواج والعائلة. كنّ قادرات على المشاركة في أنشطة مجتمعية تتطلب الذكاء والمسؤولية، وأن يمضين قدمًا، مع بضع سنوات من الاستعداد، إلى العمل الاجتماعي المهني أو التعليم. كنّ يستطعن الحصول على أعمال بوصفهن معلمات وكيلات أو عاملات اجتماعيات بدوام جزئي لتمويل المقررات اللازمة للحصول على الشهادة. كنّ في الغالب قد كبرن إلى حدٍّ لا يردن معه العودة إلى الميادين التي عملن بها بعد الجامعة، وكنّ، بجوهر الاستقلالية، الذي أعطاهن إياه تعليمهن، يستطعن الدخول حتى في ميدان جديد.

ولكن ماذا عن النساء الشابات اليوم اللواتي لم يرغبن يومًا بالتعليم العالي، اللواتي تركن الجامعة، ليتزوجن، أو كنّ يمرّرن الوقت في صفوفهن بانتظار «الرجل المناسب»؟ ما الذي سيكنّ عليه في الأربعين؟ تنشد ربات المنازل في كل ضاحية ومدينة المزيد من التعليم اليوم، كما لو أنّ مقررًا ما، أيّ مقرر، سيمنحهن الهوية التي يسعين إليها. لكن قلّما تكون المقررات التي يأخذنها، أو التي تعرض عليهن، بهدف الاستخدام الفعلي في المجتمع. واللغز الأنثوي ينخر التعليم الذي يمكن لامرأة أن تحصل

عليه في الأربعين، ويلوّثه، ويضعفه، أكثر حتى من التعليم الذي تهرّبت منه في الثامنة عشرة سعيًا وراء الخيال الجنسي.

مقررات في الجولف والبريدج وصناعة السجّاد وفن الطبخ والخياطة معدّة، كما أفترض، للاستخدام الفعلي من قبل النساء اللواتي يبقين في فخ ربة المنزل. ما يسمى المقررات الفكرية التي تقدّم في مراكز تعليم الكبار المعتادة -التقييم الفني، صناعة الخزف، كتابة القصة القصيرة، المحادثة بالفرنسية، كتب عظيمة، الفلك في عصر الفضاء- ليست الغاية منها سوى «إغناء الذات». ليست الدراسة ولا الجهد ولا حتى العمل المنزلي، الذي يقتضي التزاما طويل الأمد، أمورًا متوقعة من ربة المنزل.

في الواقع، تحتاج الكثير من النساء، اللواتي يأخذن هذه المقررات، بشدة إلى تعليم جادّ؛ ولكن إذا لم يتمتعن قط بالميل إليه، فهنّ لا يعرفن كيف يبحثن عنه وأين، ولا يفهمن حتى أنّ الكثير من المقررات التعليمية للكبار غير مُرضية ببساطة لأنها ليست جديّة. البعد الواقعي الضروري حتى لـ«إغناء الذات» ممنوع، وعلى الأغلب بالتعريف، في مقرر مصمم خصيصًا لـ«ربات المنازل». وهذا صحيح حتى عندما تتمتع المؤسسة التي تقدّم المقرر بأعلى المعايير. أعلنت جامعة رادكليف مؤخرًا عن «معهد لزوجات المديرين التنفيذيين» (من المفترض أن يتبع بـ«معهد لزوجات العلماء» أو «معهد لزوجات الفنانين» أو «معهد لزوجات أساتذة الجامعات»). فزوجة المدير أو زوجة العالم في سن الخامسة والثلاثين أو الأربعين، والتي أصبح جميع أبنائها في المدرسة، لا يمكن إلا بصعوبة مساعدتها من أجل الهوية الجديدة التي تحتاج إليها عن طريق التعلّم على أخذ حصة بديلية أكثر تفصيلًا من عالم زوجها. ما تحتاج إليه هو تدريب على عمل إبداعي خاص بها.

لم يكن التعليم، بين النساء اللواتي قابلتهن، المفتاح للمشكلة التي لا اسم لها إلّا عندما كان جزءًا من خطة الحياة الجديدة، وكان الهدف منه أن يستخدم جديًا في المجتمع، سواء كان هوايةً أم احترافًا. لم يكنّ قادرات على

إيجاد ذلك التعليم إلّا في الكليات والجامعات النظامية. وعلى الرغم من التفكير المليء بالرغبات الذي أنتجه اللغز الأنثوي لدى الفتيات ومربيهن، فإن حصول امرأة، لديها زوج وثلاثة أولاد أو أربعة وبيت، على التعليم، الذي تهرّبت منه في سن الثامنة عشرة أو الحادية والعشرين، أصعب بما لا يقاس في سن الحادية والثلاثين أو الثامنة والثلاثين أو الحادية والأربعين. فهي تواجه في الكلية أو الجامعة التحيّزات التي خلقها اللغز الأنثوي. بغض النظر عن قِصر غيابها عن ميدان الاختبارات العلمية، فإنّ عليها أن تبدي جدّيتها في غايتها المرة تلو المرة حتى يتمّ قبولها في الجامعة مرة أخرى. ومن ثمّ يجب عليها أن تنافس مجموعات الأولاد الذين يعجّ بهم المكان، والذين أفرطت، هي ونساء أخريات غيرها، في إنجابهن في هذه الفترة. ليس من السهل على امرأة بالغة أن تجتاز مقرراتٍ معدّة للمراهقين، أن تعامل مثل مراهقة مرة أخرى، أن تكون مضطرة إلى إثبات أنها تستحق أن تؤخذ بالجدية ذاتها التي تؤخذ بها مراهقة. يجب على المرأة أن تبدي الكثير من البراعة، وأن تحتمل الكثير من الصدّ والخيبات، حتى تجد التعليم الذي يناسب حاجتها، وتجعله أيضًا يناسب التزاماتها الأخرى بوصفها زوجة وأمًا.

قررت إحدى النساء اللواتي قابلتهن، ولم يكن قد سبق لها الذهاب إلى الجامعة، بعد علاج نفسي، أن تأخذ مقررين سنويًا في جامعة مجاورة كان فيها، لحسن الحظ، مدرسة مسائية. لم تكن لديها في البداية أدنى فكرة إلى أين يقودها ذلك، لكنها بعد سنتين قرّرت أن تختص بالتاريخ وأن تحضّر نفسها لتعليمه في مدرسة ثانوية. حافظت على نتائج جيدة، على الرغم من أنها كانت غالبًا نافدة الصبر من الإيقاع البطيء والعمل الكثير الذي لا هدف له. لكن، على الأقل جعلتها الدراسة لغاية ما تشعر أفضل مما كانت عليه عندما كانت تقرأ قصص الألغاز أو المجلات في الملعب. وإضافة إلى ذلك، كانت الدراسة تقود إلى شيء حقيقي للمستقبل. ولكن، بمعدل مقررين في السنة (وهو ما كان يكلّف 420 دولارًا حينها ومساءين في الصف)، كان من شأن

تلك الدراسة أن تستغرق منها عشر سنوات للحصول على شهادة الليسانس. في السنة الثانية، كان المال قليلًا، ولم تتمكن من أخذ إلّا مقرر واحد. لم تكن تستطيع التقدّم للحصول على قرض طلابي إلّا إذا تحوّلت إلى طالبة بدوام كامل، وهو ما لم تكن قادرة عليه حتى يدخل أصغر أبنائها الصف الأول. ولكنها بالرغم من كل ذلك، تمسكّت بالأمر على ذلك النحو أربع سنوات، ملاحظةً أنّ المزيد والمزيد من ربات المنازل في صفوفها قد تركن الدراسة نتيجة المال، أو لأن «الأمر كله كان سيستغرق زمنًا طويلًا جدًا».

ثمّ عندما أصبح أصغر أطفالها في الصف الأول، أصبحت طالبة بدوام كامل في الكلية النظامية، حيث الإيقاع أبطأ حتى من ذي قبل لأنّ الطلاب كانوا «أقلّ جديةً». لم تستطع أن تحتمل فكرة كل السنوات التي أمامها للحصول على شهادة الليسانس (التي ستحتاجها لتدريس التاريخ في مدرسة ثانوية في تلك الولاية)، وبالتالي تحوّلت إلى اختصاص في التربية. وبالتأكيد ما كان لها أن تتابع ذلك التعليم المتعرّج المكلف لو لم يكن لديها بحلول ذلك الوقت خطة حياة واضحة تستخدمها، خطة تتطلب ذلك التعليم. وبما أنها أصبحت ملتزمة بالتعليم الابتدائي، فقد أصبحت قادرة على الحصول على قرض حكومي ليغطّي جزءًا من رسومها التعليمية بدوام كامل (التي تتجاوز الآن 1000 دولار في السنة)، وفي سنتين أخريين ستكون قد انتهت.

على الرغم من تلك العقبات الهائلة، فإن أعدادًا متزايدة من النساء يعدن إلى المدرسة، عمليًا دون مساعدة من المجتمع وبتأخر في التشجيع من جانب المربين أنفسهم وضنّهم به، وذلك من أجل الحصول على التعليم الذي يحتجن إليه. لكن لا يمكن إلا لأقواهن، بعد نحو عشرين سنة من اللغز الأنثوي، أن يتابعن طريقهن بأنفسهن. لأنّ هذه ليست مجرّد المشكلة الخاصة لكل امرأة على حدة. هناك تضمينات للّغز الأنثوي تجب مواجهتها على المستوى الوطني.

تفرض المشكلة التي لا اسم لها -والمتمثلة ببساطة في منع النساء الأمريكيات من النمو حتى تحقيق قدراتهن الإنسانية الكاملة- عبئًا على صحة بلدنا النفسية والجسدية أكبر بكثير من أي مرض معروف. فكّروا في المعدّل العالي لحدوث الانهيار العاطفي بين النساء في «أزمات الدور» (role crises) في العشرينيات والثلاثينيات من أعمارهن؛ وإدمان الكحول وحالات الانتحار في الأربعينيات والخمسينيات؛ واحتكار ربات المنازل لوقت الأطباء. فكّروا في شيوع زواج المراهقات، والمعدّل المتزايد من حالات الحمل غير الشرعية، وما هو حتى أكثر خطورةً، أي مرض تكافل الأم-الطفل. فكّروا في سلبية المراهقين الأمريكيين المنذرة بالخطر. إذا تابعنا إنتاج الملايين من الأمهات الشابات اللواتي يوقفن نموّهن وتعليمهن، وتنقصهن الهوية، وليس لديهن جوهرًا قويًا من القيم الإنسانية ينقلنه لأبنائهن، فإننا ببساطة شديدة نرتكب إبادة جماعية، تبدأ بالدفن الجماعي للنساء الأمريكيات، وتنتهي بالتجريد المتزايد لأبنائهن وبناتهن من الإنسانية.

لا يمكن حلّ هذه المشاكل بالدواء ولا حتى بالعلاج النفسي. نحتاج إلى إعادة تشكيل قاسية لصورة الأنوثة الثقافية، التي ستسمح للنساء بالوصول إلى النضج والهوية وكمال الذات دون تضارب مع التحقق الجنسي. يجب القيام بمحاولة كبيرة من قبل المربّين وأولياء الأمور -والقسس ومحرّري المجلات والمعالجين والموجّهين- لإيقاف حركة الزواج المبكر، ولدفع الفتيات من النضج راغبات في أن يكنّ "مجرّد ربات منازل"، إيقافها من خلال الإصرار على أن تطوّر الفتيات القدرات والأهداف الذاتية التي ستسمح لهنّ بأن يجدن هويتهن الخاصة، حاصلاتٍ على الاهتمام ذاته منذ الطفولة، الذي يمنحه أولياء الأمور والمربّون للصبيان.

وبالطبع، ليس قول «لا» للّغز الأنثوي أسهل على مربٍّ مما هو على فتاة أو امرأة بذاتها. يتردّد حتى أكثر المربّين تقدّمًا، والمهتمين جديًا بالحاجة الماسّة لربات المنازل اللواتي على أيديهن بقايا حياة، في مقاومة

مدّ الزواج المبكر. لقد أرهبهم أساطين التحليل النفسي المبسّط ومازالوا يرتعشون إحساسًا بالذنب من فكرة التدخّل في تحقق المرأة الجنسي. إنّ الحجة المحافظة التي يقدمها أولئك الأساطين الذين هم أنفسهم، في بعض الحالات، ممتازين في الأوساط الجامعية، هي: بما أن الطريق الأولّي إلى الهوية للمرأة هو الزواج والأمومة، فيجب تأجيل الاهتمامات أو الالتزامات التعليمية الجدية، التي قد تسبب تضاربًا في دورها بوصفها زوجة وأمًا، حتى تنتهي سنوات الحمل والولادة. لقد قُدّم هذا التحذير في عام 1962 من قبل استشاري نفسي إلى جامعة يال، التي كانت تدرس قبول النساء في المرحلة الجامعية الأولى في نفس التعليم الجدي الذي تقدمه للرجال.

تبدو العديد من النساء الشابات -إن لم تكن غالبيتهن- عاجزات عن التعامل مع الاهتمامات الفكرية المستقبلية طويلة الأمد إلى أن يتجاوزن المراحل الأكثر أساسية في نموّهن الصحي بوصفهن نساء. ... حتى ينجز عمل الأم في تدريب أبنائها وتشكيل حياة أسرتها جيدًا، يجب أن يستفيد من كل قدرات المرأة العاطفية والفكرية ومن مهاراتها. كلما كان تدريبها أفضل، كانت فرصتها أفضل للقيام بالعمل على نحو أفضل، شريطة ألّا تقف العقبات العاطفية في طريقها: أي شريطة أن تكون قد أرست قاعدة جيدة لتطوّر أنوثتها البالغة، وأنها في سياق تعليمها العالي لم تكن عرضة لضغوط أثّرت سلبًا على تطورها. ... يمكن أن يؤثّر الإلحاح على أهدافها المتضاربة، والتشديد على أنّ العمل والمهنة في عالم الرجل يجب أن يمثّلا الاعتبار الأول في تخطيط حياتها، سلبيًا في تطوّر هويتها الكاملة. ... إنها تقدّر من بين جميع الحريات الاجتماعية التي ظفرت بها جداتها أولًا حرية أن تكون امرأة سليمةً صحيًا ومكتفية، وهي تريد أن تكون متحررة من الذنب والصراع حيال ذلك. ... هذا يعني أنه على الرغم من أن الوظائف ممكنة غالبًا في إطار الزواج، فإن «المهن» قلما تكون كذلك...[1].

وتبقى الحقيقة، إن الفتاة التي تهدر سنواتها الجامعية -مثل الهدر الذي تقوم به- دون أن تكسب اهتمامات جديّة، وتهدر سنوات عملها الأولى

(1) Edna G. Rostow, "The Best of Both Worlds," Yale Review, March, 1962.

في تمرير الوقت حتى تجد رجلًا، تغامر بإمكانيات الحصول على هوية خاصة بها، وكذلك بإمكانيات تحقّقها الجنسي وبالأمومة المثبتة برمتها. يجعل المربون، الذين يشجعون المرأة على تأجيل اهتماماتها الأكبر حتى يكبر أولادها، عمليًا من المستحيل عليها بالمطلق أن تحوز على تلك الاهتمامات. ليس من السهل على امرأة، عرّفت نفسها كليّةً على أنها زوجة وأمّا مدة عشر سنوات أو خمس عشرة أو عشرين سنة، أن تجد هوية في سن الخامسة والثلاثين أو الأربعين أو الخمسين. والنساء القادرات على فعل ذلك هنّ، بصراحة تامة، اللواتي قمن بالتزامات جدية تجاه تعليمهن السابق، اللواتي أردن مهنًا وعملن بها في يوم من الأيام، اللواتي يحضرن إلى الزواج والأمومة حسّاً بهويتهن الخاصة؛ لا أولئك اللواتي يأملن على نحو ما أن يحرزنها لاحقًا. أظهرت دراسة حديثة على خمسين خرّيجة جامعية في ضاحية ومدينة شرقية أنه في السنة التي غادر أكبر الأولاد فيها البيت، وباستثناءات قليلة، كانت النساء الوحيدات اللواتي لديهن أية اهتمامات يسعين إلى تحقيقها -في العمل أو المجتمع أو الفنون- هن اللواتي أحرزن ذلك في الجامعة. أمّا أولئك اللواتي لم تكن لديهن مثل تلك الاهتمامات، فلم يكنّ يحرزنها الآن؛ لقد تأخرن في النوم في «أعشاشهن الفارغة» ولم تطلّعن قدمًا إلّا إلى الموت[1].

(1) Ida Fisher Davidoff and May Elish Markewich, "The Postparental Phase in the Life Cycle of Fifty College-Educated Women," unpublished doctoral study. Teachers College, Columbia University, 1961.

كانت النساء الخمسون [اللواتي شملتهن الدراسة] ربات منزل وأمهات متفرغات خلال السنوات التي كان أطفالهن فيها في المدرسة. مع مغادرة آخر طفل، تضمنت النساء اللواتي كن يعانين من كرب شديد، لأنه لم يكن لديهن أي اهتمام حقيقي يتجاوز المنزل، بضع نساء كانت قدرتهن الفعلية وإنجازهن عاليان؛ سبق وكانت تلك النساء قائدات في العمل المجتمعي، لكنهن شعرن بما يشبه «الزيف» أو «الخداع» لاكتسابهن الاحترام على «عمل يستطيع طفل في العاشرة من عمره القيام به». يجعلهن توجّه الكتاب في مدرسة التكيّف الوظيفي يرثين لحقيقة أنّ التعليم أعطى تلك النساء أهدافًا «غير واقعية» (مازال عدد مدهش منهن يتمنين، وهن الآن في الخمسينيات والستينيات من عمرهن، لو كنّ طبيبات). لكنّ أولئك النساء اللواتي كانت لديهن اهتمامات يسعين وراءها -والتي بدأت في كل حالة في الجامعة- وكنّ يعملن في وظائف أو =

يجب أن ينظر المربّون، في كل كلية للنساء وكل جامعة وكلية للراشدين وكلية مجتمعية، إلى الأمر على أنّ النساء يقمن بالتزام مدى الحياة (سمّه «خطة حياة» أو «حرفة» أو «غاية حياة»، إذا كان لتلك الكلمة القذرة «مهنة» كل تلك المضامين المرتبطة بالعزوبية) بميدان من الفكر وبعمل ذي أهمية

= في السياسة أو في الفن، لم يشعرن بأنهن «زائفات»، ولم يعانين حتى من الكرب المتوقع في فترة انقطاع الطمث. على الرغم من كرب أولئك اللواتي لم تكن لديهن اهتمامات، فإن أيًا منهن لم ترد -بعد انتهاء سنوات الحمل والولادة- بالعودة إلى المدرسة؛ لم يتبق لهن ببساطة سوى سنوات قليلة لتبرير جهد القيام بذلك. وهكذا فقد تابعن «دور المرأة» بالتصرف كأمهات لأهلهن المسنين أو بإيجاد حيوانات أليفة أو نباتات أو ببساطة «أشخاص كهواية» ليحلّوا محل أطفالهن. تفسير مربيتي الحياة العائلية -اللواتي أصبحتا مستشارتين محترفتين في الزواج في أواسط عمريهما- مثير للاهتمام:

«بالنسبة لهؤلاء النساء في مجموعتنا، اللواتي كانت لديهن طموحات عالية أو مواهب فكرية رفيعة أو كليهما، كان التعارض بين بعض القيم المُؤكّد عليها في مجتمعنا الموجه نحو النجاح والإنجاز والفرص الحقيقية المفتوحة للنساء غير المدربات الأكبر سنًا مقلقًا على نحو خاص. ... أغلق الباب المفتوح للمرأة التي تتمتع بمهارة ما أمام المرأة التي بلا تدريب، حتى إذا أغرتها محاولة إيجاد مكان لها بين العاملات بأجر. لكن بدا وكأن معظمهن يدركن أخطار واقع وضع العمل. شعرن أنهن غير مهيئات لنوع العمل الذي قد يروق لهن وغير راغبات في أخذ الوقت وصرف الطاقة المطلوبين من أجل التدريب، على أساس العدد المحدود من السنوات الفعالة الباقي أمامهن. ... كان من الواجب معالجة نقص الضغط الناجم عن نقص المسؤولية. ... بما أن مهمة الأمومة الأساسية انتهت، فقد بدت إشباعات العمل التطوعي، التي كانت في السابق منفذًا ثانويًا، وكأنها تتناقص. ... كانت النشاطات الثقافية للضواحي محدودة. ... حتى في المدينة، بدا تعليم الكبار مجرد إشغال للوقت لا يقود إلى أي مكان. ...».

وهكذا فقد عبّرت بعض النساء عن جوانب من الأسف: «لقد تأخر الوقت جدًا على تطوير مهارة جديدة تقود إلى مهنة». «لو أنني تابعت مجال اختصاص واحداً لكان استخدم إمكانياتي بشكل كامل».

لكن الكاتبتين تلاحظان، موافقتين على ذلك، أن «الأغلبية الساحقة قد كيّفن أنفسهن على نحو ما مع موقعهن في المجتمع».

لأنّ ثقافتنا تتطلب من النساء تخليات معينة عن النشاط، وتحدّ من نطاق مشاركتهن في الحياة العامة، ففي هذه النقطة أن تكوني امرأة يمكن أن يبدو وكأنه مغامرة، بدلًا من عقبة. لقد شُجّعت طوال حياتها، كأنثى، على أن تكون حساسة لمشاعر وحاجات الآخرين. لقد تطلّبت حياتها في المحطات الإستراتيجية إنكار ذاتها. لقد كان أمامها فرص واسعة «للتزيّن» من أجل هذا النكران الأخير للذات ... من سلسلة طويلة من النكران بدت في مرحلة مبكرة من حياتها. لقد كانت كل حياتها كامرأة تعطيها مهارة كانت حرة الآن في أن تستخدمها كاملة دون المزيد من الإعداد...

جدية للمجتمع. يجب أن يتوقعوا من الفتاة، كما من الفتى، أن تأخذ مجالًا ما على محمل الجد بما يكفي للسعي وراءه مدى الحياة. وهذا لا يعني التخلّي عن التعليم الحر للنساء من أجل دورات في التدريب المهني. لا يدرّب التعليم الحر، كما يعطى في أفضل الكليات والجامعات، الذهن وحسب، بل ويقدّم جوهرًا للقيم الإنسانية لا يمكن استئصاله. لكن يجب تخطيط التعليم الحر لاستخدامه جديًا، لا لمجرد الهواية أو التقدير السلبي. ومثلما ينتقل الفتيان في جامعات هارفارد أو يال أو كولومبيا أو شيكاغو من مركز الفنون الحرة لدراسة العمارة أو الطب أو القانون أو العلوم، يجب تشجيع الفتيات على المضي قدمًا ووضع خطة حياة. لقد تبيّن أن الفتيات، اللواتي لديهن مثل هذا الالتزام، هنّ أقل توقًا للاندفاع إلى الزواج المبكر، وأقلّ ذعرًا حيال إيجاد رجل، وأكثر مسؤولية حيال سلوكهن الجنسي[1]. معظمهن يتزوجن بالطبع، ولكن على أساس أنضج. وهكذا لا يكون زواجهن هربًا، بل التزامًا مشتركًا بين شخصين، يصبح جزءًا من التزامهما نحو نفسيهما ونحو المجتمع. وفي الواقع إذا تعلمت الفتيات للقيام بالتزامات من هذا القبيل، فإن مسألة الجنس، ومتى يتزوجن، تفقد أهميتها الطاغية[2]. والحقيقة القائلة أن ليس للنساء هوية خاصة بهن هي التي تجعل الجنس والحب والزواج والأولاد أمورًا تبدو وكأنها الحقائق الجوهرية والوحيدة في حياة النساء.

يجب أن يدرك المربّون، في وجه اللغز الأنثوي وموانعه الخفية القوية، أنهم لا يستطيعون أن يلهموا النساء الشابات الالتزام جديًا بالتعليم دون

---

(1) Nevitt Sanford, "Personality Development During the College Years," *Journal of Social Issues*, 1956, Vol. 12, No. 4, p. 36.

(2) الاضطراب العام في ربيع عام 1962 حول العذرية الجنسية لفتيات فاسار هي حالة في هذه النقطة. سيبدو السؤال الحقيقي للمربّي بالنسبة لي هو ما إذا كانت تلك الفتيات يحصلن من تعليمهن على أهداف الحياة الحقيقية التي لا يمكن إلاّ للتعليم أن يمنحها لهن. إذا كان الجواب «نعم»، فيمكن الثقة بأنهن مسؤولات عن سلوكهن الجنسي. لقد تحدّثت الرئيسة بلاندينغ (Blanding)، في الحقيقة، اللغز لتقول بجرأة إن الفتيات إذا لم يكن في الجامعة من أجل التعليم، فيجب ألاّ يكن فيها مطلقًا. وأن يكون تصريحها قد أثار كل ذلك الصخب، فهو دليل على مدى التعليم الموّجه بالجنس.

القيام ببعض التدابير غير العادية. وبالكاد أمسكت بعض التدابير القليلة التي جُرّبت حتى الآن بالمشكلة. معهد ماري بانتينغ الجديد للدراسة المستقلة في جامعة رادكليف جيد للنساء اللواتي يعرفن أصلًا ما الذي يردن القيام به، واللواتي تابعن دراستهن حتى الدكتوراه، أو هن أصلًا نشيطات في الفنون، ولا يردن سوى استراحة قصيرة من الأمومة للعودة إلى الحياة العامة. والأكثر أهمية من ذلك، إن وجود أولئك النساء في الحرم الجامعي، نساء لديهن أطفال وأزواج، ومازلن ملتزمات بعملهن، سيساعد، ولا شك، في تبديد صورة المرأة المهنية العزباء، ويدفع بعض طالبات السنة الثانية في جامعة رداكليف خارج «مناخ الفجائية» الذي يسمح لهن بتحقيق أعلى مستوى وطني من التفوّق التعليمي ليستخدمنه فيما بعد فقط في الزواج والأمومة. هذا ما كان في ذهن ماري بانتينغ. ويمكن فعله في مكان آخر، وبطرق أبسط حتى.

من شأن ذلك أن يعود بالفائدة على كل كلية وجامعة تريد تشجيع النساء على أخذ التعليم بجدية، حتى توظّف في كلياتها جميع النساء اللواتي تستطيع إيجادهن، واللواتي جمعن بين الزواج والأمومة، من جهة، وحياة العقل، من جهة أخرى؛ حتى إذا كان ذلك يعني تنازلات من أجل حالات الحمل، أو كسر القاعدة القديمة المتعلقة بتوظيف زوجة الأستاذ المساعد، التي تحمل شهادتها المحترمة تمامًا سواء كانت الماجستير أو الدكتوراه. أما فيما يخص العالمات غير المتزوجات، فيجب التوقف عن معاملتهن كالمجذومات. فالحقيقة البسيطة هي أنّهن قد أخذن وجودهن جديًا، وأنّهن قد حققن إمكانيتهن الإنسانية. قد يكنّ محسودات، وهنّ كذلك غالبًا، من طرف نساء يعشن صورة «الوجود معًا» الوافرة ذاتها، لكنهن خسرن أنفسهن. النساء الراسخات في عملهن الإنساني راسخات في الحياة، وكذلك الرجال.

من المهم، فوق ذلك كله، بالنسبة للمربّين أنفسهم، أن يقولوا «لا» للّغز الأنثوي، وأن يواجهوا الحقيقة القائلة إنّ الغاية الوحيدة من تعليم النساء هي تعليمهن أن يضعن قيودًا على قدراتهن. ليست النساء بحاجة إلى

مقررات في «الزواج والعائلة» حتى يتزوجن وينشئن عائلات؛ ولسن بحاجة إلى مقررات في التدبير المنزلي ليرتبن بيوتهن. لكنّهن يجب أن يدرسن العلوم ليكتشفن في العلوم، أن يدرسن فكر الماضي ليبدعن فكرًا جديدًا، أن يدرسن المجتمع ليكنّ رائدات في المجتمع. وكذلك يجب أن يتوقف المربّون عن تلك التسويات القائمة على «معالجة المشاكل كل على حدة». لن يحلّ ذلك التطبيق المنفصل لـ«التربية» و«الجنس» و«الزواج» و«الأمومة» و«الاهتمامات للثلث الأخير من الحياة» أزمة الدور. يجب تعليم النساء تكاملًا جديدًا في الأدوار. كلما زاد تشجيع النساء على وضع خطط حياة جديدة -جامعات بين الالتزام الجدي مدى الحياة تجاه المجتمع، من جهة، والزواج والأمومة، من جهة أخرى- قلّت الصراعات والإحباطات غير الضرورية التي سيشعرن بها بوصفهن زوجات وأمهات، وقلّت الخيارات الخطأ التي ستقوم بها بناتهن نتيجة غياب الصورة الكاملة لهوية المرأة.

تمكنت من رؤية ذلك لدى تحقيقي في دافع فتيات الجامعة إلى الزواج المبكر. النساء القليلات اللواتي لم يكنّ مستقتلات لـ«الحصول على رجل»، واللواتي التزمن باهتمامات جدية طويلة الأمد -وكنّ بجلاء غير قلقات من أنهن سيفقدن بذلك «أنوثتهن»- جميعهن تقريبًا كانت أمهاتهن، أو صور أخرى خاصة من النساء، ملتزمات بغاية جدية ما. («تصادف أنّ أمي مدرسة». وأمّ أفضل صديقاتي طبيبة؛ وهي تبدو دائمًا مشغولة جدًا وسعيدة»).

يمكن للتعليم نفسه أن يساعد في تقديم تلك الصورة الجديدة -والشرارة في الفتيات لخلق صورتهن الخاصة- حالما يتوقف عن التوفيق مع الصورة القديمة لـ«دور المرأة» ومسايرتها. يجب أن يكون التعليم للنساء، كما للرجال، مصفوفةً من التطور الإنساني. إذا كانت النساء الأمريكيات اليوم يحطمن أخيرًا فخ ربة المنزل بحثًا عن هوية جديدة، فهذا ببساطة لأنّ الكثير من النساء قد تذوّقن طعم التعليم العالي؛ صحيحٌ أنهن لم ينهينه، ولم يكن مركّزًا، لكنه كان، مع ذلك، قويًا بما يكفي لإجبارهن على المتابعة.

يمكن أن تخاض تلك المعركة الأخيرة والأهم في ذهن المرأة ذاتها وروحها. إذ حتى بدون صورة خاصة، أُعطيت فتيات كثيرات في أمريكا، ممّن تعلمن ببساطة كأشخاص، إحساسًا بإمكانيتهن الإنسانية قويًا بما يكفي لجعلهن يتجاوزن الأنوثة القديمة، يتجاوزن ذلك البحث عن الأمان في حب الرجل، ليجدن ذاتًا جديدة. قالت لي إحدى خريجات جامعة سوارثمور (Swarthmore) في بداية دراستها التخصصية إنها في البداية، وقد بدأت تشعر أنها تصبح أكثر «استقلالية» فأكثر، قلقت كثيرًا بخصوص إقامة المواعيد الغرامية والزواج، وأرادت أن «تتعلق بفتى». وأضافت: «حاولت أن أضعف نفسي لأكون أنثوية. لكنني بعد ذلك أصبحت مهتمة بما كنت أقوم به، وتوقفت عن القلق».

الأمر كما لو أنك قمت بنوع من التحويل. تبدئين الشعور بكفاءتك في القيام بالأمور. مثل طفل يتعلم المشي. يبدأ عقلك بالتوسّع. تجدين ميدانك الخاص. وذلك شيء رائع. حبّ القيام بالعمل، والشعور بأنّ هناك شيء ما، وبأنك تستطيعين الوثوق به. إنه يستحق العناء. يقولون إن على الرجل أن يعاني حتى يكبر، وربما يجب أن يحدث شيء شبيه للنساء أيضًا. تبدئين عدم الخوف من أن تكوني ذاتك.

يجب القيام بخطوات قصوى لإعادة تعليم النساء اللواتي ضلّلهن اللغز الأنثوي أو خدعهن. بدأت العديد من النساء اللواتي قابلتهن، واللواتي شعرن بأنهن «عالقات في الفخ» كربّات منازل، في السنوات القليلة الماضية الخروج من ذلك الفخ. ولكن هناك بالمقابل الكثيرات ممن يغرقن مرة أخرى، لأنهن لم يكتشفن في الوقت المناسب ما أردن القيام به، أو لأنهن لم يكنّ قادرات على إيجاد طريقة للقيام به. في كل حالة تقريبًا، استغرق الأمر زمنًا طويلًا ومالًا كثيرًا مستخدمًا التسهيلات التعليمية الموجودة. قليلات هنّ ربات المنازل اللواتي يستطعن توفير المال اللازم للدراسة بدوام كامل. حتى إذا كانت الجامعات تقبلهن على أساس دوام جزئي -وجامعات كثيرة لن تقبل-

فقلّة من النساء فقط يستطعن تحمّل الإيقاع البطيء للتعليم الجامعي العادي الذي يمتدّ عشر سنوات أو أكثر. بعض المؤسسات مستعدة اليوم للمقامرة بربّات المنازل، ولكن هل ستكون مستعدة بالدرجة ذاتها عندما يصل طوفان ذرّيتهن المتجه إلى الجامعة إلى ذروته؟ تبدأ البرامج الرائدة، التي بدأت في جامعة سارة لورانس وجامعة مينيسوتا، بإظهار الطريق، لكنها لا تواجه مشكلة الوقت-المال التي هي، للعديد من النساء، مشكلة لا يمكن تذليلها.

ما هو مطلوب الآن هو برنامج تعليمي وطني، شبيه بقانون المحاربين القدماء[1]، للنساء اللواتي يردن جديًا الاستمرار في تعليمهن أو استئنافه، والمستعدات للالتزام باستخدامه في مهنة. من شأن القانون أن يزوّد النساء المؤهلات على نحو مناسب برسوم التعليم، إضافة إلى معونة إضافية لدفع مصاريف أخرى، كالكتب والسفر وحتى شيء من المساعدة الأسرية، إذا كان ذلك ضروريًا. من شأن هذا التدبير أن يكلّف أقلّ بكثير من كلفة قانون المحاربين القدماء. من شأنه أن يسمح للأمهات باستخدام التسهيلات التعليمية القائمة على أساس دوام جزئي، وأن يقمن بالدراسة الفردية والمشاريع البحثية في البيت في السنوات التي يكون حضور الصفوف النظامية مستحيلًا. من شأن مفهوم تعليم النساء كله أن يعاد تنظيمه من أربع سنوات في الجامعة إلى خطة حياة تستطيع المرأة بموجبها أن تستمر في تعليمها، دون تضارب مع زواجها وزوجها وأبنائها.

كان الجنود الأمريكيون، الذين أنضجتهم الحرب، بحاجة إلى إيجاد هويتهم في المجتمع. وبما أنهم لم يكونوا في مزاج يسمح لهم بهدر الوقت، فقد أدهشوا مدرّسيهم وأنفسهم بأدائهم المدرسي. يمكن الاعتماد على أنّ النساء اللواتي نضجن في فترة تأجيل ربة المنزل سيقمن بأداء مشابه. تبرّر

(1) قانون في الولايات المتحدة الأمريكية، أُصدِر بعد الحرب العالمية الثانية، لإعطاء الجنود الآتين من الحرب فرصًا في المؤسسات التعليمية ومؤسسات التدريب المهني، إضافة إلى تعويض سنة دون عمل.

حاجاتهن الماسّة إلى التعليم وحاجة هذه الأمة الماسّة إلى الاحتياطيات غير المستغلّة من ذكاء النساء في جميع المهن إجراءات الطوارئ هذه[1].

بالنسبة للنساء اللواتي لم يذهبن إلى الجامعة، أو انسحبن منها مبكرًا جدًا، بالنسبة لأولئك اللواتي لم يعدن مهتمات باختصاصاتهن القديمة، أو اللواتي لم يأخذن تعليمهن جديًا، فأقترح، بكل بساطة، أولًا إعادة انغماس مركّزة كثيفة في الإنسانيات، لا في مختصرات ومختارات مثل تقارير طلاب السنة الأولى أو الثانية العاديين، وإنّما دراسة مكّثفة مثل التجارب التعليمية التي تقوم بها شركة بيل للهاتف أو مؤسسة فورد للمديرين الشباب، الذين انصاعوا تمامًا لدور رجل المؤسسة إلى حدّ أنهم لم يعودوا قادرين على المبادرة والرؤية اللازمين في مراكز الإدارة التنفيذية العليا. بالنسبة للنساء، يمكن القيام بذلك من خلال برنامج وطني، عبر كل مراحل حركة المدرسة الثانوية الشعبية الدانمركية، التي من شأنها أولًا أن تعيد ربة المنزل إلى الحياة العامة الفكرية عن طريق دورة صيفية مركّزة مدتها ستة أسابيع، نوع من «العلاج بالصدمة» الفكرية. من شأنها أن تحصل على معونة بحيث تستطيع مغادرة البيت، وتذهب إلى كليّة ذات سكن داخلي، معونة لن تستخدم بغير ذلك في أثناء الصيف. أو يمكنها أن تذهب إلى مركز في مدينة كبيرة على أساس مكثّف بنفس الدرجة خمسة أيام في الأسبوع مدة ستة أسابيع أو ثمانية في أثناء الصيف، مع معسكر نهاري للأطفال.

افرض أنّ هذا العلاج بالصدمة التعليمية نبّه النساء الموهوبات إلى أهداف تتطلب ما يعادل برنامجًا جامعيًا من أربع سنوات من أجل مزيد من

(1) لقد أبعدت استحالة الدراسة بدوام جزئي للطب والعلوم والقانون والدوام الجزئي في الدراسات العليا في أفضل الجامعات الكثير من النساء اللواتي يتمتعن بمواهب رفيعة عن محاولة القيام به. ولكن في عام 1962 تخلّت مدرسة هارفارد للدراسات العليا في التربية عن هذا القيد لتشجيع المزيد من ربات المنازل الموهوبات على أن يصبحن معلمات. وأعلن أيضًا عن خطة في نيويورك للسماح للطبيبات بالقيام بالإقامة في الطب النفسي والدراسات العليا على أساس الدوام الجزئي آخذة في الحسبان مسؤولياتهن الأمومية.

التدريب المهني. يمكن إكمال ذلك البرنامج الجامعي في أربع سنوات أو أقل دون حضور صف بدوام كامل، عن طريق الجمع بين المعاهد الصيفية هذه، وفرض قراءات وأوراق بحث ومشاريع يمكن القيام بها في الشتاء في البيت. يمكن الجمع بين المقررات التي تؤخذ عبر التلفاز أو في كليات وجامعات المجتمع المحلي على أساس دروس إضافية والمناقشات مع أستاذ خصوصي في منتصف السنة أو كل شهر. تؤخذ المقررات على أساس الساعات المعتمدة، وتحوز الطالبات على الشهادات العلمية المعتادة. يجب إيجاد نظام «للمعادلات»، لا لمنح المرأة الساعات المعتمدة على عمل لا يحقق المتطلبات، بل لمنحها تلك الساعات على عمل جديّ فعلًا، حتى إذا جرى في أوقات وأماكن وبطرق تخرق المعايير الأكاديمية التقليدية.

يمنع عدد من الجامعات آليًا ربات المنازل من خلال منع الدوام الجزئي لطلاب المرحلة الجامعية الأولى أو الدراسات العليا. ربما تكون تلك الجامعات ملوعة من هواة يأخذون الأمر بسطحية. لكنّ العمل الجامعي بدوام جزئي للخريجين وطلاب المرحلة الجامعية الأولى والمنسّق وفق خطة جديّة هو النوع الوحيد من التعليم الذي يمكن أن يمنع ربة منزل من أن تصبح هاوية؛ إنه الطريقة الوحيدة التي تستطيع امرأة لديها زوج وأولاد عن طريقها أن تحصل على تعليم، أو تستمر فيه. ويمكن أن يكون أيضًا الترتيب الأكثر عمليةً من وجهة نظر الجامعة. فمع العبء الواقع أصلًا على مرافق الجامعات نتيجة الضغوط السكانية، يمكن لها وللنساء، على السواء، أن تستفيد من برنامج دراسة لا يتطلب حضور صفّ نظامي. وفي حين يبدو منطقيًا جدًا لجامعة مينيسوتا أن تضع خطتها الممتازة للتعليم المستمر للنساء[1] من حيث التسهيلات الجامعية النظامية، فإن خطة من

(1) Virginia L. Senders, ''The Minnesota Plan for Women's Continuing Education,'' in "Unfinished Business-Continuing Education for Women," *The Educational Record*, American Council on Education, October. 1961, pp. 10 ff.

ذلك القبيل لن تساعد المرأة التي يجب أن تبدأ تعليمها كاملًا مرة أخرى لتكتشف ما الذي تريد القيام به. لكن يمكن استخدام التسهيلات القائمة في أية مؤسسة لملء الفجوات عندما تنطلق المرأة في خطة حياتها.

تحتاج الكليّات والجامعات أيضًا إلى خطة حياة جديدة، لتصبح مؤسسات العمر لطلابها؛ وتقدّم لهم الإرشاد، وتهتم بسجلاتهم، وتتابع دراستهم المتقدمة أو الدورات التي تهدف إلى ترميم معلوماتهم، بغض النظر عن المكان الذي تؤخذ فيه. كم سيكون ذلك الإخلاص والدعم المالي من خريجة تلك المؤسسات أعظم لو أنها، بدلًا من حفلات الشاي لجمع الأموال واجتماع الشّمل العاطفي في الخامس من حزيران كل عام، تستطيع أن تتطلع إلى جامعتها من أجل متابعة التعليم والإرشاد. تستطيع خرّيجة جامعة بارنارد، وهي تفعل ذلك فعلًا، أن تعود إليها وتأخذ مجانًا أي مقرر في أي وقت، إذا كانت تملك المؤهلات له. تستطيع كل الجامعات أن تنظّم معاهد صيفية لإبقاء الخريجات مواكبات للتطورات في مجالاتهن في سنوات الأمومة الشابة. يمكنها أن تقبل طالبات بدوام جزئي وأن تقدّم دورات إضافية لربة المنزل التي لم تستطع حضور الصفوف بانتظام. يمكنها أن تنصحها بخصوص برامج القراءة أو الأوراق أو المشاريع التي يمكن القيام بها في البيت. ويمكنها أيضًا وضع نظام تعتبر فيه المشاريع، التي تقوم بها الخريجات في التربية أو الصحة العقلية أو علم الاجتماع أو علم السياسة في مجتمعاتهن المحلية، ساعات معتمدة معادلة لمنح الدرجة العلمية. دع النساء المتطوعات، بدلًا من جمع القطع النقدية الصغيرة، يخدمن في تلمذة مهنية تحت الإشراف، ويجمعن الساعات المعتمدة المعترَف بها، بدلًا من الدفع للمتدربين الطبيين. وعلى نحو مشابه، عندما تكون امرأة قد أخذت مقررات في عدد من المؤسسات المختلفة، ربما نتيجة تنقّل زوجها جغرافيًا من مكان لآخر، وحققت ساعاتها المعتمدة في المجتمع من وكالة أو مستشفى أو مكتبة أو مخبر، فيمكن أن تجري لها جامعتها الأصلية أو مركز

وطني ما أنشأته مجموعة من الجامعات الفحوص الشفهية والعامة والمناسبة للحصول على الدرجة العلمية. مفهوم «التعليم المستمر» هو أصلًا حقيقة للرجال في ميادين عديدة. فلمَ ليس كذلك للنساء؟ لا تعليم من أجل مهن بدلًا من الأمومة، ولا تعليم من أجل مهن مؤقتة قبل الأمومة، ولا تعليم لجعلهن «زوجات وأمهات أفضل»، بل تعليم سيستخدمنه بوصفهن أعضاء كاملات في المجتمع.

يقول الساخر: «ولكن كم من النساء الأمريكيات يردن فعلًا أن يفعلن ما هو أكثر في حياتهن؟». استجاب عدد مذهل من ربات المنازل في نيوجرسي لعرضٍ بإعادة تدريب مكثّف في الرياضيات لنساء جامعيات سابقات راغباتٍ في الالتزام بأن يصبحن مدرّسات رياضيات. في كانون الثاني/يناير 1962 أعلنت قصة إخبارية بسيطة في صحيفة نيويورك تايمز أنّ إستر روشنبوش (Esther Raushenbush) من جامعة سارة لورانس قد حصلت على منحة لمساعدة نساء ناضجات على إنهاء تعليمهن أو لمتابعة دراسات عليا على أساس دوام جزئي يمكن تكييفه مع واجباتهن كأمهات. عطّلت الاستجابة، بالمعنى الحرفي للكلمة، مقسم هاتف سارة لورانس الصغير. فخلال أربع وعشرين ساعة، تلقّت السيدة روشنبوش أكثر من 100 اتصال هاتفي. قالت عاملة المقسم: «كان الأمر مثل ليلة المصرف. كما لو كان عليهن أن يحضرن إلى هناك فورًا، وإلا فسيفقدن الفرصة». ومن خلال مقابلات السيدة روشنبوش مع النساء اللواتي تقدّمن للبرنامج اقتنعت، مثل فيرجينيا سيندرز في مينيسوتا، بحقيقة حاجتهن. لم يكنّ «يرفض على نحو عُصابي» أزواجهن وأولادهن؛ لم يكنّ بحاجة إلى العلاج النفسي، بل كنّ بحاجة فعلًا إلى المزيد من التعليم -بسرعة- وبطريقة يمكنهن القيام بها دون إهمال أزواجهن وعائلاتهن.

لا يمكن إنجاز تعليم النساء الأمريكيات وإعادة تعليمهن لغاية جدية من قبل مؤسسة أو مؤسستين تتمتعان ببعد النظر، بل يجب القيام به على نطاق

أوسع بكثير. لا يمكن لأحد يكرّر كليشيهات اللغز الأنثوي، حتى لو من باب النفعية أو اللباقة، أن يخدم هذا الهدف. من الخطأ تمامًا القول، كما يردّد بعض مربّي النساء الرئيسيين اليوم، إنّ النساء يجب بالطبع أن يستخدمن تعليمهن، ولكن ليس، لا سمح الله، في مهن ينافسن فيها الرجال[1]. عندما تأخذ النساء تعليمهن وقدراتهن جديًا، ويضعنها موضع الاستخدام، فسينافسن في النهاية الرجال. من الأفضل لامرأة أن تنافس بموضوعية في المجتمع، كما يفعل الرجال، من أن تنافس زوجها على السيطرة في بيتها، وأن تنافس جاراتها على مكانة فارغة، وتخنق بذلك ابنها بحيث لا يستطيع المنافسة قط. فكّروا في هذا الخبر الذي ظهر مؤخرًا حول آخر علاج مهني في أمريكا للحاجة الأنثوية المكبوتة إلى المنافسة:

---

(1) Mary Bunting, ''The Radcliffe Institute for Independent Study,'' Ibid., pp. 19 ff.

تعكس رئيسة رادكليف اللغز الأنثوي عندما ترثي لـ«الاستخدام الذي قامت به خريجات الجامعة الأوائل لتعليمهن المتقدّم. لقد أصبحن، في الكثير من الحالات وعلى نحو يمكن تفهمه، ناشطات وإصلاحيات، متحمسات شجاعات واضحات، ولكن أيضًا، في بعض الأوقات، مبالغات. كبر نوع من القولبة للنساء المتعلمات في العقلية الشعبية، وبالتزامن معه، تحيّز ضد القولبة والتعليم معًا» وتقول على نحو مشابه:

«ألاّ تكون لدينا أية محاولة محترمة لتلبية الحاجات التعليمية الخاصة للنساء في الماضي هو أوضح دليل ممكن على حقيقة أنّ أهدافنا التعليمية قد أُعدت حصرًا وفق الأنماط التعليمية للرجال. لكنْ في تغيير هذا التوكيد، يجب ألاّ يكون هدفنا هو أن نجهّز النساء ونشجعهن على منافسة الرجال. ... بما أنّ النساء لسن عمومًا كاسب الرزق الأساسي، فيمكن ربما أن يكنّ أكثر فائدة كرائدات يعملن على الطرق الفرعية، ويقمن بالعمل الاستثنائي الذي لا يستطيع الرجال أن يسمحوا لأنفسهم بالمقامرة فيها. هناك دائما مجال في الأعمال الأقل أهمية حتى عندما تكون المنافسة شديدة في السوق الفكري».

أن تستخدم النساء تعليمهن اليوم أساسًا «في الأعمال الأقل أهمية»، فذلك نتيجة اللغز الأنثوي والتحيّزات التي يخلقها ضد النساء؛ من المشكوك فيه ما إذا كان سيتم التغلّب على هذه القيود المتبقية إذا كان حتى المربّون سيثبطون النساء الموهوبات من أن يصبحن «ناشطات وإصلاحيات، متحمسات شجاعات واضحات» وصوتهن عال بما يكفي لسماعهن.

إنه يوم نموذجي من أيام الأسبوع في دالاس. الأب في العمل. الطفل يأخذ غفوته الصباحية. وفي الغرفة المجاورة، الأخ (عمره 3 سنوات) يمتطي حصانه الخشبي الهزاز، والأخت (5 سنوات) تشاهد أفلام الكرتون على التلفاز. والأم؟ الأم على بعد بضعة أقدام، منحنية فوق خط الخطأ على المجاز 53، وركها مائل بحدّة إلى اليسار لتوجّه كرة البولينغ الملونة بالأبيض والأزرق إلى ثغرة الضرب بين القارورتين الأولى والثالثة. الأم تلعب البولينغ. لقد ألقت ربات المنازل النشيطات، سواء في دالاس أو كليفلاند أو ألباكيركي (Albuquerque) أو سبوكين، مماسح تنظيف الغبار والمكنسة الكهربائية، وسحبن الأطفال إلى الأزقة الجديدة، حيث تقف مربيات بدوام كامل جاهزات لمجالسة الأطفال في الحضانات المجهزة بالكامل.

قال مدير ملعب البولينغ في ألباكيركي: «أين تستطيع النساء غير هنا أن ينافسن بعد الزواج؟ إنهن بحاجة إلى المنافسة مثل الرجال. ... وهذا بالتأكيد أفضل من الذهاب إلى البيت لغسل الأطباق.»[1].

قد يكون خارجًا عن الموضوع أن نلاحظ أنّ مجازات البولينغ والمتاجر الكبيرة تحوي مرافق حضانة، في حين تُفتقد تلك المرافق في المدارس والجامعات والمخابر العليمة والمكاتب الحكومية. لكنّه وثيق الصلة بالموضوع أن نقول: إذا لم تستخدم امرأة أمريكية طاقتها وموهبتها الإنسانية في مسعى ذي معنى (وهو ما يعني بالضرورة المنافسة، لأن هناك منافسة في كل مسعى جدي في مجتمعنا)، فإنها ستبدّد طاقتها في أعراض عُصابية أو ممارسة غير منتجة أو «حب» مدمّر.

وقد حان الوقت أيضًا للتوقف عن الترويج الكاذب لفكرة أنه لم تعد هناك معارك لخوضها من أجل النساء في أمريكا، وأنّ النساء قد ظفرن بحقوقهن أصلًا. من السخف أن نطلب من الفتيات البقاء هادئات عندما

(1) *Time*, November, 1961. See also “Housewives at the $2 Window,” *New York Times Magazine*, April I, 1962.

والتي تصف خدمات مجالسة الأطفال، وخدمات العيادات، تُقدَّم اليوم لربات المنازل من الضواحي، على حلبات السباق.

يدخلن إلى مجال جديد، أو قديم، ولا يلاحظ الرجال أنهن موجودات. ما تزال النساء في كل مجال مهني تقريبًا، في الأعمال كما في الفنون والعلوم، يعاملن وكأنهن مواطنات من الدرجة الثانية. ستكون خدمة كبيرة أن نقول للفتيات اللواتي يخططن للعمل في المجتمع أن يتوقعن هذا التمييز الحاذق غير المريح، أن نخبرهن بألّا يكنّ هادئات، وأن يأملن بأن يذهب ذلك بعيدًا، ولكن أن يحاربنه. يجب ألّا تتوقع الفتاة مزايا خاصة نتيجة جنسها، لكنها لا يجب أيضًا أن «تتكيّف» مع التحيّز والتمييز.

وبالتالي يجب أن تتعلم أن تنافس، لا بوصفها امرأة، بل بوصفها إنسانة. ولن يؤمّن المجتمع ذاته الترتيبات من أجل خطة الحياة الجديدة للنساء إلّا بعد أن ينتقل عدد كبير من النساء من الهامش إلى التيار الرئيسي. لكنّ كل فتاة تفلح في الصمود حتى النهاية في كلية الحقوق أو كلية الطب، وتنهي الماجستير والدكتوراه، وتتابع لاستخدامهما، تساعد الأخريات على المضي قدمًا. كلّ امرأة تحارب العقبات المتبقية أمام المساواة التامة المقنّعة باللغز الأنثوي تجعل الأمر أسهل على الفتاة التي تأتي بعدها. إن وجود مفوضية الرئيس حول وضع النساء بقيادة إليانور روزفلت يخلق بذاته مناخًا يمكن فيه إدراك التمييز ضد النساء والقيام بشيء حياله، لا من حيث الأجر فقط، بل ومن حيث العراقيل الدقيقة أمام الفرصة المتاحة لهن. حتى في السياسة، يجب أن تقدّم النساء إسهامهن، لا كربّات منازل، بل كمواطنات. وقد تكون خطوة في الاتجاه الصحيح عندما تحتج امرأة على الاختبار النووي تحت راية «إضراب النساء من أجل السلام». ولكن لماذا تقول الرسّامة التوضيحية المحترفة التي تقود الحركة إنها «مجرّد ربة منزل»، وتصرّ نصيراتها على أنهن، عندما يتوقف الاختبار، سيبقين بسعادة في البيت مع أبنائهن؟ تستطيع النساء، حتى في المعاقل المدينية للماكينات الحزبية السياسية الكبيرة –وقد بدأن بذلك فعلًا– أن يغيّرن القواعد غير المكتوبة الماكرة التي تدعهن يقمن

بالعمل المنزلي السياسي في حين يتّخذ الرجال القرارات[1].

عندما يضع عدد كاف من النساء خطط حياة وفق قدراتهن الحقيقية، ويطالبن بإجازات الأمومة، أو حتى باستراحات أمومة، وبدُور حضانة مدارة مهنيًا، وبالتغييرات الأخرى التي قد تكون ضرورية، فلن يكون عليهن التضحية بالحق في المنافسة الشريفة والإسهام بأكثر مما يجب عليهن التضحية بالزواج والأمومة. من الخطأ الاستمرار في شرح الخيارات غير الضرورية التي تجعل النساء يقاومن بلا وعي إمّا الالتزام أو الأمومة[2]، وذلك يمنع الاعتراف بالتغييرات الاجتماعية المطلوبة. ليست المسألة أيضًا مسألة حصول النساء كل شيء. المرأة معاقة بجنسها، وتعيق المجتمع، إمّا بالتقليد الاستعبادي لنمط تقدّم الرجل في المهن، أو برفض المنافسة مع الرجل بالمطلق. ولكنها عندما تملك الرؤية لتضع خطة حياة جديدة خاصة بها، فيمكنها أن تحقق التزامًا بمهنة وبالسياسة وبالزواج وبالأمومة بجدية مساوية.

النساء اللواتي قمن بذلك، على الرغم من تحذيرات اللغز الأنثوي الرهيبة، هنّ بمعنى ما «تحوّلات»، صورة ما يمكن أن تكون عليه المرأة الأمريكية. عندما لم يعملن، أو لم يتمكنّ من العمل، بدوام كامل ليكسبن قوتهن، كنّ يقضين ساعات في دوام جزئي في عمل يهتممن به فعلًا. ولأن

(1) انظر ملاحظات عضو مجلس نواب الولاية دوروثي بيل لورانس، من الحزب الجمهوري، عن مانهاتن، كما نشرتها مجلة نيويورك تايمز في 8 أيار/ مايو 1962. أوّل امرأة يتم انتخابها قائدة منطقة جمهورية في مدينة نيويورك، شرحت: «كنت أقوم بالعمل كله، فأخبرت رئيس المقاطعة أنني أريد أن أصبح الرئيسة. فقال لي إن شغل المنصب من قبل امرأة كان مخالفًا للقواعد». وقدر النساء أيضًا في حركة «الإصلاح» الديمقراطي في نيويورك، بشغل مناصب قيادية متناسبة مع عملهن، كما بدأت «الأعمال الثانوية للسيدات» المنعزلة القديمة و«لجان النساء» بالزوال.

(2) لاحظت، بين نساء غير قليلات من بين اللواتي قابلتهن، ممن تخلين تمامًا عن طموحاتهن، حسب نصائح اللغز، ليصبحن زوجات وأمهات، وجود تاريخ متكرر من إسقاط الحمل. وفي حالات عديدة، لم تتمكن المرأة من الحمل حتى النهاية بالولد الثاني أو الثالث، الذي لطالما رغبت به، إلاّ بعد أن عاودت أخيرًا العمل الذي كانت قد تخلّت عنه، أو بعد أن عادت إلى كلية للدراسات العليا.

العمل كان هو الأكثر أهمية، فقد كنّ غالبًا يتخطّين هدر الوقت والتفاصيل الأنانية لكل من التدبير المنزلي والنشاط الخالي من المعنى في المهنة.

وسواء كنّ يعرفن ذلك أم لا، فقد كنّ يتبعن خطة حياة. أنجبن أطفالهن قبل أو بعد فترة التدريب وبين فترات الزمالة. وحين لم تكن مساعدة جيدة متفرغة متاحة في السنوات الأولى من عمر الأطفال، كنّ يتوقفن عن وظائفهن، ويستلمن وظيفة بدوام جزئي، قد لا يكون مردودها سخيًا، ولكنها تبقيهنّ متقدمات في مهنتهن. ابتكرت المعلمات في جمعية أولياء الأمور والمعلمين، ثمّ استبدلن؛ واستلمت الطبيبات أعمالًا عيادية أو بحثية قريبة من البيت؛ وبدأت المحرّرات والكاتبات العمل مستقلات. حتى إذا كان المال الذي يكسبنه غير لازم لشراء حاجات المنزل أو المساعدة فيه (وهو عادة لازم)، فقد كنّ يكسبن دليلًا ماديًا على قدرتهن على المساهمة. لم يعتبرن أنفسهن «محظوظات» على أنّهن ربات منازل؛ بل نافسن في المجتمع. كنّ يعرفن أن الزواج والأمومة جزء جوهري من الحياة، لكنه ليس الحياة كلها.

عانت هذه «التحوّلات» من «الانقطاع الثقافي في التكيّف مع الدور» و«أزمة الدور» وأزمة الهوية، وتغلّبن عليها. كانت لديهن مشاكل بالطبع، مشاكل صعبة؛ تدبير أمور حملهن، إيجاد مربيات ومدبّرات منزل، الاضطرار للتخلي عن مهمات جيدة عندما يتم نقل أزواجهن. كان عليهن أيضًا أن يواجهن الكثير من العدوانية من جانب نساء أخريات؛ والعديدات كان عليهن أن يتعايشن مع الامتعاض الفعال من جانب أزواجهن. ونتيجة اللغز، عانت الكثيرات منهن من آلام إحساس بالذنب غير ضرورية. لقد أخذ سعي النساء لتحقيق خطط حياتهن الخاصة، حين لا يتوقع المجتمع ذلك منهن، ومازال يأخذ، قوة هدف استثنائية. ولكن، على عكس النساء العالقات في الفخ، اللواتي تتضاعف مشاكلهن بمرور السنوات، فإن أولئك النساء حللن مشاكلهن وتابعن مسيرهن. قاومن محاولات الإقناع والتلاعب

الهائلة، ولم يتخلّين عن قيمهن الخاصة والموجعة غالبًا مقابل الراحة التي يؤمّنها الانسجام مع ما هو سائد. لم ينسحبن إلى الخصوصانية، بل واجهن تحديات العالم الحقيقي. وهن يعرفن بتأكيد تام من هنّ فعلًا.

كنّ يفعلن، ربما دون أن يرين ذلك بوضوح، ما يجب أن يفعله كل رجل وامرأة الآن حتى يبقى مواكبًا لإيقاع التاريخ المتفجّر على نحو متزايد، وإيجاد الهوية الفردية في مجتمعنا الضخم، أو المحافظة عليها. لا يمكن حل أزمة الهوية لدى الرجال والنساء من قبل جيل للجيل الذي يليه؛ ففي مجتمعنا المتغير بسرعة، تجب مواجهتها باستمرار وحلّها، لتواجَه من جديد في غضون عمر واحد. يجب أن تكون خطة الحياة مفتوحة للتغيير، عندما تنفتح إمكانيات جديدة، في المجتمع وفي النفس. لا يمكن لأي امرأة في أمريكا اليوم، تبدأ بحثها عن الهوية، أن تكون متأكدة إلى أين ستأخذها. لا تبدأ امرأة ذلك البحث اليوم دون صراع وتضارب وإمساك شجاعتها بيديها. لكنّ النساء اللواتي التقيتهن، واللواتي كنّ يمضين قدمًا على ذلك الطريق المجهول، لم يأسفن على الآلام والجهود والمخاطر.

لقد كانت الثورة الجنسية المضادة الأخيرة، على ضوء معركة النساء الطويلة من أجل التحرّر، ربما أزمة أخيرة، فترة فاصلة غريبة لالتقاط الأنفاس قبل أن تحطّم اليرقة قشرتها لتصل إلى النضج؛ تأجيل قامت عدّة ملايين من النساء في أثناءه بوضع أنفسهن على الجليد، وتوقّفن عن النمو. يقولون أنّ العلم سيتمكنّ يومًا من جعل الجسم البشري يعيش أطول وذلك بتجميد نموّه. لقد كانت النساء الأمريكيات مؤخرًا يعشن أطول من الرجال بكثير، ويمضين ما تبقى من حياتهن مثل نساء ميتات وهن على قيد الحياة. ربما يعيش الرجال أطول من النساء في أمريكا، عندما تتحمّل النساء المزيد من عبء المعركة مع العالم، بدلًا من أن يكنّ هنّ أنفسهن عبئًا. أعتقد أن طاقتهن المهدورة ستستمر هدّامة لأزواجهن ولأولادهن ولأنفسهن، حتى يستخدمنها في معركتهن الخاصة مع العالم. ولكن عندما تنبثق النساء،

بالإضافة إلى الرجال، من الحياة البيولوجية، لتحقيق ذواتهن الإنسانية، فقد تصبح تلك الأنصاف المتبقية من حيواتهن هي سنوات تحققهن الأعظم[1].

(1) مأمول العمر للنساء الأمريكيات والبالغ 75 سنة هو الأطول بين النساء في أي مكان من العالم. لكن كما أشار (Myrdal and Klein) في كتابهما الدَّوران اللذان تلعبهما النساء (Women's Two Roles)، هناك إدراك متزايد بأن العمر الزمني، لدى البشر، يختلف عن العمر البيولوجي: «في عمر زمني يبلغ السبعين، قد ينحرف العمر البيولوجي عن العمر الزمني ضمن طيف 90-50 سنة». تشير الدراسات الجديدة للتقدم في السن بين البشر إلى أنّ أولئك الذين لديهم أعلى تعليم والذين يعيشون الحيوات الأكثر نشاطًا وتعقيدًا، والذين لديهم اهتمامات عميقة واستعداد لتجارب وتعلّم جديدين، لا «يشيخون» بالمعنى الذي يشيخ به غيرهم. تكشف دراسة قريبة لـ300 سيرة ذاتية (انظر: Charlotte Buhler, "The Curve of Life as Studied in Biographies," Journal of Applied Psychology, XIX, August, 1935, pp. 405 ff.) أنه في النصف الثاني من الحياة، تصبح إنتاجية الشخص مستقلة عن تجهيزه البيولوجي هي غالبًا في مستوى أعلى من كفاءته البيولوجية، وذلك إذا كان الشخص قد خرج من عيشه البيولوجي. في الحالات التي هيمنت «العوامل الروحية» فيها على النشاط، جاءت نقطة الإنتاجية الأعلى في الجزء الأخير من الحياة؛ أمّا حيث كانت «الحقائق المادية» حاسمة في حياة الشخص، فقد وصل إلى النقطة العليا في مرحلة أبكر وبالتالي كان المنحنى السيكولوجي أقرب إلى البيولوجي. وكشفت دراسة النساء المتعلمات المستشهد بها أعلاه أنهن عانين أقل بكثير في فترة انقطاع الطمث مما يعتبر «طبيعيًا» في أمريكا اليوم. لم تشعر معظم هؤلاء النساء اللواتي لم تقتصر آفاقهن على التدبير المنزلي المادي وعلى دورهن البيولوجي في خمسينياتهن وستينياتهن بأنهن «مسنّات». وذكرت العديدات منهن بدهشة أنّهن قد عانين درجة من القلق في فترة انقطاع الطمث أقل بكثير من تلك التي جعلتهن تجربة أمهاتهن يتوقعن. تفترض تيريز بينديك (Therese Benedek) في ("Climacterium: A Developmental Phase," Psychoanalytical Quarterly, XIX, 1950, p. 1) أن القلق المُخفّف وانفجار الطاقة الإبداعية التي تعاني منها نساء كثيرات الآن في فترة انقطاع الطمث هو، في جزء منه على الأقل، نتيجة «تحرير» النساء. تبدو أرقام كينزي وكأنها تشير إلى أن النساء، اللواتي حررهن التعليم من العيش البيولوجي البحت، قد اختبرن ذروة التحقق الجنسي الكامل حتى مرحلة أكثر تأخرًا في الحياة مما كان متوقعًا وفي الحقيقة، استمررن في اختبرنها خلال الأربعينات وبعد توقف الطمث. قد يكون أفضل مثال على هذه الظاهرة هو كوليت (Colette) -تلك المرأة الفرنسية المتحررة الإنسانية حقًا والتي عاشت وأحبت وكتبت في عمر مختلف قليلًا جدًا عن عمرها الزمني في عيد

وبعد ذلك سيشفى الانقسام في الصورة، ولن تواجه البنات تلك النقلة النوعية في سنّ الحادية والعشرين أو الحادية والأربعين. عندما يجعل تحقّق الأمهات بناتهن متأكدات من أنهن يردن أن يكنّ نساء، فلن يضطررن إلى «تلميع أنفسهن» حتى يكنّ أنثويات؛ يمكنهن أن يتّسعن، ويتّسعن، حتى تخبرهن جهودهن من هنّ فعلًا. لن يحتجن إلى نظرة فتى أو رجل، ليشعرن أنهن على قيد الحياة. وعندما لا تكون النساء مضطرات إلى العيش من خلال أزواجهن وأبنائهن، فلن يخشى الرجال من حبّ النساء وقوّتهن، ولن يحتاجوا إلى ضعف الآخر لإثبات رجولتهم. وأخيرًا يستطيع كل منهما رؤية الآخر على حقيقته. وقد تكون هذه هي الخطوة التالية في التطوّر الإنساني.

من يعرف ما الذي تستطيع النساء أن يكنّه، عندما يصبحن حرّات أخيرًا في أن يصبحن أنفسهن؟ من يعرف ما الذي سيسهم فيه ذكاء النساء عندما يستطيع أن يتفتح دون إنكار الحب؟ من يعرف ما هي إمكانيات الحب، عندما يتشارك الرجال والنساء، لا الأولاد والبيت والحديقة فقط، ولا تحقيق أدوارهما البيولوجية فقط، بل ومسؤوليات العمل وآلامه التي تخلق المستقبل الإنساني والمعرفة الإنسانية الكاملة بمن هن فعلًا؟ بالكاد بدأ بحث النساء عن أنفسهن. ولكنّ الوقت في متناول اليد، عندما لا تعود أصوات اللغز الأنثوي قادرة على إغراق الصوت الداخلي الذي يدفع النساء قدمًا نحو الكمال.

= ميلادها الثمانين: «لو أنّ الواحدة كانت في الثامنة والخمسين، لأنّها في ذلك العمر تكون ما تزال مرغوبة ومليئة بالأمل للمستقبل».

خاتمة

عندما كان كتاب **اللغز الأنثوي** في المطبعة، وآخر أطفالي في المدرسة طوال اليوم، قررت أن أعود إلى الدراسة، وأحصل على الدكتوراه. ذهبت لرؤية رئيس قسم علم النفس الاجتماعي في كولومبيا، متسلحةً بإعلان ناشري، وبنسخة من شهادتي الجامعية بدرجة امتياز، وبسجّل في الدراسات العليا يعود إلى عشرين عامًا، وبتقرير مؤسسة العالم الجديد عن المشروع التعليمي الذي حلمت به، وأدرته في مقاطعة روكلاند. كان حليمًا ولطيفًا، ولكن بالتأكيد، كان عليّ أن أتفهّم أنني -في الثانية والأربعين من العمر، وبعد كل تلك السنوات من عدم الانضباط التي كنت فيها ربّة منزل- ما كنت لأتمكّن من مواجهة مصاعب الدراسات العليا بدوام كامل للحصول على الدكتوراه والمعرفة المطلوبة في الإحصاء. فأوضحتُ: «ولكنّي استخدمت الإحصاء على مدى الكتاب». بدا شاحبًا، وقال: «حسنًا، يا عزيزتي. لماذا، على أية حال، تريدين أن تزعجي رأسك بالحصول على الدكتوراه؟».

بدأت أتلقى رسائل من نساء أخريات، ينفذن ببصيرتهن الآن إلى ما يتجاوز اللغز الأنثوي، ويردن التوقف عن القيام بوظائف أطفالهن ويبدأن القيام بوظائفهن الخاصة؛ لكن، قيل لهنّ أيضًا أنهنّ لم يكنّ قادرات فعلًا على القيام بأي شيء آخر الآن سوى صناعة مربى الفريز المنزلي، أو مساعدة أطفالهن في القيام بالعمليات الحسابية للصف الرابع. لم يكن كافيًا أن تأخذي نفسك على محمل الجد شخصيًا. كان لابدّ من تغيير المجتمع، على نحو ما، حتى تقوم النساء بالأمر بصفتهن أشخاصًا. لم يعد في مقدورهن العيش «مجرّد ربات منازل». ولكن أية طريقة كانت هناك للعيش؟

أتذكّر أنّ تلك الفكرة أخذتني حتى وأنا أكتب **اللغز الأنثوي**. كان علي أن أكتب فصلًا أخيرًا، أقدّم فيه حلًا لـ«المشكلة التي لا اسم لها»، وأقترح

أنماطًا جديدةً.. مخرجًا من التضاربات، يمكن للنساء من خلالها أن يستخدمن قدراتهن تمامًا في المجتمع، ويجدن هويتهن الإنسانية الوجودية، ويشاركن في عمله وقراراته وتحدياته، دون أن يتخلّين، في الوقت ذاته، عن البيت والأطفال والحب والنشاط الجنسي. صار ذهني فارغًا. يجب عليك فعلًا أن تقولي «لا» للطريقة القديمة، قبل أن تتمكني من البدء بإيجاد الـ«نعم» الجديدة التي تحتاجين إليها. كان إعطاء اسم للمشكلة التي لا اسم لها الخطوة الأولى الضرورية، ولكنها لم تكن كافية.

شخصيًا، لم أعد أستطيع العمل ربّة منزل في ضاحية، حتى لو أردت ذلك. لسبب واحد، هو أنني أصبحت مجذومة في ضاحيتي. طالما كنت أكتفي بكتابة مقالات بالصدفة، لا يقرؤها معظم الناس، فلم تكن حقيقةُ أنني أكتب في الساعات التي يكون الأولاد خلالها في المدرسة وصمةً بأكثر مما كان، على سبيل المثال، الشرب وحيدة في الصباح. أما الآن، وقد بدأت أتصرف مثل كاتبة حقيقية، والتلفاز يُجرى معي مقابلات، وأصبح الذنب معروفًا جدًا للجمهور، فلم يعد من الممكن غفرانه. وأخذت نساء من ضواحٍ أخرى يكتبن لي، كما لو كنت «جان دارك»، ولكن كان عليّ عمليًا أن أهربَ من فناء بيتي المليء بالأعشاب البرية لأنجو من حرقي عند الخطر. وعلى الرغم من تمتعنا بشيء من الشعبية، أنا وزوجي، فإنّ جيراننا لم يعودوا فجأةً يدعوننا إلى حفلات العشاء. وطُرد أولادنا من ترتيبات التوصيل بالسيارة بالدور إلى صفوف الفن والرقص. وكانت الأمهات الأخريات يصبن بالهستريا عندما أطلب تكسي في دوري، بدلًا من قيادة السيارة بنفسي. اضطررنا للانتقال إلى المدينة مرة أخرى، حيث كان الأولاد يستطيعون أن يقوموا بأمورهم الخاصة دون أن أنقلهم بالسيارة بنفسي، وحيث أصبحت قادرة على أن أكون معهم في البيت أثناء بعض الساعات التي بتّ أقضيها منتقلة من مكان إلى آخر. لم أعد أستطيع تحمّل تلك الوحدة غير الطبيعية في الضواحي.

في البداية، أذهلتني، وحيّرتني، تلك العدوانية الغريبة التي بدا أن كتابي -والحركة فيما بعد- قد أخرجها من بعض النساء. حتى في البداية، لم تكن هناك تلك العدوانية التي توقعتها من الرجال. اشترى رجال كثيرون **اللغز الأنثوي** لزوجاتهم، وحثّوهن على العودة إلى المدرسة أو العمل. ولاحظت بما يكفي من السرعة أنه ربما كانت هناك الملايين من النساء اللواتي شعرن، كما حدث معي، بأنهن وحيدات وحدة مطلقة وغير عادية كربّات منازل في الضواحي. فإذا كنت خائفة من مواجهة مشاعرك الحقيقية حول الزوج والأطفال الذين يفترض أنك تعيشين من أجلهم، فإنّ شخصًا مثلي، ينبش المشاكل، يشكّل خطرًا.

لا ألوم النساء على خوفهن. فأنا نفسي كنت خائفة. ليس ممكنًا فعليًا أن تصنعي نمط حياة جديد بالكامل بمفردك. لطالما خفت من البقاء وحيدة أكثر من أي شيء آخر. كان الغضب الذي لم أجرؤ على مواجهته في داخلي خلال كل تلك السنوات التي حاولت فيها أن ألعب دور ربة المنزل الصغيرة العاجزة مع زوجي -وشعوري بأنني أكثر عجزًا كلّما استمررت في لعبه فترة أطول- قد بدأ ينطلق بعنف أشد وأشد. ونتيجة خوفي من البقاء وحيدة، فقدت تقريبًا احترامي لذاتي محاولةً أن أتمسّك بزواج لم يعد قائمًا على الحب، بل على بغضٍ اتكاليّ. كان إطلاق حركة النساء الضرورية لتغيير المجتمع، أسهل عليّ من تغيير حياتي الشخصية.

بدا لي أن الوقت قد حان لكتابة ذاك الكتاب الثاني، لكنّي لم أتمكّن من إيجاد أية أنماط جديدة في المجتمع تتجاوز اللغز الأنثوي. تمكّنت من إيجاد بضعة نساء منفردات، يطرحن أنفسهن بالضربة القاضية لتحقيق معايير مجلة **التدبير المنزلي الجيد**، محاولاتٍ أن يربّين أطفالهن على طريقة الدكتور سبوك، فيمَ يعملن بدوام كامل، ويشعرن بالذنب حيال ذلك. وكانت مؤتمرات تُعقد حول توافر التعليم المستمر للنساء، لأنّ جميع ربات المنازل-الأمهات المتفرغات الشائخات تلك، اللواتي وصل أطفالهن إلى

الجامعة الآن، قد بدأن يمثّلن مشكلة.. يشربن، ويتناولن الكثير من الأدوية، وينتحرن. كُرّست مجلات رفيعة الثقافة كاملة للمناقشة حول «النساء وخياراتهن»، و«مراحل» حياة النساء. تستطيع النساء، كما قيل لنا، أن يذهبن إلى المدرسة، ويعملن قليلًا، ويتزوجن، ويبقين مع الأولاد 20-15 سنة، ومن ثمّ يعدن إلى المدرسة والعمل.. لا مشكلة؛ لا حاجة لتضارب الأدوار.

كانت النساء اللواتي يقدّمن هذه النظرية بين القلّة الاستثنائية التي وصلت إلى وظائف عليا، لأنهن، على نحو ما، لم ينسحبن على مدى خمسة عشر أو عشرين عامًا. وكانت تلك النساء أنفسهن ينصحن النساء، اللواتي يندفعن عائدات إلى برامج التعليم المستمر، بأنهن لا يستطعن فعلًا أن يتوقعن الحصول على أعمال حقيقية أو تدريب مهني بعد خمسة عشر عامًا قضينها في البيت؛ في فن الخزف أو في عمل مهني تطوعي؛ كان ذلك هو التكيّف الواقعي.

كلام، كله مجرّد كلام. في عام 1965، بيّن التقرير المنتظر طويلًا لمفوضية الرئيس حول وضع النساء، الأجور التمييزية التي كانت النساء يحصلن عليها (نصف متوسط أجر الرجال)، وحصة النساء المتناقصة في الوظائف المهنية والتنفيذية. وأوصت المفوضية بنصيحة النساء باستخدام قدراتهن في المجتمع، واقترحت تأمين مراكز رعاية الطفل وغيرها من الخدمات لتمكين النساء من الجمع بين الأمومة والعمل. لكنّ مارجريت ميد قالت، في المقدمة التي وضعتها للتقرير، في الواقع، إذا كانت النساء جميعًا سيرغبن في اتخاذ القرارات الكبيرة والقيام بالاكتشافات الكبيرة، فمن سيبقى في البيت، ويضمّد ركبة الطفل، أو يستمع لمشاكل الزوج؟ (ليس مهمًا أنها، بمساعدة زوجها، حتى قبل أن تقضي ركبتا ابنها طيلة اليوم في المدرسة، كانت، هي نفسها، تقوم باكتشافات أنثروبولوجية كبيرة وتتخذ قرارات. ربما لا تتماثل النساء اللواتي يقمن بذلك، بوصفهن نساءًا «استثنائيات»، فعليًا مع بقية النساء. فبالنسبة لهن، هناك ثلاث طبقات من

الأشخاص: الرجال والنساء الأخريات وهنّ؛ وتستند مكانتهن، كنساء استثنائيات، على إبقاء النساء الأخريات هادئات، وألّا يهززن القارب).

دُفن تقرير مفوضية الرئيس أصولًا في أدراج البيروقراطية. في ذلك الصيف من عام 1965، وصلت إلى ثلث الطريق في الكتاب الذي أردت كتابته بعد اللغز الأنثوي؛ عرفت في ذلك الوقت أنه لم تكن هناك أية أنماط جديدة، بل فقط مشكلات جديدة، لم تكن النساء ليتمكنّ من حلّها إذا لم يتغير المجتمع. ولم يكن كل الكلام والتقارير والمفوضية وبرامج التعليم المستمر إلّا أمثلة على التملّق؛ بل ربّما محاولة لمنع حركة حقيقية من جانب النساء أنفسهن لتغيير المجتمع.

بدا لي أنّ شيئًا ما يتجاوز الكلام يجب أن يحدث. «الشيء الوحيد الذي تغيّر حتى الآن هو وعينا»، هذا ما كتبتُه مقتربةً من ذاك الكتاب الثاني، الذي لم أنهه قطّ، لأنّ الجملة الثانية فيه كانت: «ما نحتاج إليه هو حركة سياسية، حركة اجتماعية شبيهة بتلك التي للسود». كان عليّ القيام بفعلٍ ما. رأيت على متن الطائرة إلى واشنطن، وأنا أفكر فيما يجب أن أفعل، طالبًا يقرأ كتابًا اسمه **الخطوة الأولى تجاه الثورة هي الوعي** The First Step to Revolution Is Consciousness، وكان ذلك بمثابة إلهام.

ذهبت إلى واشنطن لأنّ قانونًا كان قد سنّ، الفصل السابع من قانون الحقوق المدنية لعام 1964، يحظر التمييز الجنسي في التشغيل بالإضافة إلى التمييز العرقي. كان الجزء المتعلّق بالتمييز الجنسي قد أضيف مثل نكتة ومناورة تأجيلية من قبل عضو جنوبي في الكونغرس، هاوارد سميث عن ولاية فيرجينيا. في المؤتمرات الصحفية الأولى بعد دخول القانون حيّز التطبيق، تندّر المدير المسؤول عن تطبيقه حول منع التمييز الجنسي قائلًا: «سيعطي الرجال فرصة مساوية في أن يكونوا أرانب بلاي بوي».

وجدت في واشنطن غليانًا تحت السطح من جانب النساء في الحكومة

والصحافة ونقابات العمال التي شعرت بالعجز عن إيقاف تخريب هذا القانون الذي كان يفترض أن يحدث خرقًا في التمييز الجنسي الذي عمّ كل صناعة ومهنة ومعمل ومدرسة ومكتب. كانت بعض تلك النساء يشعرن أنني، وقد أصبحت الآن كاتبة معروفة، يمكن أن أشدّ انتباه الجمهور.

في أحد الأيام، أغلقت محامية شابة باردة، تعمل للوكالة التي لم تكن تطبّق القانون ضد التمييز الجنسي، باب مكتبها بحذر، وقالت لي والدموع تملأ عينيها: «لم أنوِ قط أن أنشغل بقضايا النساء. فأنا أحب الرجال. ولكن تصيبني القرحة نتيجة الطريقة التي تخدع فيها النساء. قد لا نجد قطّ فرصة أخرى مثل هذا القانون. يجب، يا بيتي، أن تؤسّسي (NAACP)[1] للنساء. أنت الوحيدة التي لديها من الوقت ما يكفي للقيام بذلك».

لم أكن يومًا امرأة تنظيم. ولم أنتمِ قط إلى رابطة الناخبات. لكن، كان هناك اجتماع في واشنطن في شهر حزيران لمفوّضي الولايات حول وضع النساء. فكّرت في أننا سنجمع من بين النساء المجتمعات هناك من مختلف الولايات نواة منظمة، يمكنها على الأقل أن تدعو إلى مؤتمر صحفي، وتطلق إشارة الخطر بين النساء على امتداد البلد.

جاءت إلى ذلك الاجتماع باولي موراي (Pauli Murray)، وهي محامية سوداء بارزة، ودوروثي هاينر (Dorothy Haener) وكارولين ديفيز (Caroline Davis) من نقابة عمال السيارات والطائرات والآلات الزراعية (UAW)، وكاي كلارينباخ (Kay Clarenbach)، رئيسة مفوضية الحاكم في ويسكونسن، وكاترين كونروي (Katherine Conroy) من عمال الاتصالات في أمريكا، وآيلين هيرناندز (Aileen Hernandez)، التي كانت حينها عضوًا في مفوضية فرص التشغيل المتساوية. طلبت منهن أن يأتين إلى غرفتي في الفندق في إحدى الليالي. لم تكن غالبيتهن تعتقد أنّ النساء بحاجة إلى حركة

(1) التسمية المختصرة للجمعية الوطنية لنهضة الملونين في الولايات المتحدة - المترجم.

مثل حركة السود، لكنهن كنّ غاضبات من تخريب الفصل السابع. وحصل إجماع على أنّ المؤتمر يستطيع بالتأكيد أن يقوم بفعل محترم للإصرار على وجوب تنفيذ القانون.

ذهبت إلى السرير مع شيء من الشعور بالراحة، فربما ليس من الضروري تنظيم حركة. لكنني في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي تلقيت مكالمة هاتفية من إحدى النساء البارزات في إدارة جونسون، تحثّني على عدم هزهزة القارب. وفي الساعة الثامنة، رنّ الهاتف مرة أخرى؛ وهذه المرة، كانت إحدى الأخوات المقاومات من ليلة الأمس، غاضبة هذه المرة، غاضبة حقًا. «قيل لنا إنّ هذا المؤتمر لا يملك صلاحية القيام بأي فعل كان، ولا حتى الحق في اقتراح قرار. وهكذا فقد حجزنا طاولة لنا جميعًا لنتناول الغداء معًا، وسوف نؤسّس المنظمة». وعند الغداء جمعنا دولارًا من كل واحدة منا. وكتبت على منديل ورقي (NOW)؛ يجب أن تُسمى مجموعتنا المنظمة الوطنية للنساء[1]، وقلت: «بما أنّ الرجال يجب أن يكونوا جزءًا منها». ثم كتبت الجملة الأولى من بيان هدف المنظمة، وفيها نتعهد بأن «نسعى إلى إقناع النساء بالمشاركة التامة في الحركة العامة للمجتمع الأمريكي الآن، وممارسة كل المزايا والمسؤوليات فيه، بمشاركة متساوية فعلًا مع الرجال».

كانت التغييرات اللازمة لإحداث تلك المساواة، وما تزال، ثورية جدًا في الواقع. فهي تتضمن ثورة في الدور الجنسي للرجال والنساء، ستعيد بناء كل مؤسساتنا: تربية الأطفال والتعليم والزواج والعائلة وهندسة البيت وممارسة الطب والعمل والسياسة والاقتصاد والدين والنظرية النفسية والجنسانية الإنسانية والأخلاق وتطوّر الجنس البشري نفسه.

أرى الآن حركة النساء من أجل المساواة، ببساطة، على أنها المرحلة

(1) NOW، الأحرف الأولى من: National Organization for Women، أي «المنظمة الوطنية للنساء».

الأولى الضرورية من ثورة أكبر بكثير في الدور الجنسي. لم أرها قط على أساس الطبقة أو العرق: تقاتل النساء، بوصفهن الطبقة المضطهَدة، للإطاحة بالرجال أو أخذ السلطة منهم، بوصفهم طبقة المضطهِدين. كنت أعرف أن الحركة يجب أن تشمل الرجال بوصفهم أعضاء مساوين، على الرغم من أن النساء يجب أن يأخذن زمام المبادرة في المرحلة الأولى.

ليست هناك إلّا طريقة واحدة أمام النساء للوصول إلى إمكانيتهن الإنسانية الكاملة، ألا وهي المشاركة في الحركة العامة للمجتمع، وإبراز صوتهن في كل القرارات التي تشكّل المجتمع. حتى تتمتع النساء بهوية وحرية تامتين، يجب أن يتمتعن بالاستقلال الاقتصادي. كان اختراق الحواجز التي أبعدت النساء عن الأعمال والمهن التي يكافئها المجتمع، هو الخطوة الأولى، لكنها غير كافية. سيكون من الضروري تغيير قواعد اللعبة من أجل إعادة بناء المهن والزواج والعائلة والبيت. تتجسّد الطريقة التي تُبنى بها المكاتب والمستشفيات على طول الخطوط الصارمة المنفصلة غير المتساوية، التي لا يمكن جسرها، والقائمة على أساس السكرتيرة/ المدير والممرضة/ الطبيب في اللغز الأنثوي وتؤبّده. ولكنّ الجزء الاقتصادي لن يكون كاملًا إلّا إذا كانت قيمة الدولار توضع، على نحو ما، على أساس العمل الذي تقوم به النساء في البيت، على الأقل من حيث الضمان الاجتماعي والمعاشات وتعويض التقاعد. ولابدّ من تقاسم العمل المنزلي وتربية الأطفال على نحو أكثر مساواة بين الزوج والزوجة والمجتمع.

ليست المساواة والكرامة الإنسانية ممكنتين للنساء، إذا لم يكنّ قادرات على الكسب. عندما دخلت الشابات الراديكاليات في الحركة، قلن إنّ وضع كل ذلك التشديد على الأعمال والتعليم «ممل» أو «إصلاحي» أو يشكل «تسويةً رأسمالية». ولكن، لا يمكن إلّا لقلّة قليلة جدًا من النساء أن يتحمّلن تجاهل حقائق الحياة الاقتصادية الأولية. لا يمكن إلّا للاستقلال الاقتصادي أن يحرّر المرأة لتتزوج عن حب، لا من أجل المكانة أو الإعالة

الاقتصادية، أو لتتخلى عن زواج مهين خال من الحب ولا يطاق، أو لتأكل وتلبس وترتاح وتنتقل، إذا كانت تخطط لعدم الزواج. لكنّ أهمية العمل للنساء تتخطى الجانب الاقتصادي. إذ كيف يمكن للنساء، بغير ذلك، أن يشاركن في عمل مجتمع صناعي متقدّم وقراراته، ما لم يحصلن على التدريب والفرصة والمهارات التي تأتي من المشاركة فيه؟

كان على النساء أيضًا أن يواجهن طبيعتهن الجنسية، لا أن ينكرنها، أو يتجاهلنها، مثلما فعلت أوائل الناشطات النسويات. تجب إعادة بناء المجتمع على نحو تستطيع معه النساء، اللواتي صدف أنهن الأشخاص الذين يقومون بفعل الولادة، أن يقمن بخيار إنساني مسؤول حول ما إذا كنّ يردن الإنجاب أم لا، ومتى، وألّا يمنعن نتيجة ذلك من المشاركة في المجتمع بحقهن. وكان ذلك يعني الحق في ضبط النسل والإجهاض الآمن؛ الحق في إجازة الأمومة ومراكز رعاية الطفل، إذا لم تكن النساء يردن الانسحاب كليةً من مجتمع البالغين في أثناء سنوات الحمل والولادة؛ وما يكافئ قانون المحاربين القدماء لإعادة التدريب إذا اختارت النساء البقاء في البيت مع الأطفال. فقد بدا لي أنّ معظم النساء سيخترن أن يكون لديهن أطفال، وإن ليس الكثير من الأطفال، إذا كانت تربية الطفل لم تعد طريقتهن الوحيدة إلى المكانة والإعالة الاقتصادية، أي مشاركة غير مباشرة في الحياة.

لم أستطع تعريف «تحرير» النساء بمصطلحات تنكر الحقيقة الإنسانية والجنسية لحاجتنا إلى الحب، بل وإلى أن نعتمد أحيانًا على رجل. ما كان يجب تغييره هو الأدوار المؤنثة والمذكرة المهجورة، التي تجرّد الجنس من إنسانيته، وتجعل من المستحيل تقريبًا للنساء والرجال أن يصنعوا الحب، لا الحرب. كيف يمكننا أن نعرف أحدنا الآخر حقًا، أو نحبه، طالما أننا نلعب تلك الأدوار التي تمنعنا من أن نعرف، أو نكون، أنفسنا؟ ألم يكن الرجال، وكذلك النساء، ما يزالون محبوسين في عزلة وابتعاد عن الآخرين، بغض النظر عن عدد البهلوانيات الجنسية التي مرّروا أجسادهم بها؟ ألم يكن

الرجال يموتون مبكرًا جدًا، كابحين مخاوفهم ودموعهم ورقّتهم الخاصة؟ بدا لي أن الرجال لم يكونوا فعلًا هم العدو، كانوا ضحايا شركاء، يعانون من لغز مذكّر مهجور، جعلهم يشعرون بأنهم لا يكونون أكفياء بالضرورة عندما لا تكون هناك دببةٌ ليقتلوها.

لقد رأيت في سنوات العمل الماضية تلك نفسي ونساء أخريات نصبح أقوى وألطف في الآن ذاته، ونأخذ أنفسنا بجدّية أكبر، ولكننا بدأنا نستمتع فعلًا عندما توقفنا عن لعب الأدوار القديمة. اكتشفنا أننا نستطيع أن نثق بعضنا بالبعض الآخر. أحب النساء اللواتي قمت معهن بالأعمال المبهجة والمغامرة في تلك السنوات. لم يدرك أحد كم كان عددنا في البداية قليلًا إلى حدّ يثير الشفقة، وكم كانت أموالنا قليلة، وكذلك تجربتنا.

ما الذي أعطانا القوة والجرأة للقيام بما قمنا به، باسم النساء الأمريكيات، باسم نساء العالم؟ فعلنا ذلك، بالطبع، لأننا كنا نقوم به من أجل أنفسنا. لم يكن عملًا خيريًا للأخريات الفقيرات؛ نحن، نساء الطبقة الوسطى اللواتي بدأن ذلك، كنّا جميعًا فقيرات، بمعنى يتجاوز المال. كان من الصعب حتى على ربات المنازل، اللواتي لم يكن أزواجهن فقراء، أن يحصلن على المال ليسافرن بالطائرة إلى اجتماعات مجلس المنظمة الوطنية للنساء. وكان من الصعب على النساء العاملات أن يحصلن على إجازات من وظائفهن، أو أن يأخذن وقت العطلة الأسبوعية الثمين من عائلاتهن. لم أعمل من أجل المال قطّ بمثل ذلك الجدّ، ولم أقضِ ذلك العدد الكبير من الساعات مع القليل من النوم والاستراحة لتناول الطعام أو حتى لدخول المرحاض، مثل ذاك الذي قضيته في تلك السنوات الأولى من حركة النساء.

استُدعيت عشية عيد الميلاد في عام 1966 للشهادة أمام قاضٍ في فولي سكوير، لأنّ شركات الطيران كانت غاضبة جدًا نتيجة إصرارنا على أنّها مذنبة بالتمييز الجنسي من خلال إجبار المضيفات على الاستقالة

في عمر الثلاثين أو عند الزواج. (وتساءلت، لماذا تذهب الشركات إلى ذلك الحد؟ هي لا تعتقد بالتأكيد أن الرجال يسافرون عن طريق شركات الطيران لأن المضيفات صالحات للزواج. ثمّ أدركت كم من المال توفّر هذه الشركات من خلال طرد أولئك المضيفات الجميلات قبل أن يتاح لهن الوقت ليراكمن خدمة تؤهلهن للحصول على زيادة في الأجر وإجازة سنوية وحقوق التقاعد. وكم أشعر بالسعادة الآن حين تعانقني المضيفات على متن الطائرات، ويخبرنني أنهن، لسن فقط متزوجات وعمرهن أكثر من ثلاثين، بل ويمكنهن أن ينجبن الأطفال ويستمررن بالطيران!).

شعرت بشيء من إلحاح التاريخ، أننا سنخذل الجيل القادم، إذا تهرّبنا من مسألة الإجهاض الآن. وشعرت أيضًا أن علينا أن نجعل تعديل الحقوق المتساوية يضاف إلى الدستور، على الرغم من ادّعاء قادة الاتحاد أنّ ذلك سينهي القوانين «الحمائية» للنساء. كان علينا أن نأخذ مصباح المساواة من النساء المسنّات اللاذعات المنعزلات اللواتي كنّ يكافحن وحدهن تمامًا من أجل التعديل، الذي حُصر في الكونغرس نحو خمسين سنة، منذ أن قيّدت نساء أنفسهن إلى سور البيت الأبيض للحصول على حق التصويت.

في أول مظاهرة احتجاجية لنا عند سور البيت الأبيض («حقوق لا ورود») في عيد الأم عام 1967، ألقينا سلاسل من المريلات والورود وضاربات الآلة الكاتبة المزيفات. كوّمنا رزمًا من الجرائد على أرضية مفوضية فرص التشغيل المتساوية احتجاجًا على رفضها إنفاذ قانون الحقوق المدنية ضد الإعلانات التي تميّز جنسيًا، من مثل «مطلوب موظفين: ذكور» (للوظائف الجيدة)، و«مطلوب موظفات: إناث» (لذلك النوع من الأعمال الذي تقوم به النساء يوم الجمعة). كان يفترض بذلك أن يكون غير قانوني حينها مثله مثل الإعلان الذي يقول: «مطلوب موظفين: بيض» أو «مطلوب موظفين: ملونين». أعلنّا أننا سنقاضي الحكومة الاتحادية لأنها لم تنفّذ القانون بالتساوي بالنيابة عن النساء (ودعونا حينها العضوات السريّات في

وزارة العدل لنرى إذا كان بمقدور إحداهن أن تقوم بذلك)، وقمنا به.

كنت أعطي محاضرات في مدارس جنوبية خاصة للفتيات وخطابات افتتاح في كليّات نائية للاقتصاد المنزلي، بالإضافة إلى جامعة ييل وجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس وجامعة هارفارد، لأسدّد مصاريفي في الطريق إلى تنظيم فصول المنظمة الوطنية للنساء، (لم يكن لدينا مال للفريق التنظيمي). كان مكتبنا الحقيقي الوحيد في تلك السنوات هو شقتي. لم يكن من الممكن متابعة البريد. ولكن لمّا كانت نساء من مثل ويلما هايد من بيتسبرغ، أو كارن دوكرو في سيراكوس، أو إليزا باسكال في أتلانتا، وجاكي سيبالوس، وكثيرات غيرهن، مصمّمات جدًا على الحصول على فصول المنظمة إلى حدّ القيام بزيارات لنا من مسافات بعيدة عندما لا نردّ على رسائلهن، كان الشيء الوحيد أمامنا للقيام به هو أن يصبحن منظِّمات محليات للمنظمة.

أتذكر الكثير من المحطّات على الطريق: الذهاب لتناول الغداء في الغرفة المصنوعة من خشب السنديان المخصصة للرجال في فندق البلازا مع خمسين امرأة من أعضاء المنظمة وطلب تقديم الخدمة لنا ... الشهادة أمام مجلس الشيوخ ضد ترشيح قاضٍ يؤمن بالتمييز الجنسي إلى المحكمة العليا، كان اسمه كارسويل، وقد رفض أن يستمع إلى قضية امرأة طردت من عملها لأن لديها أطفال عمرهم أقل من عمر المدرسة ... رؤية أول إشارة على سرية امرأة في الحركة الطلابية، عندما دُعيتُ لقيادة جلسة مناقشة مفتوحة في مؤتمر الطلاب الوطني في الكوليج بارك في ماريلاند في العام 1968 ... بعد السخرية من قرار لأجل تحرير النساء من آلات نسخ الرسائل في مؤتمر لحركة الطلاب من أجل مجتمع ديمقراطي، سماع الشابات الراديكاليات يخبرنني أنهن اضطررن إلى تشكيل مجموعة منفصلة لتحرير النساء، لأنهن إذا تحدثن علنًا في اجتماعات الطلاب من أجل مجتمع ديمقراطي، فقد لا يتزوجن ... مساعدةُ شيلا توبياس في

وضع مخطّط المشروع الذي ستقوم به بين الفصلين عن النساء في عام 1968 في جامعة كورنيل، التي بدأت أول برامج الدراسات النسائية (كم من الجامعات لديها هذه البرامج الآن) ... إقناع مجلس إدارة المنظمة بأننا يجب أن نعقد مؤتمرًا لتوحيد النساء مع الراديكاليات الشابات، على الرغم من الاختلافات في الأيديولوجية والأسلوب ... الكثير من المحطات على الطريق.

أُعجبتُ بميل الراديكاليات الشابات عندما أقلعن عن خطابات الصراع الطبقي/ الجنسي، وقمن بأعمال من مثل التظاهر احتجاجًا على مسابقة ملكة جمال أمريكا في مدينة أتلانتا. لكنّ وسائل الإعلام بدأت تنشر، بمصطلحات متزايدة الإثارة، الكلام الفارغ والأفعال الأكثر استعراضية: يسقط الرجال، يسقط الزواج، يسقط الحمل. وهددت أولئك اللواتي بشّرن بالصراع الطبقي/ الجنسي القائم على كره الرجال بالسيطرة على فرع المنظمة الوطنية للنساء في نيويورك وعلى المنظمة على المستوى الوطني أيضًا، وبإبعاد النساء اللواتي أردن المساواة، ولكنهن أردن أيضًا أن يبقين محبّات لأزواجهن وأولادهن. ورحّبت أولئك اللواتي زعمن أنهن راديكاليات الحركة النسائية بكتاب كيت ميلليت (Kate Millett) السياسة الجنسية Sexual Politics، بوصفه أيديولوجية الصراع الطبقي/ الجنسي. بعد أن شقت زمرة كره الرجال المؤتمر الثاني لتوحيد النساء بحديث الكراهية، وحتى بالعنف، سمعت راديكالية شابة تقول: «لو كنت عميلة لوكالة المخابرات المركزية وأردت أن أخرّب هذه الحركة، فهذا بالضبط ما كنت سأفعله».

مع حلول عام 1970، كانت الأمور قد بدأت تتضح بأنّ حركة النساء هي أكثر من مجرّد موضة مؤقتة، كانت أسرع الحركات من أجل التغيير السياسي والاجتماعي نموًا في العقد. كان المتطرفون قد سيطروا على حركة السود؛ وشُلّت حركة الطلاب بتعويذتها من أجل بنية بلا قيادة وبالابتعاد المتنامي

عن خطاب الكراهية المتطرفة. وكان أحد ما يحاول أن يستولي على حركتنا أيضًا، أو يوقفها أو يشلّها أو يمزقها، تحت ستار من الكلام الفارغ الراديكالي وتعويذة شبيهة ضد القيادة والبنية التنظيمية. حذّرتني قائدة سوداء قائلة: «من غير المجدي أن نتنبأ ما إذا كنّ عميلات لوكالة المخابرات المركزية، أو مريضات، أو في رحلة خاصة من أجل السلطة، أو مجرّد غبيات. إذا كنّ يخرّبن باستمرار، فيجب ببساطة أن تحاربيهن».

بدا لي أن الحركة النسائية يجب أن تخرج من السياسة الجنسية. ظننت الأمر مزحة في البداية -تلك الأوراق الجافّة على نحو غريب حول النشوة البظرية، التي من شأنها أن تحرّر النساء من التبعية الجنسية لقضيب الرجل-، والحديث «التوعوي» بأن النساء يجب أن يصررن الآن على أن يكنّ فوق الرجال في السرير. ثمّ أدركت، كما كتبت سيمون دو بوفوار مرةً، أن أولئك النساء كنّ، في جانب من الأمر، يمثّلن جنسيًا تمردهن على أنهن «تحت» في المجتمع عمومًا واستياءهن من ذلك، ومن أنهن يعتمدن على الرجال لتعريف أنفسهن. لكنّ استياءهن حُوّل إلى عربدة من البغض الجنسي من شأنها أن تفسد القوة التي يتمتعن بها الآن لتغيير الظروف التي استأن منها. أنا لست متأكدةً ما الذي يحفّز أولئك اللواتي ينشرن بوحشيّة كره الرجل في الحركة النسائية، أو يتلاعبن به. بدا أن بعض المخرّبات قد جئن من مجموعات يسارية متطرفة، وبدا أن بعضهن يستخدمن الحركة النسائية للدعاية للسحاقية، وبدا أن أخريات يعبّرن بصدق عن غيظ النساء المشروع، والذي كُبت طويلًا، في صراع طبقي/ جنسي، وهو ما أعتقد أنه يقوم على تشابه زائف مع أيديولوجيات الصراع الطبقي أو الفصل العنصري المطلقة أو التي ليست ذات صلة. أُعطيت كارهات الرجال دعاية لا تتناسب مع أعدادهن في الحركة، نتيجة تعطّش الإعلام للإثارة. تجتاز نساء كثيرات في الحركة فترة مؤقتة من العدائية الشديدة للرجال، عندما يصبحن واعيات لوضعهن للمرة الأولى؛ وعندما يبدأن التصرّف

لتغيير وضعهن، يتخلّصن مما أسميه الطفوليّة الراديكالية الزائفة. لكنّ خطاب الكره للرجال ذاك يزعج معظم النساء في الحركة، بالإضافة إلى إبعاد كثير من النساء عن الحركة.

في الطائرة إلى شيكاغو، وأنا أستعدّ للانسحاب من رئاسة المنظمة الوطنية للنساء، شاعرة بالعجز عن مصارعة كارهات الرجال علنًا، ورافضةً أن أكون واجهة لهن، عرفت فجأة ما الذي يجب القيام به. كانت امرأة من فلوريدا قد كتبت لي لتذكرني بأن السادس والعشرين من آب/ أغسطس 1970 يصادف الذكرى السنوية الخمسين للتعديل الدستوري الذي يمنح النساء حق التصويت. كنا بحاجة إلى الدعوة إلى عمل وطني؛ إضراب النساء للفت الانتباه إلى قضية المساواة التي لم تنته بعد: الفرص المتساوية في الحصول على العمل والتعليم، الحق في الإجهاض ومراكز العناية بالطفل، والحق في حصتنا من السلطة السياسية. سيوحّد ذلك النساء مرّة أخرى في عمل جدي؛ النساء اللواتي لم يكنّ أبدًا قريبات من مجموعة تحرير النساء. (لم يكن في المنظمة الوطنية للنساء، وهي أكبر تلك المجموعات، والوحيدة التي تتمتع ببنية تنظيمية وطنية، سوى 3000 عضوة في ثلاثين مدينة في عام 1970). أتذكر أنني، حتى أنقل هذه الرؤية الجديدة إلى مؤتمر المنظمة في شيكاغو، محذّرة من مخاطر إجهاض الحركة النسائية، تحدثت مدة ساعتين تقريبًا ولاقيت ترحيبًا حارًا. ذهبت القوة المنظمة القاعدية إلى تنظيم إضراب السادس والعشرين من آب. وفي نيويورك ملأت النساء المقر الرئيسي المؤقت متطوعات للقيام بأي شيء وبكل شيء؛ لم يكنّ يذهبن إلى بيوتهن في الليل إلّا بصعوبة.

ما كان العمدة ليندسي ليغلق الجادة الخامسة من أجل مسيرتنا، وأتذكّر أننا بدأنا تلك المسيرة وحوافر خيول رجال الشرطة تحاول أن تبقينا محصورات على الرصيف. أتذكر أنني نظرت إلى الوراء، قافزةً لأرى من

فوق رؤوس المتظاهرات. لم يسبق لي أن رأيت مثل هذا العدد الكبير من النساء؛ كنّ منتشرات على طول عدّة بنايات بحيث لم يكن في مقدورك أن تري نهاية الجمع. شبكت ذراعي بذراع قاضيتي المحبوبة دوروثي كينيون (التي أصرّت، في سنّ الثانية والثمانين، على السير معي بدلًا من ركوب السيارة التي أمنّاها لها)، وذراعي الأخرى مع شابة من الجهة الأخرى. قلت للأخريات في الصفوف الأمامية: «اشبكوا الأذرع، من الرصيف إلى الرصيف!»، وتكاثرنا حتى ملأنا الجادة الخامسة تمامًا. كان هناك الكثيرات منا، إلى حدّ لم يستطيعوا معه إيقافنا؛ بل لم يحاولوا حتى القيام بذلك. كان، كما قالوا، أول عمل نسائي عظيم على امتداد البلاد، (سار معنا المئات من الرجال أيضًا) منذ أن ظفرت النساء بحق التصويت ذاته منذ خمسين سنة. وكتب مراسلون صحفيون، كانوا قد تندّروا على «حارقات حمالات الصدر»، أنهم لم يسبق لهم أن رؤوا نساءًا بجمال أولئك المتظاهرات المبتهجات الفخورات اللواتي اجتمعن في ذلك اليوم. لأنّ جميع النساء كنّ جميلات في ذلك اليوم.

يوم السادس والعشرين من آب، أصبح فجأة أن تكوني ناشطة نسوية أمرًا سياسيًا وساحرًا في الآن ذاته. في البداية، بدت السياسة وكأنها شيء مستقل بالكامل عمّا كنّا نفعله في الحركة النسائية. وبالتأكيد لم يكن السياسيون العاديون -اليمين واليسار والوسط، الجمهوريون والديمقراطيون والمنشقّون- مهتمّين بالنساء. في عام 1968، شهدت عبثًا في مؤتمري الحزبين السياسيين، محاولة أن أحصل على كلمة واحدة حول النساء في برنامج أي من الحزبين الجمهوري أو الديمقراطي. عندما أعلن يوجين مكارثي (Eugene McCarthy)، الراعي الرئيسي لتعديل الحقوق المتساوية، أنه سيترشح للرئاسة لإنهاء حرب فيتنام، بدأت أربط سياستي، على الأقل، بدافع النساء من أجل المساواة. اتصلت ببيلا أبزغ (Bella Abzug) وسألتها كيف أستطيع أن أعمل لصالح مكارثي. ولكن حتى النساء الأخريات،

اللواتي كنّ يعملن لصالحه، لم يعتقدن أن قضايا النساء ذات صلة سياسيًا، والعديد من عضوات المنظمة الوطنية للنساء انتقدنني نتيجة المشاركة علنًا في حملة مكارثي.

في مؤتمر المنظمة عام 1970 في شيكاغو، قلت إن علينا، نحن النساء، مسؤولية إنسانية لإنهاء حرب فيتنام. لا يجب أن يُسحب الرجال ولا النساء إلى القتال في حرب لا أخلاقية قذرة كتلك التي في فيتنام، ولكن يجب أن نتحمّل مسؤولية مساوية لإنهائها. قبل سنتين من ذلك، في عام 1968، شاهدت، وأنا أقف خارج فندق كونراد هيلتون في شيكاغو في المؤتمر الوطني للحزب الديمقراطي، جنودًا يلبسون الخوذات، يضربون بالهراوات الشباب ذوي الشعر الطويل، كان ابني بينهم. بدأت أرى أن أولئك الشباب، في قولهم إنهم غير مضطرين لأن يحرقوا بالنابالم كل الأطفال في فيتنام وكمبوديا ليثبتوا أنهم رجال، كانوا يتحدّون اللغز المذكّر، مثلما كنّا نتحدى اللغز الأنثوي. كان أولئك الشباب، وكذلك أولئك الأكبر سنًا، هم النصف الآخر لما كنّا نقوم به.

في ذلك الصيف من عام 1970، بدأت أحاول تنظيم مؤتمر سياسي للنساء؛ وفيما بعد، ارتبط ذلك عن كثب بانتخاب بيلا أبزغ إلى الكونغرس. انضمّت هي وجلوريا شتاينم (Gloria Steinem) إليّ كداعيات لمسيرة إضراب النساء من أجل المساواة في 26 آب. الكثير من النساء، اللواتي كنّ خائفات في الماضي، انضممن إلى مسيرتنا في ذلك اليوم؛ أدركنا، نحن والعالم، فجأة إمكانيات القوة السياسية للنساء. اختبرت هذه القوة للمرة الأولى في صيف عام 1972 في ميامي، عندما لعبت النساء، لأول مرة، دورًا رئيسيًا في المؤتمرات السياسية. وعلى الرغم من أنه ربما كان من السهل السيطرة على قائدات المؤتمرات الحزبية غير المجرِّبات من قبل نيكسون أو ماك جوفيرن (McGovern)، أو اختراقهن من قبل عملاء ووترجيت، فقد أدخلن التغيير إلى المجال السياسي. فزن بالتزامات من الحزبين حول برامج

رعاية الطفل، قبل سن المدرسة وبعده. وقد بقيت شيرلي تشيشولم (Shirley Chisholm) في السباق إلى الفوز بترشيح الحزب الديمقراطي للرئاسة حتى النهاية. وأتنبأ أنه في عام 1976، سيكون حتى لدى الحزب الجمهوري مرشحة جدية لمنصب نائب الرئيس، إن لم يكن لمنصب الرئيس.

وهكذا، فمعظم برنامج المرحلة الأولى من ثورة الدور الجنسي -وهو يمثّل كيف أرى الآن حركة النساء من أجل المساواة- قد أنجز، أو هو قيد الحل. وافق الكونغرس على تعديل الحقوق المتساوية مع، بالكاد، همسة في كل مجلس بعد أن نظّمنا المؤتمر السياسي الوطني للنساء. انسحب المعارض الرئيسي للتعديل، إيمانويل سيللر، من الكونغرس على يد واحدة من الشابات الجديدات الكثيرات اللواتي يسعين هذه الأيام إلى وظائف حكومية، بدلًا من البحث في قوائم الرموز البريدية. وحكمت المحكمة العليا بأنه لا يمكن لأية ولاية أن تمنع امرأة من حقها في اختيار الولادة أو الإجهاض. وأقيمت أكثر من 1000 دعوى قضائية لإجبار الجامعات والشركات على القيام بفعل إيجابي لإنهاء التمييز الجنسي والشروط الأخرى التي تمنع النساء من الحصول على وظائف عليا. وأُمرت شركة الهاتف والبرق الأمريكية بدفع 15 مليون دولار تعويضات للنساء اللواتي لم يتقدمن، مجرّد تقديم، لأعمال أفضل من عمل عاملة المقسم من قبل، لأنّ تلك الأعمال لم تكن متاحة للنساء. هناك، في كل نقابة مهنية ومكتب جريدة ومحطة تلفزيونية وكنيسة وشركة ومستشفى ومدرسة في كل مدينة تقريبًا، مؤتمر نسائي أو مجموعة تتدخل في الشروط الملموسة التي تكبح النساء.

طُلب مني مؤخرًا أن أقود جلسات توعية للرجال الذين ينظّمون التدريب لموجهي المدارس في نيويورك ومينيسوتا ولقسيسين في ميسوري ولأكاديمية القوى الجوية في كولورادو وحتى لمصرفيي الاستثمار. (ونظّمت أيضًا شركة إدارة الأموال والصيرفة النسائية الأولى لمساعدة النساء في التحكّم بأموالهن واستخدام قوتهن الاقتصادية). قالت وزارة الخارجية بأنه لا يمكن طرد النساء

من العمل في الخارجية لمجرّد زواجهن، وأنه لا يمكن دعوة السكرتيرات إلى فنجان قهوة. وقد بدأت النساء بتغيير الممارسة الطبية ذاتها من خلال تأسيس عيادات للمساعدة الذاتية تمكّن النساء من تحمّل مسؤولية إيجابية تجاه أجسامهن. تطلب مني مؤتمرات التحليل النفسي، ونساء أخريات في الحركة، أن أساعدهم في تغيير تعريفهم للأنوثة والذكورة. ويجري ترسيم النساء قسيسات وحاخامات وشمّاسات، على الرغم من قول البابا بأنهن لا يستطعن تلاوة القدّاس. وتسأل الراهبات والخوارنة الذين يقع تمرّدهم المسكوني على الحافة الأمامية من ثورة الدور الجنسي: «هل الرب مذكّر؟».

لم تعد الحركة النسائية مجرّد إمكانية أمريكية. طُلب مني المساعدة في تنظيم مجموعات في إيطاليا والبرازيل والمكسيك وكولومبيا والسويد وفرنسا وإسرائيل واليابان والهند وحتى في تشيكوسلوفاكيا وبلدان اشتراكية أخرى. وآمل أننا في السنة القادمة سنعقد مؤتمرنا العالمي الأول للناشطات النسويات، ربما في السويد.

يشير مكتب الإحصاء السكاني في الولايات المتحدة إلى انخفاض حاد في معدل الولادة، وهو ما أعزوه إلى تطلّعات النساء الجديدة، بقدر ما أعزوه إلى حبوب منع الحمل. إنّ الحركة النسائية قوية بما يكفي الآن لتظهر للعلن الاختلافات الحقيقية في الأيديولوجية: أعتقد أن وجهة نظري عن ثورة الدور الجنسي ستظهر على أنها قناعة أولئك اللواتي في الحركة العامة، وستتبخّر زمرة كره الرجال، وقد مثّلت مرحلة مؤقتة أو مجرّد تحوّل مخطّط. سيكون من غير الواقعي، بالطبع، ألّا نتوقّع أن تحاول القوى التي هددتها الحركة النسائية تنظيم حركة ارتدادية، أو إثارتها؛ مثلما تفعل الآن في عدة ولايات لمنع التصديق على تعديل الحقوق المتساوية. فعلى سبيل المثال، أُعطيت النساء أسبوعًا إجازة من قبل أرباب العمل في أوهايو، ونقلن بالحافلات على طول حدود الولاية، واستُضفن في الموتيلات في محاولة للضغط على الهيئة التشريعية في كينتاكي لمنع

تعديل الحقوق المتساوية. لكني أتذكّر أنّ شركات المشروبات أنفقت ملايين الدولارات لمنع التصديق على حق النساء في التصويت في تينيسي منذ خمسين سنة. واليوم من يموّل حملة إيقاف الفصل الأخير من الحركة النسائية من أجل المساواة؟ ليست مؤامرة من الرجال لكبح النساء؛ بل هي مؤامرة من قبل أولئك الذين تقوم سلطتهم أو ربحهم على التلاعب بمخاوف النساء السلبيات وغيظهن الضعيف. ستغيّر النساء -آخر وأكبر مجموعة من الناس في هذا البلد تطالب بالسيطرة على مصيرها الخاص- طبيعة السلطة السياسية ذاتها في هذا البلد.

لقد غيّرت الحركة النسائية في العقد الأخير، منذ صدور كتاب اللغز الأنثوي، حياتي كلها، أيضًا، على نحو لا يقل قوة أو بهجة عن حياة النساء الأخريات اللواتي يتوقفن ليحكين لي عن أنفسهن. لم أستطع الاستمرار في عيش حياتي الفُصامية: أقود النساء الأخريات إلى الخروج من البريّة، فيما أتمسّك بزواج دمّر احترامي لذاتي. وجدت أخيرًا الشجاعة للحصول على طلاق في أيار/ مايو 1969. أنا أقلّ وحدةً الآن من أي وقت مضى، حين كنت متمسكة بالأمان الزائف لزواجي. أعتقد أن القضية الكبيرة التالية للحركة النسائية هي الإصلاح الأساسي للزواج والطلاق.

ما زالت حياتي تتغير، مع ذهاب إميلي إلى جامعة رادكليف هذا الخريف، وحصول دانييل على الدكتوراه من جامعة برينستون، واستكشاف جوناثان طرق جديدة خاصة به. أنهيت للتو مهمتي الأولى أستاذة زائرة في علم الاجتماع في جامعة تيمبل، وكتبت عمودي غير المراقب لمجلة **ماك كول**. وانتقلت إلى برج ساحر بهيج في نيويورك بسماء مفتوحة ونهر وجسور نحو المستقبل تحيط بي من كل جانب. أسّست مجموعة من البالغين في يوم العطلة الأسبوعية ممن لم يسر الزواج معهم على ما يرام؛ عائلة ممتدة من اختيارهم، ينتقل أفرادها الآن إلى أنواع جديدة من الزواج.

كلما ازددتُ قربًا من حقيقتي -وكلما زادت القوة والدعم والحب الذي نجحت، على نحو ما، في أخذه من النساء الأخريات في الحركة، ومنحه لهن- صار شعوري بحب الرجل أكثر حقيقيةً وبهجة. رأيت راحةً كبيرة لدى النساء هذه السنة فيما كنت أوضح حقيقتي الشخصية: وهي أنّ اتخاذ هويتك الشخصية ومساواتك، وحتى قوتك السياسية، لا يعني أن تتوقفي عن الحاجة إلى أن تحبي رجلًا، ويحبك، أو أن تتوقفي عن الاهتمام بأطفالك. كنت سأفقد إحساسي تجاه الحركة النسائية لو لم أكن قادرة، في النهاية، على الاعتراف بالحنان.

ملاحظة لغزية: كنت أخاف جدًا من السفر بالطائرة. وبعد أن كتبت **اللغز الأنثوي**، زال الخوف؛ أسافر الآن في طائرات نفاثة عبر المحيط وفي طائرات تاكسي بمحرّك واحد في هضاب فيرجينيا الغربية. أخمّن أنكِ، وجوديًا، عندما تبدئين بعيش حياتك حقًا، وتقومين بعملك، وتحبّين، لا تعودين خائفة من الموت. أحيانًا، عندما أدرك كم أسافر في الطائرة، أفكّر أن من الممكن أن أموت في حادث تحطّم طائرة. ولكن ليس قبل مرور مدة طويلة، كما آمل، لأن أجزاء حياتي كامرأة مع الرجل تجتمع معًا في نمط جديد من الجنس الإنساني والسياسة الإنسانية. أستطيع الآن أن أكتب ذلك الكتاب الجديد.

أعتقد أنّ الطاقة المحبوسة في تلك الأدوار المؤنثة والمذكرة المهجورة هي المكافئ الاجتماعي للطاقة الفيزيائية المحبوسة في حقل ($E=MC^2$)[1]؛ القوّة التي أطلقت محرقة هيروشيما. أعتقد أن الطاقات الجنسية المحبوسة قد ساعدت، أكثر مما يدرك أي شخص، في إثارة العنف المريع المندلع في البلد والعالم خلال السنوات العشر الماضية. إذا كنت على حق، فإن

(1) معادلة شهيرة وضعها آينشتاين، وتعبر عن نظريته بأن الطاقة والمادة متكافئتان وأن سرعة الضوء ثابتة.

ثورة الدور الجنسي ستحرّر تلك الطاقات من خدمة الموت وستجعل من الممكن فعلًا للرجال والنساء أن «يصنعوا الحب، وليس الحرب»[1].

(1) Make love, not war: شعار أساسي من شعارات الحركة الهيبية في الستينيات - المترجم.

الجداول

الجدول 1: فترة الولادة مقابل نسبة المضاجعة الزوجية المؤدية إلى الرعشة الجنسية

في السنة الأولى من الزواج، النسبة المئوية من الإناث				
	فترة الولادة			
النسبة المئوية للمضاجعة الزوجية المؤدية إلى الرعشة الجنسية	قبل 1900	1900 - 1909	1910 - 1919	1920 - 1929
لا يوجد	33	27	23	22
1 - 29	9	13	12	8
30 - 59	10	22	15	12
60 - 89	11	11	12	15
90 - 100	37	37	38	43
عدد الحالات	331	589	834	484

الجدول 2: قارن مع الجدول 1

في السنة الخامسة من الزواج، النسبة المئوية من الإناث				
	فترة الولادة			
النسبة المئوية للمضاجعة الزوجية المؤدية إلى الرعشة الجنسية	قبل 1900	1900 - 1909	1910 - 1919	1920 - 1929
لا يوجد	23	17	12	12
1 - 29	14	15	13	14
30 - 59	14	13	16	19
60 - 89	12	13	17	19
90 - 100	37	42	42	36
عدد الحالات	302	489	528	130

الجدول 3: درجات التكيف الزوجي عند مستويات تعليمية مختلفة

مستوى المرأة التعليمي	درجات التكيُّف الزوجي			
	منخفض جدًا	منخفض	متوسط	عالٍ
ما بعد جامعي	صفر	4.6	38.7	56.5
جامعي	9.2	18.9	22.9	48.9
مدرسة ثانوية	14.4	16.3	32.2	37.1
ابتدائية فقط	33.3	25.9	25.9	14.8

الفهرس


مكتبة
التنوير

اللغز الأنثوي

بيتي فريدان

The Feminine Mystique

Betty Friedan

شكل كتاب «اللغز الأنثوي» لبيتي فريدان علامةً فارقة في أدبيات الحركة النسوية العالمية. وقد جاءت الفكرة الأولى للكتاب من استبيان أجرته الكاتبة على زميلاتها في الدراسة بهدف معرفة مصيرهن بعد الدراسة. وقادها هذا الاستبيان إلى بحث دام خمس سنوات، اكتشفت من خلاله سر مأساة المرأة في الولايات المتحدة الأمريكية.

فبعد النهضة النسوية التي شهدتها أمريكا، بداية القرن العشرين، بتأثير الحركات النسوية النشيطة، حصلت انتكاسة في المجتمع الأمريكي، وبدأت الحضارة الأمريكية تنحو نحو رسم صورة مشوهة للمرأة الأمريكية، صورة امرأة تقنع نفسها أن تحقيق ذاتها يتم من خلال تحولها إلى ربة منزل ناجحة، تعتني بزوج ناجح وبيت مرتب أنيق وأولاد مميزين. قادت تلك الصورة إلى تحول الأمريكيات إلى ذوات ناقصة، يعانين من علل نفسية لم يستطع الأطباء النفسيين تشخيصها وعلاجها، وذلك ما أطلقت عليه بيتي فريدان اسم اللغز الأنثوي. وتصف بيتي فريدان كتابها بالقول:

«لكن هذا لم يكن مجرّد عمل تجريدي وخيالي. كان يعني أنني، وكل امرأة أخرى عرفتها، كنا نعيش كذبة، وكان كل الأطباء الذين عالجونا والخبراء الذين درسونا يرتكبون الكذبة ذاتها، وقد بنيت منازلنا ومدارسنا وكنائسنا وسياستنا ومهننا حول تلك الكذبة. لو كانت النساء أشخاصًا فعلًا، لا أكثر ولا أقل، لكان يجب أن يتغير كل ما منعهن من أن يكُنّ أشخاصًا كاملين في مجتمعنا. والنساء، عندما يخترقن اللغز الأنثوي ويأخذن أنفسهن بجدية كأشخاص، سيرين مكانتهن قائمة على قاعدة زائفة، حتى تمجيدهن بوصفهن مواضيع جنسية، نتيجة ما كان يمثله من انتقاص».


ISBN 978-9933-9145-0-9
9 789933 914509





الرحبة للنشر والتوزيع
Al Rahba Publishing House